## سـلـســلـة تـفـسـيـر الـقـرآن

**۱۷**

**محمّد الطّاهر بن عاشور**

**تفْسير التّحْرير والتّنْوير**

**تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**

**الجزء الثّاني**

## تدقيق

**أسعد جمعة**

**دار كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع**

**2024**

**النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع**

**العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 - المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة**

**الهاتف: 71886914 216+**

**الفاكس: 71886872 216+**

**العنوان الالكتروني:** [**JomaaAssaad@yahoo.fr**](mailto:JomaaAssaad@yahoo.fr)

**معرّف النّاشر: 02-9938**

**عدد الطّبعة: الأولى**

**ت د م ك: 6-070-02-9938-978**

**© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع**

**محمّد الطّاهر بن عاشور**

**تفْسير التّحْرير والتّنْوير**

**تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**

**الجزء الثّاني**

**سورة البَقَرَة**

**بسم الله الرّحمن الرّحيم**

**سُورَة البَقَرَة**

**كَذَا سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ: سُورَةَ الْبَقَرَةِ فِي الْمَرْوِيِّ عَنِ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمَا جَرَى فِي كَلَامِ السَّلَفِ، فَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيءَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ**[**مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ كَفَتَاهُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=28&idto=28&bk_no=61&ID=33#docu)**وَفِيهِ**[**عَنْ عَائِشَةَ لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ فِي الرِّبَا قَرَأَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَحَرَّمَ التِّجَارَةَ فِي الْخَمْرِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=28&idto=28&bk_no=61&ID=33#docu)**.**

**وَوَجْهُ تَسْمِيَتِهَا أَنَّهَا ذُكِرَتْ فِيهَا قِصَّةُ الْبَقَرَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِذَبْحِهَا لِتَكُونَ آيَةً وَوَصَفَ سُوءَ فَهْمِهِمْ لِذَلِكَ، وَهِيَ مِمَّا انْفَرَدَتْ بِهِ هَذِهِ السُّورَةُ بِذِكْرِهِ، وَعِنْدِي أَنَّهَا أُضِيفَتْ إِلَى قِصَّةِ الْبَقَرَةِ تَمْيِيزًا لَهَا عَنِ السُّورِ ال، الم، مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا رُبَّمَا جَعَلُوا تِلْكَ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ أَسْمَاءً لِلسُّوَرِ الْوَاقِعَةِ هِيَ فِيهَا وَعَرَّفُوهَا بِهَا نَحْوَ: طه، ويس، وص، وَفِي الِاتِّفَاقِ عَنِ الْمُسْتَدْرَكِ أَنَّ النَّبِيءَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:**[**إِنَّهَا سَنَامُ الْقُرْآنِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=28&idto=28&bk_no=61&ID=33#docu)**، وَسَنَامُ كُلِّ شَيْءٍ أَعْلَاهُ وَهَذَا لَيْسَ عَلَمًا لَهَا وَلَكِنَّهُ وَصْفُ تَشْرِيفٍ.**

**وَكَذَلِكَ قَوْلُ**[**خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15802)**إِنَّهَا فُسْطَاطُ الْقُرْآنِ وَالْفُسْطَاطُ مَا يُحِيطُ بِالْمَكَانِ لِإِحَاطَتِهَا بِأَحْكَامٍ كَثِيرَةٍ.**

**نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ بِالْمَدِينَةِ بِالِاتِّفَاقِ وَهِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي الْمَدِينَةِ وَحَكَى ابْنُ حَجَرٍ فِي شَرْحِ**[**الْبُخَارِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12070)**الِاتِّفَاقَ عَلَيْهِ، وَقِيلَ: نَزَلَتْ سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ قَبْلَهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ سُورَةَ الْمُطَفِّفِينَ مَدَنِيَّةٌ، وَلَا شَكَّ أَنَّ سُورَةَ الْبَقَرَةِ فِيهَا فَرْضُ الصِّيَامِ، وَالصِّيَامُ فُرِضَ فِي السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْهِجْرَةِ، فُرِضَ فِيهَا صَوْمُ عَاشُورَاءَ ثُمَّ فُرِضَ صِيَامُ رَمَضَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِأَنَّ النَّبِيءَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَامَ سَبْعَ رَمَضَانَاتٍ أَوَّلُهَا رَمَضَانُ مِنَ الْعَامِ الثَّانِي مِنَ الْهِجْرَةِ. فَتَكُونُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ نَزَلَتْ فِي السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْهِجْرَةِ فِي أَوَاخِرِهَا أَوْ فِي الثَّانِيَةِ.**

**وَفِي**[**الْبُخَارِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12070)[**عَنْ عَائِشَةَ مَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ تَعْنِي النَّبِيءَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=28&idto=28&bk_no=61&ID=33#docu)**- وَكَانَ بِنَاءُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى عَائِشَةَ فِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الْأُولَى لِلْهِجْرَةِ. وَقِيلَ: فِي أَوَّلِ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ.**

**وَقَدْ رُوِيَ عَنْهَا أَنَّهَا مَكَثَتْ عِنْدَهُ تِسْعَ سِنِينَ، فَتُوُفِّيَ وَهِيَ بِنْتُ ثَمَانِ عَشْرَةَ سَنَة،ً وَبَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ، إِلَّا أَنَّ اشْتِمَالَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَلَى أَحْكَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَعَلَى أَحْكَامِ الْقِتَالِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْبَلَدِ الْحَرَامِ يُنْبِئُ بِأَنَّهَا اسْتَمَرَّ نُزُولُهَا إِلَى سَنَةِ خَمْسٍ وَسَنَةِ سِتٍّ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ عِنْدَ آيَةِ: ﴿**[**فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾[[1]](#footnote-1)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=28&idto=28&bk_no=61&ID=33#docu)**وَقَدْ يَكُونُ مُمْتَدًّا إِلَى مَا بَعْدَ سَنَةِ ثَمَانٍ، كَمَا يَقْتَضِيهِ قَوْلُهُ: ﴿**[**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾[[2]](#footnote-2)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=28&idto=28&bk_no=61&ID=33#docu)**الْآيَاتِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**لِمَنِ اتَّقَى﴾[[3]](#footnote-3)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=28&idto=28&bk_no=61&ID=33#docu)**عَلَى أَنَّهُ قَدْ قِيلَ إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿**[**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[[4]](#footnote-4)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=28&idto=28&bk_no=61&ID=33#docu)**الْآيَةَ هُوَ آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي الْمُقَدِّمَةِ الثَّامِنَةِ أَنَّهُ قَدْ يَسْتَمِرُّ نُزُولُ السُّورَةِ، فَتَنْزِلُ فِي أَثْنَاءِ مُدَّةِ نُزُولِهَا سُوَرٌ أُخْرَى.**

**وَقَدْ عُدَّتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ السَّابِعَةَ وَالثَّمَانِينَ فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ وَقَبْلَ آلِ عِمْرَانَ.**

**وَإِذْ قَدْ كَانَ نُزُولُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي أَوَّلِ عَهْدٍ بِإِقَامَةِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَاسْتِقْلَالِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِمَدِينَتِهِمْ كَانَ مِنْ أَوَّلِ أَغْرَاضِ هَذِهِ السُّورَةِ تَصْفِيَةُ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ أَنْ تَخْتَلِطَ بِعَنَاصِرَ مُفْسِدَةٍ لِمَا أَقَامَ اللَّهُ لَهَا مِنَ الصَّلَاحِ سَعْيًا لِتَكْوِينِ الْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ النَّقِيَّةِ مِنْ شَوَائِبِ الدَّجَلِ وَالدَّخَلِ.**

**وَإِذْ كَانَتْ أَوَّلَ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ فَقَدْ عُنِيَ بِهَا الْأَنْصَارُ وَأَكَبُّوا عَلَى حِفْظِهَا، يَدُلُّ لِذَلِكَ مَا جَاءَ فِي السِّيرَةِ أَنَّهُ**[**لَمَّا انْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ النَّبِيءُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْعَبَّاسِ اصْرُخْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ يَا أَهْلَ السَّمُرَةِ يَعْنِي شَجَرَةَ الْبَيْعَةِ فِي الْحُدَيْبِيَةِ يَا أَهْلَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فَقَالَ الْأَنْصَارُ: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=28&idto=28&bk_no=61&ID=33#docu)**.**

**وَفِي الْمُوَطَّأِ قَالَ مَالِكٌ إِنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ مَكَثَ عَلَى سُورَةِ الْبَقَرَةِ ثَمَانِيَ سِنِينَ يَتَعَلَّمُهَا، وَفِي صَحِيحِ**[**الْبُخَارِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12070)**: كَانَ نَصْرَانِيٌّ أَسْلَمَ فَقَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ وَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثُمَّ ارْتَدَّ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ.**

**وَعَدَدُ آيِهَا مِائَتَانِ وَخَمْسٌ وَثَمَانُونَ آيَةً عِنْدَ أَهْلِ الْعَدَدِ بِالْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالشَّامِ، وَسِتٌّ وَثَمَانُونَ عِنْدَ أَهْلِ الْعَدَدِ بِالْكُوفَةِ، وَسَبْعٌ وَثَمَانُونَ عِنْدَ أَهْلِ الْعَدَدِ بِالْبَصْرَةِ.**

**هَذِهِ السُّورَةُ مُتَرَامِيَةٌ أَطْرَافُهَا، وَأَسَالِيبُهَا ذَاتُ أَفْنَانٍ. قَدْ جَمَعَتْ مِنْ وَشَائِجِ أَغْرَاضِ السُّوَرِ مَا كَانَ مِصْدَاقًا لِتَلْقِيبِهَا فُسْطَاطَ الْقُرْآنِ. فَلَا تَسْتَطِيعُ إِحْصَاءَ مُحْتَوَيَاتِهَا بِحُسْبَانٍ، وَعَلَى النَّاظِرِ أَنْ يَتَرَقَّبَ تَفَاصِيلَ مِنْهَا فِيمَا يَأْتِي لَنَا مِنْ تَفْسِيرِهَا، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يُحْجِمُ بِنَا عَنِ التَّعَرُّضِ إِلَى لَائِحَاتٍ مِنْهَا، وَقَدْ حِيكَتْ بِنَسْجِ الْمُنَاسَبَاتِ وَالِاعْتِبَارَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ مِنْ لُحْمَةٍ مُحْكَمَةٍ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ، وَسُدًى مَتِينٍ مِنْ فَصَاحَةِ الْكَلِمَاتِ.**

**وَمُعْظَمُ أَغْرَاضِهَا يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ يُثْبِتُ سُمُوَّ هَذَا الدِّينِ عَلَى مَا سَبَقَهُ وَعُلُوَّ هَدْيِهِ وَأُصُولَ تَطْهِيرِهِ النُّفُوسَ، وَقِسْمٌ يُبَيِّنُ شَرَائِعَ هَذَا الدِّينِ لِأَتْبَاعِهِ وَإِصْلَاحِ مُجْتَمَعِهِمْ.**

**وَكَانَ أُسْلُوبُهَا أَحْسَنَ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ أُسْلُوبٌ جَامِعٌ لِمَحَاسِنِ الْأَسَالِيبِ الْخِطَابِيَّةِ، وَأَسَالِيبِ الْكُتُبِ التَّشْرِيعِيَّةِ، وَأَسَالِيبِ التَّذْكِيرِ وَالْمَوْعِظَةِ، يَتَجَدَّدُ بِمِثْلِهِ نَشَاطُ السَّامِعِينَ بِتَفَنُّنِ الْأَفَانِينِ، وَيَحْضُرُ لَنَا مِنْ أَغْرَاضِهَا أَنَّهَا ابْتُدِئَتْ بِالرَّمْزِ إِلَى تَحَدِّي الْعَرَبِ الْمُعَانِدِينَ تَحَدِّيًا إِجْمَالِيًّا بِحُرُوفِ التَّهَجِّي الْمُفْتَتَحِ بِهَا رَمْزًا يَقْتَضِي اسْتِشْرَافَهُمْ لِمَا يَرِدُ بَعْدَهُ وَانْتِظَارَهُمْ لِبَيَانِ مَقْصِدِهِ، فَأَعْقَبَ بِالتَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ فَتَحَوَّلَ الرَّمْزُ إِيمَاءً إِلَى بَعْضِ الْمَقْصُودِ مِنْ ذَلِكَ الرَّمْزِ لَهُ أَشَدُّ وَقْعٍ عَلَى نُفُوسِهِمْ فَتَبْقَى فِي انْتِظَارِ مَا يَتَعَقَّبُهُ مِنْ صَرِيحِ التَّعْجِيزِ الَّذِي سَيَأْتِي بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[[5]](#footnote-5)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**الْآيَاتِ.**

**فَعَدَلَ بِهِمْ إِلَى ذَاتِ جِهَةِ التَّنْوِيهِ بِفَائِقِ صِدْقِ هَذَا الْكِتَابِ وَهَدْيِهِ، وَتَخَلَّصَ إِلَى تَصْنِيفِ النَّاسِ تُجَاهَ تَلَقِّيهِمْ هَذَا الْكِتَابِ وَانْتِفَاعِهِمْ بِهَدْيِهِ أَصْنَافًا أَرْبَعَةً (وَكَانُوا قَبْلَ الْهِجْرَةِ صِنْفَيْنِ) بِحَسَبِ اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ فِي ذَلِكَ التَّلَقِّي.**

**وَإِذْ قَدْ كَانَ أَخَصُّ الْأَصْنَافِ انْتِفَاعًا بِهَدْيِهِ هُمُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْغَيْبِ الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ ابْتُدِئَ بِذِكْرِهِمْ، وَلَمَّا كَانَ أَشَدُّ الْأَصْنَافِ عِنَادًا وَحِقْدًا صِنْفَا الْمُشْرِكِينَ الصُّرَحَاءِ وَالْمُنَافِقِينَ لُفَّ الْفَرِيقَانِ لَفًّا وَاحِدًا فَقُورِعُوا بِالْحُجَجِ الدَّامِغَةِ وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ، ثُمَّ خَصَّ بِالْإِطْنَابِ صِنْفَ أَهْلِ النِّفَاقِ تَشْوِيهًا لِنِفَاقِهِمْ وَإِعْلَانًا لِدَخَائِلِهِمْ وَرَدِّ مَطَاعِنِهِمْ، ثُمَّ كَانَ خَاتِمَةُ مَا قُرِعَتْ بِهِ أُنُوفُهُمْ صَرِيحَ التَّحَدِّي الَّذِي رَمَزَ إِلَيْهِ بَدْءًا تَحَدِّيًا يُلْجِئُهُمْ إِلَى الِاسْتِكَانَةِ. وَيُخْرِسُ أَلْسِنَتَهُمْ عَنِ التَّطَاوُلِ وَالْإِبَانَةِ، وَيُلْقِي فِي قَرَارَاتِ أَنْفُسِهِمْ مَذَلَّةَ الْهَزِيمَةِ وَصِدْقَ الرَّسُولِ الَّذِي تَحَدَّاهُمْ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ رَدِّ الْعَجُزِ عَلَى الصَّدْرِ فَاتَّسَعَ الْمَجَالُ لِدَعْوَةِ الْمُنْصِفِينَ إِلَى عِبَادَةِ الرَّبِّ الْحَقِّ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا.**

**وَتَخَلَّصَ إِلَى صِفَةِ بَدْءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَذْكِيرًا لَهُمْ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ قَبْلَ أَنْ تُوجَدَ أَصْنَامُهُمُ الَّتِي يَزْعُمُونَهَا مِنْ صَالِحِي قَوْمِ نُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَمِنَّةً عَلَى النَّوْعِ بِتَفْضِيلِ أَصْلِهِمْ عَلَى مَخْلُوقَاتِ هَذَا الْعَالَمِ، وَبِمَزِيَّتِهِ بِعِلْمِ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ أَهْلُ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَكَيْفَ نَشَأَتْ عَدَاوَةُ الشَّيْطَانِ لَهُ وَلِنَسْلِهِ، لِتَهْيِئَةِ نُفُوسِ السَّامِعِينَ، لِاتِّهَامِ شَهَوَاتِهَا وَلِمُحَاسَبَتِهَا عَلَى دَعَوَاتِهَا.**

**فَهَذِهِ الْمِنَّةُ الَّتِي شَمِلَتْ كُلَّ الْأَصْنَافِ الْأَرْبَعَةِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا كَانَتْ مُنَاسِبَةً لِلتَّخَلُّصِ إِلَى مِنَّةٍ عُظْمَى تَخُصُّ الْفَرِيقَ الرَّابِعَ، وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ هُمْ أَشَدُّ النَّاسِ مُقَاوَمَةً لِهُدَى الْقُرْآنِ، وَأَنْفَذُ الْفِرَقِ قَوْلًا فِي عَامَّةِ الْعَرَبِ لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَوْمَئِذٍ هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ وَمَظِنَّةُ اقْتِدَاءِ الْعَامَّةِ لَهُمْ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**[**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾[[6]](#footnote-6)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**الْآيَاتِ، فَأَطْنَبَ فِي تَذْكِيرِهِمْ بِنِعَمِ اللَّهِ وَأَيَّامِهِ لَهُمْ، وَوَصَفَ مَا لَاقَوْا بِهِ نِعَمَهُ الْجَمَّةَ مِنَ الِانْحِرَافِ عَنِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ انْحِرَافًا بَلَغَ بِهِمْ حَدَّ الْكُفْرِ، وَذَلِكَ جَامِعٌ لِخُلَاصَةِ تَكْوِينِ أُمَّةِ إِسْرَائِيلَ وَجَامِعَتُهُمْ فِي عَهْدِ مُوسَى.**

**ثُمَّ مَا كَانَ مِنْ أَهَمِّ أَحْدَاثِهِمْ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ قَفَوْا مُوسَى إِلَى أَنْ تَلَقَّوْا دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ بِالْحَسَدِ وَالْعَدَاوَةِ حَتَّى عَلَى الْمَلَكِ جِبْرِيلَ، وَبَيَانِ أَخْطَائِهِمْ، لِأَنَّ ذَلِكَ يُلْقِي فِي النُّفُوسِ شَكًّا فِي تَأَهُّلِهِمْ لِلِاقْتِدَاءِ بِهِمْ.**

**وَذَكَرَ مِنْ ذَلِكَ نَمُوذَجًا مِنْ أَخْلَاقِهِمْ مِنْ تَعَلُّقِ الْحَيَاةِ ﴿**[**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾[[7]](#footnote-7)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**وَمُحَاوَلَةُ الْعَمَلِ بِالسِّحْرِ ﴿**[**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾[[8]](#footnote-8)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**إِلَخْ، وَأَذَى النَّبِيءِ بِمُوَجَّهِ الْكَلَامِ ﴿**[**لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾[[9]](#footnote-9).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)

**ثُمَّ قُرِنَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكُونَ فِي قَرْنِ حَسَدِهِمُ الْمُسْلِمِينَ وَالسُّخْطِ عَلَى الشَّرِيعَةِ الْجَدِيدَةِ: ﴿**[**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾[[10]](#footnote-10)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**﴾[[11]](#footnote-11)، ثُمَّ مَا أُثِيرَ مِنَ الْخِلَافِ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَادِّعَاءُ كُلِّ فَرِيقٍ أَنَّهُ هُوَ الْمُحِقُّ ﴿**[**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾[[12]](#footnote-12)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**إِلَى يَخْتَلِفُونَ ثُمَّ خُصَّ الْمُشْرِكُونَ بِأَنَّهُمْ أَظْلَمُ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ لِأَنَّهُمْ مَنَعُوا الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَسَعَوْا بِذَلِكَ فِي خَرَابِهِ وَأَنَّهُمْ تَشَابَهُوا فِي ذَلِكَ هُمْ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَاتَّحَدُوا فِي كَرَاهِيَةِ الْإِسْلَامِ.**

**وَانْتَقَلَ بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ إِلَى فَضَائِلِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَبَانِيهِ، وَدَعْوَتِهِ لِذُرِّيَّتِهِ بِالْهُدَى وَالِاحْتِرَازِ عَنْ إِجَابَتِهَا فِي الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ عَلَى أَسَاسِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ التَّوْحِيدُ، وَأَنَّ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ لَيْسَتَا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، وَأَنَّ مِنْ ذَلِكَ الرُّجُوعَ إِلَى اسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ ادَّخَرَهُ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ آيَةً عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الْقَائِمُ عَلَى أَسَاسِ الْحَنِيفِيَّةِ، وَذِكْرِ شَعَائِرِ اللَّهِ بِمَكَّةَ، وَإِبْكَاتِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي طَعْنِهِمْ عَلَى تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ، وَأَنَّ الْعِنَايَةَ بِتَزْكِيَةِ النُّفُوسِ أَجْدَرُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِاسْتِقْبَالِ الْجِهَاتِ ﴿**[**لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾[[13]](#footnote-13)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**وَذُكِّرُوا بِنَسْخِ الشَّرَائِعِ لِصَلَاحِ الْأُمَمِ، وَأَنَّهُ لَا بِدَعَ فِي نَسْخِ شَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ أَوِ الْإِنْجِيلِ بِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمَا.**

**ثُمَّ عَادَ إِلَى مُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ بِالِاسْتِدْلَالِ بِآثَارِ صَنْعَةِ اللَّهِ ﴿**[**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ﴾[[14]](#footnote-14)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**إِلَخْ، وَمُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ فِي يَوْمٍ يَتَبَرَّءُونَ فِيهِ مِنْ قَادَتِهِمْ، وَإِبْطَالِ مَزَاعِمِ دِينِ الْفَرِيقَيْنِ فِي مُحَرَّمَاتٍ مِنَ الْأَكْلِ ﴿**[**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**﴾[[15]](#footnote-15)، وَقَدْ كَمَّلَ ذَلِكَ بِذِكْرِ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ قَلِيلٍ، وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ لَمْ يُظْهِرُوا الْإِسْلَامَ وَلَكِنَّهُمْ أَظْهَرُوا مَوَدَّةَ الْمُسْلِمِينَ ﴿**[**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[[16]](#footnote-16).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)

**وَلَمَّا قَضَى حَقَّ ذَلِكَ كُلِّهِ بِأَبْدَعِ بَيَانٍ وَأَوْضَحِ بُرْهَانٍ، انْتَقَلَ إِلَى قِسْمِ تَشْرِيعَاتِ الْإِسْلَامِ إِجْمَالًا بِقَوْلِهِ: ﴿**[**لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾[[17]](#footnote-17)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**ثُمَّ تَفْصِيلًا: الْقِصَاصُ، الْوَصِيَّةُ، الصِّيَامُ، الِاعْتِكَافُ، الْحَجُّ، الْجِهَادُ، وَنِظَامُ الْمُعَاشَرَةِ وَالْعَائِلَةُ، الْمُعَامَلَاتُ الْمَالِيَّةُ، وَالْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالصَّدَقَاتُ، وَالْمُسْكِرَاتُ، وَالْيَتَامَى، وَالْمَوَارِيثُ، وَالْبُيُوعُ وَالرِّبَا، وَالدُّيُونُ، وَالْإِشْهَادُ، وَالرَّهْنُ، وَالنِّكَاحُ، وَأَحْكَامُ النِّسَاءِ، وَالْعِدَّةُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّضَاعُ، وَالنَّفَقَاتُ، وَالْأَيْمَانُ.**

**وَخُتِمَتِ السُّورَةُ بِالدُّعَاءِ الْمُتَضَمِّنِ لِخَصَائِصِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَذَلِكَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ فَكَانَ هَذَا الْخِتَامُ تَذْيِيلًا وَفَذْلَكَةً ﴿**[**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾[[18]](#footnote-18)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**الْآيَاتِ.**

**وَكَانَتْ فِي خِلَالِ ذَلِكَ كُلِّهِ أَغْرَاضٌ شَتَّى سَبَقَتْ فِي مَعْرِضِ الِاسْتِطْرَادِ فِي مُتَفَرِّقِ الْمُنَاسَبَاتِ تَجْدِيدًا لِنَشَاطِ الْقَارِئِ وَالسَّامِعِ، كَمَا يُسْفِرُ وَجْهُ الشَّمْسِ إِثْرَ نُزُولِ الْغُيُوثِ الْهَوَامِعِ، وَتَخْرُجُ بَوَادِرُ الزَّهْرِ عَقِبَ الرُّعُودِ الْقَوَارِعِ، مِنْ تَمْجِيدِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ ﴿**[**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[[19]](#footnote-19)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**وَرَحْمَتِهِ وَسَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ، وَضَرْبِ أَمْثَالٍ أَوْ كَصَيِّبٍ وَاسْتِحْضَارِ نَظَائِرَ ﴿**[**وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)[**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾[[20]](#footnote-20)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**وَعِلْمٍ وَحِكْمَةٍ، وَمَعَانِي الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَتَثْبِيتِ الْمُسْلِمِينَ: ﴿**[**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾[[21]](#footnote-21)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**وَالْكَمَالَاتِ الْأَصْلِيَّةِ، وَالْمَزَايَا التَّحْسِينِيَّةِ، وَأَخْذِ الْأَعْمَالِ وَالْمَعَانِي مِنْ حَقَائِقِهَا وَفَوَائِدِهَا لَا مِنْ هَيْئَاتِهَا، وَعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِالْمُصْطَلَحَاتِ إِذَا لَمْ تَرْمِ إِلَى غَايَاتٍ: ﴿**[**وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)[**وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾[[22]](#footnote-22)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=28#docu)**وَالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ، وَنِظَامِ الْمُحَاجَّةِ، وَأَخْبَارِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالرُّسُلِ وَتَفَاضُلِهِمْ، وَاخْتِلَافِ الشَّرَائِعِ.**

**﴿**[**الم﴾[[23]](#footnote-23)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)

**تَحَيَّرَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَحَلِّ هَاتِهِ الْحُرُوفِ الْوَاقِعَةِ فِي أَوَّلٍ هَاتِهِ السُّوَرِ، وَفِي فَوَاتِحِ سُوَرٍ أُخْرَى عِدَّةٍ جَمِيعُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ سُورَةً وَمُعْظَمُهَا فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ، وَكَانَ بَعْضُهَا فِي ثَانِي سُورَةٍ نَزَلَتْ وَهِيَ ن وَالْقَلَمِ، وَأَخْلِقْ بِهَا أَنْ تَكُونَ مَثَارَ حَيْرَةٍ وَمَصْدَرَ أَقْوَالٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَأَبْحَاثٍ كَثِيرَةٍ، وَمَجْمُوعُ مَا وَقَعَ مِنْ حُرُوفِ الْهِجَاءِ أَوَائِلُ السُّوَرِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ حَرْفًا وَهِيَ نِصْفُ حُرُوفِ الْهِجَاءِ وَأَكْثَرُ السُّوَرِ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا هَذِهِ الْحُرُوفُ: السُّوَرُ الْمَكِّيَّةُ عَدَا الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، وَالْحُرُوفُ الْوَاقِعَةُ فِي السُّوَرِ هِيَ: ا، ح، ر، س، ص، ط، ع، ق، ك، ل، م، ن، هـ، ي، بَعْضُهَا تَكَرَّرَ فِي سُوَرٍ وَبَعْضُهَا لَمْ يَتَكَرَّرْ وَهِيَ مِنَ الْقُرْآنِ لَا مَحَالَةَ وَمِنَ الْمُتَشَابِهِ فِي تَأْوِيلِهَا.**

**وَلَا خِلَافَ أَنَّ هَاتِهِ الْفَوَاتِحَ حِينَ يَنْطِقُ بِهَا الْقَارِئُ أَسْمَاءُ الْحُرُوفِ التَّهَجِّي الَّتِي يُنْطَقُ فِي الْكَلَامِ بِمُسَمَّيَاتِهَا وَأَنَّ مُسَمَّيَاتِهَا الْأَصْوَاتُ الْمُكَيَّفَةُ بِكَيْفِيَّاتٍ خَاصَّةٍ تَحْصُلُ فِي مَخَارِجِ الْحُرُوفِ وَلِذَلِكَ إِنَّمَا يَقُولُ الْقَارِئُ (أَلِفْ لَامْ مِيمْ) مَثَلًا وَلَا يَقُولُ (أَلَمَ) وَإِنَّمَا كَتَبُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ بِصُوَرِ الْحُرُوفِ الَّتِي يُتَهَجَّى بِهَا فِي الْكَلَامِ الَّتِي يَقُومُ رَسْمُ شَكْلِهَا مَقَامَ الْمَنْطُوقِ بِهِ فِي الْكَلَامِ وَلَمْ يَكْتُبُوهَا بِدَوَالِّ مَا يَقْرَءُونَهَا بِهِ فِي الْقُرْآنِ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ التَّهَجِّي بِهَا وَحُرُوفُ التَّهَجِّي تُكْتَبُ بِصُوَرِهَا لَا بِأَسْمَائِهَا.**

**وَقِيلَ: لِأَنَّ رَسْمَ الْمُصْحَفِ سُنَّةٌ لَا يُقَاسُ عَلَيْهِ وَهَذَا أَوْلَى إِنَّهُ لَأَشْمَلُ لِلْأَقْوَالِ الْمُنْدَرِجَةِ تَحْتَهَا، وَإِلَى هُنَا خَلُصَ أَنَّ الْأَرْجَحَ مِنْ تِلْكَ الْأَقْوَالِ ثَلَاثَةٌ وَهِيَ كَوْنُهَا - تِلْكَ الْحُرُوفُ - لِتُبَكِّتَ الْمُعَانِدِينَ وَتَسْجِيلًا لِعَجْزِهِمْ عَنِ الْمُعَارَضَةِ، أَوْ كَوْنِهَا أَسْمَاءً لِلسُّوَرِ الْوَاقِعَةِ هِيَ فِيهَا، أَوْ كَوْنِهَا أَقْسَامًا أَقْسَمَ بِهَا لِتَشْرِيفِ قَدْرِ الْكِتَابَةِ، وَتَنْبِيهِ الْعَرَبِ الْأُمِّيِّينَ إِلَى فَوَائِدِ الْكِتَابَةِ لِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ حَالَةِ الْأُمِّيَّةِ، وَأَرْجَحُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الثَّلَاثَةِ هُوَ أَوَّلُهَا، فَإِنَّ الْأَقْوَالَ الثَّانِيَ وَالسَّابِعَ وَالثَّامِنَ وَالثَّانِيَ عَشَرَ وَالْخَامِسَ عَشَرَ وَالسَّادِسَ عَشَرَ يُبْطِلُهَا أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ لَوْ كَانَتْ مُقْتَضَبَةً مِنْ أَسْمَاءٍ أَوْ كَلِمَاتٍ لَكَانَ حَقٌّ أَنْ يُنْطَقَ بِمُسَمَّيَاتِهَا لَا بِأَسْمَائِهَا; لِأَنَّ رَسْمَ الْمُصْحَفِ سُنَّةٌ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا، وَهَذَا أَوْلَى لِأَنَّهُ أَشْمَلُ لِلْأَقْوَالِ.**

**وَعُرِفَتِ اسْمِيَّتُهَا مِنْ دَلِيلَيْنِ: أَحَدُهُمَا اعْتِوَارُ أَحْوَالِ الْأَسْمَاءِ عَلَيْهَا مِثْلَ التَّعْرِيفِ حِينَ تَقُولُ: الْأَلِفُ، وَالْبَاءُ، وَمِثْلُ الْجَمْعِ حِينَ تَقُولُ: الْجِيمَاتُ، وَحِينَ الْوَصْفِ حِينَ تَقُولُ: أَلِفٌ مَمْدُودَةٌ وَالثَّانِي مَا حَكَاهُ**[**سِيبَوَيْهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16076)**فِي كِتَابِهِ: قَالَ الْخَلِيلُ يَوْمًا وَسَأَلَ أَصْحَابَهُ كَيْفَ تَلْفِظُونَ بِالْكَافِ الَّتِي فِي لَكَ وَالْبَاءِ الَّتِي فِي ضَرْبٍ فَقِيلَ نَقُولُ: كَافْ. بَاءْ. فَقَالَ: إِنَّمَا جِئْتُمْ بِالِاسْمِ وَلَمْ تَلْفِظُوا بِالْحَرْفِ وَقَالَ أَقُولُ كِهِ، وَبِهِ يَعْنِي بِهَاءٍ وَقَعَتْ فِي آخِرِ النُّطْقِ بِهِ لِيَعْتَمِدَ عَلَيْهَا اللِّسَانُ عِنْدَ النُّطْقِ إِذَا بَقِيَتْ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ لَا يَظْهَرُ فِي النُّطْقِ بِهِ مُفْرَدًا.**

**وَالَّذِي يُسْتَخْلَصُ مِنْ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ بَعْدَ حَذْفِ مُتَدَاخِلِهِ وَتَوْحِيدِ مُتَشَاكِلِهِ يُؤَوَّلُ إِلَى وَاحِدٍ وَعِشْرِينَ قَوْلًا وَلِشِدَّةِ خَفَاءِ الْمُرَادِ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ لَمْ أَرَ بُدًّا مِنَ اسْتِقْصَاءِ الْأَقْوَالِ عَلَى أَنَّنَا نَضْبِطُ انْتِشَارَهَا بِتَنْوِيعِهَا إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:**

**- النَّوْعُ الْأَوَّلُ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّهَا رُمُوزٌ اقْتُضِبَتْ مِنْ كَلِمٍ أَوْ جُمَلٍ، فَكَانَتْ أَسْرَارًا يَفْتَحُ غَلْقَهَا مَفَاتِيحُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَيَنْدَرِجُ تَحْتَ هَذَا النَّوْعِ ثَمَانِيَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ أَنَّهَا عِلْمٌ اسْتَأْثَرَ (اللَّهُ تَعَالَى) بِهِ وَنُسِبَ هَذَا إِلَى الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ فِي رِوَايَاتٍ ضَعِيفَةٍ وَلَعَلَّهُمْ يُثْبِتُونَ إِطْلَاعَ اللَّهِ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنْهَا رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَالَهُ**[**الشَّعْبِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14577)**وَسُفْيَانُ.**

**- وَالثَّانِي أَنَّهَا حُرُوفٌ مُقْتَضَبَةٌ مِنْ أَسْمَاءٍ وَصِفَاتٍ لِلَّهِ –تَعَالَى- الْمُفْتَتَحَةُ بِحُرُوفٍ مُمَاثِلَةٍ لِهَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ.**

**رَوَاهُ**[**سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15992)**عَنِ**[**ابْنِ عَبَّاسٍ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=11) **وَقَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْقُرَظِيِّ أَوِ**[**الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14354)**فَـ (الم) مَثَلًا. الْأَلِفُ إِشَارَةٌ إِلَى أَحَدٍ أَوْ أَوَّلٍ أَوْ أَزَلِيٍّ، وَاللَّامُ إِلَى لَطِيفٍ، وَالْمِيمُ إِلَى مَلِكٍ أَوْ مَجِيدٍ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَعَلَى هَذَا يُحْتَاجُ فِي بَيَانِهَا إِلَى تَوْقِيفٍ وَأَنَّى لَهُمْ بِهِ.**

**- الثَّالِثُ: أَنَّهَا رُمُوزٌ لِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَسْمَاءِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمَلَائِكَةُ الم مَثَلًا، الْأَلِفُ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّامُ مِنْ جِبْرِيلَ وَالْمِيمُ مِنْ مُحَمَّدٍ. قَالَهُ الضَّحَّاكُ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَوْقِيفٍ فِي كُلِّ فَاتِحَةٍ مِنْهَا، وَلَعَلَّنَا سَنُنَبِّهُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعِهِ.**

**- الرَّابِعُ: جَزَمَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ فِي الْبَابِ الثَّامِنِ وَالتِّسْعِينَ وَالْمِائَةِ فِي الْفَصْلِ 27 مِنْهُ مِنْ كِتَابِهِ *الْفُتُوحَاتِ* أَنَّ هَاتِهِ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ فِي أَوَائِلِ  السُّوَرِ أَسْمَاءٌ لِلْمَلَائِكَةِ وَأَنَّهَا إِذَا تُلِيَتْ كَانَتْ كَالنِّدَاءِ لِمَلَائِكَتِهَا فَتُصْغِي أَصْحَابُ تِلْكَ الْأَسْمَاءِ إِلَى مَا يَقُولُهُ التَّالِي بَعْدَ النُّطْقِ بِهَا، فَيَقُولُونَ صَدَقْتَ إِنْ كَانَ مَا بَعْدَهَا خَبَرٌ، وَيَقُولُونَ هَذَا مُؤْمِنٌ حَقًّا نَطَقَ حَقًّا وَأَخْبَرَ بِحَقٍّ فَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ، وَهَذَا لَمْ يَقُلْهُ غَيْرُهُ وَهُوَ دَعْوَى.**

**- الْخَامِسُ: أَنَّهَا رُمُوزٌ كُلُّهَا لِأَسْمَاءِ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَوْصَافِهِ خَاصَّةً قَالَهُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ مُلُوكَةَ التُّونِسِيِّ فِي رِسَالَةٍ لَهُ قَالَ إِنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ الْهِجَاءِ فِي فَوَاتِحِ السُّوَرِ مُكَنًّى بِهِ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ أَسْمَائِهِ الْكَرِيمَةِ وَأَوْصَافِهِ الْخَاصَّةِ، فَالْأَلِفُ مُكَنًّى بِهِ عَنْ جُمْلَةِ أَسْمَائِهِ الْمُفْتَتَحَةِ بِالْأَلِفِ كَأَحْمَدَ وَأَبِي الْقَاسِمِ، وَاللَّامُ مُكَنًّى بِهِ عَنْ صِفَاتِهِ مِثْلَ لُبِّ الْوُجُودِ، وَالْمِيمُ مُكَنًّى بِهِ عَنْ مُحَمَّدٍ وَنَحْوَهُ مِثْلَ مُبَشِّرٍ وَمُنْذِرٍ، فَكُلُّهَا مُنَادَى بِحَرْفِ نِدَاءٍ مُقَدَّرٍ بِدَلِيلِ ظُهُورِ ذَلِكَ الْحَرْفِ فِي يس.**

**وَلَمْ يَعْزُ هَذَا الْقَوْلَ إِلَى أَحَدٍ، وَعَلَّقَ عَلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ تِلْمِيذُهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدٌ مُعَاوِيَةُ تَعْلِيقَةً أَكْثَرَ فِيهَا مِنَ التَّعْدَادِ، وَلَيْسَتْ مِمَّا يَنْثَلِجُ لِمَبَاحِثِهِ الْفُؤَادُ وَهِيَ وَأَصْلُهَا مَوْجُودَةٌ بِخَزْنَةِ جَامِعِ الزَّيْتُونَةِ بِتُونِسَ عَدَدَ 514 وَيَرُدُّ هَذَا الْقَوْلَ الْتِزَامُ حَذْفِ حَرْفِ النِّدَاءِ وَمَا قَالَهُ مِنْ ظُهُورِهِ فِي يس مَبْنِيٌّ عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ إِنَّ يس بِمَعْنَى يَا سَيِّدُ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ الْيَاءَ فِيهِ حَرْفٌ مِنْ حُرُوفِ الْهِجَاءِ، وَلِأَنَّ الشَّيْخَ نَفْسَهُ عَدَّ يس بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى الْأَسْمَاءِ مَدْلُولًا لِنَحْوِ الْيَاءِ مِنْ كهيعص.**

**- الْقَوْلُ السَّادِسُ: أَنَّهَا رُمُوزٌ لِمُدَّةِ دَوَامِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِحِسَابِ الْجُمَلِ قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ أَخْذًا بِقِصَّةٍ رَوَاهَا**[**ابْنُ إِسْحَاقَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12563)**عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَثَّابٍ قَالَ: جَاءَ أَبُو يَاسِرِ بْنُ أَخْطَبَ وَحُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَكَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ عَنِ الم وَقَالُوا: هَذَا أَجَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ السِّنِينَ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ وَقَالَ لَهُمْ: "ص" وَ "المر" فَقَالُوا اشْتَبَهَ عَلَيْنَا الْأَمْرُ فَلَا نَدْرِي أَبِالْقَلِيلِ نَأْخُذُ أَمْ بِالْكَثِيرِ؟ اهـ.**

**وَلَيْسَ فِي جَوَابِ رَسُولِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِعِدَّةِ حُرُوفٍ أُخْرَى مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُتَقَطِّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ تَقْرِيرٌ لِاعْتِبَارِهَا رُمُوزًا لِأَعْدَادِ مُدَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ إِبْطَالَ مَا فَهِمُوهُ بِإِبْطَالِ أَنْ يَكُونَ مُفِيدًا لِزَعْمِهِمْ عَلَى نَحْوِ الطَّرِيقَةِ الْمُسَمَّاةِ بِالنَّقْضِ فِي الْجَدَلِ وَمَرْجِعُهَا إِلَى الْمَنْعِ وَالْمَانِعِ لَا مَذْهَبَ لَهُ.**

**وَأَمَّا ضَحِكُهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَهُوَ تَعَجُّبٌ مِنْ جَهْلِهِمْ.**

**- الْقَوْلُ السَّابِعُ: أَنَّهَا رُمُوزٌ كُلُّ حَرْفٍ رَمَزَ إِلَى كَلِمَةٍ فَنَحْوُ "الم" أَنَا اللَّهُ أَعْلَمُ، وَ"المر" أَنَا اللَّهُ أَرَى، وَ"المص" أَنَا اللَّهُ أَعْلَمُ وَأَفْصِلُ.**

**رَوَاهُ أَبُو الضُّحَى عَنِ**[**ابْنِ عَبَّاسٍ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=11)**وَيُوهِنُهُ أَنَّهُ لَا ضَابِطَ لَهُ لِأَنَّهُ أَخَذَ مَرَّةً بِمُقَابَلَةِ الْحَرْفِ بِحَرْفِ أَوَّلِ الْكَلِمَةِ، وَمَرَّةً بِمُقَابَلَتِهِ بِحَرْفٍ وَسَطِ الْكَلِمَةِ أَوْ آخِرِهَا.**

**وَنَظَّرُوهُ بِأَنَّ الْعَرَبَ قَدْ تَتَكَلَّمُ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ بَدَلًا مِنْ كَلِمَاتٍ تَتَأَلَّفُ مِنْ تِلْكَ الْحُرُوفِ نَظْمًا وَنَثْرًا، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ زُهَيْرٍ:**

**بِالْخَيْرِ خَيِّرَاتٌ وَإِنْ شَرٌّ فَـــــا وَلَا أُرِيدُ الشَّرَّ إِلَّا أَنْ تَــــــــــــــــــــــا**

**أَرَادَ وَإِنْ شَرٌّ فَشَرٍّ وَأَرَادَ إِلَّا أَنْ تَشَا، فَأَتَى بِحَرْفٍ مِنْ كُلِّ جُمْلَةٍ. وَقَالَ الْآخَرُ قُرْطُبِيٌّ:**

**نَادَاهُمْ أَلَا الْجِمُوا أَلَا تَــــــــــــا      قَالُوا جَمِيعًا كُلُّهُمْ أَلَا فَــــــــــــــــــــا**

**أَرَادَ بِالْحَرْفِ الْأَوَّلِ أَلَا تَرْكَبُونَ، وَبِالثَّانِي أَلَا فَارْكَبُوا. وَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ عَامِلُ عُثْمَانَ يُخَاطِبُ**[**عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=76)**:**

**قُلْتُ لَهَا قِفِي لَنَا قَالَتْ قَافْ     لَا تَحْسِبَنِّي قَدْ نَسِيتُ الْإِيجَافْ**

**أَرَادَ قَالَتْ وَقَفْتُ. وَفِي الْحَدِيثِ**[**مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**قَالَ شَقِيقٌ: هُوَ أَنْ يَقُولَ اُقْ مَكَانَ اقْتُلْ. وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا**[**كَفَى بِالسَّيْفِ شَا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**أَيْ شَاهِدًا. وَفِي كَامِلِ**[**الْمُبَرِّدِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15153)**مِنْ قَصِيدَةٍ لِعَلِيِّ بْنِ عِيسَى الْقُمِّيِّ وَهُوَ مُوَلَّدٌ:**

**وَلُبْسُ الْعَجَاجَةِ وَالْخَافِقَا      تِ تُرِيكَ الْمَنَا بِرُؤُوسِ الْأَسَلِ**

**أَيْ تُرِيكَ الْمَنَايَا.**

**وَفِي تَلْعٍ مِنْ صِحَاحِ الْجَوْهَرِيِّ قَالَ لَبِيِدٌ:**

**دَرَسَ الْمَنَا بِمَتَالِعٍ فَأَبَــــــــــــانَ      فَتَقَادَمَتْ بِالْحَبْسِ فَالسُّوبَانِ**

**أَرَادَ دَرَسَ الْمَنَازِلَ.**

**وَقَالَ عَلْقَمَةُ الْفَحْلُ خَصَائِصَ ص 82:**

**كَأَنَّ إِبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ     مُفَدَّمٌ بِسَبَا الْكَتَّانِ مَلْثُـــــــــــــومُ**

**أَرَادَ بِسَبَائِبَ الْكَتَّانِ.**

**وَقَالَ الرَّاجِزُ:**

**حِينَ أَلْقَتْ بِقُبَاءِ بَرْكِهَـــــــــــــــا      وَاسْتَمَرَّ الْقَتْلُ فِي عَبْدِ الْأَشَلِ**

**أَيْ عَبْدُ الْأَشْهَلِ. وَقَوْلُ أَبِي دُؤَادٍ:**

**يَدْرِينَ حَنْدَلَ حَائِرٌ لِجَنُوبِهَا      فَكَأَنَّمَا تُذْكَى سَنَابِكُهَا الْحُبَا**

**أَرَادَ الْحُبَاحِبَ. وَقَالَ الْأَخْطَلُ:**

**أَمْسَتْ مَنَاهَا بِأَرْضٍ مَا يُبَلَّغُهَا     بِصَاحِبِ الْهَمِّ إِلَّا الْجَسْرَةُ الْأُجُدُ**

**أَرَادَ مَنَازِلَهَا.**

**وَوَقَعَ (طِرَازِ الْمُجَالِسِ-الْمَجْلِسِ) لِلْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ هَذَا كَثِيرٌ مَعَ التَّوْرِيَةِ، كَقَوْلِ ابْنِ مَكَانِسَ:**

**لَمْ أَنْسَ بَدْرًا زَارَنِي لَيْلَةً      مُسْتَوْفِزًا مَطْلَعًا لِلْخَطَــــــــرِ**

**فَلَمْ يَقُمْ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَــا      قُلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْ**

**أَرَادَ بَعْضَ كَلِمَةِ مَرْحَبًا. وَقَدْ أَكْثَرْتُ مِنْ شَوَاهِدِهِ تَوْسِعَةً فِي مَوَاقِعِ هَذَا الِاسْتِعْمَالِ الْغَرِيبِ وَلَسْتُ أُرِيدُ بِذَلِكَ تَصْحِيحَ حَمْلِ حُرُوفِ فَوَاتِحِ السُّوَرِ عَلَى ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَا يَحْسُنُ تَخْرِيجُ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ وَلَيْسَ مَعَهَا مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ مَعَ التَّوْرِيَةِ بِجَعْلِ مَرَّ مِنَ الْمُرُورِ.**

**- الْقَوْلُ الثَّامِنُ: أَنَّهَا إِشَارَاتٌ إِلَى أَحْوَالٍ مِنْ تَزْكِيَةِ الْقَلْبِ، وَجَعَلَهَا فِي الْفُتُوحَاتِ فِي الْبَابِ الثَّانِي إِيمَاءً إِلَى شُعَبِ الْإِيمَانِ.**

**وَحَاصِلُهُ أَنَّ جُمْلَةَ الْحُرُوفِ الْوَاقِعَةِ فِي أَوَائِلِ سُوَرِ الْقُرْآنِ عَلَى تَكْرَارِ الْحُرُوفِ ثَمَانِيَةً وَسَبْعُونَ حَرْفًا وَالثَّمَانِيَةُ هُنَا هِيَ حَقِيقَةُ الْبِضْعِ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ بِالْكَشْفِ فَيَكُونُ عَدَدُ الْحُرُوفِ ثَمَانِيَةً وَسَبْعِينَ.**

**وَقَدْ قَالَ النَّبِيءُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "**[**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً".**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)

**فَهَذِهِ الْحُرُوفُ هِيَ شُعَبُ الْإِيمَانِ، وَلَا يَكْمُلُ لِأَحَدٍ أَسْرَارَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ حَقَائِقَ هَذِهِ الْحُرُوفِ فِي سُوَرِهَا.**

**وَكَيْفَ يَزْعُمُ زَاعِمٌ أَنَّهَا وَارِدَةٌ فِي مَعَانٍ غَيْرِ مَعْرُوفَةٍ مَعَ ثُبُوتِ تَلَقِّي السَّامِعِينَ لَهَا بِالتَّسْلِيمِ مِنْ مُؤْمِنٍ وَمُعَانِدٍ، وَلَوْلَا أَنَّهُمْ فَهِمُوا مِنْهَا مَعْنًى مَعْرُوفًا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْقَرَائِنُ لَسَأَلَ السَّائِلُونَ وَتَوَرَّكَ الْمُعَانِدُونَ.**

**قَالَ**[**الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ:**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12815) **"لَوْلَا أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَعْرِفُونَ لَهَا مَدْلُولًا مُتَدَاوَلًا بَيْنَهُمْ لَكَانُوا أَوَّلَ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَلْ تَلَا عَلَيْهِمْ حم فُصِّلَتْ وَ "ص" وَغَيْرَهُمَا فَلَمْ يُنْكِرُوا ذَلِكَ مَعَ تَشَوُّفِهِمْ إِلَى عَثْرَةٍ وَحِرْصِهِمْ عَلَى زَلَّةٍ".**

**قُلْتُ: وَقَدْ سَأَلُوا عَنْ أَوْضَحَ مِنْ هَذَا، فَقَالُوا وَمَا الرَّحْمَانُ.**

**وَأَمَّا مَا اسْتَشْهَدُوا  بِهِ مِنْ بَيْتِ زُهَيْرٍ وَغَيْرِهِ، فَهُوَ مِنْ نَوَادِرِ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَمِمَّا أُخْرِجَ مَخْرَجَ الْأَلْغَازِ وَالتَّمْلِيحِ وَذَلِكَ لَا يُنَاسِبُ مَقَامَ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ.**

**النَّوْعُ الثَّانِي يَجْمَعُ الْأَقْوَالَ الرَّاجِعَةَ إِلَى أَنَّ هَاتِهِ الْحُرُوفَ وُضِعَتْ بِتِلْكَ الْهَيْئَاتِ أَسْمَاءً أَوْ أَفْعَالًا وَفِيهِ مِنَ الْأَقْوَالِ أَرْبَعَةٌ.**

**- التَّاسِعُ فِي عِدَادِ الْأَقْوَالِ فِي أَوَّلِهَا لِجَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَاخْتَارَهُ الْفَخْرُ أَنَّهَا أَسْمَاءٌ لِلسُّوَرِ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا، قَالَهُ**[**زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15944)**وَنُسِبَ**[**لِسِيبَوَيْهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16076)**فِي كِتَابِهِ بَابِ أَسْمَاءِ السُّوَرِ مِنْ أَبْوَابِ مَا لَا يَنْصَرِفُ أَوْ لِلْخَلِيلِ وَنَسَبَهُ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* لِلْأَكْثَرِ وَيُعَضِّدُهُ وُقُوعُ هَاتِهِ الْحُرُوفِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ فَتَكُونُ هَاتِهِ الْحُرُوفُ قَدْ جُعِلَتْ أَسْمَاءً بِالْعَلَامَةِ عَلَى تِلْكَ السُّوَرِ، وَسُمِّيَتْ بِهَا كَمَا نَقُولُ الْكُرَّاسَةَ ب وَالرِّزْمَةَ ج وَنَظَّرَهُ الْقُفَّالُ بِمَا سَمَّتِ الْعَرَبُ بِأَسْمَاءِ الْحُرُوفِ كَمَا سَمَّوْا لَامَ الطَّائِيَّ وَالِدِ حَارِثَةَ، وَسَمَّوُا الذَّهَبَ: عَيْنٌ، وَالسَّحَابَ: غَيْنٌ، وَالْحُوتَ نُونْ، وَالْجَبَلَ قَافْ، وَأَقُولُ: وَحَاءُ قَبِيلَةٌ مِنْ مَذْحِجٍ.**

**وَقَالَ شُرَيْحُ بْنُ أَوْفَى الْعَنْسِيُّ أَوِ الْعَبْسِيُّ:**

**يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ     فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ**

**يُرِيدُ: ﴿**[**حم عسق﴾[[24]](#footnote-24)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**الَّتِي فِيهَا: ﴿**[**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[[25]](#footnote-25)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**وَيَبْعُدُ هَذَا الْقَوْلُ بُعْدًا مَا إِنِ الشَّأْنُ أَنْ يَكُونَ الِاسْمُ غَيْرَ دَاخِلٍ فِي الْمُسَمَّى، وَقَدْ وَجَدْنَا هَذِهِ الْحُرُوفَ مَقْرُوءَةً مَعَ السُّوَرِ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، عَلَى أَنَّهُ يَرُدُّهُ اتِّحَادُ هَذِهِ الْحُرُوفِ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ مِثْلَ "الم" وَ "الر" وَ "حم". وَأَنَّهُ لَمْ تُوضَعْ أَسْمَاءُ السُّوَرِ الْأُخْرَى فِي أَوَائِلِهَا.**

**- الْقَوْلُ الْعَاشِرُ: وَقَالَ جَمَاعَةٌ إِنَّهَا أَسْمَاءٌ لِلْقُرْآنِ اصْطُلِحَ عَلَيْهَا قَالَهُ الْكَلْبِيُّ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ. وَيُبْطِلُهُ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ بَعْدَ بَعْضِهَا مَا لَا يُنَاسِبُهَا لَوْ كَانَتْ أَسْمَاءً لِلْقُرْآنِ، نَحْوَ ﴿**[**الم غُلِبَتِ الرُّومُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**﴾[[26]](#footnote-26)، وَ﴿**[**الم أَحَسِبَ النَّاسُ﴾[[27]](#footnote-27).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)

**- الْقَوْلُ الْحَادِيَ عَشَرَ أَنَّ كُلَّ حُرُوفٍ مُرَكَّبَةٍ مِنْهَا هِيَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ.**

**رَوَوْا عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: يَا كهيعص يَا حم عسق وَسَكَتَ عَنِ الْحُرُوفِ الْمُفْرَدَة،ِ فَيَرْجِعُ بِهَا إِلَى مَا يُنَاسِبُهَا أَنْ تَنْدَرِجَ تَحْتَهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَيُبْطِلَهُ عَدَمُ الِارْتِبَاطِ بَيْنَ بَعْضِهَا وَبَيْنَ مَا بَعْدَهُ لِأَنْ يَكُونَ خَبَرًا أَوْ نَحْوَهُ عَنِ اسْمِ اللَّهِ مِثْلَ: ﴿**[**الم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾[[28]](#footnote-28)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**وَ﴿**[**المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾[[29]](#footnote-29).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)

**- الثَّانِيَ عَشَرَ: قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ هِيَ أَفْعَالٌ فَإِنَّ حُرُوفَ: ﴿**[**المص كِتَابٌ﴾[[30]](#footnote-30)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**فِعْلُ أَلَمَّ بِمَعْنَى نَزَلَ، فَالْمُرَادُ: ﴿**[**الم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾[[31]](#footnote-31)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**أَيْ نُزِّلَ عَلَيْكُمْ، وَيُبْطِلُ كَلَامَهُ أَنَّهَا لَا تُقْرَأُ بِصِيَغِ الْأَفْعَالِ عَلَى أَنَّ هَذَا لَا يَتَأَتَّى فِي جَمِيعِهَا نَحْوَ ﴿كهيعص﴾[[32]](#footnote-32) وَ ﴿المص﴾[[33]](#footnote-33) وَ ﴿الر﴾[[34]](#footnote-34).**

**وَلَوْلَا غَرَابَةُ هَذَا الْقَوْلِ لَكَانَ حَرِيًّا بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ.**

**- النَّوْعُ الثَّالِثُ تَنْدَرِجُ فِيهِ الْأَقْوَالُ الرَّاجِعَةُ إِلَى أَنَّ هَاتِهِ الْحُرُوفَ حُرُوفُ هِجَاءٍ مَقْصُودَةٍ بِأَسْمَائِهَا لِأَغْرَاضٍ دَاعِيَةٍ لِذَلِكَ وَفِيهِ مِنَ الْأَقْوَالِ:**

**- الْقَوْلُ الثَّالِثَ عَشَرَ: أَنَّ هَاتِهِ الْحُرُوفَ أَقْسَمَ اللَّهُ –تَعَالَى- بِهَا، كَمَا أَقْسَمَ بِالْقَلَمِ تَنْوِيهًا بِهَا، لِأَنَّ مُسَمَّيَاتِهَا تَأَلَّفَتْ مِنْهَا أَسْمَاءُ اللَّهِ –تَعَالَى- وَأُصُولُ التَّخَاطُبِ وَالْعُلُومِ؛ قَالَهُ الْأَخْفَشُ.**

**وَقَدْ وَهَنَ هَذَا الْقَوْلُ بِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ مُقْسَمًا بِهَا لَذُكِرَ حَرْفُ الْقَسَمِ، إِذْ لَا يُحْذَفُ إِلَّا مَعَ اسْمِ الْجَلَالَةِ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ، وَبِأَنَّهَا قَدْ وَرَدَ بَعْدَهَا فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ قَسَمٌ نَحْوَ: ﴿**[**ن وَالْقَلَمِ﴾[[35]](#footnote-35)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**وَ﴿**[**حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[[36]](#footnote-36).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)

**قَالَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ*: وَقَدِ اسْتَكْرَهُوا الْجَمْعَ بَيْنَ قَسَمَيْنِ عَلَى مُقْسَمٍ وَاحِدٍ حَتَّى قَالَ الْخَلِيلُ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾[[37]](#footnote-37)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**أَنَّ الْوَاوَ الثَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تَضُمُّ الْأَسْمَاءَ لِلْأَسْمَاءِ أَيْ وَاوَ الْعَطْفِ، وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا أَنَّ اخْتِصَاصَ الْحَذْفِ بِاسْمِ الْجَلَالَةِ مُخْتَلَفٌ فِيهِ وَأَنَّ كَرَاهِيَةَ جَمْعِ قَسَمَيْنِ تَنْدَفِعُ بِجَعْلِ الْوَاوِ التَّالِيَةِ لَهَاتِهِ الْفَوَاتِحِ وَاوَ الْعَطْفِ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ جَمَعُوا بَيْنَ قَسَمَيْنِ.**

**قَالَ النَّابِغَةُ:**

**وَاللَّهِ وَاللَّهِ لَنِعْمَ الْفَتَى الْـ     حَارِثُ لَا النَّكْسُ وَلَا الْخَامِلُ**

**- الْقَوْلُ الرَّابِعَ عَشَرَ: أَنَّهَا سِيقَتْ مَسَاقَ التَّهَجِّي مَسْرُودَةً عَلَى نَمَطِ التَّعْدِيدِ فِي التَّهْجِيَةِ تَبْكِيتًا لِلْمُشْرِكِينَ وَإِيقَاظًا لِنَظَرِهِمْ فِي أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ الْمَتْلُوَّ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ تُحُدُّوا بِالْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ هُوَ كَلَامٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ عَيْنِ حُرُوفِ كَلَامِهِمْ كَأَنَّهُ يُغْرِيهِمْ بِمُحَاوَلَةِ الْمُعَارَضَةِ وَيَسْتَأْنِسُ لِأَنْفُسِهِمْ بِالشُّرُوعِ فِي ذَلِكَ بِتَهَجِّي الْحُرُوفِ وَمُعَالَجَةِ النُّطْقِ تَعْرِيضًا بِهِمْ بِمُعَامَلَتِهِمْ مُعَامَلَةَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ تَقَاطِيعَ اللُّغَةِ. فَيُلَقِّنُهَا كَتَهَجِّي الصِّبْيَانِ فِي أَوَّلِ تَعَلُّمِهِمْ بِالْكِتَابِ حَتَّى يَكُونَ عَجْزُهُمْ عَنِ الْمُعَارَضَةِ بَعْدَ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ عَجْزًا لَا مَعْذِرَةَ لَهُمْ فِيهِ.**

**وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ**[**الْمُبَرِّدُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15153)**وَقُطْرُبُ**[**وَالْفَرَّاءُ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14888)**قَالَ فِي *الْكَشَّافِ* وَهَذَا الْقَوْلُ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْخَلَاقَةِ بِالْقَبُولِ بِمَنْزِلَةٍ: "وَقُلْتُ"، وَهُوَ الَّذِي نَخْتَارُهُ وَتَظْهَرُ الْمُنَاسَبَةُ لِوُقُوعِهَا فِي فَوَاتِحِ السُّوَرِ أَنَّ كُلَّ سُورَةٍ مَقْصُودَةٍ بِالْإِعْجَازِ، لِأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى- يَقُولُ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، فَنَاسَبَ افْتِتَاحُ مَا بِهِ الْإِعْجَازُ بِالتَّمْهِيدِ لِمُحَاوَلَتِهِ.**

**وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ أَنَّ التَّهَجِّيَ ظَاهِرٌ فِي هَذَا الْمَقْصِدِ فَلِذَلِكَ لَمْ يَسْأَلُوا عَنْهُ لِظُهُورِ أَمْرِهِ، وَأَنَّ التَّهَجِّيَ مَعْرُوفٌ عِنْدَهُمْ لِلتَّعْلِيمِ.**

**فَإِذَا ذَكَرْتَ حُرُوفَ الْهِجَاءِ عَلَى تِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ الْمَعْهُودَةِ فِي التَّعْلِيمِ فِي مَقَامٍ غَيْرِ صَالِحٍ لِلتَّعْلِيمِ عَرَفَ السَّامِعُونَ أَنَّهُمْ عُومِلُوا مُعَامَلَةَ الْمُتَعَلِّمِ لِأَنَّ حَالَهُمْ كَحَالِهِ فِي الْعَجْزِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِكَلَامٍ بَلِيغٍ، وَيُعَضِّدُ هَذَا الْوَجْهَ تَعْقِيبُ هَاتِهِ الْحُرُوفِ فِي غَالِبِ الْمَوَاقِعِ بِذِكْرِ الْقُرْآنِ وَتَنْزِيلِهِ أَوْ كِتَابَتِهِ إِلَّا فِي ﴿**[**كهيعص﴾[[38]](#footnote-38)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**وَ﴿**[**الم أَحَسِبَ النَّاسُ﴾[[39]](#footnote-39)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**وَ﴿**[**الم غُلِبَتِ الرُّومُ﴾[[40]](#footnote-40).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)

**وَوَجْهُ تَخْصِيصِ بَعْضِ تِلْكَ الْحُرُوفِ بِالتَّهَجِّي دُونَ بَعْضٍ، وَتَكْرِيرِ بَعْضِهَا لِأَمْرٍ لَا نَعْلَمُهُ وَلَعَلَّهُ لِمُرَاعَاةِ فَصَاحَةِ الْكَلَامِ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ مُعْظَمَ مَوَاقِعِ هَذِهِ الْحُرُوفِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ عَدَا الْبَقَرَةَ عَلَى قَوْلِ مَنْ جَعَلُوهَا كُلَّهَا مَدَنِيَّةً وَآلَ عِمْرَانَ.**

**وَلَعَلَّ ذَلِكَ لِأَنَّهُمَا نَزَلَتَا بِقُرْبِ عَهْدِ الْهِجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ، وَأَنَّ قَصْدَ التَّحَدِّي فِي الْقُرْآنِ النَّازِلِ بِمَكَّةَ قَصْدٌ أَوْلَى.**

**وَيُؤَيِّدُهُ أَيْضًا الْحُرُوفُ الَّتِي أَسْمَاؤُهَا مَخْتُومَةٌ بِأَلِفٍ مَمْدُودَةٍ مِثْلَ الْيَاءِ وَالْهَاءِ وَالرَّاءِ وَالطَّاءِ وَالْحَاءِ قُرِئَتْ فَوَاتِحُ السُّوَرِ مَقْصُودَةً عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي يُتَهَجَّى بِهَا لِلصِّبْيَانِ فِي الْكِتَابِ طَلَبًا لِلْخِفَّةِ كَمَا سَيَأْتِي قَرِيبًا فِي آخِرِ هَذَا الْمَبْحَثِ مِنْ تَفْسِيرِ ﴿الم.﴾[[41]](#footnote-41)**

**- الْقَوْلُ الْخَامِسَ عَشَرَ: أَنَّهَا تَعْلِيمٌ لِلْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ حَتَّى إِذَا وَرَدَتْ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ مُؤَلَّفَةً كَانُوا قَدْ عَلِمُوهَا كَمَا يَتَعَلَّمُ الصِّبْيَانُ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ، ثُمَّ يَتَعَلَّمُونَهَا مُرَكَّبَةً قَالَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ يَحْيَى، يَعْنِي إِذْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ إِلَّا بَعْضُ الْمُدُنِ كَأَهْلِ الْحِيرَةِ وَبَعْضُ طَيْءٍ وَبَعْضُ قُرَيْشٍوَكِنَانَةَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَلَقَدْ تَقَلَّبَتْ أَحْوَالُ الْعَرَبِ فِي الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ تَقَلُّبَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ فِي الْعُصُورِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَكَانُوا بَادِئَ الْأَمْرِ أَهْلَ كِتَابَةٍ لِأَنَّهُمْ نَزَحُوا إِلَى الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْعِرَاقِ بَعْدَ تَبَلْبُلِ الْأَلْسُنِ، وَالْعِرَاقُ مَهْدُ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ، وَقَدْ أَثْبَتَ التَّارِيخُ أَنَّ ضَخْمَ بْنَ إِرَمَ أَوَّلُ مَنْ عَلَّمَ الْعَرَبَ الْكِتَابَةَ وَوَضَعَ حُرُوفَ الْمُعْجَمِ التِّسْعَةَ وَالْعِشْرِينَ.**

**ثُمَّ إِنَّ الْعَرَبَ لَمَّا بَادُوا أَيْ سَكَنُوا الْبَادِيَةَ تَنَاسَتِ الْقَبَائِلُ الْبَادِيَةُ بِطُولِ الزَّمَانِ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، وَشَغَلَهُمْ حَالُهُمْ عَنْ تَلَقِّي مَبَادِئِ الْعُلُومِ، فَبَقِيَتِ الْكِتَابَةُ فِي الْحَوَاضِرِ كَحَوَاضِرِ الْيَمَنِ وَالْحِجَازِ، ثُمَّ لَمَّا تَفَرَّقُوا بَعْدَ سَيْلِ الْعَرِمِ نَقَلُوا الْكِتَابَةَ إِلَى الْمَوَاطِنِ الَّتِي نَزَلُوهَا فَكَانَتْ طَيْءٌ بِنَجْدٍ يَعْرِفُونَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، وَهُمُ الْفِرْقَةُ الْوَحِيدَةُ مِنَ الْقَحْطَانِيِّينَ بِبِلَادِ نَجْدٍ وَلِذَلِكَ يَقُولُ أَهْلُ الْحِجَازِ وَنَجْدٍ أَنَّ الَّذِينَ وَضَعُوا الْكِتَابَةَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِنْ بَنِي بُولَانَ مِنْ طَيْءٍ يُرِيدُونَ مِنَ الْوَضْعِ أَنَّهُمْ عَلَّمُوهَا لِلْعَدْنَانِيِّينَ بِنَجْدٍ.**

**وَكَانَ أَهْلُ الْحِيرَةِ يُعَلِّمُونَ الْكِتَابَةَ فَالْعَرَبُ بِالْحِجَازِ تَزْعُمُ أَنَّ الْخَطَّ تَعَلَّمُوهُ عَنْ أَهْلِ الْأَنْبَارِ وَالْحِيرَةِ، وَقِصَّةُ الْمُتَلَمِّسِ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ تُذَكِّرُنَا بِذَلِكَ إِذْ كَانَ الَّذِي قَرَأَ لَهُ الصَّحِيفَةَ غُلَامٌ مِنْ أُغَيْلِمَةِ الْحَيْرَةِ.**

**وَلَقَدْ كَانَ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ مَعَ أَنَّهُمْ مِنْ نَازِحَةِ الْقَحْطَانِيِّينَ، قَدْ تَنَاسَوُا الْكِتَابَةَ إِذْ كَانُوا أَهْلَ زَرْعٍ وَفُرُوسِيَّةٍ وَحُرُوبٍ.**

**فَقَدْ وَرَدَ فِي السِّيَرِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ بِالْمَدِينَةِ وَكَانَ فِي أَسْرَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ مَنْ يُحْسِنُ ذَلِكَ، فَكَانَ مَنْ لَا مَالَ لَهُ مِنَ الْأَسْرَى يُفْتَدَى بِأَنْ يُعَلِّمَ عَشَرَةً مِنْ غِلْمَانِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْكِتَابَةَ، فَتَعَلَّمَ**[**زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=47)**فِي جَمَاعَةٍ، وَكَانَتِ الشِّفَاءُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيَّةُ تُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَهِيَ عَلَّمَتْهَا لِحَفْصَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ.**

**وَيُوجَدُ فِي أَسَاطِيرِ الْعَرَبِ مَا يَقْتَضِي أَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ تَعَلَّمُوا الْكِتَابَةَ مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ فِي جِوَارِهِمْ فَقَدْ ذَكَرُوا قِصَّةً وَهِيَ أَنَّ الْمَحْضَ بْنَ جَنْدَلٍ مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ وَكَانَ مَلِكًا كَانَ لَهُ سِتَّةُ أَبْنَاءٍ وَهُمْ: أَبْجَدُ، وَهَوَّزُ، وَحُطِّي، وَكَلَمُنُ، وَسَعْفَصُ، وَقَرَشْتُ.**

**فَجَعَلَ أَبْنَاءَهُ مُلُوكًا عَلَى بِلَادِ مَدْيَنَ وَمَا حَوْلَهَا، فَجَعَلَ أَبْجَدَ بِمَكَّةَ، وَجَعَلَ هَوَّزَ وَحُطِّيَ بِالطَّائِفِ وَنَجْدٍ، وَجَعَلَ الثَّلَاثَةَ الْبَاقِينَ بِمَدْيَنَ، وَأَنَّ كَلَمُنْ كَانَ فِي زَمَنِ شُعَيْبٍ، وَهُوَ مِنَ الَّذِينَ أَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّة.ِ**

**قَالُوا: فَكَانَتْ حُرُوفُ الْهِجَاءِ أَسْمَاءُ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ، ثُمَّ أَلْحَقُوا بِهَا ثَخَذَ وَضَغَظَ فَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْقِصَّةَ مَصْنُوعَةً لِتَلْقِينِ الْأَطْفَالِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ بِطَرِيقَةٍ سَهْلَةٍ تُنَاسِبُ عُقُولَهُمْ وَتَقْتَضِي أَنَّ حُرُوفَ ثَخَذْ وَضَغَظْ لَمْ تَكُنْ فِي مُعْجَمِ أَهْلِ مَدْيَنَ فَأَلْحَقَهَا أَهْلُ الْحِجَازِ، وَحَقًّا إِنَّهَا مِنَ الْحُرُوفِ غَيْرِ الْكَثِيرَةِ الِاسْتِعْمَالِ وَلَا الْمَوْجُودَةِ فِي كُلِّ اللُّغَاتِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يُبْعِدُهُ عَدَمُ وُجُودِ جَمِيعِ الْحُرُوفِ فِي فَوَاتِحِ السُّوَرِ بَلِ الْمَوْجُودُ نِصْفُهَا، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ مِنْ كَلَامِ *الْكَشَّافِ*.**

**- الْقَوْلُ السَّادِسَ عَشَرَ: أَنَّهَا حُرُوفٌ قُصِدَ مِنْهَا تَنْبِيهُ السَّامِعِ مِثْلَ النِّدَاءِ الْمَقْصُودِ بِهِ التَّنْبِيهُ فِي قَوْلِكَ يَا فَتَى لِإِيقَاظِ ذِهْنِ السَّامِعِ قَالَهُ ثَعْلَبٌ وَالْأَخْفَشُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ.**

**قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: كَمَا يَقُولُ فِي إِنْشَادِ أَشْهَرِ الْقَصَائِدِ لَا وَبَلْ لَا، قَالَ الْفَخْرُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: إِنَّ الْحَكِيمَ إِذَا خَاطَبَ مَنْ يَكُونُ مَحِلَّ الْغَفْلَةِ أَوْ مَشْغُولَ الْبَالِ يُقَدِّمُ عَلَى الْكَلَامِ الْمَقْصُودِ شَيْئًا لِيَلْفِتَ الْمُخَاطَبَ إِلَيْهِ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْمُقَدَّمِ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي الْمَقْصُودِ، فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الْمُقَدَّمُ كَلَامًا مِثْلَ النِّدَاءِ وَحُرُوفِ الِاسْتِفْتَاحِ، وَقَدْ يَكُونُ الْمُقَدَّمُ صَوْتًا كَمَنْ يُصَفِّقُ لِيُقْبِلَ عَلَيْهِ السَّامِعُ، فَاخْتَارَ الْحَكِيمُ لِلتَّنْبِيهِ حُرُوفًا مِنْ حُرُوفِ التَّهَجِّي، لِتَكُونَ دَلَالَتُهَا عَلَى قَصْدِ التَّنْبِيهِ مُتَعَيِّنَةً إِذْ لَيْسَ لَهَا مَفْهُومٌ، فَتَمَحَّضَتْ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى غَرَضٍ مُهِمٍّ.**

**- الْقَوْلُ السَّابِعَ عَشَرَ: أَنَّهَا إِعْجَازٌ بِالْفِعْلِ، وَهُوَ أَنَّ النَّبِيءَ الْأُمِّيَّ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ قَدْ نَطَقَ بِأُصُولِ الْقِرَاءَةِ، كَمَا يَنْطِقُ بِهَا مَهَرَةُ الْكَتَبَةِ فَيَكُونُ النُّطْقُ بِهَا مُعْجِزَةً وَهَذَا بَيِّنُ الْبُطْلَانِ، لِأَنَّ الْأُمِّيَّ لَا يَعْسُرُ عَلَيْهِ النُّطْقُ بِالْحُرُوفِ.**

**- الْقَوْلُ الثَّامِنَ عَشَرَ: أَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يُعْرِضُونَ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ فَقَالُوا: ﴿**[**لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[[42]](#footnote-42)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**فَأُورِدَتْ لَهُمْ هَذِهِ الْحُرُوفُ لِيُقْبِلُوا عَلَى طَلَبِ فَهْمِ الْمُرَادِ مِنْهَا فَيَقَعُ إِلَيْهِمْ مَا يَتْلُوهَا بِلَا قَصْدٍ، قَالَهُ قُطْرُبٌ وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْقَوْلِ السَّادِسَ عَشَرَ.**

**- الْقَوْلُ التَّاسِعَ عَشَرَ: أَنَّهَا عَلَامَةٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ وُعِدُوا بِهَا مِنْ قِبَلِ أَنْبِيَائِهِمْ أَنَّ الْقُرْآنَ يُفْتَتَحُ بِحُرُوفٍ مُقَطَّعَةٍ.**

**- الْقَوْلُ الْعِشْرُونَ: قَالَ التَّبْرِيزِيُّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ قَوْمًا سَيَقُولُونَ بِقِدَمِ الْقُرْآنِ، فَأَرَاهُمْ أَنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ حُرُوفٍ كَحُرُوفِ الْكَلَامِ، وَهَذَا وَهْمٌ لِأَنَّ تَأْلِيفَ الْكَلَامِ مِنْ أَصْوَاتِ الْكَلِمَاتِ أَشَدُّ دَلَالَةً عَلَى حُدُوثِهِ مِنْ دَلَالَةِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ لِقِلَّةِ أَصْوَاتِهَا.**

**- الْقَوْلُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ: رُوِيَ عَنِ**[**ابْنِ عَبَّاسٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=11)**أَنَّهَا ثَنَاءٌ أَثْنَى اللَّهُ بِهِ عَلَى نَفْسِه،ِ وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ أَوِ الثَّانِي.**

**هَذَا جُمَّاعُ الْأَقْوَالِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ قِرَاءَةَ كَافَّةِ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهَا بِأَسْمَاءِ حُرُوفِ الْهِجَاءِ مِثْلَ أَلِفْ. لَامْ. مِيمْ دُونَ أَنْ يَقْرَءُوا أَلَمْ وَأَنَّ رَسْمَهَا فِي الْخَطِّ بِصُورَةِ الْحُرُوفِ يُزَيِّفُ جَمِيعَ أَقْوَالِ النَّوْعِ الْأَوَّلِ وَيُعَيِّنُ الِاقْتِصَارَ عَلَى النَّوْعَيْنِ الثَّانِي وَالثَّالِثِ فِي الْجُمْلَةِ، عَلَى أَنَّ مَا يَنْدَرِجُ تَحْتَ ذَيْنِكَ النَّوْعَيْنِ مُتَفَاوِتٌ فِي دَرَجَاتِ الْقَبُولِ، فَإِنَّ الْأَقْوَالَ الثَّانِيَ، وَالسَّابِعَ، وَالثَّامِنَ، وَالثَّانِيَ عَشَرَ، وَالْخَامِسَ عَشَرَ، وَالسَّادِسَ عَشَرَ، يُبْطِلُهَا أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ لَوْ كَانَتْ مُقْتَضَبَةً مِنْ أَسْمَاءٍ أَوْ كَلِمَاتٍ لَكَانَ الْحَقُّ أَنْ يُنْطَقَ بِسَمِيَّاتِهَا لَا بِأَسْمَائِهَا.**

**فَإِذَا تَعَيَّنَ هَذَانِ النَّوْعَانِ وَأَسْقَطْنَا مَا كَانَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمُنْدَرِجَةِ تَحْتَهُمَا وَاهِيًا، خَلَصَ أَنَّ الْأَرْجَحَ مِنْ تِلْكَ الْأَقْوَالِ ثَلَاثَةٌ: وَهِيَ كَوْنُ تِلْكَ الْحُرُوفِ لِتَبْكِيتِ الْمُعَانِدِينَ وَتَسْجِيلًا لِعَجْزِهِمْ عَنِ الْمُعَارَضَةِ، أَوْ كَوْنُهَا أَسْمَاءً لِلسُّوَرِ الْوَاقِعَةِ هِيَ فِيهَا، أَوْ كَوْنُهَا أَقْسَامًا أَقْسَمَ بِهَا لِتَشْرِيفِ قَدْرِ الْكِتَابَةِ وَتَنْبِيهِ الْعَرَبِ الْأُمِّيِّينَ إِلَى فَوَائِدِ الْكِتَابَةِ لِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ حَالَةِ الْأُمِّيَّةِ. وَأَرْجَحُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الثَّلَاثَةِ هُوَ أَوَّلُهَا.**

**قَالَ فِي *الْكَشَّافِ*: مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الْفَوَاتِحِ مِنْ أَسْمَاءِ الْحُرُوفِ هُوَ نِصْفُ أَسَامِي حُرُوفِ الْمُعْجَمِ إِذْ هِيَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ وَهِيَ: الْأَلِفُ، وَاللَّامُ، وَالْمِيمُ، وَالصَّادُ، وَالرَّاءُ، وَالْكَافُ، وَالْهَاءُ، وَالْيَاءُ، وَالْعَيْنُ، وَالطَّاءُ، وَالسِّينُ، وَالْحَاءُ، وَالْقَافُ، وَالنُّونُ، فِي تِسْعٍ وَعِشْرِينَ سُورَةً عَلَى عَدَدِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ، وَهَذِهِ الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَنْصَافِ أَجْنَاسِ صِفَاتِ الْحُرُوفِ فَفِيهَا مِنَ الْمَهْمُوسَةِ نِصْفُهَا: الصَّادُ، وَالْكَافُ، وَالْهَاءُ، وَالسِّينُ وَالْحَاءُ، وَمِنَ الْمَجْهُورَةِ نِصْفُهَا: الْأَلِفُ، وَاللَّامُ، وَالْمِيمُ، وَالرَّاءُ، وَالْعَيْنُ، وَالطَّاءُ، وَالْقَافُ، وَالْيَاءُ، وَالنُّونُ، وَمِنَ الشَّدِيدَةِ نِصْفُهَا: الْأَلِفُ، وَالْكَافُ، وَالطَّاءُ، وَالْقَافُ، وَمِنَ الرَّخْوَةِ نِصْفُهَا: اللَّامُ، وَالْمِيمُ، وَالرَّاءُ، وَالصَّادُ وَالْهَاءُ، وَالْعَيْنُ، وَالسِّينُ، وَالْحَاءُ، وَالْيَاءُ، وَالنُّونُ. وَمِنَ الْمُطْبَقَةِ نِصْفُهَا: الصَّادُ، وَالطَّاءُ.**

**وَمِنَ الْمُنْفَتِحَةِ نِصْفُهَا: الْأَلِفُ، وَاللَّامُ، وَالْمِيمُ، وَالرَّاءُ، وَالْكَافُ، وَالْهَاءُ، وَالْعَيْنُ، وَالسِّينُ، وَالْقَافُ، وَالْيَاءُ، وَالنُّونُ.**

**وَمِنَ الْمُسْتَعْلِيَةِ نِصْفُهَا الْقَافُ، وَالصَّادُ، وَالطَّاءُ. وَمِنَ الْمُسْتَفِلَةِ نَصِفُهَا: الْأَلِفُ، وَاللَّامُ، وَالْمِيمُ، وَالرَّاءُ، وَالْكَافُ، وَالْهَاءُ، وَالْيَاءُ، وَالْعَيْنُ، وَالسِّينُ، وَالْحَاءُ، وَالنُّونُ. وَمِنْ حُرُوفِ الْقَلْقَلَةِ نَصِفُهَا: الْقَافُ، وَالطَّاءُ.**

**ثُمَّ إِنَّ الْحُرُوفَ الَّتِي أُلْغِيَ ذِكْرُهَا مَكْثُورَةً بِالْمَذْكُورَةِ، فَسُبْحَانَ الَّذِي دَقَّتْ فِي كُلِّ شَيْءٍ حِكْمَتُهُ اهـ.**

**وَزَادَ الْبَيْضَاوِيُّ عَلَى ذَلِكَ أَصْنَافًا أُخْرَى مِنْ صِفَاتِ الْحُرُوفِ لَا نُطِيلُ بِهَا فَمَنْ شَاءَ فَلْيُرَاجِعْهَا.**

**وَمَحْصُولُ كَلَامِهِمَا أَنَّهُ قَدْ قُضِيَ بِذِكْرِ مَا ذُكِرَ مِنَ الْحُرُوفِ وَإِهْمَالُ ذِكْرِ مَا أُهْمِلَ مِنْهَا حَقُّ التَّمْثِيلِ لِأَنْوَاعِ الصِّفَاتِ بِذِكْرِ النِّصْفِ، وَتَرْكِ النِّصْفِ مِنْ بَابِ وَلْيُقَسْ مَا لَمْ يُقَلْ لِحُصُولِ الْغَرَضِ وَهُوَ الْإِشَارَةُ إِلَى الْعِنَايَةِ بِالْكِتَابَةِ، وَحَقُّ الْإِيجَازِ فِي الْكَلَامِ.**

**فَيَكُونُ ذِكْرُ مَجْمُوعِ هَذِهِ الْفَوَاتِحِ فِي سُوَرِ الْقُرْآنِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْوَجْهِ الثَّالِثِ مِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي الْمُقَدِّمَةِ الْعَاشِرَةِ مِنْ مُقَدِّمَاتِ هَذَا التَّفْسِيرِ.**

**وَكَيْفِيَّةُ النُّطْقِ أَنْ يُنْطَقَ بِهَا مَوْقُوفَةً دُونَ عَلَامَاتِ إِعْرَابٍ عَلَى حُكْمِ الْأَسْمَاءِ الْمَسْرُودَةِ، إِذْ لَمْ تَكُنْ مَعْمُولَةً لِعَوَامِلَ فَحَالُهَا، كَحَالِ الْأَعْدَادِ الْمَسْرُودَةِ حِينَ تَقُولُ ثَلَاثَهْ أَرْبَعَهْ خَمْسَهْ، وَكَحَالِ أَسْمَاءِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُمْلَى عَلَى الْجَارِدِ لَهَا، إِذْ تَقُولُ مَثَلًا: ثَوْب، بِسَاط، سَيْف، دُونَ إِعْرَابٍ، وَمَنْ أَعْرَبَهَا كَانَ مُخْطِئًا.**

**وَلِذَلِكَ نَطَقَ الْقُرَّاءُ بِهَا سَاكِنَةً سُكُونَ الْمَوْقُوفِ عَلَيْهِ، فَمَا كَانَ مِنْهَا صَحِيحُ الْآخِرِ نُطِقَ بِهِ سَاكِنًا نَحْوَ أَلِفْ، لَامْ، مِيمْ. وَمَا كَانَ مِنْ أَسْمَاءِ الْحُرُوفِ مَمْدُودَ الْآخِرِ نُطِقَ بِهِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ أَلِفًا مَقْصُورًا، لِأَنَّهَا مَسُوقَةٌ مَسَاقَ الْمُتَهَجَّى بِهَا، وَهِيَ فِي حَالَةِ التَّهَجِّي مَقْصُورَةٌ طَلَبًا لِلْخِفَّةِ لِأَنَّ التَّهَجِّيَ إِنَّمَا يَكُونُ غَالِبًا لِتَعْلِيمِ الْمُبْتَدِئِ، وَاسْتِعْمَالُهَا فِي التَّهَجِّي أَكْثَرُ فَوَقَعَتْ فِي فَوَاتِحِ السُّوَرِ مَقْصُورَةً لِأَنَّهَا عَلَى نَمَطِ التَّعْدِيدِ أَوْ مَأْخُوذَةً مِنْهُ.**

**وَلَكِنَّ النَّاسَ قَدْ يَجْعَلُونَ فَاتِحَةَ إِحْدَى السُّوَرِ كَالِاسْمِ لَهَا فَيَقُولُونَ قَرَأْتُ: ﴿**[**كهيعص**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**﴾[[43]](#footnote-43) كَمَا يَجْعَلُونَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ مِنَ الْقَصِيدَةِ اسْمًا لِلْقَصِيدَةِ، فَيَقُولُونَ قَرَأْتُ قِفَا نَبْكِ وَ بَانَتْ سُعَادُ فَحِينَئِذٍ قَدْ تُعَامَلُ جُمْلَةُ الْحُرُوفِ الْوَاقِعَةِ فِي تِلْكَ الْفَاتِحَةِ مُعَامَلَةَ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فَيَجْرِي عَلَيْهَا مِنَ الْإِعْرَابِ مَا هُوَ لِنَظَائِرِ تِلْكَ الصِّيغَةِ مِنَ الْأَسْمَاءِ فَلَا يُصْرَفُ حَامِيمُ، كَمَا قَالَ شُرَيْحُ بْنُ أَوْفَى الْعَنْسِيُّ الْمُتَقَدِّمُ آنِفًا:**

**يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ      فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ**

**وَكَمَا قَالَ**[**الْكُمَيْتُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15102)**:**

**قَرَأْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمَ آيَةً      تَأَوَّلَهَا مِنَّا فَقِيهٌ وَمُعْـــــــــــــــــــــرِبٌ**

**وَلَا يُعْرَبُ ﴿**[**كهيعص﴾[[44]](#footnote-44)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**إِذْ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْأَسْمَاءِ إِفْرَادًا وَلَا تَرْكِيبًا.**

**وَأَمَّا ﴿**[**طسم﴾[[45]](#footnote-45)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**فَيُعْرَبُ إِعْرَابَ الْمُرَكَّبِ الْمَزْجِيِّ نَحْوَ حَضْرَمَوْتَ وَدَارَابَجِرْدَ.**

**وَقَالَ**[**سِيبَوَيْهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16076)**:**

**إِنَّكَ إِذَا جَعَلْتَ هُودَ اسْمَ السُّورَةِ لَمْ تَصْرِفْهَا، فَتَقُولُ قَرَأْتُ هُودَ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنِيثِ، قَالَ لِأَنَّهَا تَصِيرُ بِمَنْزِلَةِ امْرَأَةٍ سَمَّيْتَهَا بِعَمْرٍو.**

**وَلَكَ فِي الْجَمِيعِ أَنْ تَأْتِيَ بِهِ فِي الْإِعْرَابِ عَلَى حَالِهِ مِنَ الْحِكَايَةِ وَمَوْقِعِ هَاتِهِ الْفَوَاتِحِ مَعَ مَا يَلِيهَا مِنْ حَيْثُ الْإِعْرَابِ، فَإِنْ جَعَلَتْهَا حُرُوفًا لِلتَّهَجِّي تَعْرِيضًا بِالْمُشْرِكِينَ وَتَبْكِيتًا لَهُمْ فَظَاهِرٌ أَنَّهَا حِينَئِذٍ مَحْكِيَّةٌ وَلَا تَقْبَلُ إِعْرَابًا، لِأَنَّهَا حِينَئِذٍ بِمَنْزِلَةِ أَسْمَاءِ الْأَصْوَاتِ لَا يُقْصَدُ إِلَّا صُدُورُهَا، فَدَلَالَتُهَا تُشْبِهُ الدَّلَالَةَ الْعَقْلِيَّةَ، فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّاطِقَ بِهَا يُهَيِّئُ السَّامِعَ إِلَى مَا يَرِدُ بَعْدَهَا مِثْلَ سَرْدِ الْأَعْدَادِ الْحِسَابِيَّةِ عَلَى مَنْ يُرَادُ مِنْهُ أَنْ يَجْمَعَ حَاصِلَهَا أَوْ يَطْرَحَ، أَوْ يَقْسِمَ، فَلَا إِعْرَابَ لَهَا مَعَ مَا يَلِيهَا، وَلَا مَعْنَى لِلتَّقْدِيرِ بِالْمُؤَلَّفِ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ، إِذْ لَيْسَ ذَلِكَ الْإِعْلَامُ بِمَقْصُودٍ لِظُهُورِهِ وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ مَا يَحْصُلُ عِنْدَ تَعْدَادِهَا مِنَ التَّعْرِيضِ، لِأَنَّ الَّذِي يَتَهَجَّى الْحُرُوفَ لِمَنْ يُنَافِي فِي حَالُهُ أَنْ يُقْصَدَ تَعْلِيمُهُ يَتَعَيَّنُ مِنَ الْمَقَامِ أَنَّهُ يَقْصِدُ التَّعْرِيضَ.**

**وَإِذَا قَدَّرْتَهَا أَسْمَاءً لِلسُّوَرِ أَوْ لِلْقُرْآنِ أَوْ لِلَّهِ –تَعَالَى- مُقْسَمًا بِهَا فَقِيلَ إِنَّ لَهَا أَحْكَامًا مَعَ مَا يَلِيهَا مِنَ الْإِعْرَابِ بَعْضُهَا مُحْتَاجٌ لِلتَّقْدِيرِ الْكَثِيرِ، فَدَعْ عَنْكَ الْإِطَالَةَ بِهَا فَإِنَّ الزَّمَانَ قَصِيرٌ.**

**وَهَاتِهِ الْفَوَاتِحُ قُرْآنٌ لَا مَحَالَةَ وَلَكِنِ اخْتُلِفَ فِي أَنَّهَا آيَاتٌ مُسْتَقِلَّةٌ وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِآيَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ بَلْ هِيَ أَجْزَاءٌ مِنَ الْآيَاتِ الْمُوَالِيَةِ لَهَا عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مَذَاهِبِ جُمْهُورِ الْقُرَّاءِ.**

**وَرُوِيَ عَنْ قُرَّاءِ الْكُوفَةِ أَنَّ بَعْضَهَا عَدُّوهُ آيَاتٍ مُسْتَقِلَّةً وَبَعْضُهَا لَمْ يَعُدُّوهُ وَجَعَلُوهُ جُزْءَ آيَةٍ مَعَ مَا يَلِيهِ، وَلَمْ يَظْهَرْ وَجْهُ التَّفْصِيلِ حَتَّى قَالَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ*: إِنَّ هَذَا لَا دَخْلَ لِلْقِيَاسِ فِيهِ.**

**وَالصَّحِيحُ عَنِ الْكُوفِيِّينَ أَنَّ جَمِيعَهَا آيَاتٍ، وَهُوَ اللَّائِقُ بِأَصْحَابِ هَذَا الْقَوْلِ إِذِ التَّفْصِيلُ تَحَكُّمٌ; لِأَنَّ الدَّلِيلَ مَفْقُودٌ.**

**وَالْوَجْهُ عِنْدِي أَنَّهَا آيَاتٌ لِأَنَّ لَهَا دَلَالَةً تَعْرِيضِيَّةً كِنَائِيَّةً إِذِ الْمَقْصُودُ إِظْهَارُ عَجْزِهِمْ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ فَهِيَ تُطَابِقُ مُقْتَضَى الْحَالِ مَعَ مَا يَعْقُبُهَا مِنَ الْكَلَامِ وَلَا يُشْتَرَطُ فِي دَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَى مَعْنًى كِنَائِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعْنًى صَرِيحٌ بَلْ تُعْتَبَرُ دَلَالَةُ الْمُطَابَقَةِ فِي هَذِهِ الْحُرُوفِ تَقْدِيرِيَّةً إِنْ قُلْنَا بِاشْتِرَاطِ مُلَازَمَةِ دَلَالَةِ الْمُطَابَقَةِ لِدَلَالَةِ الِالْتِزَامِ.**

**وَيَدُلُّ لِإِجْرَاءِ السَّلَفِ حُكْمَ أَجْزَاءِ الْآيَاتِ عَلَيْهَا أَنَّهُمْ يَقْرَءُونَهَا إِذَا قَرَءُوا الْآيَةَ الْمُتَّصِلَةَ بِهَا، فَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ فِي ذِكْرِ سَبَبِ نُزُولِ سُورَةِ الرُّومِ. فَنَزَلَتْ: ﴿**[**الم غُلِبَتِ الرُّومُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**﴾[[46]](#footnote-46)، وَفِيهِ أَيْضًا فَخَرَجَ**[**أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=1)**يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ: ﴿**[**الم غُلِبَتِ الرُّومُ﴾[[47]](#footnote-47)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**وَفِي سِيرَةِ**[**ابْنِ إِسْحَاقَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12563)**مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ هِشَامٍ عَنْهُ فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ﴿**[**حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[[48]](#footnote-48)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**حَتَّى بَلَغَ قَوْلَهُ: ﴿**[**فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[[49]](#footnote-49)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)**الْحَدِيثَ.**

**وَعَلَى هَذَا الْخِلَافِ اخْتُلِفَ فِي إِجْزَاءِ قِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ عِنْدَ الَّذِينَ يَكْتَفُونَ فِي قِرَاءَةِ السُّورَةِ مَعَ الْفَاتِحَةِ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ.**

**﴿**[**ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾[[50]](#footnote-50)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=30#docu)

**مَبْدَأُ كَلَامٍ لَا اتِّصَالَ لَهُ فِي الْإِعْرَابِ بِحُرُوفِ الم كَمَا عَلِمْتَ مِمَّا تَقَدَّمَ عَلَى جَمِيعِ الِاحْتِمَالَاتِ كَمَا هُوَ الْأَظْهَرُ.**

**وَقَدْ جَوَّزَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* عَلَى احْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ حُرُوفُ الم مَسُوقَةً مَسَاقَ التَّهَجِّي لِإِظْهَارِ عَجْزِ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ بَعْضِ الْقُرْآنِ، أَنْ يَكُونَ اسْمُ الْإِشَارَةِ مُشَارًا بِهِ إِلَى الم بِاعْتِبَارِهِ حَرْفًا مَقْصُودًا لِلتَّعْجِيزِ، أَيْ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْحَاصِلِ مِنَ التَّهَجِّي أَيْ ذَلِكَ الْحُرُوفُ بِاعْتِبَارِهَا مِنْ جِنْسِ حُرُوفِكُمْ هِيَ الْكِتَابُ أَيْ مِنْهَا تَرَاكِيبُهُ فَمَا أَعْجَزَكُمْ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، فَيَكُونُ الم جُمْلَةً مُسْتَقِلَّةً مَسُوقَةً لِلتَّعْرِيضِ وَاسْمُ الْإِشَارَةِ مُبْتَدَأً وَالْكِتَابُ خَبَرًا.**

**وَعَلَى الْأَظْهَرِ تَكُونُ الْإِشَارَةُ إِلَى الْقُرْآنِ الْمَعْرُوفِ لَدَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ. وَاسْمُ الْإِشَارَةِ مُبْتَدَأٌ وَالْكِتَابُ بَدَلٌ وَخَبَرُهُ مَا بَعْدَهُ، فَالْإِشَارَةُ إِلَى الْكِتَابِ النَّازِلِ بِالْفِعْلِ وَهِيَ السُّوَرُ الْمُتَقَدِّمَةُ عَلَى سُورَةِ الْبَقَرَةِ; لِأَنَّ كُلَّ مَا نَزَلْ مِنَ الْقُرْآنِ فَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِأَنَّهُ الْقُرْآنُ وَيَنْضَمُّ إِلَيْهِ مَا يَلْحَقُ بِهِ، فَيَكُونُ الْكِتَابُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أُطْلِقَ حَقِيقَةً عَلَى مَا كُتِبَ بِالْفِعْلِ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ الْكِتَابِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ خَبَرًا عَنِ اسْمِ الْإِشَارَةِ.**

**وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ إِلَى جَمِيعِ الْقُرْآنِ مَا نَزَلَ مِنْهُ وَمَا سَيَنْزِلُ، لِأَنَّ نُزُولَهُ مُتَرَقَّبٌ، فَهُوَ حَاضِرٌ فِي الْأَذْهَانِ فَشَبَّهَ بِالْحَاضِرِ فِي الْعِيَانَ، فَالتَّعْرِيفُ فِيهِ لِلْعَهْدِ التَّقْدِيرِيِّ وَالْإِشَارَةُ إِلَيْهِ لِلْحُضُورِ التَّقْدِيرِيِّ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿الْكِتَابَ﴾[[51]](#footnote-51) حِينَئِذٍ بَدَلًا أَوْ بَيَانًا مِنْ ذَلِكَ وَالْخَبَرُ هُوَ لَا رَيْبَ فِيهِ.**

**وَيَجُوزُ الْإِتْيَانُ فِي مِثْلِ هَذَا بِاسْمِ الْإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْقَرِيبِ وَالْمَوْضُوعِ لِلْبَعِيدِ، قَالَ الرَّضِيُّ: وُضِعَ اسْمُ الْإِشَارَةِ لِلْحُضُورِ وَالْقُرْبِ لِأَنَّهُ لِلْمُشَارِ إِلَيْهِ حِسًّا، ثُمَّ يَصِحُّ أَنْ يُشَارَ بِهِ إِلَى الْغَائِبِ، فَيَصِحُّ الْإِتْيَانُ بِلَفْظِ الْبُعْدِ لِأَنَّ الْمَحْكِيَّ عَنْهُ غَائِبٌ، وَيَقِلُّ أَنْ يُذْكَرَ بِلَفْظِ الْحَاضِرِ الْقَرِيبِ فَتَقُولُ جَاءَنِي رَجُلٌ فَقُلْتُ لِذَلِكَ الرَّجُلِ وَقُلْتُ لِهَذَا الرَّجُلِ، وَكَذَا يَجُوزُ لَكَ فِي الْكَلَامِ الْمَسْمُوعِ عَنْ قَرِيبٍ أَنْ تُشِيرَ إِلَيْهِ بِلَفْظِ الْغَيْبَةِ وَالْبُعْدِ، كَمَا تَقُولُ: وَاللَّهِ وَذَلِكَ قَسَمٌ عَظِيمٌ، لِأَنَّ اللَّفْظَ زَالَ سَمَاعُهُ فَصَارَ كَالْغَائِبِ وَلَكِنَّ الْأَغْلَبَ فِي هَذَا الْإِشَارَةُ بِلَفْظِ الْحُضُورِ فَتَقُولُ: وَهَذَا قَسَمٌ عَظِيمٌ اهـ، أَيِ الْأَكْثَرُ فِي مِثْلِهِ الْإِتْيَانُ بِاسْمِ إِشَارَةِ الْبَعِيدِ وَيَقِلُّ ذِكْرُهُ بِلَفْظِ الْحَاضِرِ، وَعَكْسُ ذَلِكَ فِي الْإِشَارَةِ لِلْقَوْلِ.**

**وَابْنُ مَالِكٍ فِي التَّسْهِيلِ سَوَّى بَيْنَ الْإِتْيَانِ بِالْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ فِي الْإِشَارَةِ لِكَلَامٍ مُتَقَدِّمٍ، إِذْ قَالَ: وَقَدْ يَتَعَاقَبَانِ أَيِ اسْمُ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ مُشَارًا بِهِمَا إِلَى مَا وَلِيَاهُ أَيْ مِنَ الْكَلَامِ، وَمَثَلَّهُ شَارِحُهُ بِقَوْلِهِ –تَعَالَى- بَعْدَ قِصَّةِ عِيسَى: ﴿**[**ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَليْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=30#docu)**ثُمَّ قَالَ: ﴿**[**إِنَّ هَذَا لَهْوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾[[52]](#footnote-52)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=30#docu)**فَأَشَارَ مَرَّةً بِالْبَعِيدِ وَمَرَّةً بِالْقَرِيبِ وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ وَاحِدٌ، وَكَلَامُ ابْنِ مَالِكٍ أَوْفَقُ بِالِاسْتِعْمَالِ إِذْ لَا يَكَادُ يُحْصَرُ مَا وَرَدَ مِنَ الِاسْتِعْمَالَيْنِ فَدَعْوَى الرَّضِيِّ قِلَّةَ أَنْ يُذْكَرَ بِلَفْظِ الْحَاضِرِ دَعْوَى عَرِيضَةٌ.**

**وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ حُكْمُ الْإِشَارَةِ إِلَى غَائِبٍ غَيْرِ كَلَامٍ مِثْلَ الْإِشَارَةِ إِلَى الْكَلَامِ فِي جَوَازِ الْوَجْهَيْنِ لِكَثْرَةِ كِلَيْهِمَا أَيْضًا، فَفِي الْقُرْآنِ: ﴿**[**فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾[[53]](#footnote-53).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=30#docu)

**فَإِذَا كَانَ الْوَجْهَانِ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الِاسْتِعْمَالُ مَجَالًا لِتَسَابُقِ الْبُلَغَاءِ وَمُرَاعَاةِ مُقْتَضَيَاتِ الْأَحْوَالِ، وَنَحْنُ قَدْ رَأَيْنَاهُمْ يَتَخَيَّرُونَ فِي مَوَاقِعِ الْإِتْيَانِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ مَا هُوَ أَشَدُّ مُنَاسَبَةً لِذَلِكَ الْمَقَامِ فَدَلَّنَا عَلَى أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ مُخَاطِبِيهِمْ بِأَغْرَاضٍ لَا قِبَلَ لِتَعَرُّفِهَا إِلَّا إِذَا كَانَ الِاسْتِعْمَالُ سَوَاءً فِي أَصْلِ اللُّغَةِ لِيَكُونَ التَّرْجِيحُ لِأَحَدِ الِاسْتِعْمَالَيْنِ لَا عَلَى مَعْنَى مِثْلَ زِيَادَةِ التَّنْبِيهِ فِي اسْمِ الْإِشَارَةِ الْبَعِيدِ كَمَا هُنَا، وَكَمَا قَالَ خُفَافُ بْنُ نَدْبَةَ:**

**أَقُولُ لَهُ وَالرُّمْحُ يَأْطُرُ مَتْنَهُ تَأَمَّلْ خُفَافًا إِنَّنِي أَنَا ذَلِكَ**

**وَقَدْ يُؤْتَى بِالْقَرِيبِ لِإِظْهَارِ قِلَّةِ الِاكْتِرَاثِ كَقَوْلِ قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ فِي الْحَمَاسَةِ:**

**مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا يَلْفِ حَاجَةً     لِنَفْسِيَ إِلَّا قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا**

**فَلَا جَرَمَ أَنْ كَانَتِ الْإِشَارَةُ فِي الْآيَةِ بِاسْتِعْمَالِ اسْمِ الْإِشَارَةِ لِلْبَعِيدِ لِإِظْهَارِ رِفْعَةِ شَأْنِ هَذَا الْقُرْآنِ لِجَعْلِهِ بَعِيدَ الْمَنْزِلَةِ.**

**وَقَدْ شَاعَ فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ تَمْثِيلُ الْأَمْرِ الشَّرِيفِ بِالشَّيْءِ الْمَرْفُوعِ فِي عِزَّةِ الْمَنَالِ، لِأَنَّ الشَّيْءَ النَّفِيسَ عَزِيزٌ عَلَى أَهْلِهِ فَمِنَ الْعَادَةِ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي الْمُرْتَفَعَاتِ صَوْنًا لَهُ عَنِ الدُّرُوسِ وَتَنَاوُلِ كَثْرَةِ الْأَيْدِي وَالِابْتِذَالِ، فَالْكِتَابُ هُنَا لَمَّا ذُكِرَ فِي مَقَامِ التَّحَدِّي بِمُعَارَضَتِهِ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ حُرُوفُ التَّهَجِّي فِي الم كَانَ كَالشَّيْءِ الْعَزِيزِ الْمَنَالِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَنَاوُلِهِمْ إِيَّاهُ بِالْمُعَارَضَةِ أَوْ لِأَنَّهُ لِصِدْقِ مَعَانِيهِ وَنَفْعِ إِرْشَادِهِ بِعِيدٌ عَمَّنْ يَتَنَاوَلُهُ بِهُجْرِ الْقَوْلِ كَقَوْلِهِمُ افْتَرَاهُ وَقَوْلِهِمْ: ﴿**[**أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[[54]](#footnote-54)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=30#docu)**وَلَا يَرِدُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ: ﴿**[**وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾[[55]](#footnote-55)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=30#docu)**فَذَلِكَ لِلْإِشَارَةِ إِلَى كِتَابٍ بَيْنَ يَدَيْ أَهْلِهِ لِتَرْغِيبِهِمْ فِي الْعُكُوفِ عَلَيْهِ وَالِاتِّعَاظِ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيِهِ.**

**وَلَعَلَّ صَاحِبَ *الْكَشَّافِ* بَنَى عَلَى مِثْلِ مَا بَنَى عَلَيْهِ الرَّضِيُّ فَلَمْ يَعُدَّ "ذَلِكَ الْكِتَابُ" تَنْبِيهًا عَلَى التَّعْظِيمِ أَوِ الِاعْتِبَارِ، فَلِلَّهِ دَرُّ صَاحِبِ الْمِفْتَاحِ، إِذْ لَمْ يُغْفِلْ ذَلِكَ، فَقَالَ فِي مُقْتَضَيَاتِ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْإِشَارَةِ: أَوْ أَنْ يَقْصِدَ بِبُعْدِهِ تَعْظِيمَهُ، كَمَا تَقُولُ فِي مَقَامِ التَّعْظِيمِ ذَلِكَ الْفَاضِلُ وَأُولَئِكَ الْفُحُولُ، وَكَقَوْلِهِ -عَزَّ وَعَلَا-: ﴿**[**الم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾[[56]](#footnote-56)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=30#docu)**ذَهَابًا إِلَى بُعْدِهِ دَرَجَةً.**

**وَقَوْلُهُ: "الْكِتَابُ" يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنَ اسْمِ الْإِشَارَةِ لِقَصْدِ بَيَانِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ لِعَدَمِ مُشَاهَدَتِهِ، فَالتَّعْرِيفُ فِيهِ إِذَنْ لِلْعَهْدِ، وَيَكُونُ الْخَبَرُ هُوَ جُمْلَةُ: " لَا رَيْبَ فِيهِ "، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ خَبَرًا عَنِ اسْمِ الْإِشَارَةِ، وَيَكُونُ التَّعْرِيفُ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ، فَتُفِيدُ الْجُمْلَةُ قَصْرَ حَقِيقَةِ الْكِتَابِ عَلَى الْقُرْآنِ بِسَبَبِ تَعْرِيفِ الْجُزْئَيْنِ، فَهُوَ إِذَنْ قَصْرٌ ادِّعَائِيٌ وَمَعْنَاهُ ذَلِكَ هُوَ الْكِتَابُ الْجَامِعُ لِصِفَاتِ الْكَمَالِ فِي جِنْسِ الْكُتُبِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْكُتُبِ إِذَا نُسِبَتْ إِلَيْهِ كَانَتْ كَالْمَفْقُودِ مِنْهَا وَصْفَ الْكِتَابِ لِعَدَمِ اسْتِكْمَالِهَا جَمِيعِ كَمَالَاتِ الْكُتُبِ.**

**وَهَذَا التَّعْرِيفُ قَدْ يُعَبِّرُ عَنْهُ النُّحَاةُ فِي تَعْدَادِ مَعَانِي لَامِ التَّعْرِيفِ بِمَعْنَى الدَّلَالَةِ عَلَى الْكَمَالِ، فَلَا يَرِدُ أَنَّهُ كَيْفَ يُحْصَرُ الْكِتَابُ فِي أَنَّهُ الم أَوْ فِي السُّورَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِك،َ إِذْ لَيْسَ الْمَقَامُ مَقَامَ الْحَصْرِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَقَامُ التَّعْرِيفِ لَا غَيْرَ، فَفَائِدَةُ التَّعْرِيفِ وَالْإِشَارَةِ ظَاهِرِيَّةٌ وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لَغْوًا بِحَالٍ وَإِنْ سَبَقَ لِبَعْضِ الْأَوْهَامِ عَلَى بَعْضٍ احْتِمَالٌ.**

**وَالْكِتَابُ فِعَالٌ بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ إِمَّا مَصْدَرُ كَاتَبَ الْمَصُوغُ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْكِتَابَةِ، فَإِنَّ الْمَصْدَرَ يَجِيءُ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ كَالْخَلْقِ، وَإِمَّا فِعَالٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَلِبَاسٍ بِمَعْنَى مَلْبُوسٍ وَعِمَادٍ بِمَعْنَى مَعْمُودٍ بِهِ.**

**وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ كَتَبَ بِمَعْنَى جَمَعَ وَضَمَّ لِأَنَّ الْكِتَابَ تُجْمَعُ أَوْرَاقُهُ وَحُرُوفُهُ، فَإِنَّ النَّبِيءَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَمَرَ بِكِتَابَةِ كُلِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ الْوَحْيِ وَجَعَلَ لِلْوَحْيِ كِتَابًا، وَتَسْمِيَةُ الْقُرْآنِ كِتَابًا إِشَارَةٌ إِلَى وُجُوبِ كِتَابَتِهِ لِحِفْظِهِ.**

**وَكِتَابَةُ الْقُرْآنِ فَرْضُ كِفَايَةٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.**

**﴿**[**لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[[57]](#footnote-57)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)

**حَالٌ مِنَ الْكِتَابِ أَوْ خَبَرٌ أَوَّلٌ أَوْ ثَانٍ عَلَى مَا مَرَّ قَرِيبًا.**

**وَالرَّيْبُ الشَّكُّ وَأَصْلُ الرَّيْبِ الْقَلَقُ وَاضْطِرَابُ النَّفْسِ، وَرَيْبُ الزَّمَانِ وَرَيْبُ الْمَنُونِ نَوَائِبُ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[[58]](#footnote-58).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)

**وَلَمَّا كَانَ الشَّكُّ يَلْزَمُهُ اضْطِرَابُ النَّفْسِ وَقَلَقُهَا غَلَبَ عَلَيْهِ الرَّيْبُ فَصَارَ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً يُقَالُ رَابَهُ الشَّيْءُ إِذَا شَكَّكَهُ أَيْ بِجَعْلِ مَا أَوْجَبَ الشَّكَّ فِي حَالِهِ فَهُوَ مُتَعَدٍّ، وَيُقَالُ أَرَابَهُ كَذَلِكَ إِذِ الْهَمْزَةُ لَمْ تُكْسِبْهُ تَعْدِيَةً زَائِدَةً فَهُوَ مِثْلُ لَحِقَ وَأَلْحَقَ، وَزَلَقَهُ وَأَزْلَقَهُ وَقَدْ قِيلَ إِنَّ أَرَابَ أَضْعَفُ مِنْ رَابَ أَرَابَ بِمَعْنَى قُرْبِهِ مِنْ أَنْ يَشُكَّ قَالَهُ أَبُو زَيْدٍ، وَعَلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَهُمَا.**

**قَالَ بَشَّارٌ:**

**أَخُوكَ الَّذِي إِنْ رِبْتَهُ قَالَ إِنَّمَا أَرَبْتَ وَإِنْ عَاتَبْتَهُ لَانَ جَانِبُهُ**

**وَفِي الْحَدِيثِ:**[**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيبُكَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**أَيْ دَعِ الْفِعْلَ الَّذِي يُقَرِّبُكَ مِنَ الشَّكِّ فِي التَّحْرِيمِ إِلَى فِعْلٍ آخَرَ لَا يَدْخُلُ عَلَيْكَ فِي فِعْلِهِ شَكٌّ فِي أَنَّهُ مُبَاحٌ.**

**وَلَمْ يَخْتَلِفْ مُتَوَاتِرُ الْقُرَّاءِ فِي فَتْحِ لَا رَيْبَ نَفْيًا لِلْجِنْسِ عَلَى سَبِيلِ التَّنْصِيصِ، وَهُوَ أَبْلَغُهُ، لِأَنَّهُ لَوْ رُفِعَ لَاحْتَمَلَ نَفْيُ الْفَرْدِ دُونَ الْجِنْسِ فَإِنْ كَانَتِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ذَلِكَ إِلَى الْحُرُوفِ الْمُجْتَمِعَةِ فِي الم عَلَى إِرَادَةِ التَّعْرِيضِ بِالْمُتَحَدَّيْنَ، وَكَانَ قَوْلُهُ: "الْكِتَابُ" خَبَرًا لِاسْمِ الْإِشَارَةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ كَانَ قَوْلُهُ لَا رَيْبَ نَفْيًا لِرَيْبٍ خَاصٍّ، وَهُوَ الرَّيْبُ الَّذِي يَعْرِضُ فِي كَوْنِ هَذَا الْكِتَابِ مُؤَلَّفًا مِنْ حُرُوفِ كَلَامِهِمْ، فَكَيْفَ عَجَزُوا عَنْ مِثْلِهِ، وَكَانَ نَفْيُ الْجِنْسِ فِيهِ حَقِيقَةً وَلَيْسَ بِادِّعَاءٍ، فَتَكُونُ جُمْلَةُ لَا رَيْبَ مُنَزَّلَةً مَنْزِلَةَ التَّأْكِيدِ لِمُفَادِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ذَلِكَ الْكِتَابُ.**

**وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَجْرُورُ وَهُوَ قَوْلُهُ فِيهِ مُتَعَلِّقًا بِرَيْبٍ عَلَى أَنَّهُ ظَرْفُ لَغْوٍ فَيَكُونُ الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ فِيهِ، وَهُوَ مُخْتَارُ الْجُمْهُورِ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**﴾[[59]](#footnote-59)، وَقَوْلِهِ: ﴿**[**رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[[60]](#footnote-60)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ فِيهِ ظَرْفًا مُسْتَقِرًّا خَبَرًا لِقَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿**[**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[[61]](#footnote-61).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)

**وَمَعْنَى (فِي) هُوَ الظَّرْفِيَّةُ الْمَجَازِيَّةُ الْعُرْفِيَّةُ تَشْبِيهًا لِدَلَالَةِ اللَّفْظِ بِاحْتِوَاءِ الظَّرْفِ فَيَكُونُ تَخْطِئَةً لِلَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، فَقَالُوا: ﴿**[**لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾[[62]](#footnote-62)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**اسْتِنْزَالًا لِطَائِرِ نُفُورِهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ هَذَا الْكِتَابُ مُشْتَمِلٌ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْهُدَى فَاسْمِعُوا إِلَيْهِ، وَلِذَلِكَ نَكَّرَ  الْهُدَى، أَيْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ هُدًى عَلَى حَدِّ قَوْلِ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-لِأَبِي ذَرٍّ: (**[**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**) وَيَكُونُ خَبَرُ (لَا) مَحْذُوفًا لِظُهُورِهِ أَيْ لَا رَيْبَ مَوْجُودٌ، وَحَذْفُ الْخَبَرِ مُسْتَعْمَلٌ كَثِيرًا فِي أَمْثَالِهِ نَحْوَ قَالُوا لَا ضَيْرَ وَقَوْلُ الْعَرَبِ لَا بَأْسَ، وَقَوْلُ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ:**

**مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا     فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَاحَ**

**أَيْ لَا بَقَاءَ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ اسْتِعْمَالٌ مَجَازِيٌّ فَيَكُونُ الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ لَا رَيْبَ وَفِي *الْكَشَّافِ* أَنَّ نَافِعًا وَعَاصِمًا وَقَفَا عَلَى قَوْلِهِ رَيْبَ وَإِنْ كَانَتِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ذَلِكَ إِلَى الْكِتَابِ بِاعْتِبَارِ كَوْنِهِ كَالْحَاضِرِ الْمُشَاهَدِ.**

**وَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿الْكِتَابُ﴾[[63]](#footnote-63) بَدَلًا مِنَ اسْمِ الْإِشَارَةِ لِبَيَانِه،ِ فَالْمَجْرُورُ مِنْ قَوْلِهِ فِيهِ ظَرْفُ لَغْوٍ مُتَعَلِّقٌ بِرَيْبَ وَخَبَرُ لَا مَحْذُوفٌ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْكَثِيرَةِ فِي مِثْلِهِ، وَالْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ فِيهِ، فِيهِ مَعْنَى نَفْيِ وُقُوعِ الرَّيْبِ فِي الْكِتَابِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ نَفْيِ الشَّكِّ فِي أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ اللَّهِ –تَعَالَى-، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ خِطَابُ الْمُرْتَابِينَ فِي صِدْقِ نِسْبَتِهِ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى-، وَسَيَجِيءُ خِطَابُهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿**[**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[[64]](#footnote-64)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**فَارْتِيَابُهُمْ وَاقِعٌ مُشْتَهِرٌ، وَلَكِنْ نَزَلَ ارْتِيَابُهُمْ مَنْزِلَةَ الْعَدَمِ، لِأَنَّ فِي دَلَائِلِ الْأَحْوَالِ مَا لَوْ تَأَمَّلُوهُ لَزَالَ ارْتِيَابُهُمْ، فَنَزَلَ ذَلِكَ الِارْتِيَابُ مَعَ دَلَائِلَ بُطْلَانِهِ مَنْزِلَةَ الْعَدَمِ.**

**قَالَ صَاحِبُ *الْمِفْتَاحِ*: وَيَقْلِبُونَ الْقَضِيَّةَ مَعَ الْمُنْكِرِ إِذَا كَانَ مَعَهُ مَا إِنْ تَأَمَّلَهُ ارْتَدَعَ، فَيَقُولُونَ لِمُنْكِرِ الْإِسْلَامِ: الْإِسْلَامُ حَقٌّ.**

**وَقَوْلُهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي حَقِّ الْقُرْآنِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَكَمْ مِنْ شَقِيٍّ مُرْتَابٍ فِيهِ وَارِدٌ (عَلَى هَذَا)، فَيَكُونُ الْمُرَكَّبُ الدَّالُّ عَلَى النَّفْيِ الْمُؤَكَّدِ لِلرَّيْبِ مُسْتَعْمَلًا فِي مَعْنَى عَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِالرَّيْبِ لِمُشَابَهَةِ حَالِ الْمُرْتَابِ فِي وَهْنِ رَيْبِهِ بِحَالِ مَنْ لَيْسَ بِمُرْتَابٍ أَصْلًا عَلَى طَرِيقَةِ التَّمْثِيلِ.**

**وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ فَسَّرَ قَوْلَهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[[65]](#footnote-65)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**بِمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ مَا يُوجِبُ ارْتِيَابًا فِي صِحَّتِهِ أَيْ لَيْسَ فِيهِ اضْطِرَابٌ وَلَا اخْتِلَافٌ، فَيَكُونُ الرَّيْبُ هُنَا مَجَازًا فِي سَبَبِهِ وَيَكُونُ الْمَجْرُورُ ظَرْفًا مُسْتَقِرًّا خَبَرَ لَا، فَيَنْظُرُ إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[[66]](#footnote-66)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**أَيْ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَشْتَمِلُ عَلَى كَلَامٍ يُوجِبُ الرِّيبَةَ فِي أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ الْحَقِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مِنْ كَلَامٍ يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا أَوْ كَلَامٍ يُجَافِي الْحَقِيقَةَ وَالْفَضِيلَةَ أَوْ  يَأْمُرُ بِارْتِكَابِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ أَوْ يَصْرِفُ عَنِ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، وَانْتِفَاءِ ذَلِكَ عَنْهُ يَقْتَضِي أَنَّ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ إِذَا تَدَبَّرَ فِيهِ الْمُتَدَبِّرُ وَجَدَهُ مُفِيدًا الْيَقِينَ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَالْآيَةُ هُنَا تَحْتَمِلُ الْمَعْنَيَيْنِ فَلْنَجْعَلْهُمَا مَقْصُودَيْنِ مِنْهَا عَلَى الْأَصْلِ الَّذِي أَصَّلْنَاهُ فِي الْمُقَدِّمَةِ التَّاسِعَةِ.**

**وَهَذَا النَّفْيُ لَيْسَ فِيهِ ادِّعَاءٌ وَلَا تَنْزِيلٌ فَهَذَا الْوَجْهُ يُغْنِي عَنْ تَنْزِيلِ الْمَوْجُودِ مَنْزِلَةَ الْمَعْدُومِ فَيُفِيدُ التَّعْرِيضَ بِمَا بَيْنَ يَدَيْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْكُتُبِ فَإِنَّهَا قَدِ اضْطَرَبَتْ أَقْوَالُهَا وَتَخَالَفَتْ لِمَا اعْتَرَاهَا مِنَ التَّحْرِيفِ.**

**وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّصَدِّيَ لِلْأَخْبَارِ بِنَفْيِ الرَّيْبِ عَنِ الْقُرْآنِ مَعَ عَدَمِ وُجُودِ قَائِلٍ بِالرَّيْبِ فِيمَا تَضَمَّنَهُ أَيْ بِرَيْبٍ مُسْتَنِدٍ لِمُوجِبِ ارْتِيَابٍ، إِذْ قُصَارَى مَا قَالُوهُ فِيهِ أَقْوَالٌ مُجْمَلَةٌ مِثْلَ هَذَا سِحْرٌ، هَذَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، يَدُلُّ ذَلِكَ التَّحَدِّي عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ التَّعْرِيضُ لَا سِيَّمَا بَعْدَ قَوْلِهِ ذَلِكَ الْكِتَابُ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ تَكَلَّمَ بَعْدَ قَوْمٍ تَكَلَّمُوا فِي مَجْلِسٍ وَأَنْتَ سَاكِتٌ: هَذَا الْكَلَامُ صَوَابٌ تُعَرِّضُ بِغَيْرِهِ.**

**وَبِهَذَا الْوَجْهِ أَيْضًا يَتَسَنَّى اتِّحَادُ الْمَعْنَى عِنْدَ الْوَقْفِ لَدَى مَنْ وَقَفَ عَلَى فِيهِ" وَلَدَى مَنْ وَقَفَ عَلَى "رَيْبَ"، لِأَنَّهُ إِذَا اعْتَبَرَ الظَّرْفَ غَيْرَ خَبَرٍ وَكَانَ الْخَبَرُ مَحْذُوفًا أَمْكَنَ الِاسْتِغْنَاءُ عَنْ هَذَا الظَّرْفِ مِنْ هَاتِهِ الْجُمْلَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ *الْكَشَّافُ* أَنَّ الظَّرْفَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: "فِيهِ" لَمْ يُقَدَّمْ عَلَى الْمَسْنَدِ إِلَيْهِ، وَهُوَ رَيْبٌ أَيْ عَلَى احْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ خَبَرًا عَنِ اسْمٍ لَا كَمَا قُدِّمَ الظَّرْفُ فِي قَوْلِهِ: "لَا فِيهَا غُولٌ"، لِأَنَّهُ لَوْ قُدِّمَ الظَّرْفُ هُنَا لَقَصَدَ أَنَّ كِتَابًا آخَرَ فِيهِ الرَّيْبُ اهـ.**

**يَعْنِي: لِأَنَّ التَّقْدِيمَ فِي مِثْلِهِ يُفِيدُ الِاخْتِصَاصَ، فَيَكُونُ مُفِيدًا أَنَّ نَفْيَ الرَّيْبِ عَنْهُ مَقْصُورٌ عَلَيْهِ، وَأَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْكُتُبِ فِيهِ الرَّيْبُ، وَهُوَ غَيْرُ مَقْصُودٍ هُنَا. وَلَيْسَ الْحَصْرُ فِي قَوْلِهِ: "لَا رَيْبَ فِيهِ" بِمَقْصُودٍ، لِأَنَّ السِّيَاقَ خِطَابٌ لِلْعَرَبِ الْمُتَحَدَّيْنَ بِالْقُرْآنِ وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِ كِتَابٍ حَتَّى يُرَدَّ عَلَيْهِمْ. وَإِنَّمَا أُرِيدَ أَنَّهُمْ لَا عُذْرَ لَهُمْ فِي إِنْكَارِهِمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِذْ هُمْ قَدْ دُعُوا إِلَى مُعَارَضَتِهِ فَعَجَزُوا.**

**نَعَمْ يُسْتَفَادُ مِنْهُ تَعْرِيضٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ آزَرُوا الْمُشْرِكِينَ وَشَجَّعُوهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ بِهِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ لِعُلُوِّ شَأْنِهِ بَيْنَ نُظَرَائِهِ مِنَ الْكُتُبِ لَيْسَ فِيهِ مَا يَدْعُو إِلَى الِارْتِيَابِ فِي كَوْنِهِ مُنَزَّلًا مِنَ اللَّهِ إِثَارَةً لِلتَّدَبُّرِ فِيهِ هَلْ يَجِدُونَ مَا يُوجِبُ الِارْتِيَابَ فِيهِ وَذَلِكَ يَسْتَطِيرُ جَاثِمَ إِعْجَابِهِمْ بِكِتَابِهِمُ الْمُبَدَّلِ الْمُحَرَّفِ فَإِنَّ الشَّكَّ فِي الْحَقَائِقِ رَائِدُ ظُهُورِهَا.**

**وَالْفَجْرُ بِالْمُسْتَطِيرِ بَيْنَ يَدَيْ طُلُوعِ الشَّمْسِ بَشِيرٌ بِسُفُورِهَا.**

**وَقَدْ بَنَى كَلَامَهُ عَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ الْمُكَيَّفَةَ بِالْقَصْرِ فِي حَالَةِ الْإِثْبَاتِ لَوْ دَخَلَ عَلَيْهَا نَفْيٌ وَهِيَ بِتِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ أَفَادَ قَصْرَ النَّفْيَ لَا نَفْيَ الْقَصْرِ، وَأَمْثِلَةُ صَاحِبِ الْمِفْتَاحِ فِي تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ لِلِاخْتِصَاصِ سَوَّى فِيهَا بَيْنَ مَا جَاءَ بِالْإِثْبَاتِ وَمَا جَاءَ بِالنَّفْيِ.**

**وَعِنْدِي فِيهِ نَظَرٌ سَأَذْكُرُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَحُكْمُ حَرَكَةِ هَاءِ الضَّمِيرِ أَوْ سُكُونِهَا مُقَرَّرَةٌ فِي عِلْمِ الْقِرَاءَاتِ فِي قِسْمِ أُصُولِهَا.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[[67]](#footnote-67)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**الْهُدَى اسْمُ مَصْدَرِ الْهَدْيِ لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ إِلَّا سُرًى وَتُقًى وَبُكًى وَلُغًى مَصْدَرُ لَغَى فِي لُغَةٍ قَلِيلَةٍ. وَفِعْلُهُ هَدَى هَدْيًا يَتَعَدَّى إِلَى الْمَفْعُولِ الثَّانِي بِإِلَى وَرُبَّمَا تَعَدَّى إِلَيْهِ بِنَفْسِهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْحَذْفِ الْمُتَوَسَّعِ فِيمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**﴾[[68]](#footnote-68).**

**وَالْهُدَى عَلَى التَّحْقِيقِ هُوَ الدَّلَالَةُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا الْإِيصَالُ إِلَى الْبُغْيَةِ وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ فِي مَعْنَاهُ لِأَنَّ الْأَصْلَ عَدَمُ التَّرَادُفِ فَلَا يَكُونُ هَدَى مُرَادِفًا لِدَلَّ، وَلِأَنَّ الْمَفْهُومَ مِنَ الْهُدَى الدَّلَالَةُ الْكَامِلَةُ وَهَذَا مُوَافِقٌ لِلْمَعْنَى الْمَنْقُولِ إِلَيْهِ الْهُدَى فِي الْعُرْفِ الشَّرْعِيِّ.**

**وَهُوَ أَسْعَدُ بِقَوَاعِدِ الْأَشْعَرِيِّ، لِأَنَّ التَّوْفِيقَ الَّذِي هُوَ الْإِيصَالُ عِنْدَ الْأَشْعَرِيِّ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَلْبِ الْمُوَفَّقِ فَيُنَاسِبُ تَفْسِيرَ الْهِدَايَةِ بِمَا يَصْلُحُ لَهُ لِيَكُونَ الَّذِي يَهْدِي يُوصِلُ الْهِدَايَةَ الشَّرْعِيَّةَ. فَالْقُرْآنُ هُدًى وَوَصْفُهُ بِالْمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ أَيْ هُوَ هَادٍ.**

**وَالْهُدَى الشَّرْعِيُّ هُوَ الْإِرْشَادُ إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ الْعَاجِلِ الَّذِي لَا يَنْقُضُ صَلَاحَ الْآجِلِ. وَأَثَرُ هَذَا الْهُدَى هُوَ الِاهْتِدَاءُ، فَالْمُتَّقُونَ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ وَالْمُعَانِدُونَ لَا يَهْتَدُونَ، لِأَنَّهُمْ لَا يَتَدَبَّرُونَ، وَهَذَا مَعْنًى لَا يُخْتَلَفُ فِيهِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي مَنْشَأِ حُصُولِ الِاهْتِدَاءِ، وَهِيَ مَسْأَلَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا فِي فَهْمِ الْآيَةِ.**

**وَتَفْصِيلُ أَنْوَاعِ الْهِدَايَةِ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**اهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾[[69]](#footnote-69)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**وَمَحَلُّ هُدًى إِنْ كَانَ هُوَ صَدْرُ جُمْلَةٍ أَنْ يَكُونَ خَبَرًا لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ هُوَ ضَمِيرُ الْكَتَابِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: الْإِخْبَارُ عَنِ الْكِتَابِ بِأَنَّهُ الْهُدَى وَفِيهِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي حُصُولِ الْهِدَايَةِ بِهِ مَا يَقْتَضِيِهِ الْإِخْبَارُ بِالْمَصْدَرِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى بُلُوغِهِ الْغَايَةَ فِي إِرْشَادِ النَّاسِ حَتَّى كَانَ هُوَ عَيْنُ الْهُدَى تَنْبِيهًا عَلَى رُجْحَانِ هُدَاهُ عَلَى هُدَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ، وَإِنْ كَانَ الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ لَا رَيْبَ وَكَانَ الظَّرْفُ هُوَ صَدْرَ الْجُمْلَةِ الْمُوَالِيَةِ: وَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿هُدًى﴾[[70]](#footnote-70) مُبْتَدَأً خَبَرُهُ الظَّرْفُ الْمُتَقَدِّمُ قَبْلَهُ فَيَكُونُ إِخْبَارًا بِأَنَّ فِيهِ هُدًى فَالظَّرْفِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى تَمَكُّنِ الْهُدَى مِنْهُ فَيُسَاوِي ذَلِكَ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى التَّمَكُّنِ الْوَجْهَ الْمُتَقَدِّمَ الَّذِي هُوَ الْإِخْبَارُ عَنْهُ بِأَنَّهُ عَيْنُ الْهُدَى.**

**وَالْمُتَّقِي مَنِ اتَّصَفَ بِالِاتِّقَاءِ وَهُوَ طَلَبُ الْوِقَايَةِ، وَالْوِقَايَةُ الصِّيَانَةُ وَالْحِفْظُ مِنَ الْمَكْرُوهِ فَالْمُتَّقِي هُوَ الْحَذِرُ الْمُتَطَلِّبُ لِلنَّجَاةِ مِنْ شَيْءٍ مَكْرُوهٍ مُضِرٍّ، وَالْمُرَادُ هُنَا الْمُتَّقِينَ اللَّهَ، أَيِ الَّذِينَ هُمْ خَائِفُونَ غَضَبَهُ وَاسْتَعَدُّوا لِطَلَبِ مَرْضَاتِهِ وَاسْتِجَابَةِ طَلَبِهِ فَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ اسْتَمَعُوا لَهُ وَتَدَبَّرُوا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ فَاهْتَدَوْا.**

**وَالتَّقْوَى الشَّرْعِيَّةُ هِيَ امْتِثَالُ الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابُ الْمَنْهِيَّاتِ مِنَ الْكَبَائِرِ وَعَدَمُ الِاسْتِرْسَالِ عَلَى الصَّغَائِرِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا أَيِ اتِّقَاءُ مَا جَعَلَ اللَّهُ الِاقْتِحَامَ فِيهِ مُوجِبًا غَضَبَهُ وَعِقَابَهُ، فَالْكَبَائِرُ كُلُّهَا مُتَوَعَّدٌ فَاعِلُهَا بِالْعِقَابِ دُونَ اللَّمَمِ.**

**وَالْمُرَادُ مِنَ الْهُدَى وَمِنَ الْمُتَّقِينَ فِي الْآيَةِ مَعْنَاهُمَا اللُّغَوِيُّ فَالْمُرَادُ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ شَأْنِهِ الْإِيصَالُ إِلَى الْمَطَالِبِ الْخَيْرِيَّةِ وَأَنَّ الْمُسْتَعِدِّينَ لِلْوُصُولِ بِهِ إِلَيْهَا هُمُ الْمُتَّقُون،َ أَيْ هُمُ الَّذِينَ تَجَرَّدُوا عَنِ الْمُكَابَرَةِ وَنَزَّهُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ حَضِيضِ التَّقْلِيدِ لِلْمُضِلِّينَ وَخَشُوا الْعَاقِبَةَ وَصَانُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ خَطَرِ غَضَبِ اللَّهِ هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، وَالْمُرَادُ بِالْمُتَّقِينَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِمُحَمَّدٍ وَتَلَقَّوُا الْقُرْآنَ بِقُوَّةٍ وَعَزَمٍ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ، كَمَا سَتَكْشِفُ عَنْهُمُ الْأَوْصَافُ الْآتِيَةُ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[[71]](#footnote-71)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**مِنْ قَبْلِكَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**﴾[[72]](#footnote-72)، وَفِي بَيَانِ كَوْنِ الْقُرْآنِ هُدًى.**

**وَكَيْفِيَّةِ صِفَةِ الْمُتَّقِي مَعَانٍ ثَلَاثَةٌ:**

**- الْأَوَّلُ أَنَّ الْقُرْآنَ هُدًى فِي زَمَنِ الْحَالِ، لِأَنَّ الْوَصْفَ بِالْمَصْدَرِ عِوَضٌ عَنِ الْوَصْفِ بِاسْمِ الْفَاعِلِ وَزَمَنُ الْحَالِ هُوَ الْأَصْلُ فِي اسْمِ الْفَاعِلِ وَالْمُرَادُ حَالُ النُّطْقِ.**

**وَالْمُتَّقُونَ هُمُ الْمُتَّقُونَ فِي الْحَالِ أَيْضًا، لِأَنَّ اسْمَ الْفَاعِلِ حَقِيقَةً فِي الْحَالِ كَمَا قُلْنَا، أَيْ أَنَّ جَمِيعَ مَنْ نَزَّهَ نَفْسَهُ وَأَعَدَّهَا لِقَبُولِ الْكَمَالِ يَهْدِيهِ هَذَا الْكِتَابُ، أَوْ يَزِيدُهُ هُدًى كَقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[[73]](#footnote-73).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)

**- الثَّانِي أَنَّهُ هُدًى فِي الْمَاضِي أَيْ حَصَلَ بِهِ هُدًى، أَيْ بِمَا نَزَلَ مِنَ الْكِتَابِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ مِنَ الْمُتَّقِينَ مَنْ كَانَتِ التَّقْوَى شِعَارَهُمْ، أَيْ أَنَّ الْهُدَى ظَهَرَ أَثَرُهُ فِيهِمْ، فَاتَّقَوْا وَعَلَيْهِ فَيَكُونُ مَدْحًا لِلْكِتَابِ بِمُشَاهَدَةِ هَدْيِهِ وَثَنَاءً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا بِهِ.**

**وَإِطْلَاقُ الْمُتَّقِينَ عَلَى الْمُتَّصِفِينَ بِالتَّقْوَى فِيمَا مَضَى، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ الْغَالِبِ فِي الْوَصْفِ بِاسْمِ الْفَاعِلِ، إِطْلَاقٌ يَعْتَمِدُ عَلَى قَرِينَةِ سِيَاقِ الثَّنَاءِ عَلَى الْكِتَابِ.**

**- الثَّالِثُ: أَنَّهُ هُدًى فِي الْمُسْتَقْبَلِ لِلَّذِينَ سَيَتَّقُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَتَعَيَّنَ عَلَيْهِ هُنَا قَرِينَةُ الْوَصْفِ بِالْمَصْدَرِ فِي هُدًى لِأَنَّ الْمَصْدَرَ لَا يَدُلُّ عَلَى زَمَانٍ مُعَيَّنٍ.**

**حَصَلَ مِنْ وَصْفِ الْكِتَابِ بِالْمَصْدَرِ مِنْ وَفْرَةِ الْمَعَانِي مَا لَا يَحْصُلُ، لَوْ وُصِفَ بِاسْمِ الْفَاعِلِ.**

**فَقِيلَ: هَادٍ لِلْمُتَّقِينَ، فَهَذَا ثَنَاءٌ عَلَى الْقُرْآنِ وَتَنْوِيهٌ بِهِ وَتَخَلُّصٌ لِلثَّنَاءِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ انْتَفَعُوا بِهَدْيِهِ، فَالْقُرْآنُ لَمْ يَزَلْ وَلَنْ يَزَالَ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، فَإِنَّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ هِدَايَتِهِ نَفَعَتِ الْمُتَّقِينَ فِي سَائِرِ مَرَاتِبِ التَّقْوَى، وَفِي سَائِرِ أَزْمَانِهِ وَأَزْمَانِهِمْ عَلَى حَسَبِ حِرْصِهِمْ وَمَبَالِغِ عِلْمِهِمْ وَاخْتِلَافِ مُطَالِبِهِمْ، فَمِنْ مُنْتَفِعٍ بِهَدْيِهِ فِي الدِّينِ. وَمِنْ مُنْتَفِعٍ فِي السِّيَاسَةِ وَتَدْبِيرِ أُمُورِ الْأُمَّةِ. وَمِنْ مُنْتَفِعٍ بِهِ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْفَضَائِلِ، وَمِنْ مُنْتَفِعٍ بِهِ فِي التَّشْرِيعِ وَالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ.**

**وَكُلُّ أُولَئِكَ مِنَ الْمُتَّقِينَ وَانْتِفَاعُهُمْ بِهِ عَلَى حَسَبِ مَبَالِغِ تَقْوَاهُمْ. وَقَدْ جَعَلَ أَئِمَّةُ الْأُصُولِ الِاجْتِهَادَ فِي الْفِقْهِ مِنَ التَّقْوَى، فَاسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُوبِ الِاجْتِهَادِ بِقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[[74]](#footnote-74)؛**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**فَإِنْ قَصَّرَ بِأَحَدٍ سَعْيُهُ عَنْ كَمَالِ الِانْتِفَاعِ بِهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِنَقْصٍ فِيهِ لَا فِي الْهِدَايَةِ، وَلَا يَزَالُ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالصَّلَاحِ يَتَسَابَقُونَ فِي التَّحْصِيلِ عَلَى أَوْفَرِ مَا يَسْتَطِيعُونَ مِنَ الِاهْتِدَاءِ بِالْقُرْآنِ.**

**وَتَلْتَئِمُ الْجُمَلُ الْأَرْبَعُ كَمَالَ الِالْتِئَامِ: فَإِنَّ جُمْلَةَ الم تَسْجِيلٌ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَإِنْحَاءٍ عَلَى عَامَّةِ الْمُشْرِكِينَ عَجْزِهِمْ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، وَهُوَ مُؤَلَّفٌ مِنْ حُرُوفِ كَلَامِهِمْ وَكَفَى بِهَذَا نِدَاءً عَلَى تَعَنُّتِهِمْ.**

**وَجُمْلَةُ ذَلِكَ الْكِتَابِ تَنْوِيهٌ بِشَأْنِهِ وَأَنَّهُ بَالِغٌ حَدَّ الْكَمَالِ فِي أَحْوَالِ الْكُتُبِ، فَذَلِكَ مُوَجَّهٌ إِلَى الْخَاصَّةِ مِنَ الْعُقَلَاءِ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ هَذَا كِتَابٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ حُرُوفِ كَلَامِهِمْ، وَهُوَ بَالِغٌ حَدَّ الْكَمَالِ مِنْ بَيْنِ الْكُتُبِ، فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا يُوَفِّرُ دَوَاعِيَكُمْ عَلَى اتِّبَاعِهِ وَالِافْتِخَارِ بِأَنْ مُنِحْتُمُوهُ، فَإِنَّكُمْ تَعُدُّونَ أَنْفُسَكُمْ أَفْضَلَ الْأُمَمِ، فَكَيْفَ لَا تُسْرِعُونَ إِلَى مُتَابَعَةِ كِتَابٍ نَزَلَ فِيكُمْ هُوَ أَفْضَلُ الْكُتُبِ فَوِزَانُ هَذَا وِزَانُ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾[[75]](#footnote-75)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)**إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾[[76]](#footnote-76) وَمَوَجَّهٌ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ بِإِيقَاظِهِمْ إِلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِمَّا أُوتُوهُ.**

**وَجُمْلَةُ: ﴿لَا رَيْبَ﴾[[77]](#footnote-77) إِنْ كَانَ الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا رَيْبَ﴾[[78]](#footnote-78) تَعْرِيضٌ بِكُلِّ الْمُرْتَابِينَ فِيهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، أَيْ أَنَّ الِارْتِيَابَ فِي هَذَا الْكِتَابِ نَشَأَ عَنِ الْمُكَابَرَةِ، وَأَنْ لَا رَيْبَ فَإِنَّهُ الْكِتَابُ الْكَامِلُ، وَإِنْ كَانَ الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ فِيهِ كَانَ تَعْرِيضًا بِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي تَعَلُّقِهِمْ بِمُحَرَّفِ كِتَابَيْهِمْ مَعَ مَا فِيهِمَا مِنْ مَثَارِ الرَّيْبِ وَالشَّكِّ مِنَ الِاضْطِرَابِ الْوَاضِحِ الدَّالِّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ صُنْعِ النَّاسِ، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[[79]](#footnote-79).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)

**وَقَالَ فِي *الْكَشَّافِ*: ثُمَّ لَمْ تَخْلُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعِ بَعْدَ أَنْ نُظِّمَتْ هَذَا التَّنْظِيمَ السِّرِّيَّ مِنْ نُكْتَةٍ ذَاتِ جَزَالَةٍ: فَفِي الْأُولَى الْحَذْفُ وَالرَّمْزُ إِلَى الْغَرَضِ بِأَلْطَفِ وَجْهٍ، وَفِي الثَّانِيَةِ مَا فِي التَّعْرِيفِ مِنَ الْفَخَامَةِ، وَفِي الثَّالِثَةِ مَا فِي تَقْدِيمِ الرَّيْبِ عَلَى الظَّرْفِ، وَفِي الرَّابِعَةِ الْحَذْفُ وَوَضْعُ الْمَصْدَرِ -وَهُوَ الْهُدَى- مَوْضِعَ الْوَصْفِ وَإِيرَادُهُ مُنَكَّرًا وَالْإِيجَازُ فِي ذِكْرِ الْمُتَّقِينَ ا هـ.**

**فَالتَّقْوَى إِذَنْ بِهَذَا الْمَعْنَى هِيَ أَسَاسُ الْخَيْرِ، وَهِيَ بِالْمَعْنَى الشَّرْعِيِّ الَّذِي هُوَ غَايَةُ الْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ جُمَّاعُ الْخَيْرَاتِ.**

**قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ لَمْ يَتَكَرَّرْ لَفْظٌ فِي الْقُرْآنِ مِثْلَمَا تَكَرَّرَ لَفْظُ التَّقْوَى اهْتِمَامًا بِشَأْنِهَا.**

**﴿**[**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[[80]](#footnote-80)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=32#docu)

**يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا مُتَّصِلًا بِقَوْلِهِ لِلْمُتَّقِينَ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِإِرْدَافِ صِفَتِهِمُ الْإِجْمَالِيَّةِ بِتَفْصِيلٍ يُعْرَفُ بِهِ الْمُرَادُ، وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ مَبْدَأُ اسْتِطْرَادٍ لِتَصْنِيفِ أَصْنَافِ النَّاسِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ فِي تَلَقِّي الْكِتَابِ الْمُنَوَّهِ بِهِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ بَعْدَ أَنْ كَانُوا قَبْلَ الْهِجْرَةِ صِنْفَيْنِ، فَقَدْ كَانُوا قَبْلَ الْهِجْرَةِ صِنْفًا مُؤْمِنِينَ وَصِنْفًا كَافِرِينَ مُصَارِحِينَ، فَزَادَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ صِنْفَانِ: هُمَا الْمُنَافِقُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ، فَالْمُشْرِكُونَ الصُّرَحَاءُ هُمْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ الْأَوَّلُونَ، وَالْمُنَافِقُونَ ظَهَرُوا بِالْمَدِينَةِ، فَاعْتَزَّ بِهِمُ الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ تَرَكَهُمُ الْمُسْلِمُونَ بِدَارِ الْكُفْرِ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ كَانُوا فِي شُغْلٍ عَنِ التَّصَدِّي لِمُنَاوَأَةِ الْإِسْلَامِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ الْإِسْلَامُ فِي الْمَدِينَةِ بِجِوَارِهِمْ أَوْجَسُوا خِيفَةً فَالْتَفُّوا مَعَ الْمُنَافِقِينَ وَظَاهَرُوا الْمُشْرِكِينَ.**

**وَقَدْ أُشِيرَ إِلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ فَرِيقَانِ: فَرِيقٌ هُمُ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِمَّنْ كَانُوا مُشْرِكِينَ وَكَانَ الْقُرْآنُ هُدًى لَهُمْ بِقَرِينَةِ مُقَابَلَةِ هَذَا الْمَوْصُولِ بِالْمَوْصُولِ الْآخَرِ الْمَعْطُوفِ بِقَوْلِهِ: ﴿**[**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=32#docu)**﴾[[81]](#footnote-81)... إِلَخْ فَالْمُثْنَى عَلَيْهِمْ هُنَا هُمُ الَّذِينَ كَانُوا مُشْرِكِينَ فَسَمِعُوا الدَّعْوَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ فَتَدَبَّرُوا فِي النَّجَاةِ وَاتَّقَوْا عَاقِبَةَ الشِّرْكِ فَآمَنُوا، فَالْبَاعِثُ الَّذِي بَعَثَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ هُوَ التَّقْوَى دُونَ الطَّمَعِ أَوِ التَّجْرِبَةِ، فَوَائِلُ بْنُ حُجْرٍ مَثَلًا لَمَّا جَاءَ مِنَ الْيَمَنِ رَاغِبًا فِي الْإِسْلَامِ هُوَ مِنَ الْمُتَّقِينَ، وَمُسَيْلِمَةُ حِينَ وَفَدَ مَعَ بَنِي حَنِيفَةَ مُضْمِرَ الْعَدَاءِ طَامِعًا فِي الْمُلْكِ هُوَ مِنْ غَيْرِ الْمُتَّقِينَ. وَفَرِيقٌ آخَرُ يَجِيءُ ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿**[**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾[[82]](#footnote-82)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=32#docu)**الْآيَاتِ.**

**وَقَدْ أُجْرِيَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ لِلثَّنَاءِ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بَعْدَ الْإِشْرَاكِ بِأَنْ كَانَ رَائِدُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ هُوَ التَّقْوَى وَالنَّظَرُ فِي الْعَاقِبَةِ، وَلِذَلِكَ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿**[**يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[[83]](#footnote-83)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=32#docu)**أَيْ بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِالْبَعْثِ وَالْمَعَادِ، كَمَا حَكَى عَنْهُمُ الْقُرْآنُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَلِذَلِكَ اجْتُلِبَتْ فِي الْإِخْبَارِ عَنْهُمْ بِهَذِهِ الصِّلَاتِ الثَّلَاثِ صِيغَةُ الْمُضَارِعِ الدَّالَّةُ عَلَى التَّجَدُّدِ إِيذَانًا بِتَجَدُّدِ إِيمَانِهِمْ بِالْغَيْبِ وَتَجَدُّدِ إِقَامَتِهِمُ الصَّلَاةَ وَالْإِنْفَاقَ إِذْ لَمْ يَكُونُوا مُتَّصِفِينَ بِذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَاءَهُمْ هُدَى الْقُرْآنِ.**

**وَجَوَّزَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* كَوْنَهُ كَلَامًا مُسْتَأْنَفًا مُبْتَدَأً وَكَوْنَ ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾[[84]](#footnote-84) خَبَرَهُ.**

**وَعِنْدِي أَنَّهُ تَجْوِيزٌ لِمَا لَا يَلِيقُ، إِذِ الِاسْتِئْنَافُ يَقْتَضِي الِانْتِقَالَ مِنْ غَرَضٍ إِلَى آخَرَ، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالِاقْتِضَابِ وَإِنَّمَا يَحْسُنُ فِي الْبَلَاغَةِ إِذَا أُشِيعَ الْغَرَضُ الْأَوَّلُ وَأُفِيضَ فِيهِ حَتَّى أُوعِبَ أَوْ حَتَّى خِيفَتْ سَآمَةُ السَّامِعِ، وَذَلِكَ مَوْقِعُ أَمَّا بَعْدُ أَوْ كَلِمَةُ هَذَا وَنَحْوُهُمَا، وَإِلَّا كَانَ تَقْصِيرًا مِنَ الْخَطِيبِ وَالْمُتَكَلِّمِ لَا سِيَّمَا وَأُسْلُوبُ الْكِتَابِ أَوْسَعُ مِنْ أُسْلُوبِ الْخَطَابَةِ، لِأَنَّ الْإِطَالَةَ فِي أَغْرَاضِهِ أَمْكَنُ.**

**وَالْغَيْبُ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْغَيْبَةِ: ﴿**[**ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=32#docu)**﴾[[85]](#footnote-85)، لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ، وَرُبَّمَا قَالُوا بِظَهْرِ الْغَيْبِ.**

**قَالَ الْحُطَيْئَةُ:**

**كَيْفَ الْهِجَاءُ وَمَا تَنْفَكُّ صَالِحَةٌ مِنْ آلِ لَامَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ تَأْتِينِي**

**وَفِي الْحَدِيثِ: "**[**دَعْوَةُ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ"،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=32#docu)**وَالْمُرَادُ بِالْغَيْبِ: مَا لَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ مِمَّا أَخْبَرَ الرَّسُولُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَرِيحًا بِأَنَّهُ وَاقِعٌ أَوْ سَيَقَعُ مِثْلَ وُجُودِ اللَّهِ، وَصِفَاتِهِ، وَوُجُودِ الْمَلَائِكَةِ، وَالشَّيَاطِينِ، وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَمَا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ.**

**فَإِنْ فَسَّرَ الْغَيْبَ بِالْمَصْدَرِ أَيِ الْغِيبَةِ كَانَتِ الْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ ظَرْفًا مُسْتَقِرًّا، فَالْوَصْفُ تَعْرِيضٌ بِالْمُنَافِقِينَ، وَإِنْ فَسَّرَ الْغَيْبَ بِالِاسْمِ، وَهُوَ مَا غَابَ عَنِ الْحِسِّ مِنَ الْعَوَالِمِ الْعُلْوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ، كَانَتِ الْبَاءُ مُتَعَلِّقَةً بِيُؤْمِنُونَ، فَالْمَعْنَى حِينَئِذٍ: الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ الرَّسُولُ مِنْ غَيْرِ عَالَمِ الشَّهَادَةِ، كَالْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْبَعْثِ وَالرُّوحِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.**

**وَفِي حَدِيثِ الْإِيمَانِ: "**[**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=32#docu)**".**

**وَهَذِهِ كُلُّهَا مِنْ عَوَالِمِ الْغَيْبِ، كَانَ الْوَصْفُ تَعْرِيضًا بِالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ، وَقَالُوا: ﴿**[**هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[[86]](#footnote-86)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=32#docu)**فَجَمَعَ هَذَا الْوَصْفَ بِالصَّرَاحَةِ ثَنَاءً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَبِالتَّعْرِيضِ ذَمًّا لِلْمُشْرِكِينَ بِعَدَمِ الِاهْتِدَاءِ بِالْكِتَابِ، وَذَمًّا لِلْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالظَّاهِرِ وَهُمْ مُبْطِنُونَ الْكُفْرَ، وَسَيُعَقِّبُ هَذَا التَّعْرِيضَ بِصَرِيحِ وَصْفِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمُ أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾[[87]](#footnote-87)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=32#docu)**الْآيَاتِ، وَقَوْلِهِ: ﴿**[**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾[[88]](#footnote-88)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=32#docu)**وَيُؤْمِنُونَ مَعْنَاهُ يُصَدِّقُونَ، وَآمَنَ مَزِيدُ أَمِنَ وَهَمْزَتُهُ الْمَزِيدَةُ دَلَّتْ عَلَى التَّعْدِيَةِ، فَأَصْلُ آمَنَ تَعْدِيَةُ أَمِنَ ضِدَّ خَافَ فَآمَنَ مَعْنَاهُ جَعَلَ غَيْرَهُ آمِنًا ثُمَّ أَطْلَقُوا آمَنَ عَلَى مَعْنَى صَدَّقَ وَوَثِقَ.**

**حَكَى أَبُو زَيْدٍ عَنِ الْعَرَبِ: "مَا آمَنْتُ أَنْ أَجِدَ صَحَابَةً" يَقُولُهُ الْمُسَافِرُ إِذَا تَأَخَّرَ عَنِ السَّفَرِ، فَصَارَ آمَنَ بِمَعْنَى صَدَّقَ عَلَى تَقْدِيرِ أَنَّهُ آمَنَ مُخْبِرَهُ مِنْ أَنْ يَكْذِبَهُ، أَوْ عَلَى تَقْدِيرِ أَنَّهُ آمَنَ نَفْسَهُ مِنْ أَنْ تَخَافَ مِنْ كَذِبِ الْخَبَرِ مُبَالَغَةً فِي أَمِنَ كَأَقْدَمَ عَلَى الشَّيْءِ بِمَعْنَى تَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَعَمِدَ إِلَيْهِ، ثُمَّ صَارَ فِعْلًا قَاصِرًا إِمَّا عَلَى مُرَاعَاةِ حَذْفِ الْمَفْعُولِ لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَال،ِ بِحَيْثُ نَزَلَ الْفِعْلُ مَنْزِلَةَ اللَّازِمِ، وَإِمَّا عَلَى مُرَاعَاةِ الْمُبَالَغَةِ الْمَذْكُورَةِ أَيْ حَصَلَ لَهُ الْأَمْنُ، أَيْ مِنَ الشَّكِّ وَاضْطِرَابِ النَّفْسِ وَاطْمَأَنَّ لِذَلِكَ، لِأَنَّ مَعْنَى الْأَمْنِ وَالِاطْمِئْنَانِ مُتَقَارِبٌ، ثُمَّ إِنَّهُمْ يُضَمِّنُونَ آمَنَ مَعْنَى أَقَرَّ، فَيَقُولُونَ آمَنَ بِكَذَا، أَيْ أَقَرَّ بِهِ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَيُضَمِّنُونَهُ مَعْنَى اطْمَأَن،َّ فَيَقُولُونَ آمَنَ لَهُ: ﴿**[**أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=32#docu)**﴾[[89]](#footnote-89).**

**وَمَجِيءُ صِلَةِ الْمَوْصُولِ فِعْلًا مُضَارِعًا لِإِفَادَةِ أَنَّ إِيمَانَهُمْ مُسْتَمِرٌّ مُتَجَدِّدٌ، كَمَا عَلِمْتَ آنِفًا، أَيْ لَا يَطْرَأُ عَلَى إِيمَانِهِمْ شَكٌّ وَلَا رِيبَةٌ.**

**وَخَصَّ بِالذِّكْرِ الْإِيمَانَ بِالْغَيْبِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ الْإِيمَانِ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْغَيْبِ، أَيْ مَا غَابَ عَنِ الْحِسِّ هُوَ الْأَصْلُ فِي اعْتِقَادِ إِمْكَانِ مَا تُخْبِرُ بِهِ الرُّسُلَ عَنْ وُجُودِ اللَّهِ وَالْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ، فَإِذَا آمَنَ بِهِ الْمَرْءُ تَصَدَّى لِسَمَاعِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ وَلِلنَّظَرِ فِيمَا يُبَلِّغُهُ عَنِ اللَّهِ –تَعَالَى- فَسَهُلَ عَلَيْهِ إِدْرَاكُ الْأَدِلَّةِ.**

**وَأَمَّا مَنْ يَعْتَقِدُ أَنْ لَيْسَ وَرَاءَ عَالَمِ الْمَادِّيَّاتِ عَالَمٌ آخَرُ، وَهُوَ مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَة،ِ فَقَدْ رَاضَ نَفْسَهُ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ وَعَالَمِ الْآخِرَةِ، كَمَا كَانَ حَالُ الْمَادِّيِّينَ، وَهُمُ الْمُسَمَّوْنَ بِالدَّهْرِيِّينَ الَّذِينَ قَالُوا: "**[**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ"[[90]](#footnote-90).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=32#docu)

**وَقَرِيبٌ مِنَ اعْتِقَادِهِمُ اعْتِقَادُ الْمُشْرِكِينَ وَلِذَلِكَ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ الْمُجَسَّمَةَ وَمُعْظَمُ الْعَرَبِ كَانُوا يُثْبِتُونَ مِنَ الْغَيْبِ وُجُودَ الْخَالِقِ، وَبَعْضُهُمْ يُثْبِتُ الْمَلَائِكَةَ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِسِوَى ذَلِكَ. وَالْكَلَامُ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ، وَيَجِيءُ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[[91]](#footnote-91).**

**﴿**[**وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾****[[92]](#footnote-92)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=33#docu)

**الْإِقَامَةُ: مَصْدَرُ أَقَامَ الَّذِي هُوَ مُعَدَّى قَامَ، عُدِّيَ إِلَيْهِ بِالْهَمْزَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْجُمَلِ، وَالْإِقَامَةُ جَعْلُهَا قَائِمَةً، مَأْخُوذٌ مِنْ قَامَتِ السُّوقُ إِذَا نَفَقَتْ وَتَدَاوَلَ النَّاسُ فِيهَا الْبَيْعَ وَالشِّرَاء.َ**

**وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ تَصْرِيحُ بَعْضِ أَهْلِ اللِّسَانِ بِهَذَا الْمُقَدَّرِ.**

**قَالَ أَيْمَنُ بْنُ خُرَيْمٍ الْأَسَدِيُّ:**

**أَقَامَتْ غَزَالَةُ سُوقَ الضِّرَابْ لِأَهْلِ الْعِرَاقَيْنِ حَوْلًا قَمِيطًا**

**وَأَصْلُ الْقِيَامِ فِي اللُّغَةِ هُوَ الِانْتِصَابُ الْمُضَادُّ لِلْجُلُوسِ وَالِاضْطِجَاعِ، وَإِنَّمَا يَقُومُ الْقَائِمُ لِقَصْدِ عَمَلٍ صَعْبٍ لَا يَتَأَتَّى مِنْ قُعُودٍ، فَيَقُومُ الْخَطِيبُ وَيَقُومُ الْعَامِلُ وَيَقُومُ الصَّانِعُ وَيَقُومُ الْمَاشِي فَكَانَ لِلْقِيَامِ لَوَازِمٌ عُرْفِيَّةٌ مَأْخُوذَةٌ مِنْ عَوَارِضِهِ اللَّازِمَةِ وَلِذَلِكَ أُطْلِقَ مَجَازًا عَلَى النَّشَاطِ فِي قَوْلِهِمْ قَامَ بِالْأَمْرِ، وَمِنْ أَشْهَرِ اسْتِعْمَالِ هَذَا الْمَجَازِ قَوْلِهِمْ قَامَتِ السُّوقُ وَقَامَتِ الْحَرْبُ، وَقَالُوا فِي ضِدِّهِ رَكَدَتْ وَنَامَتْ، وَيُفِيدُ فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مَعْنًى مُنَاسِبًا لِنَشَاطِهِ الْمَجَازِيِّ، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ وَشَاعَ فِيهَا حَتَّى سَاوَى الْحَقِيقَةَ فَصَارَتْ كَالْحَقَائِقِ وَلِذَلِكَ صَحَّ بِنَاءُ الْمَجَازِ الثَّانِي وَالِاسْتِعَارَةِ عَلَيْهَا، فَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ اسْتِعَارَةٌ تَبَعِيَّةٌ شَبَّهَتِ الْمُوَاظَبَةَ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالْعِنَايَةَ بِهَا بِجَعْلِ الشَّيْءِ قَائِمًا، وَأَحْسَبُ أَنَّ تَعْلِيقَ هَذَا الْفِعْلِ بِالصَّلَاةِ مِنْ مُصْطَلَحَاتِ الْقُرْآنِ وَقَدْ جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ فِي أَوَائِلِ نُزُولِهِ فَقَدْ وَرَدَ فِي سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَهِيَ ثَالِثَةُ السُّوَرِ نُزُولًا.**

**وَذَكَرَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* وُجُوهًا أُخَرَ بَعِيدَةً عَنْ مَسَاقِ الْآيَةِ.**

**وَقَدْ عَبَّرَ هُنَا بِالْمُضَارِعِ كَمَا وَقَعَ فِي قَوْلِهِ يُؤْمِنُونَ لِيَصْلُحَ ذَلِكَ لِلَّذِينَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ فِيمَا مَضَى وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلِ نُزُولِ الْآيَةِ، وَالَّذِينَ هُمْ بِصَدَدِ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَهُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ عِنْدَ نُزُولِ الْآيَةِ، وَالَّذِينَ سَيَهْتَدُونَ إِلَى ذَلِكَ وَهُمُ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ إِذِ الْمُضَارِعُ صَالِحٌ لِذَلِكَ كُلِّهِ، لِأَنَّ مَنْ فَعَلَ الصَّلَاةَ فِي الْمَاضِي فَهُوَ يَفْعَلُهَا الْآنَ وَغَدًا، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْهَا، فَهُوَ إِمَّا يَفْعَلُهَا الْآنَ أَوْ غَدًا وَجَمِيعُ أَقْسَامِ هَذَا النَّوْعِ جُعِلَ الْقُرْآنُ هُدًى لَهُمْ.**

**وَقَدْ حَصَلَ مِنْ إِفَادَةِ الْمُضَارِعِ التَّجَدُّدَ تَأْكِيدُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مَادَّةُ الْإِقَامَةِ مِنَ الْمُوَاظَبَةِ وَالتَّكَرُّرِ لِيَكُونَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِمْ بِالْمُوَاظَبَةِ عَلَى الصَّلَاةِ أَصْرَحَ.**

**وَالصَّلَاةُ اسْمٌ جَامِدٌ بِوَزْنِ فَعَلَةَ مُحَرَّكُ الْعَيْنِ (صَلَوَةَ) وَرَدَ هَذَا اللَّفْظُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ بِمَعْنَى الدُّعَاءِ كَقَوْلِ الْأَعْشَى:**

**تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ يَمَّمْتُ مُرْتَحِـــــــــــــــــــلًا      يَا رَبِّ جَنِّبْ أَبِي الْأَوْصَابَ وَالْوَجَعَا**

**عَلَيْكِ مِثْلُ الَّذِي صَلَّيْتِ فَاغْتَمِضِي   جَفْنًا فَإِنَّ لِجَنْبِ الْمَرْءِ مُضْطَجَعَــــــــــا**

**وَوَرَدَ بِمَعْنَى الْعِبَادَةِ فِي قَوْلِ الْأَعْشَى:**

**يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــي      كِ طَوْرًا سُجُودًا وَطَوْرًا جُـــــــــــــــــــــــــــؤَارَا**

**فَأَمَّا الصَّلَاةُ الْمَقْصُودَةُ فِي الْآيَةِ، فَهِيَ الْعِبَادَةُ الْمَخْصُوصَةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى قِيَامٍ وَقِرَاءَةٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ وَتَسْلِيمٍ.**

**قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: كَانَتِ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ آبَائِهِمْ فِي لُغَاتِهِمْ؛ فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ –تَعَالَى- بِالْإِسْلَامِ حَالَتْ أَحْوَالٌ، وَنُقِلَتْ أَلْفَاظٌ مِنْ مَوَاضِعَ إِلَى مَوَاضِعَ أُخَرَ بِزِيَادَاتٍ، وَمِمَّا جَاءَ فِي الشَّرْعِ الصَّلَاةَ، وَقَدْ كَانُوا عَرَفُوا الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى هَاتِهِ الْهَيْئَةِ.**

**قَالَ النَّابِغَةُ:**

**أَوْ دُرَّةٌ صَدَفِيَّةٌ غَوَّاصُهَـــــــــــــــــا      بَهِجٌ مَتَى يَرَهَا يُهِلُّ وَيَسْجُــــــــــــــــــــــــــــــدُ**

**وَهَذَا وَإِنْ كَانَ كَذَا فَإِنَّ الْعَرَبَ لَمْ تُعَرِّفْهُ بِمِثْلِ مَا أَتَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ مِنَ الْأَعْدَادِ وَالْمَوَاقِيتِ اهـ.**

**قُلْتُ: لَا شَكَّ أَنَّ الْعَرَبَ عَرَفُوا الصَّلَاةَ وَالسُّجُودَ وَالرُّكُوعَ وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ –تَعَالَى- عَنْ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، فَقَالَ رَبَّنَا: ﴿**[**لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾[[93]](#footnote-93)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=33#docu)**وَقَدْ كَانَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمُ الْيَهُودُ يُصَلُّونَ أَيْ يَأْتُونَ عِبَادَتَهُمْ بِهَيْأَةٍ مَخْصُوصَةٍ، وَسَمَّوْا كَنِيسَتَهُمْ صَلَاةً، وَكَانَ بَيْنَهُمُ النَّصَارَى وَهُمْ يُصَلُّونَ.**

**وَقَدْ قَالَ النَّابِغَةُ فِي ذِكْرِ دَفْنِ النُّعْمَانِ بْنِ الْحَارِثِ الْغَسَّانِيِّ:**

**فَآبَ مُصَلُّوهُ بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ     وَغُودِرَ بِالْجُولَانِ حَزْمٌ وَنَايِلُ**

**عَلَى رِوَايَةِ مُصَلُّوهُ بِصَادٍ مُهْمَلَةٍ أَرَادَ الْمُصَلِّينَ عَلَيْهِ عِنْدَ دَفْنِهِ مِنَ الْقُسُسِ وَالرُّهْبَانِ، إِذْ قَدْ كَانَ مُنْتَصِرًا وَمِنْهُ الْبَيْتُ السَّابِقُ. وَعَرَفُوا السُّجُودَ. قَالَ النَّابِغَةُ:**

**أَوْ دُرَّةٌ صَدَفِيَّةٌ غَوَّاصُهَا     بَهِجٌ مَتَى يَرَهَا يُهِلُّ وَيَسْجُــــــــدُ**

**وَقَدْ تَرَدَّدَ أَئِمَّةُ اللُّغَةِ فِي اشْتِقَاقِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ قَوْمٌ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الصَّلَا، وَهُوَ عِرْقٌ غَلِيظٌ فِي وَسَطِ الظَّهْرِ وَيَفْتَرِقُ عِنْدَ عَجْبِ الذَّنَبِ، فَيَكْتَنِفَهُ فَيُقَالُ حِينَئِذٍ هُمَا صَلَوَانٌ.**

**وَلَمَّا كَانَ الْمُصَلِّي إِذَا انْحَنَى لِلرُّكُوعِ وَنَحْوِهِ تَحَرَّكَ ذَلِكَ الْعِرْقُ اشْتُقَّتِ الصَّلَاةُ مِنْهُ كَمَا يَقُولُونَ أَنِفَ مِنْ كَذَا إِذَا شَمَخَ بِأَنْفِهِ، لِأَنَّهُ يَرْفَعُهُ إِذَا اشْمَأَزَّ وَتَعَاظَمَ، فَهُوَ مِنَ الِاشْتِقَاقِ مِنَ الْجَامِدِ، كَقَوْلِهِمُ: اسْتَنْوَقَ الْجَمَلُ، وَقَوْلِهِمْ: تَنَمَّرَ فُلَانٌ، وَقَوْلِهَا: "زَوْجِي إِذَا دَخَلَ فَهِدَ، وَإِذَا خَرَجَ أَسِدَ".**

**وَالَّذِي دَلَّ عَلَى هَذَا الِاشْتِقَاقِ هُنَا عَدَمُ صُلُوحِيَّةِ غَيْرِهِ فَلَا يُعَدُّ الْقَوْلُ بِهِ ضَعِيفًا لِأَجْلِ قِلَّةِ الِاشْتِقَاقِ مِنَ الْجَوَامِدِ كَمَا تَوَهَّمَهُ السَّيِّدُ.**

**وَإِنَّمَا أُطْلِقَتْ عَلَى الدُّعَاءِ لِأَنَّهُ يُلَازِمُ الْخُشُوعَ وَالِانْخِفَاضَ وَالتَّذَلُّلَ، ثُمَّ اشْتَقُّوا مِنَ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ اسْمٌ جَامِدٌ صَلَّى إِذَا فَعَلَ الصَّلَاةَ، وَاشْتَقُّوا صَلَّى مِنَ الصَّلَاةِ، كَمَا اشْتَقُّوا صَلَّى الْفَرَسُ إِذَا جَاءَ مُعَاقِبًا لِلْمُجَلِّي فِي خَيْلِ الْحَلَبَةِ، لِأَنَّهُ يَجِيءُ مُزَاحِمًا لَهُ فِي السَّبْقِ، وَاضِعًا رَأْسَهُ عَلَى صَلَا سَابِقِهِ وَاشْتَقُّوا مِنْهُ الْمُصَلِّي اسْمًا لِلْفَرَسِ الثَّانِي فِي خَيْلِ الْحَلَبَةِ.**

**وَهَذَا الرَّأْيُ فِي اشْتِقَاقِهَا مُقْتَضَبٌ مِنْ كَلَامِهِمْ، وَهُوَ الَّذِي يَجِبُ اعْتِمَادُهُ إِذْ لَمْ يَصْلُحُ لِأَصْلِ اشْتِقَاقِهَا غَيْرُ ذَلِكَ.**

**وَمَا أَوْرَدَهُ الْفَخْرُ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّ دَعْوَى اشْتِقَاقِهَا مِنَ الصَّلْوَيْنِ يُفْضِي إِلَى طَعْنٍ عَظِيمٍ فِي كَوْنِ الْقُرْآنِ حُجَّةً، لِأَنَّ لَفْظَ الصَّلَاةِ مِنْ أَشَدِّ الْأَلْفَاظِ شُهْرَةً، وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ تَحْرِيكِ الصَّلْوَيْنِ مِنْ أَبْعَدِ الْأَشْيَاءِ اشْتِهَارًا فِيمَا بَيْنَ أَهْلِ النَّقْلِ، فَإِذَا جَوَّزْنَا أَنَّهُ خَفِيَ وَانْدَرَسَ حَتَّى لَا يَعْرِفَهُ إِلَّا الْآحَادُ لَجَازَ مِثْلُهُ فِي سَائِرِ الْأَلْفَاظِ فَلَا نَقْطَعُ بِأَنَّ مُرَادَ اللَّهِ –تَعَالَى- مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ مَا يَتَبَادَرُ مِنْهَا إِلَى أَفْهَامِنَا فِي زَمَانِنَا هَذَا لِاحْتِمَالِ أَنَّهَا كَانَتْ فِي زَمَنِ الرَّسُولِ مَوْضُوعَةً لَمَعَانٍ أُخَرَ خَفِيَتْ عَلَيْنَا اهـ.**

**يَرُدُّهُ أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَفْظٌ مَشْهُورٌ مَنْقُولًا مِنْ مَعْنًى خَفِيٍّ، لِأَنَّ الْعِبْرَةَ فِي الشُّيُوعِ بِالِاسْتِعْمَالِ وَأَمَّا الِاشْتِقَاقُ فَبَحْثٌ عِلْمِيٌّ.**

**وَلِهَذَا قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ: وَاشْتِهَارُ هَذَا اللَّفْظِ فِي الْمَعْنَى الثَّانِي مَعَ عَدَمِ اشْتِهَارِهِ فِي الْأَوَّلِ لَا يَقْدَحُ فِي نَقْلِهِ مِنْهُ.**

**وَمِمَّا يُؤَيِّدُ أَنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنْ هَذَا كِتَابَتُهَا بِالْوَاوِ فِي الْمَصَاحِفِ إِذْ لَوْلَا قَصْدُ الْإِشَارَةِ إِلَى مَا اشْتُقَّتْ مِنْهُ مَا كَانَ وَجْهٌ لِكِتَابَتِهَا بِالْوَاوِ وَهُمْ كَتَبُوا الزَّكَاةَ وَالرِّبَا وَالْحَيَاةَ بِالْوَاوِ إِشَارَةً إِلَى الْأَصْلِ.**

**وَأَمَّا قَوْلُ *الْكَشَّافِ* وَكِتَابَتُهَا بِالْوَاوِ عَلَى لَفْظِ الْمُفَخَّمِ، أَيْ لُغَةِ تَفْخِيمِ اللَّامِ يَرُدُّهُ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُصْنَعْ فِي غَيْرِهَا مِنَ اللَّامَاتِ الْمُفَخَّمَةِ.**

**وَمَصْدَرُ صَلَّى قِيَاسُهُ التَّصْلِيَةُ، وَهُوَ قَلِيلُ الْوُرُودِ فِي كَلَامِهِمْ.**

**وَزَعَمَ الْجَوْهَرِيُّ أَنَّهُ لَا يُقَالُ صَلَّى تَصْلِيَةً وَتَبِعَهُ الْفَيْرُوزَابَادِيُّ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ وَرَدَ بِقِلَّةٍ فِي نَقْلِ ثَعْلَبٍ فِي أَمَالِيهِ.**

**وَقَدْ نُقِلَتِ الصَّلَاةُ فِي لِسَانِ الشَّرْعِ إِلَى الْخُضُوعِ بِهَيْأَةٍ مَخْصُوصَةٍ وَدُعَاءٍ مَخْصُوصٍ وَقِرَاءَةٍ وَعَدَدٍ. وَالْقَوْلُ بِأَنَّ أَصْلَهَا فِي اللُّغَةِ الْهَيْئَةُ فِي الدُّعَاءِ وَالْخُضُوعِ، هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الْمَعْنَى الشَّرْعِيِّ وَأَوْفَقُ بِقَوْلِ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ وَمَنْ تَابَعَهُ بِنَفْيِ الْحَقِيقَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَأَنَّ الشَّرْعَ لَمْ يَسْتَعْمِلْ لَفْظًا إِلَّا فِي حَقِيقَتِهِ اللُّغَوِيَّةِ بِضَمِيمَةِ شُرُوطٍ لَا يُقْبَلُ إِلَّا بِهَا.**

**وَقَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ: الْحَقَائِقُ الشَّرْعِيَّةُ مَوْضُوعَةٌ بِوَضْعٍ جَدِيدٍ وَلَيْسَتْ حَقَائِقَ لُغَوِيَّةً وَلَا مَجَازَاتٍ.**

**وَقَالَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ*: الْحَقَائِقُ الشَّرْعِيَّةُ مَجَازَاتٌ لُغَوِيَّةٌ اشْتُهِرَتْ فِي مَعَانٍ.**

**وَالْحَقُّ أَنَّ هَاتِهِ الْأَقْوَالَ تَرْجِعُ إِلَى أَقْسَامٍ مَوْجُودَةٍ فِي الْحَقَائِقِ الشَّرْعِيَّةِ.**

**﴿**[**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[[94]](#footnote-94)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=34#docu)

**صِلَةٌ ثَالِثَةٌ فِي وَصْفِ الْمُتَّقِينَ مِمَّا يُحَقِّقُ مَعْنَى التَّقْوَى وَصِدْقِ الْإِيمَانِ مِنْ بَذْلِ عَزِيزٍ عَلَى النَّفْسِ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ لَمَّا كَانَ مَقَرُّهُ الْقَلْبَ وَمُتَرْجِمُهُ اللِّسَانَ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى دَلَائِلَ صِدْقِ صَاحِبِهِ وَهِيَ عَظَائِمُ الْأَعْمَالِ، مِنْ ذَلِكَ الْتِزَامُ آثَارِهِ فِي الْغَيْبَةِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ: ﴿**[**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=34#docu)**﴾[[95]](#footnote-95).**

**وَمِنْ ذَلِكَ مُلَازَمَةُ فِعْلِ الصَّلَوَاتِ، لِأَنَّهَا دَلِيلٌ عَلَى تَذَكُّرِ الْمُؤْمِنِ مَنْ آمَنَ بِهِ. وَمِنْ ذَلِكَ السَّخَاءُ بِبَذْلِ الْمَالِ لِلْفُقَرَاءِ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ بِذَلِكَ.**

**وَالرِّزْقُ مَا يَنَالُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ مَوْجُودَاتِ هَذَا الْعَالَمِ الَّتِي يَسُدُّ بِهَا ضَرُورَاتِهِ وَحَاجَاتِهِ وَيَنَالُ بِهَا مُلَائِمَهُ، فَيُطْلِقُ عَلَى كُلِّ مَا يَحْصُلُ بِهِ سَدُّ الْحَاجَةِ فِي الْحَيَاةِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَيَوَانِ وَالشَّجَرِ الْمُثْمِرِ وَالثِّيَابِ وَمَا يُقْتَنَى بِهِ ذَلِكَ مِنَ النَّقْدَيْنِ، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=34#docu)**﴾[[96]](#footnote-96)، أَيْ مِمَّا تَرَكَهُ الْمَيِّتُ؛ وَقَالَ: ﴿**[**اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[[97]](#footnote-97)؛**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=34#docu)**وَقَالَ فِي قِصَّةِ قَارُونَ: ﴿**[**وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾[[98]](#footnote-98)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=34#docu)**إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾[[99]](#footnote-99)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=34#docu)**مُرَادًا بِالرِّزْقِ كُنُوزُ قَارُونَ؛ وَقَالَ: ﴿**[**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾[[100]](#footnote-100)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=34#docu)**وَأَشْهَرُ اسْتِعْمَالِهِ بِحَسَبِ مَا رَأَيْتُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَمَوَارِدِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ مَا يَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ لِلْإِنْسَانِ.**

**وَأَمَّا إِطْلَاقُهُ عَلَى مَا يَتَنَاوَلُهُ الْحَيَوَانُ مِنَ الْمَرْعَى وَالْمَاءِ فَهُوَ عَلَى الْمَجَازِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[[101]](#footnote-101)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=34#docu)**وَقَوْلِهِ: ﴿**[**وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾[[102]](#footnote-102)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=34#docu)**وَقَوْلِهِ: ﴿**[**لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾[[103]](#footnote-103).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=34#docu)

**وَالرِّزْقُ شَرْعًا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَالرِّزْقِ لُغَةً إِذِ الْأَصْلُ عَدَمُ النَّقْلِ إِلَّا لِدَلِيلٍ، فَيَصْدُقُ اسْمُ الرِّزْقِ عَلَى الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، لِأَنَّ صِفَةَ الْحِلِّ وَالْحُرْمَةِ غَيْرُ مُلْتَفَتٍ إِلَيْهَا هُنَا، فَبَيَانُ الْحَلَالِ مِنَ الْحَرَامِ لَهُ مَوَاقِعٌ أُخْرَى وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا طَيِّبًا.**

**وَذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ التَّشْرِيعِ، مِثْلَ الْخَمْرِ وَالتِّجَارَةِ فِيهَا قَبْلَ تَحْرِيمِهَا، بَلِ الْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ.**

**وَخَالَفَتِ الْمُعْتَزِلَةُ فِي ذَلِكَ فِي جُمْلَةِ فُرُوعِ مَسْأَلَةِ خَلْقِ الْمَفَاسِدِ وَالشُّرُورِ وَتَقْدِيرِهِمَا، وَمَسْأَلَةُ الرِّزْقِ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي جَرَتْ فِيهَا الْمُنَاظَرَةُ بَيْنَ الْأَشَاعِرَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ كَمَسْأَلَةِ الْآجَالِ، وَمَسْأَلَةِ السِّعْرِ، وَتَمَسُّكِ الْمُعْتَزِلَةِ فِي مَسْأَلَةِ الرِّزْقِ بِأَدِلَّةٍ لَا تُنْتِجُ الْمَطْلُوبَ.**

**وَالْإِنْفَاقُ إِعْطَاءُ الرِّزْقِ فِيمَا يَعُودُ بِالْمَنْفَعَةِ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْعِيَالِ وَمَنْ يُرْغَبُ فِي صِلَتِهِ أَوِ التَّقَرُّبِ لِلَّهِ بِالنَّفْعِ لَهُ مِنْ طَعَامٍ أَوْ لِبَاسٍ.**

**وَأُرِيدَ بِهِ هُنَا بَثُّهُ فِي نَفْعِ الْفُقَرَاءِ وَأَهْلِ الْحَاجَةِ وَتَسْدِيدِ نَوَائِبِ الْمُسْلِمِينَ بِقَرِينَةِ الْمَدْحِ وَاقْتِرَانِهِ بِالْإِيمَانِ وَالصَّلَاةِ فَلَا شَكَّ أَنَّهُ هُنَا خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ، وَمَا هِيَ إِلَّا الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ إِذْ لَا يُمْدَحُ أَحَدٌ بِإِنْفَاقِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ، إِذْ ذَلِكَ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الْجِبِلَّةُ، فَلَا يَعْتَنِي الدِّينُ بِالتَّحْرِيضِ عَلَيْهِ.**

**فَمِنَ الْإِنْفَاقِ مَا هُوَ وَاجِبٌ، وَهُوَ حَقٌّ عَلَى صَاحِبِ الرِّزْقِ، لِلْقَرَابَةِ وَلِلْمَحَاوِيجِ مِنَ الْأُمَّةِ وَنَوَائِبِ الْأُمَّةِ، كَتَجْهِيزِ الْجُيُوشِ وَالزَّكَاةِ، وَبَعْضُهُ مُحَدَّدٌ، وَبَعْضُهُ تَفْرِضُهُ الْمَصْلَحَةُ الشَّرْعِيَّةُ الضَّرُورِيَّةُ أَوِ الْحَاجَةُ.**

**وَذَلِكَ مُفَصَّلٌ فِي تَضَاعِيفِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ، وَمِنَ الْإِنْفَاقِ تَطَوَّع،ٌ وَهُوَ مَا فِيهِ نَفْعُ مَنْ دَعَا الدِّينُ إِلَى نَفْعِهِ.**

**وَفِي إِسْنَادِهِ فِعْلَ رُزِقْنَا إِلَى ضَمِيرِ اللَّهِ –تَعَالَى-، وَجَعْلِ مَفْعُولِهِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ مَا يَصِيرُ الرِّزْقُ بِسَبَبِهِ رِزْقًا لِصَاحِبِهِ هُوَ حَقٌّ خَاصٌّ لَهُ خَوَّلَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ بِحُكْمِ الشَّرِيعَةِ عَلَى حَسَبِ الْأَسْبَابِ وَالْوَسَائِلِ الَّتِي يَتَقَرَّرُ بِهَا مِلْكُ النَّاسِ لِلْأَمْوَالِ وَالْأَرْزَاقِ، وَهُوَ الْوَسَائِلُ الْمُعْتَبَرَةُ فِي الشَّرِيعَةِ الَّتِي اقْتَضَتِ اسْتِحْقَاقَ أَصْحَابِهَا وَاسْتِئْثَارَهُمْ بِهَا بِسَبَبِ الْجُهْدِ مِمَّا عَمِلَهُ الْمَرْءُ بِقُوَّةِ بَدَنِهِ الَّتِي لَا مِرْيَةَ فِي أَنَّهَا حَقُّهُ مِثْلَ انْتِزَاعِ الْمَاءِ وَاحْتِطَابِ الْحَطَبِ وَالصَّيْدِ وَجَنْيِ الثِّمَارِ وَالْتِقَاطِ مَا لَا مِلْكَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ، وَلَا هُوَ كَائِنٌ فِي مِلْكِ أَحَدٍ، وَمِثْلُ خِدْمَتِهِ بِقُوَّتِهِ مِنْ حَمْلِ ثِقْلٍ وَمَشْيٍ لِقَضَاءِ شُؤُونِ مَنْ يُؤَجِّرُهُ وَانْحِبَاسٍ لِلْحِرَاسَةِ، أَوْ كَانَ مِمَّا يَصْنَعُ أَشْيَاءَ مِنْ مَوَادَّ يَمْلِكُهَا، وَلَهُ حَقُّ الِانْتِفَاعِ بِهَا كَالْخَبْزِ وَالنَّسْجِ وَالتَّجْرِ وَتَطْرِيقِ الْحَدِيدِ وَتَرْكِيبِ الْأَطْعِمَةِ وَتَصْوِيرِ الْآنِيَةِ مِنْ طِينِ الْفَخَّارِ، أَوْ كَانَ مِمَّا أَنْتَجَهُ مِثْلَ الْغَرْسِ وَالزَّرْعِ وَالتَّوْلِيدِ، أَوْ مِمَّا ابْتَكَرَهُ بِعَقْلِهِ مِثْلَ التَّعْلِيمِ وَالِاخْتِرَاعِ وَالتَّأْلِيفِ وَالطِّبِّ وَالْمُحَامَاةِ وَالْقَضَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْوَظَائِفِ وَالْأَعْمَالِ الَّتِي لِنَفْعِ الْعَامَّةِ أَوِ الْخَاصَّةِ، أَوْ مِمَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ مَالِكُ رِزْقٍ مِنْ هِبَاتٍ وَهَدَايَا وَوَصَايَا، أَوْ أُذِنٍ بِالتَّصَرُّفِ كَإِحْيَاءِ الْمَوَاتِ، أَوْ كَانَ مِمَّا نَالَهُ بِالتَّعَارُضِ كَالْبُيُوعِ وَالْإِجَارَاتِ وَالْأَكْرِيَةِ وَالشَّرِكَاتِ وَالْمُغَارَسَةِ، أَوْ مِمَّا صَارَ إِلَيْهِ مَنْ مَالٍ انْعَدَمَ صَاحِبُهُ بِكَوْنِهِ أَحَقَّ النَّاسِ بِهِ كَالْإِرْثِ.**

**وَتَمَلُّكُ اللُّقَطَةِ بَعْدَ التَّعْرِيفِ الْمَشْرُوطِ، وَحَقُّ الْخُمُسِ فِي الرِّكَازِ. فَهَذِهِ وَأَمْثَالُهَا مِمَّا شَمِلَهُ قَوْلُ اللَّهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾[[104]](#footnote-104)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=34#docu)**وَلَيْسَ لِأَحَدٍ وَلَا لِمَجْمُوعِ النَّاسِ حَقٌّ فِيمَا جَعَلَهُ اللَّهُ رِزْقَ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ فِي مَالٍ لَمْ يَسْعَ لِاكْتِسَابِهِ بِوَسَائِلِهِ.**

**وَقَدْ جَاءَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ زَوْجُ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَتْ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مِسِّيكٌ، فَهَلْ أُنْفِقُ مِنَ الَّذِي لَهُ عِيَالَنَا، فَقَالَ لَهَا لَا إِلَّا بِالْمَعْرُوفِ، أَيْ إِلَّا مَا هُوَ مَعْرُوفٌ أَنَّهُ تَتَصَرَّفُ فِيهِ الزَّوْجَةُ مِمَّا فِي بَيْتِهَا مِمَّا وَضَعَهُ الزَّوْجُ فِي بَيْتِهِ لِذَلِكَ، دُونَ مُسَارَقَةٍ وَلَا خِلْسَةٍ.**

**وَتَقْدِيمُ الْمَجْرُورِ الْمَعْمُولِ عَلَى عَامِلِهِ، وَهُوَ يُنْفِقُونَ لِمُجَرَّدِ الِاهْتِمَامِ بِالرِّزْقِ فِي عُرْفِ النَّاسِ، فَيَكُونُ فِي التَّقْدِيمِ إِيذَانٌ بِأَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ مَعَ مَا لِلرِّزْقِ مِنَ الْمَعَزَّةِ عَلَى النَّفْسِ كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾[[105]](#footnote-105)، مَعَ رَعْيِ فَوَاصِلِ الْآيَاتِ عَلَى حَرْفِ النُّونِ، وَفِي الْإِتْيَانِ بِمِنَ الَّتِي هِيَ لِلتَّبْعِيضِ إِيمَاءٌ إِلَى كَوْنِ الْإِنْفَاقِ الْمَطْلُوبِ شَرْعًا هُوَ إِنْفَاقُ بَعْضِ الْمَال،ِ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ لَمْ تُكَلِّفِ النَّاسَ حَرَجًا، وَهَذَا الْبَعْضُ يَقِلُّ وَيَتَوَفَّرُ بِحَسَبِ أَحْوَالِ الْمُنْفِقِينَ.**

**فَالْوَاجِبُ مِنْهُ مَا قَدَّرَتِ الشَّرِيعَةُ نُصُبَهُ وَمَقَادِيرَهُ مِنَ الزَّكَاةِ وَإِنْفَاقِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْعَبِيدِ، وَمَا زَادَ عَلَى الْوَاجِبِ لَا يَنْضَبِطُ تَحْدِيدُهُ وَمَا زَادَ فَهُوَ خَيْرٌ، وَلَمْ يُشَرِّعِ الْإِسْلَامُ وُجُوبَ تَسْلِيمِ الْمُسْلِمِ مَا ارْتَزَقَهُ وَاكْتَسَبَهُ إِلَى يَدِ غَيْرِهِ.**

**وَإِنَّمَا اخْتِيرَ ذِكْرُ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَهُمْ دُونَ غَيْرِهَا، لِأَنَّهَا أَوَّلُ مَا شُرِعَ مِنَ الْإِسْلَام،ِ فَكَانَتْ شِعَارَ الْمُسْلِمِينَ، وَهِيَ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، فَإِنَّهُمَا أَقْدَمُ الْمَشْرُوعَات،ِ وَهُمَا أُخْتَانِ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَلِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ هِيَ دَلَائِلُ إِخْلَاصِ الْإِيمَان،ِ لِأَنَّ الْإِيمَانَ فِي حَالِ الْغَيْبَةِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَالِ خُوَيِّصَةِ النَّفْسِ أَدَلُّ عَلَى الْيَقِينِ وَالْإِخْلَاصِ حِينَ يَنْتَفِي الْخَوْفُ وَالطَّمَعُ، إِنْ كَانَ الْمُرَادُ مَا غَابَ، أَوْ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِمَا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْحِسُّ أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَى قُوَّةِ الْيَقِينِ، حَتَّى أَنَّهُ يَتَلَقَّى مِنَ الشَّارِعِ مَا لَا قِبَلَ لِلرَّأْيِ فِيهِ وَشَأْنُ النُّفُوسِ أَنْ تَنْبُوَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ لِأَنَّهَا تَمِيلُ إِلَى الْمَحْسُوسِ فَالْإِيمَانُ بِهِ عَلَى عِلَّاتِهِ دَلِيلُ قُوَّةِ الْيَمِينِ بِالْمُخْبِرِ، وَهُوَ الرَّسُولُ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْغَيْبِ مَا قَابَلَ الشَّهَادَةَ، وَلِأَنَّ الصَّلَاةَ كُلْفَةٌ بَدَنِيَّةٌ فِي أَوْقَاتٍ لَا يَتَذَكَّرُهَا مُقِيمُهَا أَيْ مُحْسِنُ أَدَائِهَا إِلَّا الَّذِي امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِذِكْرِ اللَّهِ –تَعَالَى- عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الْخُضُوعِ وَإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ، وَلِأَنَّ الزَّكَاةَ أَدَاءُ الْمَالِ وَقَدْ عُلِمَ شُحُّ النُّفُوسِ قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[[106]](#footnote-106)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=34#docu)**وَلِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ الشِّرْكِ كَانُوا مَحْرُومِينَ مِنْهَا فِي حَالِ الشِّرْكِ بِخِلَافِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَكَانَ لِذِكْرِهَا تَذْكِيرٌ بِنِعْمَةِ الْإِسْلَامِ.**

**﴿**[**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ**  **وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[[107]](#footnote-107)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)

**عَطَفَ عَلَى ﴿**[**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[[108]](#footnote-108)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)**طَائِفَةً ثَانِيَةً عَلَى الطَّائِفَةِ الْأَوْلَى الْمَعْنِيَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿**[**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[[109]](#footnote-109)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)**وَهُمَا مَعًا قِسْمَانِ لِلْمُتَّقِينَ، فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَ أَنَّ الْقُرْآنَ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بَعْدَ الشِّرْكِ، وَهُمُ الْعَرَبُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ.**

**وَوَصَفَهُمْ بِالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُؤْمِنُونَ بِهِ حِينَ كَانُوا مُشْرِكِينَ، ذَكَرَ فَرِيقًا آخَرَ مِنَ الْمُتَّقِينَ، وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ قَبْلَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ.**

**وَهَؤُلَاءِ هُمْ مُؤْمِنُوا أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ الْيَهُودُ الَّذِينَ كَانُوا كَثِيرِينَ فِي الْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا فِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَخَيْبَرَ، مِثْلَ**[**عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامَ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=106) **وَبَعْضِ النَّصَارَى مِثْلَ**[**صُهَيْبٍ الرُّومِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=52)[**وَدِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=202)**وَهُمْ وَإِنْ شَارَكُوا مُسْلِمِي الْعَرَبِ فِي الِاهْتِدَاءِ بِالْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ صِفَاتِهِمْ قَبْلَ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ، فَذَكَرْتُ لَهُمْ خَصْلَةً أُخْرَى زَائِدَةً عَلَى مَا وُصِفَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ الْأَوَّلُونَ، فَالْمُغَايَرَةُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ هُنَا بِالْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ.**

**وَلَمَّا كَانَ قَصْدُ تَخْصِيصِهِمْ بِالذِّكْرِ يَسْتَلْزِمُ عَطْفَهُمْ، وَكَانَ الْعَطْفُ بِدُونِ تَنْبِيهٍ عَلَى أَنَّهُمْ فَرِيقٌ آخَرُ يُوهِمُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَهْدِي إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ لِأَنَّ هَذِهِ خَاتِمَةُ الصِّفَاتِ فَهِيَ مُرَادَةٌ فَيُظَنُّ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا عَنْ شِرْكٍ لَا حَظَّ لَهُمْ مِنْ هَذَا الثَّنَاءِ.**

**وَكَيْفَ، وَفِيهِمْ مِنْ خِيرَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَهُمْ أَشَدُّ اتِّقَاءً وَاهْتِدَاءً. إِذْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ تَرَقُّبٍ لِبَعْثَةِ رَسُولٍ مِنْ قَبْلُ، فَاهْتِدَاؤُهُمْ نَشَأَ عَنْ تَوْفِيقٍ رَبَّانِيٍّ، دُفِعَ هَذَا الْإِيهَامُ بِإِعَادَةِ الْمَوْصُولِ لِيُؤْذِنَ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ فَرِيقٌ آخَرُ غَيْرُ الْفَرِيقِ الَّذِي أُجْرِيَتْ عَلَيْهِمُ الصِّفَاتُ الثَّلَاثُ الْأُوَلُ.**

**وَبِذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِأَهْلِ الصِّفَاتِ الثَّلَاثِ الْأُوَلِ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بَعْدَ شِرْكٍ لِوُجُودِ الْمُقَابَلَةِ. وَيَكُونُ الْمَوْصُولَانِ لِلْعَهْدِ، وَعَلِمَ أَنَّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ هُمْ أَيْضًا مِمَّنْ يُؤْمِنُ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا أُنْزِلَ إِلَى النَّبِيءِ، وَفِي التَّعْبِيرِ بِالْمُضَارِعِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**[**يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾[[110]](#footnote-110)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)**مِنْ إِفَادَةِ التَّجَدُّدِ مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ فِي نَظَائِرِهِ، لِأَنَّ إِيمَانَهُمْ بِالْقُرْآنِ حَدَثَ جَدِيدًا، وَهَذَا كُلُّهُ تَخْصِيصٌ لَهُمْ بِمَزِيَّةٍ يَجِبُ اعْتِبَارُهَا وَإِنْ كَانَ التَّفَاضُلُ بَعْدَ ذَلِكَ بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ وَرُسُوخِهِ وَشِدَّةِ الِاهْتِدَاءِ، فَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ أَفْضَلُ مِنْ دِحْيَةَ**[**وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=106)**.**

**وَالْإِنْزَالُ: جَعْلُ الشَّيْءِ نَازِلًا، وَالنُّزُولُ الِانْتِقَالُ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِي انْتِقَالِ الذَّوَاتِ مِنْ عُلُوٍّ، وَيُطْلَقُ الْإِنْزَالُ وَمَادَّةُ اشْتِقَاقِهِ بِوَجْهِ الْمَجَازِ اللُّغَوِيِّ عَلَى مَعَانٍ رَاجِعَةٍ إِلَى تَشْبِيهِ عَمَلٍ بِالنُّزُولِ لِاعْتِبَارِ شَرَفٍ وَرِفْعَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾[[111]](#footnote-111)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)**وَقَوْلِهِ: ﴿**[**وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[[112]](#footnote-112)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)**لِأَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَعَطَاءَهُ يُجْعَلُ كَوُصُولِ الشَّيْءِ مِنْ جِهَةٍ عُلْيَا لِشَرَفِهِ.**

**وَأَمَّا إِطْلَاقُهُ عَلَى بُلُوغِ الْوَصْفِ مِنَ اللَّهِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ، فَهُوَ إِمَّا مَجَازٌ عَقْلِيٌّ بِإِسْنَادِ النُّزُولِ إِلَى الْوَحْيِ تَبَعًا لِنُزُولِ الْمَلَكِ مُبَلِّغِهِ الَّذِي يَتَّصِلُ بِهَذَا الْعَالَمِ نَازِلًا مِنَ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ.**

**قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾[[113]](#footnote-113)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)**عَلَى قَلْبِكَ، فَإِنَّ الْمَلَكَ مُلَابِسٌ لِلْكَلَامِ الْمَأْمُورِ بِتَبْلِيغِهِ، وَإِمَّا مَجَازٌ لُغَوِيٌّ بِتَشْبِيهِ الْمَعَانِي الَّتِي تُلْقَى إِلَى النَّبِيءِ بِشَيْءٍ وَصَلَ مِنْ مَكَانٍ عَالٍ.**

**وَوَجْهُ الشَّبَهِ هُوَ الِارْتِفَاعُ الْمَعْنَوِيُّ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْوَحْيُ كَلَامًا سَمِعَهُ الرَّسُولُ كَالْقُرْآنِ وَكَمَا أُنْزِلَ إِلَى مُوسَى، وَكَمَا وَصَفَ النَّبِيءُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَعْضَ أَحْوَالِ الْوَحْيِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ بِقَوْلِهِ: وَأَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، فَيَفْصِمُ عَنِّي، وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ.**

**وَأَمَّا رُؤْيَا النَّوْمِ كَرُؤْيَا إِبْرَاهِيمَ، فَلَا تُسَمَّى إِنْزَالًا، وَالْمُرَادُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَى النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمِقْدَارُ الَّذِي تَحَقَّقَ نُزُولُهُ مِنَ الْقُرْآنِ قَبْلَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَة.ِ فَإِنَّ الثَّنَاءَ عَلَى الْمُهْتَدِينَ إِنَّمَا يَكُونُ بِأَنَّهُمْ حَصَلَ مِنْهُمْ إِيمَانٌ بِمَا نَزَلَ لَا تَوَقُّعُ إِيمَانِهِمْ بِمَا سَيَنْزِلُ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَحْتَاجُ لِلذِّكْرِ، إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ يَسْتَمِرُّ إِيمَانُهُ بِكُلِّ مَا يَنْزِلُ عَلَى الرَّسُولِ، لِأَنَّ الْعِنَادَ وَعَدَمَ الِاطْمِئْنَانِ إِنَّمَا يَكُونُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، فَإِذَا زَالَا بِالْإِيمَانِ أَمِنُوا مِنَ الِارْتِدَادِ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبُ.**

**فَالْإِيمَانُ بِمَا سَيَنْزِلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ حَاصِلٌ بِفَحْوَى الْخِطَابِ، وَهِيَ الدَّلَالَةُ الْأُخْرَوِيَّةُ، فَإِيمَانُهُمْ بِمَا سَيَنْزِلُ مُرَادٌ مِنَ الْكَلَامِ، وَلَيْسَ مَدْلُولًا لِلَّفْظِ الَّذِي هُوَ لِلْمَاضِي، فَلَا حَاجَةَ إِلَى دَعْوَى تَغْلِيبِ الْمَاضِي عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**بِمَا أُنْزِلَ﴾[[114]](#footnote-114).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)

**وَالْمُرَادُ: مَا أُنْزِلَ وَمَا سَيَنْزِلُ، كَمَا فِي *الْكَشَّافِ*.**

**وَعَدَّى الْإِنْزَالَ بِإِلَى لِتَضْمِينِهِ مَعْنَى الْوَصْفِ، فَالْمُنْزَلُ إِلَيْهِ غَايَةٌ لِلنُّزُولِ وَالْأَكْثَر.ُ وَالْأَصْلُ أَنَّهُ يُعَدَّى بِحَرْفِ: "عَلَى"، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى السُّقُوطِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[[115]](#footnote-115).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)

**وَإِذَا أُرِيدَ أَنَّ الشَّيْءَ اسْتَقَرَّ عِنْدَ الْمُنْزَلِ عَلَيْهِ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾[[116]](#footnote-116)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)**وَاخْتِيَارُ إِحْدَى التَّعْدِيَتَيْنِ تَفَنُّنٌ فِي الْكَلَامِ.**

**ثُمَّ إِنَّ فَائِدَةَ الْإِتْيَانِ بِالْمَوْصُولِ هُنَا دُونَ أَنْ يُقَالَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الدَّلَالَةُ بِالصِّلَةِ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا آمَنُوا بِمَا ثَبَتَ نُزُولُهُ مِنَ اللَّهِ عَلَى رُسُلِهِمْ دُونَ تَخْلِيطٍ بِتَحْرِيفَاتٍ صَدَّتْ قَوْمَهُمْ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ كَكَوْنِ التَّوْرَاةِ لَا تَقْبَلُ النَّسْخَ، وَأَنَّهُ يَجِيءُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ عَقِبِ إِسْرَائِيلَ مَنْ يُخَلِّصُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْأَسْرِ وَالْعُبُودِيَّة،ِ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَلَكِنَّهُ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ أَوْ مِنْ فَاسِدِ التَّأْوِيلَاتِ، فَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِغُلَاةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ صَدَّهُمْ غُلُوُّهُمْ فِي دِينِهِمْ.**

**وَقَوْلُهُمْ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ عَنِ اتِّبَاعِ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[[117]](#footnote-117)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)**عَطْفُ صِفَةٍ ثَانِيَةٍ، وَهِيَ ثُبُوتُ إِيمَانِهِمْ بِالْآخِرَةِ أَيِ اعْتِقَادِهِمْ بِحَيَاةٍ ثَانِيَةٍ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَإِنَّمَا خُصَّ هَذَا الْوَصْفُ بِالذِّكْرِ عِنْدَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِ بَقِيَّةِ أَوْصَافِهِمْ لِأَنَّهُ مِلَاكُ التَّقْوَى وَالْخَشْيَةِ الَّتِي جُعِلُوا مَوْصُوفِينَ بِهَا، لِأَنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ كُلَّهَا جَارِيَةٌ عَلَى مَا أَجْمَلَهُ الْوَصْفُ بِالْمُتَّقِينَ، فَإِنَّ الْيَقِينَ بِدَارِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ هُوَ الَّذِي يُوجِبُ الْحَذَرَ وَالْفِكْرَةَ فِيمَا يُنْجِي النَّفْسَ مِنَ الْعِقَابِ وَيُنَعِّمُهَا بِالثَّوَابِ.**

**وَذَلِكَ الَّذِي سَاقَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِالنَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلِأَنَّ هَذَا الْإِيقَانَ بِالْآخِرَةِ مِنْ مَزَايَا أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْعَرَبِ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا يُوقِنُونَ بِحَيَاةٍ ثَانِيَةٍ فَهُمْ دَهْرِيُّونَ.**

**وَأَمَّا مَا يُحْكَى عَنْهُمْ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرْبُطُونَ رَاحِلَةَ الْمَيِّتِ عِنْدَ قَبْرِهِ وَيَتْرُكُونَهَا لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ حَتَّى الْمَوْتَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِذَا حَيِيَ يَرْكَبُهَا، فَلَا يُحْشَرُ رَاجِلًا وَيُسَمُّونَهَا الْبَلِيَّةَ، فَذَلِكَ تَخْلِيطٌ بَيْنَ مَزَاعِمِ الشِّرْكِ وَمَا يَتَلَقَّوْنَهُ عَنِ الْمُتَنَصِّرِينَ مِنْهُمْ بِدُونِ تَأَمُّلٍ.**

**وَالْآخِرَةُ فِي اصْطِلَاحِ الْقُرْآنِ هِيَ الْحَيَاةُ الْآخِرَةُ، فَإِنَّ الْآخِرَةَ صِفَةُ تَأْنِيثِ الْآخِرِ بِالْمَدِّ وَكَسْرِ الْخَاءِ، وَهُوَ الْحَاصِلُ الْمُتَأَخِّرُ عَنْ شَيْءٍ قَبْلَهُ فِي فِعْلٍ أَوْ حَالٍ، وَتَأْنِيثُ وَصْفِ الْآخِرَةِ مَنْظُورٌ فِيهِ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ إِجْرَاؤُهُ عَلَى مَوْصُوفٍ مُؤَنَّثِ اللَّفْظِ حُذِفَ لِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهِ وَصَيْرُورَتِهِ مَعْلُومًا وَهُوَ يُقَدَّرُ بِالْحَيَاةِ الْآخِرَةِ مُرَاعَاةً لِضِدِّهِ، وَهُوَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، أَيِ الْقَرِيبَةُ بِمَعْنَى الْحَاضِرَةِ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ لَهَا الْعَاجِلَةُ ثُمَّ صَارَتِ الْآخِرَةُ عَلَمًا بِالْغَلَبَةِ عَلَى الْحَيَاةِ الْحَاصِلَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَهِيَ الْحَاصِلَةُ بَعْدَ الْبَعْثِ لِإِجْرَاءِ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ.**

**فَمَعْنَى: ﴿**[**وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[[118]](#footnote-118)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)**أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ وَالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ.**

**وَالْيَقِينُ هُوَ الْعِلْمُ بِالشَّيْءِ عَنْ نَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ أَوْ بَعْدَ شَكٍّ سَابِقٍ وَلَا يَكُونُ شَكٌّ إِلَّا فِي أَمْرٍ ذِي نَظَرٍ فَيَكُونُ أَخَصَّ مِنَ الْإِيمَانِ وَمِنَ الْعِلْمِ.**

**وَاحْتَجَّ الرَّاغِبُ لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[[119]](#footnote-119)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)**وَلِذَلِكَ لَا يُطْلِقُونَ الْإِيقَانَ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ وَلَا عَلَى الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ وَقِيلَ هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الِاحْتِمَالَ وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى الظَّنِّ الْقَوِيِّ إِطْلَاقًا عُرْفِيًّا حَيْثُ لَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ أَنَّهُ ظَنٌّ وَيُشْتَبَهُ بِالْعِلْمِ الْجَازِمِ فَيَكُونُ مُرَادِفًا لِلْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ.**

**فَالتَّعْبِيرُ عَنْ إِيمَانِهِمْ بِالْآخِرَةِ بِمَادَّةِ الْإِيقَانِ، لِأَنَّ هَاتِهِ الْمَادَّةَ، تُشْعِرُ بِأَنَّهُ عِلْمٌ حَاصِلٌ عَنْ تَأَمُّلِ وَغَوْصِ الْفِكْرِ فِي طَرِيقِ الِاسْتِدْلَالِ لِأَنَّ الْآخِرَةَ لَمَّا كَانَتْ حَيَاةً غَائِبَةً عَنِ الْمُشَاهَدَةِ غَرِيبَةً بِحَسَبِ الْمُتَعَارَفِ، وَقَدْ كَثُرَتِ الشُّبَهُ الَّتِي جَرَّتِ الْمُشْرِكِينَ وَالدَّهْرِيِّينَ عَلَى نَفْيِهَا وَإِحَالَتِهَا، كَانَ الْإِيمَانُ بِهَا جَدِيرًا بِمَادَّةِ الْإِيقَانِ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ أَخَصُّ مِنَ الْإِيمَانِ، فَلِإِيثَارِ يُوقِنُونَ هُنَا خُصُوصِيَّةٌ مُنَاسِبَةٌ لِبَلَاغَةِ الْقُرْآنِ.**

**وَالَّذِينَ جَعَلُوا الْإِيقَانَ وَالْإِيمَانَ مُتَرَادِفَيْنِ جَعَلُوا ذِكْرَ الْإِيقَانِ هُنَا لِمُجَرَّدِ التَّفَنُّنِ تَجَنُّبًا لِإِعَادَةِ لَفْظِ يُؤْمِنُونَ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾[[120]](#footnote-120)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)**وَفِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[[121]](#footnote-121)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)**تَقْدِيمٌ لِلْمَجْرُورِ الَّذِي هُوَ مَعْمُولُ يُوقِنُونَ عَلَى عَامِلِهِ، وَهُوَ تَقْدِيمٌ لِمُجَرَّدِ الِاهْتِمَامِ مَعَ رِعَايَةِ الْفَاصِلَةِ.**

**وَأَرَى أَنَّ فِي هَذَا التَّقْدِيمِ ثَنَاءً عَلَى هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُمْ أَيْقَنُوا بِأَهَمِّ مَا يُوقِنُ بِهِ الْمُؤْمِنُ، فَلَيْسَ التَّقْدِيمُ بِمُفِيدٍ حَصْرًا، إِذْ لَا يَسْتَقِيمُ مَعْنَى الْحَصْرِ هُنَا بِأَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ يُوقِنُونَ بِالْآخِرَةِ دُونَ غَيْرِهَا، وَقَدْ تَكَلَّفَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* وَشَارِحُوهُ لِإِفَادَةِ الْحَصْرِ مِنْ هَذَا التَّقْدِيمِ وَيَخْرُجُ الْحَصْرُ عَنْ تَعَلُّقِهِ بِذَاتِ الْمَحْصُورِ فِيهِ إِلَى تَعَلُّقِهِ بِأَحْوَالِهِ. وَهَذَا غَيْرُ مَعْهُودٍ فِي الْحَصْرِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**هُمْ يُوقِنُونَ﴾[[122]](#footnote-122)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)**جِيءَ بِالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ مُقَدَّمًا عَلَى الْمُسْنَدِ الْفِعْلِيِّ لِإِفَادَةِ تَقْوِيَةِ الْخَبَر،ِ إِذْ هُوَ إِيقَانٌ ثَابِتٌ عِنْدَهُمْ مِنْ قَبْلِ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْإِجْمَالِ، وَإِنْ كَانَتِ التَّوْرَاةُ خَالِيَةً عَنْ تَفْصِيلِهِ وَالْإِنْجِيلُ أَشَارَ إِلَى حَيَاةِ الرُّوحِ، وَتَعَرَّضَ كِتَابَا حِزْقِيَالَ وَأَشْعِيَاءَ لِذِكْرِهِ.**

**وَفِي كِلَا التَّقْدِيمَيْنِ تَعْرِيضٌ بِالْمُشْرِكِينَ الدَّهْرِيِّينَ وَنِدَاءٌ عَلَى انْحِطَاطِ عَقِيدَتِهِمْ، وَأَمَّا الْمُتَّبِعُونَ لِلْحَنِيفِيَّةِ فِي ظَنِّهِمْ، مِثْلَ:**[**أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12467)**وَزَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، فَلَمْ يُلْتَفَتْ إِلَيْهِمْ لِقِلَّةِ عَدَدِهِمْ أَوْ لِأَنَّهُمْ مُلْحَقُونَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ لِأَخْذِهِمْ عَنْهُمْ كَثِيرًا مِنْ شَرَائِعِهِمْ بِعِلَّةِ أَنَّهَا مِنْ شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-.**

**﴿**[**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾[[123]](#footnote-123)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=36#docu)

**اسْمُ الْإِشَارَةِ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ أُجْرِيَ عَلَيْهِمْ مِنَ الصِّفَاتِ مَا تَقَدَّمَ، فَكَانُوا فَرِيقَيْنِ.**

**وَأَصْلُ الْإِشَارَةِ أَنْ تَعُودَ إِلَى ذَاتٍ مُشَاهَدَةٍ مُعَيَّنَةٍ إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ يَخْرُجُونَ بِهَا عَنِ الْأَصْلِ، فَتَعُودُ إِلَى ذَاتٍ مُسْتَحْضَرَةٍ مِنَ الْكَلَامِ بَعْدَ أَنْ يُذْكَرَ مِنْ صِفَاتِهَا وَأَحْوَالِهَا مَا يُنْزِلُهَا مَنْزِلَةَ الْحَاضِرِ فِي ذِهْنِ الْمُتَكَلِّمِ وَالسَّامِعِ، فَإِنَّ السَّامِعَ إِذَا وَعَى تِلْكَ الصِّفَاتِ وَكَانَتْ مُهِمَّةً أَوْ غَرِيبَةً فِي خَيْرٍ أَوْ ضِدِّهِ صَارَ الْمَوْصُوفُ بِهَا كَالْمَشَاهِدِ، فَالْمُتَكَلِّمُ يَبْنِي عَلَى ذَلِكَ فَيُشِيرُ إِلَيْهِ كَالْحَاضِرِ الْمُشَاهَدِ، فَيُؤْتَى بِتِلْكَ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ لَا أَوْضَحَ فِي تَشَخُّصِهِ، وَلَا أَغْنَى فِي مُشَاهَدَتِهِ مِنْ تَعَرُّفِ تِلْكَ الصِّفَاتِ، فَتَكْفِي الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا، هَذَا أَصْلُ الِاسْتِعْمَالِ فِي إِيرَادِ الْإِشَارَةِ بَعْدَ ذِكْرِ صِفَاتٍ مَعَ عَدَمِ حُضُورِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ.**

**ثُمَّ إِنَّهُمْ قَدْ يُتْبِعُونَ اسْمَ الْإِشَارَةِ الْوَارِدَ بَعْدَ تِلْكَ الْأَوْصَافِ بِأَحْكَامٍ فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَنْشَأَ تِلْكَ الْأَحْكَامِ هُوَ تِلْكَ الصِّفَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى اسْمِ الْإِشَارَةِ، لِأَنَّهَا لَمَّا كَانَتْ هِيَ طَرِيقَ الِاسْتِحْضَارِ كَانَتِ الْإِشَارَةُ لِأَهْلِ تِلْكَ الصِّفَاتِ قَائِمَةً مَقَامَ الذَّوَاتِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا.**

**فَكَمَا أَنَّ الْأَحْكَامَ الْوَارِدَةَ بَعْدَ أَسْمَاءِ الذَّوَاتِ تُفِيدُ أَنَّهَا ثَابِتَةً لِلْمُسَمَّيَاتِ فَكَذَلِكَ الْأَحْكَامُ الْوَارِدَةُ بَعْدَ مَا هُوَ لِلصِّفَاتِ تُفِيدُ أَنَّهَا ثَبَتَتْ لِلصِّفَاتِ، فَكَقَوْلِهِ: ﴿**[**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾[[124]](#footnote-124)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=36#docu)**بِمَنْزِلَةِ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ تِلْكَ الْأَوْصَافَ هِيَ سَبَبُ تَمَكُّنِهِمْ مِنْ هَدْيِ رَبِّهِمْ إِيَّاهُمْ.**

**وَنَظِيرُهُ قَوْلُ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ:**

**وَلِلَّهِ صُعْلُوكٌ يُسَاوِرُ هَمَّهُ وَيَمْضِـــــــــي عَلَى الْأَحْدَاثِ وَالدَّهْرِ مُقْدِمَــا**

**فَتَى طَلَبَاتٍ لَا يَرَى الْخَمْصُ تُرْحَةً وَلَا شُبْعَةً إِنْ نَالَهَا عَدَّ مَغْنَمَــــــا**

**إِلَى أَنْ قَالَ:**

**فَذَلِكَ إِنْ يَهْلِكْ فَحُسْنَى ثَنَـــــــــــــــــــــاؤُهُ  وَإِنْ عَاشَ لَمْ يَقْعُدْ ضَعِيفًا مُذَمَّمًا**

**فَقَوْلُهُ: ﴿**[**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾[[125]](#footnote-125)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=36#docu)**جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا، لِأَنَّ السَّامِعَ إِذَا سَمِعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ صِفَاتِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ تَرَقَّبَ فَائِدَةَ تِلْكَ الْأَوْصَافِ، وَاسْمُ الْإِشَارَةِ هُنَا حَلَّ مَحَلَّ ذِكْرِ ضَمِيرِهِمْ، وَالْإِشَارَةُ أَحْسَنُ مِنْهُ وَقْعًا، لِأَنَّهَا تَتَضَمَّنُ جَمِيعَ أَوْصَافِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ فَقَدْ حَقَّقَهُ التَّفْتَزَانِيُّ فِي بَابِ الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ مِنَ الشَّرْحِ الْمُطَوَّلِ أَنَّ الِاسْتِئْنَافَ بِذِكْرِ اسْمِ الْإِشَارَةِ أَبْلَغُ مِنَ الِاسْتِئْنَافِ الَّذِي يَكُونُ بِإِعَادَةِ اسْمِ الْمُسْتَأْنَفِ عَنْهُ.**

**وَهَذَا التَّقْدِيرُ أَظْهَرُ مَعْنًى وَأَنْسَبُ بَلَاغَةً وَأَسْعَدُ بِاسْتِعْمَالِ اسْمِ الْإِشَارَةِ فِي مِثْلِ هَاتِهِ الْمَوَاقِعِ، لِأَنَّهُ أَظْهَرُ فِي كَوْنِ الْإِشَارَةِ لِقَصْدِ التَّنْوِيهِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا وَبِمَا يَرِدُ بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ مِنَ الْحُكْمِ النَّاشِئِ عَنْهَا، وَهَذَا لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِجَعْلِ اسْمِ الْإِشَارَةِ مُبْتَدَأً أَوَّلَ صَدْرِ جُمْلَةِ اسْتِئْنَافٍ.**

**فَقَوْلُهُ: ﴿**[**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾[[126]](#footnote-126)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=36#docu)**رُجُوعٌ إِلَى الْإِخْبَارِ عَنْهُمْ بِأَنَّ الْقُرْآنَ هُدًى لَهُمْ وَالْإِتْيَانُ بِحَرْفِ الِاسْتِعْلَاءِ تَمْثِيلٌ لِحَالِهِمْ بِأَنْ شُبِّهَتْ هَيْئَةُ تَمَكُّنِهِمْ مِنَ الْهُدَى وَثَبَاتِهِمْ عَلَيْهِ وَمُحَاوَلَتِهِمُ الزِّيَادَةَ بِهِ وَالسَّيْرِ فِي طَرِيقِ الْخَيْرَاتِ بِهَيْأَةِ الرَّاكِبِ فِي الِاعْتِلَاءِ عَلَى الْمَرْكُوبِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ تَصْرِيفِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى إِرَاضَتِهِ، فَشُبِّهَتْ حَالَتُهُمُ الْمُنْتَزَعَةُ مِنْ مُتَعَدِّدٍ بِتِلْكَ الْحَالَةِ الْمُنْتَزَعَةِ مِنْ مُتَعَدِّدٍ تَشْبِيهًا ضِمْنِيًّا دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ الِاسْتِعْلَاءِ لِأَنَّ الِاسْتِعْلَاءَ أَقْوَى أَنْوَاعِ تَمَكُّنِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ.**

**وَوَجْهُ جَعْلِنَا إِيَّاهَا مُؤْذِنَةً بِتَقْدِيرِ مَرْكُوبٍ دُونَ كُرْسِيٍّ أَوْ مَسْطَبَةٍ مَثَلًا، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي تَسْبِقُ إِلَيْهِ أَفْهَامُهُمْ عِنْدَ سَمَاعِ مَا يَدُلُّ عَلَى الِاسْتِعْلَاءِ، إِذِ الرُّكُوبُ هُوَ أَكْثَرُ أَنْوَاعِ اسْتِعْلَائِهِمْ، فَهُوَ الْحَاضِرُ فِي أَذْهَانِهِمْ، وَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ حِينَ يُصَرِّحُونَ بِالْمُشَبَّهِ بِهِ أَوْ يَرْمُزُونَ إِلَيْهِ مَا يَذْكُرُونَ إِلَّا الْمَرْكُوبَ وَعَلَائِقَهُ، فَيَقُولُونَ جَعَلَ الْغِوَايَةَ مَرْكَبًا وَامْتَطَى الْجَهْلَ وَفِي الْمَقَامَةِ لِمَا اقْتَعَدَتْ غَارِبُ الِاغْتِرَابِ.**

**وَقَالُوا فِي الْأَمْثَالِ: رَكِبَ مَتْنَ عَمْيَاءَ. تَخَبَّطَ خَبْطَ عَشْوَاءَ.**

**وَقَالَ النَّابِغَةُ يَهْجُو عَامِرَ بْنَ الطُّفَيْلِ الْغَنَوِيّ:**

**فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْـــــــــــــــــــــلًا  فَإِنَّ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَــــــــــــــــــــــــــــــابُ**

**فَتَكُونُ كَلِمَةُ عَلَى هُنَا بَعْضَ الْمُرَكَّبِ الدَّالِّ عَلَى الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا عَلَى وَجْهِ الْإِيجَازِ وَأَصْلُهُ أُولَئِكَ عَلَى مَطِيَّةِ الْهُدَى، فَهِيَ تَمْثِيلِيَّةٌ تَصْرِيحِيَّةٌ إِلَّا أَنَّ الْمُصَرَّحَ بِهِ بَعْضُ الْمُرَكَّبِ الدَّالِّ لَا جَمِيعُهُ.**

**هَكَذَا قَرَّرَ كَلَامَ *الْكَشَّافِ* فِيهَا شَارِحُوهُ وَالطِّيبِيُّ، وَالتَّحْتَانِيُّ وَالتَّفْتَزَانِيُّ وَالْبَيْضَاوِيُّ. وَذَهَبَ الْقَزْوِينِيُّ فِي *الْكَشْفِ* وَالسَّيِّدُ الْجُرْجَانِيُّ إِلَى أَنَّ الِاسْتِعَارَةَ فِي الْآيَةِ تَبَعِيَّةٌ مُقَيَّدَةٌ بِأَنْ شَبَّهَ التَّمَسُّكَ بِالْهُدَى عِنْدَ الْمُتَّقِينَ بِالتَّمَكُّنِ مِنَ الدَّابَّةِ لِلرَّاكِبِ، وَسَرَى التَّشْبِيهُ إِلَى مَعْنَى الْحَرْفِ وَهُوَ "عَلَى". وَجَوَّزَ السَّيِّدُ وَجْهًا ثَالِثًا، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ هُنَا اسْتِعَارَةٌ مَكْنِيَّةٌ مُفْرَدَةٌ بِأَنْ شُبِّهَ الْهُدَى بِمَرْكُوبٍ وَحَرْفُ الِاسْتِعْلَاءِ قَرِينَةٌ عَلَى ذَلِكَ عَلَى طَرِيقَةِ السَّكَّاكِيِّ فِي رَدِّ التَّبَعِيَّةِ لِلْمَكْنِيَّةِ.**

**ثُمَّ زَادَ الطِّيبِيُّ وَالتَّفْتَزَانِيُّ فَجَعَلَا فِي الْآيَةِ اسْتِعَارَةً تَبَعِيَّةً مَعَ التَّمْثِيلِيَّةِ قَائِلِينَ إِنَّ مَجِيءَ كَلِمَةِ عَلَى يُعَيِّنُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا مُسْتَعَارًا لِمَا يُمَاثِلُهُ وَهُوَ التَّمَكُّنُ، فَتَكُونُ هُنَالِكَ تَبَعِيَّةٌ لَا مَحَالَةَ.**

**وَقَدِ انْتَصَرَ سَعْدُ الدِّينِ التَّفْتَزَانِيُّ لِوَجْهِ التَّمْثِيلِيَّةِ، وَانْتَصَرَ السَّيِّدُ الْجُرْجَانِيُّ لِوَجْهِ التَّبَعِيَّةِ.**

**وَاشْتَدَّ السَّيِّدُ فِي إِنْكَارِ كَوْنِهَا تَمْثِيلِيَّةً وَرَآهُ جَمْعًا بَيْنَ مُتَنَافِيَيْنِ، لِأَنَّ انْتِزَاعَ كُلٍّ مِنْ طَرَفَيِ التَّشْبِيهِ مِنْ أُمُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ يَسْتَلْزِمُ تَرَكُّبُهُ مِنْ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ، كَيْفَ وَمُتَعَلِّقُ مَعْنَى الْحَرْفِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُفْرَدَةِ كَالِاسْتِعْلَاءِ هُنَا; فَإِذَا اعْتُبِرَ التَّشْبِيهُ هُنَا مُرَكَّبًا اسْتَلْزَمَ أَنْ لَا يَكُونَ مَعْنَى عَلَى وَمُتَعَلِّقُ مَعْنَاهَا مُشَبَّهًا بِهِ وَلَا مُسْتَعَارًا مِنْهُ لَا تَبَعًا وَلَا أَصَالَةً، وَأَطَالَ فِي ذَلِكَ فِي حَاشِيَتِهِ *لِلْكَشَّافِ* وَحَاشِيَتِهِ عَلَى الْمُطَوَّلِ كَمَا أَطَالَ السَّعْدُ فِي حَاشِيَةِ *الْكَشَّافِ* وَفِي الْمُطَوَّلِ، وَتَرَاشَقَا سِهَامَ الْمُنَاظَرَةِ الْحَادَّةِ.**

**وَنَحْنُ نَدْخُلُ فِي الْحُكُومَةِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْعَلَمَيْنِ بِأَنَّهُ لَا نِزَاعَ بَيْنَ الْجَمِيعِ أَنَّ فِي الْآيَةِ تَشْبِيهُ أَشْيَاءَ بِأَشْيَاءَ عَلَى الْجُمْلَةِ حَاصِلَةٌ مِنْ ثُبُوتِ الْهُدَى لِلْمُتَّقِينَ وَمِنْ ثُبُوتِ الِاسْتِعْلَاءِ عَلَى الْمَرْكُوبِ غَيْرَ أَنَّ اخْتِلَافَ الْفَرِيقَيْنِ هُوَ فِي تَعْيِينِ الطَّرِيقَةِ الْحَاصِلِ بِهَا هَذَا التَّشْبِيهُ.**

**فَالْأَكْثَرُونَ يَجْعَلُونَهَا طَرِيقَةَ التَّمْثِيلِيَّةِ بِأَنْ يَكُونَ تَشْبِيهُ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ حَاصِلًا بِالِانْتِزَاعِ وَالتَّرْكِيبِ لِهَيْئَةٍ، وَالسَّيِّدُ يَجْعَلُهَا طَرِيقَةَ التَّبَعِيَّةِ بِأَنْ يَكُونَ الْمُشَبَّهُ وَالْمُشَبَّهُ بِهِ هُمَا فَرْدَانِ مِنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ، وَيَحْصُلُ الْعِلْمُ بِبَقِيَّةِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ بِوَاسِطَةِ تَقْيِيدِ الْمُفْرَدَيْنِ الْمُشَبَّهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ، وَيَجُوزُ طَرِيقَةُ التَّمْثِيلِ وَطَرِيقَةُ الْمَكْنِيَّةِ.**

**فَيَنْصَرِفُ النَّظَرُ هُنَا إِلَى أَيِّ الطَّرِيقَتَيْنِ أَرْجَحُ اعْتِبَارًا وَأَوْفَى فِي الْبَلَاغَةِ مِقْدَارًا، وَإِلَى أَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ طَرِيقَتَيِ التَّمْثِيلِيَّةِ وَالتَّبَعِيَّةِ هَلْ يُعَدُّ مُتَنَاقِضًا فِي اعْتِبَارِ الْقَوَاعِدِ الْبَيَانِيَّةِ كَمَا زَعَمَهُ السَّيِّدُ.**

**تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ أَنَّ أَهْلَهُ أَشَدَّ حِرْصًا عَلَى اعْتِبَارِ تَشْبِيهِ الْهَيْئَةِ فَلَا يَعْدِلُونَ عَنْهُ إِلَى الْمُفْرَدِ مَهْمَا اسْتَقَامَ اعْتِبَارُهُ.**

**وَلِهَذَا قَالَ الشَّيْخُ فِي *دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ* عِنْدَ ذِكْرِ بَيْتِ بَشَّارٍ:**

**كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا** **وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهْ**

**قَصَدَ تَشْبِيهَ النَّقْعِ وَالسُّيُوفُ فِيهِ بِاللَّيْلِ الْمُتَهَاوِيَةُ كَوَاكِبُهُ، لَا تَشْبِيهَ النَّقْعِ بِاللَّيْلِ مِنْ جَانِبٍ وَالسُّيُوفِ بِالْكَوَاكِبِ مِنْ جَانِبٍ.**

**وَلِذَلِكَ وَجَبَ الْحُكْمُ بِأَنَّ أَسْيَافَنَا فِي حُكْمِ الصِّلَةِ لِلْمَصْدَرِ أَيْ مُثَارَ لِئَلَّا يَقَعَ فِي تَشْبِيهِهِ تَفَرُّقٌ، فَإِنَّ نَصْبَ الْأَسْيَافِ عَلَى أَنَّ الْوَاوَ بِمَعْنَى مَعَ لَا عَلَى الْعَطْفِ.**

**إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا، تَبَيَّنَ لَدَيْكَ أَنَّ لِلتَّشْبِيهِ التَّمْثِيلِيِّ الْحَظَّ الْأَوْفَى عِنْدَ أَهْلِ الْبَلَاغَةِ وَوَجْهُهُ أَنَّ مِنْ أَهَمِّ أَغْرَاضِ الْبُلَغَاءِ وَأَوَّلِهَا بَابُ التَّشْبِيهِ، وَهُوَ أَقْدَمُ فُنُونِهَا.**

**وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّمْثِيلَ أَخَصُّ أَنْوَاعِ التَّشْبِيهِ. لِأَنَّهُ تَشْبِيهُ هَيْئَةٍ بِهَيْئَةٍ. فَهُوَ أَوْقَعُ فِي النُّفُوسِ وَأَجْلَى لِلْمَعَانِي.**

**وَنَحْنُ نَجِدُ اعْتِبَارَ التَّمْثِيلِيَّةِ فِي الْآيَةِ أَرْجَحَ، لِأَنَّهَا أَوْضَحُ وَأَبْلَغُ وَأَشْهَرُ وَأَسْعَدُ بِكَلَامِ *الْكَشَّافِ*، أَمَّا كَوْنُهَا أَوْضَحَ فَلِأَنَّ تَشْبِيهَ التَّمْثِيلِ مَنْزَعٌ وَاضِحٌ لَا كُلْفَةَ فِيه،ِ فَيُفِيدُ تَشْبِيهَ مَجْمُوعِ هَيْئَةِ الْمُتَّقِينَ فِي اتِّصَافِهِمْ بِالْهُدَى بِهَيْئَةِ الرَّاكِبِ إِلَخْ بِخِلَافِ طَرِيقَةِ التَّبَعِيَّةِ، فَإِنَّهَا لَا تُفِيدُ إِلَّا تَشْبِيهَ التَّمَكُّنِ بِالِاسْتِعْلَاءِ ثُمَّ يُسْتَفَادُ مَا عَدَا ذَلِكَ بِالتَّقْيِيدِ.**

**وَأَمَّا كَوْنُهَا أَبْلَغَ فَلِأَنَّ الْمَقَامَ، لَمَّا سَمَحَ بِكِلَا الِاعْتِبَارَيْنِ بِاتِّفَاقِ الْفَرِيقَيْنِ، لَا جَرَمَ كَانَ أَوْلَاهُمَا، بِالِاعْتِبَارِ مَا فِيهِ خُصُوصِيَّاتٌ، أَقْوَى وَأَعَزُّ.**

**وَأَمَّا كَوْنُهَا أَشْهَرَ، فَلِأَنَّ التَّمْثِيلِيَّةَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهَا بِخِلَافِ التَّبَعِيَّةِ.**

**وَأَمَّا كَوْنُهُ أَسْعَدَ بِكَلَامِ *الْكَشَّافِ*، فَلِأَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿مَثَلٍ﴾[[127]](#footnote-127) أَنَّهُ أَرَادَ التَّمْثِيلَ، لِأَنَّ كَلَامَ مِثْلِهِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ لَا تَخْرُجُ فِيهِ اللَّفْظَةُ الِاصْطِلَاحِيَّةُ عَنْ مُتَعَارَفِ أَهْلِهَا إِلَى أَصْلِ الْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ.**

**فَإِذَا صَحَّ أَنَّ التَّمْثِيلِيَّةَ أَرْجَحُ فَلْنَنْقُلِ الْكَلَامَ إِلَى تَصْحِيحِ الْجَمْعِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّبَعِيَّة،ِ وَهُوَ الْمَجَالُ الثَّانِي لِلْخِلَافِ بَيْنَ الْعَلَامَتَيْنِ، فَالسَّعْدُ وَالطِّيبِيُّ يُجَوِّزَانِ اعْتِبَارَ التَّبَعِيَّةِ مَعَ التَّمْثِيلِيَّةِ فِي الْآيَةِ.**

**وَالسَّيِّدُ يَمْنَعُ ذَلِكَ كَمَا عَلِمْتُمْ وَيَقُولُ إِذَا كَانَ التَّشْبِيهُ مُنْتَزَعًا مِنْ مُتَعَدِّدٍ فَقَدِ انْتُزِعَ كُلُّ جُزْءٍ فِي الْمُشَبَّهِ مِنْ جُزْئَيِ الْمُشَبَّهِ بِهِ، وَهُوَ مَعْنَى التَّرْكِيبِ فَكَيْفَ يُعْتَبَرُ بَعْضُ الْمُشَبَّهِ بِهِ مُسْتَعَارًا لِبَعْضِ الْمُشَبَّهِ فَيَنْتَقِضُ التَّرْكِيبُ.**

**وَهَذَا الدَّلِيلُ نَاظِرٌ إِلَى قَوْلِ أَئِمَّةِ الْبَلَاغَةِ إِنَّ أَصْلَ مُفْرَدَاتِ الْمُرَكَّبِ التَّمْثِيلِيِّ أَنْ تَكُونَ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي مَعَانِيهَا الْحَقِيقِيَّةِ وَإِنَّمَا الْمَجَازُ فِي جُمْلَةِ الْمُرَكَّبِ، أَيْ فِي إِطْلَاقِهِ عَلَى الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهَةِ، فَكَلَامُ السَّيِّدِ وُقُوفٌ عِنْدَهَا.**

**وَلَكِنَّ التَّفْتَزَانِيَّ لَمْ يَرَ مَانِعًا مِنَ اعْتِبَارِ الْمَجَازِ فِي بَعْضِ مُفْرَدَاتِ الْمُرَكَّبِ التَّمْثِيلِيِّ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ تَكَلُّفٌ.**

**وَلَعَلَّهُ يَرَى ذَلِكَ زِيَادَةً فِي خُصُوصِيَّاتِ إِعْجَازِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَمِنْ شَأْنِ الْبَلِيغِ أَنْ لَا يُفِيتَ مَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ مِنَ الْخُصُوصِيَّاتِ، وَبِهَذَا تَفَاوَتَتِ الْبُلَغَاءُ، كَمَا تَقَرَّرَ فِي مَبْحَثِ تَعْرِيفِ الْبَلَاغَةِ.**

**وَحَدُّ الْإِعْجَازِ هُوَ الطَّرَفُ الْأَعْلَى لِلْبَلَاغَةِ الْجَامِعُ لِأَقْصَى الْخُصُوصِيَّاتِ، كَمَا بَيَّنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ، وَهُوَ الْمُخْتَارُ. فَلَمَّا وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهَةِ وَالْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا شَيْئَانِ يَصْلُحَانِ لِأَنْ يُشَبَّهَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ تَشْبِيهًا مُسْتَقِلًّا غَيْرَ دَاخِلٍ فِي تَشْبِيهِ الْهَيْئَةِ، كَانَ حَقُّ هَذَا الْمَقَامِ تَشْبِيهُ التَّمَكُّنِ بِالِاسْتِعْلَاءِ، وَهُوَ تَشْبِيهٌ بَدِيعٌ وَأُشِيرَ إِلَيْهِ بِكَلِمَةِ عَلَى.**

**وَأَمَّا غَيْرُ هَذَيْنِ مِنْ أَجْزَاءِ الْهَيْأَتَيْنِ فَلَمَّا لَمْ يَحْسُنْ تَشْبِيهُ شَيْءٍ مِنْهَا بِآخَرَ أُلْغِيَ التَّشْبِيهُ الْمُفْرَدُ فِيهَا، إِذْ لَا يَحْسُنُ تَشْبِيهُ الْمُتَّقِي بِخُصُوصِ الرَّاكِبِ وَلَا الْهُدَى بِالْمَرْكُوبِ، فَتَكُونُ "عَلَى" عَلَى هَذَا الْوَجْهِ بَعْضًا مِنَ الْمَجَازِ الْمُرَكَّبِ دَلِيلًا عَلَيْهِ بِاعْتِبَارٍ وَمَجَازًا مُفْرَدًا بِاعْتِبَارٍ آخَرَ.**

**وَالَّذِي أَخْتَارُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿**[**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾[[128]](#footnote-128)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=36#docu)**اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ مَكْنِيَّةٌ شَبَّهَتِ الْحَالَةَ بِالْحَالَةِ وَحُذِفَ لَفْظُ الْمُشَبَّهِ بِهِ، وَهُوَ الْمَرْكَبُ الدَّالُّ عَلَى الرُّكُوبِ كَأَنْ يُقَالَ رَاكِبِينَ مَطِيَّةَ الْهُدَى وَأَبْقَى مَا يَدُلُّ عَلَى الْمُشَبَّهِ، وَهُوَ أُولَئِكَ وَالْهُدَى، وَرَمْزٌ لِلْمَرْكَبِ الدَّالِّ عَلَى الْمُشَبَّهِ بِهِ بِشَيْءٍ مِنْ لَوَازِمِهِ، وَهُوَ لَفْظُ "عَلَى" الدَّالُّ عَلَى الرُّكُوبِ عُرْفًا كَمَا عَلِمْتُمْ، فَتَكْمُلُ لَنَا فِي أَقْسَامِ التَّمْثِيلِيَّةِ الْأَقْسَامُ الثَّلَاثَةُ: الِاسْتِعَارَةُ كَمَا فِي الِاسْتِعَارَةِ الْمُفْرَدَةِ فَيَكُونُ التَّمْثِيلُ مِنْهُ مَجَازٌ مُرْسَلٌ كَاسْتِعْمَالِ الْخَبَرِ فِي التَّحَسُّرِ وَمِنْهُ اسْتِعَارَةٌ مُصَرَّحَةٌ نَحْوَ أَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ أُخْرَى وَمِنْهُ مَكْنِيَّةٌ، كَمَا فِي الْآيَةِ عَلَى رَأْيِنَا، وَمِنْهُ تَبَعِيَّةٌ، كَمَا فِي قَوْلِ الْحَمَاسِيِّ:**

**وَفَارِسٍ فِي غِمَارِ الْمَوْتِ مُنْغَمِـــــــــــــــــــسٍ  إِذَا تَأَلَّى عَلَى مَكْرُوهَةٍ صَدَقَـــــــــــــــا**

**فَإِنَّ "مُنْغَمِسٍ" تَمْثِيلٌ لِهَيْئَةِ إِحَاطَةِ أَسْبَابِ الْمَوْتِ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بِهَيْئَةِ مَنْ أَحَاطَتْ بِهِ الْمِيَاهُ الْمُهْلِكَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَلَفْظُ مُنْغَمِسٍ تَبَعِيَّةٌ لَا مَحَالَةَ.**

**وَإِنَّمَا نُكِّرَ هُدًى وَلَمْ يُعَرَّفْ بِاللَّامِ لِمُسَاوَاةِ التَّعْرِيفِ وَالتَّنْكِيرِ هُنَا، إِذْ لَوْ عُرِّفَ، لَكَانَ التَّعْرِيفُ تَعْرِيفَ الْجِنْسِ، فَرَجَّحَ التَّنْكِيرَ تَمْهِيدًا لِوَصْفِهِ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، فَهُوَ مُغَايِرٌ لِلْهُدَى السَّابِقِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[[129]](#footnote-129)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=36#docu)**مُغَايَرَةً بِالِاعْتِبَارِ، إِذِ الْقَصْدُ التَّنْوِيهُ هُنَا بِشَأْنِ الْهُدَى وَتَوَسُّلًا إِلَى إِفَادَةِ تَعْظِيمِ الْهُدَى بِقَرِينَةِ مَقَامِ الْمَدْحِ، وَبِذِكْرِ مَا يَدُلُّ عَلَى التَّمَكُّن،ِ فَتَعَيَّنَ قَصْدُ التَّعْظِيمِ.**

**فَقَوْلُهُ: ﴿**[**مِنْ رَبِّهِمْ﴾[[130]](#footnote-130)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=36#docu)**تَنْوِيهٌ بِهَذَا الْهُدَى يَقْتَضِي تَعْظِيمَهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى تَعْظِيمِ الْمُتَّصِفِينَ بِالتَّمَكُّنِ مِنْهُ.**

**وَإِنَّمَا وَصَفَ الْهُدَى بِأَنَّهُ مِنْ رَبِّهِمْ لِلتَّنْوِيهِ بِذَلِكَ الْهُدَى وَتَشْرِيفِهِ مَعَ الْإِشَارَةٍ بِأَنَّهُمْ بِمَحَلِّ الْعِنَايَةِ مِنَ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ إِضَافَةُ الرَّبِّ إِلَيْهِمْ هِيَ إِضَافَةُ تَعْظِيمٍ لِشَأْنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ بِالْقَرِينَةِ.**

**﴿**[**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[[131]](#footnote-131)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=37#docu)

**مَرْجِعُ الْإِشَارَةِ الثَّانِيَةِ عَيْنُ مَرْجِعِ الْأُولَى، وَوَجْهُ تَكْرِيرِ اسْمِ الْإِشَارَةِ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ كِلْتَا الْأَثْرَتَيْنِ جَدِيرَةٌ بِالِاعْتِنَاءِ وَالتَّنْوِيهِ، فَلَا تُذْكَرُ إِحْدَاهُمَا تَبَعًا لِلْأُخْرَى بَلْ تُخَصُّ بِجُمْلَةٍ وَإِشَارَةٍ خَاصَّةٍ لِيَكُونَ اشْتِهَارُهُمْ بِذَلِكَ اشْتِهَارًا بِكِلْتَا الْجُمْلَتَيْنِ وَأَنَّهُمْ مِمَّنْ يُقَالُ فِيهِ كِلَا الْقَوْلَيْنِ.**

**وَوَجْهُ الْعَطْفِ بِالْوَاوِ دُونَ الْفَصْلِ أَنَّ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ تَوَسُّطًا بَيْنَ كَمَالَيِ الِاتِّصَالِ وَالِانْقِطَاعِ لِأَنَّكَ إِنْ نَظَرْتَ إِلَى اخْتِلَافِ مَفْهُومِهِمَا وَزَمَنِ حُصُولِهِمَا فَإِنَّ مَفْهُومَ إِحْدَاهُمَا، وَهُوَ الْهُدَى حَاصِلٌ فِي الدُّنْيَا وَمَفْهُومَ الْأُخْرَى، وَهُوَ الْفَلَاحُ حَاصِلٌ فِي الْآخِرَةِ كَانَتَا مُنْقَطِعَتَيْنِ.**

**وَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى تَسَبُّبِ مَفْهُومِ إِحْدَاهُمَا عَنْ مَفْهُومِ الْأُخْرَى، وَكَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا مَقْصُودًا بِالْوَصْفِ كَانَتَا مُتَّصِلَتَيْنِ، فَكَانَ التَّعَارُضُ بَيْنَ كَمَالَيِ الِاتِّصَالِ وَالِانْقِطَاعِ مُنْزِلًا إِيَّاهُمَا مَنْزِلَةَ الْمُتَوَسِّطَتَيْنِ، كَذَا قَرَّرَ شُرَّاحُ *الْكَشَّافِ*.**

**وَمَعْلُومٌ أَنَّ حَالَةَ التَّوَسُّطِ تَقْتَضِي الْعَطْفَ، كَمَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي، وَتَعْلِيلُهُ عِنْدِي: أَنَّهُ لَمَّا تَعَارَضَ الْمُقْتَضَيَانِ تَعَيَّنَ الْعَطْفُ، لِأَنَّهُ الْأَصْلُ فِي ذِكْرِ الْجُمَلِ بَعْضِهَا بَعْدَ بَعْضٍ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[[132]](#footnote-132)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=37#docu)**الضَّمِيرُ لِلْفَصْلِ، وَالتَّعْرِيفُ فِي الْمُفْلِحُونَ لِلْجِنْسِ وَهُوَ الْأَظْهَرُ، إِذْ لَا مَعْهُودَ هُنَا بِحَسَبِ ظَاهِرِ الْحَالِ، بَلِ الْمَقْصُودُ إِفَادَةُ أَنَّ هَؤُلَاءِ مُفْلِحُونَ، وَتَعْرِيفُ الْمُسْنَدِ بِلَامِ الْجِنْسِ إِذَا حُمِلَ عَلَى مُسْنَدٍ إِلَيْهِ مُعَرَّفٍ أَفَادَ الِاخْتِصَاصَ، فَيَكُونُ ضَمِيرُ الْفَصْلِ لِمُجَرَّدِ تَأْكِيدِ النِّسْبَةِ، أَيْ تَأْكِيدًا لِلِاخْتِصَاصِ.**

**فَأَمَّا إِذَا كَانَ التَّعْرِيفُ لِلْجِنْسِ وَهُوَ الظَّاهِرُ، فَتَعْرِيفُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ مَعَ الْمُسْنَدِ مِنْ شَأْنِهِ إِفَادَةُ الِاخْتِصَاصِ غَالِبًا، لَكِنَّهُ هُنَا مُجَرَّدٌ عَنْ إِفَادَةِ الِاخْتِصَاصِ الْحَقِيقِيِّ، وَمُفِيدٌ شَيْئًا مِنَ الِاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ، فَلِذَلِكَ جُلِبَ لَهُ التَّعْرِيفُ دُونَ التَّنْكِيرِ.**

**وَهَذَا مَثَّلَهُ عَبْدُ الْقَاهِرِ بِقَوْلِهِمْ: هُوَ الْبَطَلُ الْحَامِي، أَيْ إِذَا سَمِعْتَ بِالْبَطَلِ الْحَامِي وَأَحَطْتَ بِهِ خَبَرًا، فَهُوَ فُلَانٌ.**

**وَإِلَيْهِ أَشَارَ فِي *الْكَشَّافِ* هُنَا بِقَوْلِهِ "أَوْ" عَلَى أَنَّهُمُ الَّذِينَ إِنْ حَصَلَتْ صِفَةُ الْمُفْلِحِينَ وَتَحَقَّقُوا مَا هُمْ وَتَصَوَّرُوا بِصُورَتِهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ، فَهُمْ هُمْ وَالسَّكَّاكِيُّ لَمْ يُتَابِعِ الشَّيْخَيْنِ عَلَى هَذَا، فَعَدَلَ عَنْهُ فِي الْمِفْتَاحِ وَلِلَّهِ دَرُّهُ.**

**وَالْفَلَاحُ: الْفَوْزُ وَصَلَاحُ الْحَالِ، فَيَكُونُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَأَحْوَالِ الْآخِرَةِ، وَالْمُرَادُ بِهِ فِي اصْطِلَاحِ الدِّينِ الْفَوْزُ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ. وَالْفِعْلُ مِنْهُ أَفْلَحَ أَيْ صَارَ ذَا فَلَاحٍ، وَإِنَّمَا اشْتُقَّ مِنْهُ الْفِعْلُ بِوَاسِطَةِ الْهَمْزَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الصَّيْرُورَةِ، لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ حَدَثًا قَائِمًا بِالذَّات،ِ بَلْ هُوَ جِنْسٌ تَحُفُّ أَفْرَادُهُ بِمَنْ قُدِّرَتْ لَهُ: قَالَ فِي *الْكَشَّافِ*: انْظُرْ كَيْفَ كَرَّرَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- التَّنْبِيهَ عَلَى اخْتِصَاصِ الْمُتَّقِينَ بِنَيْلِ مَا لَا يَنَالُهُ أَحَدٌ عَلَى طُرُقٍ شَتَّى، وَهِيَ ذِكْرُ اسْمِ الْإِشَارَةِ وَتَكْرِيرُهُ وَتَعْرِيفُ (الْمُفْلِحِينَ)، وَتَوْسِيطُ ضَمِيرِ الْفَصْلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُولَئِكَ لِيُبَصِّرَكَ مَرَاتِبَهُمْ وَيُرَغِّبَكَ فِي طَلَبِ مَا طَلَبُوا وَيُنَشِّطَكَ لِتَقْدِيمِ مَا قَدَّمُوا.**

**﴿**[**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمُ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾[[133]](#footnote-133)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)

**هَذَا انْتِقَالٌ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى الْكِتَابِ وَمُتَقَلِّدِيهِ وَوَصْفِ هَدْيِهِ وَأَثَرِ ذَلِكَ الْهَدْيِ فِي الَّذِينَ اهْتَدَوْا بِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِمُ الرَّاجِعِ إِلَى الثَّنَاءِ عَلَى الْكِتَابِ لَمَّا كَانَ الثَّنَاءُ إِنَّمَا يَظْهَرُ إِذَا تَحَقَّقَتْ آثَارُ الصِّفَةِ الَّتِي اسْتُحِقَّ بِهَا الثَّنَاءُ.**

**وَلَمَّا كَانَ الشَّيْءُ قَدْ يُقَدَّرُ بِضِدِّهِ انْتَقَلَ إِلَى الْكَلَامِ عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْصُلُ لَهُمُ الِاهْتِدَاءُ بِهَذَا الْكِتَابِ، وَسَجَّلَ أَنَّ حِرْمَانَهُمْ مِنَ الِاهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ خُبْثِ أَنْفُسِهِمْ إِذْ نَبَوْا بِهَا عَنْ ذَلِكَ، فَمَا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ يُفَكِّرُونَ فِي عَاقِبَةِ أُمُورِهِمْ وَيَحْذَرُونَ مِنْ سُوءِ الْعَوَاقِبِ فَلَمْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ، وَكَانَ سَوَاءً عِنْدَهُمُ الْإِنْذَارُ وَعَدَمُهُ فَلَمْ يَتَلَقَّوُا الْإِنْذَارَ بِالتَّأَمُّلِ، بَلْ كَانَ سَوَاءً وَالْعَدَمُ عِنْدَهُمْ، وَقَدْ قَرَنَتِ الْآيَاتُ فَرِيقَيْنِ فَرِيقًا أَضْمَرَ الْكُفْرَ وَأَعْلَنَهُ، وَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَمَا هُوَ غَالِبُ اصْطِلَاحِ الْقُرْآنِ فِي لَفْظِ: ﴿**[**الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[[134]](#footnote-134)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)**وَفَرِيقًا أَظْهَرَ الْإِيمَانَ وَهُوَ مُخَادِعٌ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا﴾[[135]](#footnote-135).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)

**وَإِنَّمَا قُطِعَتْ هَاتِهِ الْجُمْلَةُ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا، لِأَنَّ بَيْنَهُمَا كَمَالَ الِانْقِطَاعِ إِذِ الْجُمَلُ السَّابِقَةُ لِذِكْرِ الْهُدَى وَالْمُهْتَدِينَ، وَهَذِهِ لِذِكْرِ الضَّالِّينَ فَبَيْنَهُمَا الِانْقِطَاعُ لِأَجْلِ التَّضَادِّ، وَيُعْلَمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ قِسْمٌ مُضَادٌّ لِلْقِسْمَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ قَبْلَهُ مِنْ سِيَاقِ الْمُقَابَلَةِ.**

**وَتَصْدِيرُ الْجُمْلَةِ بِحَرْفِ التَّأْكِيدِ إِمَّا لِمُجَرَّدِ الِاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ وَغَرَابَتِهِ دُونَ رَدِّ الْإِنْكَارِ أَوِ الشَّكِّ ; لِأَنَّ الْخِطَابَ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلِلْأُمَّةِ، وَهُوَ خِطَابُ أُنُفٍ بِحَيْثُ لَمْ يَسْبِقْ شَكٌّ فِي وُقُوعِهِ، وَمَجِيءُ إِنَّ لِلِاهْتِمَامِ كَثِيرٌ فِي الْكَلَامِ وَهُوَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ.**

**وَقَدْ تَكُونُ إِنَّ هُنَا لِرَدِّ الشَّكِّ تَخْرِيجًا لِلْكَلَامِ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ، لِأَنَّ حِرْصَ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى هِدَايَةِ الْكَافِرِينَ تَجْعَلُهُ لَا يَقْطَعُ الرَّجَاءَ فِي نَفْعِ الْإِنْذَارِ لَهُمْ وَحَالُهُ كَحَالِ مَنْ شَكَّ فِي نَفْعِ الْإِنْذَارِ، أَوْ لِأَنَّ السَّامِعِينَ لِمَا أُجْرِيَ عَلَى الْكِتَابِ مِنَ الثَّنَاءِ بِبُلُوغِهِ الدَّرَجَةَ الْقُصْوَى فِي الْهِدَايَةِ يُطْمِعُهُمْ أَنْ تُؤَثِّرَ هِدَايَتُهُ فِي الْكَافِرِينَ الْمُعْرِضِينَ وَتَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ يَشُكُّونَ فِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْذَارُ وَعَدَمُهُ سَوَاءً، فَأُخْرِجَ الْكَلَامُ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ وَنَزَلَ غَيْرُ الشَّاكِّ مَنْزِلَةَ الشَّاكِّ.**

**وَقَدْ نُقِلَ عَنِ**[**الْمُبَرِّدِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15153)**أَنَّ إِنْ لَا تَأْتِي لِرَدِّ الْإِنْكَارِ بَلْ لِرَدِّ الشَّكِّ.**

**وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَذْكُورِينَ هُنَا هُمْ فَرِيقٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ مَأْيُوسٌ مِنْ إِيمَانِهِمْ، فَالْإِتْيَانُ فِي ذِكْرِهِمْ بِالتَّعْرِيفِ بِالْمَوْصُولِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ لِتَعْرِيفِ الْعَهْدِ مُرَادًا مِنْهُ قَوْمٌ مَعْهُودُونَ كَأَبِي جَهْلٍ وَالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَأَضْرَابِهِمْ مِنْ رُؤُوسِ الشِّرْكِ وَزُعَمَاءِ الْعِنَادِ دُونَ مَنْ كَانَ مُشْرِكًا فِي أَيَّامِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ثُمَّ مَنْ آمَنَ بَعْدُ، مِثْلَ**[**أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12026)**وَغَيْرِهِ مِنْ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمَوْصُولُ لِتَعْرِيفِ الْجِنْسِ الْمُفِيدِ لِلِاسْتِغْرَاقِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْكُفْرِ أَبْلَغُ أَنْوَاعِهِ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: لَا يُؤْمِنُونَ، فَيَكُونُ عَامًّا مَخْصُوصًا بِالْحِسِّ لِمُشَاهَدَةِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَوْ يَكُونُ عَامًّا مُرَادًا بِهِ الْخُصُوصُ بِالْقَرِينَةِ، وَهَذَانِ الْوَجْهَانِ هُمَا اللَّذَانِ اقْتَصَرَ عَلَيْهِمَا الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَهُمَا نَاظِرَانِ إِلَى أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنْ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُون،َ فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونُوا مِمَّنْ تَبَيَّنَ بَعْدُ أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ.**

**وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ تَأَوَّلَ قَوْلَهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[[136]](#footnote-136)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)**عَلَى مَعْنَى الَّذِينَ قُضِيَ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ وَالشَّقَاءِ وَنَظَّرَهُ بِقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[[137]](#footnote-137)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)**وَهُوَ تَأْوِيلٌ بَعِيدٌ مِنَ اللَّفْظِ وَشَتَّانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَنْظِيرِهِ.**

**وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ حَمَلَ: ﴿**[**الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[[138]](#footnote-138)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)**عَلَى رُؤَسَاءِ الْيَهُودِ مِثْلَ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَأَبِي رَافِعٍ يَعْنِي بِنَاءً عَلَى أَنَّ السُّورَةَ نَزَلَتْ فِي الْمَدِينَةِ وَلَيْسَ فِيهَا مِنَ الْكَافِرِينَ سِوَى الْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ.**

**وَهَذَا بَعِيدٌ مِنْ عَادَةِ الْقُرْآنِ وَإِعْرَاضٌ عَنِ السِّيَاقِ الْمَقْصُودِ مِنْهُ ذِكْرُ مَنْ حُرِمَ مِنْ هَدْيِ الْقُرْآنِ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ حَصَلَ لَهُمُ الِاهْتِدَاءُ بِهِ، وَأَيًّا مَا كَانَ، فَالْمَعْنَى عِنْدَ الْجَمِيعِ أَنَّ فَرِيقًا خَاصًّا مِنَ الْكُفَّارِ لَا يُرْجَى إِيمَانُهُمْ، وَهُمُ الَّذِينَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ. وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنِ**[**ابْنِ عَبَّاسٍ.**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=11)

**وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ عَدَمَ اهْتِدَائِهِمْ بِالْقُرْآنِ كَانَ لِعَدَمِ قَابِلِيَّتِهِمْ لَا لِنَقْصٍ فِي دَلَالَةِ الْقُرْآنِ عَلَى الْخَيْرِ وَهَدْيِهِ إِلَيْهِ.**

**وَالْكُفْرُ بِالضَّمِّ إِخْفَاءُ النِّعْمَةِ، وَبِالْفَتْحِ: السَّتْرُ مُطْلَقًا وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ كَفَرَ إِذَا سَتَرَ.**

**وَلَمَّا كَانَ إِنْكَارُ الْخَالِقِ أَوْ إِنْكَارُ كَمَالِهِ أَوْ إِنْكَارُ مَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ ضَرْبًا مِنْ كُفْرَانِ نِعْمَتِهِ عَلَى جَاحِدِهَا، أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْكُفْرِ وَغَلَبَ اسْتِعْمَالُهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَهُوَ فِي الشَّرْعِ إِنْكَارُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ الْقَاطِعَةُ وَتَنَاقَلَتْهُ جَمِيعُ الشَّرَائِعِ الصَّحِيحَةِ الْمَاضِيَةِ حَتَّى عَلِمَهُ الْبَشَرُ وَتَوَجَّهَتْ عُقُولُهُمْ إِلَى الْبَحْثِ عَنْهُ وَنُصِبَتْ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ كَوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ –تَعَالَى- وَوُجُودِهِ.**

**وَلِذَلِكَ عُدَّ أَهْلُ الشِّرْكِ فِيمَا بَيْنَ الْفَتْرَةِ كُفَّارًا. وَإِنْكَارُ مَا عُلِمَ بِالضَّرُورَةِ مَجِيءُ النَّبِيءِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِهِ وَدَعَوْتُهُ إِلَيْهِ، وَعَدُّهُ فِي أُصُولِ الْإِسْلَامِ أَوِ الْمُكَابَرَةِ فِي الِاعْتِرَافِ بِذَلِكَ، وَلَوْ مَعَ اعْتِقَادِ صِدْقِهِ، وَلِذَلِكَ عَبَّرَ بِالْإِنْكَارِ دُونَ التَّكْذِيبِ.**

**وَيَلْحَقُ بِالْكُفْرِ فِي إِجْرَاءِ أَحْكَامِ الْكُفْرِ عَلَيْهِ كُلُّ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ لَا يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ مُؤْمِنٌ مُصَدِّقٌ بِحَيْثُ يَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ اكْتِرَاثِ فَاعِلِهِ بِالْإِيمَانِ، وَعَلَى إِضْمَارِهِ الطَّعْنَ فِي الدِّينِ وَتَوَسُّلِهِ بِذَلِكَ إِلَى نَقْضِ أُصُولِهِ، وَإِهَانَتِهِ بِوَجْهٍ لَا يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ الظَّاهِرَ.**

**وَفِي هَذَا النَّوْعِ الْأَخِيرِ مَجَالٌ لِاجْتِهَادِ الْفُقَهَاءِ وَفَتَاوَى أَسَاطِينِ الْعُلَمَاءِ إِثْبَاتًا وَنَفْيًا بِحَسَبِ مَبْلَغِ دَلَالَةِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ عَلَى طَعْنٍ أَوْ شَكٍّ.**

**وَمَنِ اعْتَبَرَ الْأَعْمَالَ أَوْ بَعْضَهَا الْمُعَيَّنَ فِي الْإِيمَانِ، اعْتَبَرَ فَقْدَهَا أَوْ فَقْدَ بَعْضِهَا الْمُعَيَّنَ فِي الْكُفْرِ.**

**قَالَ**[**الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَّانِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12604)**: الْقَوْلُ عِنْدِي أَنَّ الْكُفْرَ بِاللَّهِ هُوَ الْجَهْلُ بِوُجُودِهِ وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ هُوَ الْعِلْمُ بِوُجُودِهِ.**

**فَالْكُفْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَحَدِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:**

**- أَحَدُهَا: الْجَهْلُ بِاللَّهِ –تَعَالَى-.**

**- الثَّانِي: أَنْ يَأْتِيَ بِفِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ أَخْبَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَوْ أَجْمَعَ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ كَافِرٍ كَالسُّجُودِ لِلصَّنَمِ.**

**- الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ لَهُ قَوْلٌ أَوْ فِعْلٌ لَا يُمْكِنُ مَعَهُ الْعِلْمُ بِاللَّهِ –تَعَالَى-.**

**وَنَقَلَ ابْنُ رَاشِدٍ فِي *الْفَائِقِ* عَنِ الْأَشْعَرِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- أَنَّ الْكُفْرَ خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ.**

**قَالَ الْقُرَافِيُّ فِي *الْفِرَقِ* 241: أَصْلُ الْكُفْرِ هُوَ انْتِهَاكٌ خَاصٌّ لِحُرْمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَيَكُونُ بِالْجَهْلِ بِاللَّهِ وَبِصِفَاتِهِ أَوْ بِالْجُرْأَةِ عَلَيْهِ.**

**وَهَذَا النَّوْعُ هُوَ الْمَجَالُ الصَّعْبُ، لِأَنَّ جَمِيعَ الْمَعَاصِي جُرْأَةٌ عَلَى اللَّهِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**سَوَاءٌ عَلَيْهِمُ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾[[139]](#footnote-139)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)**خَبَرُ ﴿**[**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[[140]](#footnote-140)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)**وَ﴿سَوَاءٌ﴾[[141]](#footnote-141) اسْمٌ بِمَعْنَى الِاسْتِوَاءِ، فَهُوَ اسْمُ مَصْدَرٍ، دَلَّ عَلَى ذَلِكَ لُزُومُ إِفْرَادِهِ وَتَذْكِيرِهِ مَعَ اخْتِلَافِ مَوْصُوفَاتِهِ وَمُخْبِرَاتِهِ.**

**فَإِذَا أَخْبَرَ بِهِ أَوْ وَصَفَ، كَانَ ذَلِكَ كَالْمَصْدَرِ فِي أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ مَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ لِقَصْدِ الْمُبَالَغَةِ.**

**وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ سَوَاءٌ اسْمٌ بِمَعْنَى الْمَثَلِ، فَيَكُونُ الْتِزَامُ إِفْرَادِهِ وَتَذْكِيرِهِ، لِأَنَّ الْمِثْلِيَّةَ لَا تَتَعَدَّدُ، وَإِنْ تَعَدَّدَ مَوْصُوفُهَا تَقُولُ هُمْ رِجَالٌ سَوَاءٌ لِزَيْدٍ بِمَعْنَى مِثْلٌ لِزَيْدٍ.**

**وَإِنَّمَا عَدَّى سَوَاءً بِعَلَى هُنَا وَفِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَلَمْ يُعَلِّقْ بِعِنْدَ وَنَحْوِهَا مَعَ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ مِنَ الِاسْتِعْلَاءِ فِي مِثْلِهِ، لِلْإِشَارَةِ إِلَى تَمَكُّنِ الِاسْتِوَاءِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ، وَأَنَّهُ لَا مَصْرِفَ لَهُ عَنْهُ وَلَا تَرَدُّدَ لَهُ فِيهِ فَالْمَعْنَى سَوَاءٌ عِنْدَهُمُ الْإِنْذَارُ وَعَدَمُهُ.**

**وَاعْلَمْ أَنَّ لِلْعَرَبِ فِي "سَوَاءٍ" اسْتِعْمَالَيْنِ:**

**- أَحَدُهُمَا: أَنْ يَأْتُوا بِسَوَاءٍ عَلَى أَصْلِ وَضْعِهِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى التَّسَاوِي فِي وَصْفٍ بَيْنَ مُتَعَدِّدٍ، فَيَقَعُ مَعَهُ سَوَاءٌ مَا يَدُلُّ عَلَى مُتَعَدِّدٍ، نَحْوَ ضَمِيرِ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾[[142]](#footnote-142)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)**وَنَحْوَ الْعَطْفِ فِي قَوْلِ بُثَيْنَةَ:**

**سَوَاءٌ عَلَيْنَا يَا جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ إِذَا مِتَّ بَأْسَاءُ الْحَيَاةِ وَلِينُهَا**

**وَيَجْرِي إِعْرَابُهُ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ مَوْقِعُهُ مِنَ التَّرْكِيبِ.**

**- وَثَانِيهُمَا: أَنْ يَقَعَ مَعَ هَمْزَةِ التَّسْوِيَةِ، وَمَا هِيَ إِلَّا هَمْزَةُ اسْتِفْهَامٍ كَثُرَ وُقُوعُهَا بَعْدَ كَلِمَةِ سَوَاءٍ وَمَعَهَا أَمِ الْعَاطِفَةُ الَّتِي تُسَمَّى الْمُتَّصِلَةُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾[[143]](#footnote-143).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)

**وَهَذَا أَكَثَرُ اسْتِعْمَالَيْهَا وَتَرَدَّدَ النُّحَاةُ فِي إِعْرَابِهِ وَأَظْهَرُ مَا قَالُوهُ وَأَسْلَمُهُ أَنَّ (سَوَاءً) خَبَرٌ مُقَدَّمٌ وَأَنَّ الْفِعْلَ الْوَاقِعَ بَعْدَهُ مُقْتَرِنًا بِالْهَمْزَةِ فِي تَأْوِيلِ مُبْتَدَأٍ، لِأَنَّهُ صَارَ بِمَنْزِلَةِ الْمَصْدَرِ إِذْ تَجَرَّدَ عَنِ النِّسْبَةِ وَعَنِ الزَّمَانِ، فَالتَّقْدِيرُ فِي الْآيَةِ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ إِنْذَارُكَ وَعَدَمُهُ.**

**وَأَظْهَرُ عِنْدِي مِمَّا قَالُوهُ أَنَّ الْمُبْتَدَأَ بَعْدَ سَوَاءٍ مُقَدَّرٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ الِاسْتِفْهَامُ الْوَاقِعُ مَعَهُ وَأَنَّ التَّقْدِيرَ سَوَاءٌ جَوَابٌ: ﴿**[**أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾[[144]](#footnote-144).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)

**وَهَذَا يَجْرِي عَلَى نَحْوِ قَوْلِ الْقَائِلِ عَلِمْتُ أَزْيَدٌ قَائِمٌ، إِذْ تَقْدِيرُهُ: عَلِمْتُ جَوَابَ هَذَا السُّؤَالِ.**

**وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ سَوَاءً مُبْتَدَأً رَافِعًا لِفَاعِلٍ سَدَّ مَسَدَّ الْخَبَرِ، لِأَنَّ سَوَاءً فِي مَعْنَى مُسْتَوٍ فَهُوَ فِي قُوَّةِ اسْمِ الْفَاعِلِ فَيَرْفَعُ فَاعِلًا سَادًّا مَسَدَّ خَبَرِ الْمُبْتَدَأِ وَجَوَابُ مِثْلِ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ لَمَّا كَانَ وَاحِدًا مِنْ أَمْرَيْنِ كَانَ الْإِخْبَارُ بِاسْتِوَائِهِمَا عِنْدَ الْمُخْبِرِ مُشِيرًا إِلَى أَمْرَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ وَلِأَجْلِ كَوْنِ الْأَصْلِ فِي خَبَرِهِ الْإِفْرَادُ كَانَ الْفِعْلُ بَعْدَ سَوَاءٍ مُؤَوَّلًا بِمَصْدَرٍ وَوَجْهُ الْأَبْلَغِيَّةِ فِيهِ أَنَّ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ لِخَفَاءِ الِاسْتِوَاءِ بَيْنَهُمَا حَتَّى لَيَسْأَلَ السَّائِلُونَ: أَفَعَلَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا، فَيُقَالُ إِنَّ الْأَمْرَيْنِ سَوَاءٌ فِي عَدَمِ الِاكْتِرَاثِ بِهِمَا وَعَدَمِ تَطَلُّبِ الْجَوَابِ عَلَى الِاسْتِفْهَامِ مِنْ أَحَدِهِمَا؛ فَيَكُونُ قَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**سَوَاءٌ عَلَيْهِمُ أَأَنْذَرْتَهُمُ﴾[[145]](#footnote-145)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)**مُشِيرًا إِلَى أَنَّ النَّاسَ لِتَعَجُّبِهِمْ فِي دَوَامِ الْكُفَّارِ عَلَى كُفْرِهِمْ مَعَ مَا جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ بِحَيْثُ يَسْأَلُ السَّائِلُونَ أَأَنْذَرَهُمُ النَّبِيُّ أَمْ لَمْ يُنْذِرْهُمْ مُتَيَقِّنِينَ أَنَّهُ لَوْ أَنْذَرَهُمْ لَمَا تَرَدَّدُوا فِي الْإِيمَانِ، فَقِيلَ: إِنَّهُمْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ جَوَابُ تَسَاؤُلِ النَّاسِ عَنْ إِحْدَى الْأَمْرَيْنِ.**

**وَبِهَذَا انْتَفَى جَمِيعُ التَّكَلُّفَاتِ الَّتِي فَرَضَهَا النُّحَاةُ هُنَا وَنَبْرَأُ مِمَّا وَرَدَ عَلَيْهَا مِنَ الْأَبْحَاثِ كَكَوْنِ الْهَمْزَةِ خَارِجَةً عَنْ مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ، وَكَيْفَ يَصِحُّ عَمَلَ مَا بَعْدَ الِاسْتِفْهَامِ فِيمَا قَبْلَهُ إِذَا أُعْرِبَ سَوَاءٌ خَبَرًا وَالْفِعْلُ بَعْدَ الْهَمْزَةِ مُبْتَدَأً مُجَرَّدًا عَنِ الزَّمَانِ، وَكَكَوْنِ الْفِعْلِ مُرَادًا مِنْهُ مُجَرَّدُ الْحَدَثِ، وَكَدَعْوَى كَوْنِ الْهَمْزَةِ فِي التَّسْوِيَةِ مَجَازًا بِعَلَاقَةِ اللُّزُومِ، وَكَوْنِ (أَمْ) بِمَعْنَى الْوَاوِ لِيَكُونَ الْكَلَامُ لِشَيْئَيْنِ لَا لِأَحَدِ شَيْئَيْنِ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَلَا نَحْتَاجُ إِلَى تَكَلُّفِ الْجَوَابِ عَنِ الْإِيرَادِ الَّذِي أُورِدَ عَلَى جَعْلِ الْهَمْزَةِ بِمَعْنَى سَوَاءٍ إِذْ يُؤَوَّلُ إِلَى مَعْنَى اسْتَوَى الْإِنْذَارُ وَعَدَمُهُ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ، فَيَكُونُ تَكْرَارًا خَالِيًا مِنَ الْفَائِدَةِ.**

**فَيُجَابُ بِمَا نُقِلَ عَنْ صَاحِبِ *الْكَشَّافِ* أَنَّهُ قَالَ: مَعْنَاهُ: أَنَّ الْإِنْذَارَ وَعَدَمَهُ الْمُسْتَوِيَيْنِ فِي عِلْمِ الْمُخَاطَبِ هُمَا مُسْتَوِيَانِ فِي عَدَمِ النَّفْعِ، فَاخْتَلَفَتْ جِهَةُ الْمُسَاوَاةِ، كَمَا نَقَلَهُ التَّفْتَزَانِيُّ فِي شَرْحِ *الْكَشَّافِ*.**

**وَيَتَعَيَّنُ إِعْرَابُ سَوَاءٍ فِي مِثْلِهِ مُبْتَدَأً وَالْخَبَرُ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ الِاسْتِفْهَامُ تَقْدِيرُهُ جَوَابُ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ، فَسَوَاءٌ فِي الْآيَةِ مُبْتَدَأٌ ثَانٍ، وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ ﴿**[**الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[[146]](#footnote-146)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)**وَدَعْ عَنْكَ كُلَّ مَا خَاضَ فِيهِ الْكَاتِبُونَ عَلَى *الْكَشَّافِ*، وَحَرْفُ (عَلَى) الَّذِي يُلَازِمُ كَلِمَةَ سَوَاءً غَالِبًا هُوَ لِلِاسْتِعْلَاءِ الْمَجَازِيِّ.**

**الْمُرَادِ بِهِ: التَّمَكُّنُ أَيْ إِنَّ هَذَا الِاسْتِوَاءَ مُتَمَكِّنٌ مِنْهُمْ لَا يَزُولُ عَنْ نُفُوسِهِم،ْ وَلِذَلِكَ قَدْ يَجِيءُ بَعْضُ الظُّرُوفِ فِي مَوْضِعِ عَلَى مَعَ كَلِمَةِ سَوَاءٍ مِثْلَ عِنْدَ، وَلَدَى.**

**قَالَ أَبُو الشَّغْبِ الْعَبْسِيُّ:**

**لَا تَعْذِلِي فِي جُنْدُجٍ إِنَّ جُنْدُجًـــــــــــــــا  وَلَيْثَ كَفِرَّيْنٍ لَدَيَّ سَــــــــــــــــــــــــوَاءُ**

**وَسَيَأْتِي تَحْقِيقٌ لِنَظِيرِ هَذَا التَّرْكِيبِ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى- فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿**[**سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)**﴾[[147]](#footnote-147)، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿**[**أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾[[148]](#footnote-148)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)**بِهَمْزَتَيْنِ أَوَّلُهُمَا مُحَقَّقَةٌ وَالثَّانِيَةُ مُسَهَّلَةٌ.**

**وَقَرَأَ**[**قَالُونُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16810)**عَنْ نَافِعٍ**[**وَوِرَشٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=17274)**عَنْهُ فِي رِوَايَةِ الْبَغْدَادِيِّينَ وَأَبُو عَمْرٍو وَأَبُو جَعْفَرٍ كَذَلِكَ مَعَ إِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَ الْهَمْزَتَيْنِ، وَكِلْتَا الْقِرَاءَتَيْنِ لُغَةٌ حِجَازِيَّةٌ.**

**وَقَرَأَهُ حَمْزَةُ وَعَاصِمٌ**[**وَالْكِسَائِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15080)**بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَهِيَ لُغَةُ تَمِيمٍ.**

**وَرَوَى أَهْلُ مِصْرَ عَنْ**[**وَرْشٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=17274)**إِبْدَالَ الْهَمْزَةِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا.**

**قَالَ**[**الزَّمَخْشَرِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14423)**وَهُوَ لَحْنٌ، وَهَذَا يُضَعِّفُ رِوَايَةَ الْمِصْرِيِّينَ عَنْ**[**وَرْشٍ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=17274)**وَهَذَا اخْتِلَافٌ فِي كَيْفِيَّةِ الْأَدَاءِ فَلَا يُنَافِي التَّوَاتُرَ.**

**﴿**[**لَا يُؤْمِنُونَ﴾[[149]](#footnote-149)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=39#docu)

**الْأَظْهَرُ أَنَّ هَاتِهِ الْجُمْلَةَ مَسُوقَةٌ لِتَقْرِيرِ مَعْنَى الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَهِيَ: ﴿**[**سَوَاءٌ عَلَيْهِمُ أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾[[150]](#footnote-150)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=39#docu)**إِلَخْ فَلَكَ أَنْ تَجْعَلَهَا خَبَرًا ثَانِيًا عَنْ "إِنَّ" وَاسْتِفَادَةُ التَّأْكِيدِ مِنَ السِّيَاقِ وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَهَا تَأْكِيدًا وَعَلَى الْوَجْهَيْنِ فَقَدْ فُصِّلَتْ إِمَّا جَوَازًا عَلَى الْأَوَّلِ وَإِمَّا وُجُوبًا عَلَى الثَّانِي، وَقَدْ فَرَضُوا فِي إِعْرَابِهَا وُجُوهًا أُخَرَ لَا نُكْثِرُ بِهَا لِضَعْفِهَا.**

**وَقَدْ جَوَّزَ فِي *الْكَشَّافِ* جَعْلَ جُمْلَةِ: ﴿**[**سَوَاءٌ عَلَيْهِمُ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾[[151]](#footnote-151)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=39#docu)**اعْتِرَاضًا لِجُمْلَةِ: ﴿**[**لَا يُؤْمِنُونَ﴾[[152]](#footnote-152)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=39#docu)**وَهُوَ مَرْجُوحٌ لَمْ يَرْتَضِهِ السَّعْدُ وَالسَّيِّدُ، إِذْ لَيْسَ مَحَلَّ الْإِخْبَارِ هُوَ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّمَا الْمُهِمُّ أَنْ يُخْبِرَ عَنْهُمْ بِاسْتِوَاءِ الْإِنْذَارِ وَعَدَمِهِ عِنْدَهُمْ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ نِدَاءً عَلَى مُكَابَرَتِهِمْ وَغَبَاوَتِهِمْ، وَعُذْرًا لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْحِرْصِ عَلَى إِيمَانِهِمْ، وَتَسْجِيلًا بِأَنَّ مَنْ لَمْ يَفْتَحْ سَمْعَهُ، وَقَلْبَهُ لِتَلَقِّي الْحَقِّ وَالرَّشَادِ لَا يَنْفَعُ فِيهِ حِرْصٌ وَلَا ارْتِيَادٌ.**

**وَهَذَا، وَإِنْ كَانَ يَحْصُلُ عَلَى تَقْدِيرِهِ جَعْلَ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾[[153]](#footnote-153) خَبَرًا إِلَّا أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْكَلَامِ هُوَ الْأَوْلَى بِالْإِخْبَارِ، وَلِأَنَّهُ يَصِيرُ الْخَبَرُ غَيْرَ مُعْتَبَرٍ إِذْ يَصِيرُ بِمَثَابَةِ أَنْ يُقَالَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يُؤْمِنُونَ، فَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا فَعَدَمُ إِيمَانِهِمْ حَاصِلٌ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ لَا يُؤْمِنُونَ اسْتِمْرَارُ الْكُفْرِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِلَّا أَنَّهُ خَبَرٌ غَرِيبٌ بِخِلَافِ مَا إِذَا جُعِلَ تَفْسِيرًا لِلْخَبَرِ.**

**وَقَدِ احْتَجَّ بِهَاتِهِ الْآيَةِ الَّذِينَ قَالُوا بِوُقُوعِ التَّكْلِيفِ بِمَا لَا يُطَاقُ احْتِجَاجًا عَلَى الْجُمْلَةِ إِذْ مَسْأَلَةُ التَّكْلِيفِ بِمَا لَا يُطَاقُ بَقِيَتْ زَمَانًا غَيْرَ مُحَرَّرَةٍ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ لَاحَ لَهُ فِيهَا دَلِيلٌ اسْتَدَلَّ بِهِ، وَكَانَ التَّعْبِيرُ عَنْهَا بِعِبَارَاتٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يُعَنْوِنُهَا التَّكْلِيفَ بِالْمُحَالِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَبِّرُ بِالتَّكْلِيفِ بِمَا لَيْسَ بِمَقْدُورٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَبِّرُ بِالتَّكْلِيفِ بِمَا لَا يُطَاقُ، ثُمَّ إِنَّهُمْ يَنْظُرُونَ مَرَّةً لِلِاسْتِحَالَةِ الذَّاتِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَمَرَّةً لِلذَّاتِيَّةِ الْعَادِيَّةِ، وَمَرَّةً لِلْعَرَضِيَّةِ، وَمَرَّةً لِلْمَشَقَّةِ الْقَوِيَّةِ الْمُحْرِجَةِ لِلْمُكَلَّفِ فَيَخْلِطُونَهَا بِمَا لَا يُطَاقُ.**

**وَلَقَدْ أَفْصَحَ**[**أَبُو حَامِدٍ الْإِسْفَرَايِينِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=11976)[**وَأَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14847)**وَأَضْرَابُهُمَا عَمَّا يَرْفَعُ الْقِنَاعَ عَنْ وَجْهِ الْمَسْأَلَةِ فَصَارَتْ لَا تُحَيِّرُ أَفْهَامًا وَانْقَلَبَ قَتَادُهَا ثُمَامًا.**

**وَذَلِكَ أَنَّ الْمُحَالَ مِنْهُ مُحَالٌ لِذَاتِهِ عَقْلًا كَجَمْعِ النَّقِيضَيْنِ وَمِنْهُ مُحَالٌ عَادَةً كَصُعُودِ السَّمَاءِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَرَجٌ وَإِعْنَاتٌ كَذَبْحِ الْمَرْءِ وَلَدَهُ وَوُقُوفِ الْوَاحِدِ لِعَشَرَةٍ مِنْ أَقْرَانِهِ، وَمِنْهُ مَحَالٌ عَرَضَتْ لَهُ الِاسْتِحَالَةُ بِالنَّظَرِ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ كَإِيمَانِ مَنْ عَلِمَ اللَّهُ عَدَمَ إِيمَانِهِ وَحَجِّ مَنْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يَحُجُّ، وَكُلَّ هَاتِهِ أُطْلِقَ عَلَيْهَا مَا لَا يُطَاقُ كَمَا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[[154]](#footnote-154)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=39#docu)**إِذِ الْمُرَادُ مَا يَشُقُّ مَشَقَّةً عَظِيمَةً، وَأُطْلِقَ عَلَيْهَا الْمُحَالُ حَقِيقَةً وَمُطَابَقَةً فِي بَعْضِهَا وَالْتِزَامًا فِي الْبَعْضِ، وَمَجَازًا فِي الْبَعْضِ، وَأُطْلِقَ عَلَيْهَا عَدَمُ الْمَقْدُورِ كَذَلِكَ، كَمَا أُطْلِقَ الْجَوَازُ عَلَى الْإِمْكَانِ، وَعَلَى الْإِمْكَانِ لِلْحِكْمَةِ، وَعَلَى الْوُقُوعِ.**

**فَنَشَأَ مِنْ تَفَاوُتِ هَاتِهِ الْأَقْسَامِ وَاخْتِلَافِ هَاتِهِ الْإِطْلَاقَاتِ مَقَالَاتٌ مَلَأَتِ الْفَضَاءَ.**

**وَكَانَتْ لِلْمُخَالِفِينَ كَحَجَرِ الْمَضَاءِ، فَلَمَّا قَيَّضَ اللَّهُ أَعْلَامًا نَفَوْا مَا شَاكَهَا، وَفَتَحُوا أَغْلَاقَهَا، تَبَيَّنَ أَنَّ الْجَوَازَ الْإِمْكَانِيَّ فِي الْجَمِيعِ ثَابِتٌ، لِأَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَوْ شَاءَ، لَا يُخَالِفُ فِي ذَلِكَ مُسْلِمٌ.**

**وَثَبَتَ أَنَّ الْجَوَازَ الْمُلَائِمَ لِلْحِكْمَةِ مُنْتَفٍ عِنْدَنَا وَعِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ وَإِنِ اخْتَلَفْنَا فِي تَفْسِيرِ الْحِكْمَةِ لِاتِّفَاقِ الْكُلِّ عَلَى أَنَّ فَائِدَةَ التَّكْلِيفِ تَنْعَدِمُ إِذَا كَانَ الْمُكَلَّفُ بِهِ مُتَعَذَّرَ الْوُقُوعِ.**

**وَثَبَتَ أَنَّ الْمُمْتَنِعَ لِتَعَلُّقِ الْعِلْمِ بِعَدَمِ وُقُوعِهِ مُكَلَّفٌ بِهِ جَوَازًا وَوُقُوعًا، وَجُلُّ التَّكَالِيفِ لَا تَخْلُو مِنْ ذَلِكَ، وَثَبَتَ مَا هُوَ أَخَصُّ وَهُوَ رَفْعُ الْحَرَجِ الْخَارِجِيِّ عَنِ الْحَدِّ الْمُتَعَارَفِ، تُفَضُّلًا مِنَ اللَّهِ –تَعَالَى- لِقَوْلِهِ:**[**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=39#docu)**وَقَوْلِهِ:**[**عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=39#docu)**أَيْ لَا تُطِيقُونَهُ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي الْأَحْكَامِ، هَذَا مِلَاكُ هَاتِهِ الْمَسْأَلَةِ عَلَى وَجْهٍ يَلْتَئِمُ بِهِ مُتَنَاثِرُهَا، وَيُسْتَأْنَسُ مُتَنَافِرُهَا.**

**وَبَقِيَ أَنْ نُبَيِّنَ لَكُمْ وَجْهَ تَعَلُّقِ التَّكْلِيفِ بِمَنْ عَلِمَ اللَّهُ عَدَمَ امْتِثَالِهِ أَوْ بِمَنْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا يَمْتَثِلُ كَمَا فِي هَاتِهِ الْآيَةِ، وَهِيَ أَخَصُّ مِنْ مَسْأَلَةِ الْعِلْمِ بِعَدَمِ الْوُقُوعِ إِذْ قَدِ انْضَمَّ الْإِخْبَارُ إِلَى الْعِلْمِ كَمَا هُوَ وَجْهُ اسْتِدْلَالِ الْمُسْتَدِلِّ بِهَا.**

**فَالْجَوَابُ أَنَّ مَنْ عَلِمَ اللَّهُ عَدَمَ فِعْلِهِ لَمْ يُكَلِّفْهُ بِخُصُوصِهِ وَلَا وَجَّهَ لَهُ دَعْوَةً تَخُصُّهُ إِذْ لَمْ يَثْبُتْ أَنَّ النَّبِيءَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خَصَّ أَفْرَادًا بِالدَّعْوَةِ إِلَّا وَقَدْ آمَنُوا، كَمَا خَصَّ**[**عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=2)**حِينَ جَاءَهُ، بِقَوْلِهِ أَمَا آنَ لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَنْ تَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَقَوْلِهِ لِأَبِي سُفْيَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ قَرِيبًا مِنْ تِلْكُمُ الْمَقَالَةِ، وَخَصَّ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ بِمِثْلِهَا، وَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ قَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَلَمَّا كَانَتِ الدَّعْوَةُ عَامَّةً وَهُمْ شَمِلَهُمُ الْعُمُومُ بَطُلَ الِاسْتِدْلَالُ بِالْآيَةِ وَبِالدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُقَالَ لِمَاذَا لَمْ يُخَصَّصْ مَنْ عُلِمَ عَدَمُ امْتِثَالِهِ مِنْ عُمُومِ الدَّعْوَةِ؟**

**وَدَفْعُ ذَلِكَ أَنَّ تَخْصِيصَ هَؤُلَاءِ يُطِيلُ الشَّرِيعَةَ وَيُجَرِّئُ غَيْرَهُمْ وَيُضْعِفُ إِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَيُوهِمُ عَدَمَ عُمُومِ الرِّسَالَةِ، عَلَى أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى- قَدِ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ الْفَصْلَ بَيْنَ مَا فِي قَدَرِهِ وَعِلْمِهِ، وَبَيْنَ مَا يَقْتَضِيهِ التَّشْرِيعُ وَالتَّكْلِيفُ، وَسِرُّ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ بَيَّنَاهُ فِي مَوَاضِعَ يَطُولُ الْكَلَامُ بِجَلْبِهَا وَيَخْرُجُ مِنْ غَرَضِ التَّفْسِيرِ، وَأَحْسَبُ أَنَّ تَفَطُّنَكُمْ إِلَى مُجْمَلِهِ لَيْسَ بِعَسِيرٍ.**

**﴿**[**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[[155]](#footnote-155)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)

**هَذِهِ الْجُمْلَةُ جَارِيَةٌ مَجْرَى التَّعْلِيلِ لِلْحُكْمِ السَّابِقِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**سَوَاءٌ عَلَيْهِمُ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[[156]](#footnote-156)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)**وَبَيَانٌ لِسَبَبِهِ فِي الْوَاقِعِ لِيَدْفَعَ بِذَلِكَ تَعَجُّبَ الْمُتَعَجِّبِينَ مِنَ اسْتِوَاءِ الْإِنْذَارِ وَعَدَمِهِ عِنْدَهُمْ وَمِنْ عَدَمِ نُفُوذِ الْإِيمَانِ إِلَى نُفُوسِهِمْ مَعَ وُضُوحِ دَلَائِلِهِ، فَإِذَا عُلِمَ أَنَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ خَتْمًا وَعَلَى أَسْمَاعِهِمْ وَأَنَّ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً عُلِمَ سَبَبُ ذَلِكَ كُلِّهِ وَبَطُلَ الْعَجَبُ.**

**فَالْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ يُفِيدُ جَوَابَ سَائِلٍ يَسْأَلُ عَنْ سَبَبِ كَوْنِهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَمَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ مُقَابِلٌ مُوقِعَ جُمْلَةِ: ﴿**[**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾[[157]](#footnote-157).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)

**فَلِهَذِهِ الْجُمْلَةِ مَكَانَةٌ بَيْنَ ذَمِّ أَصْحَابِهَا بِمِقْدَارِ مَا لِتِلْكَ مِنَ الْمَكَانَةِ فِي الثَّنَاءِ عَلَى أَرْبَابِهَا. وَالْخَتْمُ حَقِيقَتُهُ السَّدُّ عَلَى الْإِنَاءِ وَالْغَلْقُ عَلَى الْكِتَابِ بِطِينٍ وَنَحْوِهِ مَعَ وَضْعِ عَلَامَةٍ مَرْسُومَةٍ فِي خَاتَمٍ لِيَمْنَعَ ذَلِكَ مِنْ فَتْحِ الْمَخْتُومِ، فَإِذَا فُتِحَ عَلِمَ صَاحِبُهُ أَنَّهُ فُتِحَ لِفَسَادٍ يَظْهَرُ فِي أَثَرِ النَّقْشِ، وَقَدِ اتَّخَذَ النَّبِيءُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خَاتَمًا لِذَلِكَ، وَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ تَخْتِمُ عَلَى قَوَارِيرِ الْخَمْرِ لِيُصْلِحَهَا انْحِبَاسُ الْهَوَاءِ عَنْهَا وَتَسْلَمَ مِنَ الْأَقْذَارِ فِي مُدَّةِ تَعْتِيقِهَا.**

**وَأَمَّا تَسْمِيَةُ الْبُلُوغِ لِآخِرِ الشَّيْءِ خَتْمًا فَلِأَنَّ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ أَوْ ذَلِكَ الْوَقْتَ هُوَ ظَرْفُ وَضْعِ الْخَتْمِ فَيُسَمَّى بِهِ مَجَازًا.**

**وَالْخَاتَمُ بِفَتْحِ التَّاءِ الطِّينُ الْمَوْضُوعُ عَلَى الْمَكَانِ الْمَخْتُومِ، وَأَطْلَقَ عَلَى الْقَالَبِ الْمَنْقُوشِ فِيهِ عَلَامَةٌ أَوْ كِتَابَةٌ يُطْبَعُ بِهَا عَلَى الطِّينِ الَّذِي يُخْتَمُ بِهِ.**

**وَكَانَ نَقْشُ خَاتَمِ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ.**

**وَطِينُ الْخَتْمِ طِينٌ خَاصٌّ يُشْبِهُ الْجِبْسَ يُبَلُّ بِمَاءٍ وَنَحْوِهِ وَيُشَدُّ عَلَى الْمَوْضِعِ الْمَخْتُومِ فَإِذَا جَفَّ كَانَ قَوِيَّ الشَّدِّ لَا يُقْلَعُ بِسُهُولَةٍ وَهُوَ يَكُونُ قِطَعًا صَغِيرَةً كُلُّ قِطْعَةٍ بِمِقْدَارِ مُضْغَةٍ وَكَانُوا يَجْعَلُونَهُ خَوَاتِيمَ فِي رِقَابِ أَهْلِ الذِّمَّةِ قَالَ بَشَّارٌ:**

**خَتَمَ الْحُبُّ لَهَا فِي عُنُقِي مَوْضِعَ الْخَاتَمِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَمِ وَالْغِشَاوَةُ فِعَالَةٌ مِنْ غَشَاهُ وَتَغَشَّاهُ إِذَا حَجَبَهُ وَمِمَّا يُصَاغُ لَهُ وَزْنُ فِعَالَةٍ بِكَسْرِ الْفَاءِ مَعْنَى الِاشْتِمَالِ عَلَى شَيْءٍ مِثْلَ الْعِمَامَةِ وَالْعِلَاوَةِ وَاللِّفَافَةِ.**

**وَقَدْ قِيلَ إِنَّ صَوْغَ هَذِهِ الزِّنَةِ لِلصِّنَاعَاتِ كَالْخِيَاطَةِ لِمَا فِيهَا مِنْ مَعْنَى الِاشْتِمَالِ الْمَجَازِيِّ، وَمَعْنَى الْغِشَاوَةِ الْغِطَاءُ. وَلَيْسَ الْخَتْمُ عَلَى الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ وَلَا الْغِشَاوَةُ عَلَى الْأَبْصَارِ هُنَا حَقِيقَةً كَمَا تَوَهَّمَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِيمَا نَقَلَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ بَلْ ذَلِكَ جَارٍ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَجَازِ بِأَنْ جَعَلَ قُلُوبَهُمْ أَيْ عُقُولَهُمْ فِي عَدَمِ نُفُوذِ الْإِيمَانِ وَالْحَقِّ وَالْإِرْشَادِ إِلَيْهَا، وَجَعْلِ أَسْمَاعِهِمْ فِي اسْتِكَاكِهَا عَنْ سَمَاعِ الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ، وَجَعْلِ أَعْيُنِهِمْ فِي عَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِمَا تَرَى مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْكَوْنِيَّةِ، كَأَنَّهَا مَخْتُومٌ عَلَيْهَا وَمَغْشِيٌّ دُونَهَا إِمَّا عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِعَارَةِ بِتَشْبِيهِ عَدَمِ حُصُولِ النَّفْعِ الْمَقْصُودِ مِنْهَا بِالْخَتْمِ وَالْغِشَاوَةِ، ثُمَّ إِطْلَاقُ لَفْظِ خَتَمَ عَلَى وَجْهِ التَّبَعِيَّةِ وَلَفْظِ الْغِشَاوَةِ عَلَى وَجْهِ الْأَصْلِيَّةِ وَكِلْتَاهُمَا اسْتِعَارَةٌ تَحْقِيقِيَّةٌ إِلَّا أَنَّ الْمُشَبَّهَ مُحَقَّقٌ عَقْلًا لَا حِسًّا.**

**وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْخَتْمَ وَالْغِشَاوَةَ تَمْثِيلًا بِتَشْبِيهِ هَيْئَةٍ وَهْمِيَّةٍ مُتَخَيَّلَةٍ فِي قُلُوبِهِمْ أَيْ إِدْرَاكِهِمْ مِنَ التَّصْمِيمِ عَلَى الْكُفْرِ وَإِمْسَاكِهِمْ عَنِ التَّأَمُّلِ فِي الْأَدِلَّةِ -كَمَا تَقَدَّمَ- بِهَيْئَةِ الْخَتْمِ، وَتَشْبِيهِ هَيْئَةٍ مُتَخَيَّلَةٍ فِي أَبْصَارِهِمْ مِنْ عَدَمِ التَّأَمُّلِ فِي الْوَحْدَانِيَّةِ وَصِدْقِ الرَّسُولِ بِهَيْئَةِ الْغِشَاوَةِ وَكُلُّ ذَيْنَكَ مِنْ تَشْبِيهِ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ.**

**وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْخَتْمَ وَالْغِشَاوَةَ مَجَازًا مُرْسَلًا بِعَلَاقَةِ اللُّزُومِ وَالْمُرَادُ اتِّصَافُهُمْ بِلَازِمِ ذَلِكَ وَهُوَ أَنْ لَا تَعْقِلَ وَلَا تَحُسَّ، وَالْخَتْمُ فِي اصْطِلَاحِ الشَّرْعِ اسْتِمْرَارُ الضَّلَالَةِ فِي نَفْسِ الضَّالِّ أَوْ خُلُقُ الضَّلَالَةِ، وَمِثْلُهُ الطَّبْعُ وَالْأَكِنَّةُ.**

**وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿**[**وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾[[158]](#footnote-158)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)**مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلُوبِهِمْ﴾[[159]](#footnote-159)، فَتَكُونُ الْأَسْمَاعُ مَخْتُومًا عَلَيْهَا، وَلَيْسَ هُوَ خَبَرًا مُقَدَّمًا لِقَوْلِهِ: ﴿غِشَاوَةٌ﴾[[160]](#footnote-160)، فَيَكُونُ: ﴿**[**وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾[[161]](#footnote-161)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)**مَعْطُوفًا عَلَيْهِ، لِأَنَّ الْغِشَاوَةَ تُنَاسِبُ الْأَبْصَارَ لَا الْأَسْمَاعَ، وَلِأَنَّ الْخَتْمَ يُنَاسِبُ الْأَسْمَاعَ كَمَا يُنَاسِبُ الْقُلُوبَ إِذْ كِلَاهُمَا يُشَبَّهُ بِالْوِعَاءِ وَيُتَخَيَّلُ فِيهِ مَعْنَى الْغَلْقِ وَالسَّدِّ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ: اسْتَكَّ سَمْعُهُ وَوَقَرَ سَمْعُهُ وَجَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ.**

**وَالْمُرَادُ مِنَ الْقُلُوبِ هُنَا: الْأَلْبَابُ وَالْعُقُولُ، وَالْعَرَبُ تُطْلِقُ الْقَلْبَ عَلَى اللُّحْمَةِ الصَّنَوْبَرِيَّةِ، وَتُطْلِقُهُ عَلَى الْإِدْرَاكِ وَالْعَقْلِ، وَلَا يَكَادُونَ يُطْلِقُونَهُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِنْسَانِ وَذَلِكَ غَالِبُ كَلَامِهِمْ عَلَى الْحَيَوَانِ، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا، وَمَقَرُّهُ الدِّمَاغُ لَا مَحَالَةَ، وَلَكِنَّ الْقَلْبَ هُوَ الَّذِي يَمُدُّهُ بِالْقُوَّةِ الَّتِي بِهَا عَمَلُ الْإِدْرَاكِ.**

**وَإِنَّمَا أَفْرَدَ السَّمْعَ وَلَمْ يَجْمَعْ كَمَا جَمَعَ قُلُوبَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ، إِمَّا لِأَنَّهُ أُرِيدَ مِنْهُ الْمَصْدَرُ الدَّالُّ عَلَى الْجِنْسِ، إِذْ لَا يُطْلَقُ عَلَى الْآذَانِ سَمْعٌ.**

**أَلَا تَرَى أَنَّهُ جَمَعَ لَمَّا ذَكَرَ الْآذَانَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾[[162]](#footnote-162)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)**وَقَوْلِهِ: ﴿**[**وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾[[163]](#footnote-163)؟!**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)

**فَلَمَّا عَبَّرَ بِالسَّمْعِ أَفْرَدَ، لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ بِخِلَافِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ مُتَعَدِّدَةٌ وَالْأَبْصَارُ جَمْعُ بَصَرٍ الَّذِي هُوَ اسْمٌ لَا مَصْدَرٌ، وَإِمَّا لِتَقْدِيرِ مَحْذُوفٍ، أَيْ وَعَلَى حَوَاسِّ سَمْعِهِمْ أَوْ جَوَارِحِ سَمْعِهِمْ.**

**وَقَدْ تَكُونُ فِي إِفْرَادِ السَّمْعِ لَطِيفَةٌ رُوعِيَتْ مِنْ جُمْلَةِ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ هِيَ أَنَّ الْقُلُوبَ كَانَتْ مُتَفَاوِتَةً وَاشْتِغَالُهَا بِالتَّفَكُّرِ فِي أَمْرِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ مُخْتَلِفٌ بِاخْتِلَافِ وُضُوحِ الْأَدِلَّةِ، وَبِالْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ وَتَتَلَقَّى أَنْوَاعًا كَثِيرَةً مِنَ الْآيَاتِ، فَلِكُلِّ عَقْلٍ حَظُّهُ مِنَ الْإِدْرَاكِ، وَكَانَتِ الْأَبْصَارُ أَيْضًا مُتَفَاوِتَةَ التَّعَلُّقِ بِالْمَرْئِيَّاتِ الَّتِي فِيهَا دَلَائِلُ الْوَحْدَانِيَّةِ فِي الْآفَاقِ، وَفِي الْأَنْفُسِ الَّتِي فِيهَا دَلَالَةٌ، فَلِكُلِّ بَصَرٍ حَظُّهُ مِنَ الِالْتِفَاتِ إِلَى الْآيَاتِ الْمُعْجِزَاتِ وَالْعِبَرِ وَالْمَوَاعِظِ، فَلَمَّا اخْتَلَفَتْ أَنْوَاعُ مَا تَتَعَلَّقَانِ بِهِ جُمِعَتْ.**

**وَأَمَّا الْأَسْمَاعُ فَإِنَّمَا كَانَتْ تَتَعَلَّقُ بِسَمَاعِ مَا يُلْقَى إِلَيْهَا مِنَ الْقُرْآنِ فَالْجَمَاعَاتُ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ سَمِعُوهُ سَمَاعًا مُتَسَاوِيًا وَإِنَّمَا يَتَفَاوَتُونَ فِي تَدَبُّرِهِ وَالتَّدَبُّرُ مِنْ عَمَلِ الْعُقُولِ فَلَمَّا اتَّحَدَ تَعَلُّقُهَا بِالْمَسْمُوعَاتِ جُعِلَتْ سَمْعًا وَاحِدًا.**

**وَإِطْلَاقُ أَسْمَاءِ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ، إِذَا أُرِيدَ بِهِ الْمَجَازُ عَنْ أَعْمَالِهَا وَمَصَادِرِهَا، جَازَ فِي إِجْرَائِهِ عَلَى غَيْرِ الْمُفْرَدِ إِفْرَادُهُ وَجَمْعُهُ، وَقَدِ اجْتَمَعَا هُنَا؛ فَأَمَّا الْإِطْلَاقُ حَقِيقَةً، فَلَمْ يَصِحَّ.**

**قَالَ**[**الْجَاحِظُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13974)**فِي *الْبَيَانِ*: قَالَ بَعْضُهُمْ لِغُلَامٍ لَهُ: اشْتَرِ لِي رَأْسَ كَبْشَيْنِ، فَقِيلَ لَهُ: ذَلِكَ لَا يَكُونُ، فَقَالَ: إِذًا فَرَأْسَيْ كَبْشٍ، فَزَادَ كَلَامَهُ إِحَالَةً.**

**وَفِي *الْكَشَّافِ* أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ إِذَا أُمِنَ اللَّبْسُ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:**

**كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعُفُّـــــــــــــــــــــــــــــــــوا  فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيــــــــــــــــصُ**

**وَهُوَ نَظِيرُ مَا قَالَهُ**[**سِيبَوَيْهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16076)**فِي بَابِ مَا لُفِظَ بِهِ مِمَّا هُوَ مُثَنًّى كَمَا لُفِظَ بِالْجَمْعِ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)**﴾[[164]](#footnote-164)، وَيَقُولُونَ: ضَعْ رِحَالَهُمَا، وَإِنَّمَا هُمَا اثْنَانِ، وَهُوَ خِلَافُ كَلَامِ**[**الْجَاحِظِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13974)**وَقَدْ يَكُونُ مَا عَدَّهُ**[**الْجَاحِظُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13974)**عَلَى الْقَائِلِ خَطَأً، لِأَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ الْقَائِلِ لَا يَقْصِدُ الْمَعَانِيَ الثَّانِيَةَ فَحُمِلَ كَلَامُهُ عَلَى الْخَطَأِ لِجَهْلِهِ بِالْعَرَبِيَّةِ وَلَمْ يُحْمَلْ عَلَى قَصْدِ لَطِيفَةٍ بِلَاغِيَّةٍ بِخِلَافِ مَا فِي الْبَيْتِ فَضْلًا عَنِ الْآيَةِ كَقَوْلِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لِمَنْ سَأَلَهُ حِينَ مَرَّتْ جِنَازَةٌ: مَنِ الْمُتَوَفِّي؟ بِصِيغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: "اللَّهُ"، لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ أَخْطَأَ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ: الْمُتَوَفَّى، وَإِلَّا فَإِنَّهُ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ تَوَفَّى فُلَانٌ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، فَهُوَ مُتَوَفٍّ أَيِ اسْتَوْفَى أَجَلَهُ، وَقَدْ قَرَأَ عَلِيٌّ نَفْسُهُ قَوْلَهُ -تَعَالَى-: ﴿**[**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾[[165]](#footnote-165)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)**بِصِيغَةِ الْمَبْنِيِّ لِلْفَاعِلِ.**

**وَبَعْدَ كَوْنِ الْخَتْمِ مَجَازًا فِي عَدَمِ نُفُوذِ الْحَقِّ لِعُقُولِهِمْ وَأَسْمَاعِهِمْ، وَكَوْنِ ذَلِكَ مُسَبَّبًا لَا مَحَالَةَ عَنْ إِعْرَاضِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ أُسْنِدَ ذَلِكَ الْوَصْفُ إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى-، لِأَنَّهُ الْمُقَدِّرُ لَهُ عَلَى طَرِيقَةِ إِسْنَادِ نَظَائِرِ مِثْلِ هَذَا الْوَصْفِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، نَحْوَ قَوْلِهِ: ﴿**[**أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[[166]](#footnote-166)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)**وَقَوْلِهِ: ﴿**[**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾[[167]](#footnote-167).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)

**وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ كَثْرَةً تَنْبُو عَنِ التَّأْوِيلِ وَمَحْمَلُهَا عِنْدَنَا عَلَى التَّحْقِيقِ أَنَّهَا وَارِدَةٌ عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ كُلَّ وَاقِعٍ هُوَ بِقَدَرِ اللَّهِ –تَعَالَى-، وَأَنَّ اللَّهَ هَدَى وَوَفَّقَ بَعْضًا، وَأَضَلَّ وَخَذَلَ بَعْضًا فِي التَّقْدِيرِ وَالتَّكْوِينِ، فَلَا يُنَافِي ذَلِكَ وُرُودُ الْآيَةِ وَنَظَائِرِهَا فِي مَعْنَى النَّعْيِ عَلَى الْمَوْصُوفِينَ بِذَلِكَ وَالتَّشْنِيعِ بِحَالِهِمْ، لِأَنَّ ذَلِكَ بِاعْتِبَارِ مَا لَهُمْ مِنَ الْمَيْلِ وَالِاكْتِسَابِ.**

**وَبِالتَّحْقِيقِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ، الَّتِي هِيَ دُونَ الْخَلْقِ، فَاللَّهُ –تَعَالَى- قَدَّرَ الشُّرُورَ وَأَوْجَدَ فِي النَّاسِ الْقُدْرَةَ عَلَى فِعْلِهَا، وَلَكِنَّهُ نَهَاهُمْ عَنْهَا لِأَنَّهُ أَوْجَدَ فِي النَّاسِ الْقُدْرَةَ عَلَى تَرْكِهَا أَيْضًا، فَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْقَدَرِ وَالتَّكْلِيفِ، إِذْ كُلٌّ رَاجِعٌ إِلَى جِهَةٍ خِلَافَ مَا تَوَهَّمَتْهُ الْقَدَرِيَّةُ فَنَفَوُا الْقَدَرَ، وَهُوَ التَّقْدِيرُ وَالْعِلْمُ، وَخِلَافَ مَا تَوَهَّمَتْهُ الْمُعْتَزِلَةُ مِنْ عَدَمِ تَعَلُّقِ قُدْرَةِ اللَّهِ -تَعَالَى- بِأَفْعَالِ الْمُكَلَّفِينَ وَلَا هِيَ مَخْلُوقَةٌ لَهُ؛ وَإِنَّمَا الْمَخْلُوقُ لَهُ ذَوَاتُهُمْ وَآلَاتُ أَفْعَالِهِمْ، لِيَتَوَسَّلُوا بِذَلِكَ إِلَى إِنْكَارِ صِحَّةِ إِسْنَادِ مِثْلِ هَاتِهِ الْأَفْعَالِ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى- تَنْزِيهًا لَهُ عَنْ إِيجَادِ الْفَسَادِ.**

**وَتَأْوِيلِ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ: عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ شَيْئًا لِأَنَّهُمْ قَائِلُونَ بِعِلْمِهِ –تَعَالَى- بِأَنَّهُمْ سَيَفْعَلُون،َ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى سَلْبِ الْقُدْرَةِ مِنْهُمْ فَبِتَرْكِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى تِلْكَ الْقُدْرَةِ إِمْهَالٌ لَهُمْ عَلَى فِعْلِ الْقَبِيحِ، وَهُوَ قَبِيحٌ.**

**فَالتَّحْقِيقُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْأَشَاعِرَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ مُقَدِّرُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ إِلَّا أَنَّ فِعْلَهَا هُوَ مِنَ الْعَبْدِ لَا مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ الَّذِي أَفْصَحَ عَنْهُ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ وَأَضْرَابُهُ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ.**

**وَلَا يُرَدُّ عَلَيْنَا أَنَّهُ كَيْفَ أَقْدَرَهُمْ عَلَى فِعْلِ الْمَعَاصِي؟ لِأَنَّهُ يَرُدُّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ أَيْضًا أَنَّهُ كَيْفَ عَلِمَ بَعْدَ أَنْ أَقْدَرَهُمْ بِأَنَّهُمْ شَارِعُونَ فِي الْمَعَاصِي وَلَمْ يَسْلُبْ عَنْهُمُ الْقُدْرَةَ، فَكَانَ مَذْهَبُ الْأَشَاعِرَةِ أَسْعَدَ بِالتَّحْقِيقِ وَأَجْرَى عَلَى طَرِيقِ الْجَمْعِ بَيْنَ مَا طَفَحَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنَ الْأَدِلَّةِ.**

**وَلَنَا فِيهِ تَحْقِيقٌ أَعْلَى مِنْ هَذَا بَسَطْنَاهُ فِي رِسَالَةِ *الْقُدْرَةِ وَالتَّقَدُّرِ* الَّتِي لَمَّا تَظْهَرْ.**

**وَإِسْنَادُ الْخَتْمِ الْمُسْتَعْمَلِ مَجَازًا إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى- لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَمَكُّنِ مَعْنَى الْخَتْمِ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَأَنْ لَا يُرْجَى زَوَالُهُ كَمَا يُقَالُ خِلْقَةٌ فِي فُلَانٍ، وَالْوَصْفُ الَّذِي أَوْدَعَهُ اللَّهُ فِي فُلَانٍ أَوْ أَعْطَاهُ فَلَانًا، وَفَرَّقَ بَيْنَ هَذَا الْإِسْنَادِ وَبَيْنَ الْإِسْنَادِ فِي الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ، لِأَنَّ هَذَا أُرِيدَ مِنْهُ لَازِمُ الْمَعْنَى وَالْمَجَازَ الْعَقْلِيَّ إِنَّمَا أُسْنِدَ فِيهِ فِعْلٌ لِغَيْرِ فَاعِلِهِ لِمُلَابَسَةٍ، وَالْغَالِبُ صِحَّةُ فَرْضِ الِاعْتِبَارَيْنِ فِيمَا صَلَحَ لِأَحَدِهِمَا وَإِنَّمَا يُرْتَكَبُ مَا يَكُونُ أَصْلَحُ بِالْمَقَامِ.**

**وَجُمْلَةُ: ﴿**[**وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)**مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: وَعَلَى قُلُوبِهِمْ بِإِعَادَةِ الْجَارِّ لِزِيَادَةِ التَّأْكِيدِ حَتَّى يَكُونَ الْمَعْطُوفُ مَقْصُودًا لِأَنَّ عَلَى مُؤْذِنَةٌ بِالْمُتَعَلِّقِ فَكَأَنَّ خَتَمَ كُرِّرَ مَرَّتَيْنِ.**

**وَفِيهِ مُلَاحَظَةُ كَوْنِ الْأَسْمَاعِ مَقْصُودَةً بِالْخَتْمِ إِذْ لَيْسَ الْعَطْفُ كَالتَّصْرِيحِ بِالْعَامِلِ.**

**وَلَيْسَ قَوْلُهُ: ﴿**[**وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾[[168]](#footnote-168)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)**خَبَرًا مُقَدَّمًا لِغِشَاوَةٍ، لِأَنَّ الْأَسْمَاعَ لَا تُنَاسِبُهَا الْغِشَاوَةُ وَإِنَّمَا يُنَاسِبُهَا السَّدُّ.**

**أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾[[169]](#footnote-169)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)**وَلِأَنَّ تَقْدِيمَ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)**﴾[[170]](#footnote-170) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْخَبَرُ، لِأَنَّ التَّقْدِيمَ لِتَصْحِيحِ الِابْتِدَاءِ بِالنَّكِرَةِ؟!**

**فَلَوْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿**[**وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾[[171]](#footnote-171)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)**هُوَ الْخَبَرُ، لَاسْتَغْنَى بِتَقْدِيمِ أَحَدِهِمَا وَأَبْقَى الْآخَرَ عَلَى الْأَصْلِ مِنَ التَّأْخِيرِ فَقِيلَ وَعَلَى سَمْعِهِمْ غِشَاوَةٌ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ.**

**وَفِي تَقْدِيمِ السَّمْعِ عَلَى الْبَصَرِ فِي مَوَاقِعِهِ مِنَ الْقُرْآنِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ فَائِدَةً لِصَاحِبِهِ مِنَ الْبَصَرِ فَإِنَّ التَّقْدِيمَ مُؤْذِنٌ بِأَهَمِّيَّةِ الْمُقَدَّمِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ السَّمْعَ آلَةٌ لِتَلَقِّي الْمَعَارِفِ الَّتِي بِهَا كَمَالُ الْعَقْلِ، وَهُوَ وَسِيلَةُ بُلُوغِ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى أَفْهَامِ الْأُمَمِ عَلَى وَجْهٍ أَكْمَلَ مِنْ بُلُوغِهَا بِوَاسِطَةِ الْبَصَرِ لَوْ فَقَدَ السَّمْعَ، وَلِأَنَّ السَّمْعَ تَرِدُ إِلَيْهِ الْأَصْوَاتُ الْمَسْمُوعَةُ مِنَ الْجِهَاتِ السِّتِّ بِدُونِ تَوَجُّهٍ، بِخِلَافِ الْبَصَرِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى التَّوَجُّهِ بِالِالْتِفَاتِ إِلَى الْجِهَاتِ غَيْرِ الْمُقَابِلَةِ.**

[**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=41#docu)**الْعَذَابُ: الْأَلَمُ. وَقَدْ قِيلَ إِنَّ أَصْلَهُ الْإِعْذَابُ مَصْدَرُ أَعْذَبَ إِذَا أَزَالَ الْعُذُوبَةَ لِأَنَّ الْعَذَابَ يُزِيلُ حَلَاوَةَ الْعَيْشِ فَصِيغَ مِنْهُ اسْمُ مَصْدَرٍ بِحَذْفِ الْهَمْزَةِ، أَوْ هُوَ اسْمٌ مَوْضُوعٌ لِلْأَلَمِ بِدُونِ مُلَاحَظَةِ اشْتِقَاقٍ مِنَ الْعُذُوبَةِ إِذْ لَيْسَ يَلْزَمُ مَصِيرُ الْكَلِمَةِ إِلَى نَظِيرَتِهَا فِي الْحُرُوفِ.**

**وَوَصْفُ الْعَذَابِ بِالْعَظِيمِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَنْكِيرَ عَذَابٍ لِلنَّوْعِيَّةِ وَذَلِكَ اهْتِمَامٌ بِالتَّنْصِيصِ عَلَى عِظَمِهِ، لِأَنَّ التَّنْكِيرَ وَإِنْ كَانَ صَالِحًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّعْظِيمِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بِنَصٍّ فِيهِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَظِيمٌ تَأْكِيدًا لِمَا يُفِيدُهُ التَّنْكِيرُ مِنَ التَّعْظِيمِ كَمَا ظَنَّهُ صَاحِبُ الْمِفْتَاحِ، لِأَنَّ دَلَالَةَ التَّنْكِيرِ عَلَى التَّعْظِيمِ غَيْرُ وَضْعِيَّةٍ، وَالْمَدْلُولَاتُ غَيْرُ الْوَضْعِيَّةِ يُسْتَغْنَى عَنْهَا إِذَا وَرَدَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهَا وَضْعًا فَلَا يُعَدُّ تَأْكِيدًا. وَالْعَذَابُ فِي الْآيَةِ، إِمَّا عَذَابُ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا عَذَابُ الْقَتْلِ وَالْمَسْغَبَةِ فِي الدُّنْيَا.**

**﴿**[**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[[172]](#footnote-172)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)

**هَذَا فَرِيقٌ آخَرُ وَهُوَ فَرِيقٌ لَهُ ظَاهِرُ الْإِيمَانِ وَبَاطِنُهُ الْكُفْرُ وَهُوَ لَا يَعْدُوا أَنْ يَكُونَ مُبْطِنًا الشِّرْكَ أَوْ مُبْطِنًا التَّمَسُّكَ بِالْيَهُودِيَّةِ وَيَجْمَعُهُ كُلُّهُ إِظْهَارُ الْإِيمَانِ كَذِبًا، فَالْوَاوُ لِعَطْفِ طَائِفَةٍ مِنَ الْجُمَلِ عَلَى طَائِفَةٍ مَسُوقٍ كُلٍّ مِنْهُمَا لِغَرَضٍ جَمَعَتْهُمَا فِي الذِّكْرِ الْمُنَاسَبَةُ بَيْنَ الْغَرَضَيْنِ، فَلَا يُتَطَلَّبُ فِي مِثْلِهِ إِلَّا الْمُنَاسَبَةُ بَيْنَ الْغَرَضَيْنِ لَا الْمُنَاسَبَةُ بَيْنَ كُلِّ جُمْلَةٍ، وَأُخْرَى مِنْ كِلَا الْغَرَضَيْنِ عَلَى مَا حَقَّقَهُ التَّفْتَزَانِيُّ فِي *شَرْحِ الْكَشَّافِ*.**

**وَقَالَ السَّيِّدُ إِنَّهُ أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي بَابِ الْعَطْفِ لَمْ يَنْتَبِهْ لَهُ كَثِيرُونَ، فَأَشْكَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ فِي مَوَاضِعَ شَتَّى.**

**وَأَصْلُهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ *الْكَشَّافِ* وَقِصَّةُ الْمُنَافِقِينَ عَنْ آخِرِهَا مَعْطُوفَةٌ عَلَى قِصَّةِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَا تُعْطَفُ الْجُمْلَةُ عَلَى الْجُمْلَةِ فَأَفَادَ بِالتَّشْبِيهِ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ عَطْفِ الْجُمْلَةِ عَلَى الْجُمْلَةِ.**

**قَالَ الْمُحَقِّقُ عَبْدُ الْحَكِيمِ: وَهَذَا مَا أَهْمَلَهُ السَّكَّاكِيُّ أَيْ فِي أَحْوَالِ الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ وَتَفَرَّدَ بِهِ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ*.**

**وَاعْلَمْ أَنَّ الْآيَاتِ السَّابِقَةَ لَمَّا انْتَقَلَ فِيهَا مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى الْقُرْآنِ بِذِكْرِ الْمُهْتَدِينَ بِهِ بِنَوْعَيْهِمُ: ﴿**[**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**﴾[[173]](#footnote-173)، ﴿**[**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**﴾[[174]](#footnote-174) إِلَى آخِرِ مَا تَقَدَّمَ، وَانْتَقَلَ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ إِلَى ذِكْرِ أَضْدَادِهِمْ، وَهُمُ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ أُرِيدَ بِهِمُ الْكَافِرُونَ صَرَاحَةً وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، كَانَ السَّامِعُ قَدْ ظَنَّ أَنَّ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ دَاخِلُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[[175]](#footnote-175)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)

**فَلَمْ يَكُنِ السَّامِعُ سَائِلًا عَنْ قِسْمٍ آخَرَ وَهُمُ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ وَأَبْطَنُوا الشِّرْكَ أَوْ غَيْرَهُ، وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ هُمُ الْمُرَادُ هُنَا بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾[[176]](#footnote-176)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**إِلَخْ، لِأَنَّهُ لِغَرَابَتِهِ وَنُدْرَةِ وَصْفِهِ بِحَيْثُ لَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ وَجُودُهُ نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ أَمْرَهُ لِلسَّامِعِينَ.**

**وَلِذَلِكَ جَاءَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ مَعْطُوفَةً بِالْوَاوِ إِذْ لَيْسَتِ الْجُمْلَةُ الْمُتَقَدِّمَةُ مُقْتَضِيَةً لَهَا وَلَا مُثِيرَةً لِمَدْلُولِهَا فِي نُفُوسِ السَّامِعِينَ، بِخِلَافِ جُمْلَةِ: ﴿**[**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾[[177]](#footnote-177)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**تُرِكَ عَطْفُهَا عَلَى الَّتِي قَبْلَهَا لِأَنَّ ذِكْرَ مَضْمُونِهَا بَعْدَ الْمُؤْمِنِينَ كَانَ مُتَرَقِّبًا لِلسَّامِعِ، فَكَانَ السَّامِعُ كَالسَّائِلِ عَنْهُ فَجَاءَ الْفَصْلُ لِلِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَمِنَ النَّاسِ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**خَبَرٌ مُقَدَّمٌ لَا مَحَالَةَ وَقَدْ يَتَرَاءَى أَنَّ الْإِخْبَارَ بِمِثْلِهِ قَلِيلُ الْجَدْوَى لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمُبْتَدَأُ دَالًّا عَلَى ذَاتٍ مِثْلِهِ، أَوْ مَعْنًى لَا يَكُونُ إِلَّا فِي النَّاسِ كَانَ الْإِخْبَارُ عَنِ الْمُبْتَدَأِ بِأَنَّهُ مِنَ النَّاسِ أَوْ فِي النَّاسِ غَيْرُ مُجْدٍ بِخِلَافِ قَوْلِكَ: الْخَضِرُ مِنَ النَّاسِ، أَيْ لَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَإِنَّ الْفَائِدَةَ ظَاهِرَةٌ، فَوَجْهُ الْإِخْبَارِ بِقَوْلِهِمْ مِنَ النَّاسِ فِي نَحْوِ الْآيَةِ وَنَحْوِ قَوْلِ بَعْضِ أَعِزَّةِ الْأَصْحَابِ فِي تَهْنِئَةٍ لِي بِخُطَّةِ الْقَضَاءِ:**

**فِي النَّاسِ مَنْ أَلْقَى قِلَادَتَهَا إِلَى خَلَفٍ، فَحَرَّمَ مَا ابْتَغَى وَأَبَاحَا إِنَّ الْقَصْدَ إِخْفَاءُ مَدْلُولِ الْخَبَرِ عَنْهُ كَمَا تَقُولُ قَالَ هَذَا إِنْسَانٌ وَذَلِكَ عِنْدَمَا يَكُونُ الْحَدِيثُ يُكْسِبُ ذَمًّا أَوْ نُقْصَانًا، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "**[**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ".**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)

**وَقَدْ كَثُرَ تَقْدِيمُ الْخَبَرِ فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ، لِأَنَّ فِي تَقْدِيمِهِ تَنْبِيهًا لِلسَّامِعِ عَلَى عَجِيبِ مَا سَيُذْكَرُ، وَتَشْوِيقًا لِمَعْرِفَةِ مَا يَتِمُّ بِهِ الْإِخْبَارُ وَلَوْ أُخِّرَ لَكَانَ مَوْقِعُهُ زَائِدًا لِحُصُولِ الْعِلْمِ بِأَنَّ مَا ذَكَرَهُ الْمُتَكَلِّمُ لَا يَقَعُ إِلَّا مِنْ إِنْسَانٍ، كَقَوْلِ مُوسَى بْنِ جَابِرٍ الْحَنَفِيِّ:**

**وَمِنَ الرِّجَالِ أَسِنَّةٌ مَذْرُوبَـــــــــــــةٌ  وَمُزَنَّدُونَ وَشَاهِدٌ كَالْغَائِبِ**

**وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مَوْقِعَ مِنَ النَّاسِ مُؤْذِنٌ بِالتَّعَجُّبِ وَإِنَّ أَصْلَ الْخَبَرِ إِفَادَةُ أَنَّ فَاعِلَ هَذَا الْفِعْلِ مِنَ النَّاسِ لِئَلَّا يَظُنَّهُ الْمُخَاطَبُ مِنْ غَيْرِ النَّاسِ لِشَنَاعَةِ الْفِعْلِ، وَهَذَا بَعِيدٌ عَنِ الْقَصْدِ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَمَا قَالَ لَمْ يَكُنْ لِلتَّقْدِيمِ فَائِدَةٌ بَلْ كَانَ تَأْخِيرُهُ أَوْلَى حَتَّى يَتَقَرَّرَ الْأَمْرُ الَّذِي يُوهِمُ أَنَّ الْمُبْتَدَأَ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ هَذَا تَوْجِيهُ هَذَا الِاسْتِعْمَالِ وَذَلِكَ حَيْثُ لَا يَكُونُ لِظَاهِرِ الْإِخْبَارِ بِكَوْنِ الْمُتَحَدَّثِ عَنْهُ مِنْ أَفْرَادِ النَّاسِ كَبِيرُ فَائِدَةٍ فَإِنْ كَانَ الْقَصْدُ إِفَادَةَ ذَلِكَ حَيْثُ يَجْهَلُهُ الْمُخَاطَبُ كَقَوْلِكَ: مِنَ الرِّجَالِ مَنْ يَلْبَسُ بُرْقُعًا، تُرِيدُ الْإِخْبَارَ عَنِ الْقَوْمِ الْمُدْعَوْنَ بِالْمُلَثَّمِينَ مِنْ (لَمْتُونَةَ)، أَوْ حَيْثُ يُنَزَّلُ الْمُخَاطَبُ مَنْزِلَةَ الْجَاهِلِ كَقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ بِفَتْحِ الزَّايِ وَكَسْرِ الْبَاءِ:**

**وَفِي النَّاسِ إِنْ رَثَّتْ حِبَالُكَ وَاصِلُ**

**وَفِي الْأَرْضِ عَنْ دَارِ الْقِلَى مُتَحَوَّلُ**

**إِذَا كَانَ حَالُ الْمُخَاطَبِينَ حَالَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ لَا يَجِدُ مَنْ يَصِلُهُ إِنْ قَطَعَهُ هُوَ، فَذِكْرُ مِنَ النَّاسِ وَنَحْوِهِ فِي مِثْلِ هَذَا وَارِدٌ عَلَى أَصْلِ الْإِخْبَارِ، وَتَقْدِيمُ الْخَبَرِ هُنَا لِلتَّشْوِيقِ إِلَى اسْتِعْلَامِ الْمُبْتَدَأِ وَلَيْسَ فِيهِ إِفَادَةُ تَخْصِيصٍ.**

**وَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ قَوْلَهُ مِنَ النَّاسِ مُؤْذِنٌ بِأَنَّ الْمُتَحَدَّثَ عَنْهُمْ سَتُسَاقُ فِي شَأْنِهِمْ قِصَّةٌ مَذْمُومَةٌ وَحَالَةٌ شَنِيعَةٌ، إِذْ لَا يُسْتَرُ ذِكْرُهُمْ إِلَّا لِأَنَّ حَالَهُمْ مِنَ الشَّنَاعَةِ، بِحَيْثُ يَسْتَحْيِي الْمُتَكَلِّمُ أَنْ يُصَرِّحَ بِمَوْصُوفِهَا، وَفِي ذَلِكَ مِنْ تَحْقِيرِ شَأْنِ النِّفَاقِ وَمَذَمَّتِهِ أَمْرٌ كَبِيرٌ؛ فَوَرَدَتْ فِي شَأْنِهِمْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ آيَةً نُعِيَ عَلَيْهِمْ فِيهَا خُبْثُهُمْ، وَمَكْرُهُمْ، وَسُوءُ عَوَاقِبِهِمْ وَسَفَهِ أَحْلَامِهِمْ، وَجَهَالَتِهِمْ، وَأَرْدَفَ ذَلِكَ بِشَتْمِ وَاسْتِهْزَاءِ وَتَمْثِيلِ حَالِهِمْ فِي أَشْنَعِ الصُّوَرِ وَهُمْ أَحْرِيَاءٌ بِذَلِكَ فَإِنَّ الْخُطَّةَ الَّتِي تَدَرَّبُوا فِيهَا تَجْمَعُ مَذَامَّ كَثِيرَةً إِذِ النِّفَاقُ يَجْمَعُ الْكَذِبَ، وَالْجُبْنَ، وَالْمَكِيدَةَ، وَأَفَنَ الرَّأْيِ، وَالْبَلَهَ، وَسُوءَ السُّلُوكِ، وَالطَّمَعَ، وَإِضَاعَةَ الْعُمُرِ، وَزَوَالَ الثِّقَةِ، وَعَدَاوَةَ الْأَصْحَابِ، وَاضْمِحْلَالَ الْفَضِيلَةِ.**

**أَمَّا الْكَذِبُ، فَظَاهِرٌ؛ وَأَمَّا الْجُبْنُ، فَلِأَنَّهُ لَوْلَاهُ لَمَا دَعَاهُ دَاعٍ إِلَى مُخَالَفَةِ مَا يُبْطِنُ؛ وَأَمَّا الْمَكِيدَةُ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُ عَلَى اتِّقَاءِ الِاطِّلَاعِ عَلَيْهِ بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ؛ وَأَمَّا أَفَنُ الرَّأْيِ، فَلِأَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفٍ فِي الْعَقْلِ، إِذْ لَا دَاعِيَ إِلَى ذَلِكَ؛ وَأَمَّا الْبَلَهُ، فَلِلْجَهْلِ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَطُولُ الِاغْتِرَارُ بِهِ؛ وَأَمَّا سُوءُ السُّلُوكِ، فَلِأَنَّ طَبْعَ النِّفَاقِ إِخْفَاءُ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ، وَالصِّفَاتُ الْمَذْمُومَةُ إِذَا لَمْ تَظْهَرْ لَا يُمْكِنُ لِلْمُرَبِّي وَلَا لِلصَّدِيقِ وَلَا لِعُمُومِ النَّاسِ تَغْيِيرُهَا عَلَى صَاحِبِهَا، فَتَبْقَى كَمَا هِيَ وَتَزِيدُ تَمَكُّنًا بِطُولِ الزَّمَانِ، حَتَّى تَصِيرَ مَلَكَةً يَتَعَذَّرُ زَوَالُهَا؛ وَأَمَّا الطَّمَعُ، فَلِأَنَّ غَالِبَ أَحْوَالِ النِّفَاقِ يَكُونُ لِلرَّغْبَةِ فِي حُصُولِ النَّفْعِ؛ وَأَمَّا إِضَاعَةُ الْعُمُرِ، فَلِأَنَّ الْعَقْلَ يَنْصَرِفُ إِلَى تَرْوِيجِ أَحْوَالِ النِّفَاقِ وَمَا يَلْزَمُ إِجْرَاؤُهُ مَعَ النَّاسِ وَنَصْبِ الْحِيَلِ لِإِخْفَاءِ ذَلِكَ، وَفِي ذَلِكَ مَا يَصْرِفُ الذِّهْنَ عَنِ الشُّغْلِ بِمَا يُجْدِي؛ وَأَمَّا زَوَالُ الثِّقَةِ، فَلِأَنَّ النَّاسَ إِنِ اطَّلَعُوا عَلَيْهِ سَاءَ ظَنُّهُمْ، فَلَا يَثِقُونَ بِشَيْءٍ يَقَعُ مِنْهُ وَلَوْ حَقًّا؛ وَأَمَّا عَدَاوَةُ الْإِصْحَابِ، فَكَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ خُلُقٌ لِصَاحِبِهِ خَشِيَ غَدْرَهُ، فَحَذَرَهُ، فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى عَدَاوَتِهِ؛ وَأَمَّا اضْمِحْلَالُ الْفَضِيلَةِ، فَنَتِيجَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ.**

**وَقَدْ أَشَارَ قَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[[178]](#footnote-178)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**إِلَى الْكَذِبِ، وَقَوْلُهُ: ﴿يُخَادِعُونَ﴾[[179]](#footnote-179) إِلَى الْمَكِيدَةِ وَالْجُبْنِ، وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾[[180]](#footnote-180)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**إِلَى أَفَنِ الرَّأْيِ، وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[[181]](#footnote-181)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**إِلَى الْبَلَهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿**[**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾[[182]](#footnote-182)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**إِلَى سُوءِ السُّلُوكِ، وَقَوْلُهُ: ﴿**[**فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[[183]](#footnote-183)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**إِلَى دَوَامِ ذَلِكَ وَتَزَايُدِهِ مَعَ الزَّمَانِ، وَقَوْلُهُ: ﴿**[**قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[[184]](#footnote-184)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**إِلَى إِضَاعَةِ الْعُمُرِ فِي غَيْرِ الْمَقْصُودِ، وَقَوْلُهُ: قَالُوا: ﴿**[**إِنَّا مَعَكُمْ﴾[[185]](#footnote-185)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**مُؤَكَّدًا بِإِنَّ إِلَى قِلَّةِ ثِقَةِ أَصْحَابِهِمْ فِيهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿**[**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾[[186]](#footnote-186)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**إِلَى أَنَّ أَمْرَهُمْ لَمْ يَحْظَ بِالْقَبُولِ عِنْدَ أَصْحَابِهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿**[**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[[187]](#footnote-187)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**إِلَى اضْمِحْلَالِ الْفَضِيلَةِ مِنْهُمْ وَسَيَجِيءُ تَفْصِيلٌ لِهَذَا، وَجَمَعَ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾[[188]](#footnote-188).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)

**وَالنَّاسُ اسْمٌ جَمْعٍ إِنْسِيٍّ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَيَاءِ النَّسَبِ، فَهُوَ عِوَضٌ عَنْ أَنَاسِيِّ الَّذِي هُوَ الْجَمْعُ الْقِيَاسِيُّ لِإِنْسٍ، وَقَدْ عَوَّضُوا عَنْ أَنَاسِيِّ أُنَاسٍ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَطَرْحِ يَاءِ النَّسَبِ، دَلَّ عَلَى هَذَا التَّعْوِيضِ ظُهُورُ ذَلِكَ فِي قَوْلِ عَبِيدِ بْنِ الْأَبْرَصِ الْأَسَدِيِّ يُخَاطِبُ امْرَأَ الْقَيْسِ:**

**إِنَّ الْمَنَايَا يَطَّلِعْــــــــــــــــــــــــــــــــــــ  ـــــــــــــــنَ عَلَى الْأُنَاسِ الْآمِنِينَا**

**ثُمَّ حَذَفُوا هَمْزَتَهُ تَخْفِيفًا، وَحَذْفُ الْهَمْزَةِ لِلتَّخْفِيفِ شَائِعٌ كَمَا قَالُوا "لُوقَةُ" فِي "أَلُوقَةُ"، وَهِيَ الزُّبْدَةُ، وَقَدِ الْتُزِمَ حَذْفُ هَمْزَةِ أُنَاسٍ عِنْدَ دُخُولِ أَلْ عَلَيْهِ غَالِبًا بِخِلَافِ الْمُجَرَّدِ مِنْ أَلْ فَذِكْرُ الْهَمْزَةِ وَحَذْفُهَا شَائِعٌ فِيهِ.**

**وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ نَاسَ جَمْعٌ وَإِنَّهُ مِنْ جُمُوعٍ جَاءَتْ عَلَى وَزْنِ فُعَالٍ بِضَمِّ الْفَاءِ مِثْلَ ظُؤَارٍ جَمْعُ ظِئْرٍ، وَرُخَالٍ جَمْعُ رَخِلٍ، وَهِيَ الْأُنْثَى الصَّغِيرَةُ مِنَ الضَّأْنِ وَوَزْنُ فُعَالٍ قَلِيلٌ فِي الْجُمُوعِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ.**

**وَقَدِ اهْتَمَّ أَئِمَّةُ اللُّغَةِ بِجَمْعِ مَا وَرَدَ مِنْهُ، فَذَكَرَهَا ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ *لَيْسَ***[**وَابْنُ السِّكِّيتِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12758)[**وَابْنُ بِرِّي.**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12988)

**وَقَدْ عَدَّ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْهَا ثَمَانِيَةً جُمِعَتْ فِي ثَلَاثَةِ أَبْيَاتٍ تُنْسَبُ**[**لِلزَّمَخْشَرِيِّ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14423)**وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا لِصَدْرِ الْأَفَاضِلِ تِلْمِيذِهِ.**

**ثُمَّ أَلْحَقَ كَثِيرٌ مِنَ اللُّغَوِيِّينَ بِتِلْكَ الثَّمَانِ كَلِمَاتٍ أُخَرَ حَتَّى أُنْهِيَتْ إِلَى أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ جَمْعًا ذَكَرَهَا الشِّهَابُ الْخَفَاجِيُّ فِي شَرْحِ دُرَّةِ الْغَوَّاصِ وَذَكَرَ مُعْظَمَهَا فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى *تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ*، وَهِيَ فَائِدَةٌ مِنْ عِلْمِ اللُّغَةِ، فَارْجِعُوا إِلَيْهَا إِنْ شِئْتُمْ.**

**وَقِيلَ: إِنَّ مَا جَاءَ بِهَذَا الْوَزْنِ أَسْمَاءُ جُمُوعٍ، وَكَلَامُ *الْكَشَّافِ* يُؤْذِنُ بِهِ، وَمُفْرَدُ هَذَا الْجَمْعِ إِنْسِيٍّ أَوْ إِنْسٍ أَوْ إِنْسَانٍ، وَكُلُّهُ مُشْتَقٌّ مِنْ أَنِسَ ضِدَّ تَوَحَّشَ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَأْلَفُ وَيَأْنَسُ.**

**وَالتَّعْرِيفُ فِي النَّاسِ لِلْجِنْسِ، لِأَنَّ مَا عَلِمْتُ مِنَ اسْتِعْمَالِهِ فِي كَلَامِهِمْ يُؤَيِّدُ إِرَادَةَ الْجِنْسِ.**

**وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّعْرِيفُ لِلْعَهْدِ، وَالْمَعْهُودُ هُمُ النَّاسُ الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[[189]](#footnote-189)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**أَوِ النَّاسِ الَّذِينَ يَعْهَدُهُمُ النَّبِيءُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَالْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الشَّأْنِ.**

**وَ"مَنْ" مَوْصُولَةٌ، وَالْمُرَادُ بِهَا: فَرِيقٌ وَجَمَاعَةٌ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[[190]](#footnote-190)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**وَمَا بَعْدَهُ مِنْ صِيَغِ الْجَمْعِ.**

**وَالْمَذْكُورُ بِقَوْلِهِ: ﴿**[**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾[[191]](#footnote-191)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**إِلَخْ قِسْمٌ ثَالِثٌ مُقَابِلٌ لِلْقِسْمَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ لِلتَّمَايُزِ بَيْنَ الْجَمِيعِ بِأَشْهَرِ الصِّفَاتِ.**

**وَإِنْ كَانَ بَيْنَ الْبَعْضِ أَوِ الْجَمِيعِ صِفَاتٌ مُتَّفِقَةٌ فِي الْجُمْلَةِ، فَلَا يُشْتَبَهُ وَجْهُ جَعْلِ الْمُنَافِقِينَ قَسِيمًا لِلْكَافِرِينَ، مَعَ أَنَّهُمْ مِنْهُم،ْ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّقْسِيمِ: الصِّفَاتُ الْمُخَصِّصَةُ.**

**وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ الْقُرْآنُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ عَلَى قَوْلِهِمْ: ﴿**[**آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**﴾[[192]](#footnote-192). مَعَ أَنَّهُمْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ بِالنَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، إِيجَازًا؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ مَبْدَأُ الِاعْتِقَادَاتِ كُلِّهَا، لِأَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِرَبٍّ وَاحِدٍ لَا يَصِلُ إِلَى الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ، إِذِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ هُوَ الْأَصْلُ وَبِهِ يَصْلُحُ الِاعْتِقَادُ، وَهُوَ أَصْلُ الْعَمَلِ؛ وَالثَّانِي هُوَ الْوَازِعُ وَالْبَاعِثُ فِي الْأَعْمَالِ كُلِّهَا وَفِيهِ صَلَاحُ الْحَالِ الْعَمَلِيِّ.**

**أَوْ هُمُ الَّذِينَ اقْتَصَرُوا فِي قَوْلِهِمْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، لِأَنَّهُمْ لِغُلُوِّهِمْ فِي الْكُفْرِ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَذْكُرُوا الْإِيمَانَ بِالنَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- اسْتِثْقَالًا لِهَذَا الِاعْتِرَافِ، فَيَقْتَصِرُونَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إِيهَامًا لِلِاكْتِفَاءِ ظَاهِرًا وَمُحَافَظَةً عَلَى كُفْرِهِمْ بَاطِنًا، لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ وَقَادَتَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ.**

**وَفِي التَّعْبِيرِ بِـ (يَقُولُ) فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِع،ِ لِأَنَّ الْخَبَرَ الْمَحْكِيَّ عَنِ الْغَيْرِ إِذَا لَمْ يَتَعَلَّقِ الْغَرَضُ بِذِكْرِ نَصِّهِ.**

**وَحُكِيَ بِلَفْظِ: يَقُولُ أَوْمَأَ ذَلِكَ إِلَى أَنَّهُ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِاعْتِقَادِهِ أَوْ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يُكَذِّبُهُ فِي ذَلِكَ، فَفِيهِ تَمْهِيدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿**[**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[[193]](#footnote-193)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**وَجُمْلَةُ: ﴿**[**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**﴾[[194]](#footnote-194) فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ يَقُولُ، أَيْ يَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ فِي حَالِ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ.**

**وَالْآيَةُ أَشَارَتْ إِلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْكُفَّارِ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ كَانَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ، وَبَعْضُهُمْ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ وَبَقِيَّتُهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ الْمُجَاوِرِينَ لَهُمْ.**

**وَرَدَ فِي حَدِيثِ**[**كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=331)**أَنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ بِضْعَةٌ وَثَمَانُونَ، وَقَدْ عُرِفَ مِنْ أَسْمَائِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ وَهُوَ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ، وَالْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، وَمُعَتِّبُ بْنُ قُشَيْرٍ، وَالْجُلَاسُ بْنُ سُوَيْدٍ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ: ﴿**[**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾[[195]](#footnote-195)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ الْيَهُودِيُّ وَلَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ، حَلِيفُ الْيَهُودِ، كَمَا فِي بَابِ السِّحْرِ مِنْ كِتَابِ الطِّبِّ مِنْ *صَحِيحِ***[**الْبُخَارِيِّ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12070)**وَالْأَخْنَسُ أُبَيُّ بْنُ شَرِيقٍ الثَّقَفِيّ، ِكَانَ يُظْهِرُ الْوُدَّ وَالْإِيمَانَ، وَسَيَأْتِي عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ﴾[[196]](#footnote-196)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**وَزَيْدُ بْنُ اللُّصَيْتِ الْقَيْنُقَاعِيُّ وَوَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَمُخَشِّنُ بْنُ حِمْيَرٍ الْأَشْجَعِيُّ اللَّذَيْنِ كَانَا يُثَبِّطَانِ الْمُسْلِمِينَ، مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ. وَقَدْ قِيلَ إِنَّ زَيْدَ بْنَ اللُّصَيْتِ تَابَ وَحَسُنَ حَالُهُ، وَقِيلَ: لَا. وَأَمَّا مُخَشِّنٌ، فَتَابَ وَعَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَقُتِلَ شَهِيدَا يَوْمَ الْيَمَامَةِ.**

**وَفِي كِتَابِ *الْمَرْتَبَةِ الرَّابِعَةِ***[**لِابْنِ حَزْمٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13064)**قَدْ ذَكَرَ قَوْمَ مُعَتِّبِ بْنِ قُشَيْرٍ الْأَوْسِيِّ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍفِي الْمُنَافِقِينَ.**

**وَهَذَا بَاطِلٌ، لِأَنَّ حُضُورَهُ بَدْرًا يُبْطِلُ هَذَا الظَّنَّ بِلَا شَكٍّ، وَلَكِنَّهُ ظَهَرَ مِنْهُ يَوْمَ أُحُدٍ مَا يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ إِيمَانِهِ فَلَمَزُوهُ بِالنِّفَاقِ، فَإِنَّهُ الْقَائِلُ يَوْمَ أُحُدٍ: ﴿**[**لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[[197]](#footnote-197)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**رَوَاهُ عَنْهُ**[**الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15)**قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ كَانَ مَغْمُوصًا بِالنِّفَاقِ.**

**وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ أَبُو عَفَكَ أَحَدُ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ظَهَرَ نِفَاقُهُ حِينَ قَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ الْحَارِثَ بْنَ سُوَيْدِ بْنِ صَامِتٍ، وَقَالَ شِعْرًا يُعَرِّضُ بِالنَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.**

**وَقَدْ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِقَتْلِ أَبِي عَفَكَ، فَقَتَلَهُ سَالِمُ بْنُ عُمَيْرٍ.**

**وَمِنَ الْمُنَافِقَاتِ: عَصْمَاءُ بِنْتُ مَرْوَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، نَافَقَتْ لَمَّا قُتِلَ أَبُو عَفَكَ، وَقَالَتْ شِعْرًا تُعَرِّضُ بِالنَّبِيءِ، قَتَلَهَا عُمَيْرُ بْنُ عَدِيٍّ الْخَطْمَيُّ؛ وَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "**[**لَا يَنْتَطِحُ فِيهَا عَنْزَانِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**".**

**وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ: بَشِيرُ بْنُ أُبَيْرِقٍ، كَانَ مُنَافِقًا يَهْجُو أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّه،ِ وَشَهِدَ أُحُدًا. وَمِنْهُمْ: ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ، وَهُوَ قَدْ أَسْلَمَ، وَعُدَّ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ. وَمِنْهُمْ: بِشْرُ الْمُنَافِقُ كَانَ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَهُوَ الَّذِي خَاصَمَ يَهُودِيَّا، فَدَعَا الْيَهُودِيُّ بِشْرًا إِلَى حُكْمِ النَّبِيءِ، فَامْتَنَعَ بِشْرٌ، وَطَلَبَ الْمُحَاكَمَةَ إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي قَتَلَهُ عُمَرُ، وَقِصَّتُهُ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمُ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾[[198]](#footnote-198)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**فِي سُورَةِ النِّسَاءِ.**

**وَعَنِ**[**ابْنِ عَبَّاسٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=11)**أَنَّ الْمُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ كَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ مِنَ الرِّجَالِ وَمِائَةً وَسَبْعِينَ مِنَ النِّسَاءِ، فَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِفَ الَّذِي سَنَّ لَهُمُ النِّفَاقَ وَجَمَعَهُمْ عَلَيْهِ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ حَسَدًا وَحَنَقًا عَلَى الْإِسْلَامِ، لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ أَهْلُ يَثْرِبَ بَعْدَ أَنِ انْقَضَتْ حُرُوبُ بُعَاثٍ بَيْنَهُمْ، وَهَلَكَ جُلُّ سَادَاتِهِمْ فِيهَا قَدِ اصْطَلَحُوا عَلَى أَنْ يَجْعَلُوهُ مَلِكًا عَلَيْهِمْ وَيُعَصِّبُوهُ بِالْعِصَابَةِ.**

**قَالَ**[**سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=228)**لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي حَدِيثِ**[**الْبُخَارِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12070)**: "اعْفُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاصْفَحْ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ الَّذِي أَعْطَاكَ. وَلَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ أَنْ يُعَصِّبُوهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا رَدَّ اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَهُ، شَرِقَ بِذَلِكَ اهـ.**

**وَأَمَّا الْيَهُودُ، فَلِأَنَّهُمْ أَهْلُ مَكْرٍ بِكُلِّ دِينٍ يَظْهَرُ، وَلِأَنَّهُمْ خَافُوا زَوَالَ شَوْكَتِهِمُ الْحَالِيَّةِ مِنْ جِهَاتِ الْحِجَازِ، وَأَمَّا الْأَعْرَابُ فَهُمْ تَبَعٌ لِهَؤُلَاءِ وَلِذَلِكَ جَاءَ: ﴿**[**الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾[[199]](#footnote-199)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**الْآيَةَ، لِأَنَّهُمْ يُقَلِّدُونَ عَنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ وَكُلُّ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ عَلَى مِثْلِ صِفَاتِهِمْ، فَهُوَ لَاحِقٌ بِهِمْ فِيمَا نَعَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ.**

**وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ**[**سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=23)**فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ (لَمْ يَجِئْ هَؤُلَاءِ بَعْدُ).**

**قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: مَعْنَى قَوْلِهِ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْقَرِضُوا بَلْ يَجِيئُونَ مِنْ كُلِّ زَمَانٍ اهـ، يَعْنِي أَنَّ سَلْمَانَ لَا يُنْكِرُ ثُبُوتَ هَذَا الْوَصْفِ لِطَائِفَةٍ فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ، وَلَكِنْ لَا يَرَى الْمَقْصِدَ مِنَ الْآيَةِ حَصْرَ الْمَذَمَّةِ فِيهِمْ، بَلْ وَفِي الَّذِينَ يَجِيئُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[[200]](#footnote-200)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**جِيءَ فِي نَفْيِ قَوْلِهِمْ بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ وَلَمْ يَجِئْ عَلَى وِزَانِ قَوْلِهِمْ آمَنَّا بِأَنْ يُقَالَ وَمَا آمَنُوا، لِأَنَّهُمْ لَمَّا أَثْبَتُوا الْإِيمَانَ لِأَنْفُسِهِمْ، كَانَ الْإِتْيَانُ بِالْمَاضِي أَشْمَلَ حَالًا لِاقْتِضَائِهِ تَحَقُّقَ الْإِيمَانِ فِيمَا مَضَى بِالصَّرَاحَةِ وَدَوَامَهُ بِالِالْتِزَامِ، لِأَنَّ الْأَصْلَ أَلَّا يَتَغَيَّرَ الِاعْتِقَادُ بِلَا مُوجِبٍ، كَيْفَ وَالدِّينُ هُوَ هُوَ؟!**

**وَلَمَّا أُرِيدَ نَفْيُ الْإِيمَانِ عَنْهُمْ كَانَ نَفْيُهُ فِي الْمَاضِي لَا يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ تَحَقُّقِهِ فِي الْحَالِ بَلْهَ الِاسْتِقْبَالِ، فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿**[**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[[201]](#footnote-201)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**دَالًّا عَلَى انْتِفَائِهِ عَنْهُمْ فِي الْحَالِ، لِأَنَّ اسْمَ الْفَاعِلِ حَقِيقَةٌ فِي زَمَنِ الْحَالِ وَذَلِكَ النَّفْيُ يَسْتَلْزِمُ انْتِفَاءَهُ فِي الْمَاضِي بِالْأَوْلَى، وَلِأَنَّ الْجُمْلَةَ الْفِعْلِيَّةَ تَدُلُّ عَلَى الِاهْتِمَامِ بِشَأْنِ الْفِعْلِ دُونَ الْفَاعِلِ. فَلِذَلِكَ حَكَى بِهَا كَلَامَهُم،ْ لِأَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوُا الْمُسْلِمِينَ يَتَطَلَّبُونَ مَعْرِفَةَ حُصُولِ إِيمَانِهِمْ قَالُوا: آمَنَّا. وَالْجُمْلَةُ الِاسْمِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى الِاهْتِمَامِ بِشَأْنِ الْفَاعِلِ، أَيْ أَنَّ الْقَائِلِينَ آمَنَّا لَمْ يَقَعْ مِنْهُمْ إِيمَانٌ فَالِاهْتِمَامُ بِهِمْ فِي الْفِعْلِ الْمَنْفِيِّ تَسْجِيلٌ لِكَذِبِهِمْ.**

**وَهَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الْفُرُوقِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ الْفِعْلِيَّةِ وَالِاسْمِيَّةِ، وَهُوَ مُصَدَّقٌ بِقَاعِدَةِ إِفَادَةِ التَّقْدِيمِ الِاهْتِمَامَ مُطْلَقًا، وَإِنْ أَهْمَلُوا التَّنْبِيهَ عَلَى جَرَيَانِ تِلْكَ الْقَاعِدَةِ عِنْدَمَا ذَكَرُوا الْفُرُوقَ بَيْنَ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ وَالِاسْمِيَّةِ فِي كُتُبِ الْمَعَانِي، وَأَشَارَ إِلَيْهِ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* هُنَا بِكَلَامٍ دَقِيقِ الدَّلَالَةِ.**

**فَإِنْ قُلْتَ: كَانَ**[**عَبَدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16436)**أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ وَزَعَمَ بَعْدَ رِدَّتِهِ أَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ الْقُرْآنَ، وَأَنَّهُ كَانَ يُمْلِي عَلَيْهِ النَّبِيءُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "عَزِيزٌ حَكِيمٌ" مَثَلًا، فَيَكْتُبُهَا "غَفُورٌ رَحِيمٌ" مَثَلًا، وَالْعَكْسُ. وَهَذَا مِنْ عَدَمِ الْإِيمَانِ، فَيَكُونُ حِينَئِذٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بَعْدُ.**

**فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا مِنْ نَقْلِ الْمُؤَرِّخِينَ وَهُمْ لَا يُعْتَدُّ بِكَلَامِهِمْ فِي مِثْلِ هَذَا الشَّأْنِ لَا سِيَّمَا وَوِلَايَةُ**[**عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16436)**الْإِمَارَةَ مِنْ جُمْلَةِ مَا نَقَمَهُ الثُّوَّارُ عَلَى عُثْمَانَ وَتَحَامُلُ الْمُؤَرِّخِينَ فِيهَا مَعْلُومٌ، لِأَنَّهُمْ تَلَقَّوْهَا مِنَ النَّاقِمِينَ وَأَشْيَاعِهِمْ، وَالْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ تَنْفِي هَذَا لِأَنَّهُ لَوْ صَحَّ لَلَزِمَ عَلَيْهِ دُخُولُ الشَّكِّ فِي الدِّينِ وَلَوْ حَاوَلَ عَبْدُ اللَّهِ هَذَا لَأَعْلَمَ اللَّهُ –تَعَالَى- بِهِ رَسُولَهُ، لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ عَلَى الرَّسُولِ السَّهْوُ وَالْغَفْلَةُ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى التَّبْلِيغِ عَلَى أَنَّهُ مُزَيَّفٌ مِنْ حَيْثُ الْعَقْلِ إِذْ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَكِيدَ لِلدِّينِ، لَكَانَ الْأَجْدَرُ بِهِ تَحْرِيفَ غَيْرِ ذَلِكَ، عَلَى أَنَّ هَذَا كَلَامٌ قَالَهُ فِي وَقْتِ ارْتِدَادِهِ وَقَوْلُهُ حِينَئِذٍ فِي الدِّينِ غَيْرُ مُصَدَّقٍ، لِأَنَّهُ مُتَّهَمٌ بِقَصْدِ تَرْوِيجِ رِدَّتِهِ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ.**

**وَقَدْ عَلِمْتَ مِنَ الْمُقَدِّمَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ أَنَّ الْعُمْدَةَ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ عَلَى حِفْظِ حُفَّاظِهِ وَقِرَاءَةِ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَإِنَّمَا كَانَ يَأْمُرُ بِكِتَابَتِهِ لِقَصْدِ الْمُرَاجَعَةِ لِلْمُسْلِمِينَ إِذَا احْتَاجُوا إِلَيْهِ، وَلَمْ يَرْوِ أَحَدٌ أَنَّهُ وَقَعَ الِاحْتِيَاجُ إِلَى مُرَاجَعَةِ مَا كُتِبَ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ، وَلَمْ يُنْقَلْ أَنَّ حُفَّاظَ الْقُرْآنِ وَجَدُوا خِلَافًا بَيْنَ مَحْفُوظِهِمْ وَبَيْنَ الْأُصُولِ الْمَكْتُوبَةِ، عَلَى أَنَّ**[**عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي سَرْحٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16436)**لَمْ يَكُنْ مُنْفَرِدًا بِكِتَابَةِ الْوَحْيِ فَقَدْ كَانَ يَكْتُبُ مَعَهُ آخَرُونَ.**

**وَنَفْيُ الْإِيمَانِ عَنْهُمْ مَعَ قَوْلِهِمْ: ﴿آمَنَّا﴾[[202]](#footnote-202)، دَلِيلٌ صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ مُسَمَّى الْإِيمَانِ التَّصْدِيقُ وَأَنَّ النُّطْقَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْإِيمَانِ قَدْ يَكُونُ كَاذِبًا، فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ النُّطْقُ إِيمَانًا، وَالْإِيمَانُ فِي الشَّرْعِ هُوَ الِاعْتِقَادُ الْجَازِمُ بِثُبُوتِ مَا يُعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الدِّينِ عِلْمًا ضَرُورِيًّا بِحَيْثُ يَكُونُ ثَابِتًا بِدَلِيلٍ قَطْعِيٍّ عِنْدَ جَمِيعِ أَيِمَّةِ الدِّينِ وَيَشْتَهِرُ كَوْنُهُ مِنْ مُقَوِّمَاتِ الِاعْتِقَادِ الْإِسْلَامِيِّ اللَّازِمِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ اشْتِهَارًا بَيْنَ الْخَاصَّةِ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ وَالْعَامَّةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِحَيْثُ لَا نِزَاعَ فِيهِ، فَقَدْ نُقِلَ الْإِيمَانُ فِي الشَّرْعِ إِلَى تَصْدِيقٍ خَاصٍّ.**

**وَقَدْ أَفْصَحَ عَنْهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَنْ عُمَرَ**[**أَنَّ جِبْرِيلَ جَاءَ فَسَأَلَ النَّبِيءَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**.**

**وَقَدِ اخْتَلَفَتْ عُلَمَاءُ الْأُمَّةِ فِي مَاهِيَّةِ الْإِيمَانِ مَا هُوَ وَتَطَرَّقُوا أَيْضًا إِلَى حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ وَنَحْنُ نَجْمَعُ مُتَنَاثِرَ الْمَنْقُولِ مِنْهُمْ مَعَ مَا لِلْمُحَقِّقِينَ مِنْ تَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِمْ فِي جُمْلَةٍ مُخْتَصَرَةٍ.**

**وَقَدْ أَرْجَعْنَا مُتَفَرِّقَ أَقْوَالِهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَى خَمْسَةِ أَقْوَالٍ: الْقَوْلُ الْأَوَّلُ قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ قَالُوا: إِنَّ الْإِيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ لَا مُسَمَّى لَهُ غَيْرُ ذَلِكَ، وَهُوَ مُسَمَّاهُ اللُّغَوِيُّ فَيَنْبَغِي أَلَّا يُنْقَلَ مِنْ مَعْنَاهُ، لِأَنَّ الْأَصْلَ عَدَمُ النَّقْلِ إِلَّا أَنَّهُ أُطْلِقَ عَلَى تَصْدِيقٍ خَاصٍّ بِأَشْيَاءَ بَيْنَهَا الدِّينُ وَلَيْسَ اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ الْعَامِّ فِي بَعْضِ أَفْرَادِهِ بِنَقْلِهِ لَهُ عَنْ مَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ وَغَلَبَ فِي لِسَانِ الشَّرْعِيِّينَ عَلَى ذَلِكَ التَّصْدِيقِ. وَاحْتَجُّوا بِعِدَّةِ أَدِلَّةٍ هِيَ مِنْ أَخْبَارِ الْآحَادِ، وَلَكِنَّهَا كَثِيرَةٌ كَثْرَةً تُلْحِقُهَا بِالْمُسْتَفِيضِ.**

**مِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمُتَقَدِّمُ وَحَدِيثُ**[**سَعْدٍ أَنَّهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ فَإِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا. فَقَالَ: أَوْ مُسْلِمًا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**، قَالُوا: وَأَمَّا النُّطْقُ وَالْأَعْمَالُ، فَهِيَ مِنَ الْإِسْلَامِ لَا مِنْ مَفْهُومِ الْإِيمَانِ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ الِاسْتِسْلَامُ وَالِانْقِيَادُ بِالْجَسَدِ دُونَ الْقَلْبِ وَدَلِيلُ التَّفْرِقَةِ بَيْنَهُمَا اللُّغَةُ وَحَدِيثُ جِبْرِيلَ، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[[203]](#footnote-203)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**وَلِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ**[**طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=55)**أَنَّهُ**[**جَاءَ رَجُلٌ مِنْ نَجْدٍ ثَائِرَ الرَّأْسِ نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ وَلَا نَفْقَهُ مَا يَقُولُ فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ فَبَيَّنَ لَهُ النَّبِيءُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّ الْإِسْلَامَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَحَجُّ الْبَيْتِ لِمَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**.**

**وَنَسَبَ هَذَا الْقَوْلَ إِلَى**[**مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16867)**أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِ فِي *الْمُدَوَّنَةِ* مَنِ اغْتَسَلَ، وَقَدْ أَجْمَعَ عَلَى الْإِسْلَامِ بِقَلْبِهِ أَجْزَأَهُ. قَالَ ابْنُ رُشْدٍ: لِأَنَّ إِسْلَامَهُ بِقَلْبِهِ، فَلَوْ مَاتَ مَاتَ مُؤْمِنًا، وَهُوَ مَأْخَذٌ بَعِيدٌ، وَسَتَعْلَمُ أَنَّ قَوْلَ مَالِكٍ بِخِلَافِهِ.**

**وَنَسَبَ هَذَا أَيْضًا إِلَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ**[**إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12441)**فِي *الْإِرْشَادِ*، وَهُوَ الْمَرْضِيُّ عِنْدَنَا. وَبِهِ قَالَ**[**الزُّهْرِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12300)**مِنَ التَّابِعِينَ.**

**- الْقَوْلُ الثَّانِي: إِنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الِاعْتِقَادُ بِالْقَلْبِ وَالنُّطْقُ بِاللِّسَانِ بِالشَّهَادَتَيْنِ لِلْإِقْرَارِ بِذَلِكَ الِاعْتِقَادِ فَيَكُونُ الْإِيمَانُ مَنْقُولًا شَرْعَا لِهَذَا الْمَعْنَى فَلَا يُعْتَدُّ بِالِاعْتِقَادِ شَرْعًا إِلَّا إِذَا انْضَمَّ إِلَيْهِ النُّطْقُ، وَنُقِلَ هَذَا عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَنَسَبَهُ النَّوَوِيُّ إِلَى جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَنَسَبَهُ الْفَخْرُ إِلَى الْأَشْعَرِيِّ**[**وَبِشْرٍ الْمَرِيسِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15211)**.**

**وَنَسَبَهُ الْخَفَاجِيُّ إِلَى مُحَقِّقِي الْأَشَاعِرَةِ وَاخْتَارَهُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ، قَالَ النَّوَوِيُّ وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ.**

**قُلْتُ: وَلَا أَحْسَبُ أَنَّ بَيْنَ هَذَا وَالْقَوْلِ الْأَوَّلِ فَرْقًا وَإِنَّمَا نَظَرُ كُلِّ قِيلٍ إِلَى جَانِبٍ، فَالْأَوَّلُ نَظَرَ إِلَى جَانِبِ الْمَفْهُومِ وَالثَّانِي نَظَرَ إِلَى الِاعْتِدَادِ وَلَمْ يَعْتَنُوا بِضَبْطِ عِبَارَاتِهِمْ حَتَّى يَرْتَفِعَ الْخِلَافُ بَيْنَهُمْ، وَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي أَنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَى الِاعْتِقَادِ هَلْ هُوَ مُنْجٍ فِيمَا بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ رَبِّهِ أَوْ لَا بُدَّ مِنَ الْإِقْرَارِ، حَكَاهُ الْبَيْضَاوِيُّ فِي التَّفْسِيرِ وَمَالَ إِلَى الثَّانِي وَيُؤْخَذُ مِنْ كَلَامِهِمْ أَنَّهُ لَوْ تَرَكَ الْإِقْرَارَ لَا عَنْ مُكَابَرَةٍ كَانَ نَاجِيًا مِثْلَ الْأَخْرَسِ وَالْمُغَفَّلِ وَالْمُشْتَغِلِ شُغْلًا اتَّصَلَ بِمَوْتِهِ.**

**وَاحْتَجُّوا بِإِطْلَاقِ الْإِيمَانِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْعَكْسِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[[204]](#footnote-204).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**وَفِي حَدِيثِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ أَنَّ النَّبِيءَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ لَهُمْ: "**[**آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ"**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**إِلَخْ.**

**وَهَذِهِ أَخْبَارُ آحَادٍ، فَالِاسْتِدْلَالُ بِهَا فِي أَصْلٍ مِنَ الدِّينِ إِنَّمَا هُوَ مُجَرَّدُ تَقْرِيبٍ عَلَى أَنَّ مُعْظَمَهَا لَا يَدُلُّ عَلَى إِطْلَاقِ الْإِيمَانِ عَلَى حَالَةٍ لَيْسَ مَعَهَا حَالَةُ إِسْلَامٍ.**

**- الْقَوْلُ الثَّالِثُ: قَوْلُ جُمْهُورِ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّ الْإِيمَانَ اعْتِقَادٌ وَقَوْلٌ وَعَمَلٌ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ لِكَمَالِ حَالِهِمْ وَمَجِيئِهِمْ فِي فَاتِحَةِ انْبِثَاقِ أَنْوَارِ الدِّينِ لَمْ يَكُونُوا يَفْرِضُونَ فِي الْإِيمَانِ أَحْوَالًا تُقَصِّرُ فِي الِامْتِثَالِ.**

**وَنُسِبَ ذَلِكَ إِلَى مَالِكٍ**[**وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16004)[**وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16008)[**وَالْأَوْزَاعِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13760)[**وَابْنِ جُرَيْجٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13036) **وَالنَّخَعِيِّ وَالْحَسَنِ وَعَطَاءٍ وَطَاوُوسٍ وَمُجَاهِدٍ**[**وَابْنِ الْمُبَارَكِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16418)[**وَالْبُخَارِيِّ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12070)**وَنُسِبَ**[**لِابْنِ مَسْعُودٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=10)**وَحُذَيْفَةَ، وَبِهِ قَالَ**[**ابْنُ حَزْمٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13064)**مِنَ الظَّاهِرِيَّةِ وَتَمَسَّكَ بِهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ لِأَخْذِهِمْ بِظَاهِرِ أَلْفَاظِ الْأَحَادِيثِ. وَبِذَلِكَ أَثْبَتُوا الزِّيَادَةَ وَالنَّقْصَ فِي الْإِيمَانِ بِزِيَادَةِ الْأَعْمَالِ وَنَقْصِهَا لِقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿**[**لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾[[205]](#footnote-205)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**إِلَخْ.**

**وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى قَبُولِهِ لِلتَّفَاضُلِ.**

**وَعَلَى ذَلِكَ حُمِلَ قَوْلُهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:**[**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**أَيْ لَيْسَ مُتَّصِفًا حِينَئِذٍ بِكَمَالِ الْإِيمَانِ.**

**وَنُقِلَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ فَقِيلَ إِنَّمَا أَمْسَكَ مَالِكٌ عَنِ الْقَوْلِ بِنُقْصَانِهِ خَشْيَةَ أَنْ يُظَنُّ بِهِ مُوَافَقَةُ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ بِالذُّنُوبِ.**

**قَالَ**[**ابْنُ بَطَّالٍ:**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12997)**وَهَذَا لَا يُخَالِفُ قَوْلَ مَالِكٍ بِأَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ وَهُوَ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ لِأَنَّ التَّصْدِيقَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْإِيمَانِ وَيُوجِبُ لِلْمُصَدِّقِ الدُّخُولَ فِيهِ وَلَا يُوجِبُ لَهُ اسْتِكْمَالَ مَنَازِلِهِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ الرَّدَّ عَلَى الْمُرْجِئَةِ فِي قَوْلِهِمْ إِنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِلَا عَمَلٍ اهـ.**

**وَلَمْ يُتَابِعْهُمْ عَلَيْهِ الْمُتَأَخِّرُونَ لِأَنَّهُمْ رَأَوْهُ شَرْحًا لِلْإِيمَانِ الْكَامِلِ وَلَيْسَ فِيهِ النِّزَاعُ إِنَّمَا النِّزَاعُ فِي أَصْلِ مُسَمَّى الْإِيمَانِ وَأَوَّلُ دَرَجَاتِ النَّجَاةِ مِنَ الْخُلُودِ وَلِذَلِكَ أَنْكَرَ أَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ أَنْ يُقَالَ: الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَتَأَوَّلُوا نَحْوَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾[[206]](#footnote-206)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**بِأَنَّ الْمُرَادَ تَعَدُّدُ الْأَدِلَّةِ حَتَّى يَدُومُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَهُوَ التَّحْقِيقُ.**

**- الْقَوْلُ الرَّابِعُ: قَوْلُ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ إِنَّ الْإِيمَانَ اعْتِقَادٌ وَنُطْقٌ وَعَمَلٌ، كَمَا جَاءَ فِي الْقَوْلِ الثَّالِثِ إِلَّا أَنَّهُمْ أَرَادُوا مِنْ قَوْلِهِمْ حَقِيقَةَ ظَاهِرِهِ مَنْ تَرَكُّبِ الْإِيمَانِ مِنْ مَجْمُوعِ الثَّلَاثَةِ بِحَيْثُ إِذَا اخْتَلَّ وَاحِدٌ مِنْهَا بَطَلَ الْإِيمَانُ، وَلَهُمْ فِي تَقْرِيرِ بُطْلَانِهِ بِنَقْصِ الْأَعْمَالِ الْوَاجِبَةِ مَذَاهِبٌ غَيْرُ مُنْتَظِمَةٍ وَلَا مَعْضُودَةٍ بِأَدِلَّةٍ سِوَى التَّعَلُّقِ بِظَوَاهِرِ بَعْضِ الْآثَارِ مَعَ الْإِهْمَالِ لِمَا يُعَارِضُهَا مِنْ مِثْلِهَا.**

**فَأَمَّا الْخَوَارِجُ، فَقَالُوا: إِنَّ تَارِكَ شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ كَافِرٌ غَيْرُ مُؤْمِنٍ وَهُوَ خَالِدٌ فِي النَّار،ِ فَالْأَعْمَالُ جُزْءٌ مِنَ الْإِيمَانِ وَأَرَادُوا مِنَ الْأَعْمَالِ فِعْلَ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكَ الْمُحَرَّمَاتِ وَلَوْ صَغَائِرَ، إِذْ جَمِيعُ الذُّنُوبِ عِنْدَهُمْ كَبَائِرُ.**

**وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ كَالْمَنْدُوبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ فَلَا يُوجِبُ تَرْكُهَا خُلُودًا، إِذْ لَا يَقُولُ مُسْلِمٌ إِنَّ تَرْكَ السُّنَنِ وَالْمَنْدُوبَاتِ يُوجِبُ الْكُفْرَ وَالْخُلُودَ فِي النَّارِ، وَكَذَلِكَ فِعْلَ الْمَكْرُوهَاتِ.**

**وَقَالَتِ الْإِبَاضِيَّةُ مِنَ الْخَوَارِجِ: إِنَّ تَارِكَ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ كَافِرٌ لَكِنَّ كُفْرَهُ كُفْرُ نِعْمَةٍ لَا شِرْكٍ، نَقَلَهُ**[**إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12441)**عَنْهُمْ وَهُوَ الَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْ طَلَبَتِهِمْ.**

**وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ فَقَدْ وَافَقُوا الْخَوَارِجَ فِي أَنَّ لِلْأَعْمَالِ حَظًّا مِنَ الْإِيمَانِ، إِلَّا أَنَّهُمْ خَالَفُوهُمْ فِي مَقَادِيرِهَا.**

**وَمَذَاهِبُ الْمُعْتَزِلَةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ غَيْرُ مُنْضَبِطَةٍ، فَقَالَ قُدَمَاؤُهُمْ، وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنْهُمْ: إِنَّ الْعَاصِيَ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، لَكِنَّهُ لَا يُوصَفُ بِالْكُفْرِ وَلَا بِالْإِيمَانِ، وَوَصَفُوهُ بِالْفِسْقِ وَجَعَلُوا اسْتِحْقَاقَ الْخُلُودِ لِارْتِكَابِ الْكَبِيرَةِ خَاصَّةً، وَكَذَلِكَ نَسَبَ إِلَيْهِمُ**[**ابْنُ حَزْمٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13064)**فِي كِتَابِ *الْفَصْلِ*، وَقَالَ**[**وَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ الْغَزَّالُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=17263)**إِنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ مَنْزِلَةٌ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْن،ِ أَيْ لَا يُوصَفُ بِإِيمَانٍ وَلَا كُفْرٍ، فَيُفَارِقُ بِذَلِكَ قَوْلَ الْخَوَارِجِ وَقَوْلَ الْمُرْجِئَةِ، وَوَافَقَهُ**[**عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16711)**عَلَى ذَلِكَ.**

**وَهَذِهِ هِيَ الْمَسْأَلَةُ الَّتِي بِسَبَبِهَا قَالَ**[**الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14102)**لِوَاصِلٍ**[**وَعَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ:**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16711)**اعْتَزَلَ مَجْلِسَنَا.**

**وَدَرَجَ عَلَى هَذَا جَمِيعُهُمْ، لَكِنَّهُمُ اضْطَرَبُوا أَوِ اضْطَرَبَ النَّقْلُ عَنْهُمْ فِي مُسَمَّى الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، فَقَالَ**[**إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12441)**فِي *الْإِرْشَادِ* إِنَّ جُمْهُورَهُمْ قَالُوا: إِنَّ الْكَبِيرَةَ تُحْبِطُ ثَوَابَ الطَّاعَاتِ وَإِنْ كَثُرَتْ، وَمَعْنَاهُ لَا مَحَالَةَ: أَنَّهَا تُوجِبُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ وَبِذَلِكَ جَزَمَ التَّفْتَزَانِيُّ فِي *شَرْحِ الْكَشَّافِ* وَفِي *الْمَقَاصِدِ*، وَقَالَ: إِنَّ الْمَنْزِلَةَ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ هِيَ مُوجِبَةٌ لِلْخُلُودِ.**

**وَإِنَّمَا أَثْبَتُوا الْمَنْزِلَةَ لِعَدَمِ إِطْلَاقِ اسْمِ الْكُفْرِ وَلِإِجْرَاءِ أَحْكَامِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صَاحِبِهَا فِي ظَاهِرِ الْحَالِ فِي الدُّنْيَا بِحَيْثُ لَا يُعْتَبَرُ مُرْتَكِبُ الْمَعْصِيَةِ كَالْمُرْتَدِّ، فَيُقْتَلُ.**

**وَقَالَ فِي *الْمَقَاصِدِ* وَمِثْلُهُ فِي *الْإِرْشَادِ*: الْمُخْتَارُ عِنْدَهُمْ خِلَافُ الْمُشْتَهِرِ، فَإِنَّ أَبَا عَلِيٍّ وَابْنَهُ وَكَثِيرًا مِنْ مُحَقِّقِيهِمْ وَمُتَأَخِّرِيهِمْ قَالُوا: إِنَّ الْكَبَائِرَ إِنَّمَا تُوجِبُ دُخُولَ النَّارِ إِذَا زَادَ عِقَابُهَا عَلَى ثَوَابِ الطَّاعَاتِ فَإِنْ أَرْبَتِ الطَّاعَاتُ عَلَى السَّيِّئَاتِ دَرَأَتِ السَّيِّئَاتِ، وَلَيْسَ النَّظَرُ إِلَى أَعْدَادِ الطَّاعَاتِ وَلَا الزَّلَّاتِ، وَإِنَّمَا النَّظَرُ إِلَى مِقْدَارِ الْأُجُورِ وَالْأَوْزَارِ فَرُبَّ كَبِيرَةٍ وَاحِدَةٍ يَغْلِبُ وِزْرُهَا طَاعَاتٍ كَثِيرَةِ الْعَدَدِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ضَبْطِ هَذِهِ الْمَقَادِيرِ بَلْ أَمْرُهَا مَوْكُولٌ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ –تَعَالَى-. فَإِنِ اسْتَوَتِ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ فَقَدِ اضْطَرَبُوا فِي ذَلِكَ فَهَذَا مَحَلُّ الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ.**

**وَنَقَلَ**[**ابْنُ حَزْمٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13064)**فِي الْفَصْلِ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ، فِيهِمْ**[**بِشْرُ الْمَرِيسِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15211)**وَالْأَصَمُّ أَنَّ مَنِ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْأَعْرَافِ وَلَهُمْ وَقْفَةٌ لَا يَدْخُلُونَ النَّارَ مُدَّةً ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ فَهُوَ مُجَازَى بِقَدْرِ مَا رَجَحَ لَهُ مِنَ الذُّنُوبِ فَمِنْ لَفْحَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَى بَقَاءِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فِي النَّارِ ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْهَا بِالشَّفَاعَةِ. وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَرَوْنَ الْخُلُودَ.**

**وَقَدْ نَقَلَ الْبَعْضُ عَنِ الْمُعْتَزِلَةِ أَنَّ الْمَنْزِلَةَ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ لَا جَنَّةٌ وَلَا نَارٌ إِلَّا أَنَّ التَّفْتَزَانِيَّ فِي الْمَقَاصِدِ غَلَّطَ هَذَا الْبَعْضَ، وَكَذَلِكَ قَالَ فِي *شَرْحِ الْكَشَّافِ*.**

**وَقَدْ قَرَّرَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* حَقِيقَةَ الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ بِكَلَامٍ مُجْمَل،ٍ فَقَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[[207]](#footnote-207)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَالْفَاسِقُ فِي الشَّرِيعَةِ الْخَارِجُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ بِارْتِكَابِ الْكَبِيرَةِ، وَهُوَ النَّازِلُ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْن،ِ أَيْ بَيْنَ مَنْزِلَتَيِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ.**

**وَقَالُوا: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ حَدَّ لَهُ هَذَا الْحَدَّ**[**أَبُو حُذَيْفَةَ وَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=17263)**وَكَوْنُهُ بَيْنَ بَيْنَ أَنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ الْمُؤْمِنِ فِي أَنَّهُ يُنَاكَحُ وَيُوَارَثُ وَيُغَسَّلُ وَيُصَلَّى عَلَيْهِ وَيُدْفَنُ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ كَالْكَافِرِ فِي الذَّمِّ وَاللَّعْنِ وَالْبَرَاءَةِ مِنْهُ وَاعْتِقَادُ عَدَاوَتِهِ، وَأَنْ لَا تُقْبَلَ لَهُ شَهَادَةٌ اهـ، فَتَرَاهُ مَعَ إِيضَاحِهِ لَمْ يَذْكُرْ فِيهِ أَنَّهُ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَصَرَّحَ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾[[208]](#footnote-208)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**فِي سُورَةِ النِّسَاءِ بِمَا يُعَمِّمُ خُلُودَ أَهْلِ الْكَبَائِرِ دُونَ تَوْبَةٍ فِي النَّارِ.**

**قُلْتُ: وَكَانَ الشَّانُ أَنَّ إِجْرَاءَ الْأَحْكَامِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا يَقْتَضِي أَنَّهُ غَيْرُ خَالِد،ٍ إِذْ لَا يُعْقَلُ أَنْ تَجْرِيَ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْمُسْلِمِينَ وَتَنْتَفِيَ عَنْهُ الثَّمَرَةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا فَارَقَ الْكُفْرَ إِذِ الْمُسْلِمُ إِنَّمَا أَسْلَمَ فِرَارًا مِنَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ، فَكَيْفَ يَكُونُ ارْتِكَابُ بَعْضِ الْمَعَاصِي مُوجِبًا لِانْتِقَاضِ فَائِدَةِ الْإِسْلَامِ؟!**

**وَإِذَا كَانَ أَحَدٌ لَا يَسْلَمُ مِنْ أَنْ يُقَارِفَ مَعْصِيَةً، وَكَانَتِ التَّوْبَةُ الصَّادِقَةُ قَدْ تَتَأَخَّرُ وَقَدْ لَا تَحْصُلُ، فَيَلْزَمُهُمْ -وَيَلْزَمُ الْخَوَارِجَ- أَنْ يَعُدُّوا جُمْهُورَ الْمُسْلِمِينَ كُفَّارًا، وَبِئْسَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ.**

**عَلَى أَنَّ هَذَا مِمَّا يُجَرِّئُ الْعُصَاةَ عَلَى نَقْضِ عُرَى الدِّينِ، إِذْ يَنْسَلُّ عَنْهُ الْمُسْلِمُونَ لِانْعِدَامِ الْفَائِدَةِ الَّتِي أَسْلَمُوا لِأَجْلِهَا بِحُكْمِ:**

**أَنَا الْغَرِيقُ فَمَا خَوْفِي مِنَ الْبَلَـــــــــلِ**

**وَمِنَ الْعَجِيبِ: أَنْ يَصْدُرَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ عَاقِلٍ، فَضْلًا عَنْ عَالِمٍ؛ ثُمَّ الْأَعْجَبُ مِنْهُ عُكُوفُ أَتْبَاعِهِمْ عَلَيْهِ تَلُوكُهُ أَلْسِنَتُهُمْ وَلَا تَفْقَهُهُ أَفْئِدَتُهُمْ.**

**وَكَيْفَ لَمْ يُقَيَّضْ فِيهِمْ عَالِمٌ مُنْصِفٌ يَنْبَرِي لِهَاتِهِ التُّرَّهَاتِ، فَيُهَذِّبُهَا أَوْ يُؤَوِّلُهَا، كَمَا أَرَادَ جُمْهُورُ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ مِنْ صَدْرِ الْأُمَّةِ فَمَنْ يَلِيهِمْ؟!**

**- الْقَوْلُ الْخَامِسُ: قَالَتِ الْكَرَّامِيَّةُ الْإِيمَانُ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ إِذَا لَمْ يُخَالِفِ الِاعْتِقَادُ الْقَوْلَ فَلَا يُشْتَرَطُ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ شَيْءٌ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّصْدِيقِ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ يُعْتَقَدُ خِلَافَ مَقَالِهِ بَطَلَ إِيمَانُهُ.**

**وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَى الِاعْتِدَادِ بِإِيمَانِ مَنْ نَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَإِنْ لَمْ يَشْغَلْ عَقْلَهُ بِاعْتِقَادِ مَدْلُولِهِمَا، بَلْ يُكْتَفَى مِنْهُ بِأَنَّهُ لَا يُضْمِرُ خِلَافَ مَدْلُولِهِمَا.**

**وَهَذِهِ أَحْوَالٌ نَادِرَةٌ لَا يَنْبَغِي الْخَوْضُ فِيهَا. أَوْ أَرَادُوا أَنَّهُ تَجْرِي عَلَيْهِ فِي الظَّاهِرِ أَحْكَامُ الْمُؤْمِنِينَ، مَعَ أَنَّ الْكَرَّامِيَّةَ لَا يُنْكِرُونَ أَنَّ مَنْ يَعْتَقِدُ خِلَافَ مَا نَطَقَ بِهِ مِنَ الشَّهَادَتَيْنِ أَنَّهُ خَالِدٌ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفِي تَفْسِيرِ الْفَخْرِ أَنَّ غَيْلَانَ الدِّمَشْقِيَّ وَافَقَ الْكَرَّامِيَّةَ.**

**هَذِهِ جَوَامِعُ أَقْوَالِ الْفِرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ.**

**وَأَنَا أَقُولُ كَلِمَةً أَرْبَأُ بِهَا عَنِ الِانْحِيَازِ إِلَى نُصْرَةٍ، وَهِيَ أَنَّ اخْتِلَافَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَوَّلِ خُطُوَاتِ مَسِيرِهِمْ وَأَوَّلِ مَوْقِفٍ مِنْ مَوَاقِفِ أَنْظَارِهِمْ وَقَدْ مَضَتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ بَعْدَ الْأَيَّامِ وَتَعَاقَبَتِ الْأَقْوَامُ بَعْدَ الْأَقْوَامِ يُعَدُّ نَقْصًا عِلْمِيًّا لَا يَنْبَغِي الْبَقَاءُ عَلَيْهِ.**

**وَلَا أَعْرِفُنِي بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ مُلْتَفِتًا إِلَيْهِ**

**لَا جَرَمَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ أَوَّلُ مَا طَلَبَتْ مِنَ النَّاسِ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ لِيَخْرُجُوا بِذَلِكَ مِنْ عَقَائِدِ الشِّرْكِ وَمُنَاوَأَةِ هَذَا الدِّينِ فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ تَهَيَّأَتِ النُّفُوسُ لِقَبُولِ الْخَيْرَاتِ وَأَفَاضَتِ الشَّرِيعَةُ عَلَيْهَا مِنْ تِلْكَ النَّيِّرَاتِ فَكَانَتْ فِي تَلَقِّي ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ اسْتِعْدَادِهَا، زِينَةً لِمَعَاشِهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ وَمَعَادِهَا. فَالْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ هُمَا الْأَصْلَانِ اللَّذَانِ تَنْبَعِثُ عَنْهُمَا الْخَيْرَاتُ، وَهُمَا الْحَدُّ الْفَاصِلُ بَيْنَ أَهْلِ الشَّقَاءِ وَأَهْلِ الْخَيْرِ حَدًّا لَا يَقْبَلُ تَفَاوُتًا وَلَا تَشَكُّكًا، لِأَنَّ شَأْنَ الْحُدُودِ أَنْ تَكُونَ مُتَفَاوِتَةً ،كَمَا قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**﴾[[209]](#footnote-209).**

**وَلَا يَدَّعِي أَحَدٌ أَنَّ مَفْهُومَ الْإِيمَانِ هُوَ مَفْهُومُ الْإِسْلَامِ، فَيُكَابِرُ لُغَةً تُتْلَى عَلَيْهِ. كَيْفَ وَقَدْ فَسَّرَهُ الرَّسُولُ لِذَلِكَ الْجَالِسِ عِنْدَ رُكْبَتَيْهِ. فَمَا الَّذِينَ ادَّعَوْهُ إِلَّا قَوْمٌ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْعِبَارَةُ، فَأَرَادُوا أَنَّ الِاعْتِدَادَ فِي هَذَا الَّذِي لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْأَمْرَيْنِ وَبِذَلِكَ يَتَّضِحُ وَجْهُ الِاكْتِفَاءِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَوَادِّ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِأَحَدِ اللَّفْظَيْنِ، فِي مَقَامِ خِطَابِ الَّذِينَ تَحَلَّوْا بِكِلْتَا الْخَصْلَتَيْنِ، فَانْتَظَمَ الْقَوْلَانِ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي.**

**إِنَّ مُوجِبَ اضْطِرَابِ الْأَقْوَالِ فِي التَّمْيِيزِ بَيْنَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ وَحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ أَمْرَانِ:**

**- أَحَدُهُمَا: أَنَّ الرِّسَالَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ دَعَتْ إِلَى الِاعْتِقَادِ بِوُجُودِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَبِصِدْقِ مُحَمَّدٍ  -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَدَعَتْ إِلَى النُّطْقِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى حُصُولِ هَذَا الِاعْتِقَادِ فِي نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، لِأَنَّ الِاعْتِقَادَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِوَاسِطَةِ النُّطْق،ِ وَلَمْ يَقْتَنِعِ الرَّسُولُ مِنْ أَحَدٍ بِمَا يُحَصِّلُ الظَّنُّ بِأَنَّهُ حَصَلَ لَهُ هَذَا الِاعْتِقَادُ إِلَّا بِأَنْ يَعْتَرِفَ بِذَلِكَ بِنُطْقِهِ إِذَا كَانَ قَادِرًا.**

**- الثَّانِي: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا دَعْوَةَ الرَّسُولِ لَمْ تَكُنْ ظَوَاهِرُهُمْ مُخَالِفَةً لِعَقَائِدِهِمْ إِذْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مُسْلِمٌ يُبْطِنُ الْكُفْرَ فَكَانَ حُصُولُ مَعْنَى الْإِيمَانِ لَهُمْ مُقَارِنًا لِحُصُولِ مَعْنَى الْإِسْلَامِ وَصَدَقَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ وَمُسْلِمُونَ.**

**ثُمَّ لَمَّا نَبَعَ النِّفَاقُ بَعْدَ الْهِجْرَةِ طَرَأَ الِاحْتِيَاجُ إِلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ حَالِ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَبَيْنَ حَالِ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ وَأَبْطَنُوا الْكُفْرَ تَفْرِقَةً بِالتَّحْذِيرِ وَالتَّنْبِيهِ لَا بِالتَّعْيِينِ وَتَمْيِيزِ الْمَوْصُوفِ.**

**لِذَا كَانَتْ أَلْفَاظُ الْقُرْآنِ وَكَلَامُ النَّبِيءِ تَجْرِي فِي الْغَالِبِ عَلَى مُرَاعَاةِ غَالِبِ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ الْجَامِعِينَ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ وَرُبَّمَا جَرَتْ عَلَى مُرَاعَاةِ الْأَحْوَالِ النَّادِرَةِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى التَّنْبِيهِ عَلَيْهَا كَمَا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[[210]](#footnote-210)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**وَكَمَا فِي**[**قَوْلِ النَّبِيءِ لِمَنْ قَالَ لَهُ مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا قَالَ أَوْ مُسْلِمًا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**.**

**فَحَاصِلُ مَعْنَى الْإِيمَانِ حُصُولُ الِاعْتِقَادِ بِمَا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ، وَحَاصِلُ مَعْنَى الْإِسْلَامِ إِظْهَارُ الْمَرْءِ أَنَّهُ أَسْلَمَ نَفْسَهُ لِاتِّبَاعِ الدِّينِ وَدَعْوَةِ الرَّسُولِ، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[[211]](#footnote-211)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**الْآيَةَ.**

**وَهَلْ يُخَامِرُكُمْ شَكٌّ فِي أَنَّ الشَّرِيعَةَ مَا طَلَبَتْ مِنَ النَّاسِ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ لِمُجَرَّدِ تَعْمِيرِ الْعَالَمِ الْأُخْرَوِيِّ مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ، لِأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى- قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ لِهَذَيْنِ الْمَوْضِعَيْنِ خَلْقًا يُعَمِّرُونَهُمَا إِنْ شَاءَ خَلَقَهُمَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَرَادَ تَعْمِيرَ الْعَالَمَيْنِ الدُّنْيَوِيَّ وَالْأُخْرَوِيَّ، وَجَعَلَ الدُّنْيَا مِصْقَلَةَ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ تُهَيِّئُهَا لِلتَّأَهُّلِ إِلَى تَعْمِيرِ الْعَالَمِ الْأُخْرَوِيِّ لِتَلْتَحِقَ بِالْمَلَائِكَةِ.**

**فَجَعَلَ اللَّهُ الشَّرَائِعَ لِكَفِّ النَّاسِ عَنْ سَيِّءِ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْهُمْ بِدَوَاعِي شَهَوَاتِهِمُ الْمُفْسِدَةِ لِفِطْرَتِهِمْ.**

**وَأَرَادَ اللَّهُ حِفْظَ نِظَامِ هَذَا الْعَالَمِ أَيْضًا لِيَبْقَى صَالِحًا لِلْوَفَاءِ بِمُرَادِ اللَّهِ إِلَى أَمَدٍ أَرَادَهُ، فَشَرَعَ لِلنَّاسِ شَرْعًا، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى اتِّبَاعِهِ وَالدُّخُولِ إِلَى حَظِيرَتِهِ ذَلِكَ الدُّخُولُ الْمُسَمَّى بِالْإِيمَانِ وَبِالْإِسْلَامِ، لِاشْتِرَاطِ حُصُولِهِمَا فِي قِوَامِ حَقِيقَةِ الِانْضِوَاءِ تَحْتَ هَذَا الشَّرْعِ. ثُمَّ يَسْتَتْبِعُ ذَلِكَ إِظْهَارَ تَمْكِينِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ قَبُولِ مَا يُرْسَمُ لَهُمْ مِنَ السُّلُوكِ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ.**

**وَثِقَةٍ بِمَآلَيْ نَزَاهَةٍ أَوْ رِجْسٍ. وَذَلِكَ هُوَ الْأَعْمَالُ ائْتِمَارًا وَانْتِهَاءً وَفِعْلًا وَانْكِفَافًا.**

**وَهَذِهِ الْغَايَةُ هِيَ الَّتِي تَتَفَاوَتُ فِيهَا الْمَرَاتِبُ إِلَّا أَنَّ تَفَاوُتَ أَهْلِهَا فِيهَا لَا يَنْقُصُ الْأَصْلُ الَّذِي بِهِ دَخَلُوا فَإِنَّ الْآتِيَ بِالْبَعْضِ مِنَ الْخَيْرِ قَدْ أَتَى بِمَا كَانَ أَحْسَنَ مِنْ حَالِهِ قَبْلَ الْإِيمَانِ، وَالْآتِي بِمُعْظَمِ الْخَيْرِ قَدْ فَاقَ الَّذِي دُونَهُ، وَالْآتِي بِالْجَمِيعِ بِقَدْرِ الطَّاقَةِ هُوَ الْفَائِزُ، بِحَيْثُ إِنَّ الشَّرِيعَةَ لَا تَعْدِمُ مَنْفَعَةً تَحْصُلُ مِنْ أَفْرَادِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَسَمَّوْا بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَمِنْ تِلْكَ الْمَرَاتِبِ حِمَايَةُ الْحَوْزَةِ وَالدِّفَاعُ عَنِ الْبَيْضَةِ.**

**فَهَلْ يَشُكُّ أَحَدٌ فِي أَنَّ عَمْرَو بْنَ مَعْدِ يكَرِبَ أَيَّامَ كَانَ لَا يَرَى الِانْتِهَاءَ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ وَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ –تَعَالَى- قَالَ: ﴿**[**فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[[212]](#footnote-212)؟!**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**فَقُلْنَا: لَا. أَنَّهُ قَدْ دَلَّ جِهَادُهُ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ عَلَى إِيمَانِهِ وَعَلَى تَحْقِيقِ شَيْءٍ كَثِيرٍ مِنْ أَجْزَاءِ إِسْلَامِهِ، فَهَلْ يُعَدُّ سَوَاءً وَالْكَافِرِينَ فِي كَوْنِهِ يَخْلُدُ فِي النَّارِ؟**

**فَالْأَعْمَالُ إِذَنْ لَهَا الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ لِأَنَّهَا مُكَمِّلَةُ الْمَقْصِدِ لَا يُنَازِعُ فِي هَذَيْنِ أَعْنِي كَوْنَهَا فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ وَكَوْنَهَا مَقْصُودَةً إِلَّا مُكَابِرٌ. وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هَذَا أَكْمَلَ تَأْيِيدٍ مَا وَرَدَ فِي الصِّحَاحِ فِي حَدِيثِ**[**مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ النَّبِيءَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ لَهُ: "إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ"،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**أَيْ يَنْطِقُوا بِذَلِكَ نُطْقًا مُطَابِقًا لِاعْتِقَادِهِمْ،**[**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ"**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**إِلَخْ.**

**فَلَوْلَا أَنَّ لِلْإِيمَانِ وَلِلْإِسْلَامِ الْحَظَّ الْأَوَّلَ لَمَا قَدَّمَهُ، وَلَوْلَا أَنَّ الْأَعْمَالَ لَا دَخْلَ لَهَا فِي مُسَمَّى الْإِسْلَامِ لَمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمَا، لِأَنَّ الدَّعْوَةَ لِلْحَقِّ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ دُفْعَةً، وَإِلَّا لَكَانَ الرِّضَا بِبَقَائِهِ عَلَى جُزْءٍ مِنَ الْكُفْرِ وَلَوْ لَحْظَةٍ مَعَ تَوَقُّعِ إِجَابَتِهِ لِلدِّينِ رِضًى بِالْكُفْرِ، وَهُوَ مِنَ الْكُفْرِ، فَكَيْفَ يَأْمُرُ بِسُلُوكِهِ الْمَعْصُومِ عَنْ أَنْ يُقِرَّ أَحَدًا عَلَى بَاطِلٍ، فَانْتَظَمَ الْقَوْلُ الثَّالِثُ لِلْقَوْلَيْنِ.**

**وَمِمَّا لَا شُبْهَةَ فِيهِ أَنَّ اسْتِحْقَاقَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ عَلَى قَدْرِ الْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْجَوَارِحِيَّةِ، فَالْأَمْرُ الَّذِي لَا يَحْصُلُ شَيْءٌ مِنَ الْمَطْلُوبِ دُونَهُ لَا يُنْجِي مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا جَمِيعُهُ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ وَلَمْ يُسْلِمْ مُخَلَّدًا فِي النَّارِ، لِأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ مِنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَقْصُودِ بِدُونِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ.**

**وَأَمَّا الْأُمُورُ الَّتِي يَقْرُبُ فَاعِلُهَا مِنَ الْغَايَةِ بِمِقْدَارِ مَا يَخْطُو فِي طُرُقِهَا فَثَوَابُهَا عَلَى قَدْرِ ارْتِكَابِهَا وَالْعُقُوبَةُ عَلَى قَدْرِ تَرْكِهَا، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُنَازِعَ فِي هَذَا غَيْرُ مُكَابِرٍ، إِذْ كَيْفَ يَسْتَوِي عِنْدَ اللَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا لَمْ يُؤْمِنْ وَلَمْ يُسْلِمْ وَالْآخَرُ آمَنَ وَأَسْلَمَ وَامْتَثَلَ وَانْتَهَى، إِلَّا أَنَّهُ اتَّبَعَ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ فِي خَصْلَةٍ أَوْ زَلَّةٍ فَيَحْكُمُ بِأَنَّ كِلَا الرَّجُلَيْنِ فِي عَذَابٍ وَخُلُودٍ.**

**وَهَلْ تَبْقَى فَائِدَةٌ لِكُلِّ مُرْتَكِبِ مَعْصِيَةٍ فِي الْبَقَاءِ عَلَى الْإِسْلَامِ إِذَا كَانَ الَّذِي فَرَّ مِنْ أَجْلِهِ لِلْإِسْلَامِ حَاصِلًا عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ، وَهُوَ الْخُلُودُ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتُوبَ آمَنَ يَوْمَئِذٍ؟ وَهَلْ يُنْكِرُ أَحَدٌ أَنَّ جُلَّ الْأُمَّةِ لَا يَخْلُونَ مِنَ التَّلَبُّسِ بِالْمَعْصِيَةِ وَالْمَعْصِيَتَيْنِ، إِذِ الْعِصْمَةُ مَفْقُودَةٌ؟**

**فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ التَّوْبَةِ كُفْرًا، فَهَلْ يَقُولُ هَذَا الْعَاقِلُ إِنَّ الْأُمَّةَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مُتَّصِفَةً بِالْكُفْرِ؟**

**وَلَا إِخَالُ عَاقِلًا يَلْتَزِمُهَا بَعْدَ أَنْ يَسْمَعَهَا؟ أَفَهَلْ يُمِّوِهُ أَحَدٌ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَأْخُذَ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[[213]](#footnote-213)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)**يَعْنِي: الصَّلَاةَ، إِنَّ اللَّهَ سَمَّى الصَّلَاةَ إِيمَانًا.**

**وَلَوْلَا أَنَّ الْعَمَلَ مِنَ الْإِيمَانِ لَمَا سُمِّيَتْ كَذَلِكَ، بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّا أَنَّ الْأَعْمَالَ هِيَ الْغَايَةُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، فَانْتَظَمَ الْقَوْلُ الرَّابِعُ وَالْخَامِسُ لِثَلَاثَةِ الْأَقْوَالِ لِمَنِ اقْتَدَى فِي الْإِنْصَافِ بِأَهْلِ الْكَمَالِ.**

**ثُمَّ عَلَى الْعَالِمِ الْمُتَشَبِّعِ بِالِاطِّلَاعِ عَلَى مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَتَصَارِيفِهَا أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ مَقَامَاتِ خِطَابِهَا فَإِنَّ مِنْهَا مَقَامَ مَوْعِظَةٍ وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ وَتَبْشِيرٍ وَتَحْذِيرٍ، وَمِنْهَا مَقَامَ تَعْلِيمٍ وَتَحْقِيقٍ، فَيُرَدُّ كُلُّ وَارِدٍ مِنْ نُصُوصِ الشَّرِيعَةِ إِلَى مَوْرِدِهِ اللَّائِقِ وَلَا تَتَجَاذَبُهُ الْمُتَعَارِضَاتُ مُجَاذَبَةَ الْمُمَاذِقِ فَلَا يَحْتَجُّ أَحَدٌ بِمَا وَرَدَ فِي أَثْبَتِ أَوْصَافِ الْمَوْصُوفِ، وَأَثْبَتَ أَحَدَ تِلْكَ الْأَوْصَافِ تَارَةً فِي سِيَاقِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، إِذْ هُوَ مُتَّصِفٌ بِهَا جَمِيعًا، فَإِذَا وُصِفَ تَارَةً بِجَمِيعِهَا لَمْ يَكُنْ وَصْفُهُ تَارَةً أُخْرَى بِوَاحِدٍ مِنْهَا دَالًّا عَلَى مُسَاوَاةِ ذَلِكَ الْوَاحِدِ لِبَقِيَّتِهَا.**

**فَإِذَا عُرِضَتْ لَنَا أَخْبَارٌ شَرْعِيَّةٌ جَمَعَتْ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ فِي سِيَاقِ التَّحْذِيرِ أَوِ التَّحْرِيضِ لَمْ تَكُنْ دَلِيلًا عَلَى كَوْنِ حَقِيقَةِ أَحَدِهِمَا مُرَكَّبَةً وَمُقَوَّمَةً مِنْ مَجْمُوعِهِمَا فَإِنَّمَا يَحْتَجُّ مُحْتَجٌّ بِسِيَاقِ التَّفْرِقَةِ وَالنَّفْيِ أَوْ بِسِيَاقِ التَّعْلِيمِ وَالتَّبْيِينِ، فَلَا يَنْبَغِي لِمُنْتَسِبٍ أَنْ يُجَازِفَ بِقَوْلِهِ: سَخِيفَةٌ نَاشِئَةٌ عَنْ قِلَّةِ تَأَمُّلٍ وَإِحَاطَةٍ بِمَوَارِدِ الشَّرِيعَةِ، وَإِغْضَاءٍ عَنْ غَرَضِهَا وَيُؤَوِّلُ إِلَى تَكْفِيرِ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ وَانْتِقَاضِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَلْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى مَوَارِدِ الشَّرِيعَةِ نَظْرَةً مُحِيطَةً حَتَّى لَا يَكُونَ مِمَّنْ غَابَتْ عَنْهُ أَشْيَاءٌ وَحَضَرُهُ شَيْءٌ، بَلْ يَكُونُ حُكْمُهُ فِي الْمَسْأَلَةِ كَحُكْمِ فَتَاةِ الْحَيِّ.**

**أَمَّا مَسْأَلَةُ الْعَفْوِ عَنِ الْعُصَاةِ فَهِيَ مَسْأَلَةٌ تَتَعَلَّقُ بِغَرَضِنَا وَلَيْسَتْ مِنْهُ، وَالْأَشَاعِرَةُ قَدْ تَوَسَّعُوا فِيهَا وَغَيْرُهُمْ ضَيَّقَهَا وَأَمْرُهَا مَوْكُولٌ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا أَنَّ الَّذِي بَلَغَنَا مِنَ الشَّرْعِ هُوَ اعْتِبَارُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَإِلَّا لَكَانَ الزَّوَاجِرُ كَضَرْبٍ فِي بَارِدِ الْحَدِيدِ.**

**وَإِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ مَنْشَأَ الْخِلَافِ فِيهَا هُوَ النَّظَرُ لِدَلِيلِ الْوُجُوبِ أَوِ الْجَوَازِ عَلِمْتُمْ خُرُوجَ الْخِلَافِ فِيهَا مِنَ الْحَقِيقَةِ إِلَى الْمَجَازِ، وَلَا عَجَبَ أَعْجَبَ مِنْ مُرُورِ الْأَزْمَانِ عَلَى مِثْلِ قَوْلَةِ الْخَوَارِجِ وَالْإِبَاضِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَلَا يَنْبَرِي مِنْ حُذَّاقِ عُلَمَائِهِمْ مَنْ يُهَذِّبُ الْمُرَادَ أَوْ يُؤَوِّلُ قَوْلَ قُدَمَائِهِ ذَلِكَ التَّأْوِيلَ الْمُعْتَادَ، وَكَأَنِّي بِوَمِيضِ فَطِنَةِ نُبَهَائِهِمْ أَخَذَ يَلُوحُ مِنْ خَلَلِ الرَّمَادِ.**

**﴿**[**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu)

**إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[[214]](#footnote-214)**

**جُمْلَةُ يُخَادِعُونَ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ جُمْلَةِ يَقُولُ: ﴿**[**آمَنَّا بِاللَّهِ﴾[[215]](#footnote-215)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu)**وَمَا مَعَهَا، لِأَنَّ قَوْلَهُمْ ذَلِكَ يَشْتَمِلُ عَلَى الْمُخَادَعَةِ.**

**وَالْخِدَاعُ مَصْدَرُ خَادَعَ الدَّالُّ عَلَى مَعْنَى مُفَاعَلَةِ الْخَدْعِ، وَالْخَدْعُ هُوَ فِعْلٌ أَوْ قَوْلٌ مَعَهُ مَا يُوهِمُ أَنَّ فَاعِلَهُ يُرِيدُ بِمَدْلُولِهِ نَفْعَ غَيْرِهِ، وَهُوَ إِنَّمَا يُرِيدُ خِلَافَ ذَلِكَ وَيَتَكَلَّفُ تَرْوِيجَهُ عَلَى غَيْرِهِ لِيُغَيِّرَهُ عَنْ حَالَةٍ هُوَ فِيهَا أَوْ يَصْرِفَهُ عَنْ أَمْرٍ يُوشِكُ أَنْ يَفْعَلَهُ، تَقُولُ الْعَرَبُ: خَدَعَ الضَّبُّ، إِذَا أَوْهَمَ حَارِشَهُ أَنَّهُ يُحَاوِلُ الْخُرُوجَ مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي أَدْخَلَ فِيهَا الْحَارِشُ يَدَهُ، حَتَّى لَا يَرْقُبَهُ الْحَارِشُ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ آخِذُهُ لَا مَحَالَةَ ثُمَّ يَخْرُجُ الضَّبُّ مِنَ النَّافِقَاءِ.**

**وَالْخِدَاعُ فِعْلٌ مَذْمُومٌ إِلَّا فِي الْحَرْبِ، وَالِانْخِدَاعُ تَمْشِي حِيلَةُ الْمُخَادِعِ عَلَى الْمَخْدُوع،ِ وَهُوَ مَذْمُومٌ أَيْضًا، لِأَنَّهُ مِنَ الْبَلَهِ.**

**وَأَمَّا إِظْهَارُ الِانْخِدَاعِ، مَعَ التَّفَطُّنِ لِلْحِيلَةِ، إِذَا كَانَتْ غَيْرَ مُضِرَّةٍ، فَذَلِكَ مِنَ الْكَرَمِ وَالْحِلْمِ.**

**قَالَ**[**الْفَرَزْدَقُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14899)**:**

**اسْتَمْطَرُوا مِنْ قُرَيْشٍ كُلَّ مُنْخَدِعٍ إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا خَادَعْتَهُ انْخَدَعَا**

**وَفِي الْحَدِيثِ: "**[**الْمُؤْمِنُ غِرٌّ** **كَرِيمٌ"،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu)**أَيْ مِنْ صِفَاتِهِ الصَّفْحُ وَالتَّغَاضِي، حَتَّى يُظَنَّ أَنَّهُ غِرٌّ وَلِذَلِكَ عَقَّبَهُ بِكَرِيمٍ لِدَفْعِ الْغَرِيَّةِ الْمُؤْذِنَةِ بِالْبَلَهِ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ الْفِطْنَ،ةَ لِأَنَّ أُصُولَ اعْتِقَادِهِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى نَبْذِ كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ تَضْلِيلُ الرَّأْيِ وَطَمْسُ الْبَصِيرَةِ.**

**أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ:**[**وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu)**مَعَ قَوْلِهِ:**[**لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu)**وَكُلُّهَا تُنَادِي عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَلِيقُ بِهِ الْبَلَهُ. وَأَمَّا مَعْنَى**[**الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu)**فَهُوَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَمَّا زَكَتْ نَفْسُهُ عَنْ ضَمَائِرِ الشَّرِّ وَخُطُورِهَا بِبَالِهِ وَحَمْلِ أَحْوَالِ النَّاسِ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ فَعَرَضَتْ لَهُ حَالَةُ اسْتِئْمَانٍ تُشْبِهُ الْغِرِّيَّةَ.**

**قَالَ**[**ذُو الرُّمَّةِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15871)**:**

**تِلْكَ الْفَتَاةُ الَّتِي عَلِقْتُهَا عَرْضًا إِنَّ الْحَلِيمَ وَذَا الْإِسْلَامِ يَخْتَلِبُ**

**فَاعْتَذَرَ عَنْ سُرْعَةِ تَعَلُّقِهِ بِهَا وَاخْتِلَابِهَا عَقْلِهِ بِكَرَمِ عَقْلِهِ وَصِحَّةِ إِسْلَامِهِ، فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ جَوْدَةِ الرَّأْيِ وَرِقَّةِ الْقَلْبِ فَلَا عَجَبَ أَنْ يَكُونَ سَرِيعَ التَّأَثُّرِ مِنْهَا.**

**وَمَعْنَى صُدُورِ الْخِدَاعِ مِنْ جَانِبِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرٌ، وَأَمَّا مُخَادَعَتُهُمُ اللَّهَ تَعَالَى الْمُقْتَضِيَةُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ قَصَدُوا التَّمْوِيهَ عَلَى اللَّهِ –تَعَالَى- مَعَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَقْصِدُهُ عَاقِلٌ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى الضَّمَائِرِ وَالْمُقْتَضِيَةُ أَنَّ اللَّهَ يُعَامِلُهُمْ بِخِدَاعٍ.**

**وَكَذَلِكَ صُدُورُ الْخِدَاعِ مِنْ جَانِبِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُنَافِقِينَ، كَمَا هُوَ مُقْتَضَى صِيغَةِ الْمُفَاعَلَةِ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَذْمُومِ الْفِعْلِ لَا يَلِيقُ بِالْمُؤْمِنِينَ فِعْلُهُ، فَلَا يَسْتَقِيمُ إِسْنَادُهُ إِلَى اللَّهِ وَلَا قَصْدُ الْمُنَافِقِينَ تَعَلُّقِهِ بِمُعَامَلَتِهِمْ لِلَّهِ كُلُّ ذَلِكَ يُوجِبُ تَأْوِيلًا فِي مَعْنَى الْمُفَاعَلَةِ الدَّالُّ عَلَيْهِ صِيغَةُ يُخَادِعُونَ أَوْ فِي فَاعِلِهِ الْمُقَدَّرِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَهُوَ الْمَفْعُولُ الْمُصَرَّحُ بِهِ.**

**فَأَمَّا التَّأْوِيلُ فِي يُخَادِعُونَ فَعَلَى وُجُوهٍ: أَحَدُهَا أَنَّ مَفْعُولَ خَادَعَ لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مَقْصُودًا لِلْمُخَادِعِ بِالْكَسْرِ إِذْ قَدْ يَقْصِدُ خِدَاعَ أَحَدٍ فَيُصَادِفُ غَيْرَهُ كَمَا يُخَادِعُ أَحَدٌ وَكِيلَ أَحَدٍ فِي مَالٍ، فَيُقَالُ لَهُ: أَنْتَ تُخَادِعُ فُلَانًا وَفُلَانًا تَعْنِي الْوَكِيلَ وَمُوَكِّلَهُ، فَهُمْ قَصَدُوا خِدَاعَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ أَنْ يَكُونَ الْإِسْلَامُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَلَمَّا كَانَتْ مُخَادَعَتُهُمُ الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِ الدِّينِ كَانَ خِدَاعُهُمْ رَاجِعًا لِشَارِعِ ذَلِكَ الدِّينِ، وَأَمَّا تَأْوِيلُ مَعْنَى خِدَاعِ اللَّهِ –تَعَالَى- وَالْمُؤْمِنِينَ إِيَّاهُمْ فَهُوَ إِغْضَاءُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ بِوَادِرِهِمْ وَفَلَتَاتِ أَلْسُنِهِمْ وَكَبَوَاتِ أَفْعَالِهِمْ وَهَفَوَاتِهِمُ الدَّالُّ جَمِيعُهَا عَلَى نِفَاقِهِمْ، حَتَّى لَمْ يَزَالُوا يُعَامِلُونَهُمْ مُعَامَلَةَ الْمُؤْمِنِينَ.**

**فَإِنَّ ذَلِكَ لَمَّا كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِإِذْنِ الرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، حَتَّى لَقَدْ نَهَى مَنِ اسْتَأْذَنَهُ فِي أَنْ يَقْتُلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ، كَانَ ذَلِكَ الصَّنِيعُ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَكَانَ مَرْجِعُهُ إِلَى اللَّهِ، وَنَظِيرُهُ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿**[**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[[216]](#footnote-216)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu)**فِي سُورَةِ النِّسَاءِ، كَمَا رَجَعَ إِلَيْهِ خِدَاعُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا تَأْوِيلٌ فِي الْمُخَادَعَةِ مِنْ جَانِبَيْهَا، كُلٌّ بِمَا يُلَائِمُهُ.**

**- الثَّانِي: مَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* أَنَّ "يُخَادِعُونَ" اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ تَشْبِيهًا لِلْهَيْئَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ مُعَامَلَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِدِينِ اللَّهِ، وَمِنْ مُعَامَلَةِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ فِي الْإِمْلَاءِ لَهُمْ وَالْإِبْقَاءِ عَلَيْهِمْ، وَمُعَامَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ إِيَّاهُمْ فِي إِجْرَاءِ أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ، بِهَيْئَةِ فِعْلِ الْمُتَخَادِعِينَ.**

**- الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ خَادَعَ بِمَعْنَى خَدَعَ أَيْ غَيْرُ مَقْصُودٍ بِهِ حُصُولُ الْفِعْلِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ بَلْ قَصْدُ الْمُبَالَغَةِ.**

**قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ عَنِ الْخَلِيلِ: يُقَالُ خَادَعَ مِنْ وَاحِدٍ، لِأَنَّ فِي الْمُخَادَعَةِ مُهْلَةً كَمَا يُقَالُ عَالَجْتُ الْمَرِيضَ لِمَكَانِ الْمُهْلَةِ، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ كَأَنَّهُ يَرُدُّ فَاعَلَ إِلَى اثْنَيْنِ وَلَا بُدَّ مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِيهِ مُهْلَةً وَمُدَافَعَةً وَمُمَاطَلَةً فَكَأَنَّهُ يُقَاوِمُ فِي الْمَعْنَى الَّذِي يَجِيءُ فِيهِ فَاعَلَ اهـ.**

**وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَى جَعْلِ صِيغَةِ الْمُفَاعَلَةِ مُسْتَعَارَةً لِمَعْنَى الْمُبَالَغَةِ بِتَشْبِيهِ الْفِعْلِ الْقَوِيِّ بِالْفِعْلِ الْحَاصِلِ مِنْ فَاعِلَيْنِ عَلَى وَجْهِ التَّبَعِيَّةِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا التَّأْوِيلُ قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ وَمَنْ مَعَهُ: يَخْدَعُونَ اللَّهَ. وَهَذَا إِنَّمَا يَدْفَعُ الْإِشْكَالَ عَنْ إِسْنَادِ صُدُورِ الْخِدَاعِ مِنَ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَ تَنْزِيهِ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ، وَلَا يَدْفَعُ إِشْكَالَ صُدُورِ الْخِدَاعِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لِلَّهِ.**

**وَأَمَّا التَّأْوِيلُ فِي فَاعِلِ يُخَادِعُونَ الْمُقَدَّرِ، وَهُوَ الْمَفْعُولُ أَيْضًا فَبِأَنْ يُجْعَلَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يُخَادِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ، فَالْإِسْنَادُ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى- إِمَّا عَلَى طَرِيقَةِ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ لِأَجْلِ الْمُلَابَسَةِ بَيْنَ الرَّسُولِ وَمُرْسِلِهِ، وَإِمَّا مَجَازٌ بِالْحَذْفِ لِلْمُضَافِ، فَلَا يَكُونُ مُرَادُهُمْ خِدَاعَ اللَّهِ حَقِيقَةً، وَيَبْقَى أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ مَخْدُوعًا مِنْهُمْ وَمُخَادِعًا لَهُمْ.**

**وَأَمَّا تَجْوِيزُ مُخَادَعَةِ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ لِلْمُنَافِقِينَ، لِأَنَّهَا جَزَاءٌ لَهُمْ عَلَى خِدَاعِهِمْ، فَذَلِكَ غَيْرُ لَائِقٍ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَمَا يُخَادِعُونَ﴾[[217]](#footnote-217)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu)**قَرَأَهُ نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَخَلَفٌ يُخَادِعُونَ بِأَلِفٍ بَعْدَ الْخَاءِ وَقَرَأَهُ ابْنُ عَامِرٍ وَعَاصِمٌ وَحَمْزَةُ**[**وَالْكِسَائِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15080)**وَأَبُو جَعْفَرٍ وَيَعْقُوبُ (يَخْدَعُونَ) بِفَتْحِ التَّحْتِيَّةِ وَسُكُونِ الْخَاءِ. وَجُمْلَةُ وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي يُخَادِعُونَ الْأَوَّلَ أَيْ يُخَادِعُونَ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ لَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، أَيْ خِدَاعُهُمْ مَقْصُورٌ عَنْ ذَوَاتِهِمْ لَا يَرْجِعُ شَيْءٌ مِنْهُ إِلَى اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا. فَيَتَعَيَّنُ أَنَّ الْخِدَاعَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ﴾[[218]](#footnote-218) عَيْنُ الْخِدَاعِ الْمُتَقَدِّمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾[[219]](#footnote-219)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu)**فَيَرِدُ إِشْكَالُ صِحَّةِ قَصْرِ الْخِدَاعِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَعَ إِثْبَاتِ مُخَادَعَتِهِمُ اللَّهَ –تَعَالَى- وَالْمُؤْمِنِينَ.**

**وَقَدْ أَجَابَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* بِمَا حَاصِلُهُ أَنَّ الْمُخَادَعَةَ الثَّانِيَةَ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي لَازِمِ مَعْنَى الْمُخَادَعَةِ الْأُولَى، وَهُوَ الضُّرُّ، فَإِنَّهَا قَدِ اسْتُعْمِلَتْ أَوَّلًا فِي مُطْلَقِ الْمُعَامَلَةِ الشَّبِيهَةِ بِالْخِدَاعِ، وَهِيَ مُعَامَلَةُ الْمَاكِرِ الْمُسْتَخِفِّ، فَأُطْلِقَ عَلَيْهَا لَفْظُ الْمُخَادَعَةِ اسْتِعَارَةً. ثُمَّ أُطْلِقَتْ ثَانِيًا وَأُرِيدَ مِنْهَا لَازِمُ مَعْنَى الِاسْتِعَارَةِ وَهُوَ الضُّرُّ، لِأَنَّ الَّذِي يُعَامَلُ بِالْمَكْرِ وَالِاسْتِخْفَافِ يَتَصَدَّى لِلِانْتِقَامِ مِنْ مُعَامِلِهِ، فَقَدْ يَجِدُ قُدْرَةً مِنْ نَفْسِهِ أَوْ غِرَّةً مِنْ صَاحِبِهِ فَيَضُرُّهُ ضُرًّا، فَصَارَ حُصُولُ الضُّرِّ لِلْمُعَامَلِ أَمْرًا عُرْفِيًّا لَازِمًا لِمُعَامِلِهِ.**

**وَبِذَلِكَ صَحَّ اسْتِعْمَالُ يُخَادِعُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَجَازًا أَوْ كِنَايَةً، وَهُوَ مِنْ بِنَاءِ الْمَجَازِ عَلَى الْمَجَازِ، لِأَنَّ الْمُخَادَعَةَ أُطْلِقَتْ أَوَّلًا اسْتِعَارَةً، ثُمَّ نُزِّلَتْ مَنْزِلَةَ الْحَقِيقَةِ، فَاسْتُعْمِلَتْ مَجَازًا فِي لَازِمِ الْمَعْنَى الْمُسْتَعَارِ لَهُ، فَالْمَعْنَى وَمَا يَضُرُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ.**

**فَيَجْرِي فِيهِ الْوُجُوهُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِإِطْلَاقِ مَادَّةِ الْخِدَاعِ عَلَى فِعْلِهِمْ، وَيَجِيءُ تَأْوِيلُ مَعْنَى جَعْلِ أَنْفُسِهِمْ شِقًّا ثَانِيًا لِلْمُخَادَعَةِ مَعَ أَنَّ الْأَنْفُسَ هِيَ عَيْنُهُمْ، فَيَكُونُ الْخِدَاعُ اسْتِعَارَةً لِلْمُعَامَلَةِ الشَّبِيهَةِ بِفِعْلِ الْجَانِبَيْنِ الْمُتَخَادِعَيْنِ بِنَاءً عَلَى مَا شَاعَ فِي وِجْدَانِ النَّاسِ مِنَ الْإِحْسَاسِ بِأَنَّ الْخَوَاطِرَ الَّتِي تَدْعُو إِلَى ارْتِكَابِ مَا تَسُوءُ عَوَاقِبُهُ أَنَّهَا فِعْلُ نَفْسٍ هِيَ مُغَايِرَةٌ لِلْعَقْلِ، وَهِيَ الَّتِي تُسَوِّلُ لِلْإِنْسَانِ الْخَيْرَ مَرَّةً وَالشَّرَّ أُخْرَى، وَهُوَ تَخَيُّلٌ بُنِيَ عَلَى خَطَابَةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ لِإِحْدَاثِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ خَوَاطِرِهِ الشِّرِّيرَةِ بِجَعْلِهَا وَارِدَةً عَلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ غَيْرِ ذَاتِهِ بَلْ مِنَ النَّفْسِ حَتَّى يَتَأَهَّبَ لِمُقَارَعَتِهَا وَعِصْيَانِ أَمْرِهَا وَلَوِ انْتَسَبَتْ إِلَيْهِ لَمَا رَأَى مِنْ سَبِيلٍ إِلَى مُدَافَعَتِهَا.**

**قَالَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِ يكَرِبَ:**

**فَجَاشَتْ عَلَيَّ النَّفْسُ أَوَّلَ مَــــــــــــــرَّةٍ**

**فَرُدَّتْ عَلَى مَكْرُوهِهَا فَاسْتَقَـــــــــرَّتِ**

**وَذَكَرَ ابْنُ عَطِيَّةَ أَنَّ أَبَا عَلِيٍّ الْفَارِسِيَّ أَنْشَدَ لِبَعْضِ الْأَعْرَابِ:**

**لَمْ تَدْرِ مَا (لَا) وَلَسْتَ قَائِلَهَا  عُمْرَكَ مَا عِشْتَ آخِرَ الْأَبَـــــــــدِ**

**وَلَمْ تُؤَامِرْ نَفْسَيْكَ مُمْتَرِيًـــــــــــــا  فِيهَا وَفِي أُخْتِهَا وَلَمْ تَكَــــــــــــــــــدِ**

**يُرِيدُ بِأُخْتِهَا كَلِمَةَ (نَعَمْ)، وَهِيَ أُخْتُ لَا وَالْمُرَادُ أَنَّهَا أُخْتٌ فِي اللِّسَانِ.**

**وَقُلْتُ: وَمِنْهُ قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أُذَيْنَةَ:**

**وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوِسَ سَلْـــــــــــــــــوَةً  شَفَعَ الْفُؤَادُ إِلَى الضَّمِيرِ فَسَلَّهَا**

**فَكَأَنَّهُمْ لَمَّا عَصَوْا نُفُوسَهُمُ الَّتِي تَدْعُوهُمْ لِلْإِيمَانِ عِنْدَ سَمَاعِ الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ، إِذْ لَا تَخْلُو النَّفْسُ مِنْ أَوْبَةٍ إِلَى الْحَقِّ جَعَلَ مُعَامَلَتَهُمْ لَهَا فِي الْإِعْرَاضِ عَنْ نُصْحِهَا وَإِعْرَاضِهَا عَنْهُمْ فِي قِلَّةِ تَجْدِيدِ النُّصْحِ لَهُمْ وَتَرْكِهِمْ فِي غَيِّهِمْ كَالْمُخَادَعَةِ مِنْ هَذَيْنِ الْجَانِبَيْنِ.**

**وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿**[**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu)**﴾[[220]](#footnote-220) أَجْمَعَتِ الْقِرَاءَاتُ الْعَشْرُ عَلَى قِرَاءَتِهِ بِضَمِّ التَّحْتِيَّةِ وَفَتْحِ الْخَاءِ بَعْدَهَا أَلِفٌ، وَالنَّفْسُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ الذَّاتُ وَالْقُوَّةُ الْبَاطِنِيَّةُ الْمُعَبَّرُ عَنْهَا بِالرُّوحِ وَخَاطِرِ الْعَقْلِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[[221]](#footnote-221)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu)**عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿**[**وَمَا يُخَادِعُونَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu)**﴾[[222]](#footnote-222)، وَالشُّعُورُ يُطْلَقُ عَلَى الْعِلْمِ بِالْأَشْيَاءِ الْخَفِيَّةِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الشَّاعِرُ شَاعِرًا لِعِلْمِهِ بِالْمَعَانِي الَّتِي لَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا كُلُّ أَحَدٍ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْوَزْنِ وَالتَّقْفِيَةِ بِسُهُولَةٍ، وَلَا يُحْسِنُ لِذَلِكَ كُلُّ أَحَدٍ.**

**وَقَوْلُهُمْ -لَيْتَ شِعْرِي!- فِي التَّحَيُّرِ فِي عِلْمِ أَمْرٍ خَفِيٍّ، وَلَوْلَا الْخَفَاءُ لَمَا تَمَنَّى عِلْمَهُ، بَلْ لَعَلِمَهُ بِلَا تَمَنٍّ، فَقَوْلُهُمْ: هُوَ لَا يُشْعِرُ وَصْفٌ بِعَدَمِ الْفِطْنَةِ لَا بِعَدَمِ الْإِحْسَاسِ، وَهُوَ أَبْلَغُ فِي الذَّمِّ، لِأَنَّ الذَّمَّ بِالْوَصْفِ الْمُمْكِنِ الْحُصُولِ أَنْكَى مِنَ الذَّمِّ بِمَا يَتَحَقَّقُ عَدَمُه،ُ فَإِنَّ أَجْسَامَهُمْ أَمْرٌ مَعْلُومٌ لَهُمْ وَلِلنَّاسِ، فَلَا يَغِيضُهُمْ أَنْ يُوصَفُوا بِعَدَمِهِ، وَإِنَّمَا يَغِيضُهُمْ أَنْ يُوصَفُوا بِالْبَلَادَةِ.**

**عَلَى أَنَّ خَفَاءَ مُخَادَعَتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ مِمَّا لَا يُمْتَرَى فِيهِ. وَاخْتِيرَ مِثْلُهُ فِي نَظِيرِهِ فِي الْخَفَاءِ وَهُوَ: ﴿**[**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[[223]](#footnote-223)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu)**لِأَنَّ كِلَيْهِمَا أُثْبِتَ فِيهِ مَا هُوَ الْمَآلُ وَالْغَايَةُ وَهِيَ مِمَّا يَخْفَى وَاخْتِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[[224]](#footnote-224)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu)**نَفْيُ الْعِلْمِ دُونَ نَفْيِ الشُّعُورِ لِأَنَّ السَّفَهَ قَدْ يَبْدُو لِصَاحِبِهِ بِأَقَلِّ الْتِفَاتَةٍ إِلَى أَحْوَالِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ، لِأَنَّ السَّفَهَ أَقْرَبُ لِادِّعَاءِ الظُّهُورِ مِنْ مُخَادَعَةِ النَّفْسِ عِنْدَ إِرَادَةِ مُخَادَعَةِ الْغَيْرِ وَمِنْ حُصُولِ الْإِفْسَادِ عِنْدَ إِرَادَةِ الْإِصْلَاحِ وَعَلَى الْإِطْلَاقِ الثَّانِي دَرَجَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* قَالَ: فَهُمْ لِتَمَادِي غَفْلَتِهِمْ كَالَّذِي لَا حِسَّ لَهُ.**

**﴿**[**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[[225]](#footnote-225)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=44#docu)

**اسْتِئْنَافٌ مَحْضٌ لِعَدِّ مَسَاوِيهِمْ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَيَانِيًّا لِجَوَابِ سُؤَالِ مُتَعَجِّبٍ نَاشِئٍ عَنْ سَمَاعِ الْأَحْوَالِ الَّتِي وُصِفُوا بِهَا قَبْلُ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[[226]](#footnote-226)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=44#docu)**فَإِنَّ مَنْ يَسْمَعُ أَنَّ طَائِفَةً تُخَادِعُ اللَّهَ –تَعَالَى- وَتُخَادِعُ قَوْمًا عَدِيدِينَ وَتَطْمَعُ أَنَّ خِدَاعَهَا يَتَمَشَّى عَلَيْهِمْ، ثُمَّ لَا تَشْعُرُ بِأَنَّ ضَرَرَ الْخِدَاعِ لَاحِقٌ بِهَا لَطَائِفَةٌ جَدِيرَةٌ بِأَنْ يَتَعَجَّبَ مِنْ أَمْرِهَا الْمُتَعَجِّبُ، وَيَتَسَاءَلَ كَيْفَ خَطَرَ هَذَا بِخَوَاطِرِهَا، فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿**[**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾[[227]](#footnote-227)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=44#docu)**بَيَانًا، وَهُوَ أَنَّ فِي قُلُوبِهِمْ خَلَلًا تَزَايَدَ إِلَى أَنْ بَلَغَ حَدَّ الْأَفَنِ.**

**وَلِهَذَا قَدَّمَ الظَّرْفَ وَهُوَ فِي قُلُوبِهِمْ لِلِاهْتِمَامِ، لِأَنَّ الْقُلُوبَ هِيَ مَحَلُّ الْفِكْرَةِ فِي الْخِدَاعِ فَلَمَّا كَانَ الْمَسْئُولُ عَنْهُ هُوَ مُتَعَلِّقُهَا وَأَثَرُهَا كَانَ هُوَ الْمُهْتَمَّ بِهِ فِي الْجَوَابِ. وَتَنْوِينُ مَرَضٍ لِلتَّعْظِيمِ.**

**وَأَطْلَقَ الْقُلُوبَ هُنَا عَلَى مَحَلِّ التَّفْكِيرِ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[[228]](#footnote-228).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=44#docu)

**وَالْمَرَضُ حَقِيقَةٌ فِي عَارِضٍ لِلْمَزَاجِ يُخْرِجُهُ عَنِ الِاعْتِدَالِ الْخَاصِّ بِنَوْعِ ذَلِكَ الْجِسْمِ خُرُوجًا غَيْرَ تَامٍّ وَبِمِقْدَارِ الْخُرُوجِ يَشْتَدُّ الْأَلَمُ فَإِنْ تَمَّ الْخُرُوجُ، فَهُوَ الْمَوْتُ. وَهُوَ مَجَازٌ فِي الْأَعْرَاضِ النَّفْسَانِيَّةِ الْعَارِضَةِ لِلْأَخْلَاقِ الْبَشَرِيَّةِ عُرُوضًا يُخْرِجُهَا عَنْ كَمَالِهَا، وَإِطْلَاقُ الْمَرَضِ عَلَى هَذَا شَائِعٌ مَشْهُورٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَتَدْبِيرُ الْمِزَاجِ لِإِزَالَةِ هَذَا الْعَارِضِ وَالرُّجُوعِ بِهِ إِلَى اعْتِدَالِهِ هُوَ الطِّبُّ الْحَقِيقِيُّ وَمَجَازِيٌّ، كَذَلِكَ قَالَ عَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدَةَ الْمُلَقَّبُ بِالْفَحْلِ:**

**فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ**

**فَذَكَرَ الْأَدْوَاءَ وَالطِّبَّ لِفَسَادِ الْأَخْلَاقِ وَإِصْلَاحِهَا.**

**وَالْمُرَادُ بِالْمَرَضِ فِي هَاتِهِ الْآيَةِ هُوَ مَعْنَاهُ الْمَجَازِيُّ لَا مَحَالَةَ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي اتَّصَفَ بِهِ الْمُنَافِقُونَ وَهُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ مَذَمَّتِهِمْ وَبَيَانِ مَنْشَأِ مُسَاوِي أَعْمَالِهِمْ.**

**وَمَعْنَى: ﴿**[**فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[[229]](#footnote-229)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=44#docu)**أَنَّ تِلْكَ الْأَخْلَاقَ الذَّمِيمِيَّةَ النَّاشِئَةَ عَنِ النِّفَاقِ وَالْمُلَازَمَةِ لَهُ كَانَتْ تَتَزَايَدُ فِيهِمْ بِتَزَايُدِ الْأَيَّامِ، لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْأَخْلَاقِ إِذَا تَمَكَّنَتْ أَنْ تَتَزَايَدَ بِتَزَايُدِ الْأَيَّامِ حَتَّى تَصِيرَ مَلِكَاتٍ كَمَا قَالَ الْمَعْلُوطُ الْقُرَيْعِيُّ:**

**وَرَجِّ الْفَتَى لِلْخَيْرِ مَا إِنْ رَأَيْتَهُ     عَلَى السِّنِّ خَيْرًا لَا يَزَالُ يَزِيـــدُ**

**وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الشَّرِّ وَلِذَلِكَ قِيلَ: مَنْ لَمْ يَتَحَلَّمْ فِي الصِّغَرِ لَا يَتَحَلَّمْ فِي الْكِبَرِ.**

**وَقَالَ النَّابِغَةُ يَهْجُو عَامِرَ بْنَ الطُّفَيْلِ:**

**فَإِنَّكَ سَوْفَ تَحْلُمُ أَوْ تَنَاهَـــى     إِذَا مَا شِبْتَ أَوْ شَابَ الْغُرَابُ**

**وَإِنَّمَا كَانَ النِّفَاقُ مُوجِبًا لِازْدِيَادِ مَا يُقَارِنُهُ مِنْ سَيِّءِ الْأَخْلَاقِ لِأَنَّ النِّفَاقَ يَسْتُرُ الْأَخْلَاقَ الذَّمِيمَةَ فَتَكُونُ مَحْجُوبَةً عَنِ النَّاصِحِينَ وَالْمُرَبِّينَ وَالْمُرْشِدِينَ، وَبِذَلِكَ تَتَأَصَّلُ وَتَتَوَالَدُ إِلَى غَيْرِ حَدٍّ فَالنِّفَاقُ فِي كَتْمِهِ مَسَاوِئَ الْأَخْلَاقِ بِمَنْزِلَةِ كَتْمِ الْمَرِيضِ دَاءَهُ عَنِ الطَّبِيبِ، وَإِلَيْكَ بَيَانُ مَا يَنْشَأُ عَنِ النِّفَاقِ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْأَخْلَاقِيَّةِ فِي الْجَدْوَلِ الْمَذْكُورِ هُنَا وَأَشَرْنَا إِلَى مَا يُشِيرُ إِلَى كُلِّ خُلُقٍ مِنْهَا فِي الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ هُنَا أَوْ فِي آيَاتٍ أُخْرَى فِي هَذَا الْجَدْوَلِ.**

**اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ طِبَاعٌ تَنْشَأُ عَنِ النِّفَاقِ أَوْ تُقَارِنُهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَلَا سِيَّمَا النِّفَاقُ فِي الدِّينِ، فَقَدْ نَبَّهَنَا اللَّهُ –تَعَالَى- لِمَذَامِّ ذَلِكَ تَعْلِيمًا وَتَرْبِيَةً.**

**فَإِنَّ النِّفَاقَ يَعْتَمِدُ عَلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ، وَهِيَ: الْكَذِبُ الْقَوْلِيُّ، وَالْكَذِبُ الْفِعْلِيُّ، وَهُوَ الْخِدَاعُ، وَيُقَارِنُ ذَلِكَ الْخَوْفَ، لِأَنَّ الْكَذِبَ وَالْخِدَاعَ إِنَّمَا يَصْدُرَانِ مِمَّنْ يَتَوَقَّى إِظْهَارَ حَقِيقَةِ أَمْرِهِ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِخَوْفٍ ضُرٍّ أَوْ لِخَوْفِ إِخْفَاقِ سَعْيٍ وَكِلَاهُمَا مُؤْذِنٌ بِقِلَّةِ الشَّجَاعَةِ وَالثَّبَاتِ وَالثِّقَةِ بِالنَّفْسِ وَبِحُسْنِ السُّلُوكِ، ثُمَّ إِنَّ كُلَّ خَصْلَةٍ مِنْ هَاتِهِ الْخِصَالِ الثَّلَاثِ الذَّمِيمَةِ تُوَكِّدُ هَنَوَاتٍ أُخْرَى.**

**فَالْكَذِبُ يَنْشَأُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْبَلَهِ، لِأَنَّ الْكَاذِبَ يَعْتَقِدُ أَنَّ كَذِبَهُ يَتَمَشَّى عِنْدَ النَّاسِ وَهَذَا مِنْ قِلَّةِ الذَّكَاءِ، لِأَنَّ النَّبِيهَ يَعْلَمُ أَنَّ فِي النَّاسِ مِثْلَهُ وَخَيْرًا مِنْهُ، ثُمَّ الْبَلَهُ يُؤَدِّي إِلَى الْجَهْلِ بِالْحَقَائِقِ وَبِمَرَاتِبِ الْعُقُولِ، وَلِأَنَّ الْكَذِبَ يُعَوِّدُ فِكْرَ صَاحِبِهِ بِالْحَقَائِقِ الْمُحَرَّفَةِ وَتَشْتَبِهُ عَلَيْهِ مَعَ طُولِ الِاسْتِرْسَالِ فِي ذَلِكَ حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا اعْتَقَدَ مَا اخْتَلَقَهُ وَاقِعًا، وَيَنْشَأُ عَنِ الْأَمْرَيْنِ السَّفَهُ، وَهُوَ خَلَلٌ فِي الرَّأْيِ وَأَفَنٌ فِي الْعَقْلِ، وَقَدْ أَصْبَحَ عُلَمَاءُ الْأَخْلَاقِ وَالطِّبِّ يَعُدُّونَ الْكَذِبَ مِنْ أَمْرَاضِ الدِّمَاغِ.**

**وَأَمَّا نَشْأَةُ الْعُجْبِ وَالْغُرُورِ وَالْكُفْرِ وَفَسَادِ الرَّأْيِ عَنِ الْغَبَاوَةِ وَالْجَهْلِ وَالسَّفَهِ فَظَاهِرَةٌ، وَكَذَلِكَ نَشْأَةُ الْعُزْلَةِ وَالْجُبْنِ وَالتَّسَتُّرِ عَنِ الْخَوْفِ، وَأَمَّا نَشْأَةُ عَدَاوَةِ النَّاسِ عَنِ الْخِدَاعِ فَلِأَنَّ عَدَاوَةَ الْأَضْدَادِ تَبْدَأُ مِنْ شُعُورِهِمْ بِخِدَاعِهِ، وَتَعْقُبُهَا عَدَاوَةُ الْأَصْحَابِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا تَفَنُّنَ ذَلِكَ الصَّاحِبِ فِي النِّفَاقِ وَالْخِدَاعِ دَاخَلَهُمُ الشَّكُّ أَنْ يَكُونَ إِخْلَاصُهُ الَّذِي يُظْهِرُهُ لَهُمْ هُوَ مِنَ الْمُخَادَعَةِ فَإِذَا حَصَلَتْ عَدَاوَةُ الْفَرِيقَيْنِ تَصَدَّى النَّاسُ كُلُّهُمْ لِلتَّوَقِّي مِنْهُ وَالنِّكَايَةِ بِهِ، وَتَصَدَّى هُوَ لِلْمَكْرِ بِهِمْ وَالْفَسَادِ لِيَصِلَ إِلَى مَرَامِهِ، فَرَمَتْهُ النَّاسُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ وَاجْتَنَى مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَصِيرَ هُزْأَةً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.**

**وَقَدْ رَأَيْتُمْ أَنَّ النَّاشِئَ عَنْ مَرَضِ النِّفَاقِ وَالزَّائِدَ فِيهِ هُوَ زِيَادَةُ ذَلِكَ النَّاشِئِ أَيْ تَأَصُّلُهُ وَتَمَكُّنُهُ وَتَوَلُّدُ مَذَمَّاتٍ أُخْرَى عَنْهُ، وَلَعَلَّ تَنْكِيرَ مَرَضٍ فِي الْمَوْضِعَيْنِ أَشْعَرَ بِهَذَا فَإِنَّ تَنْكِيرَ الْأَوَّلِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى تَنْوِيعٍ أَوْ تَكْثِيرٍ، وَتَنْكِيرَ الثَّانِي لِيُشِيرَ إِلَى أَنَّ الْمَزِيدَ مَرَضٌ آخَرُ عَلَى قَاعِدَةِ إِعَادَةِ النَّكِرَةِ نَكِرَةً.**

**وَإِنَّمَا أُسْنِدَتْ زِيَادَةُ مَرَضِ قُلُوبِهِمْ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى- مَعَ أَنَّ زِيَادَةَ هَاتِهِ الْأَمْرَاضِ الْقَلْبِيَّةِ مِنْ ذَاتِهَا، لِأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى- لَمَّا خَلَقَ هَذَا التَّوَلُّدَ وَأَسْبَابَهُ وَكَانَ أَمْرًا خَفِيًّا نَبَّهَ النَّاسَ عَلَى خَطَرِ الِاسْتِرْسَالِ فِي النَّوَايَا الْخَبِيثَةِ وَالْأَعْمَالِ الْمُنْكَرَةِ، وَأَنَّهُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَزِيدَ تِلْكَ النَّوَايَا تَمَكُّنًا مِنَ الْقَلْبِ، فَيَعْسُرُ أَوْ يَتَعَذَّرُ الْإِقْلَاعُ عَنْهَا بَعْدَ تَمَكُّنِهَا، وَأُسْنِدَتْ تِلْكَ الزِّيَادَةُ إِلَى اسْمِهِ –تَعَالَى-، لِأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى- غَضِبَ عَلَيْهِمْ، فَأَهْمَلَهُمْ وَشَأْنَهُمْ وَلَمْ يَتَدَارَكْهُمْ بِلُطْفِهِ الَّذِي يُوقِظُهُمْ مِنْ غَفَلَاتِهِمْ لِيُنَبِّهَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى خَطَرِ أَمْرِهَا، وَأَنَّهَا مِمَّا يَعْسُرُ إِقْلَاعُ أَصْحَابِهَا عَنْهَا، لِيَكُونَ حَذَرُهُمْ مِنْ مُعَامَلَتِهِمْ أَشَدَّ مَا يُمْكِنُ.**

**فَجُمْلَةُ: ﴿**[**فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[[230]](#footnote-230)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=44#docu)**خَبَرِيَّةٌ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾[[231]](#footnote-231)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=44#docu)**وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ الِاسْتِئْنَافِ لِلْبَيَانِ، دَاخِلَةٌ فِي دَفْعِ التَّعَجُّبِ، أَيْ أَنَّ سَبَبَ تَوَغُّلِهِمْ فِي الْفَسَادِ وَمُحَاوَلَتِهِمْ مَا لَا يُنَالُ لِأَنَّ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضًا، وَلِأَنَّهُ مَرَضٌ يَتَزَايَدُ مَعَ الْأَيَّامِ تَزَايُدًا مَجْعُولًا مِنَ اللَّهِ فَلَا طَمَعَ فِي زَوَالِهِ.**

**وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: هِيَ دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ كَقَوْلِ جُبَيْرِ بْنِ الْأَضْبَطِ:**

**تَبَاعَدَ عَنِّي فَطْحَلٌ إِذْ دَعَوْتُهُ     أَمِينَ فَزَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدَا**

**وَهُوَ تَفْسِيرٌ غَيْرُ حَسَنٍ لِأَنَّهُ خِلَافُ الْأَصْلِ فِي الْعَطْفِ بِالْفَاءِ وَلِأَنَّ تَصَدِّيَ الْقُرْآنِ لِشَتْمِهِمْ بِذَلِكَ لَيْسَ مِنْ دَأْبِهِ، وَلِأَنَّ الدُّعَاءَ عَلَيْهِمْ بِالزِّيَادَةِ تُنَافِي مَا عَهِدَ مِنَ الدُّعَاءِ لِلضَّالِّينَ بِالْهِدَايَةِ فِي نَحْوِ**[**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=44#docu)**.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ﴾[[232]](#footnote-232)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=44#docu)**مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[[233]](#footnote-233)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=44#docu)**إِكْمَالًا لِلْفَائِدَةِ فَكَمُلَ بِهَذَا الْعَطْفِ بَيَانُ مَا جَرَّهُ النِّفَاقُ إِلَيْهِمْ مِنْ فَسَادِ الْحَالِ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ.**

**وَتَقْدِيمُ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ وَهُوَ لَهُمْ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ لَا نَعْتٌ حَتَّى يَسْتَقِرَّ بِمُجَرَّدِ سَمَاعِ الْمُبْتَدَأِ الْعِلْمُ بِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِمْ فَلَا تَلْهُو النَّفْسُ عَنْ تَلَقِّيهِ.**

**وَالْأَلِيمُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، لِأَنَّ الْأَكْثَرَ فِي هَذِهِ الصِّيغَةِ أَنَّ الرُّبَاعِيَّ بِمَعْنَى مُفْعَلٍ وَأَصْلُهُ عَذَابٌ مُؤْلَمٌ بِصِيغَةِ اسْمِ الْمَفْعُولِ أَيْ مُؤْلَمٌ مَنْ يُعَذَّبُ بِهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ، لِأَنَّ الْمُؤْلَمَ هُوَ الْمُعَذَّبُ دُونَ الْعَذَابِ كَمَا قَالُوا جَدَّ جَدُّهُ، أَوْ هُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ مِنْ أَلِمٍ بِمَعْنَى صَارَ ذَا أَلَمٍ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مُفْعِلٍ أَيْ مُؤْلِمٍ بِكَسْرِ اللَّامِ، فَقِيلَ لَمْ يَثْبُتْ عَنِ الْعَرَبِ فِي هَذِهِ الْمَادَّةِ وَثَبَتَ فِي نَظِيرِهَا نَحْوُ الْحَكِيمِ وَالسَّمِيعِ بِمَعْنَى الْمُسْمِعِ كَقَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ:**

**وَخَيْلٌ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِخَيْـــــــــلٍ     تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ**

**أَيْ مُوجِعٌ، وَاخْتُلِفَ فِي جَوَازِ الْقِيَاسِ عَلَيْهِ وَالْحَقُّ أَنَّهُ كَثِيرٌ فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ وَأَنَّ مَنْعَ الْقِيَاسِ عَلَيْهِ لِلْمُوَلِّدِينَ قُصِدَ مِنْهُ التَّبَاعُدُ عَنْ مُخَالَفَةِ الْقِيَاسِ بِدُونِ دَاعٍ لِئَلَّا يَلْتَبِسَ حَالُ الْجَاهِلِ بِحَالِ الْبَلِيغِ فَلَا مَانِعَ مِنْ تَخْرِيجِ الْكَلَامِ الْفَصِيحِ عَلَيْهِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ﴾[[234]](#footnote-234)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=44#docu)**الْبَاءُ لِلسَّبَبِيَّةِ وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ (يُكَذِّبُونَ) بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَتَشْدِيدِ الذَّالِ.**

**وَقَرَأَهُ عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ**[**وَالْكِسَائِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15080)**وَخَلَفٌ بِفَتْحِ أَوَّلِهِ وَتَخْفِيفِ الذَّالِ أَيْ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ وَإِخْبَارِهِ بِأَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ وَأَنَّ الْقُرْآنَ وَحْيُ اللَّهِ إِلَى الرَّسُولِ، فَمَادَّةُ التَّفْعِيلِ لِلنِّسْبَةِ إِلَى الْكَذِبِ مِثْلَ التَّعْدِيلِ وَالتَّجْرِيحِ، وَأَمَّا قِرَاءَةُ التَّخْفِيفِ فَعَلَى كَذِبِهِمُ الْخَاصِّ فِي قَوْلِهِمْ آمَنَّا بِاللَّهِ، وَعَلَى كَذِبِهِمُ الْعَامِّ فِي قَوْلِهِمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ فَالْمَقْصُودُ كَذِبُهُمْ فِي إِظْهَارِ الْإِيمَانِ وَفِي جَعْلِ أَنْفُسِهِمُ الْمُصْلِحِينَ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ.**

**وَالْكَذِبُ ضِدُّ الصِّدْقِ، وَسَيَأْتِي عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[[235]](#footnote-235)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=44#docu)**فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ.**

**وَ(مَا) الْمَجْرُورَةُ بِالْبَاءِ مَصْدَرِيَّةٌ، وَالْمَصْدَرُ هُوَ الْمُنْسَبِكُ مِنْ كَانَ أَيِ الْكَوْنُ.**

**﴿**[**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[[236]](#footnote-236)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=45#docu)

**يَظْهَرُ لِي أَنَّ جُمْلَةَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿**[**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[[237]](#footnote-237)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=45#docu)**إِخْبَارٌ عَنْ بَعْضِ عَجِيبِ أَحْوَالِهِمْ، وَمِنْ تِلْكَ الْأَحْوَالِ أَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ فِي حِينِ أَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ، فَيَكُونُ مَعْطُوفًا عَلَى أَقْرَبِ الْجُمَلِ الْمُلِظَّةِ لِأَحْوَالِهِمْ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ آيِلًا فِي الْمَعْنَى إِلَى كَوْنِهِ مَعْطُوفًا عَلَى الصِّلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾[[238]](#footnote-238).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=45#docu)

**وَ "إِذَا" هُنَا لِمُجَرَّدِ الظَّرْفِيَّةِ وَلَيْسَتْ مُتَضَمِّنَةً مَعْنَى الشَّرْطِ كَمَا أَنَّهَا هُنَا لِلْمَاضِي وَلَيْسَتْ لِلْمُسْتَقْبَلِ، وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِيهَا كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿**[**حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[[239]](#footnote-239)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=45#docu)**الْآيَةَ.**

**وَمِنْ نُكَتِ الْقُرْآنِ الْمَغْفُولِ عَنْهَا تَقْيِيدُ هَذَا الْفِعْلِ بِالظَّرْفِ فَإِنَّ الَّذِي يَتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ أَنَّ مَحَلَّ الْمَذَمَّةِ هُوَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ مَعَ كَوْنِهِمْ مُفْسِدِينَ، وَلَكِنْ عِنْدَ التَّأَمُّلِ يَظْهَرُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَكُونُ قَائِلُوهُ أَجْدَرَ بِالْمَذَمَّةِ حِينَ يَقُولُونَهُ فِي جَوَابِ مَنْ يَقُولُ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّ هَذَا الْجَوَابَ الصَّادِرَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ لَا يَنْشَأُ إِلَّا عَنْ مَرَضِ الْقَلْبِ وَأَفَنِ الرَّأْيِ، لِأَنَّ شَأْنَ الْفَسَادِ أَنْ لَا يَخْفَى؛ وَلَئِنْ خَفِيَ، فَالتَّصْمِيمُ عَلَيْهِ وَاعْتِقَادُ أَنَّهُ صَلَاحٌ بَعْدَ الْإِيقَاظِ إِلَيْهِ وَالْمَوْعِظَةِ، إِفْرَاطٌ فِي الْغَبَاوَةِ أَوِ الْمُكَابَرَةِ وَجَهْلٌ فَوْقَ جَهْلٍ.**

**وَعِنْدِي أَنَّ هَذَا هُوَ الْمُقْتَضِي لِتَقْدِيمِ الظَّرْفِ عَلَى جُمْلَةِ قَالُوا...، لِأَنَّهُ أَهَمُّ إِذْ هُوَ مَحَلُّ التَّعْجِيبِ مِنْ حَالِهِمْ، وَنُكَتُ الْإِعْجَازِ لَا تَتَنَاهَى.**

**وَالْقَائِلُ لَهُمْ: ﴿**[**لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾[[240]](#footnote-240)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=45#docu)**بَعْضُ مَنْ وَقَفَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَهُمُ اطِّلَاعٌ عَلَى شُؤُونِهِمْ لِقَرَابَةٍ أَوْ صُحْبَةٍ، فَيُخْلِصُونَ لَهُمُ النَّصِيحَةَ وَالْمَوْعِظَةَ رَجَاءَ إِيمَانِهِمْ وَيَسْتُرُونَ عَلَيْهِمْ خَشْيَةً عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ وَعِلْمًا بِأَنَّ النَّبِيءَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُغْضِي عَنْ زَلَّاتِهِمْ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ عَطِيَّةَ.**

**وَفِي جَوَابِهِمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿**[**إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[[241]](#footnote-241)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=45#docu)**مَا يُفِيدُ أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ كَانُوا جَازِمِينَ بِأَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ، لِأَنَّ ذَلِكَ مُقْتَضَى حَرْفِ "إِنَّمَا" كَمَا سَيَأْتِي وَيَدُلُّ لِذَلِكَ عِنْدِي بِنَاءُ فِعْلِ قِيلَ لِلْمَجْهُولِ بِحَسَبِ مَا يَأْتِي فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿**[**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾[[242]](#footnote-242).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=45#docu)

**وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُ لَهُمُ اللَّهُ وَالرَّسُولُ، إِذْ لَوْ نَزَلَ الْوَحْيُ وَبَلَّغَ إِلَى مُعَيَّنِينَ مِنْهُمْ لَعُلِمَ كُفْرُهُمْ وَلَوْ نَزَلَ مُجْمَلًا كَمَا تَنْزِلُ مَوَاعِظُ الْقُرْآنِ لَمْ يَسْتَقِمْ جَوَابُهُمْ بِقَوْلِهِمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ.**

**وَقَدْ عَنَّ لِي فِي بَيَانِ إِيقَاعِهِمُ الْفَسَادَ أَنَّهُ مَرَاتِبٌ:**

**- أَوَّلُهَا: إِفْسَادُهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِالْإِصْرَارِ عَلَى تِلْكَ الْأَدْوَاءِ الْقَلْبِيَّةِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا فِيمَا مَضَى وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَذَامِّ وَيَتَوَلَّدُ مِنَ الْمَفَاسِدِ.**

**- الثَّانِيَةُ: إِفْسَادُهُمُ النَّاسَ بِبَثِّ تِلْكَ الصِّفَاتِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا، وَإِفْسَادُهُمْ أَبْنَاءَهُمْ وَعِيَالَهُمْ فِي اقْتِدَائِهِمْ بِهِمْ فِي مَسَاوِيهِمْ كَمَا قَالَ نُوحٌ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿**[**إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[[243]](#footnote-243).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=45#docu)

**- الثَّالِثَةُ: إِفْسَادُهُمْ بِالْأَفْعَالِ الَّتِي يَنْشَأُ عَنْهَا فَسَادُ الْمُجْتَمَعِ، كَإِلْقَاءِ النَّمِيمَةِ وَالْعَدَاوَةِ وَتَسْعِيرِ الْفِتَنِ وَتَأْلِيبِ الْأَحْزَابِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَإِحْدَاثِ الْعَقَبَاتِ فِي طَرِيقِ الْمُصْلِحِينَ.**

**وَالْإِفْسَادُ فِعْلُ مَا بِهِ الْفَسَادُ وَالْهَمْزَةُ فِيهِ لِلْجَعْلِ أَيْ جَعْلِ الْأَشْيَاءِ فَاسِدَةً فِي الْأَرْضِ.**

**وَالْفَسَادُ أَصْلُهُ اسْتِحَالَةُ مَنْفَعَةِ الشَّيْءِ النَّافِعِ إِلَى مَضَرَّةٍ بِهِ أَوْ بِغَيْرِهِ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى وُجُودِ الشَّيْءِ مُشْتَمِلًا عَلَى مَضَرَّةٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ نَفْعٌ مِنْ قَبْلُ، يُقَالُ: فَسَدَ الشَّيْءُ بَعْدَ أَنْ كَانَ صَالِحًا وَيُقَالُ: فَاسِدٌ إِذَا وُجِدَ فَاسِدًا مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ، وَكَذَلِكَ يُقَالُ: أَفْسَدَ إِذَا عَمَدَ إِلَى شَيْءٍ صَالِحٍ فَأَزَالَ صَلَاحَهُ، وَيُقَالُ: أَفْسَدَ إِذَا أَوْجَدَ فَسَادًا مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ.**

**وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْفَسَادَ مَوْضُوعٌ لِلْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ مِنَ الْمَعْنَيَيْنِ وَلَيْسَ مِنَ الْوَضْعِ الْمُشْتَرَكِ، فَلَيْسَ إِطْلَاقُهُ عَلَيْهِمَا كَمَا هُنَا مِنْ قَبِيلِ اسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرِكِ فِي مَعْنَيَيْهِ.**

**فَالْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ مِنْهُ تَصْيِيرُ الْأَشْيَاءِ الصَّالِحَةِ مُضِرَّةً كَالْغِشِّ فِي الْأَطْعِمَةِ، وَمِنْهُ إِزَالَةُ الْأَشْيَاءِ النَّافِعَةِ كَالْحَرْقِ وَالْقَتْلِ لِلْبَرَاءِ، وَمِنْهُ إِفْسَادُ الْأَنْظِمَةِ كَالْفِتَنِ وَالْجَوْرِ، وَمِنْهُ إِفْسَادُ الْمَسَاعِي كَتَكْثِيرِ الْجَهْلِ وَتَعْلِيمِ الدَّعَارَةِ وَتَحْسِينِ الْكُفْرِ وَمُنَاوَأَةِ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ، وَلَعَلَّ الْمُنَافِقِينَ قَدْ أَخَذُوا مِنْ ضُرُوبِ الْإِفْسَادِ بِالْجَمِيعِ، فَلِذَلِكَ حُذِفَ مُتَعَلِّقُ تُفْسِدُوا تَأْكِيدًا لِلْعُمُومِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ وُقُوعِ الْفِعْلِ فِي حَيِّزِ النَّفْيِ.**

**وَذِكْرُ الْمَحَلِّ الَّذِي أَفْسَدُوا مَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ، وَهُوَ الْأَرْضُ لِتَفْظِيعِ فَسَادِهِمْ بِأَنَّهُ مَبْثُوثٌ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ لِأَنَّ وُقُوعَهُ فِي رُقْعَةٍ مِنْهَا تَشْوِيهٌ لِمَجْمُوعِهَا. وَالْمُرَادُ بِالْأَرْضِ هَذِهِ الْكُرَةُ الْأَرْضِيَّةُ بِمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْقَابِلَةِ لِلْإِفْسَادِ مِنَ النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَسَائِرِ الْأَنْظِمَةِ وَالنَّوَامِيسِ الَّتِي وَضَعَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهَا، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[[244]](#footnote-244)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=45#docu)**وَقَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿**[**قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[[245]](#footnote-245)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=45#docu)**جَوَابٌ بِالنَّقْضِ فَإِنَّ الْإِصْلَاحَ ضِدُّ الْإِفْسَادِ، أَيْ جَعْلِ الشَّيْءِ صَالِحًا، وَالصَّلَاحُ ضِدُّ الْفَسَادِ يُقَالُ: صَلَحَ بَعْدَ أَنْ كَانَ فَاسِدًا، وَيُقَالُ: صَلَحَ بِمَعْنَى وُجِدَ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ صَالِحًا فَهُوَ مَوْضُوعٌ لِلْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ كَمَا قُلْنَا. وَجَاءُوا بِإِنَّمَا الْمُفِيدَةِ لِلْقَصْرِ بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّفْسِيرِ وَلَا اعْتِدَادَ بِمُخَالِفِهِ شُذُوذًا فِي ذَلِكَ.**

**وَأَفَادَ إِنَّمَا هُنَا قَصْرَ الْمَوْصُوفِ عَلَى الصِّفَةِ رَدًّا عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ لَهُمْ: لَا تُفْسِدُوا، لِأَنَّ الْقَائِلَ أَثْبَتَ لَهُمْ وَصْفَ الْفَسَادِ إِمَّا بِاعْتِقَادِ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الصَّلَاحِ فِي شَيْءٍ أَوْ بِاعْتِقَادِ أَنَّهُمْ قَدْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَفَاسِدًا، فَرَدُّوا عَلَيْهِمْ بِقَصْرِ الْقَلْبِ، وَلَيْسَ هُوَ قَصْرًا حَقِيقِيًّا، لِأَنَّ قَصْرَ الْمَوْصُوفِ عَلَى الصِّفَةِ لَا يَكُونُ حَقِيقِيًّا، وَلِأَنَّ حَرْفَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِقَصْرِ الْقَلْبِ كَمَا فِي دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ، وَاخْتِيرَ فِي كَلَامِهِمْ حَرْفُ إِنَّمَا، لِأَنَّهُ يُخَاطَبُ بِهِ مُخَاطَبٌ مُصِرٌّ عَلَى الْخَطَأِ كَمَا فِي دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ وَجُعِلَتْ جُمْلَةُ الْقَصْرِ اسْمِيَّةً لِتُفِيدَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا اتِّصَافَهُمْ بِالْإِصْلَاحِ أَمْرًا ثَابِتًا دَائِمًا، إِذْ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ الْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ إِفَادَةُ الدَّوَامِ.**

**﴿**[**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[[246]](#footnote-246)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=46#docu)

**رَدٌّ عَلَيْهِمْ فِي غُرُورِهِمْ وَحَصْرِهِمْ أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّلَاحِ فَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِطَرِيقٍ مِنْ طُرُقِ الْقَصْرِ هُوَ أَبْلَغُ فِيهِ مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِي قَالُوهُ، لِأَنَّ تَعْرِيفَ الْمُسْنَدِ يُفِيدُ قَصْرَ الْمُسْنَدِ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، فَيُفِيدُ قَوْلُهُ: ﴿**[**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾[[247]](#footnote-247)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=46#docu)**قَصْرَ الْإِفْسَادِ عَلَيْهِمْ بِحَيْثُ لَا يُوجَدُ فِي غَيْرِهِمْ، وَذَلِكَ يَنْفِي حَصْرَهُمْ أَنْفُسَهُمْ فِي الْإِصْلَاحِ وَيَنْقُضُهُ، وَهُوَ جَارٍ عَلَى قَانُونِ النَّقْضِ وَعَلَى أُسْلُوبِ الْقَصْرِ الْحَاصِلِ بِتَعْرِيفِ الْجِنْسِ.**

**وَإِنْ كَانَ الرَّدُّ قَدْ يَكْفِي فِيهِ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُمْ مُفْسِدُونَ بِدُونِ صِيغَةِ قَصْرٍ، إِلَّا أَنَّهُ قَصَرَ لِيُفِيدَ ادِّعَاءَ نَفْيِ الْإِفْسَادِ عَنْ غَيْرِهِمْ.**

**وَقَدْ يُفِيدُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَيْسُوا مِمَّنْ يَنْتَظِمُ فِي عِدَادِ الْمُصْلِحِينَ لِأَنَّ شَأْنَ الْمُفْسِدِ عُرْفًا أَنْ لَا يَكُونَ مُصْلِحًا، إِذِ الْإِفْسَادُ هَيِّنُ الْحُصُولِ وَإِنَّمَا يَصُدُّ عَنْهُ الْوَازِعُ. فَإِذَا خَلَعَ الْمَرْءُ عَنْهُ الْوَازِعَ وَأَخَذَ فِي الْإِفْسَادِ، هَانَ عَلَيْهِ الْإِفْسَادُ، ثُمَّ تَكَرَّرَ حَتَّى يُصْبِحَ سَجِيَّةً وَدَأْبًا لَا يَكَادُ يُفَارِقُ مَوْصُوفَهُ.**

**وَحَرْفُ أَلَا لِلتَّنْبِيهِ إِعْلَانًا لِوَصْفِهِمْ بِالْإِفْسَادِ.**

**وَقَدْ أَكَّدَ قَصْرَ الْفَسَادِ عَلَيْهِمْ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ أَيْضًا، كَمَا أَكَّدَ بِهِ الْقَصْرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[[248]](#footnote-248)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=46#docu)**كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا وَدُخُولُ (إِنَّ) عَلَى الْجُمْلَةِ وَقَرْنُهَا بِأَلَا الْمُفِيدَةِ لِلتَّنْبِيهِ. وَذَلِكَ مِنَ الِاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ وَتَقْوِيَتِهِ دَلَالَةً عَلَى سَخَطِ اللَّهِ –تَعَالَى- عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ أَدَوَاتِ الِاسْتِفْتَاحِ مِثْلَ: "أَلَا"، "وَأَمَا" لَمَّا كَانَ شَأْنُهَا أَنْ يُنَبَّهَ بِهَا السَّامِعُونَ دَلَّتْ عَلَى الِاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ وَإِشَاعَتِهِ وَإِعْلَانِهِ، فَلَا جَرَمَ أَنْ تَدُلَّ عَلَى أَبْلَغِيَّةِ مَا تَضَمَّنَهُ الْخَبَرُ مِنْ مَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ أَوْ غَيْرِهِمَا، وَيَدُلُّ ذَلِكَ أَيْضًا عَلَى كَمَالِ ظُهُورِ مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ لِلْعِيَانِ لِأَنَّ أَدَوَاتِ التَّنْبِيهِ شَارَكَتْ أَسْمَاءَ الْإِشَارَةِ فِي تَنْبِيهِ الْمُخَاطَبِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[[249]](#footnote-249)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=46#docu)**مَحْمَلُهُ مَحْمَلُ قَوْلِهِ -تَعَالَى- قَبْلَهُ: ﴿**[**وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=46#docu)**﴾[[250]](#footnote-250)، فَإِنَّ أَفْعَالَهُمُ الَّتِي يَبْتَهِجُونَ بِهَا وَيَزْعُمُونَهَا مُنْتَهَى الْحِذْقِ وَالْفِطْنَةِ وَخِدْمَةِ الْمَصْلَحَةِ الْخَالِصَةِ آيِلَةٌ إِلَى فَسَادٍ عَامٍّ لَا مَحَالَةَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَى ذَلِكَ لِخَفَائِهِ وَلِلْغِشَاوَةِ الَّتِي أُلْقِيَتْ عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ أَثَرِ النِّفَاقِ وَمُخَالَطَةِ عُظَمَاءِ أَهْلِهِ، فَإِنَّ حَالَ الْقَرِينِ وَسَخَافَةَ الْمَذْهَبِ تَطْمِسُ عَلَى الْعُقُولِ النَّيِّرَةِ وَتَخِفُّ بِالْأَحْلَامِ الرَّاجِحَةِ حَتَّى تَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ. وَمَوْقِعُ حَرْفِ الِاسْتِدْرَاكِ هُنَا، لِأَنَّ الْكَلَامَ دَفْعٌ لِمَا أَثْبَتُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْخُلُوصِ لِلْإِصْلَاحِ، فَرَفَعَ ذَلِكَ التَّوَهُّمَ بِحَرْفِ الِاسْتِدْرَاكِ.**

**﴿**[**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾[[251]](#footnote-251)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=47#docu)

**هُوَ مِنْ تَمَامِ الْمَقُولِ قَبْلَهُ فَحُكْمُهُ حُكْمُهُ بِالْعَطْفِ وَالْقَائِلِ، وَيَجُوزُ هُنَا أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُ أَيْضًا طَائِفَةً مِنَ الْمُنَافِقِينَ يُشِيرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِقْلَاعِ عَنِ النِّفَاقِ، لِأَنَّهُمْ ضَجِرُوهُ وَسَئِمُوا كُلَفَهُ وَمُتَّقَيَاتِهِ، وَكَلَّتْ أَذْهَانُهُمْ مِنَ ابْتِكَارِ الْحِيَلِ وَاخْتِلَاقِ الْخَطَلِ. وَحَذْفُ مَفْعُولِ آمَنُوا اسْتِغْنَاءً عَنْهُ بِالتَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾[[252]](#footnote-252)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=47#docu)**أَوْ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ لِلسَّامِعِينَ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾[[253]](#footnote-253)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=47#docu)**الْكَافُ فِيهِ لِلتَّشْبِيهِ أَوْ لِلتَّعْلِيلِ، وَاللَّامُ فِي النَّاسِ لِلْجِنْسِ أَوْ لِلِاسْتِغْرَاقِ الْعُرْفِيِّ.**

**وَالْمُرَادُ بِالنَّاسِ مَنْ عَدَا الْمُخَاطَبِينَ، كَلِمَةٌ تَقُولُهَا الْعَرَبُ فِي الْإِغْرَاءِ بِالْفِعْلِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ لِأَنَّ شَأْنَ النُّفُوسِ أَنْ تُسْرِعَ إِلَى التَّقْلِيدِ وَالِاقْتِدَاءِ بِمَنْ يَسْبِقُهَا فِي الْأَمْرِ، فَلِذَلِكَ يَأْتُونَ بِهَاتِهِ الْكَلِمَةِ فِي مَقَامِ الْإِغْرَاءِ أَوِ التَّسْلِيَةِ أَوِ الِائْتِسَاءِ.**

**قَالَ عَمْرُو ابْنُ الْبَرَّاقَةِ النِّهْمِيُّ:**

**وَنَنْصُرُ مَوْلَانَا وَنَعْلَمُ أَنَّهُ كَمَا النَّاسِ مَجْرُومٌ عَلَيْهِ وَجَارِمُ**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾[[254]](#footnote-254)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=47#docu)**اسْتِفْهَامٌ لِلْإِنْكَارِ، قَصَدُوا مِنْهُ التَّبَرُّؤَ مِنَ الْإِيمَانِ عَلَى أَبْلَغِ وَجْهٍ، وَجَعَلُوا الْإِيمَانَ الْمُتَبَرَّأَ مِنْهُ شَبِيهًا بِإِيمَانِ السُّفَهَاءِ تَشْنِيعًا لَهُ وَتَعْرِيضًا بِالْمُسْلِمِينَ بِأَنَّهُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ سَفَاهَةُ عُقُولِهِمْ، وَدَلُّوا عَلَى أَنَّهُمْ عَلِمُوا مُرَادَ مَنْ يَقُولُ لَهُمْ: كَمَا آمَنَ النَّاسُ، أَنَّهُ يَعْنِي بِالنَّاسِ الْمُسْلِمِينَ. وَالسُّفَهَاءُ جَمْعُ سَفِيهٍ، وَهُوَ الْمُتَّصِفُ بِالسَّفَاهَةِ. وَالسَّفَاهَةُ خِفَّةُ الْعَقْلِ وَقِلَّةُ ضَبْطِهِ لِلْأُمُورِ.**

**قَالَ السَّمَوْأَلُ:**

**نَخَافُ أَنْ تَسْفَهَ أَحْلَامُنَـــــــــــــــا     فَنَخْمُلَ الدَّهْرَ مَعَ الْخَامِلِ**

**وَالْعَرَبُ تُطْلِقُ السَّفَاهَةَ عَلَى أَفَنِ الرَّأْيِ وَضَعْفِهِ، وَتُطْلِقُهَا عَلَى سُوءِ التَّدْبِيرِ لِلْمَالِ. قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾[[255]](#footnote-255)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=47#docu)**وَقَالَ: ﴿**[**فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾[[256]](#footnote-256)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=47#docu)**الْآيَةَ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَجِيءُ مِنْ ضَعْفِ الرَّأْيِ.**

**وَوَصْفُهُمُ الْمُؤْمِنِينَ بِالسَّفَاهَةِ بُهْتَانٌ لِزَعْمِهِمْ أَنَّ مُخَالَفَتَهُمْ لَا تَكُونُ إِلَّا لِخِفَّةٍ فِي عُقُولِهِمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِتَحْقِيرِهِمْ، كَيْفَ وَفِي الْمُسْلِمِينَ سَادَةُ الْعَرَبِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.**

**وَهَذِهِ شَنْشَنَةُ أَهْلِ الْفَسَادِ وَالسَّفَهِ أَنْ يَرْمُوا الْمُصْلِحِينَ بِالْمُذِمَّاتِ بُهْتَانًا وَوَقَاحَةً لِيُلْهُوهُمْ عَنْ تَتَبُّعِ مَفَاسِدِهِمْ.**

**وَلِذَلِكَ قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:**

**وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ     فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّيَ كَامِلٌ**

**وَلَيْسَ فِي هَاتِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى حُكْمِ الزِّنْدِيقِ إِذَا ظَهَرَ عَلَيْهِ وَعُرِفَتْ زَنْدَقَتُهُ إِثْبَاتًا، وَلَا نَفْيًا لِأَنَّ الْقَائِلِينَ لَهُمْ: آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ، هُمْ مِنْ أَقَارِبِهِمْ أَوْ خَاصَّتِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يُفْشُوا أَمْرَهُمْ فَلَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى ظُهُورِ نِفَاقِهِمْ لِلرَّسُولِ بِوَجْهٍ مُعْتَادٍ وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ أَطْلَعَ عَلَيْهِ نَبِيئَهُ، وَكَانَتِ الْمُصْلِحَةُ فِي سَتْرِهِ، وَقَدِ اطَّلَعَ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ بِمُخَالَطَتِهِمْ وَعَلِمُوا مِنَ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْإِعْرَاضَ عَنْ إِذَاعَةِ ذَلِكَ فَكَانَتِ الْآيَةُ غَيْرَ دَالَّةٍ عَلَى حُكْمٍ شَرْعِيٍّ يَتَعَلَّقُ بِحُكْمِ النِّفَاقِ وَالزَّنْدَقَةِ.**

**﴿**[**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[[257]](#footnote-257)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=48#docu)

**أَتَى بِمَا يُقَابِلُ جَفَاءَ طَبْعِهِمُ انْتِصَارًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَوْلَا جَفَاءُ قَوْلِهِمْ: ﴿**[**أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾[[258]](#footnote-258)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=48#docu)**لَمَا تَصَدَّى الْقُرْآنُ لِسِبَابِهِمْ مَعَ أَنَّ عَادَتَهُ الْإِعْرَاضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا مَضْرِبَ الْمَثَلِ: "قُلْتَ فَأَوْجَبْتَ"، وَلِأَنَّهُ مَقَامُ بَيَانِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فَتَحْسُنُ فِيهِ الصَّرَاحَةُ وَالصَّرَامَةُ كَمَا تَقَرَّرَ فِي آدَابِ الْخَطَابَةِ، وَأَعْلَنَ ذَلِكَ بِكَلِمَةِ أَلَا الْمُؤْذِنَةُ بِالتَّنْبِيهِ لِلْخَبَرِ، وَجَاءَ بِصِيغَةِ الْقَصْرِ عَلَى نَحْوِ مَا قَرَّرَ فِي: ﴿**[**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾[[259]](#footnote-259)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=48#docu)**لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ السَّفَاهَةَ مَقْصُورَةٌ عَلَيْهِمْ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ إِضَافِيٌّ لَا مَحَالَةَ.**

**وَإِذَا ثَبَتَتْ لَهُمُ السَّفَاهَةُ انْتَفَى عَنْهُمُ الْحِلْمُ لَا مَحَالَةَ، لِأَنَّهُمَا ضِدَّانِ فِي صِفَاتِ الْعُقُولِ.**

**"إِنَّ" هُنَا لِتَوْكِيدِ الْخَبَرِ وَهُوَ مَضْمُونُ الْقَصْرِ وَضَمِيرُ الْفَصْلِ لِتَأْكِيدِ الْقَصْرِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا. وَأَلَا كَأُخْتِهَا الْمُتَقَدِّمَةِ فِي: ﴿**[**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾[[260]](#footnote-260)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=48#docu)**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[[261]](#footnote-261)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=48#docu)**نَفَى عَنْهُمُ الْعِلْمَ بِكَوْنِهِمْ سُفَهَاءَ بِكَلِمَةِ يَعْلَمُونَ دُونَ يَشْعُرُونَ خِلَافًا لِلْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ، لِأَنَّ اتِّصَافَهُمْ بِالسَّفَهِ لَيْسَ مِمَّا شَأْنُهُ الْخَفَاءُ حَتَّى يَكُونَ الْعِلْمُ بِهِ شُعُورًا وَيَكُونَ الْجَهْلُ بِهِ نَفْيَ شُعُورٍ، بَلْ هُوَ وَصْفٌ ظَاهِرٌ لَا يَخْفَى، لِأَنَّ لِقَاءَهُمْ كُلَّ فَرِيقٍ بِوَجْهٍ وَاضْطِرَابَهُمْ فِي الِاعْتِمَادِ عَلَى إِحْدَى الْخَلَّتَيْنِ وَعَدَمُ ثَبَاتِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ ثَبَاتًا كَامِلًا وَلَا عَلَى الْإِسْلَامِ كَذَلِكَ كَافٍ فِي النِّدَاءِ بِسَفَاهَةِ أَحْلَامِهِمْ فَإِنَّ السَّفَاهَةَ صِفَةٌ لَا تَكَادُ تَخْفَى، وَقَدْ قَالَتِ الْعَرَبُ: السَّفَاهَةُ كَاسْمِهَا.**

**قَالَ النَّابِغَةُ:**

**نُبِّئْتُ زَرْعَةَ وَالسَّفَاهَةُ كَاسْمِهَا يُهْدَى إِلَيَّ غَرَائِبَ الْأَشْعَارِ**

**وَقَالَ جَزْءُ بْنُ كِلَابٍ الْفَقْعَسِيُّ:**

**تَبَغَّى ابْنُ كُوزٍ وَالسَّفَاهَةُ كَاسْمِهَا     لِيَسْتَادَ مِنَّا أَنْ شَتَوْنَا لَيَالِيَا**

**فَظَنُّهُمْ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ رُشْدٌ، وَأَنَّ مَا تَقَلَّدَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْإِيمَانِ سَفَهٌ يَدُلُّ عَلَى انْتِفَاءُ الْعِلْمِ عَنْهُمْ. فَمَوْقِعُ حَرْفِ الِاسْتِدْرَاكِ لِدَفْعِ تَعَجُّبِ مَنْ يَتَعَجَّبُ مِنْ رِضَاهُمْ بِالِاخْتِصَاصِ بِوَصْفِ السَّفَاهَةِ.**

**﴿**[**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[[262]](#footnote-262)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)

**عُطِفَ: ﴿**[**وَإِذَا لَقُوا﴾[[263]](#footnote-263)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**عَلَى مَا عُطِفَ عَلَيْهِ: ﴿**[**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾[[264]](#footnote-264)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**وَالْكَلَامُ فِي الظَّرْفِيَّةِ وَالزَّمَانِ سَوَاءٌ.**

**وَالتَّقْيِيدُ بِقَوْلِهِ: ﴿**[**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[[265]](#footnote-265)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**تَمْهِيدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿**[**وَإِذَا خَلَوْا﴾[[266]](#footnote-266).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**فَبِذَلِكَ كَانَ مُفِيدًا فَائِدَةً زَائِدَةً عَلَى مَا فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾[[267]](#footnote-267)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**الْآيَةَ، فَلَيْسَ مَا هُنَا تَكْرَارًا مَعَ مَا هُنَاكَ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا وَصْفُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِيهَامِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْهُمْ وَلِقَائِهِمْ بِوُجُوهِ الصَّادِقِينَ، فَإِذَا فَارَقُوهُمْ وَخَلَصُوا إِلَى قَوْمِهِمْ وَقَادَتِهِمْ خَلَعُوا ثَوْبَ التَّسَتُّرِ وَصَرَّحُوا بِمَا يُبْطِنُونَ.**

**وَنُكْتَةُ تَقْدِيمِ الظَّرْفِ تَقَدَّمَتْ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**﴾[[268]](#footnote-268).**

**وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ آمَنَّا أَيْ كُنَّا مُؤْمِنِينَ، فَالْمُرَادُ مِنَ الْإِيمَانِ فِي قَوْلِهِمْ آمَنَّا الْإِيمَانُ الشَّرْعِيُّ الَّذِي هُوَ مَجْمُوعُ الْأَوْصَافِ الِاعْتِقَادِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تَلَقَّبَ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ وَعُرِفُوا بِهَا عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[[269]](#footnote-269)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**أَيْ كُنَّا عَلَى دِينِ الْيَهُودِيَّةِ فَلَا مُتَعَلَّقَ بِقَوْلِهِ آمَنَّا حَتَّى يَحْتَاجَ لِتَوْجِيهِ حَذْفِهِ أَوْ تَقْدِيرِهِ، أَوْ أُرِيدَ: آمَنَّا بِمَا آمَنْتُمْ بِهِ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، وَلِقَاؤُهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا هُوَ حُضُورُهُمْ مَجْلِسَ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمَجَالِسَ الْمُؤْمِنِينَ.**

**وَمَعْنَى: ﴿**[**قَالُوا آمَنَّا﴾[[270]](#footnote-270)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**أَظْهَرُوا أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِمُجَرَّدِ الْقَوْلِ لَا بِعَقْدِ الْقَلْبِ، أَيْ نَطَقُوا بِكَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يُتَرْجِمُ عَنِ الْإِيمَانِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾[[271]](#footnote-271)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**وَإِذَا لَقُوا﴾[[272]](#footnote-272)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**وَالْمَقْصُودُ هُوَ هَذَا الْمَعْطُوفُ.**

**وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿**[**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[[273]](#footnote-273)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**فَتَمْهِيدٌ لَهُ كَمَا عَلِمْتَ، وَذَلِكَ ظَاهِرٌ مِنَ السِّيَاقِ، لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَقْصُودَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ آمَنَّا فِي حَالِ اسْتِهْزَاءٍ يُصَرِّحُونَ بِقَصْدِهِ إِذَا خَلَوْا، بِدَلِيلِ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُمْ يَأْبَوْنَ مِنَ الْإِيمَانِ وَيَقُولُونَ: ﴿**[**أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾[[274]](#footnote-274)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**إِنْكَارًا لِذَلِكَ، وَوَاوُ الْعَطْفِ صَالِحَةٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعِيَّةِ وَغَيْرِهَا بِحَسَبَ السِّيَاقِ، وَذَلِكَ أَنَّ السِّيَاقَ فِي بَيَانِ مَا لَهُمْ مِنْ وَجْهَيْنِ وَجْهٍ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَوَجْهٍ مَعَ قَادَتِهِمْ.**

**وَإِنَّمَا لَمْ يَجْعَلْ مَضْمُونَ الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ فِي صُورَةِ الْحَالِ كَأَنْ يُقَالَ: قَائِلِينَ لِشَيَاطِينِهِمْ إِذَا خَلَوْا، وَلَمْ نَحْمِلِ الْوَاوَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**وَإِذَا خَلَوْا﴾[[275]](#footnote-275)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**عَلَى الْحَالِ.**

**أَمَّا الْأَوَّلُ، فَلِأَنَّ مَضْمُونَ كِلْتَا الْجُمْلَتَيْنِ لَمَّا كَانَ صَالِحًا لِأَنْ يُعْتَبَرَ صِفَةً مُسْتَقِلَّةً دَالَّةً عَلَى النِّفَاقِ قُصِدَ بِالْعَطْفِ اسْتِقْلَالُ كِلْتَيْهِمَا، لِأَنَّ الْغَرَضَ تَعْدَادُ مَسَاوِيهِمْ، فَإِنَّ مَضْمُونَ: ﴿**[**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾[[276]](#footnote-276)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**مُنَادٍ وَحْدُهُ بِنِفَاقِهِمْ فِي هَاتِهِ الْحَالَةِ.**

**كَمَا يُفْصِحُ عَنْهُ قَوْلُهُ: ﴿**[**وَإِذَا لَقُوا﴾[[277]](#footnote-277)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**الدَّالُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ فِي وَقْتٍ مَخْصُوصٍ.**

**وَأَمَّا الثَّانِي، فَلِأَنَّ الْأَصْلَ اتِّحَادُ مَوْقِعِ الْجُمْلَتَيْنِ الْمُتَمَاثِلَتَيْنِ لَفْظًا. وَلِمَا تَقَدَّمَ إِيضَاحُهُ فِي وَجْهِ الْعُدُولِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِالْحَالِ.**

**وَالشَّيَاطِينُ جَمْعُ شَيْطَانٍ ـ جَمْعُ تَكْسِيرٍ - وَحَقِيقَةُ الشَّيْطَانِ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُجَرَّدَةِ، طَبِيعَتُهَا الْحَرَارَةُ النَّارِيَّةُ وَهُمْ مِنْ جِنْسِ الْجِنِّ قَالَ –تَعَالَى- فِي إِبْلِيسَ: ﴿**[**كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾[[278]](#footnote-278).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)

**وَقَدِ اشْتَهَرَ ذِكْرُهُ فِي كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْحُكَمَاءِ، وَيُطْلَقُ الشَّيْطَانُ عَلَى الْمُفْسِدِ وَمُثِيرِ الشَّرِّ، تَقُولُ الْعَرَبُ: فُلَانٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَمِنْ شَيَاطِينِ الْعَرَبِ، وَذَلِكَ اسْتِعَارَةٌ، وَكَذَلِكَ أُطْلِقَ هُنَا عَلَى قَادَةِ الْمُنَافِقِينَ فِي النِّفَاقِ، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**﴾[[279]](#footnote-279) إِلَخْ.**

**وَوَزْنُ شَيْطَانٍ اخْتَلَفَ فِيهِ الْبَصْرِيُّونَ وَالْكُوفِيُّونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ، فَقَالَ الْبَصْرِيُّونَ: هُوَ فَيْعَالٌ مِنْ شَطَنَ بِمَعْنَى بَعُدَ، لِأَنَّهُ أُبْعِدَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَنِ الْجَنَّةِ؛ فَنُونُهُ أَصْلِيَّةٌ.**

**وَقَالَ الْكُوفِيُّونَ: هُوَ فَعْلَانُ مِنْ شَاطَ بِمَعْنَى هَاجَ أَوِ احْتَرَقَ أَوْ بَطَلَ، وَوَجْهُ التَّسْمِيَةِ ظَاهِرٌ.**

**وَلَا أَحْسَبُ هَذَا الْخِلَافَ إِلَّا أَنَّهُ بَحْثٌ عَنْ صِيغَةِ اشْتِقَاقِهِ فَحَسْبُ، أَيِ الْبَحْثُ عَنْ حُرُوفِهِ الْأُصُولِ وَهَلْ نُونُهُ أَصْلٌ أَوْ زَائِدٌ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ لَا يُظَنُّ بِنُحَاةِ الْكُوفَةِ أَنْ يَدَّعُوا أَنَّهُ يُعَامَلُ مُعَامَلَةَ الْوَصْفِ الَّذِي فِيهِ زِيَادَةُ الْأَلِفِ وَالنُّونِ مِثْلُ غَضْبَانَ، كَيْفَ، وَهُوَ مُتَّفَقٌ عَلَى عَدَمِ مَنْعِهِ مِنَ الصَّرْفِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[[280]](#footnote-280)؟!**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)

**وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ وَيَرُدُّ عَلَى قَوْلِ الْكُوفِيِّينَ أَنَّ**[**سِيبَوَيْهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16076)**حَكَى أَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ تَشَيْطَنَ إِذَا فَعَلَ فِعْلَ الشَّيْطَانِ، فَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّهُ مِنْ شَطَنَ وَإِلَّا لَقَالُوا تَشَيَّطَ اهـ.**

**وَفِي *الْكَشَّافِ*: جَعَلَ**[**سِيبَوَيْهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16076)**نُونَ شَيْطَانٍ فِي مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ أَصْلِيَّةً وَفِي آخَرَ زَائِدَةً اهـ.**

**وَالْوَجْهُ أَنَّ تَشَيْطَنَ لَمَّا كَانَ وَصْفًا مُشْتَقًّا مِنَ الِاسْمِ كَقَوْلِهِمْ تَنَمَّرَ، أَثْبَتُوا فِيهِ حُرُوفَ الِاسْمِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُمْ عَامَلُوهُ مُعَامَلَةَ الْجَامِدِ دُونَ الْمُشْتَقِّ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مُشْتَقًّا مِمَّا اشْتُقَّ مِنْهُ الِاسْمُ بَلْ مِنْ حُرُوفِ الِاسْمِ فَهُوَ اشْتِقَاقٌ حَصَلَ بَعْدَ تَحْقِيقِ الِاسْتِعْمَالِ وَقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ مَادَّةِ الِاشْتِقَاقِ الْأَوَّلِ، فَلَا يَكُونُ قَوْلُهُمْ ذَلِكَ مُرَجِّحًا لِأَحَدِ الْقَوْلَيْنِ.**

**وَعِنْدِي أَنَّهُ اسْمٌ جَامِدٌ شَابَهَ فِي حُرُوفِهِ مَادَّةً مُشْتَقَّةً وَدَخَلَ فِي الْعَرَبِيَّةِ مِنْ لُغَةٍ سَابِقَةٍ لِأَنَّ هَذَا الِاسْمَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْعَقَائِدِ وَالْأَدْيَانِ، وَقَدْ كَانَ لِعَرَبِ الْعِرَاقِ فِيهَا السَّبْقُ قَبْلَ انْتِقَالِهِمْ إِلَى الْحِجَازِ وَالْيَمَنِ، وَيَدُلُّ لِذَلِكَ تَقَارُبُ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي أَكْثَرِ اللُّغَاتِ الْقَدِيمَةِ.**

**وَكُنْتُ رَأَيْتُ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّ اسْمَهُ فِي الْفَارِسِيَّةِ سَيْطَانٌ. وَخَلَوْا بِمَعْنَى انْفَرَدُوا فَهُوَ فِعْلٌ قَاصِرٌ وَيُعَدَّى بِالْبَاءِ وَبِاللَّامِ وَمِنْ وَمَعَ بِلَا تَضْمِينٍ، وَيُعَدَّى بِإِلَى عَلَى تَضْمِينِ مَعْنَى آبَ أَوْ خَلُصَ، وَيُعَدَّى بِنَفْسِهِ عَلَى تَضْمِينِ تَجَاوَزَ وَبَاعَدَ، وَمِنْهُ مَا شَاعَ مِنْ قَوْلِهِمُ افْعَلْ كَذَا وَخَلَاكَ ذَمٌّ؛ أَيْ إِنَّ تَبِعَةَ الْأَمْرِ أَوْ ضُرَّهُ لَا تَعُودُ عَلَيْكَ. وَقَدْ عُدِّيَ هُنَا بِإِلَى لِيُشِيرَ إِلَى أَنَّ الْخَلْوَةَ كَانَتْ فِي مَوَاضِعَ هِيَ مَآبَهُمْ وَمَرْجِعَهُمْ، وَأَنَّ لِقَاءَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا هُوَ صُدْفَةٌ وَلَمَحَاتٌ قَلِيلَةٌ، أَفَادَ ذَلِكَ كُلَّهُ قَوْلُهُ: "لَقُوا" وَ "خَلَوْا". وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ فَصَاحَةِ الْكَلِمَاتِ وَصَرَاحَتِهَا.**

**وَاعْلَمْ أَنَّهُ حُكِيَ خِطَابُهُمْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِمَا يَقْتَضِي أَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا فِيهِ بِمَا يُحَقِّقُ الْخَبَرَ مِنْ تَأْكِيدٍ، وَخِطَابُهُمْ مُوهِمٌ بِمَا يَقْتَضِي أَنَّهُمْ حَقَّقُوا لَهُمْ بَقَاءَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ بِتَأْكِيدِ الْخَبَرِ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**إِنَّا مَعَكُمْ﴾[[281]](#footnote-281)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**مَعَ أَنَّ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُمْ بِعَكْسِ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَشُكُّونَ فِي إِيمَانِ الْمُنَافِقِينَ، وَقَوْمُهُمْ لَا يَشُكُّونَ فِي بَقَائِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ، فَجَاءَتْ حِكَايَةُ كَلَامِهِمُ الْمُوَافِقَةُ لِمَدْلُولَاتِهِ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ لِمُرَاعَاةِ مَا هُوَ أَجْدَرُ بِعِنَايَةِ الْبَلِيغِ مِنْ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ.**

**فَخَلَّوْ خِطَابَهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ عَمَّا يُفِيدُ تَأْكِيدَ الْخَبَرِ، لِأَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْرِضُوا أَنْفُسَهُمْ فِي مَعْرِضِ مَنْ يَتَطَرَّقُ سَاحَتَهُ الشَّكُّ فِي صِدْقِهِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، فَقَدْ أَيْقَظُوهُمْ إِلَى الشَّكِّ، وَذَلِكَ مِنْ إِتْقَانِ نِفَاقِهِمْ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ أَخْلِيَاءَ الذِّهْنِ مِنَ الشَّكِّ فِي الْمُنَافِقِينَ لِعَدَمِ تَعَيُّنِهِمْ عِنْدَهُمْ، فَيَكُونُ تَجْرِيدُ الْخَبَرِ مِنَ الْمُؤَكِّدَاتِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ.**

**وَأَمَّا قَوْلُهُمْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا مَعَكُمْ بِالتَّأْكِيدِ فَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمَّا بَدَا مِنْ إِبْدَاعِهِمْ فِي النِّفَاقِ عِنْدَ لِقَاءِ الْمُسْلِمِينَ مَا يُوجِبُ شَكَّ كُبَرَائِهِمْ فِي الْبَقَاءِ عَلَى الْكُفْرِ، وَتَطْرُقُ بِهِ التُّهْمَةُ أَبْوَابَ قُلُوبِهِمُ احْتَاجُوا إِلَى تَأْكِيدِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ بَاقُونَ عَلَى دِينِهِمْ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: ﴿**[**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[[282]](#footnote-282)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**فَقَدْ أَبْدَوْا بِهِ وَجْهَ مَا أَظْهَرُوهُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَجَاءُوا فِيهِ بِصِيغَةِ قَصْرِ الْقَلْبِ لِرَدِّ اعْتِقَادِ شَيَاطِينِهِمْ فِيهِمْ أَنَّ مَا أَظْهَرُوهُ لِلْمُؤْمِنِينَ حَقِيقَةٌ وَإِيمَانٌ صَادِقٌ.**

**وَقَدْ وَجَّهَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* الْعُدُولَ عَنِ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿آمَنَّا﴾[[283]](#footnote-283)، وَالتَّأْكِيدَ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّا مَعَكُمْ، بِأَنَّ مُخَاطَبَتَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ انْتَفَى عَنْهَا مَا يَقْتَضِي تَأْكِيدَ الْخَبَرِ؛ لِأَنَّ الْمُخْبِرِينَ لَمْ يَتَعَلَّقْ غَرَضُهُمْ بِأَكْثَرَ مِنِ ادِّعَاءِ حُدُوثِ إِيمَانِهِمْ، لِأَنَّ نُفُوسَهُمْ لَا تُسَاعِدُهُمْ عَلَى أَنْ يَتَلَفَّظُوا بِأَقْوَى مِنْ ذَلِكَ، وَلِأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ لَا يُرَوَّجُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، أَيْ فَاقْتَصَرُوا عَلَى اللَّازِمِ مِنَ الْكَلَامِ، فَإِنَّ عَدَمَ التَّأْكِيدِ فِي الْكَلَامِ قَدْ يَكُونُ لِعَدَمِ اعْتِنَاءِ الْمُتَكَلِّمِ بِتَحْقِيقِهِ، وَلِعِلْمِهِ أَنَّ تَأْكِيدَهُ عَبَثٌ لِعَدَمِ رَوَاجِهِ عِنْدَ السَّامِعِ، وَهَذِهِ نُكْتَةٌ غَرِيبَةٌ مَرْجِعُهَا قَطْعُ النَّظَرِ عَنْ إِنْكَارِ السَّامِعِ وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الِاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ.**

**وَأَمَّا مُخَاطَبَتُهُمْ شَيَاطِينَهُمْ، فَإِنَّمَا أَتَوْا بِالْخَبَرِ فِيهَا مُؤَكَّدًا لِإِفَادَةِ اهْتِمَامِهِمْ بِذَلِكَ الْخَبَرِ وَصِدْقِ رَغْبَتِهِمْ فِي النُّطْقِ بِهِ وَلِعِلْمِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ رَائِجٌ عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ، فَإِنَّ التَّأْكِيدَ قَدْ يَكُونُ لِاعْتِنَاءِ الْمُتَكَلِّمِ بِالْخَبَرِ وَرَوَاجِهِ عِنْدَ السَّامِعِ؛ أَيْ فَهُوَ تَأْكِيدٌ لِلِاهْتِمَامِ لَا لِرَدِّ الْإِنْكَارِ.**

**وَقَوْلُهُمْ: ﴿**[**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**﴾[[284]](#footnote-284) قَصَرُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الِاسْتِهْزَاءِ قَصْرًا إِضَافِيًّا لِلْقَلْبِ أَيْ مُؤْمِنُونَ مُخْلِصُونَ، وَجُمْلَةُ: ﴿**[**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[[285]](#footnote-285)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**تَقْرِيرٌ لِقَوْلِهِ: ﴿**[**إِنَّا مَعَكُمْ﴾[[286]](#footnote-286)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)**لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مَعَهُمْ كَانَ مَا أَظْهَرُوهُ مِنْ مُفَارَقَةِ دِينِهِمُ اسْتِهْزَاءً أَوْ نَحْوَهُ، فَأَمَّا أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ اسْتِئْنَافًا وَاقِعَةً فِي جَوَابِ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ؛ كَأَنَّ سَائِلًا يَعْجَبُ مِنْ دَعْوَى بَقَائِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ لِمَا أَتْقَنُوهُ مِنْ مَظَاهِرِ النِّفَاقِ فِي مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُنْكِرُ أَنْ يَكُونُوا بَاقِينَ عَلَى دِينِهِمْ وَيَسْأَلُ: كَيْفَ أَمْكَنَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْبَقَاءِ عَلَى الدِّينِ وَإِظْهَارِ الْمَوَدَّةِ لِلْمُؤْمِنِينَ؟! فَأَجَابُوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ، وَبِهِ يَتَّضِحُ وَجْهُ الْإِتْيَانِ بِأَدَاةِ الْقَصْرِ، لِأَنَّ الْمُنْكِرَ السَّائِلَ يَعْتَقِدُ كَذِبَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّا مَعَكُمْ، وَيَدَّعِي عَكْسَ ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ بَدَلًا مِنْ "إِنَّا مَعَكُمْ" بَدَلَ اشْتِمَالٍ؛ لِأَنَّ مَنْ دَامَ عَلَى الْكُفْرِ وَتَغَالَى فِيهِ، وَهُوَ مُقْتَضَى "مَعَكُمْ"، أَيْ فِي تَصَلُّبِكُمْ، فَقَدْ حَقَّرَ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ وَاسْتَخَفَّ بِهِمْ، وَالْوَجْهُ الْأَوَّلُ أَوْلَى الْوُجُوهِ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ مَا تُفِيدُهُ الْبَدَلِيَّةُ وَالتَّأْكِيدُ مِنْ تَقْرِيرِ مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ الْأُولَى مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى رَدِّ التَّحَيُّرِ الَّذِي يَنْشَأُ عَنْهُ السُّؤَالُ، وَهَذَا يَفُوتُ عَلَى تَقْدِيرَيِ التَّأْكِيدِ وَالْبَدَلِيَّةِ.**

**وَالِاسْتِهْزَاءُ: السُّخْرِيَةُ، يُقَالُ: هَزَأَ بِهِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ، فَالسِّينُ وَالتَّاءُ لِلتَّأْكِيدِ مِثْلُ اسْتَجَابَ، أَيْ عَامَلَهُ فِعْلًا أَوْ قَوْلًا يَحْصُلُ بِهِ احْتِقَارُهُ أَوْ وَالتَّطْرِيَةُ بِهِ، سَوَاءٌ أَشْعَرَهُ بِذَلِكَ أَمْ أَخْفَاهُ عَنْهُ. وَالْبَاءُ فِيهِ لِلسَّبَبِيَّةِ.**

**قِيلَ: لَا يَتَعَدَّى بِغَيْرِ الْبَاءِ وَقِيلَ يَتَعَدَّى بِمِنْ، وَهُوَ مُرَادِفُ سَخِرَ فِي الْمَعْنَى دُونَ الْمَادَّةِ كَمَا سَيَأْتِي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ.**

**وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ (مُسْتَهْزُونَ) بِدُونِ هَمْزَةٍ، وَبِضَمِّ الزَّايِ تَخْفِيفًا، وَهُوَ لُغَةٌ فَصِيحَةٌ فِي الْمَهْمُوزِ.**

**﴿**[**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[[287]](#footnote-287)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=50#docu)

**لَمْ تُعْطَفْ هَاتِهِ الْجُمْلَةُ عَلَى مَا قَبْلَهَا، لِأَنَّهَا جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا جَوَابًا لِسُؤَالٍ مُقَدَّرٍ، وَذَلِكَ أَنَّ السَّامِعَ لِحِكَايَةِ قَوْلِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ: آمَنَّا، وَقَوْلِهِمْ لِشَيَاطِينِهِمْ: إِنَّا مَعَكُمْ إِلَخْ. يَقُولُ: لَقَدْ رَاجَتْ حِيلَتُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْغَافِلِينَ عَنْ كَيْدِهِمْ، وَهَلْ يَتَفَطَّنُ مُتَفَطِّنٌ فِي الْمُسْلِمِينَ لِأَحْوَالِهِمْ فَيُجَازِيهِمْ عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ، أَوْ هَلْ يَرُدُّ لَهُمْ مَا رَامُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنِ الَّذِي يَتَوَلَّى مُقَابَلَةَ صُنْعِهِمْ؟ فَكَانَ لِلِاسْتِئْنَافِ بِقَوْلِهِ: ﴿**[**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=50#docu)**﴾[[288]](#footnote-288) غَايَةُ الْفَخَامَةِ وَالْجَزَالَةِ. وَهُوَ أَيْضًا وَاقِعٌ مَوْقِعَ الِاعْتِرَاضِ، وَالْأَكْثَرُ فِي الِاعْتِرَاضِ تَرْكُ الْعَاطِفِ.**

**وَذِكْرُ: يَسْتَهْزِئُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَضْمُونَ الْجُمْلَةِ مُجَازَاةٌ عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ. وَلِأَجَلِ اعْتِبَارِ الِاسْتِئْنَافِ قُدِّمَ اسْمُ اللَّهِ –تَعَالَى- عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ. وَلَمْ يَقُلْ يَسْتَهْزِئُ اللَّهُ بِهِمْ، لِأَنَّ مِمَّا يَجُولُ فِي خَاطِرِ السَّائِلِ أَنْ يَقُولَ: مَنِ الَّذِي يَتَوَلَّى مُقَابَلَةَ سُوءِ صَنِيعِهِمْ فَأُعْلِمَ أَنَّ الَّذِي يَتَوَلَّى ذَلِكَ هُوَ رَبُّ الْعِزَّةِ تَعَالَى.**

**وَفِي ذَلِكَ تَنْوِيهٌ بِشَأْنِ الْمُنْتَصِرِ لَهُمْ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ كَمَا قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[[289]](#footnote-289)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=50#docu)**فَتَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ هُنَا لِإِفَادَةِ تَقَوِّي الْحُكْمِ لَا مَحَالَةَ، ثُمَّ يُفِيدُ مَعَ ذَلِكَ قَصْرُ الْمُسْنَدِ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ تَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْمُسْنَدِ الْفِعْلِيِّ فِي سِيَاقِ الْإِيجَابِ يَأْتِي لِتَقَوِّي الْحُكْمِ وَيَأْتِي لِلْقَصْرِ عَلَى رَأْيِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَاهِرِ وَصَاحِبِ *الْكَشَّافِ*، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[[290]](#footnote-290)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=50#docu)**فِي سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ، كَانَ الْجَمْعُ بَيْنَ قَصْدِ التَّقَوِّي وَقَصْدِ التَّخْصِيصِ جَائِزًا فِي مَقَاصِدِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ، وَقَدْ جَوَّزَهُ فِي *الْكَشَّافِ* عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾[[291]](#footnote-291)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=50#docu)**فِي سُورَةِ الْجِنِّ؛ لِأَنَّ مَا يُرَاعِيهِ الْبَلِيغُ مِنَ الْخُصُوصِيَّاتِ لَا يَتْرُكُ حَمْلَ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ عَلَيْهِ فَكَيْفَ بِأَبْلَغِ كَلَامٍ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ النُّكَتُ لَا تَتَزَاحَمُ.**

**كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَغُرُّهُمْ مَا يَرَوْنَ مِنْ صَفْحِ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْهُمْ وَإِعْرَاضِ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ التَّنَازُلِ لَهُمْ فَيَحْسَبُونَ رَوَاجَ حِيلَتِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ: ﴿**[**لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[[292]](#footnote-292)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=50#docu)**فَقَالَ اللَّهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾[[293]](#footnote-293)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=50#docu)**فَتَقْدِيمُ اسْمِ الْجَلَالَةِ لِمُجَرَّدِ الِاهْتِمَامِ لَا لِقَصْدِ التَّقَوِّي إِذْ لَا مُقْتَضَى لَهُ.**

**وَفِعْلُ ﴿يَسْتَهْزِئُ﴾[[294]](#footnote-294) الْمُسْنَدُ إِلَى اللَّهِ لَيْسَ مُسْتَعْمَلًا فِي حَقِيقَتِهِ، لِأَنَّ الْمُرَادَ هُنَا أَنَّهُ يَفْعَلُ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مَا يُسَمَّى بِالِاسْتِهْزَاءِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾[[295]](#footnote-295)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=50#docu)**وَلَمْ يَقَعِ اسْتِهْزَاءٌ حَقِيقِيٌّ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ إِمَّا تَمْثِيلٌ لِمُعَامَلَةِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ فِي مُقَابَلَةِ اسْتِهْزَائِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، بِمَا يُشْبِهُ فِعْلَ الْمُسْتَهْزِئِ بِهِمْ وَذَلِكَ بِالْإِمْلَاءِ لَهُمْ حَتَّى يَظُنُّوا أَنَّهُمْ سَلِمُوا مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ، فَيَظُنُّوا أَنَّ اللَّهَ رَاضٍ عَنْهُمْ أَوْ أَنَّ أَصْنَامَهُمْ نَفَعُوهُمْ، حَتَّى إِذَا نَزَلَ بِهِمْ عَذَابُ الدُّنْيَا مِنَ الْقَتْلِ وَالْفَضْحِ عَلِمُوا خِلَافَ مَا تَوَهَّمُوا، فَكَانَ ذَلِكَ كَهَيْئَةِ الِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ. وَالْمُضَارِعُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَسْتَهْزِئُ﴾[[296]](#footnote-296) لِزَمَنِ الْحَالِ.**

**وَلَا يُحْمَلُ عَلَى اتِّصَافِ اللَّهِ بِالِاسْتِهْزَاءِ حَقِيقَةً عِنْدَ الْأَشَاعِرَةِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَقَعْ مِنَ اللَّهِ مَعْنَى الِاسْتِهْزَاءِ فِي الدُّنْيَا، وَيُحَسِّنُ هَذَا التَّمْثِيلَ مَا فِيهِ مِنَ الْمُشَاكَلَةِ.**

**وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿**[**يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[[297]](#footnote-297)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=50#docu)**حَقِيقَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْ يَأْمُرَ بِالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ فِي الْمَوْقِفِ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْعِقَاب،ِ فَيَكُونُ الْمُضَارِعُ فِي يَسْتَهْزِئُ لِلِاسْتِقْبَالِ.**

**وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى نَحَا**[**ابْنُ عَبَّاسٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=11)**وَالْحَسَنُ فِي نَقْلِ ابْنِ عَطِيَّةَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا بِهِ جَزَاءُ اسْتِهْزَائِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ أَوْ نَحْوِهِ مِنَ الْإِذْلَالِ وَالتَّحْقِيرِ وَالْمَعْنَى: (يُذِلُّهُمْ) وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالِاسْتِهْزَاءِ مَجَازًا وَمُشَاكَلَةً، أَوْ مُرَادًا بِهِ مَآلُ الِاسْتِهْزَاءِ مِنْ رُجُوعِ الْوَبَالِ عَلَيْهِمْ.**

**وَهَذَا كُلُّهُ -وَإِنْ جَازَ- فَقَدْ عَيَّنَهُ هُنَا جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ كَمَا نَقَلَ ابْنُ عَطِيَّةَ وَالْقُرْطُبِيُّ وَعَيَّنَهُ**[**الْفَخْرُ الرَّازِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16785)**وَالْبَيْضَاوِيُّ وَعَيَّنَهُ الْمُعْتَزِلَةُ أَيْضًا، لِأَنَّ الِاسْتِهْزَاءَ لَا يَلِيقُ إِسْنَادُهُ إِلَى اللَّهِ حَقِيقَةً، لِأَنَّهُ فِعْلٌ قَبِيحٌ يُنَزَّهُ اللَّهَ –تَعَالَى- عَنْهُ كَمَا فِي *الْكَشَّافِ*، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْمُتَعَارَفِ بَيْنَ النَّاسِ.**

**وَجِيءَ فِي حِكَايَةِ كَلَامِهِمْ بِالْمُسْنَدِ الِاسْمِيِّ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿**[**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[[298]](#footnote-298)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=50#docu)**لِإِفَادَةِ كَلَامِهِمْ مَعْنَى دَوَامِ صُدُورِ الِاسْتِهْزَاءِ مِنْهُمْ وَثَبَاتِهِ، بِحَيْثُ لَا يُحَوَّلُونَ عَنْهُ.**

**وَجِيءَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[[299]](#footnote-299)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=50#docu)**بِإِفَادَةِ التَّجَدُّدِ مِنَ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ؛ أَيْ تَجَدُّدِ إِمْلَاءِ اللَّهِ لَهُمْ زَمَانًا إِلَى أَنْ يَأْخُذَهُمُ الْعَذَابُ، لِيَعْلَمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ النِّفَاقِ مِنَ النِّعْمَةِ إِنَّمَا هُوَ إِمْلَاءٌ، وَإِنْ طَالَ كَمَا قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾[[300]](#footnote-300).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=50#docu)

**﴿**[**وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[[301]](#footnote-301)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=51#docu)**يَتَعَيَّنُ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى: ﴿**[**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[[302]](#footnote-302).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=51#docu)

**وَيَمُدُّ فِعْلٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْمَدَدِ وَهُوَ الزِّيَادَةُ، يُقَالُ مَدَّهُ إِذَا زَادَهُ، وَهُوَ الْأَصْلُ فِي الِاشْتِقَاقِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى الْهَمْزَةِ لِأَنَّهُ مُتَعَدٍّ، وَدَلِيلُهُ أَنَّهُمْ ضَمُّوا الْعَيْنَ فِي الْمُضَارِعِ عَلَى قِيَاسِ الْمُضَاعَفِ الْمُتَعَدِّي.**

**وَقَدْ يَقُولُونَ: (أَمَدَّهُ) بِهَمْزَةِ التَّعْدِيَةِ عَلَى تَقْدِيرِ: جَعَلَهُ ذَا مَدَدٍ ثُمَّ غَلَبَ اسْتِعْمَالُ مَدَّ فِي الزِّيَادَةِ فِي ذَاتِ الْمَفْعُولِ نَحْوُ مَدَّ لَهُ فِي عُمُرِهِ، وَمَدَّ الْأَرْضَ، أَيْ مَطَّطَهَا وَأَطَالَهَا، وَغَلَبَ اسْتِعْمَالُ أَمَدَّ الْمَهْمُوزِ فِي الزِّيَادَةِ لِلْمَفْعُولِ مِنْ أَشْيَاءَ يَحْتَاجُهَا، نَحْوُ أَمَدَّهُ بِجَيْشٍ: ﴿**[**أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾[[303]](#footnote-303).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=51#docu)

**وَإِنَّمَا اسْتُعْمِلَ هَذَا فِي مَوْضِعِ الْآخَرِ عَلَى الْأَصْلِ، فَلِذَلِكَ قِيلَ: لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي الِاسْتِعْمَالِ، وَقِيلَ: يَخْتَصُّ أَمَدَّ الْمَهْمُوزُ بِالْخَيْرِ، نَحْوُ: ﴿**[**أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=51#docu)**﴾[[304]](#footnote-304)، وَيَخْتَصُّ مَدَّ بِغَيْرِ الْخَيْرِ وَنُقِلَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ فِي كِتَابِ الْحُجَّةِ، وَنَقَلَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ عَنْ**[**يُونُسَ بْنِ حَبِيبٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=17417)**، إِلَّا الْمُعَدَّى بِاللَّامِ، فَإِنَّهُ خَاصٌّ بِالزِّيَادَةِ فِي الْعُمُرِ وَالْإِمْهَالِ فِيهِ عِنْدَ**[**الزَّمَخْشَرِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14423)**وَغَيْرِهِ -خِلَافًا لِبَعْضِ اللُّغَوِيِّينَ-، فَاسْتَغْنَوْا بِذِكْرِ اللَّامِ الْمُؤْذِنَةِ بِأَنَّ ذَلِكَ لِلنَّفْعِ وَلِلْأَجَلِ بِسُكُونِ الْجِيمِ عَنِ التَّفْرِقَةِ بِالْهَمْزِ رُجُوعًا لِلْأَصْلِ لِئَلَّا يَجْمَعُوا بَيْنَ مَا يَقْتَضِي التَّعْدِيَةَ -وَهُوَ الْهَمْزَةُ- وَبَيْنَ مَا يَقْتَضِي الْقُصُورَ -وَهُوَ لَامُ الْجَرِّ-.**

**وَكُلُّ هَذَا مِنْ تَأْثِيرِ الْأَمْثِلَةِ عَلَى النَّاظِرِينَ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ لَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي يَتَفَرَّعُ مَعْنَاهَا الْوَضْعِيُّ إِلَى مَعَانٍ جُزْئِيَّةٍ لَهُ أَوْ مُقَيَّدَةٍ أَوْ مَجَازِيَّةٍ أَنْ يَخُصُّوا بَعْضَ لُغَاتِهِ أَوْ بَعْضَ أَحْوَالِهِ بِبَعْضِ تِلْكَ الْمَعَانِي جَرْيًا وَرَاءَ التَّنْصِيصِ فِي الْكَلَامِ وَدَفْعِ اللَّبْسِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ.**

**وَهَذَا مِنْ دَقَائِقِ اسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَلَا يُقَالُ: إِنَّ دَعْوَى اخْتِصَاصِ بَعْضِ الِاسْتِعْمَالَاتِ بِبَعْضِ الْمَعَانِي هِيَ دَعْوَى اشْتِرَاكٍ أَوْ دَعْوَى مَجَازٍ وَكِلَاهُمَا خِلَافُ الْأَصْلِ كَمَا أَوْرَدَ عَبْدُ الْحَكِيمِ، لِأَنَّ ذَلِكَ التَّخْصِيصَ -كَمَا عَلِمْتَ- اصْطِلَاحٌ فِي الِاسْتِعْمَالِ لَا تَعَدُّدُ وَضْعٍ وَلَا اسْتِعْمَالٌ فِي غَيْرِ الْمَعْنَى الْمَوْضُوعِ لَهُ.**

**وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: فَرَقَ وَفَرَّقَ، وَوَعَدَ وَأَوْعَدَ، وَنَشَدَ وَأَنْشَدَ، وَنَزَّلَ الْمُضَاعَفُ وَأَنْزَلَ، وَقَوْلُهُمِ: الْعِثَارُ مَصْدَرُ عَثَرَ إِذْ أُرِيدَ بِالْفِعْلِ الْحَقِيقَةُ، وَالْعُثُورُ مَصْدَرُ عَثَرَ إِذْ أُرِيدَ بِالْفِعْلِ الْمَجَازُ وَهُوَ الِاطِّلَاعُ، وَقَدْ فَرَّقَتِ الْعَرَبُ فِي مَصَادِرِ الْفِعْلِ الْوَاحِدِ وَفِي جُمُوعِ الِاسْمِ الْوَاحِدِ لِاخْتِلَافِ الْقُيُودِ.**

**وَتَعْدِيَةُ فِعْلِ (يَمُدُّ) إِلَى ضَمِيرِهِمُ الدَّالِّ عَلَى أَدَبٍ أَوْ ذَوْقٍ -مَعَ أَنَّ الْمَدَّ إِنَّمَا يَتَعَدَّى إِلَى الطُّغْيَانِ- جَاءَتْ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِجْمَالِ الَّذِي يَعْقُبُهُ التَّفْصِيلُ لِيَتَمَكَّنَ التَّفْصِيلُ فِي ذِهْنِ السَّامِعِ مِثْلُ طَرِيقَةِ بَدَلِ الِاشْتِمَالِ، وَجَعَلَ**[**الزَّجَّاجُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14416)**وَالْوَاحِدِيُّ أَصْلَهُ: وَيَمُدُّ لَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ، فَحَذَفَ لَامَ الْجَرِّ وَاتَّصَلَ الْفِعْلُ بِالْمَجْرُورِ عَلَى طَرِيقَةِ نَزْعِ الْخَافِضِ وَلَيْسَ بِذَلِكَ.**

**وَالطُّغْيَانُ مَصْدَرٌ بِوَزْنِ الْغُفْرَانِ وَالشُّكْرَانِ، وَهُوَ مُبَالَغَةٌ فِي الطَّغْيِ وَهُوَ الْإِفْرَاطُ فِي الشَّرِّ وَالْكِبْرِ، وَتَعْلِيقُ فِعْلِ يَمُدُّهُمْ هُنَا بِضَمِيرِ الذَّوَاتِ تَعْلِيقٌ إِجْمَالِيٍّ يُفَسِّرُهُ قَوْلُهُ: ﴿**[**فِي طُغْيَانِهِمْ﴾[[305]](#footnote-305)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=51#docu)**وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى تَقْدِيرِ لَامٍ مَحْذُوفَةٍ أَيْ يَمُدُّ لَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ أَيْ يُمْهِلُهُمْ، فَيَكُونُ نَحْوَ بَعْضِ مَا فُسِّرَ بِهِ قَوْلُهُ: ﴿**[**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[[306]](#footnote-306).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=51#docu)

**وَهَذَا قَوْلُ**[**الزَّجَّاجِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14416)**وَالْوَاحِدِيِّ وَفِيهِ بُعْدٌ. وَالْعَمَهُ انْطِمَاسُ الْبَصِيرَةِ وَتَحَيُّرُ الرَّأْيِ، وَفِعْلُهُ عَمِهَ فَهُوَ عَامِهٌ وَأَعْمَهُ.**

**وَإِسْنَادُ الْمَدِّ فِي الطُّغْيَانِ إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى- عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾[[307]](#footnote-307) إِسْنَادُ خَلْقٍ وَتَكْوِينٍ مَنُوطٍ بِأَسْبَابِ التَّكْوِينِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي حُصُولِ الْمُسَبَّبَاتِ عِنْدَ أَسْبَابِهَا.**

**فَالنِّفَاقُ إِذَا دَخَلَ الْقُلُوبَ، كَانَ مِنْ آثَارِهِ أَنْ لَا يَنْقَطِعَ عَنْهَا، وَلَمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِ وَصْفِ النِّفَاقِ أَنْ تُنْمِي عَنْهُ الرَّذَائِلُ الَّتِي قَدَّمْنَا بَيَانَهَا كَانَ تَكْوِينُهَا فِي نُفُوسِهِمْ مُتَوَلِّدًا مِنْ أَسْبَابٍ شَتَّى فِي طِبَاعِهِمْ مُتَسَلْسِلًا مِنِ ارْتِبَاطِ الْمُسَبَّبَاتِ بِأَسْبَابِهَا، وَهِيَ شَتَّى وَمُتَفَرِّعَةٌ، وَذَلِكَ بِخُلُقٍ خَاصٍّ بِهِمْ مُبَاشَرَةً، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمْ تَوْفِيقَهُ الَّذِي يَقْلَعُهُمْ عَنْ تِلْكَ الْجِبِلَّةِ بِمُحَارَبَةِ نُفُوسِهِمْ، فَكَانَ حِرْمَانُهُ إِيَّاهُمُ التَّوْفِيقَ مُقْتَضِيًا اسْتِمْرَارَ طُغْيَانِهِمْ وَتَزَايُدَهُ بِالرُّسُوخِ، فَإِسْنَادُ ازْدِيَادِهِ إِلَى اللَّهِ لِأَنَّهُ خَالِقُ النُّظُمِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ ازْدِيَادِهِ.**

**وَهَذَا يُعَدُّ مِنَ الْحَقِيقَةِ الْعَقْلِيَّةِ الشَّائِعَةِ وَلَيْسَ مِنَ الْمَجَازِ لِعَدَمِ مُلَاحَظَةِ خَلْقِ الْأَسْبَابِ بِحَسَبِ مَا تَعَارَفَهُ النَّاسُ مِنْ إِسْنَادِ مَا خَفِيَ فَاعِلُهُ إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى-؛ لِأَنَّهُ الْخَالِقُ لِلْأَسْبَابِ الْأَصْلِيَّةِ وَالْجَاعِلُ لِنَوَامِيسِهَا بِكَيْفِيَّةٍ لَا يَعْلَمُ النَّاسُ سِرَّهَا وَلَا شَاهَدُوا مَنْ تُسْنَدُ إِلَيْهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ غَيْرَهُ.**

**وَهَذَا بِخِلَافِ نَحْوِ: بَنَى الْأَمِيرُ الْمَدِينَةَ، لَاسِيَّمَا بَعْدَ التَّصْرِيحِ بِالْإِسْنَادِ إِلَيْهِ فِي الْكَلَامِ بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ لِلْبِنَاءِ عَلَى عُرْفِ النَّاسِ مَجَالٌ، وَهَذَا بِخِلَافِ نَحْوِ يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا وَسَرَّتْنِي رُؤْيَتُكَ، لِأَنَّ ذَلِكَ -وَإِنْ كَانَ فِي الْوَاقِعِ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى- إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُلْتَفَتٍ إِلَيْهِ فِي الْعُرْفِ، فَلِذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ: إِنَّهُ مِنَ الْمَجَازِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ.**

**وَإِنَّمَا أَضَافَ الطُّغْيَانَ لِضَمِيرِ الْمُنَافِقِينَ وَلَمْ يَقُلْ: فِي الطُّغْيَانِ، بِتَعْرِيفِ الْجِنْسِ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿**[**وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾[[308]](#footnote-308)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=51#docu)**إِشَارَةً إِلَى تَفْظِيعِ شَأْنِ هَذَا الطُّغْيَانِ وَغَرَابَتِهِ فِي بَابِهِ وَأَنَّهُمُ اخْتَصُّوا بِهِ حَتَّى صَارَ يُعْرَفُ بِإِضَافَتِهِ إِلَيْهِمْ.**

**وَالظَّرْفُ مُتَعَلِّقٌ بِـ (يَمُدُّهُمْ). وَ (يَعْمَهُونَ) جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ.**

**﴿**[**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾[[309]](#footnote-309)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)

**الْإِشَارَةُ إِلَى: ﴿**[**مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[[310]](#footnote-310)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)**وَمَا عُطِفَ عَلَى صِلَتِهِ مِنْ صِفَاتِهِمْ وَجِيءَ بِاسْمِ إِشَارَةِ الْجَمْعِ، لِأَنَّ مَاصَدَقَ‌ (مَنْ) هُوَ فَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ، وَفُصِلَتِ الْجُمْلَةُ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا لِتُفِيدَ تَقْرِيرَ مَعْنَى: ﴿**[**وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[[311]](#footnote-311)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)**فَمَضْمُونُهَا بِمَنْزِلَةِ التَّوْكِيدِ، وَذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِي الْفَصْلَ، وَلِتُفِيدَ تَعْلِيلَ مَضْمُونِ جُمْلَةِ: ﴿**[**وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾[[312]](#footnote-312)؛**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)**فَتَكُونُ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا لِسَائِلٍ عَنِ الْعِلَّةِ، وَهِيَ أَيْضًا فَذْلَكَةٌ لِلْجُمَلِ السَّابِقَةِ الشَّارِحَةِ لِأَحْوَالِهِمْ، وَشَأْنُ الْفَذْلَكَةِ عَدَمُ الْعَطْفِ كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿**[**تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[[313]](#footnote-313).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)

**وَكُلُّ هَذِهِ الِاعْتِبَارَاتِ مُقْتَضٍ لِعَدَمِ الْعَطْفِ فَفِيهَا ثَلَاثَةُ مُوجِبَاتٍ لِلْفَصْلِ.**

**وَمَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ نَظْمِ الْكَلَامِ مُقَابِلُ مَوْقِعِ جُمْلَةِ: ﴿**[**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾[[314]](#footnote-314)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)**وَمُقَابِلُ مَوْقِعِ جُمْلَةِ: ﴿**[**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[[315]](#footnote-315)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)**الْآيَةَ، وَاسْمُ الْإِشَارَةِ هُنَا غَيْرُ مُشَارٍ بِهِ إِلَى ذَوَاتٍ وَلَكِنْ إِلَى صِنْفٍ اجْتَمَعَتْ فِيهِمُ الصِّفَاتُ الْمَاضِيَةُ، فَانْكَشَفَتْ أَحْوَالُهُمْ حَتَّى صَارُوا كَالْحَاضِرِينَ تُجَاهَ السَّامِعِ بِحَيْثُ يُشَارُ إِلَيْهِمْ، وَهَذَا اسْتِعْمَالٌ كَثِيرُ الْوُرُودِ فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ.**

**وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْإِشَارَةِ إِشْعَارٌ بِبُعْدٍ أَوْ قُرْبٍ حَتَّى تُفِيدَ تَحْقِيرًا نَاشِئًا عَنِ الْبُعْد،ِ لِأَنَّ هَذَا مِنْ أَسْمَاءِ الْإِشَارَةِ الْغَالِبَةِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، فَلَا عُدُولَ فِيهَا، حَتَّى يَكُونَ الْعُدُولُ لِمَقْصِد،ٍ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾[[316]](#footnote-316)؛**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)**وَلِأَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِ هُنَا غَيْرُ مَحْسُوسٍ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مَرْتَبَةٌ مُعَيَّنَةٌ، فَيَكُونُ الْعُدُولُ عَنْ لَفْظِهَا لِقَصْدِ مَعْنًى ثَانٍ، فَإِنَّ قَوْلَهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾[[317]](#footnote-317)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)**مَعَ قُرْبِ الْكِتَابِ لِلنَّاطِقِ بِآيَاتِهِ عُدُولٌ عَنْ إِشَارَةِ الْقَرِيبِ إِلَى الْبَعِيدِ، فَأَفَادَ التَّعْظِيمَ. وَعَكْسُ هَذَا قَوْلُ قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ:**

**مَتَّى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا يُلْفِ حَاجَةً لِنَفْسِيَ إِلَّا قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا**

**فَإِنَّ الْمَوْتَ بَعِيدٌ عَنْهُ فَحَقُّهُ أَنْ يُشِيرَ إِلَيْهِ بِاسْمِ الْبَعِيدِ، وَعَدَلَ عَنْهُ إِلَى إِشَارَةِ الْقَرِيبِ لِإِظْهَارِ اسْتِخْفَافِهِ بِهِ.**

**وَالِاشْتِرَاءُ افْتِعَالٌ مِنَ الشَّرْيِ وَفِعْلُهُ شَرَى الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى بَاعَ كَمَا أَنَّ اشْتَرَى بِمَعْنَى ابْتَاعَ، فَاشْتَرَى وَابْتَاعَ كِلَاهُمَا مُطَاوِعٌ لِفِعْلِهِ الْمُجَرَّدِ.**

**أَشَارَ أَهْلُ اللِّسَانِ إِلَى أَنَّ فَاعِلَ هَذِهِ الْمُطَاوَعَةِ هُوَ الَّذِي قَبِلَ الْفِعْلَ وَالْتَزَمَهُ فَدَلُّوا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ آخِذٌ شَيْئًا لِرَغْبَةٍ فِيهِ.**

**وَلَمَّا كَانَ مَعْنَى الْبَيْعِ مُقْتَضِيًا آخِذِينَ وَبَاذِلِينَ، كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا بَائِعًا وَمُبْتَاعًا بِاخْتِلَافِ الِاعْتِبَارِ، فَفِعْلُ بَاعَ مَنْظُورٌ فِيهِ ابْتِدَاءً إِلَى مَعْنَى الْبَذْلِ؛ وَالْفِعْلُ ابْتَاعَ مَنْظُورٌ فِيهِ ابْتِدَاءً إِلَى مَعْنَى الْأَخْذِ، فَإِنِ اعْتَبَرَهُ الْمُتَكَلِّمُ آخِذًا لِمَا صَارَ بِيَدِهِ عَبَّرَ عَنْهُ بِمُبْتَاعٍ وَمُشْتَرٍ، وَإِنِ اعْتَبَرَهُ بَاذِلًا لِمَا خَرَجَ مِنْ يَدِهِ مِنَ الْعِوَضِ، عَبَّرَ عَنْهُ بِبَائِعٍ وَشَارٍ؛ وَبِهَذَا يَكُونُ الْفِعْلَانِ جَارِيَيْنِ عَلَى سَنَنٍ وَاحِدٍ.**

**وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ اللُّغَوِيِّينَ أَنَّ شَرَى يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى اشْتَرَى وَالَّذِي جَرَّأَهُمْ عَلَى ذَلِكَ سُوءُ التَّأَمُّلِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)**﴾[[318]](#footnote-318)، فَتَوَهَّمُوا الضَّمِيرَ عَائِدًا إِلَى الْمِصْرِيِّينَ مَعَ أَنَّ مَعَادَهُ وَاضِحٌ قَرِيبٌ، وَهُوَ سَيَّارَةٌ مِنْ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾[[319]](#footnote-319)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)**أَيْ بَاعُوهُ، وَحَسْبُكَ شَاهِدًا عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿**[**وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[[320]](#footnote-320)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)**أَمَّا الَّذِي اشْتَرَاهُ، فَهُوَ فِيهِ مِنَ الرَّاغِبِينَ.**

**أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ لِامْرَأَتِهِ: ﴿**[**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾[[321]](#footnote-321)؟!**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)

**وَعَلَى ذَيْنِكَ الْاعْتِبَارَيْنِ فِي فِعْلَيِ الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ كَانَتْ تَعْدِيَتُهُمَا إِلَى الْمَفْعُولِ فَهُمَا يَتَعَدَّيَانِ إِلَى الْمَقْصُودِ الْأَصْلِيِّ بِأَنْفُسِهِمَا وَإِلَى غَيْرِهِ بِالْبَاء،ِ فَيُقَالُ بَاعَ فَرَسَهُ بِأَلْفٍ وَابْتَاعَ فَرَسَ فُلَانٍ بِأَلْفٍ، لِأَنَّ الْفَرَسَ هُوَ الَّذِي كَانَتِ الْمُعَاقَدَةُ لِأَجْلِهِ، لِأَنَّ الَّذِي أَخْرَجَهُ لِيَبِيعَهُ عَلِمَ أَنَّ النَّاسَ يَرْغَبُونَ فِيهِ وَالَّذِي جَاءَ لِيَشْتَرِيَهُ كَذَلِكَ.**

**وَإِطْلَاقُ الِاشْتِرَاءِ هُنَا مَجَازٌ مُرْسَلٌ بِعَلَاقَةِ اللُّزُومِ، أَطْلَقَ الِاشْتِرَاءَ عَلَى لَازِمِهِ الثَّانِي، وَهُوَ الْحِرْصُ عَلَى شَيْءٍ وَالزُّهْدُ فِي ضِدِّهِ، أَيْ حَرَصُوا عَلَى الضَّلَالَةِ، وَزَهِدُوا فِي الْهُدَى، إِذْ لَيْسَ فِي مَا وَقَعَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ اسْتِبْدَالُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، إِذْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ قَبْلُ مُهْتَدِينَ.**

**وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الِاشْتِرَاءُ مُسْتَعْمَلًا فِي الِاسْتِبْدَالِ، وَهُوَ لَازِمُهُ الْأَوَّلُ وَاسْتِعْمَالُهُ فِي هَذَا اللَّازِمِ مَشْهُورٌ.**

**قَالَ بَشَامَةُ بْنُ حَزْنٍ:**

**إِنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لَا نَدَّعِي لِأَبٍ    عَنْهُ وَلَا هُوَ بِالْأَبْنَاءِ يَشْرِينَـــــــــا**

**أَيْ يَبِيعُنَا أَيْ يُبَدِّلُنَا.**

**وَقَالَ عَنْتَرَةُ بْنُ الْأَخْرَسِ الْمَعْنِيُّ مِنْ شُعَرَاءِ الْحَمَاسَةِ:**

**وَمَنْ إِنْ بِعْتَ مَنْزِلَةً بِأُخْــــرَى    حَلَلْتَ بِأَمْرِهِ وَبِهِ تَسِيــــــــــــــــــــــــــــــرُ**

**أَيْ إِذَا اسْتَبْدَلْتَ دَارًا بِأُخْرَى.**

**وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِ أَبِي النَّجْمِ:**

**أَخَذْتُ بِالْجَمَّةِ رَأْسًا أَزْعَـــــــــــــــــــــــرًا**

**وَبِالطَّوِيلِ الْعُمْرِ عُمْرَا جَيْـــــــــــــــدَرَا**

**كَمَا اشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّــــــرَا**

**فَيَكُونُ الْحَمْلُ عَلَيْهِ هُنَا أَنَّ اخْتِلَاطَهُمْ بِالْمُسْلِمِينَ وَإِظْهَارَهُمُ الْإِيمَانَ حَالَةٌ تُشْبِهُ حَالَ الْمُهْتَدِي تَلَبَّسُوا بِهَا، فَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ طَرَحُوهَا وَاسْتَبْدَلُوهَا بِحَالَةِ الضَّلَالِ.**

**وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ الثَّانِي يَصِحُّ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الِاشْتِرَاءُ اسْتِعَارَةً بِتَشْبِيهِ تَيْنِكَ الْحَالَتَيْنِ بِحَالِ الْمُشْتَرِي لِشَيْءٍ كَانَ غَيْرَ جَائِزٍ لَهُ وَارْتَضَاهُ فِي *الْكَشَّافِ*.**

**وَالْمَوْصُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**الَّذِينَ اشْتَرَوُا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)**﴾[[322]](#footnote-322) بِمَعْنَى الْعُرْفِ بِلَامِ الْجِنْسِـ فَيُفِيدُ التَّرْكِيبُ قَصْرَ الْمُسْنَدِ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، وَهُوَ قَصْرٌ ادِّعَائِيٌّ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ بَلَغُوا الْغَايَةَ فِي اشْتِرَاءِ الضَّلَالَةِ وَالْحِرْصِ عَلَيْهَاـ إِذْ جَمَعُوا الْكُفْرَ وَالسَّفَهَ وَالْخِدَاعَ وَالْإِفْسَادَ وَالِاسْتِهْزَاءَ بِالْمُهْتَدِينَ.**

**﴿**[**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[[323]](#footnote-323)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=53#docu)

**رَتَّبَتِ الْفَاءُ عَدَمَ الرِّبْحِ الْمَعْطُوفِ بِهَا وَعَدَمَ الِاهْتِدَاءِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ عَلَى اشْتِرَاءِ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى، لِأَنَّ كِلَيْهِمَا نَاشِئٌ عَنِ الِاشْتِرَاءِ الْمَذْكُورِ فِي الْوُجُودِ وَالظُّهُورِ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى، فَقَدِ اشْتَرَوْا مَا لَا يَنْفَعُ وَبَذَلُوا مَا يَنْفَعُ، فَلَا جَرَمَ أَنْ يَكُونُوا خَاسِرِينَ وَأَنْ يَتَحَقَّقَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُهْتَدِينَ، فَعَدَمُ الِاهْتِدَاءِ وَإِنْ كَانَ سَابِقًا عَلَى اشْتِرَاءِ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى أَوْ هُوَ عَيْنُهُ أَوْ هُوَ سَبَبُهُ، إِلَّا أَنَّهُ لِكَوْنِهِ عَدَمًا فَظُهُورُهُ لِلنَّاسِ فِي الْوُجُودِ لَا يَكُون،ُ إِلَّا عِنْدَ حُصُولِ أَثَرِهِ، وَهُوَ ذَلِكَ الِاشْتِرَاءُ، فَإِذَا ظَهَرَ أَثَرُهُ تَبَيَّنَ لِلنَّاسِ الْمُؤَثِّرُ؛ فَلِذَلِكَ صَحَّ تَرْتِيبُهُ بِفَاءِ التَّرْتِيبِ، فَأَشْبَهَ الْعِلَّةَ الْغَائِيَّةَ.**

**وَلِهَذَا عَبَّرَ بِـ ﴿**[**مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=53#docu)**﴾[[324]](#footnote-324) دُونَ مَا اهْتَدَوْا، لِأَنَّ ﴿مَا كَانُوا﴾[[325]](#footnote-325) أَبْلَغُ فِي النَّفْيِ، لِإِشْعَارِهِ بِأَنَّ انْتِفَاءَ الِاهْتِدَاءِ عَنْهُمْ أَمْرٌ مُتَأَصِّلٌ سَابِقٌ قَدِيمٌ، لِأَنَّ كَانَ تَدُلُّ عَلَى اتِّصَافِ اسْمِهَا بِخَبَرِهَا مُنْذُ الْمُضِيِّ، فَكَانَ نَفْيُ الْكَوْنِ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي أَنْسَبَ بِهَذَا التَّفْرِيعِ.**

**وَالرِّبْحُ هُوَ نَجَاحُ التِّجَارَةِ وَمُصَادَفَةُ الرَّغْبَةِ فِي السِّلَعِ بِأَكْثَرَ مِنَ الْأَثْمَانِ الَّتِي اشْتَرَاهَا بِهَا التَّاجِرُ، وَيُطْلَقُ الرِّبْحُ عَلَى الْمَالِ الْحَاصِلِ لِلتَّاجِرِ زَائِدًا عَلَى رَأْسِ مَالِهِ.**

**وَالتِّجَارَةُ بِكَسْرِ أَوَّلِهِ عَلَى وَزْنِ فِعَالَةٍ، وَهِيَ زِنَةُ الصَّنَائِعِ.**

**وَمَعْنَى التِّجَارَةِ: التَّصَدِّي لِاشْتِرَاءِ الْأَشْيَاءِ لِقَصْدِ بَيْعِهَا بِثَمَنٍ أَوْفَرَ مِمَّا اشْتَرَى بِهِ لِيَكْتَسِبَ مِنْ ذَلِكَ الْوَفْرِ مَا يُنْفِقُهُ أَوْ يَتَأَثَّلُهُ.**

**وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ لَا يَنْجَحُ إِلَّا بِالْمُثَابَرَةِ وَالتَّجْدِيدِ صِيغَ لَهُ وَزْنُ الصَّنَائِعِ، وَنَفْيُ الرِّبْحِ فِي الْآيَةِ تَشْبِيهٌ لِحَالِ الْمُنَافِقِينَ -إِذْ قَصَدُوا مِنَ النِّفَاقِ غَايَةً، فَأَخْفَقَتْ مَسَاعِيهِمْ وَضَاعَتْ مَقَاصِدُهُمْ- بِحَالِ التُّجَّارِ الَّذِينَ لَمْ يَحْصُلُوا مِنْ تِجَارَتِهِمْ عَلَى رِبْحٍ، فَلَا الْتِفَاتَ إِلَى رَأْسِ مَالٍ فِي التِّجَارَةِ حَتَّى يُقَالَ إِنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَرْبَحُوا فَقَدْ بَقِيَ لَهُمْ نَفْعُ رَأْسِ الْمَالِ، وَيُجَابُ بِأَنَّ نَفْيَ الرِّبْحِ يَسْتَلْزِمُ ضَيَاعَ رَأْسِ الْمَالِ لِأَنَّهُ يَتْلَفُ فِي النَّفَقَةِ مِنَ الْقُوتِ وَالْكُسْوَةِ لِأَنَّ هَذَا كُلَّهُ غَيْرُ مَنْظُورٍ إِلَيْهِ ؛ إِذِ الِاسْتِعَارَةُ تَعْتَمِدُ عَلَى مَا يُقْصَدُ مِنْ وَجْهِ الشَّبَهِ فَلَا تَلْزَمُ الْمُشَابِهَةُ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي فَنِّ الْبَيَانِ.**

**وَإِنَّمَا أُسْنِدَ الرِّبْحُ إِلَى التِّجَارَةِ حَتَّى نُفِيَ عَنْهَا، لِأَنَّ الرِّبْحَ لَمَّا كَانَ مُسَبَّبًا عَنِ التِّجَارَةِ وَكَانَ الرَّابِحُ هُوَ التَّاجِرُ صَحَّ إِسْنَادُهُ لِلتِّجَارَةِ، لِأَنَّهَا سَبَبُهُ، فَهُوَ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَوْلَا الْإِسْنَادُ الْمَجَازِيُّ لَمَا صَحَّ أَنْ يُنْفَى عَنِ الشَّيْءِ مَا يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ صِفَاتِه،ِ لِأَنَّهُ يَصِيرُ مِنْ بَابِ الْإِخْبَارِ بِالْمَعْلُومِ ضَرُورَةً، فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ النَّفْيَ فِي مِثْلِ هَذَا حَقِيقَةٌ فَتَتْرُكَهُ، إِنَّ انْتِفَاءَ الرِّبْحِ عَنِ التِّجَارَةِ وَاقِعٌ ثَابِتٌ: لِأَنَّهَا لَا تُوصَفُ بِالرِّبْحِ.**

**وَهَكَذَا تَقُولُ فِي نَحْوِ قَوْلِ جَرِيرٍ:**

**وَنِمْتُ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِــــــــــــــــــمِ**

**بِخِلَافِ قَوْلِكَ مَا لَيْلُهُ بِطَوِيلٍ، بَلِ النَّفْيُ هُنَا مَجَازٌ عَقْلِيٌّ لِأَنَّهُ فَرْعٌ عَنِ اعْتِبَارِ وَصْفِ التِّجَارَةِ بِأَنَّهَا إِلَى الْخُسْرِ، وَوَصْفُهَا بِالرِّبْحِ مَجَازٌ، وَقَاعِدَةُ ذَلِكَ أَنْ تَنْظُرَ فِي النَّفْيِ إِلَى الْمَنْفِيِّ لَوْ كَانَ مُثْبَتًا، فَإِنْ وَجَدْتَ إِثْبَاتَهُ مَجَازًا عَقْلِيًّا فَاجْعَلْ نَفْيَهُ كَذَلِكَ وَإِلَّا فَاجْعَلْ نَفْيَهُ حَقِيقَة،ً لِأَنَّهُ لَا يُنْفَى إِلَّا مَا يَصِحُّ أَنْ يُثْبَتَ.**

**وَهَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي انْفَصَلَ عَلَيْهَا الْمُحَقِّقُ التَّفْتَزَانِيُّ فِي الْمُطَوَّلِ، وَعَدَلَ عَنْهَا فِي حَوَاشِي *الْكَشَّافِ*، وَهِيَ أَمْثَلُ مِمَّا عَدَلَ إِلَيْهِ.**

**وَقَدْ أَفَادَ قَوْلُهُ: ﴿**[**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾[[326]](#footnote-326)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=53#docu)**تَرْشِيحًا لِلِاسْتِعَارَةِ فِي ﴿اشْتَرَوُا﴾[[327]](#footnote-327)، فَإِنَّ مَرْجِعَ التَّرْشِيحِ إِلَى أَنْ يُقَفِّيَ الْمَجَازَ بِمَا يُنَاسِبُهُ، سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ التَّرْشِيحُ حَقِيقَةً، بِحَيْثُ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ إِلَّا تَقْوِيَةُ الْمَجَازِ -كَمَا تَقُولُ: لَهُ يَدٌ طُولَى أَوْ: هُوَ أَسَدٌ دَامِي الْبَرَاثِنِ- أَمْ كَانَ التَّرْشِيحُ مُتَمَيِّزًا بِهِ أَوْ مُسْتَعَارًا لِمَعْنًى آخَرَ هُوَ مِنْ مُلَائَمَاتِ الْمَجَازِ الْأَوَّلِ، سَوَاءٌ حَسُنَ مَعَ ذَلِكَ اسْتِقْلَالُهُ بِالِاسْتِعَارَةِ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّ نَفْيَ الرِّبْحِ تُرَشِّحَ بِهِ ﴿اشْتَرَوُا﴾[[328]](#footnote-328).**

**وَمِثْلُهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ -أَنْشَدَهُ**[**ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12585)**- كَمَا فِي أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ**[**لِلزَّمَخْشَرِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14423)**وَلَمْ يَعْزُهُ:**

**وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّسْرَ عَزَّ ابْنَ دَايَةٍ    وَعَشَّشَ فِي وَكْرَيْهِ جَاشَ لَهُ صَدْرِي**

**فَإِنَّهُ لَمَّا شَبَّهَ الشَّيْبَ بِالنَّسْرِ وَالشَّعْرَ الْأَسْوَدَ بِالْغُرَابِ صَحَّ تَشْبِيهُ حُلُولِ الشَّيْبِ فِي مَحَلَّيِ السَّوَادِ وَهُمَا الْفَوْدَانِ بِتَعْشِيشِ الطَّائِرِ فِي مَوْضِعِ طَائِرٍ آخَرَ، أَمْ لَمْ يَحْسُنْ إِلَّا مَعَ الْمَجَازِ الْأَوَّلِ كَقَوْلِ بَعْضِ فُتَّاكِ الْعَرَبِ فِي أُمِّهِ -أَنْشَدَهُ فِي *الْكَشَّافِ* وَلَمْ أَقِفْ عَلَى تَعْيِينِ قَائِلِهِ-:**

**وَمَا أُمُّ الرُّدَيْنِ وَإِنْ أَدَلَّــــــــــــــــــتْ      بِعَالِمَةٍ بِأَخْلَاقِ الْكِـــــــرَامِ**

**إِذَا الشَّيْطَانُ قَصَّعَ فِي قَفَاهَـــا      تَنَفَّقْنَاهُ بِالْحَبْلِ التُّـــــــــؤَامِ**

**فَإِنَّهُ لَمَّا اسْتَعَارَ "قَصَّعَ" لِدُخُولِ الشَّيْطَانِ أَيْ وَسْوَسَتِهِ، وَهِيَ اسْتِعَارَةٌ حَسَنَةٌ، لِأَنَّهُ شَبَّهَ الشَّيْطَانَ بِضَبٍّ يَدْخُلُ لِلْوَسْوَسَةِ، وَدُخُولُهُ مِنْ مَدْخَلِهِ الْمُتَعَارَفِ لَهُ، وَهُوَ الْقَاصِعَاءُ.**

**وَجَعَلَ عِلَاجَهُمْ وَإِزَالَةَ وَسْوَسَتِهِ كَالتَّنَفُّقِ، أَيْ تَطَلُّبِ خُرُوجِ الضَّبِّ مِنْ نَافِقَائِهِ بَعْدَ أَنْ يُسَدَّ عَلَيْهِ الْقَاصِعَاءُ وَلَا تَحْسُنُ هَذِهِ الثَّانِيَةُ إِلَّا تَبَعًا لِلْأُولَى. وَالْآيَةُ لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[[329]](#footnote-329)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=53#docu)**قَدْ عُلِمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**[**اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾[[330]](#footnote-330)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=53#docu)**إِلَى ﴿**[**وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=53#docu)**﴾[[331]](#footnote-331)، فَتَعَيَّنَ أَنَّ الِاهْتِدَاءَ الْمَنْفِيَّ هُوَ الِاهْتِدَاءُ بِالْمَعْنَى الْأَصْلِيِّ فِي اللُّغَةِ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ الطَّرِيقِ الْمُوَصِّلِ لِلْمَقْصُودِ، وَلَيْسَ هُوَ بِالْمَعْنَى الشَّرْعِيِّ الْمُتَقَدِّمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾[[332]](#footnote-332)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=53#docu)**فَلَا تَكْرِيرَ فِي الْمَعْنَى، فَلَا يَرِدُ أَنَّهُمْ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمُ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى كَانَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِيهِمْ هُدًى.**

**وَمَعْنَى نَفْيِ الِاهْتِدَاءِ كِنَايَةٌ عَنْ إِضَاعَةِ الْقَصْدِ، أَيْ أَنَّهُمْ أَضَاعُوا مَا سَعَوْا لَهُ وَلَمْ يَعْرِفُوا مَا يُوَصِّلُ لِخَيْرِ الْآخَرِ وَلَا مَا يَضُرُّ الْمُسْلِمِينَ.**

**وَهَذَا نِدَاءٌ عَلَيْهِمْ بِسَفَهِ الرَّأْيِ وَالْخَرْقِ، وَهُوَ كَمَا عَلِمْتَ فِيمَا تَقَدَّمَ يَجْرِي مَجْرَى الْعِلَّةِ لِعَدَمِ رِبْحِ التِّجَارَةِ، فَشُبِّهَ سُوءُ تَصَرُّفِهِمْ - حَتَّى فِي كُفْرِهِمْ بِسُوءِ تَصَرُّفِ مَنْ يُرِيدُ الرِّبْحَ، فَيَقَعُ فِي الْخُسْرَانِ.**

**فَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[[333]](#footnote-333)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=53#docu)**تَمْثِيلِيَّةٌ، وَيَصِحُّ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْهَا كِنَايَةٌ عَنِ الْخُسْرَانِ وَإِضَاعَةِ كُلِّ شَيْءٍ، لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُهْتَدِيًا أَضَاعَ الرِّبْحَ وَأَضَاعَ رَأْسَ الْمَالِ بِسُوءِ سُلُوكِهِ.**

**﴿**[**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[[334]](#footnote-334)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)

**أَعْقَبَتْ تَفَاصِيلَ صِفَاتِهِمْ بِتَصْوِيرِ مَجْمُوعِهَا فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ، بِتَشْبِيهِ حَالِهِمْ بِهَيْئَةٍ مَحْسُوسَةٍ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ تَشْبِيهِ التَّمْثِيلِ، إِلْحَاقًا لِتِلْكَ الْأَحْوَالِ الْمَعْقُولَةِ بِالْأَشْيَاءِ الْمَحْسُوسَةِ، لِأَنَّ النَّفْسَ إِلَى الْمَحْسُوسِ أَمِيلُ.**

**وَإِتْمَامًا لِلْبَيَانِ بِجَمْعِ الْمُتَفَرِّقَاتِ فِي السَّمْعِ، الْمِطَالَةُ فِي اللَّفْظِ، فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ لِأَنَّ لِلْإِجْمَالِ بَعْدَ التَّفْصِيلِ وَقْعًا مِنْ نُفُوسِ السَّامِعِينَ. وَتَقْرِيرُ الْجَمْعِ مَا تَقَدَّمَ فِي الذِّهْنِ بِصُورَةٍ تُخَالِفُ مَا صُوِّرَ سَالِفًا، لِأَنَّ تَجَدُّدَ الصُّورَةِ عِنْدَ النَّفْسِ أَحَبُّ مِنْ تَكَرُّرِهَا.**

**قَالَ فِي *الْكَشَّافِ*: وَلِضَرْبِ الْعَرَبِ الْأَمْثَالَ وَاسْتِحْضَارِ الْعُلَمَاءِ الْمَثَلَ وَالنَّظَائِرَ شَأْنٌ لَيْسَ بِالْخَفِيِّ فِي إِبْرَازِ خَبِيَّاتِ الْمَعَانِي وَرَفْعِ الْأَسْتَارِ عَنِ الْحَقَائِقِ حَتَّى تُرِيَكَ الْمُتَخَيَّلَ فِي صُورَةِ الْمُحَقَّقِ وَالْمُتَوَهَّمَ فِي مَعْرِضِ الْمُتَيَقَّنِ وَالْغَائِبَ كَالْمَشَاهَدِ.**

**وَاسْتِدْلَالًا عَلَى مَا يَتَضَمَّنُهُ مَجْمُوعُ تِلْكَ الصِّفَاتِ مِنْ سُوءِ الْحَالَةِ وَخَيْبَةِ السَّعْيِ وَفَسَادِ الْعَاقِبَةِ، فَمِنْ فَوَائِدِ التَّشْبِيهِ قَصْدُ تَفْظِيعِ الْمُشَبَّهِ.**

**وَتَقْرِيبًا لِمَا فِي أَحْوَالِهِمْ فِي الدِّينِ مِنَ التَّضَادِّ وَالتَّخَالُفِ بَيْنَ ظَاهِرٍ جَمِيلٍ وَبَاطِنٍ قَبِيحٍ بِصِفَةِ حَالٍ عَجِيبَةٍ مِنْ أَحْوَالِ الْعَالَمِ، فَإِنَّ مِنْ فَائِدَةِ التَّشْبِيهِ إِظْهَارَ إِمْكَانِ الْمُشَبَّهِ، وَتَنْظِيرَ غَرَائِبِهِ بِمِثْلِهَا فِي الْمُشَبَّهِ بِهِ.**

**قَالَ فِي *الْكَشَّافِ*: وَلِأَمْرٍ مَا أَكْثَرَ اللَّهُ –تَعَالَى- فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ أَمْثَالَهُ وَفَشَتْ فِي كَلَامِ رَسُولِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَكَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْحُكَمَاءِ، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[[335]](#footnote-335)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)**اهـ.**

**وَالتَّمْثِيلُ مَنْزَعٌ جَلِيلٌ بَدِيعٌ مِنْ مَنَازِعِ الْبُلَغَاءِ لَا يَبْلُغُ إِلَى مَحَاسِنِهِ غَيْرُ خَاصَّتِهِمْ. وَهُوَ هُنَا مِنْ قَبِيلِ التَّشْبِيهِ لَا مِنَ الِاسْتِعَارَةِ لِأَنَّ فِيهِ ذِكْرَ الْمُشَبَّهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ وَأَدَاةِ التَّشْبِيه،ِ وَهِيَ لَفْظُ "مَثَلٍ".**

**فَجُمْلَةُ: ﴿**[**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[[336]](#footnote-336)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)**وَاقِعَةٌ مِنَ الْجُمَلِ الْمَاضِيَةِ مَوْقِعَ الْبَيَانِ وَالتَّقْرِيرِ وَالْفَذْلَكَةِ، فَكَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا قَبْلَهَا كَمَالُ الِاتِّصَالِ، فَلِذَلِكَ فُصِلَتْ وَلَمْ تُعْطَفْ، وَالْحَالَةُ الَّتِي وَقَعَ تَمْثِيلُهَا سَيَجِيءُ بَيَانُهَا فِي آخِرِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ.**

**وَأَصْلُ الْمَثَلِ بِفَتْحَتَيْنِ هُوَ النَّظِيرُ وَالْمُشَابِهُ، وَيُقَالُ أَيْضًا: مِثْلُ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الثَّاءِ وَيُقَالُ مَثِيلٌ كَمَا يُقَالُ شِبْهٌ وَشَبَهٌ وَشَبِيهٌ، وَبَدَلٌ وَبِدْلٌ، وَبَدِيلٌ، وَلَا رَابِعَ لِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي مَجِيءِ فَعَلٍ وَفِعْلٍ وَفَعِيلٍ بِمَعْنًى وَاحِدٍ.**

**وَقَدِ اخْتَصَّ لَفْظُ الْمَثَلِ "بِفَتْحَتَيْنِ" بِإِطْلَاقِهِ عَلَى الْحَالِ الْغَرِيبَةِ الشَّأْنِ؛ لِأَنَّهَا بِحَيْثُ تُمَثِّلُ لِلنَّاسِ وَتُوَضِّحُ وَتُشَبِّهُ سَوَاءٌ شُبِّهَتْ كَمَا هُنَا، أَمْ لَمْ تُشَبَّهْ كَمَا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾[[337]](#footnote-337)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)**وَبِإِطْلَاقِهِ عَلَى قَوْلٍ يَصْدُرُ فِي حَالٍ غَرِيبَةٍ فَيُحْفَظُ وَيَشِيعُ بَيْنَ النَّاسِ لِبَلَاغَةٍ وَإِبْدَاعٍ فِيهِ، فَلَا يَزَالُ النَّاسُ يَذْكُرُونَ الْحَالَ الَّتِي قِيلَ فِيهَا ذَلِكَ الْقَوْلُ تَبَعًا لِذِكْرِهِ، وَكَمْ مِنْ حَالَةٍ عَجِيبَةٍ حَدَثَتْ وَنُسِيَتْ لِأَنَّهَا لَمْ يَصْدُرْ فِيهَا مِنْ قَوْلٍ بَلِيغٍ مَا يَجْعَلُهَا مَذْكُورَةً تَبَعًا لِذِكْرِهِ فَيُسَمَّى مَثَلًا، وَأَمْثَالُ الْعَرَبِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ بَلَاغَتِهِمْ وَقَدْ خُصَّتْ بِالتَّأْلِيفِ، وَيُعَرِّفُونَهُ بِأَنَّهُ قَوْلٌ شُبِّهَ مَضْرِبُهُ بِمَوْرِدِهِ، وَسَأَذْكُرُهُ قَرِيبًا.**

**فَالظَّاهِرُ أَنَّ إِطْلَاقَ الْمَثَلِ عَلَى الْقَوْلِ الْبَدِيعِ السَّائِرِ بَيْنَ النَّاسِ الصَّادِرِ مِنْ قَائِلِهِ فِي حَالَةٍ عَجِيبَةٍ هُوَ إِطْلَاقٌ مُرَتَّبٌ عَلَى إِطْلَاقِ اسْمِ الْمَثَلِ عَلَى الْحَالِ الْعَجِيبَةِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَكَادُونَ يَضْرِبُونَ مَثَلًا وَلَا يَرَوْنَهُ أَهْلًا لِلتَّسْيِيرِ وَجَدِيرًا بِالتَّدَاوُلِ إِلَّا قَوْلًا فِيهِ بَلَاغَةٌ وَخُصُوصِيَّةٌ فِي فَصَاحَةِ لَفْظٍ وَإِيجَازِهِ وَوَفْرَةِ مَعْنًى، فَالْمَثَلُ قَوْلٌ عَزِيزٌ لَيْسَ فِي مُتَعَارَفِ الْأَقْوَالِ الْعَامَّةِ، بَلْ هُوَ مِنْ أَقْوَالِ فُحُولِ الْبَلَاغَةِ، فَلِذَلِكَ وُصِفَ بِالْغَرَابَةِ أَيِ الْعِزَّةِ مِثْلُ قَوْلِهِمُ: الصَّيْفُ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ، وَقَوْلِهِمْ: لَا يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ، وَسَتَعْرِفُ وَجْهَ ذَلِكَ.**

**وَلَمَّا شَاعَ إِطْلَاقُ لَفْظِ الْمَثَلِ بِالتَّحْرِيكِ عَلَى الْحَالَةِ الْعَجِيبَةِ الشَّأْنِ جَعَلَ الْبُلَغَاءُ إِذَا أَرَادُوا تَشْبِيهَ حَالَةٍ مُرَكَّبَةٍ بِحَالَةِ مُرَكَّبَةٍ، أَعَنَى: وَصْفَيْنِ مُنْتَزَعَيْنِ مِنْ مُتَعَدِّدٍ أَتَوْا فِي جَانِبِ الْمُشَبَّهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ مَعًا أَوْ فِي جَانِبِ أَحَدِهِمَا بِلَفْظِ الْمَثَلِ، وَأَدْخَلُوا الْكَافَ وَنَحْوَهَا مِنْ حُرُوفِ التَّشْبِيهِ عَلَى الْمُشَبَّهِ بِهِ مِنْهُمَا، وَلَا يُطْلِقُونَ ذَلِكَ عَلَى التَّشْبِيهِ الْبَسِيطِ، فَلَا يَقُولُونَ مَثَلُ فُلَانٍ كَمَثَلِ الْأَسَدِ.**

**وَقَلَّمَا شَبَّهُوا حَالًا مُرَكَّبَةً بِحَالٍ مُرَكَّبَةٍ مُقْتَصِرِينَ عَلَى الْكَافِ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾[[338]](#footnote-338)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)**بَلْ يَذْكُرُونَ لَفْظَ الْمَثَلِ فِي الْجَانِبَيْنِ غَالِبًا نَحْوَ الْآيَةِ هُنَا، وَرُبَّمَا ذَكَرُوا لَفْظَ الْمَثَلِ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ كَقَوْلِهِ: ﴿**[**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾[[339]](#footnote-339)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)**الْآيَةَ.**

**وَذَلِكَ لِيَتَبَادَرَ لِلسَّامِعِ أَنَّ الْمَقْصُودَ تَشْبِيهُ حَالَةٍ بِحَالَةٍ لَا ذَاتٍ بِذَاتٍ وَلَا حَالَةٍ بِذَاتٍ، فَصَارَ لَفْظُ الْمَثَلِ فِي تَشْبِيهِ الْهَيْئَةِ مَنْسِيًّا مِنْ أَصْلِ وَضْعِهِ وَمُسْتَعْمَلًا فِي مَعْنَى الْحَالَة،ِ فَلِذَلِكَ لَا يَسْتَغْنُونَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِحَرْفِ التَّشْبِيهِ، حَتَّى مَعَ وُجُودِ لَفْظِ الْمَثَلِ، فَصَارَتِ الْكَافُ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿كَمَثَلِ﴾[[340]](#footnote-340) دَالَّةً عَلَى التَّشْبِيهِ وَلَيْسَتُ زَائِدَةً كَمَا زَعَمَهُ الرَّضِيُّ فِي شَرْحِ الْحَاجِبِيَّةِ، وَتَبِعَهُ عَبْدُ الْحَكِيمِ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**أَوْ كَصَيِّبٍ﴾[[341]](#footnote-341)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)**وُقُوفًا مَعَ أَصْلِ الْوَضْعِ وَإِغْضَاءً عَنِ الِاسْتِعْمَالِ.**

**أَلَا تَرَى كَيْفَ اسْتُغْنِيَ عَنْ إِعَادَةِ لَفْظِ الْمَثَلِ عِنْدَ الْعَطْفِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**أَوْ كَصَيِّبٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)**﴾[[342]](#footnote-342)، وَلَمْ يُسْتَغْنَ عَنِ الْكَافِ؟!**

**وَمِنْ أَجْلِ إِطْلَاقِ لَفْظِ الْمَثَلِ اقْتَبَسَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ مُصْطَلَحَهُمْ فِي تَسْمِيَةِ التَّشْبِيهِ الْمُرَكَّبِ بِتَشْبِيهِ التَّمْثِيلِ وَتَسْمِيَةِ اسْتِعْمَالِ الْمُرَكَّبِ الدَّالِّ عَلَى هَيْئَةٍ مُنْتَزَعَةٍ مِنْ مُتَعَدِّدٍ فِي غَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ مَجْمُوعَةً بِعَلَاقَةِ الْمُشَابِهَةِ اسْتِعَارَةً تَمْثِيلِيَّةً، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْإِلْمَامُ بِشَيْءٍ مِنْهُ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾[[343]](#footnote-343).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)

**وَإِنَّنِي تَتَبَّعْتُ كَلَامَهُمْ، فَوَجَدْتُ التَّشْبِيهَ التَّمْثِيلِيَّ يَعْتَرِيهِ مَا يَعْتَرِي التَّشْبِيهَ الْمُفْرَد،َ فَيَجِيءُ فِي أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:**

**- الْأَوَّلُ: مَا صُرِّحَ فِيهِ بِأَدَاةِ التَّشْبِيهِ أَوْ حُذِفَتْ مِنْهُ عَلَى طَرِيقَةِ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَقَوْلِهِ: ﴿**[**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾[[344]](#footnote-344)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)**إِذَا قَدَّرْنَا أُولَئِكَ كَالَّذِينَ اشْتَرَوْا كَمَا قَدَّمْنَا.**

**- الثَّانِي: مَا كَانَ عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِعَارَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ الْمُصَرِّحَةِ بِأَنْ يَذْكُرُوا اللَّفْظَ الدَّالَّ بِالْمُطَابَقَةِ عَلَى الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا وَيُحْذَفُ مَا يَدُلُّ عَلَى الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهَةِ نَحْوُ الْمَثَّالِ الْمَشْهُورِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: إِنِّي أَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ أُخْرَى.**

**- الثَّالِثُ: تَمْثِيلِيَّةٌ مَكْنِيَّةٌ وَهِيَ أَنْ تُشَبَّهَ هَيْئَةٌ بِهَيْئَةٍ وَلَا يُذْكَرُ اللَّفْظُ الدَّالُّ عَلَى الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا، بَلْ يُرْمَزُ إِلَيْهِ بِمَا هُوَ لَازِمٌ مُشْتَهِرٌ مِنْ لَوَازِمِهِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعُدُّ مِثَالًا لِهَذَا النَّوْعِ خُصُوصَ الْأَمْثَالِ الْمَعْرُوفَةِ بِهَذَا اللَّقَبِ نَحْوَ: "الصَّيْفُ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ" وَ "بِيَدِي لَا بَيْدَ عَمْرٍو" وَنَحْوِهَا مِنَ الْأَمْثَال،ِ فَإِنَّهَا أَلْفَاظٌ قِيلَتْ عِنْدَ أَحْوَالٍ وَاشْتَهَرَتْ وَسَارَتْ حَتَّى صَارَ ذِكْرُهَا يُنْبِئُ بِتِلْكَ الْأَحْوَالِ الَّتِي قِيلَتْ عِنْدَهَا، وَإِنْ لَمْ يُذْكَرِ اللَّفْظُ الدَّالُّ عَلَى الْحَالَةِ.**

**وَمُوجِبُ شُهْرَتِهَا سَيَأْتِي.**

**ثُمَّ لَمْ يَحْضُرْنِي مِثَالٌ لِلْمَكْنِيَّةِ التَّمْثِيلِيَّةِ مِنْ غَيْرِ بَابِ الْأَمْثَالِ، حَتَّى كَانَ يَوْمُ حَضَرْتُ فِيهِ جِنَازَةً، فَلَمَّا دَفَنُوا الْمَيِّتَ وَفَرَغُوا مِنْ مُوَارَاتِهِ التُّرَابَ ضَجَّ أُنَاسٌ بِقَوْلِهِمْ: اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ.**

**فَقُلْتُ: إِنَّ الَّذِينَ سَنُّوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ مَا أَرَادُوا إِلَّا تَنْظِيرَ هَيْئَةِ حَفْرِهِمْ لِلْمَيِّتِ بِهَيْئَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ مَعَ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، إِذْ كَانُوا يُكَرِّرُونَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، كَمَا وَرَدَ فِي كُتُبِ السُّنَّةِ قَصْدًا مِنْ هَذَا التَّنْظِيرِ أَنْ يَكُونَ حَفْرُهُمْ ذَلِكَ شَبِيهًا بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ بِجَامِعِ رَجَاءِ الْقَبُولِ عِنْدَ اللَّهِ –تَعَالَى-، فَلَمْ يَذْكُرُوا مَا يَدُلُّ عَلَى الْمُشَبَّهِ بِهِ، وَلَكِنَّهُمْ طَوَوْهُ وَرَمَزُوا إِلَيْهِ بِمَا هُوَ مِنْ لَوَازِمِهِ الَّتِي عُرِفَ بِهَا، وَهُوَ قَوْلُ النَّبِيءِ تِلْكَ الْمَقَالَةَ.**

**ثُمَّ ظَفِرْتُ بِقَوْلِ**[**أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ الْأَنْدَلُسِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13341)**:**

**وَقُلْ لِمَنْ لَامَ فِي التَّصَابِي خَلِّ قَلِيلًا عَنِ الطَّرِيقِ**

**فَرَأَيْتُهُ مِنْ بَابِ التَّمْثِيلِيَّةِ الْمَكْنِيَّةِ، فَإِنَّهُ حَذَفَ الْمُشَبَّهَ بِهِ -وَهُوَ حَالُ الْمُتَعَرِّضِ لِسَائِرٍ فِي طَرِيقِهِ يَسُدُّهُ عَلَيْهِ وَيَمْنَعُهُ الْمُرُورَ بِهِ- وَأَتَى بِشَيْءٍ مِنْ لَوَازِمِ هَذِهِ الْحَالَة،ِ وَهُوَ قَوْلُ السَّائِرِ لِلْمُتَعَرِّضِ:**

**خَلِّ عَنِ الطَّرِيقِ.**

**- رَابِعُهَا تَمْثِيلِيَّةٌ تَبَعِيَّةٌ كَقَوْلِ أَبِي عَطَاءٍ السِّنْدِيِّ:**

**ذَكَرْتُكِ وَالْخَطِّيُّ يَخْطُرُ بَيْنَنَا     وَقَدْ نَهِلَتْ مِنِّي الْمُثَقَّفَةُ السُّمَرُ**

**فَأَثْبَتَ النَّهَلَ لِلرِّمَاحِ تَشْبِيهًا لَهَا بِحَالَةِ النَّاهِلِ فِيمَا تُصِيبُهُ مِنْ دِمَاءِ الْجَرْحَى الْمَرَّةَ بَعْدَ الْأُخْرَى كَأَنَّهَا لَا يَرْوِيهَا مَا تُصِيبُهُ أَوَّلًا ثُمَّ أَتَى بِنَهِلَتْ عَلَى وَجْهِ التَّبَعِيَّةِ، وَمِنْ هَذَا الْقِسْمِ عِنْدَ التَّفْتَزَانِيِّ الِاسْتِعَارَةُ فِي (عَلَى) مِنْ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾[[345]](#footnote-345)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)**وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ هُنَاكَ.**

**فَأَمَّا الْمَثَلُ الَّذِي هُوَ قَوْلٌ شُبِّهَ مَضْرِبُهُ بِمَوْرِدِهِ، وَهُوَ الَّذِي وَعَدْتُ بِذِكْرِهِ آنِفًا فَمَعْنَى تَشْبِيهِ مَضْرِبِهِ بِمَوْرِدِهِ أَنْ تَحْصُلَ حَالَةٌ لَهَا شَبَهٌ بِالْحَالَةِ الَّتِي صَدَرَ فِيهَا ذَلِكَ الْقَوْلُ، فَيَسْتَحْضِرُ الْمُتَكَلِّمُ تِلْكَ الْحَالَةَ الَّتِي صَدَرَ فِيهَا الْقَوْلُ وَيُشَبِّهُ بِهَا الْحَالَةَ الَّتِي عَرَضَتْ وَيَنْطِقُ بِالْقَوْلِ الَّذِي كَانَ صَدَرَ فِي أَثْنَاءِ الْحَالَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا لِيُذَكِّرَ السَّامِعَ بِتِلْكَ الْحَالَةِ، وَبِأَنَّ حَالَةَ الْيَوْمِ شَبِيهَةٌ بِهَا، وَيُجْعَلُ عَلَامَةَ ذِكْرِ ذَلِكَ الْقَوْلِ الَّذِي قِيلَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ.**

**وَإِذَا حَقَّقْتِ التَّأَمُّلَ وَجَدْتَ هَذَا الْعَمَلَ مِنْ قَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ الْمَكْنِيَّةِ لِأَجْلِ كَوْنِ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ الْمُسَمَّاةِ بِالْأَمْثَالِ قَدْ سَارَتْ وَنُقِلَتْ بَيْنَ الْبُلَغَاءِ فِي تِلْكَ الْحَوَادِثِ، فَكَانَتْ مِنْ لَوَازِمِ الْحَالَاتِ الْمُشَبَّهِ بِهَا لَا مَحَالَةَ لِمُقَارَنَتِهَا لَهَا فِي أَذْهَانِ النَّاسِ، فَهِيَ لَوَازِمُ عُرْفِيَّةٌ لَهَا بَيْنَ أَهْلِ الْأَدَبِ فَصَارَتْ مِنْ رَوَادِفِ أَحْوَالِهَا.**

**وَكَانَ ذِكْرُ تِلْكَ الْأَمْثَالِ رَمْزًا إِلَى اعْتِبَارِ الْحَالَاتِ الَّتِي قِيلَتْ فِيهَا، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ امْتَنَعَ تَغْيِيرُهَا عَنْ أَلْفَاظِهَا الْوَارِدَةِ بِهَا، لِأَنَّهَا إِذَا غُيِّرَتْ لَمْ تَبْقَ عَلَى أَلْفَاظِهَا الْمَحْفُوظَةِ الْمَعْهُودَةِ فَيَزُولُ اقْتِرَانُهَا فِي الْأَذْهَانِ بِصُوَرِ الْحَوَادِثِ الَّتِي قِيلَتْ فِيهَا فَلَمْ يَعُدْ ذَكَرُهَا رَمْزًا لِلْحَالِ الْمُشَبَّهِ بِهِ الَّتِي هِيَ مِنْ رَوَادِفِهَا لَا مَحَالَةَ.**

**وَفِي هَذَا مَا يُغْنِي عَنْ تَطَلُّبِ الْوَجْهِ فِي احْتِرَاسِ الْعَرَبِ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَمْثَالِ حَتَّى يَسْلَمُوا مِنَ الْحَيْرَةِ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ صَاحِبِ *الْكَشَّافِ* وَصَاحِبِ الْمِفْتَاحِ؛ إِذْ جَعَلَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* سَبَبَ مَنْعِ الْأَمْثَالِ مِنَ التَّغْيِيرِ مَا فِيهَا مِنَ الْغَرَابَةِ فَقَالَ: وَلَمْ يَضْرِبُوا مَثَلًا وَلَا رَأَوْهُ أَهْلًا لِلتَّسْيِيرِ، وَلَا جَدِيرًا بِالتَّدَاوُلِ إِلَّا قَوْلًا فِيهِ غَرَابَةٌ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، وَمِنْ ثَمَّ حُوفِظَ عَلَيْهِ وَحُمِيَ مِنَ التَّغْيِيرِ فَتَرَدَّدَ شُرَّاحُهُ فِي مُرَادِهِ مِنَ الْغَرَابَةِ.**

**وَقَالَ الطِّيبِيُّ: الْغَرَابَةُ غُمُوضُ الْكَلَامِ وَنُدْرَتُهُ، وَذَلِكَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِحَسَبِ الْمَعْنَى وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بِحَسَبِ اللَّفْظِ.**

**أَمَّا الْأَوَّلُ، فَكَأَنْ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ التَّنَاقُضِ وَمَا هُوَ بِتَنَاقُضٍ نَحْوُ قَوْلِ الْحَكَمِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ: رُبَّ رَمْيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ. أَيْ رُبَّ رَمْيَةٍ مُصِيبَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ: أَيْ عَارِفٍ، وَقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[[346]](#footnote-346)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)**إِذْ جَعَلَ الْقَتْلَ حَيَاةً.**

**وَأَمَّا الثَّانِي بِأَنْ يَكُونَ فِيهِ أَلْفَاظٌ غَرِيبَةٌ لَا تَسْتَعْمِلُهَا الْعَامَّةُ، نَحْوُ قَوْلِ الْحُبَابِ بْنِ الْمُنْذِرِ:**

**أَنَا جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ وَعُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ**

**أَوْ فِيهِ حَذْفٌ وَإِضْمَارٌ نَحْوُ رَمْيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ. أَوْ فِيهِ مُشَاكَلَةٌ، نَحْوُ: كَمَا تَدِينُ تُدَانُ. أَرَادَ كَمَا تَفْعَلُ تُجَازَى.**

**وَفَسَّرَ بَعْضُهُمُ الْغَرَابَةَ بِالْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ، حَتَّى صَارَتْ عَجِيبَةً، وَعِنْدِي أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِالْغَرَابَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَوْلًا بَدِيعًا خَاصِّيًّا إِذِ الْغَرِيبُ مُقَابِلُ الْمَأْلُوفِ وَالْغَرَابَةُ عَدَمُ الْإِلْفِ –يُرِيدُ: عَدَمَ الْإِلْفِ بِهِ فِي رِفْعَةِ الشَّأْنِ-.**

**وَأَمَّا صَاحِبُ *الْمِفْتَاحِ* فَجَعَلَ مَنْعَهَا مِنَ التَّغْيِيرِ لِوُرُودِهَا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ فَقَالَ: ثُمَّ إِنَّ التَّشْبِيهَ التَّمْثِيلِيَّ مَتَى شَاعَ وَاشْتَهَرَ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ صَارَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ الْمَثَلُ لَا غَيْرَ اهـ.**

**وَإِلَى طَرِيقَتِهِ مَالَ التَّفْتَزَانِيُّ وَالسَّيِّدُ. وَقَدْ عَلِمْتَ سِرَّهَا وَشَرْحَهَا فِيمَا بَيَّنَّاهُ.**

**وَلِوُرُودِ الْأَمْثَالِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ لَا تُغَيَّرُ عَنْ لَفْظِهَا الَّذِي وَرَدَ فِي الْأَصْلِ تَذْكِيرًا وَتَأْنِيثًا وَغَيْرَهُمَا.**

**فَمَعْنَى قَوْلِهِمْ فِي تَعْرِيفِ الْمَثَلِ بِهَذَا الْإِطْلَاقِ: قَوْلٌ شُبِّهَ مَضْرِبُهُ بِمَوْرِدِهِ أَنَّ مَضْرِبَهُ هُوَ الْحَالَةُ الْمُشَبَّهَةُ سُمِّيَتْ مَضْرِبًا، لِأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ مَكَانِ ضَرْبِ ذَلِكَ الْقَوْلِ أَيْ وَضْعِهِ، أَيِ النُّطْقِ بِهِ يُقَالُ: ضُرِبَ الْمَثَلُ أَيْ شُبِّهَ وَمُثِّلَ، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾[[347]](#footnote-347).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)

**وَأَمَّا مَوْرِدُهُ فَهُوَ الْحَالَةُ الْمُشَبَّهُ بِهَا وَهِيَ الَّتِي وَرَدَ ذَلِكَ الْقَوْلُ أَيْ صَدَرَ عِنْدَ حُدُوثِهَا، سُمِّيَتْ مَوْرِدًا لِأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ مَكَانِ الْمَاءِ الَّذِي يَرِدُهُ الْمُسْتَقُونَ، وَيُقَالُ: الْأَمْثَالُ السَّائِرَةُ، أَيِ الْفَاشِيَّةُ الَّتِي يَتَنَاقَلُهَا النَّاسُ وَيَتَدَاوَلُونَهَا فِي مُخْتَلَفِ الْقَبَائِلِ وَالْبُلْدَانِ فَكَأَنَّهَا تَسِيرُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ.**

**وَ ﴿**[**الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[[348]](#footnote-348)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)**مُفْرَدٌ مُرَادٌ بِهِ مُشَبَّهٌ وَاحِدٌ، لِأَنَّ مُسْتَوْقِدَ النَّارِ وَاحِدٌ وَلَا مَعْنَى لِاجْتِمَاعِ جَمَاعَةٍ عَلَى اسْتِيقَادِ نَارٍ، وَلَا يَرِيبَكَ كَوْنُ حَالَةِ الْمُشَبَّهِ حَالَةَ جَمَاعَةِ الْمُنَافِقِينَ، كَأَنَّ تَشْبِيهَ الْهَيْئَةِ بِالْهَيْئَةِ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِتَصْوِيرِ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهَةِ بِهَا لَا بِكَوْنِهَا عَلَى وَزْنِ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهَةِ، فَإِنَّ الْمُرَادَ تَشْبِيهُ حَالِ الْمُنَافِقِينَ فِي ظُهُورِ أَثَرِ الْإِيمَانِ وَنُورِهِ -مَعَ تَعَقُّبِهِ بِالضَّلَالَةِ وَدَوَامِهِ- بِحَالِ مَنِ اسْتَوْقَدَ نَارًا.**

**وَاسْتَوْقَدَ بِمَعْنَى: أَوْقَدَ فَالسِّينُ وَالتَّاءُ فِيهِ لِلتَّأْكِيدِ، كَمَا هُمَا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾[[349]](#footnote-349)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)**وَقَوْلُهُمُ: اسْتَبَانَ الْأَمْرُ.**

**وَهَذَا كَقَوْلِ بَعْضِ بَنِي بَوْلَانَ مِنْ طَيٍّ فِي الْحَمَاسَةِ.**

**نَسْتَوْقِدُ النَّبْلَ بِالْحَضِيضِ وَنَصْـ     ــطَادُ نُفُوسًا بُنَتْ عَلَى الْكَرَمِ**

**أَرَادَ وَقُودًا يَقَعُ عِنْدَ الرَّمْيِ بِشِدَّةٍ. وَكَذَلِكَ فِي الْآيَةِ لِإِيرَادِ تَمْثِيلِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ فِي إِظْهَارِ الْإِيمَانِ بِحَالِ طَالِبِ الْوَقُودِ بَلْ هُوَ حَالُ الْمَوْقِدِ.**

**وَقَوْلُهُ:**

**﴿**[**فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[[350]](#footnote-350)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)

**مُفَرَّعٌ عَلَى اسْتَوْقَدَ.**

**وَلَمَّا: حَرْفٌ يَدُلُّ عَلَى وُقُوعِ شَيْءٍ عِنْدَ وُقُوعِ غَيْرِهِ، فَوُقُوعُ جَوَابِهَا مُقَارِنٌ لِوُقُوعِ شَرْطِهَا، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: حَرْفُ وُجُودٍ لِوُجُودٍ؛ أَيْ حَرْفٌ يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ الْجَوَابِ لِوُجُودِ شَرْطِهَا، أَيْ أَنْ يَكُونَ جَوَابُهَا كَالْمَعْلُولِ لِوُجُودِ شَرْطِهَا، سَوَاءً كَانَ مِنْ تَرَتُّبِ الْمَعْلُولِ عَلَى الْعِلَّةِ أَوْ كَانَ مِنْ تَرَتُّبِ الْمُسَبِّبِ الْعُرْفِيِّ عَلَى السَّبَبِ أَمْ كَانَ مِنْ تَرَتُّبِ الْمُقَارَنِ عَلَى مُقَارَنَةِ الْمُهَيَّأِ، وَالْمُقَارَنُ الْحَاصِلُ عَلَى سَبِيلِ الْمُصَادَفَةِ، وَكُلُّهَا اسْتِعْمَالَاتٌ وَارِدَةٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَفِي الْقُرْآنِ.**

**مِثَالُ تُرَتِّبِ الْمَعْلُولِ عَلَى الْعِلَّةِ: "لَمَّا تَعَفَّنَتْ أَخْلَاطُهُ حُمَّ"، وَالْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ: ﴿**[**وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾[[351]](#footnote-351).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)

**وَقَوْلُ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ:**

**لَمَّا رَأَيْتُ نِسَاءَنَـــــــــا يَفْحَصْنَ بِالْمَعْزَاءِ شَـــدَّا**

**نَازَلْتُ كَبْشَهُمُ وَلَمْ  أَرَ مِنْ نِزَالِ الْكَبْشِ بُدَّا**

**وَمِثَالُ الْمُقَارَنِ الْمُهَيَّأِ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ:**

**فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَــــى    بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ**

**هَصَرْتُ بِفَوْدَيْ رَأْسِهَا فَتَمَايَلَتْ    عَلَيَّ هَضِيمَ الْكَشْحِ رَيَّا الْمُخَلْخَـــلِ**

**وَمِثَالُ الْمُقَارَنِ الْحَاصِلِ اتِّفَاقًا: ﴿**[**لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)**﴾[[352]](#footnote-352)، وَقَوْلُهُ: ﴿**[**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾[[353]](#footnote-353).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)

**فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ "لَمَّا" تُؤْذِنُ بِالسَّبَبِيَّةِ اغْتِرَارًا بِقَوْلِهِمْ: وُجُودٌ لِوُجُودٍ -حَمْلًا لِلَّامِ فِي عِبَارَتِهِمْ عَلَى التَّعْلِيلِ-، فَقَدِ ارْتَكَبَ شَطَطًا وَلَمْ يَجِدْ مِنْ كَلَامِ الْأَئِمَّةِ فَرَطًا. وَ "أَضَاءَ" يَجِيءُ مُتَعَدِّيًا، وَهُوَ الْأَصْلُ، لِأَنَّ مُجَرَّدَهُ: ضَاءَ، فَتَكُونُ حِينَئِذٍ هَمْزَتُهُ لِلتَّعْدِيَةِ كَقَوْلِ أَبِي الطَّمَحَانِ الْقَيْنِيِّ:**

**أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُمْ     دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى ثَقَّبَ الْجِزْعَ ثَاقِبُهْ**

**وَيَجِيءُ قَاصِرًا بِمَعْنَى ضَاءَ فَهَمْزَتُهُ لِلصَّيْرُورَةِ، أَيْ صَارَ ذَا ضَوْءٍ فَيُسَاوِي ضَاءَ كَقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ يَصِفُ الْبَرْقَ:**

**يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحَ رَاهِبٍ     أَمَالَ السَّلِيطُ بِالذُّبَالِ الْمُفَتَّــــــــــــــــــــلِ**

**وَالْآيَةُ تَحْتَمِلُهُمَا، أَيْ فَلَمَّا أَضَاءَتِ النَّارُ الْجِهَاتِ الَّتِي حَوْلَهُ، وَهُوَ مَعْنَى ارْتِفَاعِ شُعَاعِهَا وَسُطُوعِ لَهَبِهَا، فَيَكُونُ مَا حَوْلَهُ مَوْصُولًا مَفْعُولًا لِأَضَاءَتْ وَهُوَ الْمُتَبَادَرُ.**

**وَتَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مِنْ "أَضَاءَ الْقَاصِرِ"، أَيْ أَضَاءَتِ النَّارُ أَيِ اشْتَعَلَتْ وَكَثُرَ ضَوْءُهَا فِي نَفْسِهَا، وَيَكُونُ مَا حَوْلَهُ عَلَى هَذَا ظَرْفًا لِلنَّارِ، أَيْ حَصَلَ ضَوْءُ النَّارِ حَوْلَهَا غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْهَا. وَحَوْلَهُ ظَرْفٌ لِلْمَكَانِ الْقَرِيبِ وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْإِحَاطَةُ فَحَوْلَهُ هُنَا بِمَعْنَى لَدَيْهِ وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ ﴿**[**مَا حَوْلَهُ﴾[[354]](#footnote-354)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)**يَقْتَضِي ذَلِكَ وَقَعَ فِي مُشْكِلَاتٍ لَمْ يَجِدْ مِنْهَا مَخْلَصًا إِلَّا بِعَنَاءٍ.**

**وَجَمْعُ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**بِنُورِهِمْ﴾[[355]](#footnote-355)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)**مَعَ كَوْنِهِ بِلَصْقِ الضَّمِيرِ الْمُفْرَدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**مَا حَوْلَهُ﴾[[356]](#footnote-356)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)**مُرَاعَاةً لِلْحَالِ الْمُشَبَّهَةِ، وَهِيَ حَالُ الْمُنَافِقِينَ لَا لِلْحَالِ الْمُشَبَّهِ بِهَا، وَهِيَ حَالُ الْمُسْتَوْقِدِ الْوَاحِدِ عَلَى وَجْهٍ بَدِيعٍ فِي الرُّجُوعِ إِلَى الْغَرَضِ الْأَصْلِيِّ، وَهُوَ انْطِمَاسُ نُورِ الْإِيمَانِ مِنْهُمْ، فَهُوَ عَائِدٌ إِلَى الْمُنَافِقِينَ لَا إِلَى الَّذِي، قَرِيبًا مِنْ رَدِّ الْعَجُزِ عَلَى الصَّدْرِ فَأَشْبَهَ تَجْرِيدَ الِاسْتِعَارَةِ الْمُفْرَدَة،ِ وَهُوَ مِنَ التَّفْنِينِ كَقَوْلِ طَرَفَةَ:**

**وَفِي الْحَيِّ أَحَوَى يَنْفُضُ الْمَرْدَ شَادِنٌ     مُظَاهِرُ سِمْطَيْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدِ**

**وَهَذَا رُجُوعٌ بَدِيعٌ، وَقَرِيبٌ مِنْهُ الرُّجُوعُ الْوَاقِعُ بِطَرِيقِ الِاعْتِرَاضِ فِي قَوْلِهِ الْآتِي: ﴿**[**وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[[357]](#footnote-357)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)**وَحُسْنُهُ أَنَّ التَّمْثِيلَ جَمَعَ بَيْنَ ذِكْرِ الْمُشَبَّهِ وَذِكْرِ الْمُشَبَّهِ بِهِ فَالْمُتَكَلِّمُ بِالْخِيَارِ فِي مُرَاعَاةِ كِلَيْهِمَا، لِأَنَّ الْوَصْفَ لَهُمَا فَيَكُونُ ذَلِكَ الْبَعْضُ نَوْعًا وَاحِدًا فِي الْمُشَبَّهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ، فَمَا ثَبَتَ لِلْمُشَبَّهِ بِهِ يُلَاحَظُ كَالثَّابِتِ لِلْمُشَبَّهِ.**

**وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ جُمْلَةُ: ﴿**[**ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[[358]](#footnote-358)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)**جَوَابَ (لَمَّا) فَيَكُونُ جَمْعُ ضَمَائِرِ: ﴿**[**بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ﴾[[359]](#footnote-359)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)**إِخْرَاجًا لِلْكَلَامِ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الظَّاهِر،ِ إِذْ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَقُولَ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِ وَتَرَكَهُ.**

**وَلِذَلِكَ اخْتِيرَ هُنَا لَفْظُ النُّورِ عِوَضًا عَنِ النَّارِ الْمُبْتَدَأِ بِهِ، لِلتَّنْبِيهِ عَلَى الِانْتِقَالِ مِنَ التَّمْثِيلِ إِلَى الْحَقِيقَةِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ نُورَ الْإِيمَانِ مِنْ قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ.**

**فَهَذَا إِيجَازٌ بَدِيعٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَلَمَّا أَضَاءَتْ ذَهَبَ اللَّهُ بِنَارِهِ، فَكَذَلِكَ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ، وَهُوَ أُسْلُوبٌ لَا عَهْدَ لِلْعَرَبِ بِمِثْلِهِ، فَهُوَ مِنْ أَسَالِيبِ الْإِعْجَازِ.**

**وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[[360]](#footnote-360).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)

**فَقَوْلُهُ: ﴿أُرْسِلْتُمْ﴾[[361]](#footnote-361) حِكَايَةٌ لِخِطَابِ أَقْوَامِ الرُّسُلِ فِي جَوَابِ سُؤَالِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَوْمَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿**[**أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ﴾[[362]](#footnote-362).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)

**وَبِهَذَا يَكُونُ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُوَافِقًا لِمَا فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا مِنْ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾[[363]](#footnote-363)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)**إِذْ يَتَعَيَّنُ رُجُوعُهُ لِبَعْضِ الْمُشَبَّهِ بِهِ دُونَ الْمُشَبَّهِ.**

**وَجَوَّزَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿**[**ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[[364]](#footnote-364)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)**اسْتِئْنَافًا وَيَكُونُ التَّمْثِيلُ قَدِ انْتَهَى عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾[[365]](#footnote-365).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)**وَيَكُونُ جَوَابُ لَمَّا مَحْذُوفًا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْجُمْلَةُ الْمُسْتَأْنَفَةُ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِمَّا ذَكَرْتُهُ إِلَّا أَنَّ الِاعْتِبَارَ مُخْتَلِفٌ.**

**وَمَعْنَى ﴿**[**ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)**﴾[[366]](#footnote-366): أَطْفَأَ نَارَهُمْ فَعَبَّرَ بِالنُّورِ، لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ مِنَ الِاسْتِيقَادِ، وَأَسْنَدَ إِذْهَابَهُ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى-، لِأَنَّهُ حَصَلَ بِلَا سَبَبٍ مِنْ رِيحٍ أَوْ مَطَرٍ أَوْ إِطْفَاءِ مُطْفِئٍ، وَالْعَرَبُ وَالنَّاسُ يُسْنِدُونَ الْأَمْرَ الَّذِي لَمْ يَتَّضِحْ سَبَبُهُ لِاسْمِ اللَّهِ –تَعَالَى-، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾[[367]](#footnote-367).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)

**وَذَهَبَ الْمُعَدَّى بِالْبَاءِ أَبْلَغُ مِنْ أَذْهَبَ الْمُعَدَّى بِالْهَمْزَةِ وَهَاتِهِ الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعْدِيَةِ بِالْبَاءِ نَشَأَتْ مِنْ أَصْلِ الْوَضْعِ؛ لِأَنَّ أَصْلَ ذَهَبَ بِهِ أَنْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّهُمَا ذَهَبَا مُتَلَازِمَيْنِ، فَهُوَ أَشَدُّ فِي تَحْقِيقِ ذَهَابِ الْمُصَاحِبِ، كَقَوْلِهِ: ﴿**[**فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾[[368]](#footnote-368).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)**وَأَذْهَبَهُ: جَعَلَهُ ذَاهِبًا بِأَمْرِهِ أَوْ إِرْسَالِهِ. فَلَمَّا كَانَ الَّذِي يُرِيدُ إِذْهَابَ شَخْصٍ إِذْهَابًا لَا شَكَّ فِيهِ يَتَوَلَّى حِرَاسَةَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُوقِنَ بِحُصُولِ امْتِثَالِ أَمْرِهِ صَارَ (ذَهَبَ بِهِ) مُفِيدًا مَعْنَى أَذْهَبَهُ، ثُمَّ تُنُوسِيَ ذَلِكَ بِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ، فَقَالُوا ذَهَبَ بِهِ وَنَحْوَهُ، وَلَوْ لَمْ يُصَاحِبْهُ فِي ذَهَابِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿**[**يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾[[369]](#footnote-369)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)**وَقَوْلِهِ: ﴿**[**وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾[[370]](#footnote-370).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)

**ثُمَّ جُعْلِتِ الْهَمْزَةُ لِمُجَرَّدِ التَّعْدِيَةِ فِي الِاسْتِعْمَالِ فَيَقُولُونَ: ذَهَبَ الْقِمَارُ بِمَالِ فُلَانٍ وَلَا يُرِيدُونَ أَنَّهُ ذَهَبَ مَعَهُ. وَلَكِنَّهُمْ تَحَفَّظُوا أَلَّا يَسْتَعْمِلُوا ذَلِكَ إِلَّا فِي مَقَامِ تَأْكِيدِ الْإِذْهَابِ فَبَقِيَتِ الْمُبَالَغَةُ فِيهِ.**

**وَضَمِيرُ الْمُفْرَدِ فِي قَوْلِهِ وَمَا حَوْلَهُ مُرَاعَاةً لِلْحَالِ الْمُشَبَّهَةِ.**

**وَاخْتِيَارُ لَفْظِ النُّورِ فِي قَوْلِهِ:**[**ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)**دُونَ الضَّوْءِ وَدُونَ النَّارِ، لِأَنَّ لَفْظَ النُّورِ أَنْسَبُ ; لِأَنَّ الَّذِي يُشْبِهُ النَّارَ مِنَ الْحَالَةِ الْمُشَبَّهَةِ هُوَ مَظَاهِرُ الْإِسْلَامِ الَّتِي يُظْهِرُونَهَا، وَقَدْ شَاعَ التَّعْبِيرُ عَنِ الْإِسْلَامِ بِالنُّورِ فِي الْقُرْآنِ، فَصَارَ اخْتِيَارُ لَفْظِ النُّورِ هُنَا بِمَنْزِلَةِ تَجْرِيدِ الِاسْتِعَارَة،ِ لِأَنَّهُ أَنْسَبُ بِالْحَالِ الْمُشَبَّهَةِ، وَعَبَّرَ عَمَّا يُقَابِلُهُ فِي الْحَالِ الْمُشَبَّهِ بِهَا بِلَفْظٍ يَصْلُحُ لَهُمَا أَوْ هُوَ بِالْمُشَبَّهِ أَنْسَبُ فِي اصْطِلَاحِ الْمُتَكَلِّمِ، كَمَا قَدَّمْنَا الْإِشَارَةَ إِلَيْهِ فِي وَجْهِ جَمْعِ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: بِنُورِهِمْ.**

**﴿**[**وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾[[371]](#footnote-371)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=56#docu)

**هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَتَضَمَّنُ تَقْرِيرًا لِمَضْمُونِ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ، لِأَنَّ مَنْ ذَهَبَ نُورُهُ بَقِيَ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُ، وَالْقَصْدُ مِنْهُ: زِيَادَةُ إِيضَاحِ الْحَالَةِ الَّتِي صَارُوا إِلَيْهَا، فَإِنَّ لِلدَّلَالَةِ الصَّرِيحَةِ مِنَ الِارْتِسَامِ فِي ذِهْنِ السَّامِعِ مَا لَيْسَ لِلدَّلَالَةِ الضِّمْنِيَّةِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿**[**ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[[372]](#footnote-372)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=56#docu)**يُفِيدُ أَنَّهُمْ لَمَّا اسْتَوْقَدُوا نَارًا، فَانْطَفَأَتِ انْعَدَمَتِ الْفَائِدَةُ وَخَابَتِ الْمَسَاعِي، وَلَكِنْ قَدْ يَذْهَلُ السَّامِعُ عَمَّا صَارُوا إِلَيْهِ عِنْدَ هَاتِهِ الْحَالَةِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿**[**وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=56#docu)**﴾[[373]](#footnote-373) تَذْكِيرًا بِذَلِكَ وَتَنْبِيهًا إِلَيْهِ.**

**فَإِنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ مِنَ الْبَيَانِ إِلَّا شِدَّةَ تَصْوِيرِ الْمَعَانِي وَلِذَلِكَ يُطْنِبُونَ وَيُشَبِّهُونَ وَيُمَثِّلُونَ وَيَصِفُونَ الْمَعْرِفَةَ وَيَأْتُونَ بِالْحَالِ وَيُعَدِّدُونَ الْأَخْبَارَ وَالصِّفَاتِ.**

**فَهَذَا إِطْنَابٌ بَدِيعٌ كَمَا فِي قَوْلِ طَرَفَةَ:**

**نَدَامَايَ بِيضٌ كَالنُّجُومِ وَقَيْنَةٌ تَرُوحُ إِلَيْنَا بَيْنَ بُرْدٍ وَمَجْسَدِ**

**فَإِنَّ قَوْلَهُ تَرُوحُ إِلَيْنَا إِلَخْ لَا يُفِيدُ أَكْثَرَ مِنْ تَصْوِيرِ حَالَةِ الْقَيْنَةِ وَتَحْسِينِ مُنَادَمَتِهَا.**

**وَتُفِيدُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ أَيْضًا أَنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا إِلَى الِاسْتِنَارَةِ مِنْ بُعْدٍ، عَلَى مَا فِي قَوْلِه:ِ ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾[[374]](#footnote-374) مِنْ إِفَادَةِ تَحْقِيرِهِمْ، وَمَا فِي جَمْعِ ﴿ظُلُمَاتٍ﴾[[375]](#footnote-375) مِنْ إِفَادَةِ شِدَّةِ الظُّلْمَةِ، وَهِيَ فَائِدَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى مَا اسْتُفِيدَ ضِمْنًا مِنْ جُمْلَةِ: ﴿**[**ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[[376]](#footnote-376)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=56#docu)**وَمَا يَقْتَضِيهِ جَمْعُ ظُلُمَاتٍ مِنْ تَقْدِيرِ تَشْبِيهَاتٍ ثَلَاثَةٍ لِضَلَالَاتٍ ثَلَاثٍ مِنْ ضَلَالَاتِهِمْ كَمَا سَيَأْتِي.**

**وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ الزَّائِدِ عَلَى تَقْرِيرِ مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ قَبْلَهَا عُطِفَتْ عَلَى الْجُمْلَةِ وَلَمْ تُفْصَلْ.**

**وَحَقِيقَةُ التَّرْكِ مُفَارَقَةُ أَحَدٍ شَيْئًا كَانَ مُقَارِنًا لَهُ فِي مَوْضِعٍ وَإِبْقَاءُهُ فِي ذَلِكَ الْوَضْعِ. وَكَثِيرًا مَا يَذْكُرُونَ الْحَالَ الَّتِي تَرَكَ الْفَاعِلُ الْمَفْعُولَ عَلَيْهَا، وَفِي هَذَا الِاسْتِعْمَالِ يَكْثُرُ أَنْ يَكُونَ مَجَازًا عَنْ مَعْنَى صَيَّرَ أَوْ جَعَلَ.**

**قَالَ النَّابِغَةُ:**

**فَلَا تَتْرُكَنِّي بِالْوَعِيدِ كَأَنَّـــــنِي    إِلَى النَّاسِ مَطْلِيٌّ بِهِ الْقَارُ أَجْرَبُ**

**أَيْ لَا تُصَيِّرَنِّي بِهَذِهِ الْمُشَابَهَةِ. وَقَوْلُ عَنْتَرَةَ:**

**جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةِ    فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدِّرْهَــــــــــــــــــــــــــــــــمِ**

**يُرِيدُ صَيَّرْنَ، وَالْأَكْثَرُ أَنْ يُكْنَى بِهِ فِي هَذَا الِاسْتِعْمَالِ عَنِ الزَّهَادَةِ فِي مَفْعُولِه،ِ كَمَا فِي بَيْتِ النَّابِغَةِ، أَوْ عَنْ تَحْقِيرِهِ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ.**

**وَالْفَرْقُ بَيْنَ مَا يُعْتَبَرُ فِيهِ مَعْنَى صَيَّرَ حَتَّى يَكُونَ مَنْصُوبُهُ الثَّانِي مَفْعُولًا، وَمَا يُعْتَبَرُ الْمَنْصُوبُ الثَّانِي مَعَهُ حَالًا، أَنَّهُ إِنْ كَانَ الْقَصْدُ إِلَى الْإِخْبَارِ بِالتَّخْلِيَةِ وَالتَّنَحِّي عَنْهُ فَالْمَنْصُوبُ الثَّانِي حَالٌ، وَإِنْ كَانَ الْقَصْدُ أَوَّلًا إِلَى ذَلِكَ الْمَنْصُوبِ الثَّانِي، وَهُوَ مَحَلُّ الْفَائِدَةِ؛ فَالْمَنْصُوبُ الثَّانِي مَفْعُولٌ، وَهُوَ فِي مَعْنَى الْخَبَرِ فَلَا يَحْتَمِلُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا غَيْرَ ذَلِكَ مَعْنًى، وَإِنِ احْتَمَلَهُ لَفْظًا.**

**وَجَمْعُ ظُلُمَاتٍ لِقَصْدِ بَيَانِ شِدَّةِ الظُّلْمَةِ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾،[[377]](#footnote-377)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=56#docu)**وَقَوْلِ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:**[**الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=56#docu)**فَإِنَّ الْكَثْرَةَ لَمَّا كَانَتْ فِي الْعُرْفِ سَبَبَ الْقُوَّةِ أَطْلَقُوهَا عَلَى مُطْلَقِ الْقُوَّة،ِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَعَدُّدٌ وَلَا كَثْرَةٌ، مِثْلُ لَفْظِ "كَثِيرٍ"، كَمَا يَأْتِي عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾[[378]](#footnote-378)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=56#docu)**فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ. وَمِنْهُ ذِكْرُ ضَمِيرِ الْجَمْعِ لِلتَّعْظِيمِ، لِلْوَاحِدِ، وَضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ وَمَعَهُ غَيْرُهُ لِلتَّعْظِيمِ، وَصِيغَةُ الْجَمْعِ مِنْ ذَلِكَ الْقَبِيلِ.**

**قِيلَ: لَمْ يَرِدْ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرُ الظَّلَمَةِ مُفْرَدًا، وَلَعَلَّ لَفْظَ ظُلُمَاتٍ أَشْهَرُ إِطْلَاقًا فِي فَصِيحِ الْكَلَام.ِ**

**وَسَيَأْتِي بَيَانُ هَذَا عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[[379]](#footnote-379)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=56#docu)**فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾[[380]](#footnote-380)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=56#docu)**فَإِنَّ التَّعَدُّدَ مَقْصُودٌ بِقَرِينَةِ وَصْفِهِ بِثَلَاثٍ.**

**وَلَكِنَّ بَلَاغَةَ الْقُرْآنِ وَكَلَامِ الرَّسُولِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لَا تَسْمَحُ بِاسْتِعْمَالِ جَمْعٍ غَيْرِ مُرَادٍ بِهِ فَائِدَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى لَفْظِهِ الْمُفْرَدِ، وَيَتَعَيَّنُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ جَمْعَ ظُلُمَاتٍ أُشِيرَ بِهِ إِلَى أَحْوَالٍ مِنْ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ كُلُّ حَالَةٍ مِنْهَا تَصْلُحُ، لِأَنْ تُشَبَّهَ بِالظُّلْمَةِ، وَتِلْكَ هِيَ: حَالَةُ الْكُفْرِ، وَحَالَةُ الْكَذِبِ، وَحَالَةُ الِاسْتِهْزَاءِ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَمَا يَتْبَعُ تِلْكَ الْأَحْوَالَ مِنْ آثَارِ النِّفَاقِ.**

**وَهَذَا التَّمْثِيلُ تَمْثِيلٌ لِحَالِ الْمُنَافِقِينَ فِي تَرَدُّدِهِمْ بَيْنَ مَظَاهِرِ الْإِيمَانِ وَبَوَاطِنِ الْكُفْرِ، فَوَجْهُ الشَّبَهِ هُوَ ظُهُورُ أَمْرٍ نَافِعٍ ثُمَّ انْعِدَامُهُ قَبْلَ الِانْتِفَاعِ بِهِ، فَإِنَّ فِي إِظْهَارِهِمُ الْإِسْلَامَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ صُورَةٌ مِنْ حُسْنِ الْإِيمَانِ وَبَشَاشَتِهِ، لِأَنَّ لِلْإِسْلَامِ نُورًا وَبَرَكَةً، ثُمَّ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَرْجِعُوا عِنْدَ خُلُوِّهِمْ بِشَيَاطِينِهِمْ، فَيَزُولُ عَنْهُمْ ذَلِكَ، وَيَرْجِعُوا فِي ظُلْمَةِ الْكُفْرِ أَشَدَّ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي كُفْرٍ فَصَارُوا فِي كُفْرٍ وَكَذِبٍ، وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنِ النِّفَاقِ مِنَ الْمَذَامِّ.**

**فَإِنَّ الَّذِي يَسْتَوْقِدُ النَّارَ فِي الظَّلَامِ يَتَطَلَّبُ رُؤْيَةَ الْأَشْيَاءِ، فَإِذَا انْطَفَأَتِ النَّارُ صَارَ أَشَدَّ حَيْرَةً مِنْهُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ لِأَنَّ ضَوْءَ النَّارِ قَدْ عَوَّدَ بَصَرَهُ، فَيَظْهَرُ أَثَرُ الظُّلْمَةِ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ أَقْوَى وَيَرْسَخُ الْكُفْرُ فِيهِمْ. وَبِهَذَا تَظْهَرُ نُكْتَةُ الْبَيَانِ بِجُمْلَةِ لَا يُبْصِرُونَ لِتَصْوِيرِ حَالِ مَنِ انْطَفَأَ نُورُهُ بَعْدَ أَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ.**

**وَمَفْعُولُ (لَا يُبْصِرُونَ) مَحْذُوفٌ لِقَصْدِ عُمُومِ نَفْيِ الْمُبْصَرَاتِ، فَنُزِّلَ الْفِعْلُ مَنْزِلَةَ اللَّازِمِ وَلَا يُقَدَّرُ لَهُ مَفْعُولٌ كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا إِحْسَاسَ بَصَرٍ لَهُمْ، كَقَوْلِ**[**الْبُحْتُرِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13823)**:**

**شَجْوُ حُسَّادِهِ وَغَيْظُ عِدَاهُ     أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِ**

**وَقَدْ أُجْمِلَ وَجْهُ الشَّبَهِ فِي تَشْبِيهِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ اعْتِمَادًا عَلَى فِطْنَةِ السَّامِع،ِ لِأَنَّهُ يَمْخَضُهُ مِنْ مَجْمُوعِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ شَرْحِ حَالِهِمُ ابْتِدَاءً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾[[381]](#footnote-381)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=56#docu)**إِلَخْ، وَمِمَّا يَتَضَمَّنُهُ الْمَثَلَانِ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى وُجُوهِ الْمُشَابَهَةِ بَيْنَ أَجْزَاءِ أَحْوَالِهِمْ وَأَجْزَاءِ الْحَالَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا. فَإِنَّ إِظْهَارَهُمُ الْإِيمَانَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿**[**آمَنَّا بِاللَّهِ﴾[[382]](#footnote-382)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=56#docu)**وَقَوْلِهِمْ: ﴿**[**إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[[383]](#footnote-383).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=56#docu)

**وَقَوْلِهِمْ عِنْدَ لِقَاءِ الْمُؤْمِنِينَ: آمَنَّا أَحْوَالٌ وَمَظَاهِرُ حَسَنَةٌ تَلُوحُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ حِينَمَا يَحْضُرُونَ مَجْلِسَ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَحِينَمَا يَتَظَاهَرُونَ بِالْإِسْلَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَصْدُرُ مِنْهُمْ طَيِّبُ الْقَوْلِ وَقَوِيمُ السُّلُوكِ وَتُشْرِقُ عَلَيْهِمُ الْأَنْوَارُ النَّبَوِيَّةُ، فَيَكَادُ نُورُ الْإِيمَانِ يَخْتَرِقُ إِلَى نُفُوسِهِمْ، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا يَعْقُبُ تِلْكَ الْحَالَةَ الطَّيِّبَةَ حَالَةٌ تُضَادُهَا عِنْدَ انْفِضَاضِهِمْ عَنْ تِلْكَ الْمَجَالِسِ الزَّكِيَّةِ وَخُلُوصِهِمْ إِلَى بِطَانَتِهِمْ مِنْ كُبَرَائِهِمْ أَوْ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ فَتُعَاوِدُهُمُ الْأَحْوَالُ الذَّمِيمَةُ مِنْ مُزَاوَلَةِ الْكُفْرَ وَخِدَاعِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْحِقْدِ عَلَيْهِمْ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ وَوَصْفِهِمْ بِالسَّفَهِ.**

**مُثِّلَ ذَلِكَ التَّظَاهُرُ وَذَلِكَ الِانْقِلَابُ بِحَالِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ثُمَّ ذَهَبَ عَنْهُ نُورُهَا.**

**وَمِنْ بَدَائِعِ هَذَا التَّمْثِيلِ أَنَّهُ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ تَرْكِيبِ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا وَمُقَابَلَتِهَا لِلْهَيْئَةِ الْمُرَكَّبَةِ مِنْ حَالِهِمْ هُوَ قَابِلٌ لِتَحْلِيلِهِ بِتَشْبِيهَاتٍ مُفْرَدَةٍ لِكُلِّ جُزْءٍ مِنْ هَيْئَةِ أَحْوَالِهِمْ بِجُزْءٍ مُفْرَدٍ مِنَ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا، فَشُبِّهَ اسْتِمَاعُهُمُ الْقُرْآنَ بِاسْتِيقَادِ النَّارِ.**

**وَيَتَضَمَّنُ تَشْبِيهَ الْقُرْآنِ فِي إِرْشَادِ النَّاسِ إِلَى الْخَيْرِ وَالْحَقِّ بِالنَّارِ فِي إِضَاءَةِ الْمَسَالِكِ لِلسَّالِكِينَ، وَشُبِّهَ رُجُوعُهُمْ إِلَى كُفْرِهِمْ بِذَهَابِ نُورِ النَّارِ، وَشُبِّهَ كَفْرُهُمْ بِالظُّلُمَاتِ، وَيُشَبَّهُونَ بِقَوْمٍ انْقَطَعَ إِبْصَارُهُمْ.**

**﴿**[**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[[384]](#footnote-384)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=57#docu)

**أَخْبَارٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ هُوَ ضَمِيرٌ يَعُودُ إِلَى مَا عَادَ إِلَيْهِ ضَمِيرُ: ﴿**[**مَثَلُهُمْ﴾[[385]](#footnote-385)؛**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=57#docu)**وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى (الَّذِي اسْتَوْقَدَ)، لِأَنَّهُ لَا يَلْتَئِمُ بِهِ أَوَّلُ التَّشْبِيهِ وَآخِرُهُ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿**[**كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[[386]](#footnote-386)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=57#docu)**يَقْتَضِي أَنَّ الْمُسْتَوْقِدَ ذُو بَصَرٍ، وَإِلَّا لَمَا تَأَتَّى مِنْهُ الِاسْتِيقَادُ، وَحَذْفُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ اسْتِعْمَالٌ شَائِعٌ عِنْدَ الْعَرَبِ إِذَا ذَكَرُوا مَوْصُوفًا بِأَوْصَافٍ أَوْ أَخْبَارٍ جَعَلُوهُ كَأَنَّهُ قَدْ عُرِفَ لِلسَّامِعِ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ أَوْ فَتًى أَوْ رَجُلٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ عَلَى تَقْدِيرِ: هُوَ فُلَانٌ.**

**وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[[387]](#footnote-387)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=57#docu)**التَّقْدِيرُ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ، عَدَلَ عَنْ جَعْلِ "رَبُّ" بَدَلًا مِنْ "رَبِّكَ"، وَقَوْلُ الْحَمَاسِيِّ:**

**سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّـــــــــــــــــــتِي أَيَادِيَ لَمْ تَمْنُنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّــــــــــــــــتِ**

**فَتًى غَيْرُ مَحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ  وَلَا مُظْهِرُ الشَّكْوَى إِذَا النَّعْلُ زَلِّتِ**

**وَسَمَّى السَّكَّاكِيُّ هَذَا الْحَذْفَ: "الْحَذْفَ الَّذِي اتُّبِعَ فِيهِ الِاسْتِعْمَالُ الْوَارِدُ عَلَى تَرْكِهِ".**

**وَالْإِخْبَارُ عَنْهُمْ بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ جَاءَ عَلَى طَرِيقَةِ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ ؛ شُبِّهُوا فِي انْعِدَامِ آثَارِ الْإِحْسَاسِ مِنْهُمْ بِالصُّمِّ الْبُكْمِ الْعُمْيِ، أَيْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ اجْتَمَعَتْ لَهُ الصِّفَاتُ الثَّلَاثُ، وَذَلِكَ شَأْنُ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ بَعْدَ مُبْتَدَأٍ هُوَ اسْمٌ دَالٌّ عَلَى جَمْعٍ، فَالْمَعْنَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَالْأَصَمِّ الْأَبْكَمِ الْأَعْمَى، وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَى التَّوْزِيعِ، فَلَا يُفْهَمُ أَنَّ بَعْضَهُمْ كَالْأَصَمِّ وَبَعْضَهُمْ كَالْأَبْكَمِ وَبَعْضَهُمْ كَالْأَعْمَى، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الِاسْتِعَارَةِ عِنْدَ مُحَقِّقِي أَهْلِ الْبَيَانِ.**

**قَالَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ*: فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يُسَمَّى مَا فِي الْآيَةِ اسْتِعَارَةٌ قُلْتُ مُخْتَلَفٌ فِيهِ، وَالْمُحَقِّقُونَ عَلَى تَسْمِيَتِهِ تَشْبِيهًا بَلِيغًا لَا اسْتِعَارَةً، لِأَنَّ الْمُسْتَعَارَ لَهُ مَذْكُور،ٌ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ. اهـ، أَيْ لِأَنَّ الِاسْتِعَارَةَ تَعْتَمِدُ عَلَى لَفْظِ الْمُسْتَعَارِ مِنْهُ أَوِ الْمُسْتَعَارِ لَهُ فِي جُمْلَةِ الِاسْتِعَارَةِ، فَمَتَى ذُكِرَا مَعًا، فَهُوَ تَشْبِيهٌ، وَلَا يَضُرُّ ذِكْرُ لَفْظِ الْمُسْتَعَارِ لَهُ فِي غَيْرِ جُمْلَةِ الِاسْتِعَارَةِ لِظُهُورِ أَنَّهُ لَوْلَا الْعِلْمُ بِالْمُسْتَعَارِ لَهُ فِي الْكَلَامِ لَمَا ظَهَرَتِ الِاسْتِعَارَةُ.**

**وَلِذَلِكَ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ قَوْلَ**[**ابْنِ الْعَمِيدِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12826)**:**

**قَامَتْ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ      نَفْسٌ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِــــــــي**

**قَامَتْ تُظَلِّلُنِي وَمِنْ عَجَـــبٍ     شَمَّسٌ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْــــسِ**

**أَنَّ قَوْلَهُ: "شَمْسٌ" اسْتِعَارَةٌ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنْ ذَلِكَ ذِكْرُ الْمُسْتَعَارِ لَهُ قَبْلُ فِي قَوْلِهِ: نَفْسٌ أَعَزُّ، وَضَمِيرُهَا فِي قَوْلِهِ: قَامَتْ تُظَلِّلُنِي، وَكَذَا إِذَا كَانَ لَفْظُ الْمُسْتَعَارِ غَيْرَ مَقْصُودِ ابْتِنَاءِ التَّشْبِيهِ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ مَانِعًا مِنَ الِاسْتِعَارَةِ، كَقَوْلِ أَبِي الْحَسَنِ ابْنِ طَبَاطَبَا:**

**لَا تَعْجَبُوا مِنْ بِلَي غَلَالَتِــــــــــــهِ     قَدْ زَرَّ أَزْرَارَهُ عَلَى الْقَمَــــــــــــــــرِ**

**فَإِنَّ الضَّمِيرَ لَمْ يُذْكَرْ لِيُبْنَى عَلَيْهِ التَّشْبِيهُ، بَلْ جَاءَ التَّشْبِيهُ عَقِبَهُ.**

**وَالصُّمُّ وَالْبُكْمُ وَالْعُمْيُ جَمْعُ أَصَمَّ وَأَعْمَى وَأَبْكَمَ وَهُمْ مَنِ اتَّصَفَ بِالصَّمَمِ وَالْبَكَمِ وَالْعَمَى.**

**فَالصَّمَمُ: انْعِدَامُ إِحْسَاسِ السَّمْعِ عَمَّنْ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ سَمِيعًا، وَالْبَكَمُ انْعِدَامُ النُّطْقِ عَمَّنْ مِنْ شَأْنِهِ النُّطْقُ، وَالْعَمَى انْعِدَامُ الْبَصَرِ عَمَّنْ مِنْ شَأْنِهِ الْإِبْصَارُ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[[388]](#footnote-388)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=57#docu)**تَفْرِيعٌ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿**[**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[[389]](#footnote-389)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=57#docu)**لِأَنَّ مَنِ اعْتَرَاهُ هَذِهِ الصِّفَاتُ انْعَدَمَ مِنْهُ الْفَهْمُ وَالْإِفْهَامُ، وَتَعَذَّرَ طَمَعُ رُجُوعِهِ إِلَى رُشْدٍ أَوْ صَوَابٍ.**

**وَالرُّجُوعُ الِانْصِرَافُ مِنْ مَكَانِ حُلُولٍ ثَانٍ إِلَى مَكَانِ حُلُولٍ أَوَّلٍ، وَهُوَ هُنَا مَجَازٌ فِي الْإِقْلَاعِ عَنِ الْكُفْرِ.**

**﴿**[**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾[[390]](#footnote-390)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)

**عَطْفٌ عَلَى التَّمْثِيلِ السَّابِقِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿**[**كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[[391]](#footnote-391)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**أُعِيدَ تَشْبِيهُ حَالِهِمْ بِتَمْثِيلٍ آخَرَ وَبِمُرَاعَاةِ أَوْصَافٍ أُخْرَى، فَهُوَ تَمْثِيلٌ لِحَالِ الْمُنَافِقِينَ الْمُخْتَلِطَةِ بَيْنَ جَوَاذِبَ وَدَوَافِعَ -حِينَ يُجَاذِبُ نُفُوسَهُمْ جَاذِبُ الْخَيْرِ عِنْدَ سَمَاعِ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ وَإِرْشَادِهِ، وَجَاذِبُ الشَّرِّ مِنْ أَعْرَاقِ النُّفُوسِ وَالسُّخْرِيَةِ بِالْمُسْلِمِينَ- بِحَالِ صَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ اخْتَلَطَتْ فِيهِ غُيُوثٌ وَأَنْوَارٌ وَمُزْعِجَاتٌ وَأَكْدَارٌ، جَاءَ عَلَى طَرِيقَةِ بُلَغَاءِ الْعَرَبِ فِي التَّفَنُّنِ فِي التَّشْبِيهِ، وَهُمْ يَتَنَافَسُونَ فِيهِ لَاسِيَّمَا التَّمْثِيلِيُّ مِنْهُ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَمَكُّنِ الْوَاصِفِ مِنَ التَّوْصِيفِ وَالتَّوَسُّعِ فِيهِ.**

**وَقَدِ اسْتَقْرَيْتُ مِنِ اسْتِعْمَالِهِمْ، فَرَأَيْتُهُمْ قَدْ يَسْلُكُونَ طَرِيقَةَ عَطْفِ تَشْبِيهٍ عَلَى تَشْبِيهٍ كَقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ فِي مُعَلَّقَتِهِ:**

**أَصَاحِ تَرَى بَرْقًا أُرِيكَ وَمِيضَــــهُ كَلَمْعِ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّـــــــــــــلِ**

**يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحِ رَاهِبٍ  أَمَالَ السَّلِيطُ بِالذُّبَالِ الْمُفَتَّــــــــــــــلِ**

**وَقَوْلِ لَبِيدٍ فِي مُعَلَّقَتِهِ يَصِفُ رَاحِلَتَهُ:**

**فَلَهَا هِبَابٌ فِي الزِّمَامِ كَأَنَّهَـــــــــــــــــــــــــا      صَهْبَاءُ خَفَّ مَعَ الْجَنُوبِ جِهَامُهَا**

**أَوْ مُلْمِعٍ وَسَقَتْ لِأَحْقَبَ لَاحَـــــــــــــــهُ      طَرْدُ الْفُحُولِ وَضَرْبُهَا وَكِدَامُهَــــــــــــا**

**وَكَثُرَ أَنْ يَكُونَ الْعَطْفُ فِي نَحْوِهِ بَأَوْ دُونَ الْوَاوِ، وَأَوْ مَوْضُوعَةٌ لِأَحَدِ الشَّيْئَيْنِ أَوِ الْأَشْيَاءِ فَيَتَوَلَّدُ مِنْهَا مَعْنَى التَّسْوِيَةِ، وَرُبَّمَا سَلَكُوا فِي إِعَادَةِ التَّشْبِيهِ مَسْلَكَ الِاسْتِفْهَامِ بِالْهَمْزَةِ أَيْ لِتَخْتَارَ التَّشْبِيهَ بِهَذَا أَمْ بِذَلِكَ، وَذَلِكَ كَقَوْلِ لَبِيدٍ عَقِبَ الْبَيْتَيْنِ السَّابِقِ ذِكْرُهُمَا:**

**أَفَتِلْكَ أَمْ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَــــــــــــــــــــــــــــــةٌ      خَذَلَتْ وَهَادِيَةُ الصِّوَارِ قِوَامُهَـــــا**

**وَقَالَ**[**ذُو الرُّمَّةِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15871)**فِي تَشْبِيهِ سَيْرِ نَاقَتِهِ الْحَثِيثِ:**

**وَثْبَ الْمُسَحَّجُ مِنْ عَانَاتِ مُعَقُلَــــــةٍ      كَأَنَّهُ مُسْتَبَانُ الشَّكِّ أَوْ جَنِــــــبُ**

**ثُمَّ قَالَ:**

**أَذَاكَ أَمْ نَمِشٌ بِالْوَشْيِ أَكْرُعُـــــــــــــــــــــهُ      مُسَفَّعُ الْخَدِّ غَادٍ نَاشِعٌ شَبَـــــــــبُ**

**ثُمَّ قَالَ:**

**أَذَاكَ أَمْ خَاضِبٌ بِالسِّيِّ مَرْتَعُـــــــــــــــــهُ      أَبُو ثَلَاثِينَ أَمْسَى وَهْوَ مُنْقَلِــــــــبُ**

**وَرُبَّمَا عَطَفُوا بِالْوَاوِ كَمَا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾[[392]](#footnote-392)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿**[**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾[[393]](#footnote-393)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**الْآيَةَ. وَقَوْلِهِ: ﴿**[**وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾[[394]](#footnote-394)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**الْآيَةَ. بَلْ وَرُبَّمَا جَمَعُوا بِلَا عَطْفٍ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**﴾[[395]](#footnote-395).**

**وَهَذِهِ تَفَنُّنَاتٌ جَمِيلَةٌ فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ، فَمَا ظَنُّكَ بِهَا إِذَا وَقَعَتْ فِي التَّشْبِيهِ التَّمْثِيلِيِّ، فَإِنَّهُ لِعِزَّتِهِ مُفْرَدًا تَعِزُّ اسْتِطَاعَةُ تَكْرِيرِهِ.**

**وَأَوْ عَطَفَتْ لَفْظَ صَيِّبٍ عَلَى الَّذِي اسْتَوْقَدَ بِتَقْدِيرِ "مَثَلِ" بَيْنِ الْكَافِ وَصَيِّبٍ.**

**وَإِعَادَةُ حَرْفِ التَّشْبِيهِ مَعَ حَرْفِ الْعَطْفِ الْمُغْنِي عَنْ إِعَادَةِ الْعَامِلِ، وَهَذَا التَّكْرِيرُ مُسْتَعْمَلٌ فِي كَلَامِهِمْ وَحُسْنُهُ هُنَا أَنَّ فِيهِ إِشَارَةً إِلَى اخْتِلَافِ الْحَالَيْنِ الْمُشَبَّهَيْنِ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ، وَهُمْ فِي الْغَالِبِ لَا يُكَرِّرُونَهُ فِي الْعَطْفِ.**

**وَالتَّمْثِيلُ هُنَا لِحَالِ الْمُنَافِقِينَ حِينَ حُضُورِهِمْ مَجْلِسَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَسَمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ وَمَا فِيهِ مِنْ آيِ الْوَعِيدِ لِأَمْثَالِهِمْ وَآيِ الْبِشَارَةِ، فَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا التَّمْثِيلِ تَمْثِيلُ حَالَةٍ مُغَايِرَةٍ لِلْحَالَةِ الَّتِي مُثِّلَتْ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾[[396]](#footnote-396)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**بِنَوْعِ إِطْلَاقٍ وَتَقْيِيدٍ.**

**فَقَوْلُهُ: ﴿**[**أَوْ كَصَيِّبٍ﴾[[397]](#footnote-397)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**تَقْدِيرُهُ أَوْ كَفَرِيقٍ ذِي صَيْبٍ أَيْ كَقَوْمٍ عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾[[398]](#footnote-398)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**دَلَّ عَلَى تَقْدِيرِ قَوْمٍ قَوْلُهُ: ﴿**[**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾[[399]](#footnote-399)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**الْآيَةَ. لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَصِحُّ عَوْدُهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ فَلَا يَجِيءُ فِيهِ مَا جَازَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[[400]](#footnote-400)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**إِلَخْ.**

**فَشُبِّهَتْ حَالُ الْمُنَافِقِينَ بِحَالِ قَوْمٍ سَائِرِينَ فِي لَيْلٍ بِأَرْضِ قَوْمٍ أَصَابَهَا الْغَيْثُ وَكَانَ أَهْلُهَا كَانِّينَ فِي مَسَاكِنِهِمْ كَمَا عُلِمَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**[**كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾[[401]](#footnote-401)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**فَذَلِكَ الْغَيْثُ نَفَعَ أَهْلَ الْأَرْضِ وَلَمْ يُصِبْهُمْ مِمَّا اتَّصَلَ بِهِ مِنَ الرَّعْدِ وَالصَّوَاعِقِ ضُرٌّ وَلَمْ يَنْفَعِ الْمَارِّينَ بِهَا وَأَضَرَّ بِهِمْ مَا اتَّصَلَ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ وَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ، فَالصَّيِّبُ مُسْتَعَارٌ لِلْقُرْآنِ وَهُدَى الْإِسْلَامِ وَتَشْبِيهُهُ بِالْغَيْثِ وَارِدٌ.**

**وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ:**[**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى كَمَثَلِ الْغَيْثِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**إِلَخْ. وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿**[**كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾[[402]](#footnote-402)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**وَلَا تَجِدُ حَالَةً صَالِحَةً لِتَمْثِيلِ هَيْئَةِ اخْتِلَاطِ نَفْعٍ وَضُرٍّ مِثْلَ حَالَةِ الْمَطَرِ وَالسَّحَابِ، وَهُوَ مِنْ بَدِيعِ التَّمْثِيلِ الْقُرْآنِيِّ، وَمِنْهُ أَخَذَ أَبُو الطَّيِّبِ قَوْلَهُ:**

**فَتًى كَالسَّحَابِ الْجَوْنِ يُرْجَى وَيُتَّقَى     يَرَجَّى الْحَيَا مِنْهُ وَتُخْشَى الصَّوَاعِقُ**

**وَالظُّلُمَاتُ مُسْتَعَارٌ لِمَا يَعْتَرِي الْكَافِرِينَ مِنَ الْوَحْشَةِ عِنْدَ سَمَاعِهِ كَمَا تَعْتَرِي السَّائِرَ فِي اللَّيْلِ وَحْشَةُ الْغَيْمِ، لِأَنَّهُ يَحْجُبُ عَنْهُ ضَوْءَ النُّجُومِ وَالْقَمَرِ.**

**وَالرَّعْدُ لِقَوَارِعِ الْقُرْآنِ وَزَوَاجِرِهِ. وَالْبَرْقُ لِظُهُورِ أَنْوَارِ هَدْيِهِ مِنْ خِلَالِ الزَّوَاجِرِ، فَظَهَرَ أَنَّ هَذَا الْمُرَكَّبَ التَّمْثِيلِيَّ صَالِحٌ لِاعْتِبَارَاتِ تَفْرِيقِ التَّشْبِيهِ، وَهُوَ أَعْلَى التَّمْثِيلِ.**

**وَالصَّيِّبُ فَيْعَلٌ مِنْ صَابَ يُصُوبُ صَوْبًا إِذَا نَزَلَ بِشِدَّةٍ.**

**قَالَ الْمَرْزُوقِيُّ: إِنَّ يَاءَهُ لِلنَّقْلِ مِنَ الْمَصْدَرِيَّةِ إِلَى الْإِسْمِيَّةِ، فَهُوَ وَصْفٌ لِلْمَطَرِ بِشِدَّةِ الظُّلْمَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ كَثَافَةِ السَّحَابِ وَمِنْ ظَلَامِ اللَّيْلِ.**

**وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿**[**مِنَ السَّمَاءِ﴾[[403]](#footnote-403)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**لَيْسَ بِقَيْدٍ لِلصَّيِّبِ، وَإِنَّمَا هُوَ وَصْفٌ كَاشِفٌ جِيءَ بِهِ لِزِيَادَةِ اسْتِحْضَارِ صُورَةِ الصَّيِّبِ فِي هَذَا التَّمْثِيلِ إِذِ الْمَقَامُ مَقَامُ إِطْنَابٍ، كَقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ:**

**كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ**

**إِذْ قَدْ عَلِمَ السَّامِعُ أَنَّ السَّيْلَ لَا يَحُطُّ جُلْمُودَ صَخْرٍ إِلَّا مِنْ أَعْلَى وَلَكِنَّهُ أَرَادَ التَّصْوِيرَ، وَكَقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[[404]](#footnote-404)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**وَقَوْلِهِ: ﴿**[**كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾[[405]](#footnote-405)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**وَقَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾[[406]](#footnote-406).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)

**وَالسَّمَاءُ تُطْلَقُ عَلَى الْجَوِّ الْمُرْتَفِعِ فَوْقَنَا الَّذِي نَخَالُهُ قُبَّةً زَرْقَاءَ، وَعَلَى الْهَوَاءِ الْمُرْتَفِعِ قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[[407]](#footnote-407)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**وَتُطْلَقُ عَلَى السَّحَابِ، وَتُطْلَقُ عَلَى الْمَطَرِ نَفْسِهِ، فَفِي الْحَدِيثِ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِثْرَ سَمَاءٍ إِلَخْ.**

**وَلَمَّا كَانَ تَكَوُّنُ الْمَطَرِ مِنَ الطَّبَقَةِ الزَّمْهَرِيرِيَّةِ الْمُرْتَفِعَةِ فِي الْجَوِّ، جُعِلَ ابْتِدَاؤُهُ مِنَ السَّمَاءِ، وَتَكَرَّرَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ.**

**وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿**[**مِنَ السَّمَاءِ﴾[[408]](#footnote-408)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**تَقْيِيدًا لِلصَّيِّبِ إِمَّا بِمَعْنَى: مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِ الْجَوِّ إِذَا قُلْنَا: إِنَّ التَّعْرِيفَ فِي السَّمَاءِ لِلِاسْتِغْرَاقِ، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ فِي *الْكَشَّافِ* عَلَى بُعْدٍ فِيهِ، إِذْ لَمْ يُعْهَدُ دُخُولُ لَامِ الِاسْتِغْرَاقِ إِلَّا عَلَى اسْمٍ كُلِّيٍّ ذِي أَفْرَادٍ دُونَ اسْمِ كُلٍّ ذِي أَجْزَاء،ٍ فَيَحْتَاجُ لِتَنْزِيلِ الْأَجْزَاءِ مَنْزِلَةَ أَفْرَادِ الْجِنْسِ -وَلَا يُعْرَفُ لَهُ نَظِيرٌ فِي الِاسْتِعْمَالِ-.**

**فَالَّذِي يَظْهَرُ لِي -إِنْ جَعَلْنَا قَوْلَهُ: ﴿**[**مِنَ السَّمَاءِ﴾[[409]](#footnote-409)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)**قَيْدًا لِلصَّيِّبِ- أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ السَّمَاءِ أَعْلَى الِارْتِفَاعِ، وَالْمَطَرُ إِذَا كَانَ مِنْ سَمْتٍ مُقَابِلٍ، وَكَانَ عَالِيًا كَانَ أَدْوَمَ، بِخِلَافِ الَّذِي يَكُونُ مِنْ جَوَانِبِ الْجَوِّ، وَيَكُونُ قَرِيبًا مِنَ الْأَرْضِ غَيْرَ مُرْتَفِعٍ.**

**وَضَمِيرُ "فِيهِ" عَائِدٌ إِلَى صَيِّبٍ، وَالظَّرْفِيَّةُ مَجَازِيَّةٌ بِمَعْنَى مَعَهُ، وَالظُّلُمَاتُ مَضَى الْقَوْلُ فِيهِ آنِفًا، وَالْمُرَادُ بِالظُّلُمَاتِ ظَلَامُ اللَّيْلِ، أَيْ كَسَحَابٍ فِي لَوْنِهِ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ، وَسَحَابَةُ اللَّيْلِ أَشَدُّ مَطَرًا وَبَرْقًا وَتُسَمَّى سَارِيَةً.**

**وَالرَّعْدُ: أَصْوَاتٌ تَنْشَأُ فِي السَّحَابِ.**

**وَالْبَرْقُ لَامِعٌ نَارِيٌّ مُضِيءٌ يَظْهَرُ فِي السَّحَابِ، وَالرَّعْدُ وَالْبَرْقُ يَنْشَآنِ فِي السَّحَابِ مِنْ أَثَرٍ كَهْرَبَائِيٍّ يَكُونُ فِي السَّحَابِ، فَإِذَا تَكَاثَفَتْ سَحَابَتَانِ فِي الْجَوِّ إِحْدَاهُمَا كَهْرَبَاؤُهَا أَقْوَى مِنْ كَهْرَبَاءِ الْأُخْرَى وَتَحَاكَّتَا جَذَبَتِ الْأَقْوَى مِنْهُمَا الْأَضْعَفَ، فَحَدَثَ بِذَلِكَ انْشِقَاقٌ فِي الْهَوَاءِ بِشِدَّةٍ وَسُرْعَةٍ، فَحَدَثَ صَوْتٌ قَوِيٌّ هُوَ الْمُسَمَّى الرَّعْدَ، وَهُوَ فَرْقَعَةٌ هَوَائِيَّةٌ مِنْ فِعْلِ الْكَهْرَبَاءِ، وَيَحْصُلُ عِنْدَ ذَلِكَ الْتِقَاءُ الْكَهْرَبَاءَيْنِ، وَذَلِكَ يُسَبِّبُ انْقِدَاحَ الْبَرْقِ.**

**وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الصَّيِّبَ تَشْبِيهٌ لِلْقُرْآنِ وَأَنَّ الظُّلُمَاتِ وَالرَّعْدَ وَالْبَرْقَ تَشْبِيهٌ لِنَوَازِعِ الْوَعِيدِ بِأَنَّهَا تَسُرُّ أَقْوَامًا وَهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِالْغَيْثِ وَتَسُوءُ الْمُسَافِرِينَ غَيْرَ أَهْلِ تِلْكَ الدَّارِ، فَكَذَلِكَ الْآيَاتُ تَسُرُّ الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ نَاجِينَ مِنْ أَنْ تَحِقَّ عَلَيْهِمْ، وَتَسُوءُ الْمُنَافِقِينَ إِذْ يَجِدُونَهَا مُنْطَبِقَةً عَلَى أَحْوَالِهِمْ.**

**﴿**[**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[[410]](#footnote-410)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)

**الْأَظْهَرُ أَنْ تَكُونَ جُمْلَةُ يَجْعَلُونَ حَالًا اتَّضَحَ بِهَا الْمَقْصُودُ مِنَ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ مُجْمَلَةً، وَأَمَّا جُمْلَةُ: ﴿**[**يَكَادُ الْبَرْقُ﴾[[411]](#footnote-411)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**فَيَجُوزُ كَوْنُهَا حَالًا مِنْ ضَمِيرِ ﴿يَجْعَلُونَ﴾[[412]](#footnote-412)، لِأَنَّ بِهَا كَمَالَ إِيضَاحِ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا، وَيَجُوزُ كَوْنُهَا اسْتِئْنَافًا لِبَيَانِ حَالِ الْفَرِيقِ عِنْدَ الْبَرْقِ نَشَأَ عَنْ بَيَانِ حَالِهِمْ عِنْدَ الرَّعْدِ.**

**وَجُمْلَةُ: ﴿**[**كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾[[413]](#footnote-413)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**حَالٌ مِنَ الْبَرْقِ أَوْ مِنْ ضَمِيرِ أَبْصَارِهِمْ لَا غَيْرَ، وَفِي هَذَا تَشْبِيهٌ لِجَزَعِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ آيَاتِ الْوَعِيدِ بِمَا يَعْتَرِي الْقَائِمَ تَحْتَ السَّمَاءِ حِينَ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ وَالظُّلُمَاتِ، فَهُوَ يَخْشَى اسْتِكَاكَ سَمْعِهِ وَيَخْشَى الصَّوَاعِقَ حَذَرَ الْمَوْتِ وَيُعَشِّيهِ الْبَرْقُ حِينَ يَلْمَعُ بِإِضَاءَةٍ شَدِيدَةٍ وَيُعَمِّي عَلَيْهِ الطَّرِيقَ بَعْدَ انْقِطَاعِ لَمَعَانِهِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ﴾[[414]](#footnote-414)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**تَمْثِيلٌ لِحَالِ حَيْرَةِ الْمُنَافِقِينَ بِحَالِ حَيْرَةِ السَّائِرِينَ فِي اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ الْمُرْعِدِ الْمُبْرِقِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[[415]](#footnote-415)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**اعْتِرَاضٌ لِلتَّذْكِيرِ بِأَنَّ الْمَقْصُودَ التَّمْثِيلُ لِحَالِ الْمُنَافِقِينَ فِي كُفْرِهِمْ لَا لِمُجَرَّدِ التَّفَنُّنِ فِي التَّمْثِيلِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[[416]](#footnote-416)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**رُجُوعٌ إِلَى وَعِيدِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ هُمُ الْمَقْصُودُ مِنَ التَّمْثِيلِ، فَالضَّمَائِرُ الَّتِي فِي جُمْلَةِ: ﴿**[**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾[[417]](#footnote-417)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**رَاجِعَةٌ إِلَى أَصْلِ الْكَلَامِ، وَتَوْزِيعُ الضَّمَائِرِ دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ.**

**فَعَبَّرَ عَنْ زَوَاجِرِ الْقُرْآنِ بِالصَّوَاعِقِ وَعَنِ انْحِطَاطِ قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ، وَهِيَ الْبَصَائِرُ عَنْ قَرَارِ نُورِ الْإِيمَانِ فِيهَا بِخَطْفِ الْبَرْقِ لِلْأَبْصَارِ، وَإِلَى نَحْوٍ مِنْ هَذَا يُشِيرُ كَلَامُ ابْنِ عَطِيَّةَ نَقْلًا عَنْ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ، وَهُوَ مَجَازٌ شَائِعٌ، يُقَالُ: فُلَانٌ يَرْعُدُ وَيَبْرُقُ، عَلَى أَنَّ بِنَاءَهُ هُنَا عَلَى الْمَجَازِ السَّابِقِ يَزِيدُهُ قَبُولًا، وَعَبَّرَ عَمَّا يَحْصُلُ لِلْمُنَافِقِينَ مِنَ الشَّكِّ فِي صِحَّةِ اعْتِقَادِهِمْ بِمَشْيِ السَّارِي فِي ظُلْمَةٍ إِذَا أَضَاءَ لَهُ الْبَرْقُ، وَعَنْ إِقْلَاعِهِمْ عَنْ ذَلِكَ الشَّكِّ حِينَ رُجُوعِهِمْ إِلَى كُفْرِهِمْ بِوُقُوفِ الْمَاشِي عِنْدَ انْقِطَاعِ الْبَرْقِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّمْثِيلِ.**

**وَخَلَّلَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِتَهْدِيدٍ لَا يُنَاسِبُ إِلَّا الْمُشَبَّهِينَ، وَهُوَ مَا أَفَادَهُ الِاعْتِرَاضُ بِقَوْلِهِ: ﴿**[**وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[[418]](#footnote-418)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**وَقَوْلِهِ: ﴿**[**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[[419]](#footnote-419)؛**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**فَجَاءَ بِهَذِهِ الْجُمَلِ الْحَالِيَّةِ وَالْمُسْتَأْنَفَةِ تَنْبِيهًا عَلَى وَجْهِ الشَّبَهِ وَتَقْرِيرًا لِقُوَّةِ مُشَابَهَةِ الزَّوَاجِرِ وَآيَاتِ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ بِالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ فِي حُصُولِ أَثَرَيِ النَّفْعِ وَالضُّرِّ عَنْهُمَا مَعَ تَفَنُّنٍ فِي الْبَلَاغَةِ وَطَرَائِقِ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ.**

**وَجَعَلَ فِي *الْكَشَّافِ* الْجُمَلَ الثَّلَاثَ مُسْتَأْنَفًا بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ بِأَنْ تَكُونَ الْأُولَى اسْتِئْنَافًا عَنْ جُمْلَةِ: ﴿**[**أَوْ كَصَيِّبٍ﴾[[420]](#footnote-420)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**وَالثَّانِيَةُ، وَهِيَ ﴿**[**يَكَادُ الْبَرْقُ﴾[[421]](#footnote-421)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**مُسْتَأْنَفَةً عَنْ جُمْلَةِ ﴿يَجْعَلُونَ﴾[[422]](#footnote-422)، لِأَنَّ الصَّوَاعِقَ تَسْتَلْزِمُ الْبَرْقَ، وَالثَّالِثَةُ، وَهِيَ ﴿**[**كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا﴾[[423]](#footnote-423)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**مُسْتَأْنَفَةً عَنْ قَوْلِهِ: ﴿**[**يَكَادُ الْبَرْقُ﴾[[424]](#footnote-424).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)

**وَالْمَعْنَى عَلَيْهِ ضَعِيفٌ، وَهُوَ فِي بَعْضِهَا أَضْعَفُ مِنْهُ فِي بَعْضٍ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ آنِفًا.**

**وَالْجَعْلُ وَالْأَصَابِعُ مُسْتَعْمَلَانِ فِي حَقِيقَتِهِمَا عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ، لِأَنَّ الْجَعْلَ هُوَ هُنَا بِمَعْنَى النَّوْطِ، وَالظَّرْفِيَّةُ لَا تَقْتَضِي الْإِحَاطَةَ فَجَعْلُ بَعْضِ الْإِصْبَعِ فِي الْأُذُنِ هُوَ جَعْلٌ لِلْإِصْبَعِ، فَتَمَثُّلُ بَعْضِ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ بِهَذِهِ الْآيَةِ لِلْمَجَازِ الَّذِي عَلَاقَتُهُ الْجُزْئِيَّةُ تَسَامُحٌ.**

**وَلِذَلِكَ عَبَّرَ عَنْهُ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* بِقَوْلِهِ: هَذَا مِنَ الِاتِّسَاعَاتِ فِي اللُّغَةِ الَّتِي لَا يَكَادُ الْحَاصِرُ يَحْصُرُهَا كَقَوْلِهِ: ﴿**[**فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[[425]](#footnote-425)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**وَمِنْهُ قَوْلُكَ مَسَحْتُ بِالْمِنْدِيلِ، وَدَخَلْتُ الْبَلَدَ، وَقِيلَ: ذَلِكَ مَجَازٌ فِي الْأَصَابِعِ، وَقِيلَ: مَجَازٌ فِي الْجَعْلِ: وَلِمَنْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُ مَجَازًا فِي الظَّرْفِيَّةِ، فَتَكُونُ تَبَعِيَّةً لِكَلِمَةِ "فِي".**

**وَ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾[[426]](#footnote-426)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**لِلتَّعْلِيلِ، أَيْ لِأَجْلِ الصَّوَاعِقِ إِذِ الصَّوَاعِقُ هِيَ عِلَّةُ جَعْلِ الْأَصَابِعِ فِي الْآذَانِ وَلَا ضَيْرَ فِي كَوْنِ الْجَعْلِ لِاتِّقَائِهَا، حَتَّى يُقَالَ يَلْزَمُ تَقْدِيرُ مُضَافٍ نَحْوَ تَرْكٍ وَاتِّقَاءٍ إِذْ لَا دَاعِيَ إِلَيْهِ.**

**وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُمْ: "سَقَاهُ مِنَ الْعَيْمَةِ" بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَسُكُونِ الْيَاءِ، وَهِيَ شَهْوَةُ اللَّبَنِ، لِأَنَّ الْعَيْمَةَ سَبَبُ السَّقْيِ وَالْمَقْصُودُ زَوَالُهَا، إِذِ الْمَفْعُولُ لِأَجْلِهِ هُوَ الْبَاعِثُ وُجُودُهُ عَلَى الْفِعْلِ، سَوَاءً كَانَ مَعَ ذَلِكَ غَايَةً لِلْفِعْلِ، وَهُوَ الْغَالِبُ أَمْ لَمْ يَكُنْ كَمَا هُنَا.**

**وَالصَّوَاعِقُ جَمْعُ صَاعِقَةٍ، وَهِيَ نَارٌ تَنْدَفِعُ مِنْ كَهْرَبَائِيَّةِ الْأَسْحِبَةِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا. وَقَوْلُهُ: ﴿**[**حَذَرَ الْمَوْتِ﴾[[427]](#footnote-427)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ، وَهُوَ هُنَا عِلَّةٌ وَغَايَةٌ مَعًا.**

**وَمِنْ بَدِيعِ هَذَا التَّمْثِيلِ أَنَّهُ مَعَ مَا احْتَوَى عَلَيْهِ مِنْ مَجْمُوعِ الْهَيْئَةِ الْمُرَكَّبَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا حَالُ الْمُنَافِقِينَ حِينَ مُنَازَعَةِ الْجَوَاذِبِ لِنُفُوسِهِمْ مِنْ جَوَاذِبِ الِاهْتِدَاءِ وَتَرْقُبِهَا مَا يُفَاضُ عَلَى نُفُوسِهِمْ مِنْ قَبُولِ دَعْوَةِ النَّبِيءِ وَإِرْشَادِهِ مَعَ جَوَاذِبِ الْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ، وَذَبِّهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَعْلَقَ بِهَا ذَلِكَ الْإِرْشَادُ حِينَمَا يَخْلُونَ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ، هُوَ مَعَ ذَلِكَ قَابِلٌ لِتَفْرِيقِ التَّشْبِيهِ فِي مُفْرَدَاتِهِ إِلَى تَشَابِيهَ مُفْرَدَةٍ بِأَنْ يُشَبَّهَ كُلُّ جُزْءٍ مِنْ مَجْمُوعِ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهَةِ لِجُزْءٍ مِنْ مَجْمُوعِ هَيْئَةِ قَوْمٍ أَصَابَهُمْ صَيِّبٌ مَعَهُ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَصَوَاعِقُ لَا يُطِيقُونَ سَمَاعَ قَصْفِهَا وَيَخْشَوْنَ الْمَوْتَ مِنْهَا وَبَرْقٌ شَدِيدٌ يَكَادُ يَذْهَبُ بِأَبْصَارِهِمْ، وَهُمْ فِي حَيْرَةٍ بَيْنَ السَّيْرِ وَتَرْكِهِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[[428]](#footnote-428)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**اعْتِرَاضٌ رَاجِعٌ لِلْمُنَافِقِينَ، إِذْ قَدْ حَقَّ عَلَيْهِمُ التَّمَثُّلُ وَاتَّضَحَ مِنْهُ حَالُهُمْ فَآنَ أَنْ يُنَبَّهَ عَلَى وَعِيدِهِمْ وَتَهْدِيدِهِمْ، وَفِي هَذَا رُجُوعٌ إِلَى أَصْلِ الْغَرَضِ كَالرُّجُوعِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ﴾[[429]](#footnote-429)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**إِلَخْ كَمَا تَقَدَّمَ، إِلَّا أَنَّهُ هُنَا وَقَعَ بِطَرِيقِ الِاعْتِرَاضِ.**

**وَالْإِحَاطَةُ اسْتِعَارَةٌ لِلْقُدْرَةِ الْكَامِلَةِ شُبِّهَتِ الْقُدْرَةُ الَّتِي لَا يَفُوتُهَا الْمَقْدُورُ بِإِحَاطَةِ الْمُحِيطِ بِالْمُحَاطِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّبَعِيَّةِ أَوِ التَّمْثِيلِيَّةِ، وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ جَمِيعَ مَا يَدُلُّ عَلَى جَمِيعِ الْمُرَكَّبِ الدَّالِّ عَلَى الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهَةِ بِهَا، وَقَدِ اسْتُعْمِلَ هَذَا الْخَبَرُ فِي لَازِمِهِ وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُفْلِتُهُمْ وَأَنَّهُ يُجَازِيهِمْ عَلَى سُوءِ صُنْعِهِمْ.**

**وَالْخَطْفُ الْأَخْذُ بِسُرْعَةٍ. وَ"كُلَّمَا" كَلِمَةٌ تُفِيدُ عُمُومَ مَدْخُولِهَا، وَمَا كَافَّةٌ لِكُلٍّ عَنِ الْإِضَافَةِ أَوْ هِيَ مَصْدَرِيَّةٌ ظَرْفِيَّةٌ أَوْ نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ، فَالْعُمُومُ فِيهَا مُسْتَفَادٌ مِنْ كَلِمَةِ كُلٍّ.**

**وَذِكْرُ "كُلَّمَا" فِي جَانِبِ الْإِضَاءَةِ وَ"إِذَا" فِي جَانِبِ الْإِظْلَامِ لِدَلَالَةِ كُلَّمَا عَلَى حِرْصِهِمْ عَلَى الْمَشْيِ وَأَنَّهُمْ يَتَرَصَّدُونَ الْإِضَاءَةَ، فَلَا يُفِيتُونَ زَمَنًا مِنْ أَزْمَانِ حُصُولِهَا لِيَتَبَيَّنُوا الطَّرِيقَ فِي سَيْرِهِمْ لِشِدَّةِ الظُّلْمَةِ.**

**وَأَضَاءَ فِعْلٌ يُسْتَعْمَلُ قَاصِرًا وَمُتَعَدِّيًا بِاخْتِلَافِ الْمَعْنَى كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾[[430]](#footnote-430)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**وَأَظْلَمَ يُسْتَعْمَلُ قَاصِرًا كَثِيرًا وَيُسْتَعْمَلُ مُتَعَدِّيًا قَلِيلًا.**

**وَالظَّاهِرُ أَنَّ أَضَاءَ هُنَا مُتَعَدٍّ، فَمَفْعُولُ أَضَاءَ مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ مَشَوْا عَلَيْهِ، وَتَقْدِيرُهُ الْمَمْشَى أَوِ الطَّرِيقُ؛ أَيْ أَضَاءَ لَهُمُ الْبَرْقُ الطَّرِيقَ وَكَذَلِكَ أَظْلَمَ، أَيْ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمُ الْبَرْقُ الطَّرِيقَ بِأَنْ أَمْسَكَ وَمِيضَهُ، فَإِسْنَادُ الْإِظْلَامِ إِلَى الْبَرْقِ مَجَازٌ، لِأَنَّهُ تَسَبَّبَ فِي الْإِظْلَامِ. وَمَعْنَى الْقِيَامِ عَدَمُ الْمَشْيِ أَيِ الْوُقُوفُ فِي الْمَوْضِعِ.**

**وَقَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿**[**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[[431]](#footnote-431)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**مَفْعُولُ شَاءَ مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ الْجَوَابِ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ شَأْنُ فِعْلِ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ وَنَحْوِهِمَا إِذَا وَقَعَ مُتَّصِلًا بِمَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَدُلَّ عَلَى مَفْعُولِهِ مِثْلَ وُقُوعِهِ صِلَةً لِمَوْصُولٍ يَحْتَاجُ إِلَى خَبَرٍ نَحْوَ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، أَيْ: مَا شَاءَ كَوْنَهُ كَانَ، وَمِثْلَ وُقُوعِهِ شَرْطًا لِلَوْ لِظُهُورِ أَنَّ الْجَوَابَ هُوَ دَلِيلُ الْمَفْعُولِ.**

**وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ فِي الْكَلَامِ السَّابِقِ قَبْلَ فِعْلِ الْمَشِيئَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى مَفْعُولِ الْفِعْلِ نَحْوُ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[[432]](#footnote-432).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)

**قَالَ الشَّيْخُ فِي *دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ*: إِنَّ الْبَلَاغَةَ فِي أَنْ يُجَاءَ بِهِ كَذَلِكَ مَحْذُوفًا، وَقَدْ يَتَّفِقُ فِي بَعْضِهِ أَنْ يَكُونَ إِظْهَارُ الْمَفْعُولِ هُوَ الْأَحْسَنَ، وَذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِ الشَّاعِرِ هُوَ إِسْحَاقُ الْخُرَيْمِيُّ مَوْلَى بَنِي خُرَيْمٍ مِنْ شُعَرَاءِ عَصْرِ الرَّشِيدِ يَرْثِي أَبَا الْهَيْذَامِ الْخُرَيْمِيَّ حَفِيدَهُ ابْنَ ابْنِ عِمَارَةَ.**

**وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ**

**وَسَبَبُ حُسْنِهِ أَنَّهُ كَأَنَّهُ بِدْعٌ عَجِيبٌ أَنْ يَشَاءَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَبْكِيَ دَمًا، فَلَمَّا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ الْأَوْلَى أَنْ يُصَرِّحَ بِذِكْرِهِ لِيُقَرِّرَهُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ إِلَخْ كَلَامِهِ.**

**وَتَبِعَهُ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ*، وَزَادَ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ لَا يَحْذِفُونَ فِي الشَّيْءِ الْمُسْتَغْرَبِ إِذْ قَالَ: لَا يَكَادُونَ يُبْرِزُونَ الْمَفْعُولَ إِلَّا فِي الشَّيْءِ الْمُسْتَغْرَبِ إِلَخْ.**

**وَهُوَ مُؤَوَّلٌ بِأَنَّ مُرَادَهُ أَنَّ عَدَمَ الْحَذْفِ حِينَئِذٍ يَكُونُ كَثِيرًا.**

**وَعِنْدِي أَنَّ الْحَذْفَ هُوَ الْأَصْلُ لِأَجْلِ الْإِيجَازِ فَالْبَلِيغُ تَارَةً يَسْتَغْنِي بِالْجَوَابِ فَيَقْصِدُ الْبَيَانَ بَعْدَ الْإِبْهَامِ، وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، قَالَ طَرَفَةُ:**

**وَإِنْ شِئْتَ لَمْ تُرْقِلْ وَإِنْ شِئْتَ أَرْقَلَتْ**

**وَتَارَةً يُبَيِّنُ بِذِكْرِ الشَّرْطِ أَسَاسَ الْإِضْمَارِ فِي الْجَوَابِ نَحْوَ الْبَيْتِ وَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿**[**لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ﴾[[433]](#footnote-433).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)

**وَيَحْسُنُ ذَلِكَ إِذَا كَانَ فِي الْمَفْعُولِ غَرَابَةٌ فَيَكُونُ ذِكْرُهُ لِابْتِدَاءِ تَقْرِيرِهِ كَمَا فِي بَيْتِ الْخُرَيْمِيِّ وَالْإِيجَازُ حَاصِلٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، لِأَنَّ فِيهِ حَذْفًا إِمَّا مِنَ الْأَوَّلِ أَوْ مِنَ الثَّانِي. وَقَدْ يُوهِمُ كَلَامُ أَئِمَّةِ الْمَعَانِي أَنَّ الْمَفْعُولَ الْغَرِيبَ يَجِبُ ذِكْرُهُ وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: ﴿**[**قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾[[434]](#footnote-434)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**فَإِنَّ إِنْزَالَ الْمَلَائِكَةِ أَمْرٌ غَرِيبٌ.**

**قَالَ**[**أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعَرِّيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=11880)**:**

**وَإِنْ شِئْتَ فَازْعُمْ أَنَّ مَنْ فَوْقَ ظَهْرِهَا     عَبِيدُكَ وَاسْتَشْهِدْ إِلَهَكَ يَشْهَدِ**

**فَإِنَّ زَعْمَ ذَلِكَ زَعْمٌ غَرِيبٌ.**

**وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[[435]](#footnote-435)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**ظَاهِرُهُ أَنْ يَعُودُوا إِلَى أَصْحَابِ الصَّيِّبِ الْمُشَبَّهِ بِحَالِهِمْ حَالُ الْمُنَافِقِينَ؛ لِأَنَّ الْإِخْبَارَ بِإِمْكَانِ إِتْلَافِ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ يُنَاسِبُ أَهْلَ الصَّيِّبِ الْمُشَبَّهِ بِحَالِهِمْ بِمُقْتَضَى قَوْلِهِ: ﴿**[**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾[[436]](#footnote-436)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**وَقَوْلِهِ: ﴿**[**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾[[437]](#footnote-437).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)

**وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الرَّعْدَ وَالْبَرْقَ الْوَاقِعَيْنِ فِي الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا هُمَا رَعْدٌ وَبَرْقٌ بَلَغَا مُنْتَهَى قُوَّةِ جِنْسَيْهِمَا بِحَيْثُ لَا يَمْنَعُ قَصِيفُ الرَّعْدِ مِنْ إِتْلَافِ أَسْمَاعِ سَامِعِيهِ وَلَا يَمْنَعُ وَمِيضُ الْبَرْقِ مِنْ إِتْلَافِ أَبْصَارِ نَاظِرِيهِ إِلَّا مَشِيئَةُ اللَّهِ عَدَمَ وُقُوعِ ذَلِكَ لِحِكْمَةٍ.**

**وَفَائِدَةُ ذِكْرِ هَذَا فِي الْحَالَةِ الْمُشَبَّهَةِ بِهَا أَنْ يَسْرِيَ نَظِيرُهُ فِي الْحَالَةِ الْمُشَبَّهَةِ، وَهِيَ حَالَةُ الْمُنَافِقِينَ فَهُمْ عَلَى وَشْكِ انْعِدَامِ الِانْتِفَاعِ بِأَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمُ انْعِدَامًا تَامًّا مِنْ كَثْرَةِ عِنَادِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ وَإِمْلَاءً لِيَزْدَادُوا إِثْمًا أَوْ تَلَوُّمًا لَهُمْ وَإِعْذَارًا لَعَلَّ مِنْهُمْ مَنْ يَثُوبُ إِلَى الْهُدَى.**

**وَقَدْ صِيغَ هَذَا الْمَعْنَى فِي هَذَا الْأُسْلُوبِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّوْجِيهِ بِالتَّهْدِيدِ لَهُمْ أَنْ يُذْهِبَ اللَّهُ سَمْعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ مِنْ نِفَاقِهِمْ، إِنْ لَمْ يَبْتَدِرُوا الْإِقْلَاعَ عَنِ النِّفَاقِ، وَذَلِكَ يَكُونُ لَهُ وَقْعُ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ، كَمَا وَقَعَ لِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا قَرَأَ عَلَيْهِ النَّبِيءُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿**[**فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[[438]](#footnote-438).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)

**فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنِ اجْتِلَابِ "لَوْ" فِي هَذَا الشَّرْطِ إِفَادَةَ مَا تَقْتَضِيهِ "لَوْ" مِنَ الِامْتِنَاعِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ الْمَقْصُودُ الْإِعْلَامَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ بَلِ الْمَقْصُودُ إِفَادَةُ لَازِمِ الِامْتِنَاعِ، وَهُوَ أَنَّ أَسْبَابَ إِذْهَابِ الْبَرْقِ وَالرَّعْدِ أَبْصَارَهُمُ الْوَاقِعَيْنِ فِي التَّمْثِيلِ مُتَوَفِّرَةٌ، وَهِيَ كُفْرَانُ النِّعْمَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْهُمَا، إِذْ إِنَّمَا رُزِقُوهُمَا لِلتَّبَصُّرِ فِي الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ وَسَمَاعِ الْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ.**

**فَلَمَّا أَعْرَضُوا عَنِ الْأَمْرَيْنِ كَانُوا أَحْرِيَاءَ بِسَلْبِ النِّعْمَةِ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ إِمْهَالًا لَهُمْ وَإِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، فَكَانَتْ لَوْ مُسْتَعْمَلَةً مَجَازًا مُرْسَلًا فِي مُجَرَّدِ التَّعْلِيقِ إِظْهَارًا لَتَوَفُّرِ الْأَسْبَابِ، لَوْلَا وُجُودُ الْمَانِعِ عَلَى حَدِّ قَوْلِ أُبَيِّ بْنِ سُلْمَى بْنِ رَبِيعَةَ مِنْ شُعَرَاءِ الْحَمَاسَةِ يَصِفُ فَرَسَهُ.**

**وَلَوْ طَارَ ذُو حَافِرٍ قَبْلَهَا     لَطَارَتْ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَطِـــــــــــــرْ**

**أَيْ تَوَفَّرَ فِيهَا سَبَبُ الطَّيَرَانِ.**

**فَالْمَعْنَى: لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ بِزِيَادَةِ مَا فِي الْبَرْقِ وَالرَّعْدِ مِنَ الْقُوَّةِ فَيُفِيدُ بُلُوغَ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ قُرْبَ غَايَةِ الْقُوَّةِ.**

**وَيَكُونُ لِقَوْلِهِ: ﴿**[**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[[439]](#footnote-439)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**مَوْقِعٌ عَجِيبٌ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[[440]](#footnote-440)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)**تَذْيِيلٌ، وَفِيهِ تَرْشِيحٌ لِلتَّوْجِيهِ الْمَقْصُودِ لِلتَّهْدِيدِ زِيَادَةً فِي تَذْكِيرِهِمْ وَإِبْلَاغًا لَهُمْ وَقَطْعًا لِمَعْذِرَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.**

**﴿**[**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[[441]](#footnote-441)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)

**اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ ثَنَى بِهِ الْعِنَانَ إِلَى مَوْعِظَةِ كُلِّ فَرِيقٍ مِنَ الْفِرَقِ الْأَرْبَعِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا مَوْعِظَةً تَلِيقُ بِحَالِهِ بَعْدَ أَنْ قَضَى حَقَّ وَصْفِ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ بِخِلَالِهِ، وَمُثِّلَثْ حَالُ كُلِّ فَرِيقٍ وَضُرِبَتْ لَهُ أَمْثَالُهُ، فَإِنَّهُ لَمَّا اسْتَوْفَى أَحْوَالًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَضْدَادِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ لَا جَرَمَ تَهَيَّأَ الْمَقَامُ لِخِطَابِ عُمُومِهِمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ إِرْشَادًا لَهُمْ وَرَحْمَةً بِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا يَرْضَى لَهُمُ الضَّلَالَ.**

**وَلَمْ يَكُنْ مَا ذُكِرَ آنِفًا مِنْ سُوءِ صُنْعِهِمْ حَائِلًا دُونَ إِعَادَةِ إِرْشَادِهِمْ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهِمْ بِالْخِطَابِ، فَفِيهِ تَأْنِيسٌ لِأَنْفُسِهِمْ بَعْدَ أَنْ هَدَّدَهُمْ وَلَامَهُمْ وَذَمَّ صُنْعَهُمْ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْإِغْلَاظَ عَلَيْهِمْ لَيْسَ إِلَّا حِرْصًا عَلَى صَلَاحِهِمْ، وَأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُمْ كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُرَبِّي النَّاصِحُ حِينَ يَزْجُرُ أَوْ يُوَبِّخُ، فَيُرَى انْكِسَارُ نَفْسِ مُرَبَّاهُ، فَيَجْبُرُ خَاطِرَهُ بِكَلِمَةٍ لَيِّنَةٍ لِيُرِيَهُ أَنَّهُ إِنَّمَا أَسَاءَ إِلَيْهِ اسْتِصْلَاحًا وَحُبًّا لِخَيْرِهِ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْ رَحْمَتِهِ لِخَلْقِهِ، حَتَّى فِي حَالِ عُتُوِّهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَفِي حَالِ حَمْلِهِمْ إِلَى مَصَالِحِهِمْ.**

**وَبَعْدُ فَهَذَا الِاسْتِئْنَاسُ وَجَبْرُ الْخَوَاطِرِ يَزْدَادُ بِهِ الْمُحْسِنُونَ إِحْسَانًا، وَيَنْكَفُّ بِهِ الْمُجْرِمُونَ عَنْ سُوءِ صُنْعِهِمْ، فَيَأْخُذُ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِيمَا سَلَفَ حَظَّهُ مِنْهُ.**

**فَالْمَقْصُودُ بِالنِّدَاءِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**[**يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾[[442]](#footnote-442)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**الْإِقْبَالُ عَلَى مَوْعِظَةِ نَبْذِ الشِّرْكِ وَذَلِكَ هُوَ غَالِبُ اصْطِلَاحِ الْقُرْآنِ فِي الْخِطَابِ بِـ ﴿**[**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**﴾[[443]](#footnote-443)، وَقَرِينَةُ ذَلِكَ هُنَا قَوْلُهُ: ﴿**[**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[[444]](#footnote-444)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**وَافْتَتَحَ الْخِطَابَ بِالنِّدَاءِ تَنْوِيهًا بِهِ.**

**وَيَا حَرْفٌ لِلنِّدَاء،ِ وَهُوَ أَكْثَرُ حُرُوفِ النِّدَاءِ اسْتِعْمَالًا، فَهُوَ أَصْلُ حُرُوفِ النِّدَاءِ، وَلِذَلِكَ لَا يُقَدَّرُ غَيْرُهُ عِنْدَ حَذْفِ حَرْفِ النِّدَاءِ، وَلِكَوْنِهِ أَصْلًا كَانَ مُشْتَرِكًا لِنِدَاءِ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ كَمَا فِي الْقَامُوسِ.**

**قَالَ الرَّضِيُّ: فِي *شَرْحِ الْكَافِيَةِ*: إِنَّ اسْتِعْمَالَ يَا فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ عَلَى السَّوَاءِ وَدَعْوَى الْمَجَازِ فِي أَحَدِهِمَا أَوِ التَّأْوِيلِ خِلَافُ الْأَصْلِ.**

**وَهُوَ يُرِيدُ بِذَلِكَ الرَّدَّ عَلَى**[**الزَّمَخْشَرِيِّ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14423)**إِذْ قَالَ فِي *الْكَشَّافِ*: وَيَا حَرْفٌ وُضِعَ فِي أَصْلِهِ لِنِدَاءِ الْبَعِيدِ ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي مُنَادَاةِ مَنْ سَهَا أَوْ غَفَلَ وَإِنْ قَرُبَ تَنْزِيلًا لَهُ مَنْزِلَةَ مَنْ بَعُدَ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ فِي كِتَابِ الْمُفَصَّلِ.**

**وَأَيٌّ فِي الْأَصْلِ نَكِرَةٌ تَدُلُّ عَلَى فَرْدٍ مِنْ جِنْسِ اسْمٍ يَتَّصِلُ بِهَا بِطَرِيقِ الْإِضَافَةِ، نَحْوُ "أَيُّ رَجُلٍ" أَوْ بِطَرِيقِ الْإِبْدَالِ نَحْوُ "يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ"، وَمِنْهُ مَا فِي الِاخْتِصَاصِ كَقَوْلِكَ لِجَلِيسِكَ: أَنَا كَفَيْتُ مُهِمَّكَ أَيُّهَا الْجَالِسُ عِنْدَكَ، وَقَدْ يُنَادُونَ الْمُنَادَى بِاسْمِ جِنْسِهِ أَوْ بِوَصْفِهِ لِأَنَّهُ طَرِيقُ مَعْرِفَتِهِ أَوْ لِأَنَّهُ أَشْمَلُ لِإِحْضَارِهِ كَمَا هُنَا.**

**فَرُبَّمَا يُؤْتَى بِالْمُنَادَى حِينَئِذٍ نَكِرَةً مَقْصُودَةً أَوْ غَيْرَ مَقْصُودَةٍ، وَرُبَّمَا يَأْتُونَ بِاسْمِ الْجِنْسِ أَوِ الْوَصْفِ مُعَرَّفًا بِاللَّامِ الْجِنْسِيَّةِ إِشَارَةً إِلَى تَطَرُّقِ التَّعْرِيفِ إِلَيْهِ عَلَى الْجُمْلَةِ تَفَنُّنًا، فَجَرَى اسْتِعْمَالُهُمْ أَنْ يَأْتُوا حِينَئِذٍ مَعَ اللَّامِ بِاسْمِ إِشَارَةٍ إِغْرَاقًا فِي تَعْرِيفِهِ وَيَفْصِلُوا بَيْنَ حَرْفِ النِّدَاءِ وَالِاسْمِ الْمُنَادَى حِينَئِذٍ بِكَلِمَةِ، "أَيْ" وَهُوَ تَرْكِيبٌ غَيْرُ جَارٍ عَلَى قِيَاسِ اللُّغَةِ، وَلَعَلَّهُ مِنْ بَقَايَا اسْتِعْمَالٍ عَتِيقٍ.**

**وَقَدِ اخْتَصَرُوا اسْمَ الْإِشَارَةِ فَأَبْقَوْا "هَا" التَّنْبِيهِيَّةَ وَحَذَفُوا اسْمَ الْإِشَارَةِ، فَأَصْلُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ يَا أَيُّ هَؤُلَاءِ، وَقَدْ صَرَّحُوا بِذَلِكَ فِي بَعْضِ كَلَامِهِمْ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ الَّذِي لَا نَعْرِفُهُ.**

**أَيُّهَذَانِ كُلَا زَادَيْكُمَا وَرُبَّمَا أَرَادُوا نِدَاءَ الْمَجْهُولِ الْحَاضِرِ الذَّاتِ أَيْضًا بِمَا يَدُلُّ عَلَى طَرِيقِ إِحْضَارِهِ مِنْ حَالَةٍ قَائِمَةٍ بِهِ، بِاعْتِبَارِ كَوْنِهِ فَرْدًا مِنْ جِنْسٍ، فَتَوَصَّلُوا لِذَلِكَ بِاسْمِ الْمَوْصُولِ الدَّالِّ عَلَى الْحَالَةِ بِصِلَتِهِ وَالدَّالِّ عَلَى الْجِنْسِيَّةِ، لِأَنَّ الْمَوْصُولَ يَأْتِي لِمَا تَأْتِي لَهُ اللَّامُ فَيُقْحِمُونَ أَيًّا كَذَلِكَ نَحْوَ: ﴿**[**يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾[[445]](#footnote-445)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**وَالنَّاسُ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي اشْتِقَاقِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَمِنَ النَّاسِ﴾[[446]](#footnote-446)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**وَهُوَ اسْمُ جَمْعٍ نُودِيَ هُنَا وَعُرِّفَ بِأَلْ. يَشْمَلُ كُلَّ أَفْرَادِ مُسَمَّاهُ، لِأَنَّ الْجُمُوعَ الْمُعَرَّفَةَ بِاللَّامِ لِلْعُمُومِ مَا لَمْ يَتَحَقَّقْ عَهْدٌ كَمَا تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ، وَاحْتِمَالُهَا الْعَهْدَ ضَعِيفٌ إِذِ الشَّأْنُ عَهْدُ الْأَفْرَادِ فَلِذَلِكَ كَانَتْ فِي الْعُمُومِ أَنَصَّ مِنْ عُمُومِ الْمُفْرَدِ الْمُحَلَّى بِأَلْ.**

**فَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى صُورَةِ الْخِطَابِ فَهُوَ إِنَّمَا وَاجَهَ بِهِ نَاسًا سَامِعِينَ فَعُمُومُهُ لِمَنْ لَمْ يَحْضُرْ وَقْتَ سَمَاعِ هَذِهِ الْآيَةِ وَلِمَنْ سَيُوجَدُ مِنْ بَعْدُ يَكُونُ بِقَرِينَةِ عُمُومِ التَّكْلِيفِ وَعَدَمِ قَصْدِ تَخْصِيصِ الْحَاضِرِينَ، وَذَلِكَ أَمْرٌ قَدْ تَوَاتَرَ نَقْلًا وَمَعْنًى، فَلَا جَرَمَ أَنْ يَعُمَّ الْجَمِيعَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى الْقِيَاسِ.**

**وَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى أَنَّ هَذَا مِنْ أَضْرُبِ الْخِطَابِ الَّذِي لَا يَكُونُ لِمُعَيَّنٍ فَيُتْرَكُ فِيهِ التَّعْيِينُ لِيَعُمَّ كُلَّ مَنْ يَصْلُحُ لِلْمُخَاطَبَةِ بِذَلِكَ، وَهَذَا شَأْنُ الْخِطَابِ الصَّادِرِ مِنَ الدُّعَاةِ وَالْأُمَرَاءِ وَالْمُؤَلِّفِينَ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِمْ: يَا قَوْمُ، وَيَا فَتَى، وَأَنْتَ تَرَى، وَبِهَذَا تَعْلَمُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَمَا ظَنُّكَ بِخِطَابِ الرُّسُلِ وَخِطَابٍ هُوَ نَازِلٌ مِنَ اللَّهِ –تَعَالَى- كَانَ ذَلِكَ عَامًّا لِكُلِّ مَنْ يَشْمَلُهُ اللَّفْظُ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ بِدَلِيلٍ آخَرَ.**

**وَهَذَا هُوَ تَحْقِيقُ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي يَفْرِضُهَا الْأُصُولِيُّونَ وَيُعَبِّرُونَ عَنْهَا بِخِطَابِ الْمُشَافَهَةِ وَالْمُوَاجَهَةِ هَلْ يَعُمُّ أَمْ لَا؟**

**وَالْجُمْهُورُ، وَإِنْ قَالُوا إِنَّهُ يَتَنَاوَلُ الْمَوْجُودِينَ دُونَ مَنْ بَعْدَهُمْ بِنَاءً عَلَى أَنَّ ذَلِكَ هُوَ مُقْتَضَى الْمُخَاطَبَةِ، حَتَّى قَالَ الْعَضُدُ إِنَّ إِنْكَارَ ذَلِكَ مُكَابَرَةٌ.**

**وَبَحَثَ فِيهِ التَّفْتَزَانِيُّ، فَهُمْ قَالُوا: إِنَّ شُمُولَ الْحُكْمِ لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ هُوَ مِمَّا تَوَاتَرَ مِنْ عُمُومِ الْبِعْثَةِ، وَأَنَّ أَحْكَامَهَا شَامِلَةٌ لِلْخَلْقِ فِي جَمِيعِ الْعُصُورِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْبَيْضَاوِيُّ.**

**قُلْتُ: الظَّاهِرُ أَنَّ خِطَابَاتِ التَّشْرِيعِ وَنَحْوَهَا غَيْرُ جَارِيَةٍ عَلَى الْمَعْرُوفِ فِي تَوَجُّهِ الْخِطَابِ فِي أَصْلِ اللُّغَاتِ، لِأَنَّ الْمُشَرِّعَ لَا يَقْصِدُ لِفَرِيقٍ مُعَيَّنٍ.**

**وَكَذَلِكَ خِطَابُ الْخُلَفَاءِ وَالْوُلَاةِ فِي الظَّهَائِرِ وَالتَّقَالِيدِ، فَقَرِينَةُ عَدَمِ قَصْدِ الْحَاضِرِينَ ثَابِتَةٌ وَاضِحَةٌ، غَايَةُ مَا فِي الْبَابِ أَنَّ تَعَلُّقَهُ بِالْحَاضِرِينَ تَعَلُّقٌ أَصْلِيٌّ إِلْزَامِيٌّ وَتَعَلُّقَهُ بِالَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدُ تَعَلُّقٌ مَعْنَوِيٌّ إِعْلَامِيٌّ عَلَى نَحْوِ مَا تَقَرَّرَ فِي تَعَلُّقِ الْأَمْرِ فِي عِلْمِ أُصُولِ الْفِقْهِ، فَنَفْرِضُ مِثْلَهُ فِي تَوَجُّهِ الْخِطَابِ.**

**وَالْعِبَادَةُ فِي الْأَصْلِ التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِيهَا عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[[447]](#footnote-447).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)

**وَلَمَّا كَانَ التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ إِنَّمَا يَحْصُلُ عَنْ صِدْقِ الْيَقِينِ كَانَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَتَوْحِيدُهُ بِالْإِلَهِيَّةِ مَبْدَأَ الْعِبَادَةِ، لِأَنَّ مَنْ أَشْرَكَ مَعَ الْمُسْتَحِقِّ مَا لَيْسَ بِمُسْتَحِقٍّ فَقَدْ تَبَاعَدَ عَنِ التَّذَلُّلِ وَالْخُضُوعِ لَهُ.**

**فَالْمُخَاطَبُ بِالْأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْعَرَبِ وَالدَّهْرِيُّونَ مِنْهُمْ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ بِمَا عَلَيْهِ مِنْ وَاجِبِ الْعِبَادَةِ مِنْ إِثْبَاتِ الْخَالِقِ وَمِنْ تَوْحِيدِهِ.**

**وَمِنَ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ، وَالْإِسْلَامِ لِلدِّينِ وَالِامْتِثَالِ لِمَا شَرَعَهُ إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ، حَتَّى مُنْتَهَى الْعِبَادَةِ، وَلَوْ بِالدَّوَامِ وَالْمُوَاظَبَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ، فَإِنَّهُمْ مَشْمُولُونَ لِلْخِطَابِ عَلَى مَا تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ.**

**فَالْمَأْمُورِيَّةُ هُوَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ حَتَّى لَا يَلْزَمَ اسْتِعْمَالُ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعَانِيهِ عِنْدَ مَنْ يَأْتِي ذَلِكَ الِاسْتِعْمَالَ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَأْبَاهُ إِذَا صَلَحَ لَهُ السِّيَاقُ بِدَلِيلِ تَفْرِيعِ قَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿**[**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾[[448]](#footnote-448)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**عَلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**﴾[[449]](#footnote-449) الْآيَةَ.**

**فَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حُجَّةٌ لِلْقَوْلِ بِخِطَابِ الْكُفَّارِ بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ، لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْعِبَادَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ إِنَّمَا يُعْنَى بِهِ الْإِيمَانُ وَالتَّوْحِيدُ وَتَصْدِيقُ الرَّسُولِ، وَخِطَابُهُمْ بِذَلِكَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَهِيَ مَسْأَلَةٌ سَمِجَةٌ.**

**وَقَدْ مَضَى الْقَوْلُ فِي مَعْنَى الرَّبِّ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[[450]](#footnote-450)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ.**

**وَوَجْهُ الْعُدُولِ عَنْ غَيْرِ طَرِيقِ الْإِضَافَةِ مِنْ طُرُقِ التَّعْرِيفِ نَحْوُ الْعَلَمِيَّةِ، إِذْ لَمْ يَقُلِ اعْبُدُوا اللَّهَ، لِأَنَّ فِي الْإِتْيَانِ بِلَفْظِ الرَّبِّ إِيذَانًا بِأَحَقِّيَّةِ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ، فَإِنَّ الْمُدَبِّرَ لِأُمُورِ الْخَلْقِ هُوَ جَدِيرٌ بِالْعِبَادَةِ، لِأَنَّ فِيهَا مَعْنَى الشُّكْرِ وَإِظْهَارَ الِاحْتِيَاجِ.**

**وَإِفْرَادُ اسْمِ الرَّبِّ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ رَبُّ جَمِيعِ الْخَلْقِ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ لَيْسَ ثَمَّةَ رَبٌّ يَسْتَحِقُّ هَذَا الِاسْمَ بِالْإِفْرَادِ وَالْإِضَافَةِ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ وَإِنْ أَشْرَكُوا مَعَ اللَّهِ آلِهَةً إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْقَبَائِلِ كَانَ لَهَا مَزِيدُ اخْتِصَاصٍ بِبَعْضِ الْأَصْنَامِ، كَمَا كَانَ لِثَقِيفٍ مَزِيدُ اخْتِصَاصٍ بِاللَّاتِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَتَبِعَهُمُ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، كَمَا سَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ﴾[[451]](#footnote-451)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**فِي هَذِهِ السُّورَةِ.**

**فَالْعُدُولُ إِلَى الْإِضَافَةِ هُنَا، لِأَنَّهَا أَخْصَرُ طَرِيقٍ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى هَذَا الْمَقْصِدِ، فَهِيَ أَخْصَرُ مِنَ الْمَوْصُولِ، فَلَوْ أُرِيدَ غَيْرُ اللَّهِ لَقِيلَ: اعْبُدُوا أَرْبَابَكُمْ.**

**فَلَا جَرَمَ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿**[**اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[[452]](#footnote-452)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**صَرِيحًا فِي أَنَّهُ دَعْوَةٌ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ فَقَوْلُهُ: ﴿**[**الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[[453]](#footnote-453)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**زِيَادَةُ بَيَانٍ لِمُوجِبِ الْعِبَادَةِ، أَوْ زِيَادَةُ بَيَانٍ لِمَا اقْتَضَتْهُ الْإِضَافَةُ مِنْ تَضَمُّنِ مَعْنَى الِاخْتِصَاصِ بِأَحَقِّيَّةِ الْعِبَادَةِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[[454]](#footnote-454)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**يُفِيدُ تَذْكِيرَ الدَّهْرِيِّينَ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا خَلَقَهُمْ آبَاؤُهُمْ، فَقَالُوا: ﴿**[**نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[[455]](#footnote-455)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿**[**وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[[456]](#footnote-456)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**تَذْكِيرًا لَهُمْ بِأَنَّ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ لَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهُوا إِلَى أَبٍ أَوَّلٍ فَهُوَ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ –تَعَالَى-.**

**وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ وَجْهُ التَّأْكِيدِ بِزِيَادَةِ حَرْفِ مِنْ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[[457]](#footnote-457)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**الَّذِي يُمْكِنُ الِاسْتِغْنَاءُ عَنْهُ بِالِاقْتِصَارِ عَلَى ﴿قَبْلِكُمْ﴾[[458]](#footnote-458)، لِأَنَّ مِنْ فِي الْأَصْلِ لِلِابْتِدَاءِ، فَهِيَ تُشِيرُ إِلَى أَوَّلِ الْمَوْصُوفِينَ بِالْقَبْلِيَّةِ، فَذِكْرُهَا هُنَا اسْتِرْوَاحٌ لِأَصْلِ مَعْنَاهَا مَعَ مَعْنَى التَّأْكِيدِ الْغَالِبِ عَلَيْهَا إِذَا وَقَعَتْ مَعَ "قَبْلُ" وَ"بَعْدُ".**

**وَالْخَلْقُ أَصْلُهُ الْإِيجَادُ عَلَى تَقْدِيرٍ وَتَسْوِيَةٍ وَمِنْهُ "خَلَقَ الْأَدِيمَ إِذَا هَيَّأَهُ لِيَقْطَعَهُ وَيَخْرُزَهُ".**

**قَالَ جُبَيْرٌ فِي هَرَمِ بْنِ سِنَانٍ:**

**وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي**

**وَأُطْلِقَ الْخَلْقُ فِي الْقُرْآنِ وَكَلَامِ الشَّرِيعَةِ عَلَى إِيجَادِ الْأَشْيَاءِ الْمَعْدُومَةِ فَهُوَ إِخْرَاجُ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ إِخْرَاجًا لَا صَنْعَةَ فِيهِ لِلْبَشَرِ، فَإِنَّ إِيجَادَ الْبَشَرِ بِصَنْعَتِهِمْ أَشْيَاءَ إِنَّمَا هُوَ تَصْوِيرُهَا بِتَرْكِيبِ مُتَفَرِّقِ أَجْزَائِهَا وَتَقْدِيرِ مَقَادِيرَ مَطْلُوبَةٍ مِنْهَا كَصَانِعِ الْخَزَفِ.**

**فَالْخَلْقُ وَإِيجَادُ الْعَوَالِمِ وَأَجْنَاسِ الْمَوْجُودَاتِ وَأَنْوَاعِهَا وَتَوَلُّدِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ بِمَا أَوْدَعَتِ الْخِلْقَةُ الْإِلَهِيَّةُ فِيهَا مِنْ نِظَامِ الْإِيجَادِ، مِثْلِ تَكْوِينِ الْأَجِنَّةِ فِي الْحَيَوَانِ فِي بُطُونِهِ وَبَيْضِهِ، وَتَكْوِينِ الزَّرْعِ فِي حُبُوبِ الزَّرِّيعَةِ، وَتَكْوِينِ الْمَاءِ فِي الْأَسْحِبَةِ؛ فَذَلِكَ كُلُّهُ خَلْقٌ، وَهُوَ مِنْ تَكْوِينِ اللَّهِ –تَعَالَى-.**

**وَلَا عِبْرَةَ بِمَا قَدْ يُقَارِنُ بَعْضَ ذَلِكَ الْإِيجَادِ مِنْ عِلَاجِ النَّاسِ كَالتَّزْوِيجِ وَإِلْقَاءِ الْحَبِّ وَالنَّوَى فِي الْأَرْضِ لِلْإِنْبَاتِ، فَالْإِيجَادُ الَّذِي هُوَ الْإِخْرَاجُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ بِدُونِ عَمَلٍ بَشَرِيٍّ خُصَّ بِاسْمِ الْخَلْقِ فِي اصْطِلَاحِ الشَّرْعِ، لِأَنَّ لَفْظَ الْخَلْقِ هُوَ أَقْرَبُ الْأَلْفَاظِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ دَلَالَةً عَلَى مَعْنَى الْإِيجَادِ مِنَ الْعَدَمِ الَّذِي هُوَ صِفَةُ اللَّهِ –تَعَالَى-. وَصَارَ ذَلِكَ مَدْلُولَ مَادَّةِ خَلَقَ فِي اصْطِلَاحِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ.**

**فَلِذَلِكَ خُصَّ إِطْلَاقُهُ فِي لِسَانِ الْإِسْلَامِ بِاللَّهِ -تَعَالَى-: ﴿**[**أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[[459]](#footnote-459)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**وَقَالَ: ﴿**[**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾[[460]](#footnote-460)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**وَخُصَّ اسْمُ الْخَالِقِ بِهِ -تَعَالَى- فَلَا يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِ، وَلَوْ أَطْلَقَهُ أَحَدٌ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ –تَعَالَى- بِنَاءً عَلَى الْحَقِيقَةِ اللُّغَوِيَّةِ، لَكَانَ إِطْلَاقُهُ عَجْرَفَةً، فَيَجِبُ أَنْ يُنَبَّهَ عَلَى تَرْكِهِ.**

**وَقَالَ**[**الْغَزَالِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14847)**فِي *الْمَقْصِدِ الْأَسْنَي*: لَا حَظَّ لِلْعَبْدِ فِي اسْمِهِ –تَعَالَى- الْخَالِقِ إِلَّا بِوَجْهٍ مِنَ الْمَجَازِ بَعِيدٍ. فَإِذَا بَلَغَ فِي سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَسِيَاسَةِ الْخَلْقِ مَبْلَغًا يَنْفَرِدُ فِيهِ بِاسْتِنْبَاطِ أُمُورٍ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهَا وَيَقْدِرُ مَعَ ذَلِكَ عَلَى فِعْلِهَا، كَانَ كَالْمُخْتَرِعِ لِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ وُجُودٌ مِنْ قَبْل،ُ فَيَجُوزُ إِطْلَاقُ الِاسْمِ أَيِ الْخَالِقِ عَلَيْهِ مَجَازًا اهـ.**

**فَجَعَلَ جَوَازَ إِطْلَاقِ فِعْلِ الْخَلْقِ عَلَى اخْتِرَاعِ بَعْضِ الْعِبَادِ مَشْرُوطًا بِهَذِهِ الْحَالَةِ النَّادِرَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ جَعَلَهُ مَجَازًا بَعِيدًا، فَمَا حَكَاهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ قَوْلِ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿**[**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[[461]](#footnote-461)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**وَقَوْلِ اللَّهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾[[462]](#footnote-462)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**فَإِنَّ ذَلِكَ مُرَاعَى فِيهِ أَصْلُ الْإِطْلَاقِ اللُّغَوِيِّ قَبْلَ غَلَبَةِ اسْتِعْمَالِ مَادَّةِ خَلَقَ فِي الْخَلْقِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ -تَعَالَى-.**

**ثُمَّ تَخْصِيصُ تِلْكَ الْمَادَّةِ بِتَكْوِينِ اللَّهِ –تَعَالَى- الْمَوْجُودَاتِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[[463]](#footnote-463).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)

**وَجُمْلَةُ: ﴿**[**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[[464]](#footnote-464)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**تَعْلِيلٌ لِلْأَمْرِ بِاعْبُدُوا، فَلِذَلِكَ فُصِلَتْ، أَيْ أَمَرْتُكُمْ بِعِبَادَتِهِ لِرَجَاءٍ مِنْكُمْ أَنْ تَتَّقُوا.**

**وَلَعَلَّ حَرْفٌ يَدُلُّ عَلَى الرَّجَاءِ. وَالرَّجَاءُ هُوَ الْإِخْبَارُ عَنْ تَهَيُّئِ وُقُوعِ أَمْرٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وُقُوعًا مُؤَكَّدًا.**

**فَتَبَيَّنَ أَنَّ لَعَلَّ حَرْفٌ مَدْلُولُهُ خَبَرِيٌّ، لِأَنَّهَا إِخْبَارٌ عَنْ تَأَكُّدِ حُصُولِ الشَّيْءِ وَمَعْنَاهَا مُرَكَّبٌ مِنْ رَجَاءِ الْمُتَكَلِّمِ فِي الْمُخَاطَبِ، وَهُوَ مَعْنًى جُزْئِيٌّ حَرْفِيٌّ.**

**وَقَدْ شَاعَ عِنْدَ الْمُفَسِّرِينَ وَأَهْلِ الْعُلُومِ الْحَيْرَةُ فِي مَحْمَلِ لَعَلَّ الْوَاقِعَةِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ –تَعَالَى-، لِأَنَّ مَعْنَى التَّرَجِّي يَقْتَضِي عَدَمَ الْجَزْمِ بِوُقُوعِ الْمَرْجُوِّ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ، فَلِلشَّكِّ جَانِبٌ فِي مَعْنَاهَا حَتَّى قَالَ الْجَوْهَرِيُّ لَعَلَّ كَلِمَةُ شَكٍّ.**

**وَهَذَا لَا يُنَاسِبُ عِلْمَ اللَّهِ –تَعَالَى- بِأَحْوَالِ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ وُقُوعِهَا، وَلِأَنَّهَا قَدْ وَرَدَتْ فِي أَخْبَارٍ مَعَ عَدَمِ حُصُولِ الْمَرْجُوِّ لِقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[[465]](#footnote-465)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَذَكَّرُوا كَمَا بَيَّنَتْهُ الْآيَاتُ مِنْ بَعْدُ.**

**وَلَهُمْ فِي تَأْوِيلِ لَعَلَّ الْوَاقِعَةِ فِي كَلَامِ اللَّهِ –تَعَالَى- وُجُوهٌ:**

**- أَحَدُهَا قَالَ**[**سِيبَوَيْهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16076)**لَعَلَّ عَلَى بَابِهَا وَالتَّرَجِّي أَوِ التَّوَقُّعُ إِنَّمَا هُوَ فِي حَيِّزِ الْمُخَاطَبِينَ اهـ. يَعْنِي أَنَّهَا لِلْإِخْبَارِ بِأَنَّ الْمُخَاطَبَ يَكُونُ مَرْجُوًّا، وَاخْتَارَهُ الرَّضِيُّ قَائِلًا: لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنْ لَا تَخْرُجَ عَنْ مَعْنَاهَا بِالْكُلِّيَّةِ.**

**وَأَقُولُ: لَا يَعْنِي**[**سِيبَوَيْهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16076)**أَنَّ ذَلِكَ مَعْنًى أُصِّلَ لَهَا، وَلَكِنَّهُ يَعْنِي أَنَّهَا مَجَازٌ قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى الْحَقِيقَةِ، لِوُقُوعِ التَّعْجِيزِ فِي أَحَدِ جُزْأَيِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ، لِأَنَّ الرَّجَاءَ يَقْتَضِي رَاجِيًا وَمَرْجُوًّا مِنْهُ.**

**فَحَرْفُ الرَّجَاءِ دَالٌّ عَلَى مَعْنَى فِعْلِ الرَّجَاءِ، إِلَّا أَنَّهُ مَعْنًى جُزْئِيٌّ، وَكُلٌّ مِنَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ مَدْلُولٌ لِمَعْنَى الْفِعْلِ بِالِالْتِزَامِ، فَإِذَا دَلَّتْ قَرِينَةٌ عَلَى تَعْطِيلِ دَلَالَةِ حَرْفِ الرَّجَاءِ عَلَى فَاعِلِ الرَّجَاءِ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَرْفِ أَوِ الْفِعْلِ تَمَجُّزٌ، إِذِ الْمَجَازُ إِنَّمَا يَتَطَرَّقُ لِلْمَدْلُولَاتِ اللُّغَوِيَّةِ لَا الْعَقْلِيَّةِ وَكَذَلِكَ إِذَا لَمْ يَحْصُلِ الْفِعْلُ الْمَرْجُوُّ.**

**- ثَانِيهَا: أَنَّ لَعَلَّ لِلْإِطْمَاعِ تَقُولُ لِلْقَاصِدِ: لَعَلَّكَ تَنَالُ بُغْيَتَكَ، قَالَ**[**الزَّمَخْشَرِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14423)**: وَقَدْ جَاءَتْ عَلَى سَبِيلِ الْإِطْمَاعِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ. وَالْإِطْمَاعُ أَيْضًا مَعْنًى مَجَازِيٌّ لِلرَّجَاءِ لِأَنَّ الرَّجَاءَ يَلْزَمُهُ التَّقْرِيبُ، وَالتَّقْرِيبُ يَسْتَلْزِمُ الْإِطْمَاعَ، فَالْإِطْمَاعُ لَازَمٌ بِمَرْتَبَتَيْنِ.**

**- ثَالِثُهَا: أَنَّهَا لِلتَّعْلِيلِ بِمَعْنَى كَيْ، قَالَهُ قُطْرُبٌ وَأَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ**[**وَابْنُ الْأَنْبَارِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12590)**.**

**وَأَحْسَبُ أَنَّ مُرَادَهُمْ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْمَوَاقِعِ الَّتِي لَا يَظْهَرُ فِيهَا مَعْنَى الرَّجَاءِ، فَلَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ لَا يَطَّرِدُ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[[466]](#footnote-466)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**لِصِحَّةِ مَعْنَى الرَّجَاءِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُخَاطَبِ.**

**وَلَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَيْضًا أَنَّهُ إِثْبَاتُ مَعْنًى فِي (لَعَلَّ) لَا يُوجَدُ لَهُ شَاهِدٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَجَعَلَهُ**[**الزَّمَخْشَرِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14423)**قَوْلًا مُتَفَرِّعًا عَلَى قَوْلِ مَنْ جَعَلَهَا لِلْإِطْمَاعِ، فَقَالَ: "وَلِأَنَّهُ إِطْمَاعٌ مِنْ كِرِيمٍ إِذَا أُطْمِعَ فَعَلَ قَالَ" مَنْ قَالَ: إِنَّ لَعَلَّ بِمَعْنَى كَيْ يَعْنِيَ فَهُوَ مَعْنًى مَجَازِيٌّ نَاشِئٌ عَنْ مَجَازٍ آخَرَ، فَهُوَ مِنْ تَرْكِيبِ الْمَجَازِ عَلَى اللُّزُومِ بِثَلَاثِ مَرَاتِبَ.**

**- رَابِعُهَا: مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* أَنَّهَا اسْتِعَارَةٌ، فَقَالَ: وَلَعَلَّ وَاقِعَةٌ فِي الْآيَةِ مَوْقِعَ الْمَجَازِ لِأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى- خَلَقَ عِبَادَهُ لِيَتَعَبَّدَهُمْ، وَوَضَعَ فِي أَيْدِيهِمْ زِمَامَ الِاخْتِيَارِ وَأَرَادَ مِنْهُمُ الْخَيْرَ وَالتَّقْوَى، فَهُمْ فِي صُورَةِ الْمَرْجُوِّ مِنْهُمْ أَنْ يَتَّقُوا لِيَتَرَجَّحَ أَمْرُهُمْ، وَهُمْ مُخْتَارُونَ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَالْعِصْيَانِ كَمَا تَرَجَّحَتْ حَالُ الْمُرْتَجِي بَيْنَ أَنْ يَفْعَلَ وَأَنْ لَا يَفْعَلَ.**

**وَمِصْدَاقُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[[467]](#footnote-467)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**وَإِنَّمَا يُبْلَى وَيُخْتَبَرُ مَنْ تَخْفَى عَنْهُ الْعَوَاقِبُ، وَلَكِنْ شَبَّهَ بِالِاخْتِبَارِ بِنَاءَ أَمْرِهِمْ عَلَى الِاخْتِيَارِ.**

**فَكَلَامُ *الْكَشَّافِ* يَجْعَلُ لَعَلَّ فِي كَلَامِهِ -تَعَالَى- اسْتِعَارَةً تَمْثِيلِيَّة،ً لِأَنَّهُ جَعَلَهَا تَشْبِيهَ هَيْئَةٍ مُرَكَّبَةٍ مِنْ شَأْنِ الْمُرِيدِ وَالْمُرَادِ مِنْهُ وَالْإِرَادَةِ بِحَالٍ مُرَكَّبَةٍ مِنَ الرَّاجِي وَالْمَرْجُوِّ مِنْهُ وَالرَّجَاءِ، فَاسْتُعِيرَ الْمُرَكَّبُ الْمَوْضُوعُ لِلرَّجَاءِ لِمَعْنَى الْمُرَكَّبِ الدَّالِّ عَلَى الْإِرَادَةِ.**

**وَعِنْدِي وَجْهٌ آخَرُ مُسْتَقِلٌّ وَهُوَ أَنَّ لَعَلَّ الْوَاقِعَةَ فِي مَقَامِ تَعْلِيلِ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ لَهَا اسْتِعْمَالٌ يُغَايِرُ اسْتِعْمَالَ لَعَلَّ الْمُسْتَأْنَفَةَ فِي الْكَلَامِ سَوَاءٌ وَقَعَتْ فِي كَلَامِ اللَّهِ أَمْ فِي غَيْرِهِ.**

**فَإِذَا قُلْتَ: افْتَقِدْ فُلَانًا لَعَلَّكَ تَنْصَحُهُ كَانَ إِخْبَارًا بِاقْتِرَابِ وُقُوعِ الشَّيْءِ، وَأَنَّهُ فِي حَيِّزِ الْإِمْكَانِ إِنْ تَمَّ مَا عُلِّقَ عَلَيْهِ، فَأَمَّا اقْتِضَاؤُهُ عَدَمَ جَزْمِ الْمُتَكَلِّمِ بِالْحُصُولِ فَذَلِكَ مَعْنًى الْتِزَامِيٌّ أَغْلَبِيٌّ قَدْ يُعْلَمُ انْتِفَاؤُهُ بِالْقَرِينَةِ، وَذَلِكَ الِانْتِفَاءُ فِي كَلَامِ اللَّهِ أَوَقَعُ.**

**فَاعْتِقَادُنَا بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَمْ يَقَعْ أَوْ لَا يَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ هُوَ الْقَرِينَةُ عَلَى تَعْطِيلِ هَذَا الْمَعْنَى الِالْتِزَامِيِّ دُونَ احْتِيَاجٍ إِلَى التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى الرَّجَاءِ الَّذِي تُفِيدُهُ لَعَلَّ حَتَّى يَكُونَ مَجَازًا أَوِ اسْتِعَارَةً، لِأَنَّ لَعَلَّ إِنَّمَا أُتِيَ بِهَا، لِأَنَّ الْمَقَامَ يَقْتَضِي مَعْنَى الرَّجَاءِ فَالْتِزَامُ تَأْوِيلِ هَذِهِ الدِّلَالَةِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ فِي الْقُرْآنِ تَعْطِيلٌ لِمَعْنَى الرَّجَاءِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ، وَالْجَمَاعَةُ لَجَئُوا إِلَى التَّأْوِيلِ، لِأَنَّهُمْ نَظَرُوا إِلَى لَعَلَّ بِنَظَرٍ مُتَّحِدٍ فِي مَوَاقِعِ اسْتِعْمَالِهَا بِخِلَافِ "لَعَلَّ" الْمُسْتَأْنَفَةِ، فَإِنَّهَا أَقْرَبُ إِلَى إِنْشَاءِ الرَّجَاءِ مِنْهَا إِلَى الْإِخْبَارِ بِهِ.**

**وَعَلَى كُلٍّ فَمَعْنَى لَعَلَّ غَيْرُ مَعْنَى أَفْعَالِ الْمُقَارَبَةِ. وَالتَّقْوَى هِيَ الْحَذَرُ مِمَّا يُكْرَهُ، وَشَاعَتْ عِنْدَ الْعَرَبِ وَالْمُتَدَيِّنِينَ فِي أَسْبَابِهَا، وَهُوَ حُصُولُ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي يَجْمَعُهَا التَّدَيُّنُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِيهَا عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[[468]](#footnote-468).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)

**وَلَمَّا كَانَتِ التَّقْوَى نَتِيجَةَ الْعِبَادَةِ جُعِلَ رَجَاؤُهَا أَثَرًا لِلْأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ. وَتَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[[469]](#footnote-469)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)**فَالْمَعْنَى: اعْبُدُوا رَبَّكُمْ رَجَاءَ أَنْ تَتَّقُوا فَتُصْبِحُوا كَامِلِينَ مُتَّقِينَ، فَإِنَّ التَّقْوَى هِيَ الْغَايَةُ مِنَ الْعِبَادَةِ فَرَجَاءُ حُصُولِهَا عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ وَعِنْدَ عِبَادَةِ الْعَابِدِ أَوْ عِنْدَ إِرَادَةِ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ وَاضِحُ الْفَائِدَةِ.**

**﴿**[**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾[[470]](#footnote-470)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)

**يَتَعَيَّنُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿**[**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾[[471]](#footnote-471)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)**صِفَةٌ ثَانِيَةٌ لِلرَّبِّ لِأَنَّ مَسَاقَهَا مَسَاقُ قَوْلِهِ: ﴿**[**الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[[472]](#footnote-472).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)

**وَالْمَقْصُودُ: الْإِيمَاءُ إِلَى سَبَبٍ آخَرَ لِاسْتِحْقَاقِهِ الْعِبَادَةَ وَإِفْرَادِهِ بِهَا، فَإِنَّهُ لَمَّا أَوْجَبَ عِبَادَتَهُ أَنَّهُ خَالِقُ النَّاسِ كُلِّهِمْ أُتْبِعَ ذَلِكَ بِصِفَةٍ أُخْرَى تَقْتَضِي عِبَادَتَهُمْ إِيَّاهُ وَحْدَهُ، وَهِيَ نِعَمُهُ الْمُسْتَمِرَّةُ عَلَيْهِمْ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ دَلَائِلِ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ، فَإِنَّهُ مَكَّنَ لَهُمْ سُبُلَ الْعَيْشِ، وَأَوَّلُهَا الْمَكَانُ الصَّالِحُ لِلِاسْتِقْرَارِ عَلَيْهِ بِدُونِ لُغُوبٍ فَجَعَلَهُ كَالْفِرَاشِ لَهُمْ، وَمِنْ إِحَاطَةِ هَذَا الْقَرَارِ بِالْهَوَاءِ النَّافِعِ لِحَيَاتِهِمْ وَالَّذِي هُوَ غِذَاءُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ.**

**وَذَلِكَ مَا أُشِيرَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿**[**وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾[[473]](#footnote-473)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)**وَبِكَوْنِ تِلْكَ الْكُرَةِ الْهَوَائِيَّةِ وَاقِيَةَ النَّاسِ مِنْ إِضْرَارِ طَبَقَاتٍ فَوْقَهَا مُتَنَاهِيَةٍ فِي الْعُلُوِّ، مِنْ زَمْهَرِيرٍ أَوْ عَنَاصِرَ غَرِيبَةٍ قَاتِلَةٍ خَانِقَةٍ.**

**فَالْكُرَةُ الْهَوَائِيَّةُ جُعِلَتْ فَوْقَ هَذَا الْعَالَمِ، فَهِيَ كَالْبِنَاءِ لَهُ وَنَفْعُهَا كَنَفْعِ الْبِنَاءِ، فَشُبِّهَتْ بِهِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ، وَبِأَنْ أَخْرَجَ لِلنَّاسِ مَا فِيهِ إِقَامَةُ أَوَدِ حَيَاتِهِمْ بِاجْتِمَاعِ مَاءِ السَّمَاءِ مَعَ قُوَّةِ الْأَرْضِ وَهُوَ الثِّمَارُ.**

**وَالْمُرَادُ بِالسَّمَاءِ هُنَا إِطْلَاقُهَا الْعُرْفِيُّ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَهُوَ مَا يَبْدُو لِلنَّاظِرِ كَالْقُبَّةِ الزَّرْقَاء،ِ وَهُوَ كُرَةُ الْهَوَاءِ الْمُحِيطِ بِالْأَرْضِ، كَمَا هُوَ الْمُرَادُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾[[474]](#footnote-474)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)**وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ الْغَالِبُ إِذَا أُطْلِقَ السَّمَاءُ بِالْإِفْرَادِ دُونَ الْجَمْعِ.**

**وَمَعْنَى جَعَلَ الْأَرْضَ فِرَاشًا أَنَّهَا كَالْفِرَاشِ فِي التَّمَكُّنِ مِنَ الِاسْتِقْرَارِ وَالِاضْطِجَاعِ عَلَيْهَا، وَهُوَ أَخَصُّ أَحْوَالِ الِاسْتِقْرَارِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ جَعَلَهَا مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ شِدَّةِ الصُّخُورِ بِحَيْثُ تُؤْلِمُ جِلْدَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ رَخَاوَةِ الْحَمْأَةِ بِحَيْثُ يَتَزَحْزَحُ الْكَائِنُ فَوْقَهَا وَيَسُوخُ فِيهَا، وَتِلْكَ مِنَّةٌ عَظِيمَةٌ.**

**وَأَمَّا وَجْهُ شَبَهِ السَّمَاءِ بِالْبِنَاءِ، فَهُوَ أَنَّ الْكُرَةَ الْهَوَائِيَّةَ جَعَلَهَا اللَّهُ حَاجِزَةً بَيْنَ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ وَبَيْنَ الْكُرَةِ الْأَثِيرِيَّةِ.**

**فَهِيَ كَالْبِنَاءِ فِيمَا يُرَادُ لَهُ الْبِنَاءُ، وَهُوَ الْوِقَايَةُ مِنَ الْأَضْرَارِ النَّازِلَةِ، فَإِنَّ لِلْكُرَةِ الْهَوَائِيَّةِ دَفْعًا لِأَضْرَارٍ أَظْهَرُهَا دَفْعُ ضَرَرِ طُغْيَانِ مِيَاهِ الْبِحَارِ عَلَى الْأَرْضِ، وَدَفْعُ أَضْرَارِ بُلُوغِ أَهْوِيَةٍ تَنْدَفِعُ عَنْ بَعْضِ الْكَوَاكِبِ إِلَيْنَا وَتَلْطِيفُهَا، حَتَّى تَخْتَلِطَ بِالْهَوَاءِ أَوْ صَدُّ الْهَوَاءِ إِيَّاهَا عَنَّا مَعَ مَا فِي مُشَابَهَةِ الْكُرَةِ الْهَوَائِيَّةِ لِهَيْئَةِ الْقُبَّةِ، وَالْقُبَّةُ بَيْتٌ مَنْ أَدَمٍ مُقَبَّبٍ، وَتُسَمَّى بِنَاءً، وَالْبِنَاءُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مَا يُرْفَعُ سُمْكُهُ عَلَى الْأَرْضِ لِلْوِقَايَةِ، سَوَاءً كَانَ مِنْ حَجَرٍ أَوْ مِنْ أَدَمٍ أَوْ مِنْ شَعْرٍ.**

**وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: بَنَى عَلَى امْرَأَتِهِ، إِذَا تَزَوَّجَ، لِأَنَّ الْمُتَزَوِّجَ يَجْعَلُ بَيْتًا يَسْكُنُ فِيهِ مَعَ امْرَأَتِه،ِ وَقَدِ اشْتَهَرَ إِطْلَاقُ الْبِنَاءِ مَنْ أَدَمٍ، وَلِذَلِكَ سَمُّوا الْأَدَمَ الَّذِي تُبْنَى مِنْهُ الْقِبَابُ مَبْنَاةً بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِهَا.**

**وَهَذَا كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿**[**وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾[[475]](#footnote-475)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)**فَإِنْ قُلْتَ: يَقْتَضِي كَلَامُكَ هَذَا أَنَّ الِامْتِنَانَ بِجَعْلِ السَّمَاءِ كَالْبِنَاءِ لِوِقَايَةِ النَّاسِ مِنْ قَبِيلِ الْمُعْجِزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي أَشَرْتَ إِلَيْهَا فِي الْمُقَدِّمَةِ الْعَاشِرَةِ وَذَلِكَ لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا الْأَجْيَالُ الَّتِي حَدَثَتْ بَعْدَ زَمَانِ النُّزُولِ، فَمَاذَا يَكُونُ حَظُّ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ نَزَلَتْ بَيْنَهُمُ الْآيَةُ: ﴿**[**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾[[476]](#footnote-476)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)**فِي عِدَّةِ أَجْيَالٍ، فَإِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَكُونُوا يَشْعُرُونَ بِأَنَّ لِلسَّمَاءِ خَاصِّيَّةَ الْبِنَاءِ فِي الْوِقَايَةِ، وَغَايَةُ مَا كَانُوا يَتَخَيَّلُونَهُ أَنَّ السَّمَاءَ تُشْبِهُ سَقْفَ الْقُبَّةِ كَمَا قَالَتِ الْأَعْرَابِيَّةُ حِينَ سُئِلَتْ عَنْ مَعْرِفَةِ النُّجُومِ: أَيَجْهَلُ أَحَدٌ خَرَزَاتٍ مُعَلَّقَةً فِي سَقْفِهِ.**

**فَتَتَمَخَّضُ الْآيَةُ لِإِفَادَةِ الْعِبْرَةِ بِذَلِكَ الْخَلْقِ الْبَدِيعِ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَظٌّ مِنَ الِامْتِنَانِ الَّذِي أَفَادَهُ قَوْلُهُ: لَكُمْ، فَهَلْ نَخُصُّ تَعَلُّقَهُ بِفِعْلِ "جَعَلَ" الْمُصَرَّحِ بِهِ دُونَ تَعَلُّقِهِ بِالْفِعْلِ الْمَطْوِيِّ تَحْتَ وَاوِ الْعَطْفِ، أَوْ بِجَعْلِهِ مُتَعَلِّقًا بِقَوْلِهِ: فِرَاشًا فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿**[**وَالسَّمَاءَ بِنَاءً**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)**﴾[[477]](#footnote-477) مَعْطُوفًا عَلَى مَعْمُولِ فِعْلِ الْجَعْلِ الْمُجَرَّدِ عَنِ التَّقْيِيدِ بِالْمُتَعَلِّقِ.**

**قُلْتُ: هَذَا يُفْضِي إِلَى التَّحَكُّمِ فِي تَعَلُّقِ قَوْلِهِ: لَكُمْ تَحَكُّمًا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ لِلسَّامِعِ، بَلِ الْوَجْهُ أَنْ يُجْعَلَ "لَكُمْ" مُتَعَلِّقًا بِفِعْلِ (جَعَلَ).**

**وَيَكْفِي فِي الِامْتِنَانِ بِخَلْقِ السَّمَاءِ: إِشْعَارُ السَّامِعِينَ لِهَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاءِ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ مَا فِي إِقَامَةِ الْبِنَاءِ مِنَ الْفَوَائِدِ عَلَى الْإِجْمَالِ، لِيَفْرِضَهُ السَّامِعُونَ عَلَى مِقْدَارِ قَرَائِحِهِمْ وَأَفْهَامِهِمْ، ثُمَّ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ فِي قَابِلِ الْأَجْيَالِ.**

**وَحُذِفَ "لَكُمْ" عِنْدَ ذِكْرِ السَّمَاءِ إِيجَازًا، لِأَنَّ ذِكْرَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾[[478]](#footnote-478)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)**دَلِيلٌ عَلَيْهِ.**

**وَ (جَعَلَ) إِنْ كَانَتْ بِمَعْنَى أَوْجَدَ فَحَمْلُ الِامْتِنَانِ هُوَ إِنْ كَانَتَا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ، وَإِنْ كَانَتْ بِمَعْنَى صَيَّرَ، فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ قَدِ انْتَقَلَتَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ حَتَّى صَارَتَا كَمَا هُمَا.**

**وَصَارَ أَظْهَرَ فِي مَعْنَى الِانْتِقَالِ مِنْ صِفَةٍ إِلَى صِفَةٍ، وَقَوَاعِدُ عِلْمِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ "الْجِيُولُوجْيَا" تُؤْذِنُ بِهَذَا الْوَجْهِ الثَّانِي، فَيَكُونُ فِي الْآيَةِ مِنَّتَانِ وَعِبْرَتَانِ فِي جَعْلِهِمَا عَلَى مَا رَأَيْنَا، وَفِي الْأَطْوَارِ الَّتِي انْتَقَلَتَا فِيهِمَا بِقُدْرَةِ اللَّهِ –تَعَالَى- وَإِذْنِهِ، فَيَكُونُ كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿**[**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[[479]](#footnote-479)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)**إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[[480]](#footnote-480).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)

**وَقَدِ امْتَنَّ اللَّهُ وَضَرَبَ الْعِبْرَةَ بِأَقْرَبِ الْأَشْيَاءِ وَأَظْهَرِهَا لِسَائِرِ النَّاسِ حَاضِرِهِمْ وَبَادِيهِمْ وَبِأَوَّلِ الْأَشْيَاءِ فِي شُرُوطِ هَذِهِ الْحَيَاةِ. وَفِيهِمَا أَنْفَعُ الْأَشْيَاءِ، وَهُمَا الْهَوَاءُ وَالْمَاءُ النَّابِعُ مِنَ الْأَرْضِ، وَفِيهِمَا كَانَتْ أَوَّلُ مَنَافِعِ الْبَشَرِ، وَفِي تَخْصِيصِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بِالذِّكْرِ نُكْتَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ التَّمْهِيدُ لِمَا سَيَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[[481]](#footnote-481)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)**إِلَخْ.**

**وَابْتَدَأَ بِالْأَرْضِ، لِأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يَخْطُرُ بِبَالِ الْمُعْتَبِرِ ثُمَّ بِالسَّمَاءِ لِأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ يَنْظُرَ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَنْظُرُ إِلَى مَا يُحِيطُ بِهِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ﴾[[482]](#footnote-482)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)**إِلَخْ هَذَا امْتِنَانٌ بِمَا يَلْحَقُ الْإِيجَادَ مِمَّا يَحْفَظُهُ مِنَ الِاخْتِلَالِ وَهُوَ خِلْفَةٌ لِمَا تُتْلِفُهُ الْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةُ وَالْعَمَلُ الْعَصَبِيُّ وَالدِّمَاغِيُّ مِنَ الْقُوَّةِ الْبَدَنِيَّةِ لِيَدُومَ قِوَامُ الْبَدَنِ بِالْغِذَاءِ، وَأَصْلُ الْغِذَاءِ هُوَ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِنَّمَا تُخْرِجُ الْأَرْضُ النَّبَاتَ بِنُزُولِ الْمَاءِ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ، أَيْ مِنَ السَّحَابِ وَالطَّبَقَاتِ الْعُلْيَا.**

**وَاعْلَمْ أَنَّ كَوْنَ الْمَاءِ نَازِلًا مِنَ السَّمَاءِ هُوَ أَنَّ تَكَوُّنَهُ يَكُونُ فِي طَبَقَاتِ الْجَوِّ مِنْ آثَارِ الْبُخَارِ الَّذِي فِي الْجَوِّ، فَإِنَّ الْجَوَّ مُمْتَلِئٌ دَائِمًا بِالْأَبْخِرَةِ الصَّاعِدَةِ إِلَيْهِ بِوَاسِطَةِ حَرَارَةِ الشَّمْسِ مِنْ مِيَاهِ الْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَمِنْ نَدَاوَةِ الْأَرْضِ وَمِنَ النَّبَاتِ.**

**وَلِهَذَا نَجِدُ الْإِنَاءَ الْمَمْلُوءَ مَاءً فَارِغًا بَعْدَ أَيَّامٍ إِذَا تُرِكَ مَكْشُوفًا لِلْهَوَاءِ فَإِذَا بَلَغَ الْبُخَارُ أَقْطَارَ الْجَوِّ الْعَالِيَةَ بَرَدَ بِبُرُودَتِهَا وَخَاصَّةً فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ، فَإِذَا بَرَدَ مَالَ إِلَى التَّمَيُّعِ، فَيَصِيرُ سَحَابًا ثُمَّ يَمْكُثُ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا بِحَسَبِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ بُرُودَةِ الطَّبَقَاتِ الْجَوِّيَّةِ وَالْحَرَارَةِ الْبُخَارِيَّةِ فَإِذَا زَادَتِ الْبُرُودَةُ عَلَيْهِ انْقَبَضَ السَّحَابُ وَثَقُلَ وَتَمَيَّعَ فَتَجْتَمِعُ فِيهِ الْفَقَاقِيعُ الْمَائِيَّةُ وَتَثْقُلُ عَلَيْهِ فَتُنْزِلُ مَطَرًا، وَهُوَ مَا أَشَارَ لَهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿**[**وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾[[483]](#footnote-483).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)

**وَكَذَلِكَ إِذَا تَعَرَّضَ السَّحَابُ لِلرِّيحِ الْآتِيَةِ مِنْ جِهَةِ الْبَحْرِ وَهِيَ رِيحٌ نَدِيَّةٌ ارْتَفَعَ الْهَوَاءُ إِلَى أَعْلَى الْجَوِّ فَبَرَدَ فَصَارَ مَائِعًا، وَرُبَّمَا كَانَ السَّحَابُ قَلِيلًا، فَسَاقَتْ إِلَيْهِ الرِّيحُ سَحَابًا آخَرَ، فَانْضَمَّ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ وَنَزَّلَا مَطَرًا، وَلِهَذَا غَلَبَ الْمَطَرُ بَعْدَ هُبُوبِ الرِّيحِ الْبَحْرِيَّةِ.**

**وَفِي الْحَدِيثِ: "**[**إِذَا أَنْشَأَتْ بِحْرِيَّةً ثُمَّ تَشَاءَمَتْ فَتِلْكَ عَيْنٌ غُدَيْقَةٌ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)**".**

**وَمِنَ الْقَوَاعِدِ: أَنَّ الْحَرَارَةَ وَقِلَّةَ الضَّغْطِ يَزِيدَانِ فِي صُعُودِ الْبُخَارِ وَفِي انْبِسَاطِهِ، وَالْبُرُودَةَ وَكَثْرَةَ الضَّغْطِ يُصَيِّرَانِ الْبُخَارَ مَائِعًا وَقَدْ جُرِّبَ أَنَّ صُعُودَ الْبُخَارِ يَزْدَادُ بِقَدْرِ قُرْبِ الْجِهَةِ مِنْ خَطِّ الِاسْتِوَاءِ وَيَنْقُصُ بِقَدْرِ بُعْدِهِ عَنْهُ، وَإِلَى بَعْضِ هَذَا يُشِيرُ مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْمَطَرَ يَنْزِلُ مِنْ صَخْرَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَإِنَّ الْعَرْشَ هُوَ اسْمٌ لِسَمَاءٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ، وَالصَّخْرَةُ تَقْرِيبٌ لِمَكَانٍ ذِي بُرُودَةٍ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْمَطَرَ تُنْشِئُهُ الْبُرُودَةُ، فَيَتَمَيَّعُ السَّحَابُ، فَكَانَتِ الْبُرُودَةُ هِيَ لِقَاحُ الْمَطَرِ.**

**وَ (مِنَ) الَّتِي فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[[484]](#footnote-484)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)**لَيْسَتْ لِلتَّبْعِيضِ، إِذْ لَيْسَ التَّبْعِيضُ مُنَاسِبًا لِمَقَامِ الِامْتِنَانِ، بَلْ إِمَّا لِبَيَانِ الرِّزْقِ الْمُخْرَجِ -وَتَقْدِيمُ الْبَيَانِ عَلَى الْمُبَيَّنِ شَائِعٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ- وَإِمَّا زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ تَعَلُّقِ الْإِخْرَاجِ بِالثَّمَرَاتِ.**

**﴿**[**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[[485]](#footnote-485)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=62#docu)

**أَتَتِ الْفَاءُ لِتَرْتِيبِ هَاتِهِ الْجُمْلَةِ عَلَى الْكَلَامِ السَّابِقِ، وَهُوَ مُتَرَتِّبٌ عَلَى الْأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ، وَ "لَا" نَاهِيَةٌ، وَالْفِعْلُ مَجْزُومٌ، وَلَيْسَتْ نَافِيَةً حَتَّى يَكُونَ الْفِعْلُ مَنْصُوبًا فِي جَوَابِ الْأَمْرِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**[**اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[[486]](#footnote-486).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=62#docu)

**وَالْمُرَادُ هُنَا: تَسَبُّبُهُ الْخَاصُّ وَهُوَ حُصُولُهُ عَنْ دَلِيلٍ يُوجِبُهُ، وَهُوَ أَنَّ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِعِبَادَتِهِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْإِفْرَادِ بِهَا، فَهُوَ أَخَصُّ مِنْ مُطْلَقِ ضِدِّ الْعِبَادَةِ؛ لِأَنَّ ضِدَّ الْعِبَادَةَ عَدَمُ الْعِبَادَةِ. وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الْإِشْرَاكُ لِلْمَعْبُودِ فِي الْعِبَادَةِ يُشْبِهُ تَرْكَ الْعِبَادَةِ، جُعِلَ تَرْكُ الْإِشْرَاكِ مُسَاوِيًا لِنَقِيضِ الْعِبَادَةِ، لِأَنَّ الْإِشْرَاكَ مَا هُوَ إِلَّا تَرْكٌ لِعِبَادَةِ اللَّهِ فِي أَوْقَاتِ تَعْظِيمِ شُرَكَائِهِمْ.**

**وَالنِّدُّ بِكَسْرِ النُّونِ الْمُسَاوِي وَالْمُمَاثِلُ فِي أَمْرٍ مِنْ مَجْدٍ أَوْ حَرْبٍ، وَزَادَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنْ يَكُونَ مُنَاوِئًا أَيْ مُعَادِيًا، وَكَأَنَّهُمْ نَظَرُوا إِلَى اشْتِقَاقِهِ مِنْ نَدَّ إِذَا نَفَرَ وَعَانَدَ. وَلَيْسَ بِمُتَعَيَّنٍ لِجَوَازِ كَوْنِهِ اسْمًا جَامِدًا.**

**وَأَظُنُّ أَنَّ وَجْهَ دَلَالَةِ النِّدِّ عَلَى الْمُنَاوَأَةِ وَالْمُضَادَّةِ أَنَّهَا مِنْ لَوَازِمِ الْمُمَاثَلَةِ عُرْفًا عِنْدَ الْعَرَبِ، شَأْنُ الْمِثْلِ عِنْدَهُمْ أَنْ يُنَافِسَ مُمَاثِلَهُ وَيُزَاحِمَهُ فِي مُرَادِهِ فَتَحْصُلُ الْمُضَادَّةُ.**

**وَنَظِيرُهُ فِي عَكْسِهِ: تَسْمِيَتُهُمُ الْمُمَاثِلَ: قَرِيعًا، فَإِنَّ الْقَرِيعَ هُوَ الَّذِي يُقَارِعُ وَيُضَارِبُ.**

**وَلَمَّا كَانَ أَحَدٌ لَا يَتَصَدَّى لِمُقَارَعَةِ مَنْ هُوَ فَوْقَهُ لِخَشْيَتِهِ، وَلَا مَنْ هُوَ دُونَهُ، لِاحْتِقَارِهِ ،كَانَتِ الْمُقَارَعَةُ مُسْتَلْزِمَةً لِلْمُمَاثِلَةِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ قِرْنٌ لِلْمُحَارِبِ الْمُكَافِئِ فِي الشَّجَاعَةِ.**

**وَيُقَالُ: جَعَلَ لَهُ نِدًّا، إِذَا سَوَّى غَيْرَهُ بِهِ.**

**وَالْمَعْنَى: لَا تُثْبِتُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا تَجْعَلُونَهَا جَعْلًا، وَهِيَ لَيْسَتْ أَنْدَادًا؛ وَسَمَّاهَا أَنْدَادًا تَعْرِيضًا بِزَعْمِهِمْ، لِأَنَّ حَالَ الْعَرَبِ فِي عِبَادَتِهِمْ لَهَا، كَحَالِ مَنْ يُسَوِّي بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهَا وَإِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ: إِنَّ الْآلِهَةَ شُفَعَاءُ، وَيَقُولُونَ: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ، وَجَعَلُوا اللَّهَ خَالِقَ الْآلِهَةِ، فَقَالُوا فِي التَّلْبِيَةِ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، لَكِنَّهُمْ لَمَّا عَبَدُوهَا، وَنَسُوا بِعِبَادَتِهَا وَالسَّعْيِ إِلَيْهَا وَالنُّذُورِ عِنْدَهَا وَإِقَامَةِ الْمَوَاسِمِ حَوْلَهَا عِبَادَةَ اللَّهِ، أَصْبَحَ عَمَلُهُمْ عَمَلَ مَنْ يَعْتَقِدُ التَّسْوِيَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ –تَعَالَى-، لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْفِعْلِ لَا بِالْقَوْلِ. وَفِي ذَلِكَ مَعْنًى مِنَ التَّعْرِيضِ بِهِمْ وَرَمْيِهِمْ بِاضْطِرَابِ الْحَالِ وَمُنَاقِضَةِ الْأَقْوَالِ لِلْأَفْعَالِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[[487]](#footnote-487)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=62#docu)**جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، وَمَفْعُولُ تَعْلَمُونَ مَتْرُوكٌ لِأَنَّ الْفِعْلَ لَمْ يُقْصَدْ تَعْلِيقُهُ بِمَفْعُولٍ، بَلْ قُصِدَ إِثْبَاتُهُ لِفَاعِلِهِ فَقَطْ فَنُزِّلَ الْفِعْلُ مَنْزِلَةَ اللَّازِمِ، وَالْمَعْنَى: وَأَنْتُمْ ذَوُوا عِلْمٍ.**

**وَالْمُرَادُ بِالْعِلْمِ هُنَا الْعَقْلُ التَّامُّ، وَهُوَ رُجْحَانُ الرَّأْيِ الْمُقَابَلُ عِنْدَهُمْ بِالْجَهْلِ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[[488]](#footnote-488).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=62#docu)

**وَقَدْ جَعَلَتْ هَاتِهِ الْحَالُ مَحَطَّ النَّهْيِ وَالنَّفْيِ تَمْلِيحًا فِي الْكَلَامِ لِلْجَمْعِ بَيْنَ التَّوْبِيخِ وَإِثَارَةِ الْهِمَّةِ، فَإِنَّهُ أَثْبَتَ لَهُمْ عِلْمًا وَرَجَاحَةَ الرَّأْيِ لِيُثِيرَ هِمَّتَهُمْ وَيَلْفِتَ بَصَائِرَهُمْ إِلَى دَلَائِلِ الْوَحْدَانِيَّةِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ اتِّخَاذِ الْآلِهَةِ أَوْ نَفَى ذَلِكَ مَعَ تَلَبُّسِهِمْ بِهِ وَجَعَلَهُ لَا يَجْتَمِعُ مَعَ الْعِلْمِ تَوْبِيخًا لَهُمْ عَلَى مَا أَهْمَلُوا مِنْ مَوَاهِبِ عُقُولِهِمْ وَأَضَاعُوا مِنْ سَلَامَةِ مَدَارِكِهِمْ.**

**وَهَذَا مَنْزَعٌ تَهْذِيبِيٌّ عَظِيمٌ: أَنْ يَعْمِدَ الْمُرَبِّي فَيَجْمَعَ لِمَنْ يُرَبِّيهِ بَيْنَ مَا يَدُلُّ عَلَى بَقِيَّةِ كَمَالٍ فِيهِ حَتَّى لَا يَقْتُلَ هِمَّتَهُ بِالْيَأْسِ مِنْ كَمَالِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا سَاءَتْ ظُنُونُهُ فِي نَفْسِهِ خَارَتْ عَزِيمَتُهُ وَذَهَبَتْ مَوَاهِبُهُ، وَيَأْتِي بِمَا يَدُلُّ عَلَى نَقَائِضَ فِيهِ لِيَطْلُبَ الْكَمَالَ فَلَا يَسْتَرِيحُ مِنَ الْكَدِّ فِي طَلَبِ الْعُلَا وَالْكَمَالِ.**

**وَقَدْ أَوْمَأَ قَوْلُهُ: ﴿**[**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[[489]](#footnote-489)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=62#docu)**إِلَى أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا نِدَّ لَهُ، وَلَكِنَّهُمْ تَعَامَوْا وَتَنَاسَوْا، فَقَالُوا: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ**

**﴿**[**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)

**وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[[490]](#footnote-490)**

**انْتِقَالٌ لِإِثْبَاتِ الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ جُزْئَيِ الْإِيمَانِ بَعْدَ أَنْ تَمَّ إِثْبَاتُ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَهُ مِنْ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[[491]](#footnote-491)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**إِلَخْ، فَتِلْكَ هِيَ الْمُنَاسَبَةُ الَّتِي اقْتَضَتْ عَطْفَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿**[**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[[492]](#footnote-492)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**وَلِأَنَّ النَّهْيَ عَنْ أَنْ يَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَهُمْ بِمَظِنَّةِ أَنْ يُنْكِرُوا أَنَّ اللَّهَ نَهَى عَنْ عِبَادَةِ شُفَعَائِهِ وَمُقَرَّبِيهِ، لِأَنَّهُمْ مِنْ ضَلَالِهِمْ كَانُوا يَدَّعُونَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ.**

**قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾[[493]](#footnote-493)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**فَقَدِ اعْتَلُّوا لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ بِأَنَّ اللَّهَ أَقَامَهَا وَسَائِطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَزَادَتْ بِهَذَا مُنَاسِبَةُ عَطْفِ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾[[494]](#footnote-494)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**عَقِبَ قَوْلِهِ: ﴿**[**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾[[495]](#footnote-495)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**وَأُتِيَ بِإِنْ فِي تَعْلِيقِ هَذَا الشَّرْطِ، وَهُوَ كَوْنُهُمْ فِي رَيْبٍ.**

**وَقَدْ عُلِمَ فِي فَنِّ الْمَعَانِي اخْتِصَاصُ إِنْ بِمَقَامِ عَدَمِ الْجَزْمِ بِوُقُوعِ الشَّرْطِ، لِأَنَّ مَدْلُولَ هَذَا الشَّرْطِ قَدْ حَفَّ بِهِ مِنَ الدَّلَائِلِ مَا شَأْنُهُ أَنْ يَقْلَعَ الشَّرْطَ مِنْ أَصْلِهِ بِحَيْثُ يَكُونُ وُقُوعُهُ مَفْرُوضًا فَيَكُونُ الْإِتْيَانُ بِإِنْ مَعَ تَحَقُّقِ الْمُخَاطَبِ عِلْمَ الْمُتَكَلِّمِ بِتَحَقُّقِ الشَّرْطِ تَوْبِيخًا عَلَى تَحَقُّقِ ذَلِكَ الشَّرْطِ، كَأَنَّ رَيْبَهُمْ فِي الْقُرْآنِ مُسْتَضْعَفُ الْوُقُوعِ.**

**وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ قَدِ اشْتَطَّتْ أَلْفَاظُهُ وَمَعَانِيهِ عَلَى مَا لَوْ تَدَبَّرَهُ الْعَقْلُ السَّلِيمُ لَجَزَمَ بِكَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ جَاءَ عَلَى فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ مَا عَهِدُوا مِثْلَهُمَا مِنْ فُحُولِ بُلَغَائِهِمْ، وَهُمْ فِيهِمْ مُتَوَافِرُونَ مُتَكَاثِرُونَ حَتَّى لَقَدْ سَجَدَ بَعْضُهُمْ لِبَلَاغَتِهِ، وَاعْتَرَفَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ بَشَرٍ.**

**وَقَدِ اشْتَمَلَ مِنَ الْمَعَانِي عَلَى مَا لَمْ يَطْرُقْهُ شُعَرَاؤُهُمْ وَخُطَبَاؤُهُمْ وَحُكَمَاؤُهُمْ، بَلْ وَعَلَى مَا لَمْ يَبْلُغْ إِلَى بَعْضِهِ عُلَمَاءُ الْأُمَمِ.**

**وَلَمْ يَزَلِ الْعِلْمُ فِي طُولِ الزَّمَانِ يُظْهِرُ خَبَايَا الْقُرْآنِ وَيُبَرْهِنُ عَلَى صِدْقِ كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَهَذِهِ الصِّفَاتُ كَافِيَةٌ لَهُمْ فِي إِدْرَاكِ ذَلِكَ وَهُمْ أَهْلُ الْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ وَالْفَطِنَةِ الْوَاضِحَةِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا أَشْعَارُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَبَدَاهَتُهُمْ وَمُنَاظَرَتُهُمْ، وَالَّتِي شَهِدَ لَهُمْ بِهَا الْأُمَمُ فِي كُلِّ زَمَانٍ، فَكَيْفَ يَبْقَى بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَسْلَكٌ لِلرَّيْبِ فِيهِ إِلَيْهِمْ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونُوا مُنْغَمِسِينَ فِيهِ؟!**

**وَوَجْهُ الْإِتْيَانِ بِفِي الدَّالَّةِ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُمْ قَدِ امْتَلَكَهُمُ الرَّيْبُ وَأَحَاطَ بِهِمْ إِحَاطَةَ الظَّرْفِ بِالْمَظْرُوفِ، وَاسْتِعَارَةُ (فِي) لِمَعْنَى الْمُلَابَسَةِ شَائِعَةٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ كَقَوْلِهِمْ: هُوَ فِي نِعْمَةٍ.**

**وَأَتَى "نَزَّلَ" دُونَ أَنْزَلَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ نُجُومًا. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ أَنَّ "فَعَّلَ" يَدُلُّ عَلَى التَّقَضِّي شَيْئًا فَشَيْئًا، عَلَى أَنَّ صَاحِبَ *الْكَشَّافِ* قَدْ ذَكَرَ أَنَّ اخْتِيَارَهُ هُنَا فِي مَقَامِ التَّحَدِّي لِمُرَاعَاةِ مَا كَانُوا يَقُولُونَ: لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ مِنْ مُثَارَاتِ شُبَهِهِمْ نَاسَبَ ذِكْرَهُ فِي تَحَدِّيهِمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ مُنَجَّمَةٍ.**

**وَالسُّورَةُ قِطْعَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ مُعَيَّنَةٌ، فَتَمَيُّزُهُ عَنْ غَيْرِهَا مِنْ أَمْثَالِهَا بِمَبْدَأٍ وَنِهَايَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَى ثَلَاثِ آيَاتٍ فَأَكْثَرَ فِي غَرَضٍ تَامٍّ أَوْ عِدَّةِ أَغْرَاضٍ.**

**وَجَعْلُ لَفْظِ سُورَةٍ اسْمًا جِنْسِيًّا لِأَجْزَاءَ مِنَ الْقُرْآنِ اصْطِلَاحٌ جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ. وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ السُّورِ، وَهُوَ الْجِدَارُ الَّذِي يُحِيطُ بِالْقَرْيَةِ أَوِ الْحَظِيرَةِ، فَاسْمُ السُّورَةِ خَاصٌّ بِالْأَجْزَاءِ الْمُعَيَّنَةِ مِنَ الْقُرْآنِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ فِي الْمُقَدِّمَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ مُقَدِّمَاتِ هَذَا التَّفْسِيرِ، وَإِنَّمَا كَانَ التَّحَدِّي بِسُورَةٍ وَلَمْ يَكُنْ بِمِقْدَارِ سُورَةٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، لِأَنَّ مِنْ جُمْلَةِ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ أُمُورًا لَا تَظْهَرُ خَصَائِصُهَا إِلَّا بِالنَّظَرِ إِلَى كَلَامٍ مُسْتَوْفًى فِي غَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ.**

**وَإِنَّمَا تَنْزِلُ سُوَرُ الْقُرْآنِ فِي أَغْرَاضٍ مَقْصُودَةٍ، فَلَا غِنَى عَنْ مُرَاعَاةِ الْخُصُوصِيَّاتِ الْمُنَاسِبَةِ لِفَوَاتِحِ الْكَلَامِ وَخَوَاتِمِهِ بِحَسَبِ الْغَرَضِ، وَاسْتِيفَاءِ الْغَرَضِ الْمَسُوقِ لَهُ الْكَلَامُ، وَصِحَّةِ التَّقْسِيمِ، وَنُكَتِ الْإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ، وَأَحْكَامِ الِانْتِقَالِ مِنْ فَنٍّ إِلَى آخَرَ مِنْ فُنُونِ الْغَرَضِ، وَمُنَاسَبَاتِ الِاسْتِطْرَادِ وَالِاعْتِرَاضِ وَالْخُرُوجِ وَالرُّجُوعِ، وَفَصْلِ الْجُمَلِ وَوَصْلِهَا، وَالْإِيجَازِ وَالْإِطْنَابِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى نُكَتِ مَجْمُوعِ نَظْمِ الْكَلَامِ، وَتِلْكَ لَا تَظْهَرُ مُطَابَقَتُهَا جَلِيَّةً إِلَّا إِذَا تَمَّ الْكَلَامُ وَاسْتَوْفَى الْغَرَضُ حَقَّهُ، فَلَا جَرَمَ كَانَ لِنَظْمِ الْقُرْآنِ وَحُسْنِ سَبْكِهِ إِعْجَازٌ يَفُوتُ قُدْرَةَ الْبَشَرِ هُوَ غَيْرُ الْإِعْجَازِ الَّذِي لِجُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ وَفَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ.**

**فَكَانَتِ السُّورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ بِمَنْزِلَةِ خُطْبَةِ الْخَطِيبِ وَقَصِيدَةِ الشَّاعِرِ لَا يُحْكَمُ لَهَا بِالتَّفَوُّقِ إِلَّا بِاعْتِبَارَاتِ مَجْمُوعِهَا بَعْدَ اعْتِبَارِ أَجْزَائِهَا.**

**قَالَ الطِّيبِيُّ فِي حَاشِيَةِ *الْكَشَّافِ* عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾[[496]](#footnote-496)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ، وَلِسِرِّ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ كَانَ التَّحَدِّي بِالسُّورَةِ وَإِنْ كَانَتْ قَصِيرَةً دُونَ الْآيَاتِ وَإِنْ كَانَتْ ذَوَاتِ عَدَدٍ.**

**وَالتَّنْكِيرُ لِلْإِفْرَادِ أَوِ النَّوْعِيَّةِ. أَيْ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ نَوْعِ السُّوَرِ، وَذَلِكَ صَادِقٌ بِأَقَلِّ سُورَةٍ تُرْجِمَتْ بِاسْمٍ يَخُصُّهَا، وَأَقَلُّ السُّوَرِ عَدَدُ آيَاتِ سُورَةِ الْكَوْثَرِ.**

**وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ بِالْمَدِينَةِ تَبَعًا لِلْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ وَكَانَ نُزُولُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي أَوَّلِ الْعَهْدِ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ كُلُّهُمْ أَلْبًا عَلَى النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَتَدَاوَلُونَ الْإِغْرَاءَ بِتَكْذِيبِهِ وَصَدِّ النَّاسِ عَنِ اتِّبَاعِهِ، فَأُعِيدَ لَهُمُ التَّحَدِّي بِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ الَّذِي كَانَ قَدْ سَبَقَ تَحَدِّيهِمْ بِهِ فِي سُورَةِ يُونُسَ وَسُورَةِ هُودٍ وَسُورَةِ الْإِسْرَاءِ.**

**وَقَدْ كَانَ التَّحَدِّي أَوَّلًا بِالْإِتْيَانِ بِكِتَابٍ مِثْلِ مَا نَزَلَ مِنْهُ، فَفِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ:**[**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**فَلَمَّا عَجَزُوا اسْتُنْزِلُوا إِلَى الْإِتْيَانِ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ فِي سُورَةِ هُودٍ. ثُمَّ اسْتُنْزِلُوا إِلَى الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فِي سُورَةِ يُونُسَ.**

**وَالْمِثْلُ أَصْلُهُ الْمَثِيلُ وَالْمُشَابِهُ تَمَامَ الْمُشَابَهَةِ، فَهُوَ فِي الْأَصْلِ صِفَةٌ يَتْبَعُ مَوْصُوفًا، ثُمَّ شَاعَ إِطْلَاقُهُ عَلَى الشَّيْءِ الْمُشَابِهِ الْمُكَافِئِ.**

**وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**مِنْ مِثْلِهِ﴾[[497]](#footnote-497)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**يَجُوزُ أَنْ يَعُودَ إِلَى مَا نَزَّلْنَا أَيْ مِنْ مِثْلِ الْقُرْآنِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَعُودَ إِلَى عَبْدِنَا، فَإِنْ أُعِيدَ إِلَى مَا نَزَّلْنَا أَيْ مِنْ مِثْلِ الْقُرْآنِ، فَالْأَظْهَرُ أَنَّ "مِنْ" ابْتِدَائِيَّةٌ، أَيْ سُورَةٍ مَأْخُوذَةٍ مِنْ مِثْلِ الْقُرْآنِ أَيْ كِتَابٍ مِثْلِ الْقُرْآنِ، وَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ صِفَةٌ لِسُورَةٍ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ (مِنْ) تَبْعِيضِيَّةً أَوْ بَيَانِيَّةً أَوْ زَائِدَةً.**

**وَقَدْ قِيلَ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَهِيَ وُجُوهٌ مَرْجُوحَةٌ، وَعَلَى الْجَمِيعِ فَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ صِفَةٌ لِسُورَةٍ، أَيْ هِيَ بَعْضُ مِثْلِ مَا نَزَّلْنَا -وَمِثْلُ اسْمٌ حِينَئِذٍ بِمَعْنَى الْمُمَاثِلِ- أَوْ سُورَةٌ مِثْلُ مَا نَزَّلْنَا وَ (مِثْلُ) صِفَةٌ عَلَى احْتِمَالَيْ كَوْنِ مِنْ بَيَانِيَّةً أَوْ زَائِدَةً، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَوْجُهِ تَقْتَضِي أَنَّ الْمِثْلَ سَوَاءً كَانَ صِفَةً أَوِ اسْمًا فَهُوَ مِثْلٌ مُقَدَّرٌ بِنَاءً عَلَى اعْتِقَادِهِمْ وَفَرْضِهِمْ، وَلَا يَقْتَضِي أَنَّ هَذَا الْمِثْلَ مَوْجُودٌ، لِأَنَّ الْكَلَامَ مَسُوقٌ مَسَاقَ التَّعْجِيزِ.**

**وَإِنْ أُعِيدَ الضَّمِيرُ لِـ "عَبْدِنَا" فَمِنْ لِتَعْدِيَةِ فِعْلِ ائْتُوا، وَهِيَ ابْتِدَائِيَّةٌ، وَحِينَئِذٍ فَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ ظَرْفُ لَغْوٍ غَيْرُ مُسْتَقِرٍّ. وَيَجُوزُ كَوْنُ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ صِفَةً لِسُورَةٍ عَلَى أَنَّهُ ظَرْفٌ مُسْتَقِرٌّ، وَالْمَعْنَى فِيهِمَا: ائْتُوا بِسُورَةٍ مُنْتَزَعَةٍ مِنْ رَجُلٍ مِثْلِ مُحَمَّدٍ فِي الْأُمِّيَّةِ، وَلَفْظُ "مِثْلِ" إِذَنِ اسْمٌ.**

**وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ لَفْظَ مِثْلٍ فِي الْآيَةِ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ الْكِنَايَةَ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ عَلَى طَرِيقَةِ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[[498]](#footnote-498)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**بِنَاءً عَلَى أَنَّ لَفْظَ (مِثْلِ) كِنَايَةٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، إِذْ لَا يَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، أَوْ مِنْ مُحَمَّدٍ خِلَافًا لِمَنْ تَوَهَّمَ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ *الْكَشَّافِ*، وَإِنَّمَا لَفْظُ مِثْلٍ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَاهُ الصَّرِيحِ، إِلَّا أَنَّهُ أَشْبَهَ الْمُكْنَى بِهِ عَنْ نَفْسِ الْمُضَافِ هُوَ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمِثْلَ هُنَا عَلَى تَقْدِيرِ الْإِسْمِيَّةِ غَيْرُ مُتَحَقَّقِ الْوُجُودِ، إِلَّا أَنَّ سَبَبَ انْتِفَاءِ تَحَقُّقِهِ هُوَ كَوْنُهُ مَفْرُوضًا، فَإِنَّ كَوْنَ الْأَمْرِ لِلتَّعْجِيزِ يَقْتَضِي تَعَذُّرَ الْمَأْمُورِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ هَاتِهِ الْوُجُوهِ بِمُقْتَضٍ وُجُودَ مِثْلٍ لِلْقُرْآنِ حَتَّى يُرَادَ بِهِ بَعْضُ الْوُجُوهِ كَمَا تَوَهَّمَهُ التَّفْتَزَانِيُّ.**

**وَعِنْدِي أَنَّ الِاحْتِمَالَاتِ الَّتِي احْتَمَلَهَا قَوْلُهُ: ﴿**[**مِنْ مِثْلِهِ﴾[[499]](#footnote-499)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**كُلَّهَا مُرَادَةٌ لِرَدِّ دَعَاوِي الْمُكَذِّبِينَ فِي اخْتِلَافِ دَعَاوِيهِمْ؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ كَلَامُ بَشَرٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هُوَ مُكْتَتَبٌ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ.**

**وَهَاتِهِ الْوُجُوهُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ تُفَنِّدُ جَمِيعَ الدَّعَاوِي، فَإِنْ كَانَ كَلَامَ بَشَرٍ فَأَتَوْا بِمُمَاثِلِهِ أَوْ بِمِثْلِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ فَأْتُوا أَنْتُمْ بِجُزْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسَاطِيرِ، وَإِنْ كَانَ يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ فَأْتُوا أَنْتُمْ مِنْ عِنْدِهِ بِسُورَةٍ فَمَا هُوَ بِبَخِيلٍ عَنْكُمْ إِنْ سَأَلْتُمُوهُ.**

**وَكُلُّ هَذَا إِرْخَاءٌ لِعِنَانِ الْمُعَارَضَةِ وَتَسْجِيلٌ لِلْإِعْجَازِ عِنْدَ عَدَمِهَا.**

**فَالتَّحَدِّي عَلَى صِدْقِ الْقُرْآنِ هُوَ مَجْمُوعُ مُمَاثَلَةِ الْقُرْآنِ فِي أَلْفَاظِهِ وَتَرَاكِيبِهِ، وَمُمَاثِلَةُ الرَّسُولِ الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ فِي أَنَّهُ أُمِّيٌّ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ تَعْلِيمٌ وَلَا يَعْلَمُ الْكُتُبَ السَّالِفَةَ، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**أَوَلَمْ يَكْفِهِمُ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾[[500]](#footnote-500)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**فَذَلِكَ مَعْنَى الْمُمَاثِلَةِ، فَلَوْ أَتَوْا بِشَيْءٍ مِنْ خُطَبِ أَوْ شِعْرِ بُلَغَائِهِمْ غَيْرَ مُشْتَمِلٍ عَلَى مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنَ الْخُصُوصِيَّاتِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِتْيَانًا بِمَا تَحَدَّاهُمْ بِهِ، وَلَوْ أَتَوْا بِكَلَامٍ مُشْتَمِلٍ عَلَى مَعَانٍ تَشْرِيعِيَّةٍ أَوْ مِنَ الْحِكْمَةِ مِنْ تَأْلِيفِ رَجُلٍ عَالِمٍ حَكِيمٍ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِتْيَانًا بِمَا تَحَدَّاهُمْ بِهِ. فَلَيْسَ فِي جَعْلِ (مِنْ) ابْتِدَائِيَّةً إِيهَامُ إِجْزَاءِ أَنْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ مِنْ كَلَامِ بُلَغَائِهِمْ، لِأَنَّ تِلْكَ مُمَاثَلَةٌ غَيْرُ تَامَّةٍ.**

**وَقَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[[501]](#footnote-501)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿**[**فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾[[502]](#footnote-502)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**أَيِ ائْتُوا بِهَا وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ. وَالدُّعَاءُ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى طَلَبِ حُضُورِ الْمَدْعُوِّ، وَبِمَعْنَى اسْتِعْطَافِهِ وَسُؤَالِهِ لِفِعْلٍ مَا.**

**قَالَ أَبُو فِرَاسٍ يُخَاطِبُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ لِيَفْدِيَهُ مِنْ أَسْرِ مَلِكِ الرُّومِ:**

**دَعَوْتُكَ لِلْجَفْنِ الْقَرِيحِ الْمُسَهَّدِ لَدَيَّ وَلِلنَّوْمِ الطَّرِيدِ الْمُشَرَّدِ**

**وَالشُّهَدَاءُ جَمْعُ شَهِيدٍ، فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ مِنْ شَهِدَ إِذَا حَضَرَ، وَأَصْلُهُ الْحَاضِرُ، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾[[503]](#footnote-503)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**ثُمَّ اسْتُعْمِلَ هَذَا اللَّفْظُ فِيمَا يُلَازِمُهُ الْحُضُورُ مَجَازًا أَوْ كِنَايَةً لَا بِأَصْلِ وَضْعِ اللَّفْظِ، وَأُطْلِقَ عَلَى النَّصِيرِ عَلَى طَرِيقَةِ الْكِنَايَةِ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ يُؤَيِّدُ قَوْلَ الْمَشْهُودِ فَيَنْصُرُهُ عَلَى مَعَارِضِهِ، وَلَا يُطْلَقُ الشَّهِيدُ عَلَى الْإِمَامِ وَالْقُدْوَةِ وَأَثْبَتَهُ الْبَيْضَاوِيُّ، وَلَا يُعْرَفُ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ، وَلَا فِي كَلَامِ الْمُفَسِّرِينَ.**

**وَلَعَلَّهُ انْجَرَّ إِلَيْهِ مِنْ *تَفْسِيرِ الْكَشَّافِ* لِحَاصِلِ مَعْنَى الْآيَةِ، فَتَوَهَّمَهُ مَعْنًى وَضْعِيًّا، فَالْمُرَادُ هُنَا ادْعُوا آلِهَتَكُمْ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: ﴿**[**مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[[504]](#footnote-504)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**أَيِ ادْعُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَدَأْبِكُمْ فِي الْفَزَعِ إِلَيْهِمْ عِنْدَ مُهِمَّاتِكُمْ مُعْرِضِينَ بِدُعَائِهِمْ وَاسْتِنْجَادِهِمْ عَنْ دُعَاءِ اللَّهِ وَاللَّجَأِ إِلَيْهِ، فَفِي الْآيَةِ إِدْمَاجُ تَوْبِيخِهِمْ عَلَى الشِّرْكِ فِي أَثْنَاءِ التَّعْجِيزِ عَنِ الْمُعَارَضَةِ.**

**وَهَذَا الْإِدْمَاجُ مِنْ أَفَانِينِ الْبَلَاغَةِ أَنْ يَكُونَ مُرَادُ الْبَلِيغِ غَرَضَيْنِ فَيُقْرِنُ الْغَرَضَ الْمَسُوقَ لَهُ الْكَلَامُ بِالْغَرَضِ الثَّانِي، وَفِيهِ تَظْهَرُ مَقْدِرَةُ الْبَلِيغِ إِذْ يَأْتِي بِذَلِكَ الِاقْتِرَانِ بِدُونِ خُرُوجٍ عَنْ غَرَضِهِ الْمَسُوقِ لَهُ الْكَلَامُ وَلَا تَكَلُّفَ.**

**قَالَ الْحَارِثُ بْنُ حِلِّزَةَ:**

**آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ     رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ**

**فَإِنَّ قَوْلَهُ: رُبَّ ثَاوٍ عِنْدَ ذِكْرِ بُعْدِ الْحَبِيبَةِ وَالتَّحَسُّرِ مِنْهُ كِنَايَةٌ عَنْ أَنْ لَيْسَتْ هِيَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ الَّذِي يُمَلُّ ثَوَاؤُهُ.**

**وَقَدْ قَضَى بِذَلِكَ حَقَّ إِرْضَائِهَا بِأَنَّهُ لَا يَحْفِلُ بِإِقَامَةِ غَيْرِهَا، وَقَدْ عُدَّ الْإِدْمَاجُ مِنَ الْمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيعَةِ، وَهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي الْأَبْوَابِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي مَبْحَثِ الْإِطْنَابِ أَوْ تَخْرِيجِ الْكَلَامِ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ. فَإِنَّ آلِهَتَهُمْ أَنْصَارٌ لَهُمْ فِي زَعْمِهِمْ.**

**وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: ادْعُوا نُصَرَاءَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَلَاغَةِ، فَيَكُونُ تَعْجِيزًا لِلْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ.**

**وَادْعُوا مَنْ يَشْهَدُ بِمُمَاثَلَةِ مَا أَتَيْتُمْ بِهِ لِمَا نَزَّلْنَا، عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾[[505]](#footnote-505)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿**[**مِنْ دُونِ اللَّهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**﴾[[506]](#footnote-506) عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿ادْعُوا﴾[[507]](#footnote-507) أَوْ مِنْ ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾[[508]](#footnote-508)، أَيْ فِي حَالِ كَوْنِكُمْ غَيْرَ دَاعِينَ لِذَلِكَ اللَّهَ أَوْ حَالِ كَوْنِ الشُّهَدَاءِ غَيْرَ اللَّهِ، بِمَعْنَى: اجْعَلُوا جَانِبَ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ، كَالْجَانِبِ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِ، فَقَدَ آذَنَّاكُمْ بِذَلِكَ تَيْسِيرًا عَلَيْكُمْ؛ لِأَنَّ شِدَّةَ تَسْجِيلِ الْعَجْزِ تَكُونُ بِمِقْدَارِ تَيْسِيرِ أَسْبَابِ الْعَمَلِ، وَجُوِّزَ أَنْ يَكُونَ ﴿دُونِ﴾[[509]](#footnote-509) بِمَعْنَى أَمَامَ وَبَيْنَ يَدَيْ، يَعْنِي ادْعُوَا شُهَدَاءَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، وَاسْتُشْهِدَ لَهُ بِقَوْلِ الْأَعْشَى:**

**تُرِيكَ الْقَذَى مِنْ دُونِهَا وَهْيَ دُونَهُ     إِذَا ذَاقَهَا مَنْ ذَاقَهَا يَتَمَطَّقُ**

**كَمَا جُوِّزَ أَنْ يَكُونَ ﴿**[**مِنْ دُونِ اللَّهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**﴾[[510]](#footnote-510) بِمَعْنَى مِنْ دُونِ حِزْبِ اللَّهِ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، أَيْ أَحْضِرُوا شُهَدَاءَ مِنَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى دِينِكُمْ فَقَدْ رَضِينَاهُمْ شُهُودًا، فَإِنَّ الْبَارِعَ فِي صِنَاعَةٍ لَا يَرْضَى بِأَنْ يَشْهَدَ بِتَصْحِيحِ فَاسِدِهَا وَعَكْسِهِ إِبَاءَةَ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى سُوءِ الْمَعْرِفَةِ أَوِ الْجَوْرِ، وَكَلَاهُمَا لَا يَرْضَاهُ ذُو الْمُرُوءَةِ، وَقَدِيمًا كَانَتِ الْعَرَبُ تَتَنَافَرُ وَتَتَحَاكَمُ إِلَى عُقَلَائِهَا وَحُكَّامِهَا فَمَا كَانُوا يَحْفَظُونَ لَهُمْ غَلَطًا أَوْ جَوْرًا.**

**وَقَدْ قَالَ السَّمَوْأَلُ:**

**إِنَّا إِذَا مَالَتْ دَوَاعِي الْهَوَى      وَأَنْصَتَ السَّامِعُ لِلْقَائِــــــــــــلِ**

**لَا نَجْعَلُ الْبَاطِلَ حَقًّـــــــــا وَلَا      نَلَظُّ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِـــــــــــلِ**

**نَخَافُ أَنْ تُسَفَّهَ أَحْلَامُنَـــــــا      فَنَخْمُلُ الدَّهْرَ مَعَ الْخَامِلِ**

**وَعَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ يَجِيءُ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ: إِنَّ شَهَادَةَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِإِثْبَاتِ الْعُيُوبِ أَوْ بِالسَّلَامَةِ لَا تُشْتَرَطُ فِيهَا الْعَدَالَةُ.**

**وَكُنْتُ أُعَلِّلُ ذَلِكَ فِي دُرُوسِ الْفِقْهِ بِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْعَدَالَةِ تَحَقُّقُ الْوَازِعِ عَنْ شَهَادَةِ الزُّورِ، وَقَدْ قَامَ الْوَازِعُ الْعِلْمِيُّ فِي شَهَادَةِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ مَقَامَ الْوَازِعِ الدِّينِيِّ، لِأَنَّ الْعَارِفَ حَرِيصٌ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يُؤْثَرَ عَنْهُ الْغَلَطُ وَالْخَطَأُ، وَكَفَى بِذَلِكَ وَازِعًا عَنْ تَعَمُّدِهِ، وَكَفَى بِعِلْمِهِ مَظِنَّةً لِإِصَابَةِ الصَّوَابِ، فَحَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنَ الشَّهَادَةِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[[511]](#footnote-511)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**اعْتِرَاضٌ فِي آخِرِ الْكَلَامِ وَتَذْيِيلٌ. أَتَى بِإِنِ الشَّرْطِيَّةِ الَّتِي الْأَصْلُ فِي شَرْطِهَا أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مَقْطُوعٍ بِوُقُوعِهِ، لِأَنَّ صِدْقَهُمْ غَيْرُ مُحْتَمَلِ الْوُقُوعِ، وَ ﴿**[**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**﴾[[512]](#footnote-512) فِي أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ بَشَرٍ وَأَنَّكُمْ أَتَيْتُمْ بِمِثْلِهِ.**

**وَالصِّدْقُ ضِدُّ الْكَذِبِ، وَهُمَا وَصْفَانِ لِلْخَبَرِ لَا يَخْلُو عَنْ أَحَدِهِمَا، فَالصِّدْقُ أَنْ يَكُونَ مَدْلُولُ الْكَلَامِ الْخَبَرِيِّ مُطَابِقًا وَمُمَاثِلًا لِلْوَاقِعِ فِي الْخَارِجِ أَيْ فِي الْوُجُودِ الْخَارِجِيِّ احْتِرَازًا عَنِ الْوُجُودِ الذِّهْنِيِّ. وَالْكَذِبُ ضِدُّ الصِّدْقِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَدْلُولُ الْكَلَامِ الْخَبَرِيِّ غَيْرَ مُطَابِق،ٍ أَيْ غَيْرَ مُمَاثِلٍ لِلْوَاقِعِ فِي الْخَارِجِ.**

**وَالْكَلَامُ مَوْضُوعٌ لِلصِّدْقِ وَأَمَّا الْكَذِبُ فَاحْتِمَالٌ عَقْلِيٌّ، وَالْإِنْشَاءُ لَا يُوصَفُ بِصِدْقٍ وَلَا كَذِبٍ إِذْ لَا مَعْنَى لِمُطَابَقَتِهِ لِمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لِأَنَّهُ إِيجَادٌ لِلْمَعْنَى لَا لِلْأُمُورِ الْخَارِجِيَّةِ.**

**هَذَا مَعْنَى الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ فِي الْإِطْلَاقِ الْمَشْهُورِ، وَقَدْ يُطْلَقُ الْكَذِبُ صِفَةَ ذَمٍّ فَيُلَاحَظُ فِي مَعْنَاهُ حِينَئِذٍ أَنَّ مُخَالَفَتَهُ لِلْوَاقِعِ كَانَتْ عَنْ تَعَمُّدٍ، فَتَوَّهَمَ**[**الْجَاحِظُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13974)**أَنَّ مَاهِيَّةَ الْكَذِبِ تَتَقَوَّمُ مِنْ عَدَمِ مُطَابَقَةِ الْخَبَرِ لِلْوَاقِعِ وَلِلِاعْتِقَادِ مَعًا وَسَرَى هَذَا التَّقَوُّمُ إِلَى مَاهِيَّةِ الصِّدْقِ، فَجَعَلَ قِوَامَهَا الْمُطَابَقَةَ لِلْخَارِجِ وَالِاعْتِقَادَ مَعًا، وَمِنْ هُنَا أَثْبَتَ الْوَاسِطَةَ بَيْنَ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ.**

**وَقَرِيبٌ مِنْهُ: قَوْلُ الرَّاغِبِ، وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ الْخِلَافُ لَفْظِيًّا، وَمَحَلُّ بَسْطِهِ فِي عِلْمَيِ الْأُصُولِ وَالْبَلَاغَةِ.**

**وَالْمَعْنَى: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ بَشَرٍ، فَحُذِفَ مُتَعَلِّقُ ﴿صَادِقِينَ﴾[[513]](#footnote-513) لِدَلَالَةِ مَا تَقَدَّمَ عَلَيْهِ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ تَدُلُّ عَلَيْهِ جُمْلَةٌ مُقَدَّرَةٌ بَعْدَ جُمْلَةِ: ﴿**[**وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[[514]](#footnote-514)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**إِذِ التَّقْدِيرُ: فَتَأْتُونَ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَدَلَّ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُقَدَّرَةِ قَوْلُهُ قَبْلَهَا: ﴿**[**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[[515]](#footnote-515)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**وَتَكُونُ الْجُمْلَةُ الْمُقَدَّرَةُ دَلِيلًا عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ، فَتَصِيرُ جُمْلَةُ: ﴿**[**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**﴾[[516]](#footnote-516) تَكْرِيرًا لِلتَّحَدِّي.**

**وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ إِثَارَةٌ لِحَمَاسِهِمْ، إِذْ عَرَّضَ بِعَدَمِ صِدْقِهِمْ، فَتَتَوَفَّرُ دَوَاعِيهِمْ عَلَى الْمُعَارَضَةِ.**

**﴿**[**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[[517]](#footnote-517)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)

**تَفْرِيعٌ عَلَى الشَّرْطِ وَجَوَابِهِ، أَيْ فَإِنْ لَمْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ أَوْ أَتَيْتُمْ بِمَا زَعَمْتُمْ أَنَّهُ سُورَةٌ -وَلَمْ يَسْتَطِعْ ذَلِكَ شُهَدَاؤُكُمْ عَلَى التَّفْسِيرَيْنِ-، فَاعْلَمُوا أَنَّكُمُ اجْتَرَأْتُمْ عَلَى اللَّهِ بِتَكْذِيبِ رَسُولِهِ الْمُؤَيَّدِ بِمُعْجِزَةِ الْقُرْآنِ فَاتَّقُوا عِقَابَهُ الْمُعَدَّ لِأَمْثَالِكُمْ.**

**وَمَفْعُولُ ﴿تَفْعَلُوا﴾[[518]](#footnote-518) مَحْذُوفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ، أَيْ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ، أَيِ الْإِتْيَانَ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ الْمَفْعُولِ فِي مِثْلِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتَهُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**﴾[[519]](#footnote-519) فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ.**

**وَجِيءَ بِإِنِ الشَّرْطِيَّةِ الَّتِي الْأَصْلُ فِيهَا عَدَمُ الْقَطْعِ مَعَ أَنَّ عَدَمَ فِعْلِهِمْ هُوَ الْأَرْجَحُ بِقَرِينَةِ مَقَامِ التَّحَدِّي وَالتَّعْجِيزِ، لِأَنَّ الْقَصْدَ إِظْهَارُ هَذَا الشَّرْطِ فِي صُورَةِ النَّادِرِ مُبَالِغَةً فِي تَوْفِيرِ دَوَاعِيهِمْ عَلَى الْمُعَارَضَةِ بِطَرِيقِ الْمُلَايَنَةِ وَالتَّحْرِيضِ، وَاسْتِقْصَاءً لَهُمْ فِي إِمْكَانِهَا، وَذَلِكَ مِنِ اسْتِنْزَالِ طَائِرِ الْخَصْمِ، وَقَيْدٍ لِأَوَابِدِ مُكَابَرَتِهِ، وَمُجَادَلَةٍ لَهُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، حَتَّى إِذَا جَاءَ لِلْحَقِّ وَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ يَرْتَقِي مَعَهُ فِي دَرَجَاتِ الْجَدَلِ.**

**وَلِذَلِكَ جَاءَ بَعْدَهُ: ﴿**[**وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾[[520]](#footnote-520)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**كَأَنَّ الْمُتَحَدِّيَ يَتَدَبَّرُ فِي شَأْنِهِمْ، وَيَزِنُ أَمْرَهُمْ فَيَقُولُ أَوَّلًا ائْتُوا بِسُورَةٍ، ثُمَّ يَقُولُ قَدِّرُوا أَنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ وَأَعِدُّوا لَهَاتِهِ الْحَالَةِ مَخْلَصًا مِنْهَا، ثُمَّ يَقُولُ: هَا قَدْ أَيْقَنْتُ وَأَيْقَنْتُمْ أَنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ. مَعَ مَا فِي هَذَا مِنْ تَوْفِيرِ دَوَاعِيهِمْ عَلَى الْمُعَارَضَةِ بِطَرِيقِ الْمُخَاشَنَةِ وَالتَّحْذِيرِ.**

**وَلِذَلِكَ حَسُنَ مَوْقِعُ (لَنْ) الدَّالَّةِ عَلَى نَفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَالنَّفْيُ بِهَا آكَدُ مِنَ النَّفْيِ بِلَا، وَلِهَذَا قَالَ**[**سِيبَوَيْهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16076)**: "لَا" لِنَفْيِ "يَفْعَلُ"، وَ"لَنْ" لِنَفْيِ "سَيَفْعَلُ" فَقَدْ قَالَ الْخَلِيلُ: إِنَّ "لَنْ" حَرْفٌ مُخْتَزَلٌ مِنْ لَا النَّافِيَةِ وَأَنِ الِاسْتِقْبَالِيَّةِ. وَهُوَ رَأْيٌ حَسَنٌ.**

**وَإِذَا كَانَتْ لِنَفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ تَدُلُّ عَلَى النَّفْيِ الْمُؤَيَّدِ غَالِبًا، لِأَنَّهُ لَمَّا لَمْ يُوَقَّتْ بِحَدٍّ مِنْ حُدُودِ الْمُسْتَقْبَلِ دَلَّ عَلَى اسْتِغْرَاقِ أَزْمِنَتِه،ِ إِذْ لَيْسَ بَعْضُهَا أَوْلَى مِنْ بَعْضٍ.**

**وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَ**[**الزَّمَخْشَرِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14423) **بِإِفَادَتِهَا التَّأْبِيدَ حَقِيقَةً أَوْ مَجَازًا، وَهُوَ التَّأْكِيدُ.**

**وَقَدِ اسْتَقْرَيْتُ مَوَاقِعَهَا فِي الْقُرْآنِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ، فَوَجَدْتُهَا لَا يُؤْتَى بِهَا إِلَّا فِي مَقَامِ إِرَادَةِ النَّفْيِ الْمُؤَكَّدِ أَوِ الْمُؤَبَّدِ.**

**وَكَلَامُ الْخَلِيلِ فِي أَصْلِ وَضْعِهَا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ، فَمَنْ قَالَ مِنَ النُّحَاةِ إِنَّهَا لَا تُفِيدُ تَأْكِيدًا وَلَا تَأْبِيدًا، فَقَدْ كَابَرَ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾[[521]](#footnote-521)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**مِنْ أَكْبَرِ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهَا مُعْجِزَةٌ مِنْ جِهَتَيْنِ:**

**- الْأُولَى: أَنَّهَا أَثْبَتَتْ أَنَّهُمْ لَمْ يُعَارِضُوا، لِأَنَّ ذَلِكَ أَبْعَثُ لَهُمْ عَلَى الْمُعَارَضَةِ لَوْ كَانُوا قَادِرِينَ، وَقَدْ تَأَكَّدَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِقَوْلِهِ قَبْلُ: ﴿**[**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**﴾[[522]](#footnote-522).**

**وَذَلِكَ دَلِيلُ الْعَجْزِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ مَنْ قُدْرَتُهُ فَوْقَ طَوْقِ الْبَشَرِ.**

**- الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ أَخْبَرَ بِأَنَّهُمْ لَا يَأْتُونَ بِذَلِكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَمَا أَتَى أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا مِمَّنْ خَلَفَهُمْ بِمَا يُعَارِضُ الْقُرْآنَ، فَكَانَتْ هَاتِهِ الْآيَةُ مُعْجِزَةً مِنْ نَوْعِ الْإِعْجَازِ بِالْإِخْبَارِ عَنِ الْغَيْبِ مُسْتَمِرَّةً عَلَى تَعَاقُبِ السِّنِينَ، فَإِنَّ آيَاتِ الْمُعَارَضَةِ الْكَثِيرَةَ فِي الْقُرْآنِ قَدْ قُرِعَتْ بِهَا أَسْمَاعُ الْمُعَانِدِينَ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ أَبَوْا تَصْدِيقَ الرَّسُولِ، وَتَوَاتَرَتْ بِهَا الْأَخْبَارُ بَيْنَهُمْ وَسَارَتْ بِهَا الرُّكْبَانُ بِحَيْثُ لَا يَسَعُ ادِّعَاءَ جَهْلِهَا -وَدَوَاعِي الْمُعَارَضَةِ مَوْجُودَةٌ فِيهِمْ- فَفِي خَاصَّتِهِمْ بِمَا يَأْنَسُونَهُ مِنْ تَأَهُّلِهِمْ لِقَوْلِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ وَهُمْ شُعَرَاؤُهُمْ وَخُطَبَاؤُهُمْ.**

**‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌وَكَانَتْ لَهُمْ مَجَامِعُ التَّقَاوُلِ وَنَوَادِي التَّشَاوُرِ وَالتَّعَاوُنِ، وَفِي عَامَّتِهِمْ وَصَعَالِيكِهِمْ بِحِرْصِهِمْ عَلَى حَثِّ خَاصَّتِهِمْ لِدَفْعِ مَسَبَّةِ الْغَلَبَةِ عَنْ قَبَائِلِهِمْ وَدِينِهِمْ وَالِانْتِصَارِ لِآلِهَتِهِمْ وَإِيقَافِ تَيَّارِ دُخُولِ رِجَالِهِمْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ. مَعَ مَا عُرِفَ بِهِ الْعَرَبِيُّ مِنْ إِبَاءَةِ الْغَلَبَةِ وَكَرَاهَةِ الِاسْتِكَانَةِ.**

**فَمَا أَمَسَكَ الْكَافَّةُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ إِلَّا لِعَجْزِهِمْ عَنْ ذَلِكَ، وَذَلِكَ حُجَّةٌ عَلَى أَنَّهُ مَنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ –تَعَالَى-، وَلَوْ عَارَضَهُ وَاحِدٌ أَوْ جَمَاعَةٌ لَطَارُوا بِهِ فَرَحًا وَأَشَاعُوهُ وَتَنَاقَلُوهُ، فَإِنَّهُمُ اعْتَادُوا تَنَاقُلَ أَقْوَالِ بُلَغَائِهِمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُغْرِيَهُمُ التَّحَدِّي فَمَا ظَنُّكَ بِهِمْ لَوْ ظَفِرُوا بِشَيْءٍ مِنْهُ يَدْفَعُونَ بِهِ عَنْهُمْ هَذِهِ الِاسْتِكَانَةَ، وَعَدَمُ الْعُثُورِ عَلَى شَيْءٍ يُدَّعَى مِنْ ذَلِكَ يُوجِبُ الْيَقِينَ بِأَنَّهُمْ أَمْسَكُوا عَنْ مُعَارَضَتِهِ، وَسَنُبَيِّنُ ذَلِكَ بِالتَّفْصِيلِ فِي آخِرِ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ.**

**وَ(تَفْعَلُوا) الْأَوَّلُ مَجْزُومٌ بِلَمْ لَا مَحَالَةَ ؛ لِأَنَّ "إِنِ" الشُّرْطِيَّةَ دَخَلَتْ عَلَى الْفِعْلِ بَعْدَ اعْتِبَارِهِ مَنْفِيًّا فَيَكُونُ مَعْنَى الشَّرْطِ مُتَسَلِّطًا عَلَى لَمْ وَفِعْلِهَا، فَظَهَرَ أَنْ لَيْسَ هَذَا مُتَنَازِعٌ بَيْنَ "إِنْ" وَ "لَمْ" فِي الْعَمَلِ فِي (تَفْعَلُوا) لِاخْتِلَافِ الْمَعْنَيَيْنِ، فَلَا يُفْرَضُ فِيهِ الِاخْتِلَافُ الْوَاقِعُ بَيْنَ النُّحَاةِ فِي صِحَّةِ تَنَازُعِ الْحَرْفَيْنِ مَعْمُولًا وَاحِدًا كَمَا تَوَهَّمَهُ ابْنُ الْعِلْجِ أَحَدُ نُحَاةِ الْأَنْدَلُسِ نَسَبَهُ إِلَيْهِ فِي التَّصْرِيحِ عَلَى التَّوْضِيحِ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْهُ مَعَ اتِّحَادِ الِاقْتِضَاءِ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، وَقَدْ أَخَذَ جَوَازَهُ مِنْ كَلَامِ أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ فِي الْمَسَائِلِ الدِّمَشْقِيَّاتِ وَمِنْ كِتَابِ التَّذْكِرَةِ لَهُ أَنَّهُ جَعَلَ قَوْلَ الرَّاجِزِ:**

**حَتَّى تَرَاهَا وَكَأَنَّ وَكَأَنْ أَعْنَاقُهَا مُشَرَّفَاتٌ فِي قَرَنْ**

**مِنْ قَبِيلِ التَّنَازُعِ بَيْنَ "كَأَنَّ" الْمُشَدَّدَةِ "وَكَأَنِ" الْمُخَفَّفَةِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**فَاتَّقُوا النَّارَ﴾[[523]](#footnote-523)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**أَثَرٌ لِجَوَابِ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾[[524]](#footnote-524)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**دَلَّ عَلَى جُمَلٍ مَحْذُوفَةٍ لِلْإِيجَازِ، لِأَنَّ جَوَابَ الشَّرْطِ فِي الْمَعْنَى هُوَ مَا جِيءَ بِالشَّرْطِ لِأَجْلِهِ، وَهُوَ مَفَادُ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**﴾[[525]](#footnote-525)، فَتَقْدِيرُ جَوَابِ قَوْلِهِ: ﴿**[**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**﴾[[526]](#footnote-526) أَنَّهُ: فَأَيْقِنُوا بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِنَا، وَأَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ وُجُوبِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَاحْذَرُوا -إِنْ لَمْ تَمْتَثِلُوا أَمْرَهُ- عَذَابَ النَّارِ، فَوَقَعَ قَوْلُهُ: ﴿**[**فَاتَّقُوا النَّارَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**﴾[[527]](#footnote-527) مَوْقِعَ الْجَوَابِ لِدَلَالَتِهِ عَلَيْهِ وَإِيذَائِهِ بِهِ، وَهُوَ إِيجَازٌ بَدِيعٌ، وَذَلِكَ أَنَّ اتِّقَاءَ النَّارِ لَمْ يَكُنْ مِمَّا يُؤْمِنُونَ بِهِ مِنْ قَبْلُ لِتَكْذِيبِهِمْ بِالْبَعْثِ، فَإِذَا تَبَيَّنَ صِدْقُ الرَّسُولِ لَزِمَهُمُ الْإِيمَانُ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ.**

**وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِـ ﴿**[**لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**﴾[[528]](#footnote-528) دُونَ: فَإِنْ لَمْ تَأْتُوا بِذَلِكَ وَلَنْ تَأْتُوا، كَمَا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**﴾[[529]](#footnote-529) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**﴾[[530]](#footnote-530) إِلَخْ، لِأَنَّ فِي لَفْظِ ﴿تَفْعَلُوا﴾[[531]](#footnote-531) هُنَا مِنَ الْإِيجَازِ مَا لَيْسَ مِثْلُهُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى، إِذِ الْإِتْيَانُ الْمُتَحَدَّى بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِتْيَانٌ مُكَيَّفٌ بِكَيْفِيَّةٍ خَاصَّةٍ، وَهِيَ كَوْنُ الْمَأْتِيِّ بِهِ مِثْلَ هَذَا الْقُرْآنِ وَمَشْهُودًا عَلَيْهِ وَمُسْتَعَانًا عَلَيْهِ بِشُهَدَائِهِمْ، فَكَانَ فِي لَفْظِ ﴿تَفْعَلُوا﴾[[532]](#footnote-532) مِنَ الْإِحَاطَةِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ وَالْقُيُودِ إِيجَازٌ لَا يَقْتَضِيهِ الْإِتْيَانُ الَّذِي فِي سُورَةِ يُوسُفَ.**

**وَالْوَقُودُ بِفَتْحِ الْوَاوِ اسْمٌ لِمَا يُوقَدُ بِهِ، وَبِالضَّمِّ مَصْدَرٌ، وَقِيلَ بِالْعَكْسِ، وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ حُكِيَ الضَّمُّ وَالْفَتْحُ فِي كُلٍّ مِنَ الْحَطَبِ وَالْمَصْدَرِ.**

**وَقِيَاسُ "فَعُولٍ" بِفَتْحِ الْفَاءِ أَنَّهُ اسْمٌ لِمَا يُفْعَلُ بِهِ كَالْوَضُوءِ وَالْحَنُوطِ وَالسَّعُوطِ وَالْوَجُورِ إِلَّا سَبْعَةَ أَلْفَاظٍ وَرَدَتْ بِالْفَتْحِ لِلْمَصْدَرِ، وَهِيَ: الْوَلُوعُ وَالْقَبُولُ وَالْوَضُوءُ وَالطَّهُورُ وَالْوَزُوعُ وَاللَّغُوبُ وَالْوَقُودُ. وَالْفَتْحُ هُنَا هُوَ الْمُتَعَيَّنُ، لِأَنَّ الْمُرَادَ الِاسْمُ، وَقُرِئَ بِالضَّمِّ فِي الشَّاذِّ، وَذَلِكَ عَلَى اعْتِبَارِ الضَّمِّ مَصْدَرًا أَوْ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ أَيْ ذَوُو وَقُودِهَا النَّاسُ.**

**وَالنَّاسُ أُرِيدَ بِهِ صِنْفٌ مِنْهُمْ وَهُمُ الْكَافِرُونَ، فَتَعْرِيفُهُ تَعْرِيفُ الِاسْتِغْرَاقِ الْعُرْفِيِّ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَعْرِيفَ الْعَهْدِ؛ لِأَنَّ كَوْنَهُمُ الْمُشْرِكِينَ قَدْ عُلِمَ مِنْ آيَاتٍ أُخْرَى كَثِيرَةٍ.**

**وَالْحِجَارَةُ جَمْعُ حَجَرٍ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، وَهُوَ وَزْنٌ نَادِرٌ فِي كَلَامِهِمْ، جَمَعُوا حَجَرًا عَنْ أَحْجَارٍ وَأَلْحَقُوا بِهِ هَاءَ التَّأْنِيثِ.**

**قَالَ**[**سِيبَوَيْهِ:**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16076)**كَمَا أَلْحَقُوهَا بِالْبُعُولَةِ وَالْفُحُولَةِ.**

**وَعَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ أَنَّ الْعَرَبَ تُدْخِلُ الْهَاءَ فِي كُلِّ جَمْعٍ عَلَى فِعَالٍ أَوْ فُعُولٍ، لِأَنَّهُ إِذَا وَقَفَ عَلَيْهِ اجْتَمَعَ فِيهِ عِنْدَ الْوَقْفِ سَاكِنَانِ أَحَدُهُمَا الْأَلِفُ السَّاكِنَةُ وَالثَّانِي الْحَرْفُ الْمَوْقُوفُ عَلَيْهِ أَيِ اسْتَحْسَنُوا أَنْ يَكُونَ خَفِيفًا إِذَا وَقَفُوا عَلَيْهِ، وَلَيْسَ هُوَ مِنِ اجْتِمَاعِ السَّاكِنَيْنِ الْمَمْنُوعِ، وَمِنْ ذَلِكَ عِظَامَةٌ وَنِفَارَةٌ وَفِحَالَةٌ وَحِبَالَةٌ وَذِكَارَةٌ وَفُحُولَةٌ وَحُمُولَةٌ جُمُوعًا وَبِكَارَةٌ جَمْعُ "بَكْرٍ" بِفَتْحِ الْبَاءِ، وَمِهَارَةٌ جَمْعُ مُهْرٍ.**

**وَمَعْنَى وَقُودُهَا الْحِجَارَةُ أَنَّ الْحَجَرَ جُعِلَ لَهَا مَكَانَ الْحَطَبِ لِأَنَّهُ إِذَا اشْتَعَلَ صَارَ أَشَدَّ إِحْرَاقًا وَأَبْطَأَ انْطِفَاءً، وَمِنَ الْحِجَارَةِ أَصْنَامُهُمْ فَإِنَّهَا أَحْجَارٌ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[[533]](#footnote-533).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)

**وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَعْرِيضٌ بِتَهْدِيدِ الْمُخَاطَبِينَ، وَالْمَعْنَى الْمُعَرَّضُ بِهِ: فَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ وَمَا عَبَدْتُمْ وَقُودَ النَّارِ، وَقَرِينَةُ التَّعْرِيضِ قَوْلُهُ: ﴿فَاتَّقُوا﴾[[534]](#footnote-534)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾[[535]](#footnote-535)، لِأَنَّهُمْ لَمَّا أُمِرُوا بِاتِّقَائِهَا أَمْرَ تَحْذِيرٍ عَلِمُوا أَنَّهُمْ هُمُ النَّاسُ، وَلَمَّا ذُكِرَتِ الْحِجَارَةُ عَلِمُوا أَنَّهَا أَصْنَامُهُمْ، فَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ هُمْ عُبَّادَ تِلْكَ الْأَصْنَامِ، فَالتَّعْرِيضُ هُنَا مُتَفَاوِتٌ، فَالْأَوَّلُ مِنْهُ بِوَاسِطَةٍ وَاحِدَةٍ وَالثَّانِي بِوَاسِطَتَيْنِ.**

**وَحِكْمَةُ إِلْقَاءِ حِجَارَةِ الْأَصْنَامِ فِي النَّارِ مَعَ أَنَّهَا لَا تَظْهَرُ فِيهَا حِكْمَةُ الْجَزَاءِ أَنَّ ذَلِكَ تَحْقِيرٌ لَهَا وَزِيَادَةُ إِظْهَارِ خَطَأِ عَبَدَتِهَا فِيمَا عَبَدُوا، وَتَكَرَّرَ لِحَسْرَتِهِمْ عَلَى إِهَانَتِهَا، وَحَسْرَتِهِمْ أَيْضًا عَلَى أَنْ كَانَ مَا أَعَدُّوهُ سَبَبًا لِعِزِّهِمْ وَفَخْرِهِمْ سَبَبًا لِعَذَابِهِمْ، وَمَا أَعَدُّوهُ لِنَجَاتِهِمْ سَبَبًا لِعَذَابِهِمْ، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[[536]](#footnote-536)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**الْآيَةَ.**

**وَتَعْرِيفُ النَّارِ لِلْعَهْدِ، وَوَصْفُهَا بِالْمَوْصُولِ الْمُقْتَضِي عِلْمَ الْمُخَاطَبِينَ بِالصِّلَةِ كَمَا هُوَ الْغَالِبُ فِي صِلَةِ الْمَوْصُولِ لِتَنْزِيلِ الْجَاهِلِ مَنْزِلَةَ الْعَالَمِ بِقَصْدِ تَحْقِيقِ وُجُودِ جَهَنَّمَ، أَوْ لِأَنَّ وَصْفَ جَهَنَّمَ بِذَلِكَ قَدْ تَقَرَّرَ فِيمَا نَزَلَ قَبْلُ مِنَ الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى- فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ: ﴿**[**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[[537]](#footnote-537)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**وَإِنْ كَانَتْ سُورَةُ التَّحْرِيمِ مَعْدُودَةً فِي السُّوَرِ الَّتِي نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ فِي صِحَّةِ ذَلِكَ الْعَدِّ نَظَرًا، أَوْ لِأَنَّهُ قَدْ عُلِمَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ.**

**وَفِي جَعْلِ النَّاسِ وَالْحِجَارَةِ وَقُودًا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ نَارَ جَهَنَّمَ مُشْتَعِلَةٌ مِنْ قَبْلِ زَجِّ النَّاسِ فِيهَا وَأَنَّ النَّاسَ وَالْحِجَارَةَ إِنَّمَا تَتَّقِدُ بِهَا لِأَنَّ نَارَ جَهَنَّمَ هِيَ عُنْصُرُ الْحَرَارَةِ كُلِّهَا كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ حَدِيثُ *الْمُوَطَّأِ*:**[**إِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَإِذَا اتَّصَلَ بِهَا الْآدَمِيُّ اشْتَعَلَ وَنَضِجَ جِلْدُهُ وَإِذَا اتَّصَلَتْ بِهَا الْحِجَارَةُ صُهِرَتْ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**. وَفِي الِاحْتِرَاقِ بِالسَّيَّالِ الْكَهْرَبَائِيِّ نَمُوذَجٌ يُقَرِّبُ ذَلِكَ لِلنَّاسِ الْيَوْمَ.**

**وَرُوِيَ عَنِ**[**ابْنِ عَبَّاسٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=11)**أَنَّ جَهَنَّمَ تَتَّقِدُ بِحِجَارَةِ الْكِبْرِيتِ فَيَكُونُ نَمُوذَجَهَا الْبَرَاكِينُ الْمُلْتَهِبَةُ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[[538]](#footnote-538)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**اسْتِئْنَافٌ لَمْ يُعْطَفْ لِقَصْدِ التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ مَقْصُودٌ بِالْخَبَرِيَّة،ِ لِأَنَّهُ لَوْ عُطِفَ لَأَوْهَمَ الْعَطْفُ أَنَّهُ صِفَةٌ ثَانِيَةٌ أَوْ صِلَةٌ أُخْرَى وَجَعَلَهُ خَبَرًا أَهْوَلَ وَأَفْخَمَ وَأَدْخَلَ لِلرَّوْعِ فِي قُلُوبِ الْمُخَاطَبِينَ، وَهُوَ تَعْرِيضٌ بِأَنَّهَا أُعِدَّتْ لَهُمُ ابْتِدَاءً لِأَنَّ الْمُحَاوَرَةَ مَعَهُمْ.**

**وَهَذِهِ الْآيَةُ قَدْ أَثْبَتَتْ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ إِثْبَاتًا مُتَوَاتِرًا امْتَازَ بِهِ الْقُرْآنُ عَنْ بَقِيَّةِ الْمُعْجِزَاتِ، فَإِنَّ سَائِرَ الْمُعْجِزَاتِ لِلْأَنْبِيَاءِ وَلِنَبِيِّنَا عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِنَّمَا ثَبَتَتْ بِأَخْبَارِ آحَادٍ وَثَبَتَ مِنْ جَمِيعِهَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ جَمِيعِهَا وَهُوَ وُقُوعُ أَصْلِ الْإِعْجَازِ بِتَوَاتُرٍ مَعْنَوِيٍّ مِثْلُ كَرَمِ حَاتِمٍ وَشَجَاعَةِ عَمْرٍو فَأَمَّا الْقُرْآنُ فَإِعْجَازُهُ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ النَّقْلِيِّ، أَدْرَكَ مُعْجِزَتَهُ الْعَرَبُ بِالْحِسِّ. وَأَدْرَكَهَا عَامَّةُ غَيْرِهِمْ بِالنَّقْلِ. وَقَدْ تُدْرِكُهَا الْخَاصَّةُ مِنْ غَيْرِهِمْ بِالْحِسِّ كَذَلِكَ عَلَى مَا سَنُبَيِّنُهُ.**

**أَمَّا إِدْرَاكُ الْعَرَبِ مُعْجِزَةَ الْقُرْآنِ فَظَاهِرٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا، فَإِنَّهُمْ كَذَّبُوا النَّبِيءَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَنَاوَءُوهُ وَأَعْرَضُوا عَنْ مُتَابَعَتِهِ فَحَاجَّهُمْ عَلَى إِثْبَاتِ صِدْقِهِ بِكَلَامٍ أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ دَلِيلَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَجْزَهُمْ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، فَإِنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ حُرُوفِ لُغَتِهِمْ وَمِنْ كَلِمَاتِهَا وَعَلَى أَسَالِيبِ تَرَاكِيبِهَا، وَأَوْدَعَ مِنَ الْخَصَائِصِ الْبَلَاغِيَّةِ مَا عَرَفُوا أَمْثَالَهُ فِي كَلَامِ بُلَغَائِهِمْ مِنَ الْخُطَبَاءِ وَالشُّعَرَاءِ، ثُمَّ حَاكَمَهُمْ إِلَى الْفَصْلِ فِي أَمْرِ تَصْدِيقِهِ أَوْ تَكْذِيبِهِ بِحُكْمٍ سَهْلٍ وَعَدْلٍ، وَهُوَ مُعَارَضَتُهُمْ لِمَا أَتَى بِهِ أَوْ عَجْزُهُمْ عَنْ ذَلِكَ نَطَقَ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَهَاتِهِ الْآيَةِ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا الْمُعَارَضَةَ.**

**فَكَانَ عَجْزُهُمْ عَنِ الْمُعَارَضَةِ لَا يَعْدُو أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَجْزُهُمْ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ بَلَغَ فِيمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَصَائِصِ الْبَلَاغِيَّةِ الَّتِي يَقْتَضِيهَا الْحَالُ حَدَّ الْإِطَاقَةِ لِأَذْهَانِ بُلَغَاءِ الْبَشَرِ بِالْإِحَاطَةِ بِهِ، بِحَيْثُ لَوِ اجْتَمَعَتْ أَذْهَانُهُمْ، وَانْقَدَحَتْ قَرَائِحُهُمْ، وَتَآمَرُوا وَتَشَاوَرُوا فِي نَوَادِيهِمْ وَبِطَاحِهِمْ وَأَسْوَاقِ مَوْسِمِهِمْ، فَأَبْدَى كُلُّ بَلِيغٍ مَا لَاحَ لَهُ مِنَ النُّكَتِ وَالْخَصَائِصِ، لَوَجَدُوا كُلَّ ذَلِكَ قَدْ وَفَتْ بِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ فِي مِثْلِهِ، وَأَتَتْ بِأَعْظَمَ مِنْهُ؛ ثُمَّ لَوْ لَحِقَ بِهِمْ لَاحِقٌ، وَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ، فَأَبْدَى مَا لَمْ يُبْدُوهُ مِنَ النُّكَتِ، لَوَجَدَ تِلْكَ الْآيَةَ الَّتِي انْقَدَحَتْ فِيهَا أَفْهَامُ السَّابِقَيْنِ، وَأَحْصَتْ مَا فِيهَا مِنَ الْخَصَائِصِ، قَدِ اشْتَمَلَتْ عَلَى مَا لَاحَ لِهَذَا الْأَخِيرِ، وَأَوْفَرَ مِنْهُ.**

**فَهَذَا هُوَ الْقَدْرُ الَّذِي أَدْرَكَهُ بُلَغَاءُ الْعَرَبِ بِفِطَرِهِمْ، فَأَعْرَضُوا عَنْ مُعَارَضَتِهِ عِلْمًا بِأَنَّهُمْ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِمِثْلِهِ، وَقَدْ كَانُوا مِنْ عُلُوِّ الْهِمَّةِ وَرَجَاحَةِ الرَّأْيِ بِحَيْثُ لَا يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلِافْتِضَاحِ وَلَا يَرْضَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ بِالِانْتِقَاصِ، لِذَلِكَ رَأَوُا الْإِمْسَاكَ عَنِ الْمُعَارَضَةِ أَجْدَى بِهِمْ وَاحْتَمَلُوا النِّدَاءَ عَلَيْهِمْ بِالْعَجْزِ عَنِ الْمُعَارَضَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ، لَعَلَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ السُّكُوتَ يَقْبَلُ مِنَ التَّأْوِيلِ بِالْأَنَفَةِ مَا لَا تَقْبَلُهُ الْمُعَارَضَةُ الْقَاصِرَةُ عَنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ فَثَبَتَ أَنَّهُ مُعْجِزٌ لِبُلُوغِهِ حَدًّا لَا يَسْتَطِيعُهُ الْبَشَرُ، فَكَانَ هَذَا الْكَلَامُ خَارِقًا لِلْعَادَةِ وَدَلِيلًا عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَوْجَدَهُ كَذَلِكَ لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ، فَالْعَجْزُ عَنِ الْمُعَارَضَةِ لِهَذَا الْوَجْهِ كَانَ لِعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، وَهَذَا هُوَ رَأْيُ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَأَعْيَانِ الْأَشَاعِرَةِ مِثْلِ**[**أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَّانِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12604)[**وَعَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13990)**وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنِ الْأَشْعَرِيِّ.**

**وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا قَادِرِينَ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، مُمْكِنَةً مِنْهُمُ الْمُعَارَضَةُ وَلَكِنَّهُمْ صَرَفَهُمُ اللَّهُ عَنِ التَّصَدِّي لَهَا مَعَ تَوَفُّرِ الدَّوَاعِي عَلَى ذَلِكَ، فَيَكُونُ صَدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ -مَعَ اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ- أَمْرًا خَارِقًا لِلْعَادَةِ أَيْضًا وَهُوَ دَلِيلُ الْمُعْجِزَةِ، وَهَذَا مَذْهَبٌ مِنْ قَوْلٍ ذَهَبَ إِلَيْهِ فَرِيقٌ.**

**وَقَدْ ذَكَرَهُ**[**أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَّانِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12604)**فِي كِتَابِهِ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَلَمْ يُعَيِّنْ لَهُ قَائِلًا وَقَدْ نَسَبَهُ التَّفْتَزَانِيُّ فِي كِتَابِ الْمَقَاصِدِ إِلَى الْقَائِلِينَ: إِنَّ الْإِعْجَازَ بِالصِّرْفَةِ وَهُوَ قَوْلُ النَّظَّامِمِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَكَثِيرٍ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، وَنَسَبَهُ الْخَفَاجِيُّ إِلَى**[**أَبِي إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَائِينِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=11812)**وَنَسَبَهُ عِيَاضٌ إِلَى**[**أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13711)**وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشْتَهِرْ عَنْهُ، وَقَالَ بِهِ**[**الشَّرِيفُ الْمُرْتَضَى**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15194)**مِنَ الشِّيعَةِ كَمَا فِي الْمَقَاصِدِ، وَهُوَ مَعَ كَوْنِهِ كَافِيًا فِي أَنَّ عَجْزَهُمْ عَلَى الْمُعَارَضَةِ بِتَعْجِيزِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ هُوَ مَسْلَكٌ ضَعِيفٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى وُجُوهِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ تَفْصِيلًا فِي الْمُقَدِّمَةِ الْعَاشِرَةِ مِنْ مُقَدِّمَاتِ هَذَا التَّفْسِيرِ.**

**فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَرْكُ الْعَرَبِ لِلْمُعَارَضَةِ تَعَاجُزًا لَا عَجْزًا. وَبَعْدُ فَمَنْ آمَنَّا أَنْ يَكُونَ الْعَرَبُ قَدْ عَارَضُوا الْقُرْآنَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَيْنَا مَا عَارَضُوا بِهِ.**

**قُلْتُ: يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ فِعْلُهُمْ ذَلِكَ تَعَاجُزًا ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِثَ فِي أُمَّةٍ مُنَاوِئَةٍ لَهُ مُعَادِيَةٍ لَا كَمَا بُعِثَ مُوسَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوَالِينَ مُعَاضِدِينَ لَهُ وَمُشَايِعِينَ، فَكَانَتِ الْعَرَبُ قَاطِبَةً مُعَارِضَةً لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، إِذْ كَذَّبُوهُ وَلَمَزُوهُ بِالْجُنُونِ وَالسِّحْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ لَمْ يَتِّبِعْهُ مِنْهُمْ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفَونَ بَيْنَ قَوْمِهِمْ لَا نَصِيرَ لَهُمْ فِي أَوَّلِ الدَّعْوَةِ، ثُمَّ كَانَ مِنْ أَمْرِ قَوْمِهِ أَنْ قَاطَعُوهُ ثُمَّ أَمَرُوهُ بِالْخُرُوجِ بَيْنَ هَمٍّ بِقَتْلِهِ وَاقْتِصَارٍ عَلَى إِخْرَاجِهِ.**

**كُلُّ هَذَا ثَبَتَ عَنْهُمْ فِي أَحَادِيثِهِمْ وَأَقْوَالِهِمُ الْمَنْقُولَةِ نَقْلًا يَسْتَحِيلُ تَوَاطُؤُنَا عَلَيْهِ عَلَى الْكَذِبِ، وَدَامُوا عَلَى مُنَاوَأَتِهِ بَعْدَ خُرُوجِهِ كَذَلِكَ يَصُدُّونَهُ عَنِ الْحَجِّ وَيَضْطَهِدُونَ أَتْبَاعَهُ إِلَى آخِرِ مَا عُرِفَ فِي التَّارِيخِ وَالسِّيَرِ، وَلَمْ تَكُنْ تِلْكَ الْمُنَاوَأَةُ فِي أَمَدٍ قَصِيرٍ يُمْكِنُ فِي خِلَالِهِ كَتْمُ الْحَوَادِثِ وَطَيُّ نَشْرِ الْمُعَارَضَةِ، فَإِنَّهَا مُدَّةُ تِسْعَ عَشْرَةَ سَنَةً إِلَى يَوْمِ فَتْحِ مَكَّةَ.**

**لَا جَرَمَ أَنَّ أَقْصَى رَغْبَةٍ لَهُمْ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ هِيَ إِظْهَارُ تَكْذِيبِهِ انْتِصَارًا لِأَنْفُسِهِمْ وَلِآلِهَتِهِمْ وَتَظَاهُرًا بِالنَّصْرِ بَيْنَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، كُلُّ هَذَا ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ الْمُجَاوِرَةِ لَهُمْ مِنْ فُرْسٍ وَرُومٍ وَقِبْطٍ وَأَحْبَاشٍ.**

**وَلَا جَرَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ قَصَّرَ مَعَهُمْ مَسَافَةَ الْمُجَادَلَةَ وَهَيَّأَ لَهُمْ طَرِيقَ إِلْزَامِهِ بِحَقِّيَّةِ مَا نَسَبُوهُ إِلَيْهِ فَأتَاهُمْ كِتَابًا مُنَزَّلًا نُجُومًا وَدَعَاهُمْ إِلَى الْمُعَارَضَةِ بِالْإِتْيَانِ بِقِطْعَةٍ قَصِيرَةٍ مِثْلِهِ وَأَنْ يَجْمَعُوا لِذَلِكَ شُهَدَاءَهُمْ وَأَعْوَانَهُمْ، نَطَقَ بِذَلِكَ هَذَا الْكِتَابُ، كُلُّ هَذَا ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ، فَإِنَّ هَذَا الْكِتَابَ مُتَوَاتِرٌ بَيْنَ الْعَرَبِ وَلَا يَخْلُو عَنِ الْعِلْمِ بِوُجُودِهِ أَهْلُ الدِّينِ مِنَ الْأُمَمِ. وَإِنَّ اشْتِمَالَهُ عَلَى طَلَبِ الْمُعَارَضَةِ ثَابِتٌ بِالتَّوَاتُرِ الْمَعْلُومِ لَدَيْنَا، فَإِنَّهُ هُوَ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي آمَنَ الْمُسْلِمُونَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ بِهِ وَحَفِظُوهُ وَآمَنَ بِهِ جَمِيعُ الْعَرَبِ أَيْضًا بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ فَأَلِفُوهُ كَمَا هُوَ الْيَوْمَ، شَهِدَتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَجْيَالُ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ.**

**وَقَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَدُّونَ الْمَدْعُوُّونَ إِلَى الْمُعَارَضَةِ بِالْمَكَانَةِ الْمَعْرُوفَةِ مِنْ أَصَالَةِ الرَّأْيِ وَاسْتِقَامَةِ الْأَذْهَانِ، وَرُجْحَانِ الْعُقُولِ وَعَدَمِ رَوَاجِ الزَّيْفِ عَلَيْهِمْ، وَبِالْكَفَاءَةِ وَالْمَقْدِرَةِ عَلَى التَّفَنُّنِ فِي الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظِ. تَوَاتَرَ ذَلِكَ كُلُّهُ عَنْهُمْ بِمَا نُقِلَ مِنْ كَلَامِهِمْ نَظْمًا وَنَثْرًا، وَبِمَا اشْتَهَرَ وَتَوَاتَرَ مِنَ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ مِنْ بَيْنِ الْمَرْوِيَّاتِ مِنْ نَوَادِرِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ، فَلَمْ يَكُنْ يَعُوزُهُمْ أَنْ يُعَارِضُوهُ لَوْ وَجَدُوهُ عَلَى النَّحْوِ الْمُتَعَارَفِ لَدَيْهِمْ، فَإِنَّ صِحَّةَ أَذْهَانِهِمْ أَدْرَكَتْ أَنَّهُ تَجَاوَزَ الْحَدَّ الْمُتَعَارَفَ لَدَيْهِمْ، فَلِذَلِكَ أَعْرَضُوا عَنِ الْمُعَارَضَةِ مَعَ تَوَفُّرِ دَاعِيهِمْ بِالطَّبْعِ وَحِرْصِهِمْ لَوْ وَجَدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا. ثَبَتَ إِعْرَاضُهُمْ عَنِ الْمُعَارَضَةِ بِطَرِيقِ التَّوَاتُرِ إِذْ لَوْ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا لَأَعْلَنُوهُ وَأَشَاعُوهُ وَتَنَاقَلَهُ النَّاسُ لِأَنَّهُ مِنَ الْحَوَادِثِ الْعَظِيمَةِ، فَعَدَلُوا عَنِ الْمُعَارَضَةِ بِاللِّسَانِ إِلَى الْمُحَارَبَةِ وَالْمُكَافَحَةِ، ثَبَتَ ذَلِكَ بِالتَّوَاتُرِ لَا مَحَالَةَ عِنْدَ أَهْلِ التَّارِيخِ وَغَيْرِهِمْ.**

**وَأَيًّا مَا جَعَلْتَ سَبَبَ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْمُعَارَضَةِ مِنْ خُرُوجِ كَلَامِهِ عَنْ طَوْقِ الْبَشَرِ أَوْ مِنْ صَرْفِ اللَّهِ أَذْهَانَهُمْ عَنْ ذَلِكَ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَمْرٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ كَانَ بِتَقْدِيرٍ مِنْ خَالِقِ الْقَدَرِ وَمُعْجِزِ الْبَشَرِ.**

**وَوَرَاءَ هَذَا كُلِّهِ دَلِيلٌ آخَرَ يُعَرِّفُنَا بِأَنَّ الْعَرَبَ بِحُسْنِ فِطْرَتِهِمْ قَدْ أَدْرَكُوا صِدْقَ الرَّسُولِ وَفَطِنُوا لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامٍ مُعْتَادٍ لِلْبَشَرِ، وَأَنَّهُمْ مَا كَذَّبُوا إِلَّا عِنَادًا أَوْ مُكَابَرَةً وَحِرْصًا عَلَى السِّيَادَةِ وَنُفُورًا مِنَ الِاعْتِرَافِ بِالْخَطَأِ، ذَلِكَ الدَّلِيلُ هُوَ إِسْلَامُ جَمِيعِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَتَعَاقُبُهُمْ فِي الْوِفَادَةِ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُقْتَدِينَ بِقُرَيْشٍ فِي الْمُعَارَضَةِ مُكْبِرِينَ الْمُتَابِعَةَ لِهَذَا الدِّينِ خَشْيَةَ مَسَبَّةِ بَعْضِهِمْ، وَخَاصَّةً قُرَيْشٌ وَمَنْ ظَاهَرَهُمْ.**

**فَلَمَّا غُلِبَتْ قُرَيْشٌ لَمْ يَبْقَ مَا يَصُدُّ بَقِيَّةَ الْعَرَبِ عَنِ الْمَجِيءِ طَائِعِينَ مُعْتَرِفِينَ عَنْ غَيْرِ غَلَبٍ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ الثَّبَاتَ لِلْمُقَارَعَةِ أَكْثَرَ مِمَّا ثَبَتَتْ قُرَيْشٌ، إِذْ قَدْ كَانَ مِنْ تِلْكَ الْقَبَائِلِ أَهْلُ الْبَأْسِ وَالشِّدَّةِ مِنْ عَرَبِ نَجْدٍ وَطَيِّءٍ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنِ اعْتَزَّ بِهِمُ الْإِسْلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِمَّا عُرِفَ فِي عَوَائِدِ الْأُمَمِ وَأَخْلَاقِهَا أَنْ تَنْبِذَ قَبَائِلُ عَظِيمَةٌ كَثِيرَةٌ أَدْيَانًا تَعْتَقِدُ صِحَّتَهَا وَتَجِيءَ جَمِيعَهَا طَائِعًا نَابِذًا دِينَهُ فِي خِلَالِ أَشْهُرٍ مِنْ عَامِ الْوُفُودِ لَمْ يَجْمَعْهُمْ فِيهِ نَادٍ وَلَمْ تَسْرِ بَيْنَهُمْ سُفَرَاءُ وَلَا حَشَرَهُمْ مَجْمَعٌ لَوْلَا أَنَّهُمْ كَانُوا مُتَهَيِّئِينَ لِهَذَا الِاعْتِرَافِ لَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ إِلَا صَادٌّ ضَعِيفٌ وَهُوَ الْمُكَابَرَةُ وَالْمُعَانَدَةُ.**

**ثُمَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُعْجِزَةٌ بَاقِيَةٌ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿**[**وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾[[539]](#footnote-539)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)**فَإِنَّهَا قَدْ مَرَّتْ عَلَيْهَا الْعُصُورُ وَالْقُرُونُ وَمَا صَدَقُهَا وَاضِحٌ إِذْ لَمْ تَقَعِ الْمُعَارَضَةُ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ وَلَا مِمَّنْ لَحِقَهُمْ إِلَى الْيَوْمِ.**

**فَإِنْ قُلْتَ ثَبَتَ بِهَذَا أَنَّ الْقُرْآنَ مُعْجِزٌ لِلْعَرَبِ وَبِذَلِكَ ثَبَتَ لَدَيْهِمْ أَنَّهُ مُعْجِزَةٌ وَثَبَتَ لَدَيْهِمْ بِهِ صِدْقُ الرَّسُولِ وَلَكِنْ لَمْ يَثْبُتْ ذَلِكَ لِمَنْ لَيْسَ مِثْلَهُمْ فَمَا هِيَ الْمُعْجِزَةُ لِغَيْرِهِمْ؟**

**قُلْتُ: إِنَّ ثُبُوتَ الْإِعْجَازِ لَا يَسْتَلْزِمُ مُسَاوَاةَ النَّاسِ فِي طَرِيقِ الثُّبُوتِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَعْجَزَ الْعَرَبَ ثَبَتَ أَنَّهُ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ لِمَا عَلِمْتَ مِنَ الْوَجْهَيْنِ السَّابِقَيْنِ، فَيَكُونُ الْإِعْجَازُ لِلْعَرَبِ بِالْبَدَاهَةِ وَلِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ بِالِاسْتِدْلَالِ وَالْبُرْهَانِ، وَهُمَا طَرِيقَانِ لِحُصُولِ الْعِلْمِ.**

**وَبَعْدُ فَإِنَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يُدْرِكَ الْإِعْجَازَ كَمَا أَدْرَكَهُ الْعَرَبُ فَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَشْتَغِلَ بِتَعَلُّمِ اللُّغَةِ وَأَدَبِهَا وَخَصَائِصِهَا حَتَّى يُسَاوِيَ أَوْ يُقَارِبَ الْعَرَبَ فِي ذَوْقِ لُغَتِهِمْ ثُمَّ يَنْظُرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي نِسْبَةِ الْقُرْآنِ مِنْ كَلَامِ بُلَغَائِهِمْ. وَلَمْ يَخْلُ عَصْرٌ مِنْ فِئَةٍ اضْطَلَعَتْ بِفَهْمِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَدْرَكَتْ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ وَهُمْ عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ وَأَدَبِ الْعَرَبِيَّةِ الصَّحِيحِ.**

**قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ فِي مُقَدِّمَةِ *دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ*: فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ لَنَا طَرِيقًا إِلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ غَيْرَ مَا قُلْتَ أَيْ مِنْ تَوَقُّفِهِ عَلَى عِلْمِ الْبَيَانِ وَهُوَ عِلْمُنَا بِعَجْزِ الْعَرَبِ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَتَرْكِهِمْ أَنْ يُعَارِضُوهُ مَعَ تَكْرَارِ التَّحَدِّي عَلَيْهِمْ وَطُولِ التَّقْرِيعِ لَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْهُ وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ مَا قَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَى الْعَجَمِ قِيَامَهَا عَلَى الْعَرَبِ وَمَا اسْتَوَى النَّاسُ فِيهِ قَاطِبَةً، فَلَمْ يَخْرُجِ الْجَاهِلُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَحْجُوجًا بِالْقُرْآنِ، قِيلَ لَهُ: خَبِّرْنَا عَمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ مِنِ اخْتِصَاصِ نَبِيِّنَا -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِأَنْ كَانَتْ مُعْجِزَتُهُ بَاقِيَةً عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ، أَتَعْرِفُ لَهُ مَعْنًى غَيْرَ أَلَّا يَزَالَ الْبُرْهَانُ مِنْهُ لَائِحًا مُعْرِضًا لِكُلِّ مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ بِهِ، وَالْعِلْمُ بِهِ مُمْكِنًا لِمَنِ الْتَمَسَهُ، وَأَلَّا مَعْنَى لِبَقَاءِ الْمُعْجِزَةِ بِالْقُرْآنِ إِلَّا أَنَّ الْوَصْفَ الَّذِي كَانَ بِهِ مُعْجِزًا قَائِمٌ فِيهِ أَبَدًا اهـ.**

**وَقَالَ السَّكَّاكِيُّ فِي مَعْرِضِ التَّنْوِيهِ بِبَعْضِ مَسَائِلِ التَّقْدِيمِ قَوْلُهُ: "مُتَوَسِّلًا بِذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتَأَنَّقَ فِي وَجْهِ الْإِعْجَازِ فِي التَّنْزِيلِ مُنْتَقِلًا مِمَّا أَجْمَلَهُ عَجْزُ الْمُتَحَدِّينَ بِهِ عِنْدَكَ إِلَى التَّفْصِيلِ".**

**وَقَدْ بَيَّنْتُ فِي الْمُقَدِّمَةِ الْعَاشِرَةِ تَفَاصِيلَ مِنْ وُجُوهِ إِعْجَازِهِ، فَقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَصْنَافٍ مِنَ الْإِعْجَازِ إِذْ نَقَلَتِ الْإِعْجَازَ بِالتَّوَاتُرِ، وَكَانَتْ بِبَلَاغَتِهَا مُعْجِزَةً، وَكَانَتْ مُعْجِزَةً مِنْ حَيْثُ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ كُلِّهِ بِمَا تَحَقَّقَ صِدْقُهُ، فَسُبْحَانَ مُنْزِلِهَا وَمُؤَتِّيهَا!**

**﴿**[**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[[540]](#footnote-540)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)

**فِي *الْكَشَّافِ*: مِنْ عَادَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ أَنْ يَذْكُرَ التَّرْغِيبَ مَعَ التَّرْهِيبِ وَيَشْفَعَ الْبِشَارَةَ بِالْإِنْذَارِ إِرَادَةَ التَّنْشِيطِ لِاكْتِسَابِ مَا يُزْلِفُ وَالتَّثْبِيطِ عَنِ اقْتِرَافِ مَا يُتْلِفُ، فَلَمَّا ذَكَرَ الْكُفَّارَ وَأَعْمَالَهُمْ وَأَوْعَدَهُمْ بِالْعِقَابِ قَفَّاهُ بِبِشَارَةِ عِبَادِهِ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ التَّصْدِيقِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ اهـ.**

**وَجَعَلَ جُمْلَةَ: (وَبَشِّرِ) مَعْطُوفَةً عَلَى مَجْمُوعِ الْجُمَلِ الْمَسُوقَةِ لِبَيَانِ وَصْفِ عِقَابِ الْكَافِرِينَ يَعْنِي جَمِيعَ الَّذِي فُصِّلَ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿**[**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**﴾[[541]](#footnote-541) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[[542]](#footnote-542)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**فَعَطَفَ مَجْمُوعَ أَخْبَارٍ عَنْ ثَوَابِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَجْمُوعِ أَخْبَارٍ عَنْ عِقَابِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَاسِبَةُ وَاضِحَةٌ مُسَوِّغَةٌ لِعَطْفِ الْمَجْمُوعِ عَلَى الْمَجْمُوعِ، وَلَيْسَ هُوَ عَطْفًا لِجُمْلَةٍ مُعَيَّنَةٍ عَلَى جُمْلَةٍ مُعَيَّنَةٍ الَّذِي يُطْلَبُ مَعَهُ التَّنَاسُبُ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ فِي الْخَبَرِيَّةِ وَالْإِنْشَائِيَّةِ، وَنَظِّرْهُ بِقَوْلِكَ: زَيْدٌ يُعَاقَبُ بِالْقَيْدِ وَالْإِرْهَاقِ وَبَشِّرْ عَمْرًا بِالْعَفْوِ وَالْإِطْلَاقِ.**

**وَجَعَلَ السَّيِّدُ الْجُرْجَانِيُّ لِهَذَا النَّوْعِ مِنَ الْعَطْفِ لَقَبَ عَطْفِ الْقِصَّةِ عَلَى الْقِصَّةِ لِأَنَّ الْمَعْطُوفَ لَيْسَ جُمْلَةً عَلَى جُمْلَةٍ بَلْ طَائِفَةٌ مِنَ الْجُمَلِ عَلَى طَائِفَةٍ أُخْرَى، وَنَظِيرُهُ فِي الْمُفْرَدَاتِ مَا قِيلَ: إِنَّ الْوَاوَ الْأُولَى وَالْوَاوَ الثَّالِثَةَ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[[543]](#footnote-543)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**لَيْسَتَا مِثْلَ الْوَاوِ الثَّانِيَةِ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا لِإِفَادَةِ الْجَمْعِ بَيْنَ الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ. وَأَمَّا الثَّانِيَةُ، فَلِعِطْفِ مَجْمُوعِ الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَهَا عَلَى مَجْمُوعِ الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَهَا، وَلَوِ اعْتُبِرَ عَطْفُ الظَّاهِرِ وَحْدَهُ عَلَى إِحْدَى السَّابِقَتَيْنِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تُنَاسِبٌ.**

**هَذَا حَاصِلُهُ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنَّ الْوَاوَ عَاطِفَةٌ جُمْلَةً ذَاتَ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ وَخَبَرَيْنِ عَلَى جُمْلَةٍ ذَاتِ مُبْتَدَأٍ مَلْفُوظٍ بِهِ وَخَبَرَيْنِ، فَالتَّقْدِيرُ: وَهُوَ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ الْمُبْتَدَأَ فِيهَا مُقَدَّرٌ لِإِغْنَاءِ حَرْفِ الْعَطْفِ عَنْهُ بَلْ هُوَ مَحْذُوفٌ لِلْقَرِينَةِ أَوِ الْمُنَاسَبَةِ فِي عَطْفِ جُمْلَةِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ عَلَى جُمْلَةِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ.**

**إِنَّهُمَا صِفَتَانِ مُتَقَابِلَتَانِ ثَبَتَتَا لِمَوْصُوفٍ وَاحِدٍ هُوَ الَّذِي ثَبَتَتْ لَهُ صِفَتَانِ مُتَقَابِلَتَانِ أُخْرَيَانِ.**

**قَالَ السَّيِّدُ: وَلَمْ يَذْكُرْ صَاحِبُ الْمِفْتَاحِ عَطْفَ الْقِصَّةِ عَلَى الْقِصَّةِ، فَتَحَيَّرَ الْجَامِدُونَ عَلَى كَلَامِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَتَوَهَّمُوا أَنَّ مُرَادَ صَاحِبِ *الْكَشَّافِ* هُنَا عَطْفُ الْجُمْلَةِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَأَنَّ الْخَبَرَ الْمُتَقَدِّمَ مُضَمَّنٌ مَعْنَى الطَّلَبِ أَوْ بِالْعَكْسِ لِتَتَنَاسَبَ الْجُمْلَتَانِ، مَعَ أَنَّ عِبَارَةَ *الْكَشَّافِ* صَرِيحَةٌ فِي غَيْرِ ذَلِكَ، وَقَصَدَ السَّيِّدُ مِنْ ذَلِكَ إِبْطَالَ فَهْمٍ فَهِمَهُ سَعْدُ الدِّينِ مِنْ كَلَامِ *الْكَشَّافِ* وَأَوْدَعَهُ فِي شَرْحِهِ الْمُطَوَّلِ عَلَى التَّلْخِيصِ.**

**وَجَوَّزَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَبَشِّرِ﴾[[544]](#footnote-544) مَعْطُوفًا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَاتَّقُوا﴾[[545]](#footnote-545) الَّذِي هُوَ جَوَابُ الشَّرْطِ، فَيَكُونُ لَهُ حُكْمُ الْجَوَابِ أَيْضًا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الشَّرْطَ، وَهُوَ ﴿**[**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**﴾[[546]](#footnote-546) سَبَبٌ لَهُمَا، لِأَنَّهُمْ إِذَا عَجَزُوا عَنِ الْمُعَارَضَةِ فَقَدْ ظَهَرَ صِدْقُ النَّبِيءِ، فَحَقَّ اتِّقَاءُ النَّارِ، وَهُوَ الْإِنْذَارُ لِمَنْ دَامَ عَلَى كُفْرِهِ وَحَقَّتِ الْبِشَارَةُ لِلَّذِينَ آمَنُوا. وَإِنَّمَا كَانَ الْمَعْطُوفُ عَلَى الْجَوَابِ مُخَالِفًا لَهُ لِأَنَّ الْآيَةَ سِيقَتْ مَسَاقَ خِطَابٍ لِلْكَافِرِينَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيءِ.**

**فَلَمَّا أُرِيدَ تَرَتُّبُ الْإِنْذَارِ لَهُمْ وَالْبِشَارَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ جُعِلَ الْجَوَابُ خِطَابًا لَهُمْ مُبَاشَرَةً، لِأَنَّهُمُ الْمُبْتَدَأُ بِخِطَابِهِمْ، وَخِطَابًا لِلنَّبِيِّ لِيُخَاطِبَ الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِينَ ذِكْرٌ فِي هَذَا الْخِطَابِ فَلَمْ يَكُنْ طَرِيقٌ لِخِطَابِهِمْ إِلَّا الْإِرْسَالُ إِلَيْهِمْ.**

**وَقَدِ اسْتُضْعِفَ هَذَا الْوَجْهُ بِأَنَّ عُلَمَاءَ النَّحْوِ قَرَّرُوا امْتِنَاعَ عَطْفِ أَمْرٍ مُخَاطَبٍ عَلَى أَمْرٍ مُخَاطَبٍ إِلَّا إِذَا اقْتَرَنَ بِالنِّدَاءِ نَحْوَ: يَا زَيْدُ وَاكْتُبْ يَا عَمْرُو، وَهَذَا لَا نِدَاءَ فِيهِ.**

**وَجَوَّزَ صَاحِبُ الْمِفْتَاحِ أَنَّ ﴿بَشِّرِ﴾[[547]](#footnote-547) مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿قُلْ﴾[[548]](#footnote-548) مُقَدَّرًا قَبْلَ: ﴿**[**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا﴾[[549]](#footnote-549)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**وَقَالَ الْقَزْوِينِيُّ فِي *الْإِيضَاحِ*: إِنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مُقَدِّرٍ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿**[**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[[550]](#footnote-550)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**أَيْ فَأَنْذِرِ الَّذِينَ كَفَرُوا.**

**وَكُلُّ ذَلِكَ تَكَلُّفٌ لَا دَاعِيَ إِلَيْهِ إِلَّا الْوُقُوفُ عِنْدَ ظَاهِرِ كَلَامِ النُّحَاةِ، مَعَ أَنَّ صَاحِبَ *الْكَشَّافِ* لَمْ يَعْبَأْ بِهِ قَالَ عَبْدُ الْحَكِيمِ: لِأَنَّ مَنْعَ النُّحَاةِ إِذَا انْتَفَتْ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَغَايُرِ الْمُخَاطَبِينَ، وَالنِّدَاءُ ضَرْبٌ مِنَ الْقَرِينَةِ نَحْوُ ﴿**[**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**﴾[[551]](#footnote-551) اهـ.**

**يُرِيدُ: أَنَّ كُلَّ مَا يَدُلُّ عَلَى الْمُرَادِ بِالْخِطَابِ فَهُوَ كَافٍ، وَإِنَّمَا خَصَّ النُّحَاةُ النِّدَاءَ، لِأَنَّهُ أَظْهَرُ قَرِينَةً، وَاخْتِلَافُ الْأَمْرَيْنِ هُنَا بِعَلَامَةِ الْجَمْعِ وَالْإِفْرَادِ دَالٌّ عَلَى الْمُرَادِ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَقَدْ رُوعِيَ فِي الْجُمَلِ الْمَعْطُوفَةِ مَا يُقَابِلُ مَا فِي الْجُمَلِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهَا، فَقُوبِلَ الْإِنْذَارُ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**فَاتَّقُوا النَّارَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**﴾[[552]](#footnote-552) بِالتَّبْشِيرِ، وَقُوبِلَ ﴿النَّاسُ﴾[[553]](#footnote-553) الْمُرَادُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ بِالَّذِينَ آمَنُوا، وَقُوبِلَ ﴿النَّارُ﴾[[554]](#footnote-554) بِالْجَنَّةِ، فَحَصَلَ ثَلَاثَةُ طِبَاقَاتٍ.**

**وَالتَّبْشِيرُ: الْإِخْبَارُ بِالْأَمْرِ الْمَحْبُوبِ، فَهُوَ أَخَصُّ مِنَ الْخَبَرِ.**

**وَقَيَّدَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مَعْنَى التَّبْشِيرِ بِأَنْ يَكُونَ الْمُخْبَرُ -بِالْفَتْحِ- غَيْرَ عَالِمٍ بِذَلِكَ الْخَبَرِ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ يَكْفِي عَدَمُ تَحَقُّقِ الْمُخْبِرِ -بِالْكَسْرِ- عِلْمَ الْمُخْبَرِ -بِالْفَتْحِ- فَإِنَّ الْمُخْبِرَ -بِالْكَسْرِ- لَا يَلْزَمُهُ الْبَحْثُ عَنْ عِلْمِ الْمُخَاطَبِ، فَإِذَا تَحَقَّقَ الْمُخْبِرُ عِلْمَ الْمُخَاطَبِ لَمْ يَصِحَّ الْإِخْبَارُ إِلَّا إِذَا اسْتُعْمِلَ الْخَبَرُ فِي لَازِمِ الْفَائِدَةِ أَوْ فِي تَوْبِيخٍ وَنَحْوِهِ.**

**وَالصَّالِحَاتُ جَمْعُ صَالِحَةٍ، وَهِيَ الْفِعْلَةُ الْحَسَنَةُ فَأَصْلُهَا صِفَةٌ جَرَتْ مَجْرَى الْأَسْمَاء،ِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ صَالِحَةٌ وَحَسَنَةٌ وَلَا يُقَدِّرُونَ مَوْصُوفًا مَحْذُوفًا.**

**قَالَ الْحُطَيْئَةُ:**

**كَيْفَ الْهِجَاءُ وَمَا تَنْفَكُّ صَالِحَةٌ مِنْ آلِ لَأْمٍ بِظَهْرِ الْغَيْبِ تَأْتِينَا**

**وَكَأَنَّ ذَلِكَ هُوَ وَجْهُ تَأْنِيثِهَا لِلنَّقْلِ مِنَ الْوَصْفِيَّةِ لِلِاسْمِيَّةِ، وَالتَّعْرِيفُ هُنَا لِلِاسْتِغْرَاق،ِ وَهُوَ اسْتِغْرَاقٌ عُرْفِيٌّ يُحَدَّدُ مِقْدَارُهُ بِالتَّكْلِيفِ وَالِاسْتِطَاعَةِ وَالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ مِثْلِ كَوْنِ اجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ يَغْفِرُ الصَّغَائِرَ فَيَجْعَلُهَا كَالْعَدَمِ.**

**فَإِنْ قُلْتَ: لِمَاذَا لَمْ يَقُلْ: وَعَمِلُوا الصَّالِحَةَ بِالْإِفْرَادِ، فَقَدْ قَالُوا إِنَّ اسْتِغْرَاقَ الْمُفْرَدِ أَشْمَلُ مِنِ اسْتِغْرَاقِ الْمَجْمُوعِ؟**

**قُلْتُ: تِلْكَ عِبَارَةٌ سَرَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ كَلَامِ صَاحِبِ *الْكَشَّافِ* فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ تَفْسِيرِهِ، إِذْ قَالَ إِذَا دَخَلَتْ لَامُ الْجِنْسِ عَلَى الْمُفْرَدِ كَانَ صَالِحًا لِأَنْ يُرَادَ بِهِ الْجِنْسُ إِلَى أَنْ يُحَاطَ بِهِ وَأَنْ يُرَادَ بِهِ بَعْضُهُ إِلَى الْوَاحِدِ مِنْهُ، وَإِذَا دَخَلَتْ عَلَى الْمَجْمُوعِ صَلُحَ أَنْ يُرَادَ بِهِ جَمِيعُ الْجِنْسِ وَأَنْ يُرَادَ بِهِ بَعْضُهُ لَا إِلَى الْوَاحِدِ مِنْهُ اهـ. فَاعْتَمَدَهَا صَاحِبُ الْمِفْتَاحِ وَتَنَاقَلَهَا الْعُلَمَاءُ وَلَمْ يَفْصِلُوا بَيَانَهَا.**

**وَلَعَلَّ سَائِلًا يَسْأَلُ عَنْ وَجْهِ إِتْيَانِ الْعَرَبِ بِالْجُمُوعِ بَعْدَ "أَلِ" الِاسْتِغْرَاقِيَّةِ إِذَا كَانَ الْمُفْرَدُ مُغْنِيًا غِنَاءَهَا، فَأَقُولُ: إِنَّ "أَلِ" الْمُعَرِّفَةَ تَأْتِي لِلْعَهْدِ وَتَأْتِي لِلْجِنْسِ مُرَادًا بِهِ الْمَاهِيَّةُ وَلِلْجِنْسِ مُرَادًا بِهِ جَمِيعُ أَفْرَادِهِ الَّتِي لَا قَرَارَ لَهُ فِي غَيْرِهَا، فَإِذَا أَرَادُوا مِنْهَا الِاسْتِغْرَاقَ نَظَرُوا، فَإِنْ وَجَدُوا قَرِينَةَ الِاسْتِغْرَاقِ ظَاهِرَةً مِنْ لَفْظٍ أَوْ سِيَاقٍ نَحْوِ: ﴿**[**إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾[[555]](#footnote-555)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**اقْتَنَعُوا بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ، لِأَنَّهُ الْأَصْلُ الْأَخَفُّ، وَإِنْ رَأَوْا قَرِينَةَ الِاسْتِغْرَاقِ خَفِيَّةً أَوْ مَفْقُودَةً عَدَلُوا إِلَى صِيغَةِ الْجَمْعِ لِدَلَالَةِ الصِّيغَةِ عَلَى عِدَّةِ أَفْرَادٍ لَا عَلَى فَرْدٍ وَاحِدٍ.**

**وَلَمَّا كَانَ تَعْرِيفُ الْعَهْدِ لَا يُتَوَجَّهُ إِلَى عَدَدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ غَالِبًا تَعَيَّنَ أَنَّ تَعْرِيفَهَا لِلِاسْتِغْرَاقِ نَحْوُ: ﴿**[**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[[556]](#footnote-556)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ الْحَدِيثَ عَلَى مُحْسِنٍ خَاصٍّ، نَحْوُ قَوْلِهَا: ﴿**[**وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[[557]](#footnote-557)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ الْحَدِيثَ عَنْ خَائِنٍ مُعَيَّنٍ تَعْنِي نَفْسَهَا فَيَصِيرُ الْجَمْعُ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ قَرِينَةً عَلَى قَصْدِ الِاسْتِغْرَاقِ.**

**وَانْتَصَبَ ﴿الصَّالِحَاتِ﴾[[558]](#footnote-558) عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ لِـ ﴿عَمِلُوا﴾[[559]](#footnote-559) عَلَى الْمَعْرُوفِ مِنْ كَلَامِ أَئِمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ.**

**وَزَعَمَ ابْنُ هِشَامٍ فِي الْبَابِ السَّادِسِ مِنْ مُغْنِي اللَّبِيبِ أَنَّ مَفْعُولَ الْفِعْلِ إِذَا كَانَ لَا يُوجَدُ إِلَّا بِوُجُودِ فِعْلِهِ كَانَ مَفْعُولًا مُطْلَقًا لَا مَفْعُولًا بِهِ، فَنَحْوُ: ﴿**[**عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[[560]](#footnote-560)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ وَنَحْوُ: ﴿**[**خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ﴾[[561]](#footnote-561)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**كَذَلِكَ، وَاعْتَضَدَ لِذَلِكَ بِأَنَّ**[**ابْنَ الْحَاجِبِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12671)**فِي شَرْحِ الْمُفَصَّلِ زَعَمَ أَنَّ الْمَفْعُولَ الْمُطْلَقَ يَكُونُ جُمْلَةً نَحْوَ: قَالَ زَيْدٌ عَمْرٌو مُنْطَلِقٌ.**

**وَكَلَامُ ابْنِ هِشَامٍ خَطَأٌ وَكَلَامُ**[**ابْنِ الْحَاجِبِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12671)**مِثْلُهُ، وَقَدْ رَدَّهُ ابْنُ هِشَامٍ نَفْسُهُ. وَالصَّوَابُ أَنَّ الْمَفْعُولَ الْمُطْلَقَ هُوَ مَصْدَرُ فِعْلِهِ أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُ.**

**وَالْجَنَّاتُ جَمْعُ جَنَّةٍ، وَالْجَنَّةُ فِي الْأَصْلِ فِعْلَةٌ مِنْ جَنَّهُ إِذَا سَتَرَهُ، نَقَلُوهُ لِلْمَكَانِ الَّذِي تَكَاثَرَتْ أَشْجَارُهُ وَالْتَفَّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ حَتَّى كَثُرَ ظِلُّهَا، وَذَلِكَ مِنْ وَسَائِلِ التَّنَعُّمِ وَالتَّرَفُّهِ عِنْدَ الْبَشَرِ قَاطِبَةً لَاسِيَّمَا فِي بَلَدٍ تَغْلُبُ عَلَيْهِ الْحَرَارَةُ كَبِلَادِ الْعَرَبِ، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾[[562]](#footnote-562)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**وَالْجَرْيُ حَقِيقَتُهُ سُرْعَةٌ شَدِيدَةٌ فِي الْمَشْيِ، وَيُطْلَقُ مَجَازًا عَلَى سَيْلِ الْمَاءِ سَيْلًا مُتَكَرِّرًا مُتَعَاقِبًا، وَأَحْسَنُ الْمَاءِ مَا كَانَ جَارِيًا غَيْرَ قَارٍّ، لِأَنَّهُ يَكُونُ بِذَلِكَ جَدِيدًا كُلَّمَا اغْتَرَفَ مِنْهُ شَارِبٌ أَوِ اغْتَسَلَ مُغْتَسِلٌ.**

**وَالْأَنْهَارُ جَمْعُ نَهَرٍ بِفَتْحِ الْهَاءِ وَسُكُونِهَا وَالْفَتْحُ أَفْصَحُ وَالنَّهْرُ الْأُخْدُودُ الْجَارِي فِيهِ الْمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ مَادَّةِ نَهَرَ الدَّالَّةِ عَلَى الِانْشِقَاقِ وَالِاتِّسَاعِ، وَيَكُونُ كَبِيرًا وَصَغِيرًا.**

**وَأَكْمَلُ مَحَاسِنِ الْجَنَّاتِ: جَرَيَانُ الْمِيَاهِ فِي خِلَالِهَا. وَذَلِكَ شَيْءٌ اجْتَمَعَ الْبَشَرُ كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَنْفَسِ الْمَنَاظِرِ، لِأَنَّ فِي الْمَاءِ طَبِيعَةَ الْحَيَاةِ، وَلِأَنَّ النَّاظِرَ يَرَى مَنْظَرًا بَدِيعًا وَشَيْئًا لَذِيذًا.**

**وَأَوْدَعَ فِي النُّفُوسِ حُبَّ ذَلِكَ، فَإِمَّا لِأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى- أَعَدَّ نَعِيمَ الصَّالِحِينَ فِي الْجَنَّةِ عَلَى نَحْوِ مَا أَلِفَتْهُ أَرْوَاحُهُمْ فِي هَذَا الْعَالَمِ، فَإِنَّ لِلْإِلْفِ تَمَكُّنًا مِنَ النُّفُوسِ وَالْأَرْوَاحِ بِمُرُورِهَا عَلَى هَذَا الْعَالَمِ -عَالَمِ الْمَادَّةِ- اكْتَسَبَتْ مَعَارِفَ وَمَأْلُوفَاتٍ لَمْ تَزَلْ تَحِنُّ إِلَيْهَا وَتَعُدُّهَا غَايَةَ الْمُنَى، وَلِذَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهَا النَّعِيمَ الدَّائِمَ فِي تِلْكَ الصُّوَرِ، وَإِمَّا لِأَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- حَبَّبَ إِلَى الْأَرْوَاحِ هَاتِهِ الْأَشْيَاءَ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّهَا عَلَى نَحْوِ مَا أَلِفَتْهُ فِي الْعَوَالِمِ الْعُلْيَا قَبْلَ نُزُولِهَا لِلْأَبْدَانِ لِإِلْفِهَا بِذَلِكَ فِي عَالَمِ الْمِثَالِ، وَسَبَبُ نُفْرَتِهَا مِنْ أَشْكَالٍ مُنْحَرِفَةٍ وَذَوَاتٍ بَشِعَةٍ عَدَمُ إِلْفِهَا بِأَمْثَالِهَا فِي عَوَالِمِهَا.**

**وَالْوَجْهُ الْأَوَّلُ الَّذِي ظَهَرَ لِي أَرَاهُ أَقْوَى فِي تَعْلِيلِ مَجِيءِ لَذَّاتِ الْجَنَّةِ عَلَى صُوَرِ اللَّذَّاتِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الدُّنْيَا، وَسَيَنْفَعُنَا ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾[[563]](#footnote-563).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)

**وَمَعْنَى: ﴿**[**مِنْ تَحْتِهَا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**﴾[[564]](#footnote-564): مِنْ أَسْفَلِهَا وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْجَنَّاتِ بِاعْتِبَارِ مَجْمُوعِهَا الْمُشْتَمِلِ عَلَى الْأَشْجَارِ وَالْأَرْضِ النَّابِتَةِ فِيهَا، وَيَجُوزُ عَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى الْجَنَّاتِ بِاعْتِبَارِ الْأَشْجَار،ِ لِأَنَّهَا أَهَمُّ مَا فِي الْجَنَّاتِ.**

**وَهَذَا الْقَيْدُ لِمُجَرَّدِ الْكَشْفِ فَإِنَّ الْأَنْهَارَ لَا تَكُونُ إِلَّا كَذَلِكَ وَيُفِيدُ هَذَا الْقَيْدُ تَصْوِيرَ حَالِ الْأَنْهَارِ لِزِيَادَةِ تَحْسِينِ وَصْفِ الْجَنَّاتِ كَقَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:**

**شُجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَّةٍ     صَافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وَهْوَ مَشْمُولُ**

**الْبَيْتَيْنِ.**

**وَقَدْ أَوْرَدَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* تَوْجِيهًا لِتَعْرِيفِ الْأَنْهَارِ وَمُخَالَفَتِهَا لِتَنْكِيرِ جَنَّاتٍ إِمَّا بِأَنْ يُرَادَ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ، فَيَكُونُ كَالنَّكِرَةِ، وَإِمَّا بِأَنْ يُرَادَ مِنَ التَّعْرِيفِ الْعَهْدُ، إِلَّا أَنَّهُ عَهْدٌ تَقْدِيرِيٌّ، لِأَنَّ الْجَنَّاتِ لَمَّا ذُكِرَتِ اسْتُحْضِرَ لِذِهْنِ السَّامِعِ لَوَازِمُهَا وَمُقَارَنَاتُهَا، فَسَاغَ لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يُشِيرَ إِلَى ذَلِكَ الْمَعْهُودِ، فَجِيءَ بِاللَّامِ.**

**وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: أَوْ يُرَادُ أَنْهَارُهَا فَعُوِّضَ التَّعْرِيفُ بِاللَّامِ مِنْ تَعْرِيفِ الْإِضَافَةِ، يُرِيدُ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ فِي حَيْرَةٍ بَيْنَ أَنْ يَأْتِيَ بِالْأَنْهَارِ مُعَرَّفَةً بِالْإِضَافَةِ لِلْجَنَّاتِ وَبَيْنَ أَنْ يُعَرِّفَهَا بِأَلِ الْعَهْدِيَّةِ عَهْدًا تَقْدِيرِيًّا، وَاخْتِيرَ الثَّانِي تَفَادِيًا مِنْ كُلْفَةِ الْإِضَافَةِ وَتَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْأَنْهَارَ نِعْمَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ جَدِيرَةٌ بِأَنْ لَا يَكُونَ التَّنَعُّمُ بِهَا تَبَعًا لِلتَّنَعُّمِ بِالْجَنَّاتِ وَلَيْسَ مُرَادُهُ أَنَّ أَلْ عِوَضٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ عَلَى طَرِيقَةِ نُحَاةِ الْكُوفَةِ، لِأَنَّهُ قَدْ أَبَاهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[[565]](#footnote-565).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)

**وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ الْإِضَافَةَ وَاللَّامَ مُتَعَاقِبَتَانِ هُنَا وَلَيْسَ ذَلِكَ صَالِحًا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ، عَلَى أَنِّي أَرَى مَذْهَبَ الْكُوفِيِّينَ مَقْبُولًا وَأَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا إِلَّا بَيَانَ حَاصِلِ الْمَعْنَى مِنْ ذَلِكَ التَّعْرِيفِ، فَإِنَّ تَقْدِيرَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمُضَافَ الْمَذْكُورَ كَالْمَعْهُودِ، فَأُدْخِلَتْ عَلَيْهِ لَامُ التَّعْرِيفِ الْعَهْدِيِّ.**

**وَعِنْدِي أَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى التَّعْرِيفِ هُوَ التَّفَنُّنُ لِئَلَّا يُعَادَ التَّنْكِيرُ مَرَّةً ثَانِيَةً فَخُولِفَ بَيْنَهُمَا فِي اللَّفْظِ اقْتِنَاعًا بِسُورَةِ التَّعْرِيفِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**مِنْ تَحْتِهَا﴾[[566]](#footnote-566)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**يَظْهَرُ أَنَّهُ قَيْدٌ كَاشِفٌ قُصِدَ مِنْهُ زِيَادَةُ إِحْضَارِ حَالَةِ جَرْيِ الْأَنْهَارِ، إِذِ الْأَنْهَارُ لَا تَكُونُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ تَجْرِي مِنْ فَوْقُ، فَهَذَا الْوَصْفُ جِيءَ بِهِ لِتَصْوِيرِ الْحَالَةِ لِلسَّامِعِ لِقَصْدِ التَّرْغِيبِ.**

**وَهَذَا مِنْ مَقَاصِدِ الْبُلَغَاءِ، إِذْ لَيْسَ الْبَلِيغُ يَقْتَصِرُ عَلَى مُجَرَّدِ الْإِفْهَامِ.**

**وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا: قَوْلُ النَّابِغَةِ يَصِفُ فَرَسَ الصَّائِدِ وَكِلَابَهُ.**

**مِنْ حِسِّ أَطْلَسَ تَسْعَى تَحْتَهُ شِرَعٌ     كَأَنَّ أَحْنَاكَهَا السُّفْلَى مَآشِيرُ**

**وَالتَّحْتُ اسْمٌ لِجِهَةِ الْمَكَانِ الْأَسْفَلِ وَهُوَ ضِدُّ الْأَعْلَى.**

**وَلِكُلِّ مَكَانِ عُلُوٌّ وَسُفْلٌ، وَلَا يَقْتَضِي ذَلِكَ ارْتِفَاعَ مَا أُضِيفَ إِلَيْهِ التَّحْتُ عَلَى التَّحْتِ، بَلْ غَايَةُ مَدْلُولِهِ أَنَّهُ بِجِهَةِ سُفْلِهِ.**

**قَالَ –تَعَالَى- حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ: ﴿**[**وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾[[567]](#footnote-567)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)**فَلَا حَاجَةَ إِلَى تَأْوِيلِ الْجَنَّةِ هُنَا بِالْأَشْجَارِ لِتَصْحِيحِ التَّحْتِ وَلَا إِلَى غَيْرِهِ مِنَ التَّكَلُّفَاتِ.**

**قَوْلُهُ -تَعَالَى-:**

**﴿**[**كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=66#docu)

**وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[[568]](#footnote-568)**

**جُمْلَةُ: ﴿**[**كُلَّمَا رُزِقُوا﴾[[569]](#footnote-569)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=66#docu)**يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ صِفَةً ثَانِيَةً لِـ ﴿جَنَّاتٍ﴾[[570]](#footnote-570) وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ خَبَرًا عَنْ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَهُوَ ضَمِيرُ الَّذِينَ آمَنُوا، فَتَكُونَ جُمْلَةً ابْتِدَائِيَّةً الْغَرَضُ مِنْهَا بَيَانُ شَأْنٍ آخَرَ مِنْ شُئُونِ الَّذِينَ آمَنُوا، وَلِكَمَالِ الِاتِّصَالِ بَيْنَهَا وَبِينَ جُمْلَةِ: ﴿**[**أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾[[571]](#footnote-571)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=66#docu)**فُصِلَتْ عَنْهَا كَمَا تُفْصَلُ الْأَخْبَارُ الْمُتَعَدِّدَةُ.**

**وَكُلَّمَا ظَرْفُ زَمَانٍ، لِأَنَّ "كُلَّ" أُضِيفَتْ إِلَى "مَا" الظَّرْفِيَّةِ الْمَصْدَرِيَّةِ فَصَارَتْ لِاسْتِغْرَاقِ الْأَزْمَانِ الْمُقَيَّدَةِ بِصِلَةِ مَا الْمَصْدَرِيَّةِ وَقَدْ أُشْرِبَتْ مَعْنَى الشَّرْطِ، لِذَلِكَ فَإِنَّ الشَّرْطَ لَيْسَ إِلَّا تَعْلِيقًا عَلَى الْأَزْمَانِ مُقَيَّدَةً بِمَدْلُولِ فِعْلِ الشَّرْطِ، وَلِذَلِكَ خَرَجَتْ كَثِيرٌ مِنْ كَلِمَاتِ الْعُمُومِ إِلَى مَعْنَى الشَّرْطِ عِنْدَ اقْتِرَانِهَا بِمَا الظَّرْفِيَّةِ نَحْوِ كَيْفَمَا وَحَيْثُمَا وَأَنَّمَا وَأَيْنَمَا وَمَتَى وَمَا وَمَهْمَا.**

**وَالنَّاصِبُ لِكُلَّمَا الْجَوَابُ، لِأَنَّ الشَّرْطِيَّةَ طَارِئَةٌ عَلَيْهَا طَرَيَانًا غَيْرَ مُطَّرِدٍ بِخِلَافِ مَهْمَا وَأَخَوَاتِهَا.**

**وَإِذْ كَانَتْ كُلَّمَا نَصًّا فِي عُمُومِ الْأَزْمَانِ تَعَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾[[572]](#footnote-572) الْمَبْنِيَّ عَلَى الضَّمِّ هُوَ عَلَى تَقْدِيرِ مُضَافٍ ظَاهِرِ التَّقْدِيرِ، أَيْ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْمَرَّةِ، فَيَقْتَضِي أَنَّ ذَلِكَ دَيْدَنُ صِفَاتِ ثَمَرَاتِهِمْ أَنْ تَأْتِيَهُمْ فِي صُوَرِ مَا قُدِّمَ إِلَيْهِمْ فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ. وَهَذَا إِمَّا أَنْ يَكُونَ حِكَايَةً لِصِفَةِ ثِمَارِ الْجَنَّةِ وَلَيْسَ فِيهِ قَصْدُ امْتِنَانٍ خَاصٍّ فَيَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّ ثِمَارَ الْجَنَّةِ مُتَّحِدَةُ الصُّورَةِ مُخْتَلِفَةُ الطُّعُومِ.**

**وَوَجْهُ ذَلِكَ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَشْكَالِ فِي الدُّنْيَا نَشَأَ مِنِ اخْتِلَافِ الْأَمْزِجَةِ وَالتَّرَاكِيبِ فَأَمَّا مَوْجُودَاتُ الْآخِرَةِ، فَإِنَّهَا عَنَاصِرُ الْأَشْيَاءِ، فَلَا يَعْتَوِرُهَا الشَّكْلُ وَإِنَّمَا يَجِيءُ فِي شَكْلٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الشَّكْلُ الْعُنْصُرِيُّ.**

**وَيَحْتَمِلُ أَنَّ فِي ذَلِكَ تَعْجِيبًا لَهُمْ وَالشَّيْءُ الْعَجِيبُ لَذِيذُ الْوَقْعِ عِنْدَ النُّفُوسِ وَلِذَلِكَ يَرْغَبُ النَّاسُ فِي مُشَاهَدَةِ الْعَجَائِبِ وَالنَّوَادِرِ.**

**وَهَذَا الِاحْتِمَالُ هُوَ الْأَظْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ.**

**وَيَحْتَمِلُ أَنَّ كَلَّمَا لِعُمُومِ غَيْرِ الزَّمَنِ الْأَوَّل،ِ فَهُوَ عَامٌّ مُرَادٌ بِهِ الْخُصُوصُ بِالْقَرِينَةِ، وَمَعْنَى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾[[573]](#footnote-573) فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ.**

**وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ حَمَلَ قَوْلَهُ: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾[[574]](#footnote-574) عَلَى تَقْدِيرِ مِنْ قَبْلِ دُخُولِ الْجَنَّة،ِ أَيْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَوَجْهُهُ فِي *الْكَشَّافِ* بِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِالْمَأْلُوفِ آنَسُ، وَهُوَ بَعِيدٌ لِاقْتِضَائِهِ أَنْ يَكُونَ عُمُومُ كُلَّمَا مُرَادًا بِهِ خُصُوصُ الْإِتْيَانِ بِهِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى فِي الْجَنَّةِ، وَلِأَنَّهُ يَقْتَضِي اخْتِلَافَ الطَّعْمِ وَاخْتِلَافَ الْأَشْكَالِ وَهَذَا أَضْعَفُ فِي التَّعْجِيبِ، وَلِأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْ لَا يَعْرِفُ جَمِيعَ أَصْنَافِ الثِّمَارِ فَيَقْتَضِي تَحْدِيدَ الْأَصْنَافِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾[[575]](#footnote-575)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=66#docu)**ظَاهِرٌ فِي أَنَّ التَّشَابُهَ بَيْنَ الْمَأْتِيِّ بِهِ لَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ثِمَارِ الدُّنْيَا. ثُمَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِنِعْمَةِ التَّأَنُّسِ بِالْأَزْوَاجِ وَنَزَّهَ النِّسَاءَ عَنْ عَوَارِضِ نِسَاءِ الدُّنْيَا مِمَّا تَشْمَئِزُّ مِنْهُ النَّفْسُ لَوْلَا النِّسْيَانُ، فَجَمَعَ لَهُمْ سُبْحَانَهُ اللَّذَّاتِ عَلَى نَحْوِ مَا أَلِفُوهُ، فَكَانَتْ نِعْمَةً عَلَى نِعْمَةٍ.**

**وَالْأَزْوَاجُ جَمْعُ زَوْجٍ يُقَالُ لِلذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، لِأَنَّهُ جَعَلَ الْآخَرَ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُنْفَرِدًا زَوْجًا، وَقَدْ يُقَالُ لِلْأُنْثَى: زَوْجَةً بِالتَّاءِ، وَوَرَدَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ**[**عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=56)**فِي**[**الْبُخَارِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12070)[**إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=66#docu)**يَعْنِي: عَائِشَةَ.**

**وَقَالَ**[**الْفَرَزْدَقُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14899)**:**

**وَإِنَّ الَّذِي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي كَسَاعٍ إِلَى أُسْدِ الشَّرَى يَسْتَمِيلُهَا**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[[576]](#footnote-576)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=66#docu)**احْتِرَاسٌ مِنْ تَوَهُّمِ الِانْقِطَاعِ بِمَا تَعَوَّدُوا مِنِ انْقِطَاعِ اللَّذَّاتِ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّ جَمِيعَ اللَّذَّاتِ فِي الدُّنْيَا مُعَرَّضَةٌ لِلزَّوَالِ، وَذَلِكَ يُنَغِّصُهَا عِنْدَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:**

**أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ     تَحَقَّقَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالَا**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**مُطَهَّرَةٌ﴾[[577]](#footnote-577)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=66#docu)**هُوَ بِزِنَةِ الْإِفْرَادِ، وَكَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يُقَالَ مُطَهَّرَاتٍ كَمَا قُرِئَ بِذَلِكَ وَلَكِنَّ الْعَرَبَ تَعْدِلُ عَنِ الْجَمْعِ مَعَ التَّأْنِيثِ كَثِيرًا لِثِقْلِهِمَا، لِأَنَّ التَّأْنِيثَ خِلَافُ الْمَأْلُوفِ وَالْجَمْعُ كَذَلِكَ، فَإِذَا اجْتَمَعَا تَفَادَوْا عَنِ الْجَمْعِ بِالْإِفْرَادِ وَهُوَ كَثِيرٌ شَائِعٌ فِي كَلَامِهِمْ لَا يَحْتَاجُ لِلِاسْتِشْهَادِ.**

**﴿**[**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[[578]](#footnote-578)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)

**قَدْ يَبْدُو فِي بَادِئِ النَّظَرِ عَدَمُ التَّنَاسُبِ بَيْنَ مَسَاقِ الْآيَاتِ السَّالِفَةِ وَمَسَاقِ هَاتِهِ الْآيَةِ فَبَيْنَمَا كَانَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ ثَنَاءً عَلَى هَذَا الْكِتَابِ الْمُبِينِ، وَوَصْفَ حَالَيِ الْمُهْتَدِينَ بِهَدْيِهِ وَالنَّاكِبِينَ عَنْ صِرَاطِهِ وَبَيَانَ إِعْجَازِهِ وَالتَّحَدِّي بِهِ مَعَ مَا تَخَلَّلَ، وَأَعْقَبَ ذَلِكَ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالزَّوَاجِرِ النَّافِعَةِ وَالْبَيَانَاتِ الْبَالِغَةِ وَالتَّمْثِيلَاتِ الرَّائِعَةِ، إِذَا بِالْكَلَامِ قَدْ جَاءَ بِخَبَرٍ بِأَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- لَا يَعْبَأُ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا بِشَيْءٍ حَقِيرٍ أَوْ غَيْرِ حَقِيرٍ.**

**فَحَقِيقٌ بِالنَّاظِرِ عِنْدَ التَّأَمُّلِ أَنْ تَظْهَرَ لَهُ الْمُنَاسِبَةُ لِهَذَا الِانْتِقَالِ: ذَلِكَ أَنَّ الْآيَاتِ السَّابِقَةَ اشْتَمَلَتْ عَلَى تَحَدِّي الْبُلَغَاءِ بِأَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِ الْقُرْآنِ. فَلَمَّا عَجَزُوا عَنْ مُعَارَضَةِ النَّظْمِ سَلَكُوا فِي الْمُعَارَضَةِ طَرِيقَةَ الطَّعْنِ فِي الْمَعَانِي فَلَبَّسُوا عَلَى النَّاسِ بِأَنَّ فِي الْقُرْآنِ مِنْ سَخِيفِ الْمَعْنَى مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ كَلَامُ اللَّهِ لِيَصِلُوا بِذَلِكَ إِلَى إِبْطَالِ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِإِلْقَاءِ الشَّكِّ فِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ وَبَذْرِ الْخَصِيبِ فِي تَنْفِيرِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ.**

**رَوَى الْوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ عَنِ**[**ابْنِ عَبَّاسٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=11)**أَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- لَمَّا أَنْزَلَ قَوْلَهُ: ﴿**[**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**﴾[[579]](#footnote-579)، وَقَوْلُهُ: ﴿**[**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾[[580]](#footnote-580).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)

**قَالَ الْمُشْرِكُونَ: أَرَأَيْتُمْ أَيَّ شَيْءٍ يُصْنَعُ بِهَذَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿**[**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[[581]](#footnote-581).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)

**وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا ذَكَرَ الذُّبَابَ وَالْعَنْكَبُوتَ فِي كِتَابِهِ وَضَرَبَ بِهَا الْمَثَلَ ضَحِكَ الْيَهُودُ، وَقَالُوا: مَا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا كَلَامَ اللَّهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿**[**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾[[582]](#footnote-582)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**الْآيَةَ.**

**وَالْوَجْهُ: أَنْ نَجْمَعَ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ وَنُبَيِّنَ مَا انْطَوَتَا عَلَيْهِ بِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَفْزَعُونَ إِلَى يَهُودِ يَثْرِبَ فِي التَّشَاوُرِ فِي شَأْنِ نُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم-َ، وَخَاصَّةً بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ النَّبِيءُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى الْمَدِينَةِ، فَيَتَلَقَّوْنَ مِنْهُمْ صُوَرًا مِنَ الْكَيْدِ وَالتَّشْغِيبِ، فَيَكُونُ قَدْ تَظَاهَرَ الْفَرِيقَانِ عَلَى الطَّعْنِ فِي بَلَاغَةِ ضَرْبِ الْمَثَلِ بِالْعَنْكَبُوتِ وَالذُّبَابِ.**

**فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ –تَعَالَى- تَمْثِيلَ الْمُنَافِقِينَ بِالَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا، وَكَانَ مُعْظَمُهُمْ مِنَ الْيَهُودِ هَاجَتْ أَحْنَاقُهُمْ وَضَاقَ خِنَاقُهُمْ فَاخْتَلَفُوا هَذِهِ الْمَطَاعِنَ، فَقَالَ: كُلُّ فَرِيقٍ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ وَنَزَلَتِ الْآيَةُ لِلرَّدِّ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ وَوَضَحَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ.**

**فَيَحْتَمِلُ أَنَّ ذَلِكَ قَالَهُ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ الَّذِينَ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ، أَوْ قَدْ قَالُوهُ مَعَ عِلْمِهِمْ بِفُنُونِ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ مُكَابِرَةً وَتَجَاهُلًا. وَكَوْنُ الْقَائِلِينَ هُمُ الْيَهُودَ هُوَ الْمُوَافِقُ لِكَوْنِ السُّورَةِ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ أَشَدَّ الْمُعَانِدِينَ فِيهَا هُمُ الْيَهُودُ، وَلِأَنَّهُ الْأَوْفَقُ بِقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾[[583]](#footnote-583)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**وَهَذِهِ صِفَةُ الْيَهُودِ، وَلِأَنَّ الْيَهُودَ قَدْ شَاعَ بَيْنَهُمُ التَّشَاؤُمُ وَالْغُلُوُّ فِي الْحَذَرِ مِنْ مَدْلُولَاتِ الْأَلْفَاظِ حَتَّى اشْتَهَرُوا بِاسْتِعْمَالِ الْكَلَامِ الْمُوَجَّهِ بِالشَّتْمِ وَالذَّمِّ كَقَوْلِهِمْ: "رَاعِنَا"، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾[[584]](#footnote-584)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**كَمَا وَرَدَ تَفْسِيرُهُ فِي الصَّحِيحِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ الْعَرَبِ.**

**وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَائِلُهُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِوُقُوعِ مِثْلِهِ فِي كَلَامِ بُلَغَائِهِمْ كَقَوْلِهِمْ: أَجْرَأُ مِنْ ذُبَابَةٍ، وَأَسْمَعُ مِنْ قُرَادٍ، وَأَطْيَشُ مِنْ فَرَاشَةٍ، وَأَضْعَفُ مِنْ بَعُوضَةٍ. وَهَذَا الِاحْتِمَالُ أَدَلُّ، عَلَى أَنَّهُمْ مَا قَالُوا: مَا هَذَا التَّمْثِيلُ؟ إِلَّا مُكَابَرَةً وَمُعَانِدَةً، فَإِنَّهُمْ لَمَّا غُلِبُوا بِالتَّحَدِّي، وَعَجَزُوا عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ تَعَلَّقُوا فِي مَعَاذِيرِهِمْ بِهَاتِهِ السَّفَاسِفِ، وَالْمُكَابِرُ يَقُولُ مَا لَا يَعْتَقِدُ، وَالْمَحْجُوجُ الْمَبْهُوتُ يَسْتَعْوِجُ الْمُسْتَقِيمَ وَيُخْفِي الْوَاضِحَ، وَإِلَى هَذَا الثَّانِي يَنْزِعُ كَلَامُ صَاحِبِ *الْكَشَّافِ*، وَهُوَ أَوْفَقُ بِالسِّيَاقِ.**

**وَالسُّورَةُ وَإِنْ كَانَتْ مَدَنِيَّةً فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَزَالُوا يُلْقُونَ الشُّبَهَ فِي صِحَّةِ الرِّسَالَةِ وَيُشِيعُونَ ذَلِكَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ بِوَاسِطَةِ الْمُنَافِقِينَ. وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ بَعْدَهُ: ﴿**[**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[[585]](#footnote-585)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾[[586]](#footnote-586).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)

**فَإِنْ قِيلَ: لَمْ يَكُنِ الرَّدُّ عَقِبَ نُزُولِ الْآيَاتِ الْوَاقِعِ فِيهَا التَّمْثِيلُ الَّذِي أَنْكَرُوهُ فَإِنَّ الْبِدَارَ بِالرَّدِّ عَلَى مَنْ فِي مَقَالِهِ شُبْهَةٌ رَائِحَةٌ يَكُونُ أَقْطَعَ لِشُبْهَتِهِ مِنْ تَأْخِيرِهِ زَمَانًا.**

**قُلْنَا: الْوَجْهُ فِي تَأْخِيرِ نُزُولِهَا أَنْ يَقَعَ الرَّدُّ بَعْدَ الْإِتْيَانِ بِأَمْثَالٍ مُعْجَبَةٍ اقْتَضَاهَا مَقَامُ تَشْبِيهِ الْهَيْئَاتِ، فَذَلِكَ كَمَا يَمْنَعُ الْكَرِيمُ عَدُوَّهُ مِنْ عَطَاءٍ، فَيَلْمِزُهُ الْمَمْنُوعُ بِلَمْزِ الْبُخْلِ، أَوْ يَتَأَخَّرُ الْكَمِيُّ عَنْ سَاحَةِ الْقِتَالِ مَكِيدَةً فَيَظُنُّهُ نَاسٌ جُبْنًا فَيُسِرُّهَا الْأَوَّلُ فِي نَفْسِهِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْقَاصِدُ، فَيُعْطَيهِ عَطَاءً جَزْلًا، وَالثَّانِي حَتَّى يَكُرَّ كَرَّةً تَكُونُ الْقَاضِيَةَ عَلَى قَرْنِهِ. فَكَذَلِكَ لَمَّا أَتَى الْقُرْآنُ بِأَعْظَمِ الْأَمْثَالِ وَأَرْوَعِهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿**[**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ أَوْ كَصَيِّبٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**﴾[[587]](#footnote-587) الْآيَاتِ، وَقَوْلُهُ: ﴿**[**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[[588]](#footnote-588)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**أَتَى إِثْرَ ذَلِكَ بِالرَّدِّ عَلَيْهِمْ، فَهَذَا يُبَيِّنُ لَكَ مُنَاسِبَةَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ عَقِبَ الَّتِي قَبْلَهَا، وَقَدْ غَفَلَ عَنْ بَيَانِهِ الْمُفَسِّرُونَ.**

**وَالْمُرَادُ بِالْمَثَلِ هُنَا الشَّبَهُ مُطْلَقًا لَا خُصُوصَ الْمُرَكَّبِ مِنَ الْهَيْئَةِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ فِيمَا سَبَقَ: ﴿**[**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[[589]](#footnote-589)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**لِأَنَّ الْمَعْنِيَّ هُنَا مَا طَعَنُوا بِهِ فِي تَشَابِيهِ الْقُرْآنِ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿**[**لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾[[590]](#footnote-590)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**وَقَوْلِهِ: ﴿**[**كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾[[591]](#footnote-591)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**وَمَوْقِعُ إِنَّ هُنَا بَيِّنٌ.**

**وَأَمَّا الْإِتْيَانُ بِالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَمًا دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الصِّفَاتِ، فَلِأَنَّ هَذَا الْعَلَمَ جَامِعٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ فَذِكْرُهُ أَوْقَعُ فِي الْإِقْنَاعِ بِأَنَّ كَلَامَهُ هُوَ أَعْلَى كَلَامٍ فِي مُرَاعَاةِ مَا هُوَ حَقِيقٌ بِالْمُرَاعَاةِ.**

**وَفِي ذَلِكَ أَيْضًا إِبْطَالٌ لِتَمْوِيهِهِمْ بِأَنَّ اشْتِمَالَ الْقُرْآنِ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْمَثَلِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَلَيْسَ مِنْ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَحْيِيَ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ.**

**وَلِهَذَا أَيْضًا اخْتِيرَ أَنْ يَكُونَ الْمُسْنَدُ خُصُوصَ فِعْلِ الِاسْتِحْيَاءِ زِيَادَةً فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا التَّمْثِيلَ بِهَاتِهِ الْأَشْيَاءِ لِمُرَاعَاةِ كَرَاهَةِ النَّاسِ، وَمِثْلُ هَذَا ضَرْبٌ مِنَ الِاسْتِحْيَاءِ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ، فَنُبِّهُوا عَلَى أَنَّ الْخَالِقَ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ ذَلِكَ إِذْ لَيْسَ مِمَّا يُسْتَحْيَى مِنْهُ، وَلِأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ مُتَسَاوِيَةٌ فِي الضَّعْفِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى خَالِقِهَا وَالْمُتَصَرِّفِ فِيهَا، وَقَدْ يَكُونُ ذِكْرُ الِاسْتِحْيَاءِ هُنَا مُحَاكَاةً لِقَوْلِهِمْ أَمَا يَسْتَحْيِي رَبُّ مُحَمَّدٍ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا بِالذُّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ.**

**فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا كَانَ اسْتِعْمَالُ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى مَعَانٍ حَقِيرَةٍ غَيْرَ مُخِلٍّ بِالْبَلَاغَةِ فَمَا بَالُنَا نَرَى كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ النَّقْدِ قَدْ نَقَدُوا مِنْ كَلَامِ الْبُلَغَاءِ مَا اشْتَمَلَ عَلَى مَثَلٍ هَذَا كَقَوْلِ**[**الْفَرَزْدَقِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14899)**:**

**مِنْ عِزِّهِمْ حَجَرَتْ كُلَيْبٌ بَيْتَهَا زَرْبًا كَأَنَّهُمُ لَدَيْهِ الْقُمَّـــــــــلُ**

**وَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:**

**أَمَاتَكُمُ مِنْ قَبْلِ مَوْتِكُمُ الْجَهْلُ     وَجَرَّكُمُ مِنْ خِفَّةٍ بِكُمُ النَّمْــلُ**

**وَقَوْلِ الطِّرِمَّاحِ:**

**وَلَوْ أَنَّ بُرْغُوثًا عَلَى ظَهْرِ قَمْلَةٍ     يَكُرُّ عَلَى ضَبْعَيْ تَمِيمٍ لَوَلَّــتِ**

**قُلْتُ: أُصُولُ الِانْتِقَادِ الْأَدَبِيِّ تُؤَوَّلُ إِلَى بَيَانِ مَا لَا يَحْسُنُ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَيْهِ كَلَامُ الْأَدِيبِ مِنْ جَانِبِ صِنَاعَةِ الْكَلَامِ، وَمِنْ جَانِبِ صُوَرِ الْمَعَانِي، وَمِنْ جَانِبِ الْمُسْتَحْسَنِ مِنْهَا وَالْمَكْرُوهِ، وَهَذَا النَّوْعُ الثَّالِثُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْعَوَائِدِ وَمَدَارِكِ الْعُقُولِ وَأَصَالَةِ الْأَفْهَامِ بِحَسَبِ الْغَالِبِ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ صِنَاعَةِ الْأَدَبِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ اللَّفْظُ مَقْبُولًا عِنْدَ قَوْمٍ غَيْرَ مَقْبُولٍ عِنْدَ أَخِرَيْنِ، وَمَقْبُولًا فِي عَصْرٍ مَرْفُوضًا فِي غَيْرِهِ.**

**أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ النَّابِغَةِ يُخَاطِبُ الْمَلِكَ النُّعْمَانَ:**

**فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي     وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ**

**فَإِنَّ تَشْبِيهَ الْمَلِكِ بِاللَّيْلِ لَوْ وَقَعَ فِي زَمَانِ الْمُوَلَّدِينَ لَعُدَّ مِنَ الْجَفَاءِ أَوِ الْعَجْرَفَةِ، وَكَذَلِكَ تَشْبِيهُهُمْ بِالْحَيَّةِ فِي الْإِقْدَامِ وَإِهْلَاكِ الْعَدُوِّ فِي قَوْلِ ذِي الْإِصْبَعِ:**

**عَذِيرَ الْحَيِّ مِنْ عَدَوَا     نَ كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ**

**وَقَوْلِ النَّابِغَةِ فِي رِثَاءِ الْحَارِثِ الْغَسَّانِيِّ:**

**مَاذَا رُزِئْنَا بِهِ مِنْ حَيَّةٍ ذَكَــــــــــــــــــرٍ     نَضْنَاضَةٍ بِالرَّزَايَا صِلِّ أَصْلَالِ**

**وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ الْجَهْمِ مَدَحَ**[**الْخَلِيفَةَ الْمُتَوَكِّلَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15156)**بِقَوْلِهِ:**

**أَنْتَ كَالْكَلْبِ فِي وَفَائِكَ بِالْعَهْ     دِ وَكَالتَّيْسِ فِي قِرَاعِ الْخُطُـــــوبِ**

**وَأَنَّهُ لَمَّا سَكَنَ بَغْدَادَ وَعَلِقَتْ نَضَارَةُ النَّاسِ بِخَيَالِهِ قَالَ فِي أَوَّلِ مَا قَالَهُ:**

**عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرَّصَافَةِ وَالْجِسْـــــــــــرِ     جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي**

**وَقَدِ انْتَقَدَ بَشَّارٌ عَلَى كُثَيِّرٍ قَوْلَهُ:**

**أَلَا إِنَّمَا لَيْلَى عَصَا خَيْزُرَانَةٌ     إِذَا لَمَسُوهَا بِالْأَكُفِّ تَلِينُ**

**فَقَالَ، لَوْ جَعَلَهَا عَصَا مُخٍّ أَوْ عَصَا زُبْدٍ لَمَا تَجَاوَزَ مِنْ أَنْ تَكُونَ عَصَا، عَلَى أَنَّ بَشَّارًا هُوَ الْقَائِلُ:**

**إِذَا قَامَتْ لِجَارَتِهَا تَثَنَّــــــــتْ    كَأَنَّ عِظَامَهَا مِنْ خَيْـــــــــــزُرَانِ**

**وَشَبَّهَ بِشَارٌ عَبْدَةَ بِالْحَيَّةِ فِي قَوْلِهِ:**

**وَكَأَنَّهَا لَمَّا مَشَتْ     أَيْمٌ تَأَوَّدَ فِي كَثِيبْ**

**وَالِاسْتِحْيَاءُ وَالْحَيَاءُ وَاحِدٌ، فَالسِّينُ وَالتَّاءُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ مِثْلُ اسْتَقْدَمَ وَاسْتَأْخَرَ وَاسْتَجَابَ. وَهُوَ انْقِبَاضُ النَّفْسِ مِنْ صُدُورِ فِعْلٍ أَوْ تَلَقِّيهِ لِاسْتِشْعَارِ أَنَّهُ لَا يَلِيقُ أَوْ لَا يَحْسُنُ فِي مُتَعَارَفِ أَمْثَالِهِ، فَهُوَ هَيْئَةٌ تَعْرِضُ لِلنَّفْسِ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الِانْفِعَالِ يَظْهَرُ أَثَرُهَا عَلَى الْوَجْهِ، وَفِي الْإِمْسَاكِ عَنْ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَفْعَلَ.**

**وَالِاسْتِحْيَاءُ هُنَا مَنْفِيٌّ عَنْ أَنْ يَكُونَ وَصْفًا لِلَّهِ –تَعَالَى- فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلٍ فِي صِحَّةِ إِسْنَادِهِ إِلَى اللَّهِ، وَالتَّعَلُّلُ لِذَلِكَ بِأَنَّ نَفْيَ الْوَصْفِ يَسْتَلْزِمُ صِحَّةَ الِاتِّصَافِ تَعَلُّلٌ غَيْرُ مُسَلَّمٍ.**

**وَالضَّرْبُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾[[592]](#footnote-592)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**مُسْتَعْمَلٌ مَجَازًا فِي الْوَضْعِ وَالْجَعْلِ مِنْ قَوْلِهِمْ: ضَرَبَ خَيْمَةً وَضَرَبَ بَيْتًا.**

**قَالَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّبِيبِ:**

**إِنَّ الَّتِي ضَرَبَتْ بَيْتًا مُهَاجِـــــــــــــــــــــــــــرَةً     بِكُوفَةِ الْجُنْدِ غَالَتْ وُدَّهَا غُــــــــــولُ**

**وَقَوْلُ**[**الْفَرَزْدَقِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14899)**:**

**ضَرَبَتْ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا     وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الْكِتَابُ الْمُنْزَلُ**

**أَيْ جَعَلَ شَيْئًا مَثَلًا أَيْ شَبَهًا، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**أَيْ لَا تَجْعَلُوا لَهُ مُمَاثِلًا مِنْ خَلْقِهِ، فَانْتِصَابُ مَثَلًا عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، وَجَوَّزَ بَعْضُ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ أَنْ يَكُونَ فِعْلُ ضَرَبَ مُشْتَقًّا مِنَ الضَّرْبِ بِمَعْنَى الْمُمَاثِلِ، فَانْتِصَابُ مَثَلًا عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ لِلتَّوْكِيدِ لِأَنَّ مَثَلًا مُرَادِفٌ مَصْدَرَ فِعْلِهِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ.**

**وَالْمَعْنَى: لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يُشَبِّهَ بِشَيْءٍ مَا. وَالْمَثَلُ الْمَثِيلُ وَالْمُشَابِهُ، وَغَلَبَ عَلَى مُمَاثَلَةِ هَيْئَةٍ بِهَيْئَةٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[[593]](#footnote-593)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**وَتَقَدَّمَ هُنَاكَ مَعْنَى ضَرْبِ الْمَثَلِ بِالْمَعْنَى الْآخَرِ، وَتَنْكِيرُ (مَثَلًا) لِلتَّنْوِيعِ بِقَرِينَةِ بَيَانِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿بَعُوضَةً﴾[[594]](#footnote-594) فَمَا فَوْقَهَا.**

**وَمَا إِبْهَامِيَّةٌ تَتَّصِلُ بِالنَّكِرَةِ فَتُؤَكِّدُ مَعْنَاهَا مِنْ تَنْوِيعٍ أَوْ تَفْخِيمٍ أَوْ تَحْقِيرٍ، نَحْوِ: لِأَمْرٍ مَا، وَأَعْطَاهُ شَيْئًا مَا. وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا مَزِيدَةٌ لِتَكُونَ دَلَالَتُهَا عَلَى التَّأْكِيدِ أَشَدَّ، وَقِيلَ اسْمٌ بِمَعْنَى النَّكِرَةِ الْمُبْهَمَةِ.**

**وَ﴿بَعُوضَةً﴾[[595]](#footnote-595) بَدَلٌ أَوْ بَيَانٌ مِنْ قَوْلِهِ مَثَلًا وَالْبَعُوضَةُ وَاحِدَةُ الْبَعُوضِ وَهِيَ حَشَرَةٌ صَغِيرَةٌ طَائِرَةٌ ذَاتُ خُرْطُومٍ دَقِيقٍ تَحُومُ عَلَى الْإِنْسَانِ لِتَمْتَصَّ بِخُرْطُومِهَا مِنْ دَمِهِ غِذَاءً لَهَا، وَتُعْرَفُ فِي لُغَةِ هُذَيْلٍ بِالْخُمُوشِ، وَأَهْلُ تُونِسَ يُسَمُّونَهُ النَّامُوسَ وَاحِدَتُهُ النَّامُوسَةُ، وَقَدْ جُعِلَتْ هُنَا مَثَلًا لِشِدَّةِ الضَّعْفِ وَالْحَقَارَةِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**فَمَا فَوْقَهَا﴾[[596]](#footnote-596)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**عُطِفَ عَلَى بَعُوضَةً وَأَصْلُ (فَوْقَ) اسْمٌ لِلْمَكَانِ الْمُعْتَلِي عَلَى غَيْرِهِ فَهُوَ اسْمٌ مُبْهَمٌ، فَلِذَلِكَ كَانَ مُلَازِمًا لِلْإِضَافَةِ لِأَنَّهُ تَتَمَيَّزُ جِهَتُهُ بِالِاسْمِ الَّذِي يُضَافُ هُوَ إِلَيْهِ، فَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ الْجِهَاتِ الْمُلَازِمَةِ لِلْإِضَافَةِ لَفْظًا أَوْ تَقْدِيرًا، وَيُسْتَعْمَلُ مَجَازًا فِي الْمُتَجَاوِزِ غَيْرَهُ فِي صِفَةٍ تَجَاوُزًا ظَاهِرًا تَشْبِيهًا بِظُهُورِ الشَّيْءِ الْمُعْتَلِي عَلَى غَيْرِهِ عَلَى مَا هُوَ مُعْتَلٍ عَلَيْهِ، فَفَوْقَ فِي مِثْلِهِ يُسْتَعْمَلُ فِي مَعْنَى التَّغَلُّبِ وَالزِّيَادَةِ فِي صِفَةٍ سَوَاءٌ كَانَتْ مِنَ الْمَحَامِدِ أَوْ مِنَ الْمَذَامِّ، يُقَالُ: فُلَانٌ خَسِيسٌ وَفَوْقَ الْخَسِيسِ وَفُلَانٌ شُجَاعٌ وَفَوْقَ الشُّجَاعِ، وَتَقُولُ أُعْطِيَ فُلَانٌ فَوْقَ حَقِّهِ أَيْ زَائِدًا عَلَى حَقِّهِ. وَهُوَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ صَالِحٌ لِلْمَعْنَيَيْنِ، أَيْ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ الْبَعُوضَةِ فِي الْحَقَارَةِ وَمَا هُوَ أَكْبَرُ حَجْمًا.**

**وَنَظِيرُهُ قَوْلُ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:**[**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**رَوَاهُ مُسْلِمٌ، يَحْتَمِلُ أَقَلَّ مِنَ الشَّوْكَةِ فِي الْأَذَى مِثْلَ نُخْبَةِ النَّمْلَةِ -كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ- أَوْ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ الشَّوْكَةِ مِثْلُ الْوَخْزِ بِسِكِّينٍ، وَهَذَا مِنْ تَصَارِيفِ لَفْظِ فَوْقَ فِي الْكَلَامِ، وَلِذَلِكَ كَانَ لِاخْتِيَارِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دُونَ لَفْظِ أَقَلَّ، وَدُونَ لَفْظِ أَقْوَى مَثَلًا مَوْقِعٌ مِنْ بَلِيغِ الْإِيجَازِ.**

**وَالْفَاءُ عَاطِفَةٌ مَا فَوْقَهَا عَلَى بَعُوضَةً أَفَادَتْ تَشْرِيكَهُمَا فِي ضَرْبِ الْمَثَلِ بِهِمَا، وَحَقُّهَا أَنْ تُفِيدَ التَّرْتِيبَ وَالتَّعْقِيبَ، وَلَكِنَّهَا هُنَا لَا تُفِيدُ التَّعْقِيبَ وَإِنَّمَا اسْتُعْمِلَتْ فِي مَعْنَى التَّدَرُّجِ فِي الرُّتَبِ بَيْنَ مَفَاعِيلِ ﴿**[**أَنْ يَضْرِبَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)**﴾[[597]](#footnote-597)، وَلَا تُفِيدُ أَنَّ ضَرْبَ الْمَثَلِ يَكُونُ بِالْبَعُوضَةِ وَيَعْقُبُهُ ضَرْبُهُ بِمَا فَوْقَهَا بَلِ الْمُرَادُ بَيَانُ الْمَثَلِ بِأَنَّهُ الْبَعُوضَةُ وَمَا يَتَدَرَّجُ فِي مَرَاتِبِ الْقُوَّةِ زَائِدًا عَلَيْهَا دَرَجَةً تَلِي دَرَجَةً.**

**فَالْفَاءُ فِي مِثْلِ هَذَا مَجَازٌ مُرْسَلٌ عَلَاقَتُهُ الْإِطْلَاقُ عَنِ الْقَيْدِ، لِأَنَّ الْفَاءَ مَوْضُوعَةٌ لِلتَّعْقِيبِ الَّذِي هُوَ اتِّصَالٌ خَاصٌّ، فَاسْتُعْمِلَتْ فِي مُطْلَقِ الِاتِّصَالِ، أَوْ هِيَ مُسْتَعَارَةٌ لِلتَّدَرُّجِ، لِأَنَّهُ شَبِيهٌ بِالتَّعْقِيبِ فِي التَّأَخُّرِ فِي التَّعَقُّلِ، كَمَا أَنَّ التَّعْقِيبَ تَأَخُّرٌ فِي الْحُصُولِ، وَمِنْهُ: رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ فَالْمُقَصِّرِينَ.**

**وَالْمَعْنَى أَنْ يَضْرِبَ الْبَعُوضَةَ مَثَلًا فَيَضْرِبَ مَا فَوْقَهَا أَيْ مَا هُوَ دَرَجَةٌ أُخْرَى أَيْ أَحْقَرَ مِنَ الْبَعُوضَةِ مِثْلَ الذَّرَّةِ، وَأَعْظَمَ مِنْهَا مِثْلَ الْعَنْكَبُوتِ وَالْحِمَارِ.**

**﴿**[**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ** **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾[[598]](#footnote-598)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=68#docu)

**الْفَاءُ لِلتَّعْقِيبِ الذِّكْرِيِّ دُونَ الْحُصُولِيِّ أَيْ لِتَعْقِيبِ الْكَلَامِ الْمُفَصَّلِ عَلَى الْكَلَامِ الْمُجْمَلِ عَطَفَتِ الْمُقَدَّرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**لَا يَسْتَحْيِي﴾[[599]](#footnote-599)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=68#docu)**لِأَنَّ تَقْدِيرَهُ: لَا يَسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَلَمَّا كَانَ فِي النَّاسِ مُؤْمِنُونَ وَكَافِرُونَ وَكِلَا الْفَرِيقَيْنِ تَلَقَّى ذَلِكَ الْمَثَلَ وَاخْتَلَفَتْ حَالُهُمْ فِي الِانْتِفَاعِ بِهِ، نَشَأَ فِي الْكَلَامِ إِجْمَالٌ مُقَدَّرٌ اقْتَضَى تَفْصِيلَ حَالِهِمْ.**

**وَإِنَّمَا عَطَفَ بِالْفَاءِ، لِأَنَّ التَّفْصِيلَ حَاصِلٌ عَقِبَ الْإِجْمَالِ.**

**وَ (أَمَّا) حَرْفٌ مَوْضُوعٌ لِتَفْصِيلِ مُجْمَلٍ مَلْفُوظٍ أَوْ مُقَدَّرٍ.**

**وَلَمَّا كَانَ الْإِجْمَالُ يَقْتَضِي اسْتِشْرَافَ السَّامِعِ لِتَفْصِيلِهِ كَانَ التَّصَدِّي لِتَفْصِيلِهِ بِمَنْزِلَةِ سُؤَالٍ مَفْرُوضٍ كَأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يَقُولُ: إِنْ شِئْتَ تَفْصِيلَهُ فَتَفْصِيلُهُ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَلِذَلِكَ كَانَتْ (أَمَّا) مُتَضَمِّنَةً مَعْنَى الشَّرْطِ، وَلِذَلِكَ لَزِمَتْهَا الْفَاءُ فِي الْجُمْلَةِ الَّتِي بَعْدَهَا، لِأَنَّهَا كَجَوَابِ شَرْطٍ.**

**وَقَدْ تَخْلُو عَنْ مَعْنَى التَّفْصِيلِ فِي خُصُوصِ قَوْلِ الْعَرَبِ: أَمَّا بَعْدُ فَتَتَمَحَّضُ لِلشَّرْطِ وَذَلِكَ فِي التَّحْقِيقِ لِخَفَاءِ مَعْنَى التَّفْصِيلِ، لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى تَرَقُّبِ السَّامِعِ كَلَامًا بَعْدَ كَلَامِهِ الْأَوَّلِ.**

**وَقَدَّرَهَا**[**سِيبَوَيْهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16076)**بِمَعْنَى مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ، وَتَلَقَّفَهُ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ بَعْدَهُ وَهُوَ عِنْدِي تَقْدِيرُ مَعْنًى لِتَصْحِيحِ دُخُولِ الْفَاءِ فِي جَوَابِهَا، وَفِي النَّفْسِ مِنْهُ شَيْءٌ، لِأَنَّ دَعْوَى قَصْدِ عُمُومِ الشَّرْطِ غَيْرُ بَيِّنَةٍ، فَإِذَا جِيءَ بِأَدَاةِ التَّفْصِيلِ الْمُتَضَمِّنَةِ مَعْنَى الشَّرْطِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى مَزِيدِ اهْتِمَامِ الْمُتَكَلِّمِ بِذَلِكَ التَّفْصِيلِ فَأَفَادَ تَقْوِيَةَ الْكَلَامِ الَّتِي سَمَّاهَا**[**الزَّمَخْشَرِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14423)**تَوْكِيدًا وَمَا هُوَ إِلَّا دَلَالَةُ الِاهْتِمَامِ بِالْكَلَامِ، عَلَى أَنَّ مَضْمُونَهُ مُحَقَّقٌ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا اهْتَمَّ بِهِ، وَبِهَذَا يَظْهَرُ فَضْلُ قَوْلِهِ: ﴿**[**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ﴾[[600]](#footnote-600)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=68#docu)**إِلَخْ عَلَى أَنْ يُقَالَ: فَالَّذِينَ آمَنُوا يَعْلَمُونَ بِدُونِ (أَمَّا) وَالْفَاءِ.**

**وَجَعَلَ تَفْصِيلَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قِسْمَيْنِ، لِأَنَّ النَّاسَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى التَّشْرِيعِ وَالتَّنْزِيلِ قِسْمَانِ ابْتِدَاءً: مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ.**

**وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ هُنَا الثَّنَاءُ عَلَيْهِمْ بِثَبَاتِ إِيمَانِهِمْ وَتَأْيِيسِ الَّذِينَ أَرَادُوا إِلْقَاءَ الشَّكِّ عَلَيْهِمْ، فَيَعْلَمُونَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا مَدْخَلَ فِيهَا لِذَلِكَ الشَّكِّ.**

**وَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا هُنَا إِمَّا خُصُوصُ الْمُشْرِكِينَ كَمَا هُوَ مُصْطَلَحُ الْقُرْآنِ غَالِبًا، وَإِمَّا مَا يَشْمَلُهُمْ وَيَشْمَلُ الْيَهُودَ بِنَاءً عَلَى مَا سَلَفَ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ.**

**وَإِنَّمَا عَبَّرَ فِي جَانِبِ الْمُؤْمِنِينَ بِـ (يَعْلَمُونَ) تَعْرِيضًا بِأَنَّ الْكَافِرِينَ إِنَّمَا قَالُوا مَا قَالُوا عِنَادًا وَمُكَابَرَةً وَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ تَمْثِيلٌ أَصَابَ الْمَحَزَّ، كَيْفَ وَهَمَ أَهْلُ اللِّسَانِ وَفُرْسَانُ الْبَيَانِ، وَلَكِنْ شَأْنُ الْمُعَانِدِ الْمُكَابِرِ أَنْ يَقُولَ مَا لَا يَعْتَقِدُ؛ حَسَدًا وَعِنَادًا.**

**وَضَمِيرُ أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى الْمَثَلِ. وَالْحَقُّ تَرْجِعُ مَعَانِيهِ إِلَى مُوَافَقَةِ الشَّيْءِ لِمَا يَحِقُّ أَنْ يَقَعَ، وَهُوَ هُنَا الْمُوَافِقُ لِإِصَابَةِ الْكَلَامِ وَبَلَاغَتِهِ.**

**وَ ﴿**[**مِنْ رَبِّهِمْ﴾[[601]](#footnote-601)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=68#docu)**حَالٌ مِنَ (الْحَقِّ) وَ (مِنْ) ابْتِدَائِيَّةٌ أَيْ وَارِدٌ مِنَ اللَّهِ لَا كَمَا زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلصَّوَابِ فَهُوَ مُؤْذِنٌ بِأَنَّهُ مِنْ كَلَامِ مَنْ يَقَعُ مِنْهُ الْخَطَأُ.**

**وَأَصْلُ مَاذَا كَلِمَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ مَا الِاسْتِفْهَامِيَّةِ وَذَا اسْمِ الْإِشَارَةِ، وَلِذَلِكَ كَانَ أَصْلُهَا أَنْ يُسْأَلَ بِهَا عَنْ شَيْءٍ مُشَارٍ إِلَيْهِ كَقَوْلِ الْقَائِلِ: "مَاذَا" مُشِيرًا إِلَى شَيْءٍ حَاضِرٍ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: مَا هَذَا، غَيْرَ أَنَّ الْعَرَبَ تَوَسَّعُوا فِيهِ، فَاسْتَعْمَلُوهُ اسْمَ اسْتِفْهَامٍ مُرَكَّبًا مِنْ كَلِمَتَيْن.ِ**

**وَذَلِكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ مُعَبَّرًا عَنْهُ بِلَفْظٍ آخَرَ غَيْرِ الْإِشَارَةِ حَتَّى تَصِيرَ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ مَعَ التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِلَفْظٍ آخَرَ لِمُجَرَّدِ التَّأْكِيدِ، نَحْوَ: مَاذَا التَّوَانِي، أَوْ حَيْثُ لَا يَكُونُ لِلْإِشَارَةِ مَوْقِعٌ نَحْوَ: ﴿**[**وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾[[602]](#footnote-602)؟**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=68#docu)

**وَلِذَلِكَ يَقُولُ النُّحَاةُ: إِنَّ ذَا مُلْغَاةٌ فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ.**

**وَقَدْ يَتَوَسَّعُونَ فِيهَا تَوَسُّعًا أَقْوَى، فَيَجْعَلُونَ ذَا اسْمًا مَوْصُولًا، وَذَلِكَ حِينَ يَكُونَ الْمَسْئُولُ عَنْهُ مَعْرُوفًا لِلْمُخَاطَبِ بِشَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِهِ، فَلِذَلِكَ يُجْرُونَ عَلَيْهِ جُمْلَةً أَوْ نَحْوَهَا هِيَ صِلَةٌ وَيَجْعَلُونَ ذَا مَوْصُولًا نَحْوَ: ﴿**[**مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾[[603]](#footnote-603).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=68#docu)

**وَعَلَى هَذَيْنِ الِاحْتِمَالَيْنِ الْآخَرَيْنِ يَصِحُّ إِعْرَابُهُ مُبْتَدَأً وَيَصِحُّ إِعْرَابُهُ مَفْعُولًا مُقَدَّمًا إِذَا وَقَعَ بَعْدَهُ فِعْلٌ.**

**وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا إِنْكَارِيٌّ أَيْ جُعِلَ الْكَلَامُ فِي صُورَةِ الِاسْتِفْهَامِ كِنَايَةً بِهِ عَنِ الْإِنْكَارِ لِأَنَّ الشَّيْءَ الْمُنْكَرَ يُسْتَفْهَمُ عَنْ حُصُولِهِ فَاسْتِعْمَالُ الِاسْتِفْهَامِ فِي الْإِنْكَارِ مِنْ قَبِيلِ الْكِنَايَةِ، وَمِثْلُهُ لَا يُجَابُ بِشَيْءٍ غَالِبًا لِأَنَّهُ غَيْرُ مَقْصُودٍ بِهِ الِاسْتِعْلَامُ.**

**وَقَدْ يُلَاحَظُ فِيهِ مَعْنَاهُ الْأَصْلِي،ُّ فَيُجَابُ بِجَوَابٍ، لِأَنَّ الِاسْتِعْمَالَ الْكِنَائِيَّ لَا يَمْنَعُ مِنْ إِرَادَةِ الْمَعْنَى الْأَصْلِيِّ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾[[604]](#footnote-604).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=68#docu)

**وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ بِهَذَا مُفِيدَةٌ لِلتَّحْقِيرِ بِقَرِينَةِ الْمَقَامِ كَقَوْلِهِ: ﴿**[**أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾[[605]](#footnote-605)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=68#docu)**وَانْتَصَبَ قَوْلُهُ مَثَلًا عَلَى التَّمْيِيزِ مِنْ (هَذَا)، لِأَنَّهُ مُبْهَمٌ فَحُقَّ لَهُ التَّمْيِيزُ، وَهُوَ نَظِيرُ التَّمْيِيزِ لِلضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِمْ (رُبَّهُ رَجُلًا).**

**﴿**[**يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[[606]](#footnote-606)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)

**بَيَانٌ وَتَفْسِيرٌ لِلْجُمْلَتَيْنِ الْمُصَدَّرَتَيْنِ بِأَمَّا عَلَى طَرِيقَةِ النَّشْرِ الْمَعْكُوسِ، لِأَنَّ مَعْنَى هَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ قَدِ اشْتَمَلَ عَلَيْهِمَا مَعْنَى الْجُمْلَتَيْنِ السَّالِفَتَيْنِ إِجْمَالًا فَإِنَّ عِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ هُدًى، وَقَوْلَ الْكَافِرِينَ: ﴿**[**مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**﴾[[607]](#footnote-607) الْخَ ضَلَالٌ.**

**وَالْأَظْهَرُ: أَنْ لَا يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿**[**يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾[[608]](#footnote-608):**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**جَوَابًا لِلِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا: ﴿**[**مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾[[609]](#footnote-609)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ اسْتِفْهَامًا حَقِيقِيًّا، كَمَا تَقَدَّمَ.**

**وَيَجُوزُ أَنْ يُجْعَلَ جَوَابًا عَنِ اسْتِفْهَامِهِمْ تَخْرِيجًا لِلْكَلَامِ عَلَى الْأُسْلُوبِ الْحَكِيمِ بِحَمْلِ اسْتِفْهَامِهِمْ عَلَى ظَاهِرِهِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ اللَّائِقَ بِهِمْ أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ حِكْمَةِ مَا أَرَادَ اللَّهُ بِتِلْكَ الْأَمْثَالِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿**[**يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾[[610]](#footnote-610)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**جَوَابًا لَهُمْ وَرَدًّا عَلَيْهِمْ وَبَيَانًا لِحَالِ الْمُؤْمِنِينَ.**

**وَهَذَا لَا يُنَافِي كَوْنَ الِاسْتِفْهَامِ الَّذِي قَبْلَهُ مَكْنِيٌّ بِهِ عَنِ الْإِنْكَارِ كَمَا عَلِمْتَهُ آنِفًا مِنْ عَدَمِ الْمَانِعِ مِنْ جَمْعِ الْمَعْنَيَيْنِ الْكِنَائِيِّ وَالْأَصْلِيِّ.**

**وَكَوْنُ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُضَلَّلِ وَالْمَهْدِيِّ كَثِيرًا فِي نَفْسِهِ، لَا يُنَافِي نَحْوَ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[[611]](#footnote-611)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**لِأَنَّ قُوَّةَ الشُّكْرِ الَّتِي اقْتَضَاهَا صِيغَةُ الْمُبَالَغَةِ، أَخَصُّ فِي الِاهْتِدَاءِ.**

**وَالْفَاسِقُ لَفْظٌ مِنْ مَنْقُولَاتِ الشَّرِيعَةِ، أَصْلُهُ اسْمُ فَاعِلٍ مِنَ الْفِسْقِ بِكَسْرِ الْفَاءِ، وَحَقِيقَةُ الْفِسْقِ خُرُوجُ الثَّمَرَةِ مِنْ قِشْرِهَا، وَهُوَ عَاهَةٌ أَوْ رَدَاءَةٌ فِي الثَّمَرِ، فَهُوَ خُرُوجٌ مَذْمُومٌ يُعَدُّ مِنَ الْأَدْوَاءِ مِثْلَ مَا قَالَ النَّابِغَةُ:**

**صِغَارُ النَّوَى مَكْنُوزَةٌ لَيْسَ قِشْرُهَا إِذَا طَارَ قِشْرُ التَّمْرِ عَنْهَا بِطَائِـــــــــــرِ**

**قَالُوا: وَلَمْ يُسْمَعْ فِي كَلَامِهِمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَعْنَى حَتَّى نَقَلَهُ الْقُرْآنُ لِلْخُرُوجِ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى الْجَازِمِ بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي الْكَبَائِرِ، فَوَقَعَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي كَلَامِ الْمُسْلِمِينَ: قَالَ رُؤْبَةُ يَصِفُ إِبِلًا:**

**فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرَا     يَهْوَيْنَ فِي نَجْدٍ وَغَوْرٍ غَائِرَا**

**وَالْفِسْقُ مَرَاتِبُ كَثِيرَةٌ تَبْلُغُ بَعْضُهَا إِلَى الْكُفْرِ.**

**وَقَدْ أُطْلِقَ الْفِسْقُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى جَمِيعِهَا لَكِنَّ الَّذِي يُسْتَخْلَصُ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَدِلَّةِ هُوَ مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفُقَهَاءِ، وَهُوَ أَنَّ الْفِسْقَ غَيْرُ الْكُفْر.ِ**

**وَأَنَّ الْمَعَاصِيَ، وَإِنْ كَثُرَتْ، لَا تُزِيلُ الْإِيمَانَ، وَهُوَ الْحَقُّ.**

**وَقَدْ لَقَّبَ اللَّهُ الْيَهُودَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ بِالْفَاسِقِينَ، وَأَحْسَبُ أَنَّهُ الْمُرَادُ هُنَا، وَعَزَاهُ ابْنُ كَثِيرٍ لِجُمْهُورٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ.**

**وَإِسْنَادُ الْإِضْلَالِ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى- مُرَاعًى فِيهِ أَنَّهُ الَّذِي مَكَّنَ الضَّالِّينَ مِنَ الْكَسْبِ وَالِاخْتِيَارِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْعُقُولِ وَمَا فَصَلَ لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَضِدِّهِ.**

**وَفِي اخْتِيَارِ إِسْنَادِهِ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى- مَعَ صِحَّةِ إِسْنَادِهِ لِفِعْلِ الضَّالِّ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ ضَلَالٌ مُتَمَكِّنٌ مِنْ نُفُوسِهِمْ، حَتَّى صَارَ كَالْجِبِلَّةِ فِيهِمْ، فَهُمْ مَأْيُوسٌ مِنِ اهْتِدَائِهِمْ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[[612]](#footnote-612).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)

**فَإِسْنَادُ الْإِضْلَالِ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى- مَنْظُورٌ فِيهِ إِلَى خَلْقِ أَسْبَابِهِ الْقَرِيبَةِ وَالْبَعِيدَةِ، وَإِلَّا فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ بِالْهُدَى، وَهِيَ مَسْأَلَةٌ مَفْرُوغٌ مِنْهَا فِي عِلْمِ الْكَلَامِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[[613]](#footnote-613)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**إِمَّا مُسُوقٌ لِبَيَانِ أَنَّ لِلْفِسْقِ تَأْثِيرًا فِي زِيَادَةِ الضَّلَالِ، لِأَنَّ الْفِسْقَ يَرِينُ عَلَى الْقُلُوبِ وَيُكْسِبُ النُّفُوسَ ظُلْمَةً فَتَتَسَاقَطُ فِي الضَّلَالِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْأُخْرَى عَلَى التَّعَاقُبِ، حَتَّى يَصِيرَ لَهَا دُرْبَةً.**

**وَهَذَا الَّذِي يُؤْذِنُ بِهِ التَّعْلِيقُ عَلَى وَصْفِ الْمُشْتَقِّ، إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْمَعْنَى الِاشْتِقَاقِيَّ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: هَؤُلَاءِ فَاسِقُونَ وَمَا مِنْ فَاسِقٍ، إِلَّا وَهُوَ ضَالٌّ.**

**فَمَا ثَبَتَ الضَّلَالُ إِلَّا بِثُبُوتِ الْفِسْقِ عَلَى نَحْوِ طَرِيقَةِ الْقِيَاسِ الِاقْتِرَانِيِّ، وَإِمَّا مُسُوقٌ لِبَيَانِ أَنَّ الضَّلَالَ وَالْفِسْقَ أَخَوَانِ. فَحَيْثُمَا تَحَقَّقَ أَحَدُهُمَا، أَنْبَأَ بِتَحَقُّقِ الْآخَر،ِ عَلَى نَحْوِ قِيَاسِ الْمُسَاوَاةِ إِذَا أُرِيدَ مِنَ الْفَاسِقِينَ الْمَعْنَى اللَّقَبِيُّ الْمَشْهُورُ، فَلَا يَكُونُ لَهُ إِيذَانٌ بِتَعْلِيلٍ. وَإِمَّا لِبَيَانِ أَنَّ الْإِضْلَالَ الْمُتَكَيَّفَ فِي إِنْكَارِ الْأَمْثَالِ إِضْلَالٌ مَعَ غَبَاوَةٍ، فَلَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنَ الْيَهُودِ، وَقَدْ عُرِفُوا بِهَذَا الْوَصْفِ.**

**وَالْقَوْلُ فِي مَذَاهِبِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ فِي الْفِسْقِ وَتَأْثِيرِهِ فِي الْإِيمَانِ لَيْسَ هَذَا مَقَامُ بَيَانِهِ إِذْ لَيْسَ هُوَ الْمَقْصُودَ مِنَ الْآيَةِ.**

**فَإِنْ كَانَ مَحْمَلُ الْفَاسِقِينَ عَلَى مَا يَشْمَلُ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودَ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي ضَرْبِ الْمَثَلِ كَانَ الْقَصْرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**وَمَا يُضِلُّ بِهِ﴾[[614]](#footnote-614)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**إِلَخْ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، لِيَحْصُلَ تَمْيِيزُ الْمُرَادِ مِنَ الْمُضَلَّلِ وَالْمُهْتَدِي.**

**وَإِنْ كَانَ مَحْمَلُ الْفَاسِقِينَ عَلَى الْيَهُودِ، كَانَ الْقَصْرُ حَقِيقِيًّا ادِّعَائِيًّا، أَيْ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا، وَهُمُ الطَّاعِنُونَ فِيهِ وَأَشَدُّهُمْ ضَلَالًا هُمُ الْفَاسِقُونَ.**

**وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَبْعَدُ عَنِ الِاهْتِدَاءِ بِالْكِتَابِ لِأَنَّهُمْ فِي شِرْكِهِمْ. وَأَمَّا الْيَهُودُ، فَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَشَأْنُهُمْ أَنْ يَعْلَمُوا أَفَانِينَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَضَرْبَ الْأَمْثَالِ، فَإِنْكَارُهُمْ إِيَّاهَا غَايَةُ الضَّلَالِ، فَكَأَنَّهُ لَا ضَلَالَ سِوَاهُ.**

**وَجُمْلَةُ: ﴿**[**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ﴾[[615]](#footnote-615)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**إِلَى آخِرِهِ صِفَةٌ لِـ الْفَاسِقِينَ لِتَقْرِيرِ اتِّصَافِهِمْ بِالْفِسْق،ِ لِأَنَّ هَاتِهِ الْخِلَالَ مِنْ أَكْبَرِ أَنْوَاعِ الْفُسُوقِ بِمَعْنَى الْخُرُوجِ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ –تَعَالَى-.**

**وَجُوِّزَ أَنْ تَكُونَ مَقْطُوعَةً مُسْتَأْنَفَةً عَلَى أَنَّ الَّذِينَ مُبْتَدَأٌ، وَقَوْلَهُ: ﴿**[**أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[[616]](#footnote-616)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**خَبَرٌ.**

**وَهِيَ -مَعَ ذَلِكَ- لَا تَخْرُجُ عَنْ مَعْنَى تَوْصِيفِ الْفَاسِقِينَ بِتِلْكَ الْخِلَالِ؛ إِذِ الِاسْتِئْنَافُ لَمَّا وَرَدَ إِثْرَ حِكَايَةِ حَالٍ عَنِ الْفَاسِقِينَ تَعَيَّنَ فِي حُكْمِ الْبَلَاغَةِ أَنْ تَكُونَ هَاتِهِ الصِّلَةُ مِنْ صِفَاتِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ لِلُزُومِ الِاتِّحَادِ فِي الْجَامِعِ الْخَيَالِيِّ، وَإِلَّا لَصَارَ الْكَلَامُ مُقَطَّعًا مَنْتُوفًا.**

**فَلَيْسَ بَيْنَ الِاعْتِبَارَيْنِ إِلَّا اخْتِلَافُ الْإِعْرَابِ، وَأَمَّا الْمَعْنَى فَوَاحِدٌ، فَلِذَلِكَ كَانَ إِعْرَابُهُ صِفَةً أَرْجَحَ أَوْ مُتَعَيِّنًا إِذْ لَا دَاعِيَ إِلَى اعْتِبَارِ الْقَطْعِ.**

**وَمَجِيءُ الْمَوْصُولِ هُنَا لِلتَّعْرِيفِ بِالْمُرَادِ مِنَ الْفَاسِقِينَ أَيِ الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ عُرِفُوا بِهَذِهِ الْخِلَالِ الثَّلَاثِ، فَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْفَاسِقِينَ الْيَهُودُ.**

**وَقَدْ أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْوَصْفُ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَهُمْ قَدْ عُرِفُوا بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ صِلَةُ الْمَوْصُولِ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ هُنَا، بَلْ هُمْ قَدْ شَهِدَتْ عَلَيْهِمْ كُتُبُ أَنْبِيَائِهِمْ بِأَنَّهُمْ نَقَضُوا عَهْدَ اللَّهِ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَهُمْ قَدِ اعْتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِذَلِكَ، فَنَاسَبَ أَنْ يُجْعَلَ النَّقْضُ صِلَةً لِاشْتِهَارِهِمْ بِهَا.**

**وَوَجْهُ تَخْصِيصِهِمْ بِذَلِكَ: أَنَّ الطَّعْنَ فِي هَذَا الْمَثَلِ جَرَّهُمْ إِلَى زِيَادَةِ الطَّعْنِ فِي الْإِسْلَامِ فَازْدَادُوا بِذَلِكَ ضَلَالًا عَلَى ضَلَالِهِمُ السَّابِقِ فِي تَغْيِيرِ دِينِهِمْ وَفِي كُفْرِهِمْ بِعِيسَى، فَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَضَلَالُهُمْ لَا يَقْبَلُ الزِّيَادَةَ، عَلَى أَنَّ سُورَةَ الْبَقَرَةِ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ وَأَكْثَرُ الرَّدِّ فِي الْآيَاتِ الْمَدَنِيَّةِ مُتَوَجِّهٌ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ.**

**وَالنَّقْضُ فِي اللُّغَةِ حَقِيقَةٌ فِي فَسْخِ وَحَلِّ مَا رُكِّبَ وَوُصِلَ، بِفِعْلٍ يُعَاكِسُ الْفِعْلَ الَّذِي كَانَ بِهِ التَّرْكِيبُ، وَإِنَّمَا زِدْتُ قَوْلِي بِفِعْلٍ إِلَخْ؛ لِيَخْرُجَ الْقَطْعُ وَالْحَرْقُ، فَيُقَالُ نَقَضَ الْحَبْلَ إِذَا حَلَّ مَا كَانَ أَبْرَمَهُ، وَنَقَضَ الْغَزْلَ وَنَقَضَ الْبِنَاءَ.**

**وَقَدِ اسْتُعْمِلَ النَّقْضُ هُنَا مَجَازًا فِي إِبْطَالِ الْعَهْدِ بِقَرِينَةِ إِضَافَتِهِ إِلَى عَهْدِ اللَّهِ، وَهِيَ اسْتِعَارَةٌ مِنْ مُخْتَرَعَاتِ الْقُرْآنِ بُنِيَتْ عَلَى مَا شَاعَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ فِي تَشْبِيهِ الْعَهْدِ، وَكُلِّ مَا فِيهِ وَصْلٌ بِالْحَبْلِ، وَهُوَ تَشْبِيهٌ شَائِعٌ فِي كَلَامِهِمْ.**

**وَمِنْهُ قَوْلُ**[**مَالِكِ بْنِ التَّيِّهَانِ الْأَنْصَارِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=2737)**لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَوْمَ بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ حِبَالًا وَنَحْنُ قَاطِعُوهَا، فَنَخْشَى إِنْ أَعَزَّكَ اللَّهُ وَأَظْهَرَكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ يُرِيدُ الْعُهُودَ الَّتِي كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَبَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ.**

**وَكَانَ الشَّائِعُ فِي الْكَلَامِ إِطْلَاقَ لَفْظِ الْقَطْعِ وَالصَّرْمِ وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا عَلَى إِبْطَالِ الْعَهْدِ أَيْضًا فِي كَلَامِهِمْ.**

**قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:**

**وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي**

**وَقَالَ لَبِيدٌ:**

**أَوَلَمْ تَكُنْ تَدْرِي نَوَارُ بِأَنَّنِي     وَصَّالُ عَقْدِ حَبَائِلٍ جَذَّامُهَــا**

**وَقَالَ:**

**بَلْ مَا تَذَكَّرَ مِنْ نَوَارَ وَقَدْ نَأَتْ     وَتَقَطَّعَتْ أَسْبَابُهَا وَرِمَامُهَــــــــا**

**وَقَالَ:**

**فَاقْطَعْ لُبَانَةَ مَنْ تَعَرَّضَ وَصْلُــــهُ     فَلَشَرُّ وَاصِلِ خُلَّةٍ صَرَّامُهَـــــا**

**وَوَجْهُ اخْتِيَارِ اسْتِعَارَةِ النَّقْضِ الَّذِي هُوَ حَلُّ طَيَّاتِ الْحَبْلِ إِلَى إِبْطَالِ الْعَهْدِ أَنَّهَا تَمْثِيلٌ لِإِبْطَالِ الْعَهْدِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، وَفِي أَزْمِنَةٍ مُتَكَرِّرَةٍ وَمُعَالَجَةٍ.**

**وَالنَّقْضُ أَبْلَغُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْإِبْطَالِ مِنَ الْقَطْعِ وَالصَّرْمِ وَنَحْوِهِمَا، لِأَنَّ فِي النَّقْضِ إِفْسَادًا لِهَيْئَةِ الْحَبْلِ وَزَوَالَ رَجَاءِ عَوْدِهَا وَأَمَّا الْقَطْعُ فَهُوَ تَجْزِئَةٌ.**

**وَفِي النَّقْضِ رَمْزٌ إِلَى اسْتِعَارَةٍ مَكْنِيَّةٍ، لِأَنَّ النَّقْضَ مِنْ رَوَادِفِ الْحَبْلِ، فَاجْتَمَعَ هُنَا اسْتِعَارَتَانِ مَكْنِيَّةٌ وَتَصْرِيحِيَّةٌ، وَهَذِهِ الْأَخِيرَةُ تَمْثِيلِيَّةٌ.**

**وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ أَنَّ مَا يُرْمَزُ بِهِ لِلْمُشَبَّهِ بِهِ الْمَطْرُوحِ فِي الْمَكْنِيَّةِ قَدْ يَكُونُ مُسْتَعْمَلًا فِي مَعْنًى حَقِيقِيٍّ عَلَى طَرِيقَةِ التَّخْيِيل.ِ وَذَلِكَ حَيْثُ لَا يَكُونُ لِلْمُشَبَّهِ الْمَذْكُورِ فِي صُورَةِ الْمَكْنِيَّةِ رَدِيفٌ يُمْكِنُ تَشْبِيهُهُ بِرَدِيفِ الْمُشَبَّهِ بِهِ الْمَطْرُوحِ، مِثْلُ إِثْبَاتِ الْأَظْفَارِ لِلْمَنِيَّةِ فِي قَوْلِهِمْ: أَظْفَارُ الْمَنِيَّةِ.**

**وَإِثْبَاتِ الْمَخَالِبِ وَالنَّابِ لِلْكُمَاةِ فِي قَوْلِ**[**أَبِي فِرَاسٍ الْحَمْدَانِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12126)**:**

**فَلَمَّا اشْتَدَّتِ الْهَيْجَاءُ كُنَّا     أَشَدَّ مُخَالِبًا وَأَحَدَّ نَابَـــــــــــــــــــــــــــــــــا**

**وَإِثْبَاتُ الْيَدِ لِلشَّمَالِ فِي قَوْلِ لَبِيدٍ:**

**وَغَدَاةَ رِيحٍ قَدْ كَشَفْتُ وَقِـــرَّةٍ     إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا**

**وَقَدْ يَكُونُ مُسْتَعْمَلًا فِي مَعْنًى مَجَازِيٍّ إِذَا كَانَ لِلْمُشَبَّهِ فِي الْمَكْنِيَّةِ رَدِيفٌ يُمْكِنُ تَشْبِيهُهُ بِرَدِيفِ الْمُشَبَّهِ بِهِ الْمُضْمَرِ نَحْوُ: ﴿**[**يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**﴾[[617]](#footnote-617)، وَقَدْ زِدْنَا أَنَّهَا تَمْثِيلِيَّةٌ أَيْضًا، وَالْبَلِيغُ لَا يُفْلِتُ هَاتِهِ الِاسْتِعَارَةَ مَهْمَا تَأْتِ لَهُ وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهَا مَهْمَا عَسِرَتْ، فَلَيْسَ الْجَوَازُ الْمَذْكُورُ فِي قَرِينَةِ الْمَكْنِيَّةِ إِلَّا جَوَازًا فِي الْجُمْلَةِ أَيْ بِالنَّظَرِ إِلَى اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ.**

**وَهَذَا الَّذِي هُوَ مِنْ رَوَادِفِ الْمُشَبَّهِ بِهِ فِي صُورَةِ الْمَكْنِيَّةِ وَغَيْرِهَا قَدْ يَقْطَعُ عَنِ الرَّبْطِ بِالْمَكْنِيَّةِ فَيَكُونُ اسْتِعَارَةً مُسْتَقِلَّةً، وَذَلِكَ حَيْثُ لَا تَذْكُرُ مَعَهُ لَفَظًا يُرَادُ تَشْبِيهُهُ بِمُشَبَّهٍ بِهِ مُضْمَرٍ نَحْوُ أَنْ تَقُولَ: فُلَانٌ يَنْقُضُ مَا أَبْرَمَ.**

**وَقَدْ يُرْبَطُ بِالْمَكْنِيَّةِ وَذَلِكَ حَيْثُ يُذْكَرُ مَعَهُ شَيْءٌ أُرِيدَ تَشْبِيهُهُ بِمُشَبَّهٍ بِهِ مُضْمَرٍ كَمَا فِي الْآيَةِ حَيْثُ ذُكِرَ النَّقْضُ مَعَ الْعَهْدِ.**

**وَقَدْ يُرْبَطُ بِمُصَرَّحَةٍ وَذَلِكَ حَيْثُ يُذْكَرُ مَعَ لَفْظِ الْمُشَبَّهِ بِهِ الَّذِي الرَّادِفُ مِنْ تَوَابِعِهِ نَحْوُ قَوْلِهِ: إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ حِبَالًا نَحْنُ قَاطِعُوهَا، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ تَرْشِيحًا لِلْمَجَازِ، وَهَذِهِ الِاعْتِبَارَاتُ مُتَدَاخِلَةٌ لَا مُتَضَادَّةٌ إِذْ قَدْ يَصِحُّ فِي الْمَوْضِعِ اعْتِبَارَانِ مِنْهَا أَوْ جَمِيعُهَا، وَإِنَّمَا التَّقْسِيمُ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ الْبَلِيغُ أَوَّلَ النَّظَرِ.**

**وَاعْلَمْ أَنَّ رَدِيفَ الْمُشَبَّهِ بِهِ فِي الْمَكْنِيَّةِ إِذَا اعْتُبِرَ اسْتِعَارَةً فِي ذَاتِهِ قَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّ اعْتِبَارَهُ ذَلِكَ يُنَافِي كَوْنَهُ رَمْزًا لِلْمُشَبَّهِ بِهِ الْمُضْمَرِ كَالنَّقْضِ، فَإِنَّهُ لَمَّا أُرِيدَ بِهِ إِبْطَالُ الْعَهْدِ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَوَادِفِ الْحَبْلِ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ إِيذَانُهُ بِالْحَبْلِ سَابِقًا عِنْدَ سَمَاعِ لَفْظِهِ لِسَبْقِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ إِلَى ذِهْنِ السَّامِعِ حَتَّى يَتَأَمَّلَ فِي الْقَرِينَةِ كَفَى ذَلِكَ السَّبْقُ دَلِيلًا وَرَمْزًا عَلَى الْمُشَبَّهِ بِهِ الْمُضْمَرِ، فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ الرَّمْزُ لَمْ يَضُرَّ فَهْمُ الِاسْتِعَارَةِ فِي ذَلِكَ اللَّفْظِ.**

**وَأَجَابَ عَبْدُ الْحَكِيمِ بِأَنَّ كَوْنَهُ رَادِفًا بَعْدَ كَوْنِهِ اسْتِعَارَةً بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ لَمَّا شُبِّهَ بِهِ الرَّادِفُ وَسُمِّيَ بِهِ صَارَ رَادِفًا ادِّعَائِيًّا وَفِيهِ تَكَلُّفٌ.**

**وَ ﴿**[**عَهْدَ اللَّهِ﴾[[618]](#footnote-618)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**هُوَ مَا عَهِدَ بِهِ أَيْ مَا أَوْصَى بِرَعْيِهِ وَحِفَاظِهِ، وَمَعَانِي الْعَهْدِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ كَثِيرَةٌ وَتَصْرِيفُهُ عُرْفِيٌّ.**

**قَالَ**[**الزَّجَّاجُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14416)**قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا أَدْرِي مَا الْعَهْدُ، وَمَرْجِعُ مَعَانِيهِ إِلَى الْمُعَاوَدَةِ وَالْمُحَافَظَةِ وَالْمُرَاجَعَةِ وَالِافْتِقَادِ وَلَا أَدْرِي أَيَّ مَعَانِيهِ أَصْلٌ لِبَقِيَّتِهَا، وَغَالِبُ ظَنِّي أَنَّهَا مُتَفَرِّعٌ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ.**

**وَالْأَقْرَبُ أَنَّ أَصْلَهَا هُوَ الْعَهْدُ مَصْدَرُ عَهِدَهُ عَهْدًا إِذَا تَذَكَّرَهُ وَرَاجَعَ إِلَيْهِ نَفْسَهُ يَقُولُونَ عَهِدْتُكَ كَذَا أَيْ أَتَذَكَّرُ فِيكَ كَذَا وَعَهْدِي بِكَ كَذَا، وَفِي حَدِيثِ أُمِّ زَرْعٍ وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ أَيْ عَمَّا عَهِدَ وَتَرَكَ فِي الْبَيْتِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: فِي عَهْدِ فُلَانٍ أَيْ زَمَانِهِ، لِأَنَّهُ يُقَالُ لِلزَّمَانِ الَّذِي فِيهِ خَيْرٌ وَشَرٌّ لَا يَنْسَاهُ النَّاسُ، وَتَعَهَّدَ الْمَكَانَ أَوْ فُلَانًا وَتَعَاهَدَهُ إِذَا افْتَقَدَهُ وَأَحْدَثَ الرُّجُوعَ إِلَيْهِ بَعْدَ تَرْكِ الْعَهْدِ وَالْوَصِيَّةِ، وَمِنْهُ وَلِيُّ الْعَهْدِ.**

**وَالْعَهْدُ الْيَمِينُ وَالْعَهْدُ الِالْتِزَامُ بِشَيْءٍ، يُقَالُ عَهِدَ إِلَيْهِ وَتَعَهَّدَ إِلَيْهِ لِأَنَّهَا أُمُورٌ لَا يَزَالُ صَاحِبُهَا يَتَذَكَّرُهَا وَيُرَاعِيهَا فِي مَوَاقِعِ الِاحْتِرَازِ عَنْ خَفْرِهَا. وَسُمِّيَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَتَرَاجَعُهُ النَّاسُ بَعْدَ الْبُعْدِ عَنْهُ مَعْهَدًا.**

**وَالْعَهْدُ فِي الْآيَةِ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَى بَنِي آدَمَ أَنْ لَا يَعْبُدُوا غَيْرَهُ: ﴿**[**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[[619]](#footnote-619)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**الْآيَةَ، فَنَقْضُهُ يَشْمَلُ الشِّرْكَ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ بِنَقْضِ الْعَهْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾[[620]](#footnote-620)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**الْآيَةَ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ.**

**وَفُسِّرَ بِالْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَى الْأُمَمِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا بُعِثَ بِعْدَهُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ: ﴿**[**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيئِينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾[[621]](#footnote-621)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**الْآيَاتِ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذَلِكَ أَخْذُ الْعَهْدِ عَلَى أُمَمِهِمْ. وَفُسِّرَ بِالْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ: ﴿**[**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾[[622]](#footnote-622)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**الْآيَةَ فِي تَفَاسِيرَ أُخْرَى بَعِيدَةٍ.**

**وَالصَّحِيحُ عِنْدِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعَهْدِ هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ غَيْرَ مَرَّةٍ مِنْ إِقَامَةِ الدِّينِ وَتَأْيِيدِ الرُّسُلِ، وَأَنْ لَا يَسْفِكَ بَعْضُهُمْ دِمَاءَ بَعْضٍ، وَأَنْ يُؤْمِنُوا بِالدِّينِ كُلِّهِ؛ وَقَدْ ذَكَّرَهُمُ الْقُرْآنُ بِعُهُودِ اللَّهِ –تَعَالَى- وَنَقْضِهِمْ إِيَّاهَا فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[[623]](#footnote-623)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾[[624]](#footnote-624)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**إِلَخْ، وَقَوْلُهُ: ﴿**[**لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾[[625]](#footnote-625)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**فَعَمُوا وَصَمُّوا وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾[[626]](#footnote-626)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾[[627]](#footnote-627)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[[628]](#footnote-628)؛**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**بَلْ إِنَّ كُتُبَهُمْ قَدْ صَرَّحَتْ بِعُهُودِ اللَّهِ –تَعَالَى- لَهُمْ، وَأَنْحَتْ عَلَيْهِمْ نَقْضَهُمْ لَهَا وَجَعَلَتْ ذَلِكَ إِنْذَارًا بِمَا يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الْمَصَائِبِ، كَمَا فِي كِتَابِ أَرْمِيَا وَمَرَاثِي أَرْمِيَا وَغَيْرِ ذَلِكَ، بَلْ قَدْ صَارَ لَفْظُ الْعَهْدِ عِنْدَهُمْ لَقَبًا لِلشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَى.**

**وَلَمَّا كَانَ قَوْلُهُ: ﴿**[**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾[[629]](#footnote-629)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**الْآيَةَ وَصْفًا لِـ الْفَاسِقِينَ وَكَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْفَاسِقِينَ الْيَهُودَ، كَمَا عَلِمْتَ كَانَ ذِكْرُ الْعَهْدِ إِيمَاءً إِلَى أَنَّ الْفَاسِقِينَ هُنَا هُمْ، وَتَسْجِيلًا عَلَى الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ قَدْ حَقَّ عَلَيْهِمْ هَذَا الْوَصْفُ مِنْ قَبْلِ الْيَوْمِ بِشَهَادَةِ كُتُبِهِمْ وَعَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِمْ، فَكَانَ لِاخْتِيَارِ لَفْظِ الْعَهْدِ هُنَا وَقْعٌ عَظِيمٌ يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الْمِفْتَاحِ الَّذِي يُوضَعُ فِي حَلِّ اللُّغْزِ لِيُشِيرَ لِلْمَقْصُودِ، فَهُوَ الْعَهْدُ الَّذِي سَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾[[630]](#footnote-630)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**وَالْمِيثَاقُ مِفْعَالٌ، وَهُوَ يَكُونُ لِلْآلَةِ كَثِيرًا كَمِرْقَاةٍ وَمِرْآةٍ وَمِحْرَاثٍ.**

**قَالَ الْخَفَاجِيُّ كَأَنَّهُ إِشْبَاعٌ لِلْمِفْعَلِ، وَلِلْمَصْدَرِ أَيْضًا نَحْوَ الْمِيلَادِ وَالْمِيعَادِ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ هُنَا. وَالضَّمِيرُ لِلْعَهْدِ، أَيْ مِنْ بَعْدِ تَوْكِيدِ الْعَهْدِ وَتَوْثِيقِهِ.**

**وَلَمَّا كَانَ الْمُرَادُ بِالْعَهْدِ عَهْدًا غَيْرَ مُعَيَّنٍ، بَلْ كُلُّ مَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ، كَانَ تَوْكِيدُ كُلِّ مَا يَفْرِضُهُ الْمُخَاطَبُ بِمَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الْعُهُودِ وَمَا تَأَخَّرَ عَنْهُ، فَهُوَ عَلَى حَدِّ: ﴿**[**وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**﴾[[631]](#footnote-631)، فَالْمِيثَاقُ إِذَنْ عَهْدٌ آخَرُ اعْتُبِرَ مُؤَكِّدًا لِعَهْدٍ سَبَقَهُ أَوْ لَحِقَهُ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾[[632]](#footnote-632)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**قِيلَ: مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ هُوَ قُرَابَةُ الْأَرْحَامِ، يَعْنِي: وَحَيْثُ تَرَجَّحَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ بَعْضُ عَمَلِ الْيَهُودِ، فَذَلِكَ إِذْ تَقَاتَلُوا وَأَخْرَجُوا كَثِيرًا مِنْهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَلَمْ تَزَلِ التَّوْرَاةُ تُوصِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بِحُسْنِ مُعَامَلَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ.**

**وَقِيلَ: الْإِعْرَاضُ عَنْ قَطْعِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ هُوَ مُوَالَاةُ الْمُؤْمِنِينَ. وَقِيلَ: اقْتِرَانُ الْقَوْلِ بِالْعَمَلِ. وَقِيلَ: التَّفْرِقَةُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْإِيمَانِ بِبَعْضٍ وَالْكُفْرِ بِبَعْضٍ.**

**وَقَالَ الْبَغَوِيُّ يَعْنِي بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ الْإِيمَانَ بِمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَبِجَمِيعِ الرُّسُلِ.**

**وَأَقُولُ تَكْمِيلًا لِهَذَا: إِنَّ مُرَادَ اللَّهِ –تَعَالَى- مِمَّا شَرَعَ لِلنَّاسِ مُنْذُ النَّشْأَةِ إِلَى خَتْمِ الرِّسَالَةِ وَاحِدٌ وَهُوَ إِبْلَاغُ الْبَشَرِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي خُلِقُوا لَهَا وَحِفْظُ نِظَامِ عَالَمِهِمْ وَضَبْطُ تَصَرُّفَاتِهِمْ فِيهِ عَلَى وَجْهٍ لَا يَعْتَوِرُهُ خَلَلٌ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَتِ الشَّرَائِعُ عَلَى حَسَبِ مَبْلَغِ تَهَيُّئِ الْبَشَرِ لِتَلَقِّي مُرَادِ اللَّهِ –تَعَالَى-.**

**وَلِذَلِكَ قَلَّمَا اخْتَلَفَتِ الْأُصُولُ الْأَسَاسِيَّةُ لِلشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾[[633]](#footnote-633)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**الْآيَةَ.**

**وَإِنَّمَا اخْتَلَفَتِ الشَّرَائِعُ فِي تَفَارِيعِ أُصُولِهَا اخْتِلَافًا مُرَاعًى فِيهِ مَبْلَغَ طَاقَةِ الْبَشَرِ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنْهُ بِهِمْ حَتَّى فِي حَمْلِهِمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ لِيَكُونَ تَلَقِّيهِمْ لِذَلِكَ أَسْهَلَ، وَعَمَلُهُمْ بِهِ أَدْوَمَ، إِلَى أَنْ جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي وَقْتٍ رَاهَقَ فِيهِ الْبَشَرُ مَبْلَغَ غَايَةِ الْكَمَالِ الْعَقْلِيِّ، وَجَاءَهُمْ دِينٌ تُنَاسِبُ أَحْكَامُهُ وَأُصُولُهُ اسْتِعْدَادَهُمُ الْفِكْرِيَّ، وَإِنْ تَخَالَفَتِ الْأَعْصَارُ وَتَبَاعَدَتِ الْأَقْطَارُ، فَكَانَ دِينًا عَامًّا لِجَمِيعِ الْبَشَرِ، فَلَا جَرَمَ أَنْ كَانَتِ الشَّرَائِعُ السَّابِقَةُ تَمْهِيدًا لَهُ لِتُهَيِّئَ الْبَشَرَ لِقَبُولِ تَعَالِيمِهِ وَتَفَارِيعِهَا الَّتِي هِيَ غَايَةُ مُرَادِ اللَّهِ -تَعَالَى- مِنَ النَّاسِ، وَلِذَا قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[[634]](#footnote-634).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)

**فَمَا مِنْ شَرِيعَةٍ سَلَفَتْ إِلَّا وَهِيَ حَلْقَةٌ مِنْ سِلْسِلَةٍ جُعِلَتْ وَصْلَةً لِلْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا انْفِصَامَ لَهَا، وَهِيَ عُرْوَةُ الْإِسْلَامِ، فَمَتَى بَلَغَهَا النَّاسُ، فَقَدْ فَصَمُوا مَا قَبْلَهَا مِنَ الْحِلَقِ وَبَلَغُوا الْمُرَادَ، وَمَتَى انْقَطَعُوا فِي أَثْنَاءِ بَعْضِ الْحِلَقِ، فَقَدْ قَطَعُوا مَا أَرَادَ اللَّهُ وَصْلَهُ.**

**فَالْيَهُودُ لَمَّا زَعَمُوا أَنَّهُمْ لَا يَحِلُّ لَهُمُ الْعُدُولُ عَنْ شَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ، قَدْ قَطَعُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، فَفَرَّقُوا مُجْتَمَعَهُ.**

**وَالْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾[[635]](#footnote-635)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**وَمِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ عُكُوفُ قَوْمٍ عَلَى دِينٍ قَدِ اضْمَحَلَّ وَقْتُ الْعَمَلِ بِهِ وَأَصْبَحَ غَيْرَ صَالِحٍ لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنَ الْبَشَرِ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا جَعَلَ شَرِيعَةً مِنَ الشَّرَائِعِ خَاصَّةً وَقَابِلَةً لِلنَّسْخِ إِلَّا وَقَدْ أَرَادَ مِنْهَا إِصْلَاحَ طَائِفَةٍ مِنَ الْبَشَرِ مُعَيَّنَةٍ فِي مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ فِي عِلْمِهِ، وَمَا نَسَخَ دِينًا إِلَّا لِتَمَامِ وَقْتِ صُلُوحِيَّتِهِ لِلْعَمَلِ بِهِ.**

**فَالتَّصْمِيمُ عَلَى عَدَمِ تَلَقِّي النَّاسِخِ وَعَلَى مُلَازَمَةِ الْمَنْسُوخِ هُوَ عَمَلٌ بِمَا لَمْ يَبْقَ فِيهِ صَلَاحٌ لِلْبَشَرِ فَيَصِيرُ ذَلِكَ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ، لِأَنَّهُ كَمُدَاوَاةِ الْمَرِيضِ بِدَوَاءٍ كَانَ وُصِفَ لَهُ فِي حَالَةٍ تَبَدَّلَتْ مِنْ أَحْوَالِ مَرَضِهِ حَتَّى أَتَى دِينُ الْإِسْلَامِ عَامًّا دَائِمًا، لِأَنَّهُ صَالِحٌ لِلْكُلِّ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[[636]](#footnote-636)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**قَصْرُ قَلْبٍ، لِأَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنْفُسَهُمْ رَابِحِين،َ وَهُوَ اسْتِعَارَةٌ مَكْنِيَّةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ تَقَدَّمَتْ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿**[**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾[[637]](#footnote-637)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**وَذِكْرُ الْخُسْرَانِ تَخْيِيلٌ مُرَادٌ مِنْهُ الِاسْتِعَارَةُ فِي ذَاتِهِ عَلَى نَحْوِ مَا قَرَّرَ فِي ﴿**[**يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**﴾[[638]](#footnote-638).**

**فَهَذِهِ الْآيَةُ ظَاهِرَةٌ فِي أَنَّهَا مُوَجَّهَةٌ إِلَى الْيَهُودِ لِمَا عَلِمْتَ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[[639]](#footnote-639)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**وَلِمَا عَلِمْتَ مِنْ كَثْرَةِ إِطْلَاقِ وَصْفِ الْفَاسِقِينَ عَلَى الْيَهُودِ.**

**وَإِنْ كَانَ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي أَمْثَالِ الْقُرْآنِ فَرِيقَيْنِ: الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودَ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَكَانَ الْقُرْآنُ قَدْ وَصَفَ الْمُشْرِكِينَ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ -وَهِيَ مَكِّيَّةٌ- بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الثَّلَاثِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[[640]](#footnote-640)؛**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**فَالْمُرَادُ بِهِمُ: الْمُشْرِكُونَ لَا مَحَالَةَ.**

**فَذَلِكَ كُلُّهُ لَا يُنَاكِدُ جَعْلَ آيَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مُوَجَّهَةً إِلَى الْيَهُودِ، إِذْ لَيْسَ يَلْزَمُ الْمُفَسِّرَ حَمْلُهُ أَيِ الْقُرْآنِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ كَمَا يُوهِمُهُ صَنِيعُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ حَتَّى كَانَ آيُ الْقُرْآنِ عِنْدَهُمْ قَوَالِبَ تُفَرَّغُ فِيهَا مَعَانٍ مُتَّحِدَةٌ.**

**وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِضِدِّ هَذِهِ الصِّفَاتِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾[[641]](#footnote-641)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)**الْآيَةَ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ.**

**وَاعْلَمْ أَنَّ نُزُولَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَنَحْوِهَا فِي بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوِ الْمُشْرِكِينَ هُوَ وَعِيدٌ وَتَوْبِيخٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، وَهُوَ أَيْضًا مَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، لِيَعْلَمَ سَامِعُوهُ أَنَّ كُلَّ مَنْ شَارَكَ هَؤُلَاءِ الْمَذْمُومِينَ فِيمَا أَوْجَبَ ذَمَّهُمْ وَسَبَّبَ وَعِيدَهُمْ هُوَ آخِذٌ بِحَظٍّ مِمَّا نَالَهُمْ مِنْ ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ مِقْدَارِ الْمُشَارَكَةِ فِي الْمُوجِبِ.**

**﴿**[**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[[642]](#footnote-642)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)

**ثَنَى عِنَانَ الْخَطَّابِ إِلَى النَّاسِ الَّذِينَ خُوطِبُوا بِقَوْلِهِ آنِفًا: ﴿**[**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**﴾[[643]](#footnote-643)، بَعْدَ أَنْ عَقَّبَ بِأَفَانِينَ مِنَ الْجُمَلِ الْمُعْتَرِضَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي﴾[[644]](#footnote-644)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**الْخَاسِرُونَ﴾[[645]](#footnote-645)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾[[646]](#footnote-646)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**تَنَاسَبٌ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿**[**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾[[647]](#footnote-647)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**وَمَا بَعْدَهُ مِمَّا حَكَى عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قَوْلِهِمْ: ﴿**[**مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾[[648]](#footnote-648)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**حَتَّى يَكُونَ الِانْتِقَالُ إِلَى الْخِطَابِ فِي قَوْلِه:ِ تَكْفُرُونَ الْتِفَاتًا، فَالْمُنَاسَبَةُ بَيْنَ مَوْقِعِ هَاتِهِ الْآيَةِ بَعْدَ مَا قَبْلَهَا هِيَ مُنَاسَبَةُ اتِّحَادِ الْغَرَضِ، بَعْدَ اسْتِيفَاءِ مَا تَخَلَّلَ وَاعْتَرَضَ.**

**وَمِنْ بَدِيعِ الْمُنَاسِبَةِ وَفَائِقِ التَّفَنُّنِ فِي ضُرُوبِ الِانْتِقَالَاتِ فِي الْمُخَاطَبَاتِ أَنْ كَانَتِ الْعِلَلُ الَّتِي قُرِنَ بِهَا الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ –تَعَالَى- فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[[649]](#footnote-649)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**إِلَخْ هِيَ الْعِلَلُ الَّتِي قُرِنَ بِهَا إِنْكَارُ ضِدِّ الْعِبَادَةِ، وَهُوَ الْكُفْرُ بِهِ –تَعَالَى- فِي قَوْلِهِ هُنَا: ﴿**[**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾[[650]](#footnote-650)؛**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**فَقَالَ فِيمَا تَقَدَّمَ: ﴿**[**الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾[[651]](#footnote-651)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**الْآيَةَ، وَقَالَ هُنَا: ﴿**[**وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾[[652]](#footnote-652)؛**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**وَكَانَ ذَلِكَ مَبْدَأَ التَّخَلُّصِ إِلَى مَا سَيَرِدُ مِنْ بَيَانِ ابْتِدَاءِ إِنْشَاءِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ وَتَكْوِينِهِ وَأَطْوَارِهِ.**

**فَالْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ تَكْفُرُونَ مُتَعَيِّنٌ رُجُوعُهُ إِلَى (النَّاسِ)، وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، لِأَنَّ الْيَهُودَ لَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَلَا أَنْكَرُوا الْإِحْيَاءَ الثَّانِيَ.**

**وَ كَيْفَ اسْمٌ لَا يُعْرَفُ اشْتِقَاقُهُ يَدُلُّ عَلَى حَالَةٍ خَاصَّةٍ، وَهِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا الْكَيْفِيَّةُ نِسْبَةً إِلَى كَيْفَ، وَيَتَضَمَّنُ مَعْنَى السُّؤَالِ فِي أَكْثَرِ مَوَارِدِ اسْتِعْمَالِهِ. فَلِدَلَالَتِهِ عَلَى الْحَالَةِ كَانَ فِي عِدَادِ الْأَسْمَاءِ، لِأَنَّهُ أَفَادَ مَعْنًى فِي نَفْسِهِ إِلَّا أَنَّ الْمَعْنَى الْأَسْمَى الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ لَمَّا كَانَ مَعْنًى مُبْهَمًا شَابَهَ مَعْنَى الْحَرْفِ.**

**فَلَمَّا أَشْرَبُوهُ مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ قَوَّى شَبَهَهُ بِالْحُرُوفِ، لَكِنَّهُ لَا يَخْرُجُ عَنْ خَصَائِصِ الْأَسْمَاءِ، فَلِذَلِكَ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مَحَلِّ إِعْرَابٍ، وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِهِ اسْمُ اسْتِفْهَامٍ فَيُعْرَبُ إِعْرَابَ الْحَالِ. وَيُسْتَفْهَمُ بِكَيْفَ عَنِ الْحَالِ الْعَامَّةِ.**

**وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعْجِيبِ وَالْإِنْكَارِ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾[[653]](#footnote-653)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**إِلَخْ، أَيْ أَنَّ كُفْرَكُمْ مَعَ تِلْكَ الْحَالَةِ شَأْنُهُ أَنْ يَكُونَ مُنْتَفِيًا لَا تَرْكَنُ إِلَيْهِ النَّفْسُ الرَّشِيدَةُ لِوُجُودِ مَا يَصْرِفُ عَنْهُ، وَهُوَ الْأَحْوَالُ الْمَذْكُورَةُ بَعْدُ، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُنْكَرَ، فَالْإِنْكَارُ مُتَوَلَّدٌ مِنْ مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ وَلِذَلِكَ فَاسْتِعْمَالُهُ فِيهِمَا مِنْ إِرَادَةِ لَازِمِ اللَّفْظِ، وَكَأَنَّ الْمُنْكِرَ يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ مَعْذِرَةَ الْمُخَاطَب،ِ فَيُظْهِرُ لَهُ أَنَّهُ يَتَطَلَّبُ مِنْهُ الْجَوَابَ بِمَا يُظْهِرُ السَّبَبَ فَيَبْطُلُ الْإِنْكَارُ وَالْعَجَبُ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْدُ ذَلِكَ كَانَ حَقِيقًا بِاللَّوْمِ وَالْوَعِيدِ.**

**وَالْكُفْرُ بِضَمِّ الْكَافِ مَصْدَرٌ سَمَاعِيٌّ لِكَفَرَ الثُّلَاثِيِّ الْقَاصِرِ وَأَصْلُهُ جَحْدُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ نِعْمَةَ الْمُنْعِمِ، اشْتُقَّ مِنْ مَادَّةِ الْكَفْرِ بِفَتْحِ الْكَافِ وَهُوَ الْحَجْبُ وَالتَّغْطِيَةُ، لِأَنَّ جَاحِدَ النِّعْمَةِ قَدْ أَخْفَى الِاعْتِرَافَ بِهَا كَمَا أَنَّ شَاكِرَهَا أَعْلَنَهَا.**

**وَضِدُّهُ الشُّكْرُ وَلِذَلِكَ صِيغَ لَهُ مَصْدَرٌ عَلَى وِزَانِ الشُّكْرِ وَقَالُوا أَيْضًا: كُفْرَانٌ عَلَى وَزْنِ شُكْرَانٍ، ثُمَّ أُطْلِقَ الْكُفْرُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ فِي الْعِبَادَةِ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ أَشَدُّ صُوَرِ كُفْرِ النِّعْمَةِ إِذِ الَّذِي يَتْرُكُ عِبَادَةَ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ قَدْ كَفَرَ نِعْمَتَهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، إِذْ تَوَجَّهَ بِالشُّكْرِ لِغَيْرِ الْمُنْعِمِ وَتَرَكَ الْمُنْعِمَ حِينَ عَزْمِهِ عَلَى التَّوَجُّهِ بِالشُّكْرِ، وَلِأَنَّ عَزْمَ نَفْسِهِ عَلَى مُدَاوَمَةِ ذَلِكَ اسْتِمْرَارٌ فِي عَقْدِ الْقَلْبِ عَلَى كُفْرِ النِّعْمَةِ وَإِنْ لَمْ يَتَفَطَّنْ لِذَلِكَ، فَكَانَ أَكْثَرُ إِطْلَاقِ الْكُفْرِ بِصِيغَةِ الْمَصْدَرِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ، وَلَمْ يَرِدِ الْكُفْرُ بِصِيغَةِ الْمَصْدَرِ فِي الْقُرْآنِ لِغَيْرِ مَعْنَى الْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ.**

**وَقَلَّ وُرُودُ فِعْلِ الْكُفْرِ أَوْ وَصْفِ الْكَافِرِ فِي الْقُرْآنِ لِجَحْدِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَذَلِكَ حَيْثُ تَكُونُ قَرِينَةٌ عَلَى إِرَادَةِ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿**[**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾[[654]](#footnote-654)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**وَقَوْلِهِ: ﴿**[**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[[655]](#footnote-655)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**يُرِيدُ الْيَهُودَ.**

**وَأَمَّا إِطْلَاقُهُ فِي السُّنَّةِ وَفِي كَلَامِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ الِاعْتِقَادُ الَّذِي يُخْرِجُ مُعْتَقِدَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ الِاعْتِقَادِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ دَلَالَةً لَا تَحْتَمِلُ غَيْرَ ذَلِكَ.**

**وَقَدْ وَرَدَ إِطْلَاقُ الْكُفْرِ فِي كَلَامِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَلَامِ بَعْضِ السَّلَفِ عَلَى ارْتِكَابِ جَرِيمَةٍ عَظِيمَةٍ فِي الْإِسْلَامِ إِطْلَاقًا عَلَى وَجْهِ التَّغْلِيظِ بِالتَّشْبِيهِ الْمُفِيدِ لِتَشْنِيعِ ارْتِكَابِ مَا هُوَ مِنَ الْأَفْعَالِ الْمُبَاحَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَلَكِنَّ بَعْضَ فِرَقِ الْمُسْلِمِينَ يَتَشَبَّثُونَ بِظَاهِرِ ذَلِكَ الْإِطْلَاقِ فَيَقْضُونَ بِالْكُفْرِ عَلَى مُرْتَكِبِ الْكَبَائِرِ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى مَا يُعَارِضُ ذَلِكَ فِي إِطْلَاقَاتِ كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.**

**وَفِرَقُ الْمُسْلِمِينَ يَخْتَلِفُونَ فِي أَنَّ ارْتِكَابَ بَعْضِ الْأَعْمَالِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا يَدْخُلُ فِي مَاهِيَّةِ الْكُفْرِ وَفِي أَنَّ إِثْبَاتَ بَعْضِ الصِّفَاتِ لِلَّهِ –تَعَالَى- أَوْ نَفْيَ بَعْضِ الصِّفَاتِ عَنْهُ -تَعَالَى- دَاخِلٌ فِي مَاهِيَّةِ الْكُفْرِ عَلَى مَذَاهِبَ شَتَّى.**

**وَمَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ أَنَّهُ لَا يُكَفَّرُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذَنْبٍ أَوْ ذُنُوبٍ مِنَ الْكَبَائِرِ، فَقَدِ ارْتُكِبَتِ الذُّنُوبُ الْكَبَائِرُ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالْخُلَفَاءِ، فَلَمْ يُعَامِلُوا الْمُجْرِمِينَ مُعَامَلَةَ الْمُرْتَدِّينَ عَنِ الدِّينِ، وَالْقَوْلُ بِتَكْفِيرِ الْعُصَاةِ، خَطَرٌ عَلَى الدِّينِ لِأَنَّهُ يَؤُولُ إِلَى انْحِلَالِ جَامِعَةِ الْإِسْلَامِ وَيُهَوِّنُ عَلَى الْمُذْنِبِ الِانْسِلَاخَ مِنَ الْإِسْلَامِ مُنْشِدًا:**

**أَنَا الْغَرِيقُ فَمَا خَوْفِي مِنَ الْبَلَـــــــــــــــــــــــــــلِ**

**وَلَا يُكَفَّرُ أَحَدٌ بِإِثْبَاتِ صِفَةٍ لِلَّهِ لَا تُنَافِي كَمَالَهُ وَلَا نَفَى صِفَةً عَنْهُ لَيْسَ فِي نَفْيِهَا نُقْصَانٌ لِجَلَالِهِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفِرَقِ نَفَوْا صِفَاتٍ مَا قَصَدُوا بِنَفْيِهَا إِلَّا إِجْلَالًا لِلَّهِ –تَعَالَى- وَرُبَّمَا أَفْرَطُوا فِي ذَلِكَ كَمَا نَفَى الْمُعْتَزِلَةُ صِفَاتِ الْمَعَانِي وَجَوَازَ رُؤْيَةِ اللَّهِ –تَعَالَى-، وَكَثِيرٌ مِنَ الْفَرْقِ أَثْبَتُوا صِفَاتٍ مَا قَصَدُوا مِنْ إِثْبَاتِهَا إِلَّا احْتِرَامَ ظَوَاهِرِ كَلَامِهِ –تَعَالَى-، كَمَا أَثْبَتَ بَعْضُ السَّلَفِ الْيَدَ وَالْإِصْبَعَ مَعَ جَزْمِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يُشْبِهُ الْحَوَادِثَ.**

**وَالْإِيمَانُ ذُكِرَ مَعْنَاهُ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[[656]](#footnote-656)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[[657]](#footnote-657)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، وَهِيَ تَخْلُصُ إِلَى بَيَانِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ (كَيْفَ) بِطَرِيقِ الْإِجْمَالِ وَبَيَانِ أُولَى الدَّلَائِلِ عَلَى وُجُودِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَهِيَ مَا يَشْعُرُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ أَنَّهُ وُجِدَ بَعْدَ عَدَمٍ.**

**وَلَقَدْ دَلَّ قَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**﴾[[658]](#footnote-658) أَنَّ هَذَا الْإِيجَادَ عَلَى حَالٍ بَدِيعٍ، وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ كَانَ مُرَكَّبَ أَشْيَاءٍ مَوْصُوفًا بِالْمَوْتِ، أَيْ لَا حَيَاةَ فِيهِ، إِذْ كَانَ قَدْ أُخِذَ مِنَ الْعَنَاصِرِ الْمُتَفَرِّقَةِ فِي الْهَوَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَمَعَتْ فِي الْغِذَاءِ، وَهُوَ مَوْجُودٌ ثَانٍ مَيِّتٌ؛ ثُمَّ اسْتُخْلِصَتْ مِنْهُ الْأَمْزِجَةُ مِنَ الدَّمِ وَغَيْرِهِ، وَهِيَ مَيْتَةٌ، ثُمَّ اسْتُخْلِصَ مِنْهُ النُّطْفَتَانِ لِلذَّكَرِ وَالْأُنْثَى؛ ثُمَّ امْتَزَجَ فَصَارَ عَلَقَةً، ثُمَّ مُضْغَةً كُلُّ هَذِهِ أَطْوَارِ أَوَّلِيَّةٌ لِوُجُودِ الْإِنْسَانِ، وَهِيَ مَوْجُودَاتٌ مَيِّتَةٌ؛ ثُمَّ بُثَّتْ فِيهِ الْحَيَاةُ بِنَفْخِ الرُّوحِ، فَأَخَذَ فِي الْحَيَاةِ إِلَى وَقْتِ الْوَضْعِ فَمَا بَعْدَهُ، وَكَانَ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَكْتَفُوا بِهِ دَلِيلًا عَلَى انْفِرَادِهِ –تَعَالَى- بِالْإِلَهِيَّةِ.**

**وَإِطْلَاقُ الْأَمْوَاتِ هُنَا مَجَازٌ شَائِعٌ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْمَوْتَ هُوَ عَدَمُ اتِّصَافِ الْجِسْمِ بِالْحَيَاةِ سَوَاءً كَانَ مُتَّصِفًا بِهَا مِنْ قَبْلُ، كَمَا هُوَ الْإِطْلَاقُ الْمَشْهُورُ فِي الْعُرْفِ أَمْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَا إِذَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَتَّصِفَ بِهَا.**

**فَعَلَى هَذَا يُقَالُ لِلْحَيَوَانِ فِي أَوَّلِ تَكْوِينِهِ نُطْفَةً وَعَلَقَةً وَمُضْغَةً: مَيِّتٌ لِأَنَّهُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَتَّصِفَ بِالْحَيَاةِ، فَيَكُونُ إِطْلَاقُ الْأَمْوَاتِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَيْهِمْ حِينَ كَانُوا غَيْرَ مُتَّصِفِينَ بِالْحَيَاةِ إِطْلَاقًا شَائِعًا، وَالْمَقْصُودُ بِهِ التَّمْهِيدُ لِقَوْلِهِ: فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ التَّمْهِيدُ وَالتَّقْرِيبُ لِقَوْلِهِ: ﴿**[**ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[[659]](#footnote-659).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)

**وَقَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ: الْمَوْتُ انْعِدَامُ الْحَيَاةِ بَعْدَ وُجُودِهَا، وَهُوَ مُخْتَارُ**[**الزَّمَخْشَرِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14423)**وَالسَّكَّاكِيِّ، وَهُوَ الظَّاهِرُ، وَعَلَيْهِ فَإِطْلَاقُ الْأَمْوَاتِ عَلَيْهِمْ فِي الْحَالَةِ السَّابِقَةِ عَلَى حُلُولِ الْحَيَاةِ اسْتِعَارَةٌ.**

**وَاتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّهُ إِطْلَاقٌ شَائِعٌ فِي الْقُرْآنِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَقِيقَةً فَهُوَ مَجَازٌ مَشْهُورٌ قَدْ سَاوَى الْحَقِيقَةَ وَزَالَ الِاخْتِلَافُ.**

**وَالْحَيَاةُ ضِدُّ الْمَوْتِ وَهِيَ فِي نَظَرِ الشَّرْعِ نَفْخُ الرُّوحِ فِي الْجِسْمِ، وَقَدْ تَعَسَّرَ تَعْرِيفُ الْحَيَاةِ أَوْ تَعْرِيفُ دَوَامِهَا عَلَى الْفَلَاسِفَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ تَعْرِيفًا حَقِيقِيًّا بِالْحَدِّ، وَأَوْضَحُ تَعَارِيفِهَا بِالرَّسْمِ أَنَّهَا قُوَّةٌ يَنْشَأُ عَنْهَا الْحِسُّ وَالْحَرَكَةُ وَأَنَّهَا مَشْرُوطَةٌ بِاعْتِدَالِ الْمِزَاجِ وَالْأَعْضَاءِ الرَّئِيسِيَّةِ الَّتِي بِهَا تَدُومُ الدَّوْرَةُ الدَّمَوِيَّةُ.**

**وَالْمُرَادُ بِالْمِزَاجِ التَّرْكِيبُ الْخَاصُّ الْمُنَاسِبُ مُنَاسِبَةً تَلِيقُ بِنَوْعٍ مَا مِنَ الْمُرَكَّبَاتِ الْعُنْصُرِيَّةِ وَذَلِكَ التَّرْكِيبُ يَحْصُلُ مِنْ تَعَادُلِ قُوًى وَأَجْزَاءٍ بِحَسَبِ مَا اقْتَضَتْهُ حَالَةُ الشَّيْءِ الْمُرَكَّبِ مَعَ انْبِثَاثِ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ، فَبِاعْتِدَالِ ذَلِكَ التَّرْكِيبِ يَكُونُ النَّوْعُ مُعْتَدِلًا وَلِكُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ مِزَاجٌ يَخُصُّهُ بِزِيَادَةِ تَرْكِيبٍ، وَلِكُلِّ شَخْصٍ مِنَ الصِّنْفِ مِزَاجٌ يَخُصُّهُ، وَيَتَكَوَّنُ ذَلِكَ الْمِزَاجُ عَلَى النِّظَامِ الْخَاصِّ. تَنْبَعِثُ الْحَيَاةُ فِي ذِي الْمِزَاجِ فِي إِبَّانِ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ وَهِيَ الْمُعَبَّرُ عَنْهَا بِالرُّوحِ النَّفْسَانِيِّ.**

**وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا التَّكْوِينِ حَدِيثُ التِّرْمِذِيِّ عَنْ**[**عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=10)**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:**[**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**فَأَشَارَ إِلَى حَالَاتِ التَّكْوِينِ الَّتِي بِهَا صَارَ الْمِزَاجُ مِزَاجًا مُنَاسِبًا حَتَّى انْبَعَثَتْ فِيهِ الْحَيَاةُ، ثُمَّ بِدَوَامِ انْتِظَامِ ذَلِكَ الْمِزَاجِ تَدُومُ الْحَيَاةُ وَبِاخْتِلَالِهِ تَزُولُ الْحَيَاةُ.**

**وَذَلِكَ الِاخْتِلَالُ هُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْفَسَادِ، وَمِنْ أَعْظَمِ الِاخْتِلَالِ فِيهِ اخْتِلَالُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ، وَهُوَ الدَّمُ إِذَا اخْتَلَتْ دَوْرَتُهُ فَعَرَضَ لَهُ فَسَادٌ، وَبِعُرُوضِ حَالَةِ تَوَقُّفِ عَمَلِ الْمِزَاجِ وَتَعَطُّلِ آثَارِهِ يَصِيرُ الْحَيُّ شَبِيهًا بِالْمَيِّتِ كَحَالَةِ الْمُغْمَى عَلَيْهِ وَحَالَةِ الْعُضْوِ الْمَفْلُوجِ، فَإِذَا انْقَطَعَ عَمَلُ الْمِزَاجِ، فَذَلِكَ الْمَوْتُ.**

**فَالْمَوْتُ عَدَمٌ وَالْحَيَاةُ مَلَكَةٌ، وَكِلَاهُمَا مَوْجُودٌ مَخْلُوقٌ قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾[[660]](#footnote-660)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**فِي سُورَةِ الْمُلْكِ.**

**وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[[661]](#footnote-661)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**الِامْتِنَانَ، بَلِ اسْتِدْلَالٌ مَحْضٌ ذَكَرَ شَيْئًا يَعُدُّهُ النَّاسُ نِعْمَةً وَشَيْئًا لَا يَعُدُّونَهُ نِعْمَةً وَهُوَ الْمَوْتَتَانِ، فَلَا يُشْكِلُ وُقُوعُ قَوْلِهِ أَمْوَاتًا، وَقَوْلِهِ: ﴿**[**ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾[[662]](#footnote-662)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**فِي سِيَاقِ الْآيَةِ.**

**وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿**[**ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[[663]](#footnote-663)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**فَذَلِكَ تَفْرِيعٌ عَنِ الِاسْتِدْلَالِ وَلَيْسَ هُوَ بِدَلِيلٍ إِذِ الْمُشْرِكُونَ يُنْكِرُونَ الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ، فَهُوَ إِدْمَاجٌ وَتَعْلِيمٌ وَلَيْسَ بِاسْتِدْلَالٍ، أَوْ يَكُونُ مَا قَامَ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ حَيَاةً ثَانِيَةً قَدْ قَامَ مَقَامَ الْعِلْمِ بِهَا وَإِنْ لَمْ يَحْصُلِ الْعِلْم،ُ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ عَلِمَ وُجُودَ الْخَالِقِ الْعَدْلِ الْحَكِيمِ، وَرَأَى النَّاسَ لَا يَجْرُونَ عَلَى مُقْتَضَى أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيه،ِ فَيَرَى الْمُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ فِي نِعْمَةٍ وَالصَّالِحَ فِي عَنَاءٍ عَلِمَ أَنَّ عَدْلَ اللَّهِ وَحِكْمَتَهُ مَا كَانَ لِيُضِيعَ عَمَلَ عَامِلٍ، وَأَنَّ هُنَالِكَ حَيَاةً أَحْكَمُ وَأَعْدَلُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ تَكُونُ أَحْوَالُ النَّاسِ فِيهَا عَلَى قَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ وَسُمُوِّ حَقَائِقِهِمْ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[[664]](#footnote-664)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)**أَيْ يَكُونُ رُجُوعُكُمْ إِلَيْهِ، شِبْهُ الْحُضُورِ لِلْحِسَابِ بِرُجُوعِ السَّائِرِ إِلَى مَنْزِلِهِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَكَأَنَّهُمْ صَدَرُوا مِنْ حَضْرَتِهِ.**

**فَإِذَا أَحْيَاهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَكَأَنَّهُمْ أَرْجَعَهُمْ إِلَيْهِ، وَهَذَا إِثْبَاتٌ لِلْحَشْرِ وَالْجَزَاءِ.**

**وَتَقْدِيمُ الْمُتَعَلِّقِ عَلَى عَامِلِهِ مُفِيدٌ الْقَصْرَ، وَهُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ سِيقَ لِلْمُخَاطَبِينَ لِإِفَادَتِهِمْ ذَلِكَ إِذْ كَانُوا مُنْكِرِينَ ذَلِكَ، وَفِيهِ تَأْيِيسٌ لَهُمْ مِنْ نَفْعِ أَصْنَامِهِمْ إِيَّاهُمْ إِذْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحَاجُّونَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّهُ إِنْ كَانَ بَعْثٌ وَحَشْرٌ فَسَيَجِدُونَ الْآلِهَةَ يَنْصُرُونَهُمْ.**

**وَ ﴿تُرْجَعُونَ﴾[[665]](#footnote-665) بِضَمِّ التَّاءِ وَفَتْحِ الْجِيمِ فِي قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ، وَقَرَأَهُ يَعْقُوبَ بِفَتْحِ التَّاءِ وَكَسْرِ الْجِيمِ، وَالْقِرَاءَةُ الْأُولَى عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ اللَّهَ أَرْجَعَهُمْ وَإِنْ كَانُوا كَارِهِينَ، لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ، وَالْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ بِاعْتِبَارِ وُقُوعِ الرُّجُوعِ مِنْهُمْ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الِاخْتِيَارِ أَوِ الْجَبْرِ.**

**﴿**[**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[[666]](#footnote-666)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=71#docu)

**هَذَا إِمَّا اسْتِدْلَالٌ ثَانٍ عَلَى شَنَاعَةِ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ –تَعَالَى-، وَعَلَى أَنَّهُ مِمَّا يُقْضَى مِنْهُ الْعَجَبُ فَإِنَّ دَلَائِلَ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ظَاهِرَةٌ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَفِي خَلْقِ جَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ، فَهُوَ ارْتِقَاءٌ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِكَثْرَةِ الْمَخْلُوقَاتِ.**

**وَفَصْلُ الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِمُرَاعَاةِ كَمَالِ الِاتِّصَالِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ لِأَنَّ هَذِهِ كَالنَّتِيجَةِ لِلدَّلِيلِ الْأَوَّلِ، لِأَنَّ فِي خَلْقِ الْأَرْضِ وَجَمِيعِ مَا فِيهَا وَفِي كَوْنِ ذَلِكَ لِمَنْفَعَةِ الْبَشَرِ إِكْمَالًا لِإِيجَادِهِمُ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿**[**وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[[667]](#footnote-667)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=71#docu)**لِأَنَّ فَائِدَةَ الْإِيجَادِ لَا تَكْمُلُ إِلَّا بِإِمْدَادِ الْمَوْجُودِ بِمَا فِيهِ سَلَامَتُهُ مِنْ آلَامِ الْحَاجَةِ إِلَى مُقَوِّمَاتِ وَجُودِهِ.**

**وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَرْكُ الْعَطْفِ لِدَفْعِ أَنْ يُوهِمَ الْعَطْفُ أَنَّ الدَّلِيلَ هُوَ مَجْمُوعُ الْأَمْرَيْنِ، فَبِتَرْكِ الْعَطْفِ يُعْلَمُ أَنَّ الدَّلِيلَ الْأَوَّلَ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ وَفِي الْأَوَّلِ بُعْدٌ وَفِي الثَّانِي مُخَالَفَةُ الْأَصْل،ِ لِأَنَّ أَصْلَ الْفَصْلِ أَنْ لَا يَكُونَ قَطْعًا عَلَى أَنَّهُ تَوَهُّمٌ لَا يَضِيرُ.**

**وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿**[**هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾[[668]](#footnote-668)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=71#docu)**امْتِنَانًا عَلَيْهِمْ بِالنِّعَمِ لِتَسْجِيلِ أَنَّ إِشْرَاكَهُمْ كُفْرَانٌ بِالنِّعْمَةِ أُدْمِجَ فِيهِ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى أَنَّهُ خَالِقٌ لِمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ وَمَعَادِنَ اسْتِدْلَالًا بِمَا هُوَ نِعْمَةٌ مُشَاهَدَةٌ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿لَكُمُ﴾[[669]](#footnote-669)، فَيَكُونُ الْفَصْلُ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ كَمَا قُرِّرَ آنِفًا. وَلَمْ يُلْتَفَتْ إِلَى مَا فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ مُغَايَرَةٍ لِلْجُمْلَةِ الْأَوْلَى بِالِامْتِنَانِ، لِأَنَّ مَا أُدْمِجَ فِيهَا مِنَ الِاسْتِدْلَالِ رَجَّحَ اعْتِبَارَ الْفَصْلِ.**

**وَالْخَلْقُ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[[670]](#footnote-670)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=71#docu)**وَالْأَرْضُ اسْمٌ لِلْعَالَمِ الْكُرَوِيِّ الْمُشْتَمِلِ عَلَى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. الَّذِي يُعَمِّرُهُ الْإِنْسَانُ وَالْحَيَوَانُ وَالنَّبَاتُ وَالْمَعَادِنُ، وَهِيَ الْمَوَالِيدُ الثَّلَاثَةُ، وَهَذِهِ الْأَرْضُ هِيَ مَوْجُودٌ كَائِنٌ هُوَ ظَرْفٌ لِمَا فِيهِ مِنْ أَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ.**

**وَحَيْثُ إِنَّ الْعِبْرَةَ كَائِنَةٌ فِي مُشَاهَدَةِ الْمَوْجُودَاتِ مِنَ الْمَوَالِيدِ الثَّلَاثَةِ، عُلِّقَ الْخَلْقُ هُنَا بِمَا فِي الْأَرْضِ مِمَّا يَحْتَوِيهِ ظَرْفُهَا مِنْ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ وَلَمْ يُعَلَّقْ بِذَاتِ الْأَرْضِ لِغَفْلَةِ جُلِّ النَّاسِ عَنِ الِاعْتِبَارِ بِبَدِيعِ خَلْقِهَا إِلَّا أَنَّ خَالِقَ الْمَظْرُوفِ جَدِيرٌ بِخَلْقِ الظَّرْفِ، إِذِ الظَّرْفُ إِنَّمَا يُقْصَدُ لِأَجْلِ الْمَظْرُوفِ.**

**فَلَوْ كَانَ الظَّرْفُ مِنْ غَيْرِ صُنْعِ خَالِقِ الْمَظْرُوفِ لَلَزِمَ إِمَّا تَأَخُّرُ الظَّرْفِ عَنْ مَظْرُوفِهِ -وَفِي ذَلِكَ إِتْلَافُ الْمَظْرُوفِ وَالْمُشَاهَدَةُ تَنْفِي ذَلِكَ- وَإِمَّا تَقَدُّمُ الظَّرْفِ وَذَلِكَ عَبَثٌ.**

**فَاسْتِفَادَةُ أَنَّهُ خَلَقَ الْأَرْضَ مَأْخُوذَةٌ بِطَرِيقِ الْفَحْوَى، فَمِنَ الْبَعِيدِ أَنْ يُجَوِّزَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* أَنْ يُرَادَ بِالْأَرْضِ الْجِهَةُ السُّفْلِيَّةُ، كَمَا يُرَادُ بِالسَّمَاءِ الْجِهَةُ الْعُلْوِيَّةُ.**

**وَبُعْدُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ:**

**- أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْأَرْضَ لَمْ تُطْلَقْ قَطُّ عَلَى غَيْرِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ إِلَّا مَجَازًا كَمَا فِي قَوْلِ شَاعِرٍ أَنْشَدَهُ صَاحِبُ الْمِفْتَاحِ فِي بَحْثِ التَّعْرِيفِ بِاللَّامِ وَلَمْ يَنْسُبْهُ هُوَ وَلَا شَارِحُوهُ:**

**النَّاسُ أَرْضٌ بِكُلِّ أَرْضٍ وَأَنْتِ مِنْ فَوْقِهِمْ سَمَاءْ**

**بِخِلَافِ السَّمَاءِ فَقَدْ أُطْلِقَتْ عَلَى كُلِّ مَا عَلَا فَأَظَلَّ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْأَرْضَ شَيْءٌ مُشَاهَدٌ، وَالسَّمَاءُ لَا يُتَعَقَّلُ إِلَّا بِكَوْنِهِ شَيْئًا مُرْتَفِعًا.**

**- الثَّانِي: عَلَى تَسْلِيمِ الْقِيَاسِ فَإِنَّ السَّمَاءَ لَمْ تُطْلَقْ عَلَى الْجِهَةِ الْعُلْيَا حَتَّى يَصِحَّ إِطْلَاقُ الْأَرْضِ عَلَى الْجِهَةِ السُّفْلَى بَلْ إِنَّمَا تُطْلَقُ السَّمَاءُ عَلَى شَيْءٍ عَالٍ لَا عَلَى نَفْسِ الْجِهَةِ.**

**وَجُمْلَةُ: ﴿**[**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ﴾[[671]](#footnote-671)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=71#docu)**صِيغَةُ قَصْرٍ وَهُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ سِيقَ لِلْمُخَاطَبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا شَكَّ عِنْدِهِمْ فِي أَنَّ اللَّهَ خَالِقٌ مَا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنَّهُمْ نُزِّلُوا مَنْزِلَةَ الْجَاهِلِ بِذَلِكَ فَسِيقَ لَهُمُ الْخَبَرُ الْمَحْصُورُ لِأَنَّهُمْ فِي كُفْرِهِمْ وَانْصِرَافِهِمْ عَنْ شُكْرِهِ وَالنَّظَرِ فِي دَعْوَتِهِ وَعِبَادَتِهِ كَحَالِ مَنْ يَجْهَلُ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ.**

**وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿**[**أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[[672]](#footnote-672)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=71#docu)**فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يُثْبِتُونَ لِأَصْنَامِهِمْ قُدْرَةً عَلَى الْخَلْقِ، وَإِنَّمَا جَعَلُوهَا شُفَعَاءَ وَوَسَائِطَ وَعَبَدُوهَا وَأَعْرَضُوا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ حَقَّ عِبَادَتِهِ، وَنَسُوا الْخَلْقَ الْمُلْتَصِقَ بِهِمْ وَبِمَا حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَحْيَاءِ.**

**وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْكَلَامِ فِيمَا أَرَاهُ مُوَافِقًا لِلْبَلَاغَةِ التَّذْكِيرُ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ خَالِقُ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا وَمَا فِي دَاخِلِهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ خَلَقَهُ بِقَدْرِ انْتِفَاعِنَا بِهَا وَبِمَا فِيهَا فِي مُخْتَلَفِ الْأَزْمَانِ وَالْأَحْوَالِ، فَأَوْجَزَ الْكَلَامَ إِيجَازًا بَدِيعًا بِإِقْحَامِ قَوْلِهِ: لَكُمُ فَأَغْنَى عَنْ جُمْلَةٍ كَامِلَةٍ، فَالْكَلَامُ مَسُوقٌ مَسَاقَ إِظْهَارِ عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَإِظْهَارِ عَظِيمِ الْمِنَّةِ عَلَى الْبَشَرِ وَإِظْهَارِ عَظِيمِ مَنْزِلَةِ الْإِنْسَانِ عِنْدَ اللَّهِ –تَعَالَى-. وَكُلُّ أُولَئِكَ يَقْتَضِي اقْتِلَاعَ الْكُفْرِ مِنْ نُفُوسِهِمْ.**

**وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ فَائِدَتَانِ: الْأُولَى أَنَّ لَامَ التَّعْلِيلِ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ خَلْقَ مَا فِي الْأَرْضِ كَانَ لِأَجْلِ النَّاسِ، وَفِي هَذَا تَعْلِيلٌ لِلْخَلْقِ وَبَيَانٌ لِثَمَرَتِهِ وَفَائِدَتِهِ فَتُثَارُ عَنْهُ مَسْأَلَةُ تَعْلِيلِ أَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعَلُّقِهَا بِالْأَغْرَاضِ.**

**وَالْمَسْأَلَةُ مُخْتَلَفٌ فِيهَا بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِينَ اخْتِلَافًا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ لَفْظِيًّا، فَإِنَّ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ أَفْعَالَ اللَّهِ –تَعَالَى- نَاشِئَةٌ عَنْ إِرَادَةٍ وَاخْتِيَارٍ وَعَلَى وَفْقِ عِلْمِه،ِ وَأَنَّ جَمِيعِهَا مُشْتَمِلٌ عَلَى حِكَمٍ وَمَصَالِحَ وَأَنَّ تِلْكَ الْحِكَمَ هِيَ ثَمَرَاتٌ لِأَفْعَالِهِ تَعَالَى نَاشِئَةٌ عَنْ حُصُولِ الْفِعْلِ فَهِيَ لِأَجَلِ حُصُولِهَا عِنْدَ الْفِعْلِ تُثْمِرُ غَايَاتٍ، هَذَا كُلُّهُ لَا خِلَافَ فِيهِ.**

**وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي أَنَّهَا أَتُوصَفُ بِكَوْنِهَا أَغْرَاضًا وَعِلَلًا غَائِبَةً أَمْ لَا؟ فَأَثْبَتَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ اسْتِدْلَالًا بِمَا وَرَدَ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[[673]](#footnote-673)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=71#docu)**وَمَنَعَ مِنْ ذَلِكَ أَصْحَابُ الْأَشْعَرِيِّ فِيمَا عَزَاهُ إِلَيْهِمُ الْفَخْرُ فِي التَّفْسِيرِ مُسْتَدِلِّينَ بِأَنَّ الَّذِي يُفْعَلُ لِغَرَضٍ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَفِيدًا مِنْ غَرَضِهِ ذَلِكَ ضَرُورَةَ أَنَّ وُجُودَ ذَلِكَ الْغَرَضِ أَوْلَى بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِ مِنْ عَدَمِهِ، فَيَكُونُ مُسْتَفِيدًا مِنْ تِلْكَ الْأَوْلَوِيَّةِ.**

**وَيَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ ذَلِكَ الْغَرَضِ سَبَبًا فِي فِعْلِهِ أَنْ يَكُونَ، هُوَ نَاقِصًا فِي فَاعِلِيَّتِهِ مُحْتَاجًا إِلَى حُصُولِ السَّبَبِ، وَقَدْ أُجِيبَ بِأَنَّ لُزُومَ الِاسْتِفَادَةِ وَالِاسْتِكْمَالِ إِذَا كَانَتِ الْمَنْفَعَةُ رَاجِعَةً إِلَى الْفَاعِلِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ رَاجِعَةً لِلْغَيْرِ كَالْإِحْسَانِ فَلَا، فَرَدَّهُ الْفَخْرُ بِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْإِحْسَانُ أَرْجَحَ مِنْ غَيْرِهِ وَأَوْلَى، لَزِمَتِ الِاسْتِفَادَةُ.**

**وَهَذَا الرَّدُّ بَاطِلٌ لِأَنَّ الْأَرْجَحِيَّةَ لَا تَسْتَلْزِمُ الِاسْتِفَادَةَ أَبَدًا بَلْ إِنَّمَا تَسْتَلْزِمُ تَعَلُّقَ الْإِرَادَةِ، وَإِنَّمَا تَلْزَمُ الِاسْتِفَادَةُ لَوِ ادَّعَيْنَا التَّعَيُّنَ وَالْوُجُوبَ.**

**وَالْحَاصِلُ أَنَّ الدَّلِيلَ الَّذِي اسْتَدَلُّوا بِهِ يَشْتَمِلُ عَلَى مُقَدِّمَتَيْنِ سُفِسْطَائِيَّتَيْنِ أُولَاهُمَا قَوْلُهُمْ: إِنَّهُ لَوْ كَانَ الْفِعْلُ لِغَرَضٍ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ مُسْتَكْمِلًا بِهِ.**

**وَهَذَا سَفْسَطَةٌ شُبِّهَ فِيهَا الْغَرَضُ النَّافِعُ لِلْفَاعِلِ بِالْغَرَضِ بِمَعْنَى الدَّاعِي إِلَى الْفِعْلِ، وَالرَّاجِعُ إِلَى مَا يُنَاسِبُهُ مِنَ الْكَمَالِ لَا تَوَقُّفَ كَمَالِهِ عَلَيْهِ.**

**الثَّانِيَةُ قَوْلُهُمْ: إِذَا كَانَ الْفِعْلُ لِغَرَضٍ كَانَ الْغَرَضُ سَبَبًا يَقْتَضِي عَجْزَ الْفَاعِلِ، وَهَذَا شُبِّهَ فِيهِ السَّبَبُ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى الْبَاعِثِ بِالسَّبَبِ الَّذِي يَلْزَمُ مِنْ وُجُودِهِ الْوُجُودُ وَمَنْ عَدِمَهِ الْعَدَمُ وَكِلَاهُمَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ سَبَبٌ.**

**وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُمْ يُسَلِّمُونَ أَنَّ أَفْعَالَ اللَّهِ –تَعَالَى- لَا تَخْلُو عَنِ الثَّمَرَةِ وَالْحِكْمَةِ وَيَمْنَعُونَ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْحِكَمُ عِلَلًا وَأَغْرَاضًا مَعَ أَنَّ ثَمَرَةَ فِعْلِ الْفَاعِلِ الْعَالِمِ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا تَخْلُو مِنْ أَنْ تَكُونَ غَرَضًا لِأَنَّهَا تَكُونُ دَاعِيًا لِلْفِعْلِ ضَرُورَةَ تَحَقُّقِ عِلْمِ الْفَاعِلِ وَإِرَادَتِهِ. وَلَمْ أَدْرِ أَيَّ حَرَجٍ نَظَرُوا إِلَيْهِ حِينَ مَنَعُوا تَعْلِيلَ أَفْعَالِ اللَّهِ –تَعَالَى- وَأَغْرَاضِهَا.**

**وَيَتَرَجَّحُ عِنْدِي أَنَّ هَاتِهِ الْمَسْأَلَةَ اقْتَضَاهَا طَرْدُ الْأُصُولِ فِي الْمُنَاظَرَةِ، فَإِنَّ الْأَشَاعِرَةَ لَمَّا أَنْكَرُوا وُجُوبَ فِعْلِ الصَّلَاحِ وَالْأَصْلَحِ أَوْرَدَ عَلَيْهِمُ الْمُعْتَزِلَةُ أَوْ قَدَّرُوا هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنْ يُورَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى- لَا يَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا لِغَرَضٍ وَحِكْمَةٍ، وَلَا تَكُونُ الْأَغْرَاضُ إِلَّا الْمَصَالِحَ، فَالْتَزَمُوا أَنَّ أَفْعَالَ اللَّهِ –تَعَالَى- لَا تُنَاطُ بِالْأَغْرَاضِ وَلَا يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالْعِلَل،ِ وَيُنْبِئُ عَنْ هَذَا أَنَّهُمْ لَمَّا ذَكَرُوا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ ذَكَرُوا فِي أَدِلَّتِهِمُ الْإِحْسَانَ لِلْغَيْرِ وَرَعْيَ الْمَصْلَحَةِ.**

**وَهُنَالِكَ سَبَبٌ آخَرُ لِفَرْضِ الْمَسْأَلَةِ وَهُوَ التَّنَزُّهُ عَنْ وَصْفِ أَفْعَالِ اللَّهِ –تَعَالَى- بِمَا يُوهِمُ الْمَنْفَعَةَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ وَكِلَاهُمَا بَاطِلٌ، لِأَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِأَفْعَالِهِ، وَلِأَنَّ الْغَيْرَ قَدْ لَا يَكُونُ فِعْلُ اللَّهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ مَنْفَعَةً.**

**هَذَا وَقَدْ نَقَلَ أَبُو إِسْحَاقَ الشَّاطِبِيُّ فِي الْمُوَافَقَاتِ عَنْ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ أَنَّ أَحْكَامَ اللَّهِ –تَعَالَى- مُعَلَّلَةٌ بِالْمَصَالِحِ وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ.**

**وَقَدْ جَمَعَ الْأَقْوَالَ الشَّيْخُ**[**ابْنُ عَرَفَةَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14120)**فِي تَفْسِيرِهِ، فَقَالَ: هَذَا هُوَ تَعْلِيلُ أَفْعَالِ اللَّهِ –تَعَالَى- وَفِيهِ خِلَافٌ، وَأَمَّا أَحْكَامُهُ فَمُعَلَّلَةٌ.**

**- الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَخَذُوا مِنْ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[[674]](#footnote-674)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=71#docu)**أَنَّ أَصْلَ اسْتِعْمَالِ الْأَشْيَاءِ فِيمَا يُرَادُ لَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الِاسْتِعْمَالِ هُوَ الْإِبَاحَةُ، حَتَّى يَدُلَّ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِهَا، لِأَنَّهُ جَعَلَ مَا فِي الْأَرْضِ مَخْلُوقًا لِأَجْلِنَا وَامْتَنَّ بِذَلِكَ عَلَيْنَا.**

**وَبِذَلِكَ قَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ وَالْبَيْضَاوِيُّ وَصَاحِبُ *الْكَشَّافِ* - وَنُسِبَ إِلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَجَمَاعَةٍ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَفِيَّةِ مِنْهُمُ الْكَرْخِيُّ، وَنُسِبَ إِلَى**[**الشَّافِعِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=13790)**.**

**وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَجُمْهُورُ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةُ فِي نَقْلِ**[**ابْنِ عَرَفَةَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14120)**- إِلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْأَشْيَاءِ الْوَقْفُ وَلَمْ يَرَوُا الْآيَةَ دَلِيلًا، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي أَحْكَامِهِ: إِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ –تَعَالَى- هَذِهِ الْآيَةَ فِي مَعْرِضِ الدَّلَالَةِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى طَرِيقِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَتَصْرِيفِ الْمَخْلُوقَاتِ بِمُقْتَضَى التَّقْدِيرِ وَالْإِتْقَانِ بِالْعِلْمِ إِلَخْ.**

**وَالْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ مُجْمَلَةٌ قُصِدَ مِنْهَا التَّنْبِيهُ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ بِخَلْقِ مَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّهُ خُلِقَ لِأَجْلِنَا إِلَّا أَنَّ خَلْقَهُ لِأَجْلِنَا لَا يَسْتَلْزِمُ إِبَاحَةَ اسْتِعْمَالِهِ فِي كُلِّ مَا يُقْصَدُ مِنْهُ، بَلْ خُلِقَ لَنَا فِي الْجُمْلَةِ، عَلَى أَنَّ الِامْتِنَانَ يَصْدُقُ إِذَا كَانَ لِكُلٍّ مِنَ النَّاسِ بَعْضٌ مِمَّا فِي الْعَالَمِ، بِمَعْنَى أَنَّ الْآيَةَ ذَكَرَتْ أَنَّ الْمَجْمُوعَ لِلْمَجْمُوعِ لَا كُلُّ وَاحِدٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْبَيْضَاوِيُّ، لَاسِيَّمَا وَقَدْ خَاطَبَ اللَّهُ بِهَا قَوْمًا كَافِرِينَ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ كُفْرَهُمْ، فَكَيْفَ يَعْلَمُونَ إِبَاحَةً أَوْ مَنْعًا؟!**

**وَإِنَّمَا مَحَلُّ الْمَوْعِظَةِ هُوَ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَمْ يَزَلِ النَّاسُ يَنْتَفِعُونَ بِهَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ.**

**وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إِلَى أَنَّ أَصْلَ الْأَشْيَاءِ الْحَظْرُ، وَنُقِلَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَبَعْضِ الْمُعْتَزِلَةِ، فَلِلْمُعْتَزِلَةِ الْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ كَمَا قَالَ الْقُرْطُبِيُّ.**

**قَالَ الْحَمَوِيُّ فِي *شَرْحِ كِتَابِ الْأَشْبَاهِ* لِابْنِ نُجَيْمٍ نَقْلًا عَنِ الْإِمَامِ الرَّازِيِّ: وَإِنَّمَا تَظْهَرُ ثَمَرَةُ الْمَسْأَلَةِ فِي حُكْمِ الْأَشْيَاءِ أَيَّامَ الْفَتْرَةِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، أَيْ فِيمَا ارْتَكَبَهُ النَّاسُ مِنْ تَنَاوُلِ الشَّهَوَاتِ وَنَحْوِهَا. وَلِذَلِكَ كَانَ الْأَصَحُّ أَنَّ الْأَمْرَ مَوْقُوفٌ، وَأَنَّهُ لَا وَصْفَ لِلْأَشْيَاءِ يَتَرَتَّبُ مِنْ أَجْلِهِ عَلَيْهَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ.**

**وَعِنْدِي أَنَّ هَذَا لَا يَحْتَاجُ الْعُلَمَاءُ إِلَى فَرْضِهِ، لِأَنَّ أَهْلَ الْفَتْرَةِ لَا شَرْعَ لَهُمْ، وَلَيْسَ لِأَفْعَالِهِمْ أَحْكَامٌ إِلَّا فِي وُجُوبِ التَّوْحِيدِ عِنْدَ قَوْمٍ.**

**وَأَمَّا بَعْدَ وُرُودِ الشَّرْعِ، فَقَدْ أَغْنَى الشَّرْعُ عَنْ ذَلِكَ، فَإِنْ وُجِدَ فِعْلٌ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مِنْ نَصٍّ أَوْ قِيَاسٍ أَوِ اسْتِدْلَالٍ صَحِيحٍ فَالصَّحِيحُ أَنَّ أَصْلَ الْمَضَارِّ التَّحْرِيمُ وَالْمَنَافِعِ الْحِلُّ، وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ الْإِمَامُ فِي الْمَحْصُولِ، فَتَصِيرُ لِلْمَسْأَلَةِ ثَمَرَةٌ بِاعْتِبَارِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْحَوَادِثِ فِي الْإِسْلَامِ.**

**﴿**[**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهْوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[[675]](#footnote-675)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)

**انْتِقَالٌ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بِخَلْقِ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا -وَهُوَ مِمَّا عِلْمُهُ ضَرُورِيٌّ لِلنَّاسِ- إِلَى الِاسْتِدْلَالِ بِخَلْقِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ الْأَرْضِ، وَهُوَ أَيْضًا قَدْ يُغْفَلُ عَنِ النَّظَرِ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِهِ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ، وَذَلِكَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ، وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الِانْتِقَالُ اسْتِطْرَادًا لِإِكْمَالِ تَنْبِيهِ النَّاسِ إِلَى عَظِيمِ الْقُدْرَةِ.**

**وَعَطَفَتْ ثُمَّ جُمْلَةَ اسْتَوَى عَلَى جُمْلَةِ خَلَقَ لَكُمْ. وَلِدَلَالَةِ ثُمَّ عَلَى التَّرْتِيبِ وَالْمُهْلَةِ فِي عَطْفِ الْمُفْرَدِ عَلَى الْمُفْرَدِ كَانَتْ فِي عَطْفِ الْجُمْلَةِ عَلَى الْجُمْلَةِ لِلْمُهْلَةِ فِي الرُّتْبَةِ، وَهِيَ مُهْلَةٌ تَخْيِيلِيَّةٌ فِي الْأَصْلِ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمَعْطُوفَ بِثُمَّ أَعْرَقُ فِي الْمَعْنَى الَّذِي تَتَضَمَّنُهُ الْجُمْلَةُ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهَا حَتَّى كَأَنَّ الْعَقْلَ يَتَمَهَّلُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ بَعْدَ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ، فَيَنْتَبِهُ السَّامِعُ لِذَلِكَ كَيْ لَا يَغْفُلَ عَنْهُ بِمَا سَمِعَ مِنَ الْكَلَامِ السَّابِقِ.**

**وَشَاعَ هَذَا الِاسْتِعْمَالُ حَتَّى صَارَ كَالْحَقِيقَةِ. وَيُسَمَّى ذَلِكَ بِالتَّرْتِيبِ الرُّتْبِيِّ وَبِتَرْتِيبِ الْإِخْبَارِ - بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ - كَقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾[[676]](#footnote-676)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿**[**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[[677]](#footnote-677)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿**[**فَكُّ رَقَبَةٍ﴾[[678]](#footnote-678)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ.**

**وَلَمَّا كَانَ ذِكْرُ هَاتِهِ الْأُمُورِ الَّتِي يَعِزُّ إِيفَاؤُهَا حَقَّهَا مِمَّا يُغْفِلُ السَّامِعَ عَنْ أَمْرٍ آخَرَ عَظِيمٍ، نُبِّهَ عَلَيْهِ بِالْعَطْفِ بِثُمَّ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ آكَدُ وَأَهَمُّ، وَمِنْهُ قَوْلُ طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ يَصِفُ رَاحِلَتَهُ:**

**جَنُوحٌ دِفَاقٌ عَنْدَلٌ ثُمَّ أُفْرِعَتْ لَهَا كَتِفَاهَا فِي مُعَالًى مُصَعَّدِ**

**فَإِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ مِنْ مَحَاسِنِهَا جُمْلَةً نَبَّهَ عَلَى وَصْفٍ آخَرَ أَهَمَّ فِي صِفَاتِ عُنُقِهَا وَهُوَ طُولُ قَامَتِهَا. قَالَ الْمَرْزُوقِيُّ فِي شَرْحِ الْحَمَاسَةِ فِي شَرْحِ قَوْلِ جَعْفَرِ بْنِ عُلْبَةَ الْحَارِثِيِّ:**

**لَا يَكْشِفُ الْغَمَّاءَ إِلَّا ابْنُ حَرَّةَ     يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا**

**إِنَّ ثُمَّ وَإِنْ كَانَ فِي عَطْفِهِ الْمُفْرَدَ عَلَى الْمُفْرَدِ يَدُلُّ عَلَى التَّرَاخِي، فَإِنَّهُ فِي عَطْفِهِ الْجُمْلَةَ عَلَى الْجُمْلَةِ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَذَكَرَ قَوْلَهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[[679]](#footnote-679)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**اهـ.**

**وَإِفَادَةُ التَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ هُوَ الْمُعْتَبَرُ فِي عَطْفِ ثُمَّ لِلْجُمَلِ سَوَاءٌ وَافَقَتِ التَّرْتِيبَ الْوُجُودِيَّ مَعَ ذَلِكَ أَوْ كَانَ مَعْطُوفُهَا مُتَقَدِّمًا فِي الْوُجُودِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ مَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى الْبَعْدِيَّةِ مُرَادًا مِنْهُ الْبَعْدِيَّةُ فِي الرُّتْبَةِ، وَإِنْ كَانَ عَكْسَ التَّرْتِيبِ الْوُجُودِيِّ، فَتَكُونُ الْبَعْدِيَّةُ مَجَازِيَّةً مَبْنِيَّةً عَلَى تَشْبِيهِ الْبَوْنِ الْمَعْنَوِيِّ بِالْبُعْدِ الْمَكَانِيِّ أَوِ الزَّمَانِيِّ.**

**وَمِنْهُ: قَوْلُهُ–تَعَالَى-: ﴿**[**هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾[[680]](#footnote-680)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**فَإِنَّ كَوْنَهُ عُتُلًّا وَزَنِيمًا أَسَبَقُ فِي الْوُجُودِ مِنْ كَوْنِهِ هَمَّازًا مَشَّاءً بِنَمِيمٍ، لِأَنَّهُمَا صِفَتَانِ ذَاتِيَّتَانِ بِخِلَافِ: ﴿**[**هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**﴾[[681]](#footnote-681)، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[[682]](#footnote-682).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)

**فَإِذَا تَمَحَّضَتْ (ثُمَّ) لِلتَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ حُمِلَتْ عَلَيْهِ، وَإِنِ احْتَمَلَتْهُ مَعَ التَّرَاخِي الزَّمَنِيِّ فَظَاهِرُ قَوْلِ الْمَرْزُوقِيِّ، فَإِنَّهُ فِي عَطْفِ الْجُمْلَةِ لَيْسَ كَذَلِكَ إِنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ حِينَئِذٍ التَّرَاخِيَ الزَّمَنِيَّ. وَلَكِنْ يَظْهَرُ جَوَازُ الِاحْتِمَالَيْنِ، وَذَلِكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمَعْطُوفُ بِهَا مُتَأَخِّرًا فِي الْحُصُولِ عَلَى مَا قَبْلَهَا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ، كَمَا فِي بَيْتِ جَعْفَرِ بْنِ عُلْبَةَ.**

**قُلْتُ: وَهُوَ إِمَّا مَجَازٌ مُرْسَلٌ أَوْ كِنَايَةٌ، فَإِنْ أُطْلِقَتْ ثُمَّ وَأُرِيدَ مِنْهَا لَازِمُ التَّرَاخِي وَهُوَ الْبُعْدُ التَّعْظِيمِيُّ كَمَا أُرِيدَ التَّعْظِيمُ مِنِ اسْمِ الْإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْبَعِيدِ، وَالْعَلَاقَةُ وَإِنْ كَانَتْ بَعِيدَةً إِلَّا أَنَّهَا لِشُهْرَتِهَا فِي كَلَامِهِمْ وَاسْتِعْمَالِهِمْ وَمَعَ الْقَرَائِنِ لَمْ يَكُنْ هَذَا الِاسْتِعْمَالُ مَرْدُودًا.**

**وَاعْلَمْ أَنِّي تَتَبَّعْتُ هَذَا الِاسْتِعْمَالَ فِي مَوَاضِعِهِ، فَرَأَيْتُهُ أَكْثَرَ مَا يَرِدُ فِيمَا إِذَا كَانَتِ الْجُمَلُ إِخْبَارًا عَنْ مُخْبَرٍ عَنْهُ وَاحِدٍ، بِخِلَافِ مَا إِذَا اخْتَلَفَ الْمُخْبَرُ عَنْهُ، فَإِنَّ ثُمَّ تَتَعَيَّنُ لِلْمُهْلَةِ الزَّمَنِيَّةِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾[[683]](#footnote-683)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾[[684]](#footnote-684)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**أَيْ بَعْدَ أَنْ أَخَذْنَا الْمِيثَاقَ بِأَزْمَانٍ صِرْتُمْ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ، وَنَحْوَ قَوْلِكَ: مَرَّتْ كَتِيبَةُ الْأَنْصَارِ، ثُمَّ مَرَّتْ كَتِيبَةُ الْمُهَاجِرِينَ.**

**فَأَمَّا هَذِهِ الْآيَةُ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ السَّمَاوَاتُ مُتَأَخِّرًا خَلْقُهَا عَنْ خَلْقِ الْأَرْضِ فَثُمَّ لِلتَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ لَا مَحَالَةَ مَعَ التَّرَاخِي الزَّمَنِيِّ، وَإِنْ كَانَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ سَابِقًا فَثُمَّ لِلتَّرْتِيبِ الرُّتْبِيِّ لَا غَيْرَ. وَالظَّاهِرُ هُوَ الثَّانِي.**

**وَقَدْ جَرَى اخْتِلَافٌ بَيْنَ عُلَمَاءِ السَّلَفِ فِي مُقْتَضَى الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَقَالَ الْجُمْهُورُ مِنْهُمْ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ، وَنُسِبَ إِلَى**[**ابْنِ عَبَّاسٍ:**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=11)**إِنَّ خَلْقَ الْأَرْضِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى خَلْقِ السَّمَاءِ، لِقَوْلِهِ –تَعَالَى- هُنَا: ﴿**[**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾[[685]](#footnote-685)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ حم السَّجْدَةِ: ﴿**[**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾[[686]](#footnote-686)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿**[**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[[687]](#footnote-687).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)

**وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلٌ: إِنْ خَلْقَ السَّمَاءَ مُتَقَدِّمٌ، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾[[688]](#footnote-688)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[[689]](#footnote-689).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)

**وَقَدْ أُجِيبَ بِأَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ أَوَّلًا، ثُمَّ خُلِقَتِ السَّمَاءُ، ثُمَّ دُحِيَتِ الْأَرْضُ.**

**فَالْمُتَأَخِّرُ عَنْ خَلْقِ السَّمَاءِ هُوَ دَحْوُ الْأَرْضِ، عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ عُلَمَاءُ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ مِنْ أَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ؛ ثُمَّ أَخَذَتْ تَبْرُدُ حَتَّى جَمَدَتْ، وَتَكَوَّنَتْ مِنْهَا قِشْرَةٌ جَامِدَة؛ ثُمَّ تَشَقَّقَتْ وَتَفَجَّرَتْ وَهَبَطَتْ مِنْهَا أَقْسَامٌ وَعَلَتْ أَقْسَامٌ بِالضَّغْطِ، إِلَّا أَنَّ عُلَمَاءَ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ يُقَدِّرُونَ لِحُصُولِ ذَلِكَ أَزْمِنَةً مُتَنَاهِيَةَ الطُّولِ، وَقُدْرَةُ اللَّهِ صَالِحَةٌ لِإِحْدَاثِ مَا يَحْصُلُ بِهِ ذَلِكَ التَّقَلُّبُ فِي أَمَدٍ قَلِيلٍ بِمُقَارَنَةِ حَوَادِثِ تَعَجُّلِ انْقِلَابِ الْمَخْلُوقَاتِ عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ.**

**وَأَرْجَحُ الْقَوْلَيْنِ هُوَ أَنَّ السَّمَاءَ خُلِقَتْ قَبْلَ الْأَرْضِ، لِأَنَّ لَفْظَ بَعْدَ ذَلِكَ أَظْهَرُ فِي إِفَادَةِ التَّأَخُّرِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**[**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾[[690]](#footnote-690)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**وَلِأَنَّ أَنْظَارَ عُلَمَاءِ الْهَيْئَةِ تَرَى أَنَّ الْأَرْضَ كُرَةٌ انْفَصَلَتْ عَنِ الشَّمْسِ كَبَقِيَّةِ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ مِنَ النِّظَامِ الشَّمْسِيِّ، وَظَاهِرُ سِفْرِ التَّكْوِينِ يَقْتَضِي أَنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ مُتَقَدَّمٌ عَلَى الْأَرْضِ.**

**وَأَحْسَبُ أَنَّ سُلُوكَ الْقُرْآنِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ أُسْلُوبَ الْإِجْمَالِ فِي هَذَا الْغَرَضِ لِقَطْعِ الْخُصُومَةِ بَيْنَ أَصْحَابِ النَّظَرِيَّتَيْنِ.**

**وَالسَّمَاءُ إِنْ أُرِيدَ بِهَا الْجَوُّ الْمُحِيطُ بِالْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ فَهُوَ تَابِعٌ لَهَا مُتَأَخِّرٌ عَنْ خَلْقِهَا. وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا الْكَوَاكِبُ الْعُلْوِيَّةُ وَذَلِكَ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِقَوْلِهِ: ﴿**[**فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾[[691]](#footnote-691)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**فَالْكَوَاكِبُ أَعْظَمُ مِنَ الْأَرْضِ فَتَكُونُ أَسْبَقَ خَلْقًا. وَقَدْ يَكُونُ كُلٌّ مِنَ الِاحْتِمَالَيْنِ مُلَاحَظًا فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْمُلَاحَظِ فِيهَا الِاحْتِمَالُ الْآخَرُ.**

**وَالِاسْتِوَاءُ أَصْلُهُ الِاسْتِقَامَةُ وَعَدَمُ الِاعْوِجَاجِ، يُقَالُ صِرَاطٌ مُسْتَوٍ، وَاسْتَوَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ، وَاسْتَوَى الشَّيْءُ مُطَاوِعَ سِوَاهُ، وَيُطْلَقُ مَجَازًا عَلَى الْقَصْدِ إِلَى الشَّيْءِ بِعَزْمٍ وَسُرْعَةٍ كَأَنَّهُ يَسِيرُ إِلَيْهِ مُسْتَوِيًا لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ فَيُعَدَّى بِإِلَى، فَتَكُونُ إِلَى قَرِينَةَ الْمَجَازِ وَهُوَ تَمْثِيلٌ، فَمَعْنَى اسْتِوَاءِ اللَّهِ –تَعَالَى- إِلَى السَّمَاءِ تَعَلُّقُ إِرَادَتِهِ التَّنْجِيزِيِّ بِإِيجَادِهَا تَعَلُّقًا يُشْبِهُ الِاسْتِوَاءَ فِي التَّهَيُّؤِ لِلْعَمَلِ الْعَظِيمِ الْمُتْقَنِ.**

**وَوَزْنُ اسْتَوَى افْتَعَلَ، لِأَنَّ السِّينَ فِيهِ حَرْفٌ أَصْلِيٌّ وَهُوَ افْتِعَالٌ مَجَازِيٌّ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَمَّا ابْتَدَأَ خَلْقَ الْمَخْلُوقَاتِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِيهَا لِيَكُونَ تَوْطِئَةً لِخَلْقِ الْأَرْض؛ِ ثُمَّ خَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَهُوَ الَّذِي سِيقَتِ الْقِصَّةُ لِأَجْلِهِ.**

**وَ (سَوَّاهُنَّ)، أَيْ خَلَقَهُنَّ فِي اسْتِقَامَةٍ، وَاسْتِقَامَةُ الْخَلْقِ هِيَ انْتِظَامُهُ عَلَى وَجْهٍ لَا خَلَلَ فِيهِ وَلَا ثَلْمَ. وَبَيْنَ اسْتَوَى وَسَوَّاهُنَّ الْجِنَاسُ الْمُحَرَّفُ. وَالسَّمَاءُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ السُّمُوِّ وَهُوَ الْعُلُوُّ، وَاسْمُ السَّمَاءِ يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَعَلَى الْجِنْسِ مِنَ الْعَوَالِمِ الْعُلْيَا الَّتِي هِيَ فَوْقَ الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْجِنْسُ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: ﴿**[**فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾[[692]](#footnote-692)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**إِذْ جَعَلَهَا سَبْعًا، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**فَسَوَّاهُنَّ﴾[[693]](#footnote-693)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**عَائِدٌ إِلَى السَّمَاءِ بِاعْتِبَارِ إِرَادَةِ الْجِنْسِ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْجَمْعِ.**

**وَجَوَّزَ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ السَّمَاءِ هُنَا جِهَةُ الْعُلُوِّ، وَهُوَ وَإِنْ صَحَّ، لَكِنَّهُ لَا دَاعِيَ إِلَيْهِ كَمَا قَالَهُ التَّفْتَزَانِيُّ.**

**وَقَدْ عَدَّ اللَّهُ –تَعَالَى- فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا السَّمَاوَاتِ سَبْعًا، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهَا وَبِالْمُرَادِ مِنْهَا، إِلَّا أَنَّ الظَّاهِرَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْقَوَاعِدُ الْعِلْمِيَّةُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ السَّمَاوَاتِ الْأَجْرَامُ الْعُلْوِيَّةُ الْعَظِيمَةُ، وَهِيَ الْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ الْمُنْتَظِمَةُ مَعَ الْأَرْضِ فِي النِّظَامِ الشَّمْسِيِّ.**

**وَيَدُلُّ لِذَلِكَ أُمُورٌ:**

**- أَحَدُهَا: أَنَّ السَّمَاوَاتِ ذُكِرَتْ فِي غَالِبِ مَوَاضِعِ الْقُرْآنِ مَعَ ذِكْرِ الْأَرْضِ وَذُكِرَ خَلْقُهَا هُنَا مَعَ ذِكْرِ خَلْقِ الْأَرْضِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا عَوَالِمُ كَالْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ، وَهَذَا ثَابِتٌ لِلسَّيَّارَاتِ.**

**- ثَانِيهَا: أَنَّهَا ذُكِرَتْ مَعَ الْأَرْضِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا أَدِلَّةٌ عَلَى بَدِيعِ صُنْعِ اللَّهِ –تَعَالَى-، فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرُهَا تِلْكَ الْأَجْرَامَ الْمُشَاهَدَةَ لِلنَّاسِ الْمَعْرُوفَةَ لِلْأُمَمِ الدَّالَّ نِظَامُ سَيْرِهَا وَبَاهِرُ نُورِهَا عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا.**

**- ثَالِثُهَا: أَنَّهَا وْصِفَتْ بِالسَّبْعِ وَقَدْ كَانَ عُلَمَاءُ الْهَيْئَةِ يَعْرِفُونَ السَّيَّارَاتِ السَّبْعَ مِنْ عَهْدِ الْكِلْدَانِ، وَتَعَاقَبَ عُلَمَاءُ الْهَيْئَةِ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ إِلَى الْعَهْدِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ فَمَا اخْتَلَفُوا فِي أَنَّهَا سَبْعٌ.**

**- رَابِعُهَا: أَنَّ هَاتِهِ السَّيَّارَاتِ هِيَ الْكَوَاكِبُ الْمُنْضَبِطُ سَيْرُهَا بِنِظَامٍ مُرْتَبِطٍ مَعَ نِظَامِ سَيْرِ الشَّمْسِ وَالْأَرْضِ، وَلِذَلِكَ يُعَبِّرُ عَنْهَا عُلَمَاءُ الْهَيْئَةِ الْمُتَأَخِّرُونَ بِالنِّظَامِ الشَّمْسِيِّ، فَنَاسَبَ أَنْ تَكُونَ هِيَ الَّتِي قُرِنَ خَلْقُهَا بِخَلْقِ الْأَرْضِ. وَبَعْضُهُمْ يُفَسِّرُ السَّمَاوَاتِ بِالْأَفْلَاكِ، وَهُوَ تَفْسِيرٌ لَا يَصِحُّ، لِأَنَّ الْأَفْلَاكَ هِيَ الطُّرُقُ الَّتِي تَسْلُكُهَا الْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ فِي الْفَضَاءِ، وَهِيَ خُطُوطٌ فَرْضِيَّةٌ لَا ذَوَاتَ لَهَا فِي الْخَارِجِ.**

**هَذَا وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى السَّمَاوَاتِ سَبْعًا هُنَا وَفِي غَيْرِ آيَةٍ، وَقَدْ ذَكَرَ الْعَرْشَ وَالْكُرْسِيَّ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمَا مُحِيطَانِ بِالسَّمَاوَاتِ وَجَعَلَ السَّمَاوَاتِ كُلَّهَا فِي مُقَابَلَةِ الْأَرْضِ.**

**وَذَلِكَ يُؤَيِّدُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ عُلَمَاءُ الْهَيْئَةِ مِنْ عَدِّ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ تِسْعَةً، وَهَذِهِ أَسْمَاؤُهَا عَلَى التَّرْتِيبِ فِي بُعْدِهَا مِنَ الْأَرْضِ: نِبْتُونْ، أُورَانُوسُ، زُحَلُ، الْمُشْتَرِي، الْمِرِّيخُ، الشَّمْسُ، الزُّهَرَةُ، عُطَارِدُ، بِلْكَانُ.**

**وَالْأَرْضُ فِي اصْطِلَاحِهِمْ كَوْكَبٌ سَيَّارٌ، وَفِي اصْطِلَاحِ الْقُرْآنِ لَمْ تُعَدَّ مَعَهَا لِأَنَّهَا الَّتِي مِنْهَا تُنْظَرُ الْكَوَاكِبُ وَعُدَّ عِوَضًا عَنْهَا الْقَمَرُ وَهُوَ مِنْ تَوَابِعِ الْأَرْضِ فَعَدُّهُ مِنْهَا عِوَضٌ عَنْ عَدِّ الْأَرْضِ تَقْرِيبًا لِأَفْهَامِ السَّامِعِينَ.**

**وَأَمَّا الثَّوَابِتُ فَهِيَ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْهَيْئَةِ شُمُوسٌ سَابِحَةٌ فِي شَاسِعِ الْأَبْعَادِ عَنِ الْأَرْضِ وَفِي ذَلِكَ شُكُوكٌ. وَلَعَلَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْهَا سَمَاوَاتٍ ذَاتَ نِظَامٍ كَنِظَامِ السَّيَّارَاتِ السَّبْعِ، فَلَمْ يَعُدَّهَا فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا عَدَّ لَنَا السَّمَاوَاتِ الَّتِي هِيَ مُرْتَبِطَةٌ بِنِظَامِ أَرْضِنَا.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[[694]](#footnote-694)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)**نَتِيجَةٌ لِمَا ذَكَرَهُ مِنْ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ الَّتِي لَا تَصْدُرُ إِلَّا مِنْ عَلِيمٍ، فَلِذَلِكَ قَالَ الْمُتَكَلِّمُونَ: إِنَّ الْقُدْرَةَ يَجْرِي تَعَلُّقُهَا عَلَى وَفْقِ الْإِرَادَةِ. وَالْإِرَادَةُ عَلَى وَفْقِ الْعِلْمِ.**

**وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِالْإِنْكَارِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَالتَّعْجِيبِ مِنْهُ، فَإِنَّ الْعَلِيمَ بِكُلِّ شَيْءٍ يُقَبِّحُ الْكُفْرَ بِهِ.**

**وَهَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى عُمُومِ الْعِلْمِ، وَقَدْ قَالَ بِذَلِكَ جَمِيعُ الْمِلِّيِّينَ كَمَا نَقَلَهُ الْمُحَقِّقُ السَّلَكُوتِيُّ فِي الرِّسَالَةِ الْخَاقَانِيَّةِ، وَأَنْكَرَ الْفَلَاسِفَةُ عِلْمَهُ بِالْجُزَيْئَاتِ وَزَعَمُوا أَنَّ تَعَلُّقَ الْعِلْمِ بِالْجُزَيْئَاتِ لَا يَلِيقُ بِالْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ، وَهُوَ تَوَهُّمٌ لَا دَاعِيَ إِلَيْهِ.**

**وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ هَاءَ (وَهُوَ) بِالضَّمِّ عَلَى الْأَصْلِ.**

**وَقَرَأَهَا**[**قَالُونُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16810)**وَأَبُو عَمْرٍو**[**وَالْكِسَائِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15080)**وَأَبُو جَعْفَرٍ بِالسُّكُونِ لِلتَّخْفِيفِ عِنْدَ دُخُولِ حَرْفِ الْعَطْفِ عَلَيْهِ، وَالسُّكُونُ أَكْثَرُ مِنَ الضَّمِّ فِي كَلَامِهِمْ، وَذَلِكَ مَعَ الْوَاوِ وَالْفَاءِ وَلَامِ الِابْتِدَاءِ.**

**وَوَجْهُهُ: أَنَّ الْحُرُوفَ الَّتِي هِيَ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى الْكَلِمَةِ تَنَزَّلَتْ مَنْزِلَةَ الْجُزْءِ مِنْهَا فَصَارَتِ الْكَلِمَةُ ثَقِيلَةً بِدُخُولِ ذَلِكَ الْحَرْفِ فِيهَا فَخُفِّفَتْ بِالسُّكُونِ، كَمَا فَعَلُوا ذَلِكَ فِي حَرَكَةِ لَامِ الْأَمْرِ مَعَ الْوَاوِ وَالْفَاءِ.**

**وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَفْصَحَ لُغَاتِ الْعَرَبِ إِسْكَانُ الْهَاءِ مِنْ (هُوَ) إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ حَرْفٌ أَنَّكَ تَجِدُهُ فِي الشِّعْرِ، فَلَا يَتَّزِنُ الْبَيْتُ إِلَّا بِقِرَاءَةِ الْهَاءِ سَاكِنَةً، وَلَا تَكَادُ تَجِدُ غَيْرَ ذَلِكَ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ دَعْوَى أَنَّهُ ضَرُورَةٌ.**

**﴿**[**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[[695]](#footnote-695)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=73#docu)

**عَطَفَتِ الْوَاوُ قِصَّةَ خَلْقِ أَوَّلِ الْبَشَرِ عَلَى قِصَّةِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ انْتِقَالًا بِهِمْ فِي الِاسْتِدْلَالِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ وَعَلَى بُطْلَانِ شِرْكِهِمْ وَتَخَلُّصًا مِنْ ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَى خَلْقِ النَّوْعِ الَّذِي هُوَ سُلْطَانُ الْأَرْضِ وَالْمُتَصَرِّفُ فِي أَحْوَالِهَا، لِيَجْمَعَ بَيْنَ تَعَدُّدِ الْأَدِلَّةِ وَبَيْنَ مُخْتَلَفِ تَكْوِينِ الْعَوَالِمِ وَأَصْلِهَا، لِيَعْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مَا عَلِمَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي كَانُوا يُبَاهُونَ بِهِ الْعَرَبَ، وَهُوَ مَا فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ مِنَ التَّوْرَاةِ.**

**وَاعْلَمْ أَنَّ مَوْقِعَ الدَّلِيلِ بِخَلْقِ آدَمَ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ هُوَ أَنَّ خَلْقَ أَصْلِ النَّوْعِ أَمْرٌ مُدْرَكٌ بِالضَّرُورَةِ لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ إِذَا لَفَتَ ذِهْنَهُ إِلَى وُجُودِهِ عَلِمَ أَنَّهُ وُجُودٌ مَسْبُوقٌ بِوُجُودِ أَصْلٍ لَهُ بِمَا يُشَاهِدُ مِنْ نَشْأَةِ الْأَبْنَاءِ عَنِ الْآبَاءِ، فَيُوقِنُ أَنَّ لِهَذَا النَّوْعِ أَصْلًا أَوَّلَ يَنْتَهِي إِلَيْهِ نُشُوءُهُ، وَإِذْ قَدْ كَانَتِ الْعِبْرَةُ بِخَلْقِ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا أُدْمِجَتْ فِيهَا مِنَّةٌ، وَهِيَ قَوْلُهُ لَكُمُ الْمُقْتَضِيَةُ أَنَّ خَلْقَ مَا فِي الْأَرْضِ لِأَجْلِهِمْ تَهَيَّأَتْ أَنْفُسُهُمْ لِسَمَاعِ قِصَّةِ إِيجَادِ مَنْشَأِ النَّاسِ الَّذِينَ خُلِقَتِ الْأَرْضُ لِأَجْلِهِمْ لِيُحَاطَ بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ مَعَ عَظِيمِ الْمِنَّة،ِ وَهِيَ مِنَّةُ الْخَلْقِ الَّتِي نَشَأَتْ عَنْهَا فَضَائِلُ جَمَّةٌ وَمِنَّةُ التَّفْضِيلِ وَمِنَّةُ خِلَافَةِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، فَكَانَ خَلْقُ أَصْلِنَا هُوَ أَبْدَعَ مَظَاهِرِ إِحْيَائِنَا الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ فِي خَلْقِ مَا فِي الْأَرْضِ لَنَا، فَكَانَتِ الْمُنَاسَبَةُ فِي الِانْتِقَالِ إِلَى التَّذْكِيرِ بِهِ وَاضِحَةً مَعَ حُسْنِ التَّخَلُّصِ إِلَى ذِكْرِهِ خَبَرَهُ الْعَجِيبَ، فَإِيرَادُ وَاوِ الْعَطْفِ هُنَا لِأَجْلِ إِظْهَارِ اسْتِقْلَالِ هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي حَدِّ ذَاتِهَا فِي عِظَمِ شَأْنِهَا.**

**وَ (إِذْ) مِنْ أَسْمَاءِ الزَّمَانِ الْمُبْهَمَةِ تَدُلُّ عَلَى زَمَانِ نِسْبَةٍ مَاضِيَةٍ وَقَعَتْ فِيهِ نِسْبَةٌ أُخْرَى مَاضِيَةٌ قَارَنَتْهَا، فَـ (إِذْ) تَحْتَاجُ إِلَى جُمْلَتَيْنِ: جُمْلَةٍ أَصْلِيَّةٍ -وَهِيَ الدَّالَّةُ عَلَى الْمَظْرُوفِ، وَتِلْكَ هِيَ الَّتِي تَكُونُ مَعَ جَمِيعِ الظُّرُوفِ- وَجُمْلَةٍ تُبَيِّنُ الظَّرْفَ مَا هُوَ، لِأَنَّ (إِذْ) لَمَّا كَانَتْ مُبْهَمَةً احْتَاجَتْ لِمَا يُبَيِّنُ زَمَانَهَا عَنْ بَقِيَّةِ الْأَزْمِنَةِ، فَلِذَلِكَ لَزِمَتْ إِضَافَتُهَا إِلَى الْجُمَلِ أَبَدًا.**

**وَالْأَكْثَرُ فِي الْكَلَامِ أَنْ تَكُونَ "إِذْ" فِي مَحَلِّ ظَرْفٍ لِزَمَنِ الْفِعْلِ، فَتَكُونُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْمَفْعُولِ فِيهِ، وَقَدْ تَخْرُجُ (إِذْ) عَنِ النَّصْبِ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ إِلَى الْمَفْعُولِيَّةِ كَأَسْمَاءِ الزَّمَانِ الْمُتَصَرِّفَةِ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ*، وَهُوَ مُخْتَارُ ابْنِ هِشَامٍ خِلَافًا لِظَاهِرِ كَلَامِ الْجُمْهُورِ، فَهِيَ تَصِيرُ ظَرْفًا مُبْهَمًا مُتَصَرِّفًا، وَقَدْ يُضَافُ إِلَيْهَا اسْمُ زَمَانٍ نَحْوَ يَوْمَئِذٍ وَسَاعَتَئِذٍ، فَتُجَرُّ بِإِضَافَةٍ صُورِيَّةٍ لِيَكُونَ ذِكْرُهَا وَسِيلَةً إِلَى حَذْفِ الْجُمْلَةِ الْمُضَافَةِ هِيَ إِلَيْهَا.**

**وَذَلِكَ أَنَّ (إِذْ) مُلَازِمَةٌ لِلْإِضَافَةِ، فَإِذَا حُذِفَتْ جُمْلَتُهَا عَلِمَ السَّامِعُ أَنَّ هُنَالِكَ حَذْفًا، فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْذِفُوا جُمْلَةً مَعَ اسْمِ زَمَانٍ غَيْرِ، (إِذْ) خَافُوا أَنْ لَا يَهْتَدِيَ السَّامِعُ لِشَيْءٍ مَحْذُوفٍ، حَتَّى يَتَطَلَّبَ دَلِيلَهُ فَجَعَلُوا "إِذْ" قَرِينَةً عَلَى إِضَافَةٍ، وَحَذَفُوا الْجُمْلَةَ لِيُنَبِّهُوا السَّامِعَ فَيَتَطَلَّبُ دَلِيلَ الْمَحْذُوفِ.**

**وَهِيَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ظَرْفًا وَكَذَلِكَ أَعْرَبَهَا الْجُمْهُورُ وَجَعَلُوهَا مُتَعَلِّقَةً بِقَوْلِهِ قَالُوا وَهُوَ يُفْضِي إِلَى أَنْ يَكُونَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْقِصَّةِ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ، وَذَلِكَ بَعِيد،ٌ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْعِبْرَةِ هُوَ خِطَابُ اللَّهِ لَهُمْ، وَهُوَ مَبْدَأُ الْعِبْرَةِ وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ تَشْرِيفِ آدَمَ وَتَعْلِيمِهِ بَعْدَ الِامْتِنَانِ بِإِيجَادِ أَصْلِ نَوْعِ النَّاسِ الَّذِي هُوَ مَنَاطُ الْعِبْرَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**[**كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾[[696]](#footnote-696)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=73#docu)**الْآيَاتِ، وَلِأَنَّهُ لَا يَتَأَتَّى فِي نَظِيرِهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ الْآتِي: ﴿**[**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=73#docu)**﴾[[697]](#footnote-697)، إِذْ وُجُودُ فَاءِ التَّعْقِيبِ يَمْنَعُ مِنْ جَعْلِ الظَّرْفِ مُتَعَلِّقًا بِمَدْخُولِهَا، وَلِأَنَّ الْأَظْهَرَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿قَالُوا﴾[[698]](#footnote-698) حِكَايَةٌ لِلْمُرَاجَعَةِ وَالْمُحَاوَرَةِ عَلَى طَرِيقَةِ أَمْثَالِهِ كَمَا سَنُحَقِّقُهُ.**

**فَالَّذِي يَنْسَاقُ إِلَيْهِ أُسْلُوبُ النَّظْمِ فِيهِ أَنْ يَكُونَ الْعَطْفُ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿**[**خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[[699]](#footnote-699)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=73#docu)**أَيْ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ، وَقَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: إِنِّي خَالِقُ أَصْلِ الْإِنْسَانِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ ذِكْرَ خَلْقِ مَا فِي الْأَرْضِ وَكَوْنَهُ لِأَجْلِنَا يُهَيِّئُ السَّامِعَ لِتَرَقُّبِ ذِكْرِ شَأْنِنَا بَعْدَ ذِكْرِ شَأْنِ مَا خُلِقَ لِأَجْلِنَا مِنْ سَمَاءٍ وَأَرْضٍ، وَتَكُونُ (إِذْ) عَلَى هَذَا مَزِيدَةً لِلتَّأْكِيدِ.**

**قَالَهُ**[**أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=12078)**وَأَنْشَدَ قَوْلَ الْأَسْوَدِ بْنِ يَعْفُرَ: فَإِذْ وَذَلِكَ لَا مَهَاهَ لِذِكْرِهِ وَالدَّهْرُ يُعْقِبُ صَالِحًا بِفَسَادِ هَكَذَا رَوَاهُ "فَإِذْ" عَلَى أَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ زِحَافُ الطَّيِّ، وَفِي رِوَايَةٍ "فَإِذَا" فَلَا زِحَافَ، وَالْمَهَاهُ بِهَاءَيْنِ الْحُسْنُ، وَلَا يُشْكِلُ عَلَيْهِ أَنَّ شَأْنَ الزِّيَادَةِ أَنْ تَكُونَ فِي الْحُرُوفِ، لِأَنَّ إِذْ وَإِذَا وَنَحْوَهُمَا عُومِلَتْ مُعَامَلَةَ الْحُرُوفِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ عَطْفُ الْقِصَّةِ عَلَى الْقِصَّةِ وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهَا تُبْتَدَأُ بِهَا الْقِصَصُ الْعَجِيبَةُ الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ –تَعَالَى-.**

**أَلَا تَرَى أَنَّهَا ذُكِرَتْ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾[[700]](#footnote-700)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=73#docu)**وَلَمْ تُذْكَرْ فِيمَا بَيْنَهُمَا، وَتَكُونُ (إِذْ) اسْمَ زَمَانٍ مَفْعُولًا بِهِ بِتَقْدِيرِ اذْكُرْ، وَنَظِيرُهُ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ تَعْلِيقِ الذِّكْرِ وَالْقِصَّةِ بِالزَّمَانِ إِنَّمَا هُوَ مَا حَصَلَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مِنَ الْأَحْوَالِ.**

**وَتَخْصِيصُ اسْمِ الزَّمَانِ دُونَ اسْمِ الْمَكَانِ، لِأَنَّ النَّاسَ تَعَارَفُوا إِسْنَادَ الْحَوَادِثِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْقِصَصِ إِلَى أَزْمَانِ وُقُوعِهَا.**

**وَكَلَامُ اللَّهِ –تَعَالَى- لِلْمَلَائِكَةِ أُطْلِقَ عَلَى مَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ إِرَادَتَهُ وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْكَلَامِ النَّفْسِيِّ، فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ كَلَامٌ سَمِعُوهُ، فَإِطْلَاقُ الْقَوْلِ عَلَيْهِ حَقِيقَةً وَإِسْنَادُهُ إِلَى اللَّهِ، لِأَنَّهُ خَلَقَ ذَلِكَ الْقَوْلَ بِدُونِ وَسِيلَةٍ مُعْتَادَةٍ.**

**وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ دَالٌّ آخَرُ عَلَى الْإِرَادَةِ، فَإِطْلَاقُ الْقَوْلِ عَلَيْهِ مَجَازٌ لِأَنَّهُ دَلَالَةٌ لِلْعُقَلَاءِ، وَالْمَجَازُ فِيهِ أَقْوَى مِنَ الْمَجَازِ الَّذِي فِي نَحْوِ قَوْلِ النَّبِيءِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "**[**اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=73#docu)**".**

**وَقَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=73#docu)**﴾[[701]](#footnote-701).**

**وَقَوْلِ أَبِي النَّجْمِ:**

**إِذْ قَالَتِ الْآطَالُ لِلْبَطْنِ الْحَقِ**

**وَلَا طَائِلَ فِي الْبَحْثِ عَنْ تَعَيُّنِ أَحَدِ الِاحْتِمَالَيْنِ.**

**وَالْمَلَائِكَةُ جَمْعُ مَلَكٍ، وَأَصْلُ صِيغَةِ الْجَمْعِ "مَلَائِكُ" وَالتَّاءُ لِتَأْكِيدِ الْجَمْعِيَّةِ لِمَا فِي التَّاءِ مِنَ الْإِيذَانِ بِمَعْنَى الْجَمَاعَةِ. وَالظَّاهِرُ: أَنَّ تَأْنِيثَ مَلَائِكَةٍ سَرَى إِلَى لُغَةِ الْعَرَبِ مِنْ كَلَامِ الْمُتَنَصِّرِينَ مِنْهُمْ، إِذْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْأَمْلَاكَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَاعْتَقَدَهُ الْعَرَبُ أَيْضًا.**

**قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=73#docu)**﴾[[702]](#footnote-702)، فَمَلَائِكُ جَمْعُ مَلْأَكٍ كَشَمَائِلَ وَشَمْأَلٍ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُ بَعْضِ شُعَرَاءِ عَبْدِ الْقَيْسِ أَوْ غَيْرِهِ:**

**وَلَسْتَ لِإِنْسِيٍّ وَلَكِنْ لِمَلْأَكٍ     تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ**

**ثُمَّ قَالُوا: مَلَكٌ تَخْفِيفًا.**

**وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي اشْتِقَاقِهِ فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ هُوَ مَفْعَلٌ مِنْ لَأَكَ بِمَعْنَى أَرْسَلَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ فِي الْأَمْرِ بِتَبْلِيغِ رِسَالَةِ أَلِكْنِي أَلِيهِ أَيْ كُنْ رَسُولِي إِلَيْهِ، وَأَصْلُ أَلِكْنِي أَلْإِكْنِ،ي وَإِنْ لَمْ يُعْرَفْ لَهُ فِعْلٌ.**

**وَإِنَّمَا اشْتُقَّ اسْمُ الْمَلَكِ مِنَ الْإِرْسَالِ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ رُسُلُ اللَّهِ إِمَّا بِتَبْلِيغٍ أَوْ تَكْوِينٍ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: "ثُمَّ يُرْسِلُ إِلَيْهِ -أَيْ لِلْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ- الْمَلَكَ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ".**

**فَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ هُوَ مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ بِمَعْنَى اسْمِ الْمَفْعُولِ.**

**وَقَالَ**[**الْكِسَائِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15080)**هُوَ مَقْلُوبٌ وَوَزْنُهُ الْآنَ مَعْفُلٌ وَأَصْلُهُ مَأْلَكٌ مِنَ الْأَلُوكِ، وَالْأَلُوكَةُ، وَهِيَ الرِّسَالَةُ.**

**وَيُقَالُ مَأْلَكٌ وَمَأْلَكَةٌ بِفَتْحِ اللَّامِ وَضَمِّهَا، فَقَلَبُوا فِيهِ قَلْبًا مَكَانِيًّا، فَقَالُوا مَلْأَكٌ، فَهُوَ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ.**

**وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْمَلْكِ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَسُكُونِ اللَّامِ، وَالْمَلْكُ بِمَعْنَى الْقُوَّةِ قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾[[703]](#footnote-703)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=73#docu)**وَالْهَمْزَةُ مَزِيدَةٌ، فَوَزْنُهُ: فَعْأَلٌ بِسُكُونِ الْعَيْنِ وَفَتْحِ الْهَمْزَةِ كَشَمْأَلٍ، وَرُدَّ بِأَنَّ دَعْوَى زِيَادَةِ حَرْفٍ بِلَا فَائِدَةٍ دَعْوَى بَعِيدَةٌ.**

**وَرُدَّ مَذْهَبُ**[**الْكِسَائِيِّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15080)**بِأَنَّ الْقَلْبَ خِلَافُ الْأَصْلِ، فَرُجِّحَ مَذْهَبُ أَبِي عُبَيْدَةَ.**

**وَنَقَلَ الْقُرْطُبِيُّ عَنِ**[**النَّضْرِ بْنِ شُمَيْلٍ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15409)**أَنَّهُ قَالَ: لَا اشْتِقَاقَ لِلْمَلَكِ عِنْدَ الْعَرَبِ.**

**يُرِيدُ: أَنَّهُمْ عَرَّبُوهُ مِنَ اللُّغَةِ الْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ التَّوْرَاةَ سَمَّتِ الْمَلَكَ مَلَاكًا بِالتَّخْفِيفِ، وَلَيْسَ وُجُودُ كَلِمَةٍ مُتَقَارِبَةِ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى فِي لُغَتَيْنِ بِدَالٍّ عَلَى أَنَّهَا مَنْقُولَةٌ مِنْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى إِلَّا بِأَدِلَّةٍ أُخْرَى.**

**وَالْمَلَائِكَةُ مَخْلُوقَاتٌ نُورَانِيَّةٌ سَمَاوِيَّةٌ مَجْبُولَةٌ عَلَى الْخَيْرِ قَادِرَةٌ عَلَى التَّشَكُّلِ فِي خَرْقِ الْعَادَةِ، لِأَنَّ النُّورَ قَابِلٌ لِلتَّشَكُّلِ فِي كَيْفِيَّاتٍ، وَلِأَنَّ أَجْزَاءَهُ لَا تَتَزَاحَمُ، وَنُورُهَا لَا شُعَاعَ لَهُ فَلِذَلِكَ لَا تُضِيءُ إِذَا اتَّصَلَتْ بِالْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ، وَإِنَّمَا تَتَشَكَّلُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ عَلَى وَجْهِ خَرْقِ الْعَادَةِ.**

**وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ –تَعَالَى- لَهَا قُوَّةَ التَّوَجُّهِ إِلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُرِيدُ اللَّهُ تَكْوِينَهَا فَتَتَوَلَّى التَّدْبِيرَ لَهَا وَلِهَذِهِ التَّوَجُّهَاتِ الْمَلَكِيَّةِ حَيْثِيَّاتٌ وَمَرَاتِبُ كَثِيرَةٌ تَتَعَذَّرُ الْإِحَاطَةُ بِه،َا وَهِيَ مُضَادَّةٌ لِتَوَجُّهَاتِ الشَّيَاطِينِ، فَالْخَوَاطِرُ الْخَيْرِيَّةُ مِنْ تَوَجُّهَاتِ الْمَلَائِكَةِ وَعَلَاقَتِهَا بِالنُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَبِعَكْسِهَا خَوَاطِرُ الشَّرِّ.**

**وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَصْلِ الَّذِي يَخْلُفُ غَيْرَهُ أَوْ يَكُونُ بَدَلًا عَنْهُ فِي عَمَلٍ يَعْمَلُهُ، فَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ وَالتَّاءُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْوَصْفِ كَالْعَلَامَةِ.**

**وَالْمُرَادُ مِنَ الْخَلِيفَةِ هُنَا إِمَّا الْمَعْنَى الْمَجَازِيُّ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى عَمَلًا يُرِيدُهُ الْمُسْتَخْلَفُ مِثْلَ الْوَكِيلِ وَالْوَصِيِّ، أَيْ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ مُدَبِّرًا يَعْمَلُ مَا نُرِيدُهُ فِي الْأَرْضِ، فَهُوَ اسْتِعَارَةٌ أَوْ مَجَازٌ مُرْسَلٌ وَلَيْسَ بِحَقِيقَةٍ، لِأَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- لَمْ يَكُنْ حَالًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا عَامِلًا فِيهَا الْعَمَلَ الَّذِي أَوْدَعَهُ فِي الْإِنْسَانِ، وَهُوَ السَّلْطَنَةُ عَلَى مَوْجُودَاتِ الْأَرْضِ، وَلِأَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- لَمْ يَتْرُكْ عَمَلًا كَانَ يَعْمَلُهُ فَوَكَلَهُ إِلَى الْإِنْسَانِ، بَلِ التَّدْبِيرُ الْأَعْظَمُ لَمْ يَزَلْ لِلَّهِ -تَعَالَى-.**

**فَالْإِنْسَانُ هُوَ الْمَوْجُودُ الْوَحِيدُ الَّذِي اسْتَطَاعَ بِمَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِي خِلْقَتِهِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي مَخْلُوقَاتِ الْأَرْضِ بِوُجُوهٍ عَظِيمَةٍ لَا تَنْتَهِي خِلَافَ غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ، وَإِمَّا أَنْ يُرَادَ مِنَ الْخَلِيفَةِ مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيُّ إِذَا صَحَّ أَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ مَعْمُورَةً مِنْ قَبْلُ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ يُسَمَّوْنَ الْحِنَّ وَالْبِنَّ بِحَاءٍ مُهْمِلَةٍ مَكْسُورَةٍ وَنُونٍ فِي الْأَوَّلِ، وَبِمُوَحَّدَةٍ مَكْسُورَةٍ وَنُونٍ فِي الثَّانِي.**

**وَقِيلَ: اسْمُهُمُ الطَّمُّ وَالرَّمُّ بِفَتْحِ أَوَّلِهِمَا، وَأَحْسَبُهُ مِنَ الْمَزَاعِمِ، وَأَنَّ وَضْعَ هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ مِنْ بَابِ قَوْلِ النَّاسِ: (هَيَّانُ بْنُ بَيَّانٍ) إِشَارَةً إِلَى غَيْرِ مَوْجُودٍ أَوْ غَيْرِ مَعْرُوفٍ.**

**وَلَعَلَّ هَذَا أَنْجَزُ لِأَهْلِ الْقَصَصِ مِنْ خُرَافَاتِ الْفُرْسِ أَوِ الْيُونَانِ، فَإِنَّ الْفُرْسَ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ جِنْسٌ اسْمُهُ الطَّمُّ وَالرَّمُّ، وَكَانَ الْيُونَانُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ مَعْمُورَةً بِمَخْلُوقَاتٍ تُدْعَى "التِيتَانَ" وَأَنَّ زُفَسَ" -وَهُوَ الْمُشْتَرِي- كَبِيرُ الْأَرْبَابِ فِي اعْتِقَادِهِمْ - جَلَّاهُمْ مِنَ الْأَرْضِ لِفَسَادِهِمْ.**

**وَكُلُّ هَذَا يُنَافِيهِ سِيَاقُ الْآيَةِ، فَإِنَّ تَعْقِيبَ ذِكْرِ خَلْقِ الْأَرْضِ ثُمَّ السَّمَاوَاتِ بِذِكْرِ إِرَادَتِهِ تَعَالَى جَعْلَ الْخَلِيفَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ جَعْلَ الْخَلِيفَةِ كَانَ أَوَّلَ الْأَحْوَالِ عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ خَلْقِهَا، فَالْخَلِيفَةُ هُنَا الَّذِي يَخْلُفُ صَاحِبَ الشَّيْءِ فِي التَّصَرُّفِ فِي مَمْلُوكَاتِهِ وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ الْمَخْلُوقُ مُسْتَقِرًّا فِي الْمَكَانِ مِنْ قَبْلُ، فَالْخَلِيفَةُ آدَمُ، وَخَلَفِيَّتُهُ قِيَامُهُ بِتَنْفِيذِ مُرَادِ اللَّهِ –تَعَالَى- مِنْ تَعْمِيرِ الْأَرْضِ بِالْإِلْهَامِ أَوْ بِالْوَحْيِ وَتَلْقِينِ ذُرِّيَّتِهِ مُرَادَ اللَّهِ –تَعَالَى- مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ، وَمِمَّا يَشْمَلُهُ هَذَا التَّصَرُّفُ تَصَرُّفُ آدَمَ بِسَنِّ النِّظَامِ لِأَهْلِهِ وَأَهَالِيهِمْ عَلَى حَسَبِ وَفْرَةِ عَدَدِهِمْ وَاتِّسَاعِ تَصَرُّفَاتِهِمْ.**

**فَكَانَتِ الْآيَةُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ إِيمَاءً إِلَى حَاجَةِ الْبَشَرِ إِلَى إِقَامَةِ خَلِيفَةٍ لِتَنْفِيذِ الْفَصْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مُنَازَعَاتِهِمْ إِذْ لَا يَسْتَقِيمُ نِظَامٌ يَجْمَعُ الْبَشَرَ بِدُونِ ذَلِكَ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ الرُّسُلَ وَبَيَّنَ الشَّرَائِعَ فَرُبَّمَا اجْتَمَعَتِ الرِّسَالَةُ وَالْخِلَافَةُ وَرُبَّمَا انْفَصَلَتَا بِحَسَبِ مَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ شَرَائِعِهِ إِلَى أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَجَمَعَ الرِّسَالَةَ وَالْخِلَافَةَ، لِأَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ غَايَةُ مُرَادِ اللَّهِ –تَعَالَى- مِنَ الشَّرَائِع،ِ وَهُوَ الشَّرِيعَةُ الْخَاتِمَةُ، وَلِأَنَّ امْتِزَاجَ الدِّينِ وَالْمُلْكِ هُوَ أَكْمَلُ مَظَاهِرِ الْخُطَّتَيْنِ قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[[704]](#footnote-704).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=73#docu)

**وَلِهَذَا أَجْمَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامَةِ الْخَلِيفَةِ لِحِفْظِ نِظَامِ الْأُمَّةِ وَتَنْفِيذِ الشَّرِيعَةِ وَلَمْ يُنَازِعْ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الْخَاصَّةِ وَلَا مِنَ الْعَامَّةِ إِلَّا الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى، مِنْ جُفَاةِ الْأَعْرَابِ وَدُعَاةِ الْفِتْنَةِ، فَالْمُنَاظَرَةُ مَعَ أَمْثَالِهِمْ سُدًى.**

**وَلِلْخَلِيفَةِ شُرُوطٌ مَحَلُّ بَيَانِهَا كُتُبُ الْفِقْهِ وَالْكَلَامِ، وَسَتَجِيءُ مُنَاسَبَتُهَا فِي آيَاتٍ آتِيَةٍ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ خِطَابَهُ تَعَالَى هَذَا لِلْمَلَائِكَةِ كَانَ عِنْدَ إِتْمَامِ خَلْقِ آدَمَ عِنْدَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ أَوْ قَبْلَ النَّفْخِ وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ.**

**فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالْمُخْبَرِ عَنْ جَعْلِهِ خَلِيفَةً هُوَ ذَلِكَ الْمَخْلُوقُ، كَمَا يَقُولُ الَّذِي كَتَبَ كِتَابًا بِحَضْرَةِ جَلِيسٍ: إِنِّي مُرْسِلٌ كِتَابًا إِلَى فُلَانٍ، فَإِنَّ السَّامِعَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ ذَلِكَ الَّذِي هُوَ بِصَدَدِ كِتَابَتِهِ كِتَابٌ لِفُلَانٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خِطَابُهُمْ بِذَلِكَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ، وَعَلَى الْوُجُوهِ كُلِّهَا يَكُونُ اسْمُ الْفَاعِلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَاعِلٌ﴾[[705]](#footnote-705) لِلزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ، لِأَنَّ وَصْفَ الْخَلِيفَةِ لَمْ يَكُنْ ثَابِتًا لِآدَمَ سَاعَتَئِذٍ.**

**وَقَوْلُ اللَّهِ هَذَا مُوَجَّهٌ إِلَى الْمَلَائِكَةِ عَلَى وَجْهِ الْإِخْبَارِ لِيَسُوقَهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ فَضْلِ الْجِنْسِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى وَجْهٍ يُزِيلُ مَا عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ بِهَذَا الْجِنْسِ، وَلِيَكُونَ كَالِاسْتِشَارَةٍ لَهُمْ تَكْرِيمًا لَهُمْ فَيَكُونُ تَعْلِيمًا فِي قَالَبِ تَكْرِيمٍ مِثْلَ إِلْقَاءِ الْمُعَلِّمِ فَائِدَةً لِلتِّلْمِيذِ فِي صُورَةِ سُؤَالٍ وَجَوَابٍ وَلِيَسُنَّ الِاسْتِشَارَةَ فِي الْأُمُورِ، وَلِتَنْبِيهِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى مَا دَقَّ وَخَفِيَ مِنْ حِكْمَةِ خَلْقِ آدَمَ كَذَا ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ.**

**وَعِنْدِي أَنْ هَاتِهِ الِاسْتِشَارَةَ جُعِلَتْ لِتَكُونَ حَقِيقَةً مُقَارَنَةً فِي الْوُجُودِ لِخَلْقِ أَوَّلِ الْبَشَرِ حَتَّى تَكُونَ نَامُوسًا أُشْرِبَتْهُ نُفُوسُ ذُرِّيَّتِهِ لِأَنَّ مُقَارَنَةَ شَيْءٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْمَعَانِي لِتَكْوِينِ شَيْءٍ مَا، تُؤْثِرُ تَآلُفًا بَيْنَ ذَلِكَ الْكَائِنِ وَبَيْنَ الْمُقَارَنِ.**

**وَلَعَلَّ هَذَا الِاقْتِرَانَ يَقُومُ فِي الْمَعَانِي الَّتِي لَا تُوجَدُ إِلَّا تَبَعًا لِذَوَاتِ مَقَامِ أَمْرِ التَّكْوِينِ فِي الذَّوَاتِ فَكَمَا أَنَّ أَمْرَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَيْ إِنْشَاءَ ذَاتٍ أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، كَذَلِكَ أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ اقْتِرَانَ مَعْنًى بِذَاتٍ أَوْ جِنْسٍ أَنْ يُقَدَّرَ حُصُولَ مَبْدَأِ ذَلِكَ الْمَعْنَى عِنْدَ تَكْوِينِ أَصْلِ ذَلِكَ الْجِنْسِ أَوْ عِنْدَ تَكْوِينِ الذَّاتِ.**

**أَلَا تَرَى أَنَّهُ –تَعَالَى- لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَكُونَ قَبُولُ الْعِلْمِ مِنْ خَصَائِصِ الْإِنْسَانِ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ عِنْدَمَا خَلَقَهُ؟**

**وَهَذَا هُوَ وَجْهُ مَشْرُوعِيَّةِ تَسْمِيَةِ اللَّهِ –تَعَالَى- عِنْدَ الشُّرُوعِ فِي الْأَفْعَال،ِ لِيَكُونَ اقْتِرَانُ ابْتِدَائِهَا بِلَفْظِ اسْمِهِ تَعَالَى مُفِيضًا لِلْبَرَكَةِ عَلَى جَمِيعِ أَجْزَاءِ ذَلِكَ الْفِعْلِ، وَلِهَذَا أَيْضًا طَلَبَتْ مِنَّا الشَّرِيعَةُ تَخَيُّرَ أَكْمَلِ الْحَالَاتِ وَأَفْضَلِ الْأَوْقَاتِ لِلشُّرُوعِ فِي فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ وَمُهِمَّاتِ الْمُطَالِبِ، وَتَقَدَّمَ هَذَا فِي الْكَلَامِ عَلَى الْبَسْمَلَةِ، وَسَنَذْكُرُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالشُّورَى عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[[706]](#footnote-706) فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ.**

**وَأُسْنِدَتْ حِكَايَةُ هَذَا الْقَوْلِ إِلَى اللَّهِ –سُبْحَانَهُ- بِعُنْوَانِ الرَّبِّ، لِأَنَّهُ قَوْلٌ مُنْبِئٌ عَنْ تَدْبِيرٍ عَظِيمٍ فِي جَعْلِ الْخَلِيفَةِ فِي الْأَرْضِ، فَفِي ذَلِكَ الْجَعْلِ نِعْمَةُ تَدْبِيرٍ مَشُوبٍ بِلُطْفٍ وَصَلَاحٍ، وَذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الرُّبُوبِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=73#docu)**﴾[[707]](#footnote-707).**

**وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ النِّعْمَةُ شَامِلَةً لِجَمِيعِ النَّوْعِ أُضِيفَ وَصْفُ الرَّبِّ إِلَى ضَمِيرِ أَشْرَفِ أَفْرَادِ النَّوْعِ، وَهُوَ النَّبِيءُ مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، مَعَ تَكْرِيمِهِ بِشَرَفِ حُضُورِ الْمُخَاطَبَةِ.**

**﴿**[**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[[708]](#footnote-708)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)

**هَذَا جَوَابُ الْمَلَائِكَةِ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ لَهُمْ: ﴿**[**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[[709]](#footnote-709)؛**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)**فَالتَّقْدِيرُ: فَقَالُوا عَلَى وِزَانِ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾[[710]](#footnote-710).**

**وَفَصَلَ الْجَوَابَ، وَلَمْ يَعْطِفْ بِالْفَاءِ أَوِ الْوَاوِ جَرْيًا بِهِ عَلَى طَرِيقَةٍ مُتَّبَعَةٍ فِي الْقُرْآنِ فِي حِكَايَةِ الْمُحَاوَرَاتِ وَهِيَ طَرِيقَةٌ عَرَبِيَّةٌ.**

**قَالَ زُهَيْرٌ:**

**قِيلَ لَهُمْ أَلَا ارْكَبُوا أَلَاتَا قَالُوا جَمِيعًا كُلُّهُــــــــــــــمْ آلَافَا**

**أَيْ فَارْكَبُوا وَلَمْ يَقُلْ فَقَالُوا.**

**وَقَالَ**[**رُؤْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=15876)**:**

**قَالَتْ بَنَاتُ الْعَمِّ يَا سَلْمَى وَإِنْ     كَانَ فَقِيرًا مُعْدَمًا قَالَتْ وَإِنْ**

**وَإِنَّمَا حَذَفُوا الْعَاطِفَ فِي أَمْثَالِهِ كَرَاهِيَةَ تَكْرِيرِ الْعَاطِفِ بِتَكْرِيرِ أَفْعَالِ الْقَوْلِ، فَإِنَّ الْمُحَاوَرَةَ تَقْتَضِي الْإِعَادَةَ فِي الْغَالِبِ فَطَرَدُوا الْبَابَ فَحَذَفُوا الْعَاطِفَ فِي الْجَمِيعِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي التَّنْزِيلِ، وَرُبَّمَا عَطَفُوا ذَلِكَ بِالْفَاءِ لِنُكْتَةٍ تَقْتَضِي مُخَالَفَةَ الِاسْتِعْمَالِ، وَإِنْ كَانَ الْعَطْفُ بِالْفَاءِ هُوَ الظَّاهِرُ وَالْأَصْلُ.**

**وَهَذَا مِمَّا لَمْ أُسْبَقْ إِلَى كَشْفِهِ مِنْ أَسَالِيبِ الِاسْتِعْمَالِ الْعَرَبِيِّ، وَمِمَّا عُطِفَ بِالْفَاءِ قَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَقَالَ الْمَلَأُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)**﴾[[711]](#footnote-711) فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ يُعْطَفُ بِالْوَاوِ أَيْضًا كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾[[712]](#footnote-712)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)**إِلَخْ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ.**

**وَذَلِكَ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَقْصُودُ حِكَايَةَ التَّحَاوُرِ، بَلْ قَصْدُ الْإِخْبَارِ عَنْ أَقْوَالٍ جَرَتْ أَوْ كَانَتِ الْأَقْوَالُ الْمَحْكِيَّةُ مِمَّا جَرَى فِي أَوْقَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ أَوْ أَمْكِنَةٍ مُتَفَرِّقَةٍ.**

**وَيَظْهَرُ ذَلِكَ لَكَ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[[713]](#footnote-713)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)**إِلَى قَوْلِهِ - وَقَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿**[**ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾[[714]](#footnote-714)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)**ثُمَّ قَالَ –تَعَالَى- ﴿**[**وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾[[715]](#footnote-715)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)**ثُمَّ قَالَ: ﴿**[**وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾[[716]](#footnote-716)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)**الْآيَةَ فِي سُورَةِ غَافِرٍ.**

**وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**قَالُوا أَتَجْعَلُ﴾[[717]](#footnote-717)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)**جَوَابًا لِـ (إِذْ) عَامِلًا فِيهَا لِمَا قَدَّمْنَاهُ آنِفًا مِنْ أَنَّهُ يُفْضِي إِلَى أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ: ﴿**[**أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾[[718]](#footnote-718)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)**هُوَ الْمَقْصُودَ مِنَ الْقِصَّةِ، وَأَنْ تَصِيرَ جُمْلَةُ (إِذْ) تَابِعَةً لَهُ إِذِ الظَّرْفُ تَابِعٌ لِلْمَظْرُوفِ.**

**وَالِاسْتِفْهَامُ الْمَحْكِيُّ عَنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ مَحْمُولٌ عَلَى حَقِيقَتِهِ مُضَمَّنٌ مَعْنَى التَّعَجُّبِ وَالِاسْتِبْعَادِ مِنْ أَنْ تَتَعَلَّقَ الْحِكْمَةُ بِذَلِكَ، فَدَلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ عَلَى ذَلِكَ هُنَا بِطَرِيقِ الْكِنَايَةِ مَعَ تَطَلُّبِ مَا يُزِيلُ إِنْكَارَهُمْ وَاسْتِبْعَادَهُمْ فَلِذَلِكَ تَعَيَّنَ بَقَاءُ الِاسْتِفْهَامِ عَلَى حَقِيقَتِهِ خِلَافًا لِمَنْ تَوَهَّمَ الِاسْتِفْهَامَ هُنَا لِمُجَرَّدِ التَّعَجُّبِ، وَالَّذِي أَقْدَمَ الْمَلَائِكَةَ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ أَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ لَمَّا أَخْبَرَهُمْ أَرَادَ مِنْهُمْ إِظْهَارَ عِلْمِهِمْ تُجَاهَ هَذَا الْخَبَرِ، لِأَنَّهُمْ مَفْطُورُونَ عَلَى الصِّدْقِ وَالنَّزَاهَةِ مِنْ كُلِّ مُؤَارَبَةٍ.**

**فَلَمَّا نَشَأَ ذَلِكَ فِي نُفُوسِهِمْ أَفْصَحَتْ عَنْهُ دَلَالَةٌ تَدُلُّ عَلَيْهِ يَعْلَمُهَا اللَّهُ –تَعَالَى- مِنْ أَحْوَالِهِمْ لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ مِنْ تَمَامِ الِاسْتِشَارَةِ أَنْ يُبْدِيَ الْمُسْتَشَارُ مَا يَرَاهُ نُصْحًا.**

**وَفِي الْحَدِيثِ: "**[**الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ وَهُوَ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَكَلَّمْ"،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)**يَعْنِي: إِذَا تَكَلَّمَ فَعَلَيْهِ أَدَاءُ أَمَانَةِ النَّصِيحَةِ.**

**وَعَبَّرَ بِالْمَوْصُولِ وَصِلَتِهِ لِلْإِيمَاءِ إِلَى وَجْهِ بِنَاءِ الْكَلَامِ وَهُوَ الِاسْتِفْهَامُ وَالتَّعَجُّبُ لِأَنَّ مَنْ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ الْفَسَادُ وَالسَّفْكُ لَا يَصْلُحُ لِلتَّعْمِيرِ، لِأَنَّهُ إِذَا عُمِّرَ نَقْضَ مَا عَمَّرَهُ.**

**وَعَطْفُ سَفْكِ الدِّمَاءِ عَلَى الْإِفْسَادِ لِلِاهْتِمَامِ بِهِ. وَتَكْرِيرُ ضَمِيرِ الْأَرْضِ لِلِاهْتِمَامِ بِهَا وَالتَّذْكِيرِ بِشَأْنِ عُمْرَانِهَا وَحِفْظِ نِظَامِهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَدْخَلَ فِي التَّعَجُّبِ مِنِ اسْتِخْلَافِ آدَمَ، وَفِي صَرْفِ إِرَادَةِ اللَّهِ -تَعَالَى- عَنْ ذَلِكَ، إِنْ كَانَ فِي الِاسْتِشَارَةِ ائْتِمَارٌ.**

**وَالْإِفْسَادُ تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾[[719]](#footnote-719)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)**وَالسَّفْكُ الْإِرَاقَةُ، وَقَدْ غَلَبَ فِي كَلَامِهِمْ تَعْدِيَتُهُ إِلَى الدِّمَاءِ، وَأَمَّا إِرَاقَةُ غَيْرِ الدَّمِ فَهِيَ سَفْحٌ بِالْحَاءِ.**

**وَفِي الْمَجِيءِ بِالصِّلَةِ جُمْلَةً فِعْلِيَّةً دَلَالَةٌ عَلَى تَوَقُّعِ أَنْ يَتَكَرَّرَ الْإِفْسَادُ وَالسَّفْكُ مِنْ هَذَا الْمَخْلُوقِ.**

**وَإِنَّمَا ظَنُّوا هَذَا الظَّنَّ بِهَذَا الْمَخْلُوقِ مِنْ جِهَةِ مَا اسْتَشْعَرُوهُ مِنْ صِفَاتِ هَذَا الْمَخْلُوقِ الْمُسْتَخْلَفِ بِإِدْرَاكِهِمُ النُّورَانِيِّ لِهَيْئَةِ تَكْوِينِهِ الْجَسَدِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ وَالنُّطْقِيَّةِ إِمَّا بِوَصْفِ اللَّهِ لَهُمْ هَذَا الْخَلِيفَةَ أَوْ بِرُؤْيَتِهِمْ صُورَةَ تَرْكِيبِهِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ وَبَعْدَهُ.**

**وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُمْ رَأَوْهُ بَعْدَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ فَعَلِمُوا أَنَّهُ تَرْكِيبٌ يَسْتَطِيعُ صَاحِبُهُ أَنْ يَخْرُجَ عَنِ الْجِبِلَّةِ إِلَى الِاكْتِسَابِ، وَعَنِ الِامْتِثَالِ إِلَى الْعِصْيَانِ، فَإِنَّ الْعَقْلَ يَشْتَمِلُ عَلَى شَاهِيَةٍ وَغَاضِبَةٍ وَعَاقِلَةٍ وَمِنْ مَجْمُوعِهَا وَمَجْمُوعِ بَعْضِهَا تَحْصُلُ تَرَاكِيبُ مِنَ التَّفْكِيرِ نَافِعَةٌ وَضَارَّةٌ، ثُمَّ إِنَّ الْقُدْرَةَ الَّتِي فِي الْجَوَارِحِ تَسْتَطِيعُ تَنْفِيذَ كُلِّ مَا يَخْطُرُ لِلْعَقْلِ وَقُوَاهُ أَنْ يَفْعَلَهُ، ثُمَّ إِنَّ النُّطْقَ يَسْتَطِيعُ إِظْهَارَ خِلَافِ الْوَاقِعِ وَتَرْوِيجَ الْبَاطِلِ، فَيَكُونُ مِنْ أَحْوَالِ ذَلِكَ فَسَادٌ كَبِيرٌ وَمِنْ أَحْوَالِهِ أَيْضًا صَلَاحٌ عَظِيمٌ.**

**وَإِنَّ طَبِيعَةَ اسْتِخْدَامِ ذِي الْقُوَّةِ لِقُوَاهُ قَاضِيَةٌ بِأَنَّهُ سَيَأْتِي بِكُلِّ مَا تَصْلُحُ لَهُ هَذِهِ الْقُوَى خَيْرُهَا وَشَرُّهَا، فَيَحْصُلُ فِعْلٌ مُخْتَلَطٌ مِنْ صَالِحٍ وَسَيِّئٍ، وَمُجَرَّدُ مُشَاهَدَةِ الْمَلَائِكَةِ لِهَذَا الْمَخْلُوقِ الْعَجِيبِ الْمُرَادِ جَعْلُهُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ كَافٍ فِي إِحَاطَتِهِمْ بِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ عَجَائِبِ الصِّفَاتِ عَلَى نَحْوِ مَا سَيَظْهَرُ مِنْهَا فِي الْخَارِجِ؛ لِأَنَّ مَدَارِكَهُمْ غَايَةٌ فِي السُّمُوِّ لِسَلَامَتِهَا مِنْ كُدْرَاتِ الْمَادَّةِ.**

**وَإِذَا كَانَ أَفْرَادُ الْبَشَرِ يَتَفَاوَتُونَ فِي الشُّعُورِ بِالْخَفِيَّاتِ، وَفِي تَوَجُّهِ نُورَانِيَّةِ النُّفُوسِ إِلَى الْمَعْلُومَاتِ، وَفِي التَّوَسُّمِ وَالتَّفَرُّسِ فِي الذَّوَاتِ بِمِقْدَارِ تَفَاوُتِهِمْ فِي صِفَاتِ النَّفْسِ جِبِلِّيَّةً وَاكْتِسَابِيَّةً وَلَدُنِّيَّةً الَّتِي أَعْلَاهَا النُّبُوَّةُ، فَمَا ظَنُّكَ بِالنُّفُوسِ الْمَلَكِيَّةِ الْبَحْتَةِ.**

**وَفِي هَذَا مَا يُغْنِيكَ عَمَّا تَكَلَّفَ لَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ وَجْهِ اطِّلَاعِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى صِفَاتِ الْإِنْسَانِ قَبْلَ بُدُوِّهَا مِنْهُ مِنْ تَوْقِيفٍ وَاطِّلَاعٍ عَلَى مَا فِي اللَّوْحِ أَيْ عِلْمِ اللَّهِ، أَوْ قِيَاسٍ عَلَى أُمَّةٍ تَقَدَّمَتْ وَانْقَرَضَتْ، أَوْ قِيَاسٍ عَلَى الْوُحُوشِ الْمُفْتَرِسَةِ إِذْ كَانَتْ قَدْ وُجِدَتْ عَلَى الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ كَمَا فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ مِنَ التَّوْرَاةِ.**

**وَبِهِ أَيْضًا تَعْلَمُ أَنَّ حُكْمَ الْمَلَائِكَةِ هَذَا عَلَى مَا يَتَوَقَّعُ هَذَا الْخَلْقُ مِنَ الْبَشَرِ لَمْ يُلَاحَظْ فِيهِ وَاحِدٌ دُونَ آخَرَ، لِأَنَّهُ حُكْمٌ عَلَيْهِمْ قَبْلَ صُدُورِ الْأَفْعَالِ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ حُكْمٌ بِمَا يَصْلُحُونَ لَهُ بِالْقُوَّةِ، فَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ حُكْمَهُمْ هَذَا عَلَى بَنِي آدَمَ دُونَ آدَمَ حَيْثُ لَمْ يُفْسِدُ، لِأَنَّ فِي هَذَا الْقَوْلِ غَفْلَةً عَمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْبَيَانِ.**

**وَأُوثِرَ التَّعْبِيرُ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**مَنْ يُفْسِدُ وَيَسْفِكُ﴾[[720]](#footnote-720)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)**لِأَنَّ الْمُضَارِعَ يَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالْحُدُوثِ دُونَ الدَّوَامِ أَيْ مَنْ يَحْصُلُ مِنْهُ الْفَسَادُ تَارَةً وَسَفْكُ الدِّمَاءِ تَارَةً لِأَنَّ الْفَسَادَ وَالسَّفْكَ لَيْسَا بِمُسْتَمِرَّيْنِ مِنَ الْبَشَرِ.**

**وَقَوْلُهُمْ: ﴿**[**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾[[721]](#footnote-721)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)**دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ مُرَادَ اللَّهِ مِنْ خَلْقِ الْأَرْضِ هُوَ صَلَاحُهَا وَانْتِظَامُ أَمْرِهَا، وَإِلَّا لَمَا كَانَ لِلِاسْتِفْهَامِ الْمَشُوبِ بِالتَّعَجُّبِ مَوْقِعٌ، وَهُمْ عَلِمُوا مُرَادَ اللَّهِ ذَلِكَ مِنْ تَلَقِّيهِمْ عَنْهُ سُبْحَانَهُ أَوْ مِنْ مُقْتَضَى حَقِيقَةِ الْخِلَافَةِ أَوْ مِنْ قَرَائِنِ أَحْوَالِ الِاعْتِنَاءِ بِخَلْقِ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا عَلَى نُظُمٍ تَقْتَضِي إِرَادَةَ بَقَائِهَا إِلَى أَمَدٍ.**

**وَقَدْ دَلَّتْ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى أَنَّ إِصْلَاحَ الْعَالِمِ مَقْصِدٌ لِلشَّارِعِ قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَهَلْ عَسِيتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾[[722]](#footnote-722)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)**وَقَالَ: ﴿**[**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[[723]](#footnote-723).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)

**وَلَا يَرِدُ هُنَا أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ غِيبَةٌ وَهُمْ مُنَزَّهُونَ عَنْهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الْعَالَمَ لَيْسَ عَالَمَ تَكْلِيفٍ، وَلِأَنَّهُ لَا غِيبَةَ فِي مَشُورَةٍ وَنَحْوِهَا كَالْخِطْبَةِ وَالتَّجْرِيحِ لِتَوَقُّفِ الْمَصْلَحَةِ عَلَى ذِكْرِ مَا فِي الْمُسْتَشَارِ فِي شَأْنِهِ مِنَ النَّقَائِصِ.**

**وَرُجْحَانِ تِلْكَ الْمَصْلَحَةِ عَلَى مَفْسَدَةِ ذِكْرِ أَحَدٍ بِمَا يَكْرَهُ، وَلِأَنَّ الْمَوْصُوفَ بِذَلِكَ غَيْرُ مُعَيَّنٍ إِذِ الْحَكُمُ عَلَى النَّوْعِ، فَانْتَفَى جَمِيعُ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى الْغِيبَةِ مِنَ الْمَفَاسِدِ فِي وَاقِعَةِ الْحَالِ فَلِذَلِكَ لَمْ يُحْجِمْ عَنْهَا الْمَلَائِكَةُ.**

**﴿**[**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[[724]](#footnote-724)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)

**الْوَاوُ مُتَعَيِّنَةٌ لِلْحَالِيَّةِ إِذْ لَا مَوْقِعَ لِلْعَطْفِ هُنَا، وَإِنْ كَانَ مَا بَعْدَ الْوَاوِ مِنْ مِقْوَلِهِمْ وَمَحْكِيًّا عَنْهُمْ لَكِنَّ الْوَاوَ مِنَ الْمَحْكِيِّ وَلَيْسَتْ مِنَ الْحِكَايَةِ، لِأَنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿**[**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)**﴾[[725]](#footnote-725) يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ:**

**- أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الْغَرَضُ مِنْهُ تَفْوِيضَ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى- وَاتِّهَامَ عِلْمِهِمْ فِيمَا أَشَارُوا بِهِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْتَشَارُ مَعَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ أَسَدُّ مِنْهُ رَأْيًا وَأَرْجَحُ عَقْلًا فَيُشِيرُ ثُمَّ يُفَوِّضُ، كَمَا قَالَ أَهْلُ مَشُورَةِ بِلْقِيسَ، إِذْ قَالَتْ: ﴿**[**أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[[726]](#footnote-726)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)**أَيِ الرَّأْيُ أَنْ نُحَارِبَهُ وَنَصُدَّهُ عَمَّا يُرِيدُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[[727]](#footnote-727).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)

**وَكَمَا يَفْعَلُ التِّلْمِيذُ مَعَ الْأُسْتَاذِ فِي بَحْثِهِ مَعَهُ، ثُمَّ يُصَرِّحُ بِأَنَّهُ مَبْلَغُ عِلْمِهِ، وَأَنَّ الْقَوْلَ الْفَصْلَ لِلْأُسْتَاذِ، أَوْ هُوَ إِعْلَانٌ بِالتَّنْزِيهِ لِلْخَالِقِ عَنْ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ مَا بَدَا لَهُمْ مِنْ مَانِعِ اسْتِخْلَافِ آدَمَ، وَبَرَاءَةٌ مِنْ شَائِبَةِ الِاعْتِرَاضِ، وَاللَّهُ –تَعَالَى- وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ بَرَاءَتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ كَلَامَهُمْ جَرَى عَلَى طَرِيقَةِ التَّعْبِيرِ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ مِنْ غَيْرِ قَصْدِ إِعْلَامِ الْغَيْرِ، أَوْ لِأَنَّ فِي نَفْسِ هَذَا التَّصْرِيحِ تَبَرُّكًا وَعِبَادَةً، أَوْ إِعْلَانٌ لِأَهْلِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِذَلِكَ.**

**فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ الْعَطْفُ غَيْرَ جَائِرٍ لِأَنَّ الْجُمْلَةَ الْمَحْكِيَّةَ بِالْقَوْلِ إِذَا عُطِفَتْ عَلَيْهَا جُمْلَةٌ أُخْرَى مِنَ الْقَوْلِ، فَالشَّأْنُ أَنْ لَا يُقْصَدَ الْعَطْفُ عَلَى تَقْدِيرِ عَامِلِ الْقَوْلِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْقَوْلَانِ فِي وَقْتَيْنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿**[**وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[[728]](#footnote-728)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)**عَلَى أَحَدِ الْوُجُوهِ فِي عَطْفِ جُمْلَةِ (نِعْمَ الْوَكِيلُ) عِنْدَ مَنْ لَا يَرَوْنَ صِحَّةَ عَطْفِ الْإِنْشَاءِ عَلَى الْخَبَر،ِ وَإِنْ كَانَ الْحَقُّ صِحَّةَ عَطْفِ الْإِنْشَاءِ عَلَى الْخَبَرِ وَعَكْسِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُنَافِي حُسْنَ الْكَلَامِ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ حَظٌّ لِلْعَطْفِ.**

**أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ إِذَا حَكَوْا حَادِثًا مُلِمًّا أَوْ مُصَابًا جَمًّا أَعَقَبُوهُ بِنَحْوِ: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، أَوْ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَلَا يَعْطِفُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فَكَانَتِ الْوَاوُ وَاوَ الْحَالِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مُسْتَحْضَرٌ لَهُمْ فِي حَالِ قَوْلِهِمْ: ﴿**[**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ﴾[[729]](#footnote-729)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)**وَلَيْسَ شَيْئًا خَطَرَ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ تَوَغَّلُوا فِي الِاسْتِبْعَادِ وَالِاسْتِغْرَابِ.**

**- الِاحْتِمَالُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْغَرَضُ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿**[**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾[[730]](#footnote-730)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)**التَّعْرِيضَ بِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالِاسْتِخْلَافِ، لِأَنَّ الْجُمْلَةَ الْإِسْمِيَّةَ دَلَّتْ عَلَى الدَّوَامِ.**

**وَجُمْلَةُ: ﴿**[**مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾[[731]](#footnote-731)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)**دَلَّتْ عَلَى تَوَقُّعِ الْفَسَادِ وَالسَّفْكِ فَكَانَ الْمُرَادُ أَنَّ اسْتِخْلَافَهُ يَقَعُ مِنْهُ صَلَاحٌ وَفَسَادٌ، وَالَّذِينَ لَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ عِصْيَانُ مُرَادِ اللَّهِ هُمْ أَوْلَى بِالِاسْتِخْلَافِ مِمَّنْ يُتَوَقَّعُ مِنْهُ الْفَسَادُ، فَتَكُونُ حَالًا مُقَرِّرَةً لِمَدْلُولِ جُمْلَةِ: ﴿**[**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)**﴾[[732]](#footnote-732) تَكْمِلَةً لِلِاسْتِغْرَابِ، وَعَامِلُهَا هُوَ (تَجْعَلُ).**

**وَهَذَا الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ تَمْثِيلُ *الْكَشَّافِ*.**

**وَالْعَامِلُ فِي الْحَالِ هُوَ الِاسْتِفْهَامُ، لِأَنَّهُ مِمَّا تَضَمَّنَ مَعْنَى الْفِعْلِ لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْهُ التَّعَجُّبَ أَيْضًا إِذْ تَقْدِيرُ (أَتَجْعَلُ فِيهَا) إِلَخْ نَتَعَجَّبُ مِنْ جَعْلِهِ خَلِيفَةً.**

**وَالتَّسْبِيحُ قَوْلٌ أَوْ مَجْمُوعُ قَوْلٍ مَعَ عَمَلٍ يَدُلُّ عَلَى تَعْظِيمِ اللَّهِ –تَعَالَى- وَتَنْزِيهِهِ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ ذِكْرُ اللَّهِ تَسْبِيحًا، وَالصَّلَاةُ سُبْحَةً وَيُطْلَقُ التَّسْبِيحُ عَلَى قَوْلِ سُبْحَانَ اللَّه،ِ لِأَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ مِنَ التَّنْزِيهِ، وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ التَّسْبِيحَ مُشْتَقٌّ مِنَ السَّبْحِ وَهُوَ الذَّهَابُ السَّرِيعُ فِي الْمَاءِ، إِذْ قَدْ تُوُسِّعَ فِي مَعْنَاهُ، إِذْ أُطْلِقَ مَجَازًا عَلَى مَرِّ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[[733]](#footnote-733)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)**وَعَلَى جَرْيِ الْفَرَسِ، قَالُوا: فَلَعَلَّ التَّسْبِيحَ لُوحِظَ فِيهِ مَعْنَى سُرْعَةِ الْمُرُورِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ –تَعَالَى-.**

**وَأَظْهَرُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ سَبَّحَ بِمَعْنَى نَسَبَ لِلسَّبَحِ، أَيِ الْبُعْدِ وَأُرِيدُ الْبُعْدُ الِاعْتِبَارِيُّ، وَهُوَ الرِّفْعَةُ، أَيِ التَّنْزِيهُ عَنْ أَحْوَالِ النَّقَائِصِ.**

**وَقِيلَ: سُمِعَ سَبَحَ مُخَفَّفًا غَيْرَ مُضَاعَفٍ بِمَعْنَى نَزَّهَ، ذَكَرَهُ فِي الْقَامُوسِ.**

**وَعِنْدِي أَنَّ كَوْنَ التَّسْبِيحِ مَأْخُوذًا مِنَ السَّبْحِ عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ بِعِيدٌ.**

**وَالْوَجْهُ: أَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ كَلِمَةِ سُبْحَانَ، وَلِهَذَا الْتَزَمُوا فِي هَذَا أَنْ يَكُونَ بِوَزْنِ "فَعَّلَ" الْمُضَاعَفِ، فَلَمْ يُسْمَعْ مُخَفَّفًا.**

**وَإِذَا كَانَ التَّسْبِيحُ كَمَا قُلْنَا هُوَ قَوْلٌ أَوْ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَدُلُّ عَلَى التَّعْظِيمِ، فَتَعَلُّقُ قَوْلِهِ: ﴿بِحَمْدِكَ﴾[[734]](#footnote-734) بِهِ هُنَا وَفِي أَكْثَرِ الْمَوَاضِعِ فِي الْقُرْآنِ ظَاهِرٌ، لِأَنَّ الْقَوْلَ يَشْتَمِلُ عَلَى حَمَدِ اللَّهِ –تَعَالَى- وَتَمْجِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ فَالْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ، أَيْ نُسَبِّحُ تَسْبِيحًا مَصْحُوبًا بِالْحَمْدِ لَكَ، وَبِذَلِكَ تَنْمَحِي جَمِيعُ التَّكَلُّفَاتِ الَّتِي فَسَّرُوا بِهَا هُنَا.**

**وَالتَّقْدِيسُ التَّنْزِيهُ وَالتَّطْهِيرُ، وَهُوَ إِمَّا بِالْفِعْلِ كَمَا أُطْلِقَ الْمُقَدَّسُ عَلَى الرَّاهِبِ فِي قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ يَصِفُ تَعَلُّقَ الْكِلَابِ بِالثَّوْرِ الْوَحْشِيِّ:**

**فَأَدْرَكْنَهُ يَأْخُذْنَ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا كَمَا شَبْرَقَ الْوِلْدَانُ ثَوْبَ الْمُقَدَّسِ**

**وَإِمَّا بِالِاعْتِقَادِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: (**[**لَا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهَا مِنْ قَوِيِّهَا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)**)، أَيْ لَا نَزَّهَهَا اللَّهُ –تَعَالَى- وَطَهَّرَهَا مِنَ الْأَرْجَاسِ الشَّيْطَانِيَّةِ.**

**وَفِعْلُ قَدَّسَ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، فَالْإِتْيَانُ بِاللَّامِ مَعَ مَفْعُولِهِ فِي الْآيَةِ لِإِفَادَةِ تَأْكِيدِ حُصُولِ الْفِعْلِ نَحْوُ شَكَرْتُ لَكَ وَنَصَحْتُ لَكَ، وَفِي الْحَدِيثِ عِنْدَ ذِكْرِ الَّذِي وَجَدَ كَلْبَا يَلْهَثُ مِنَ الْعَطَشِ فَأَخَذَ خُفَّهُ فَأَدْلَاهُ فِي الرَّكِيَّةِ فَسَقَاهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، أَيْ شَكَرَهُ -مُبَالَغَةً فِي الشُّكْرِ- لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ ضَعْفُ ذَلِكَ الشُّكْرِ مِنْ أَنَّهُ عَنْ عَمَلِ حَسَنَةٍ مَعَ دَابَّةٍ، فَدَفَعَ هَذَا الْإِيهَامَ بِالتَّأْكِيدِ بِاللَّامِ، وَهَذَا مِنْ أَفْصَحِ الْكَلَامِ.**

**فَلَا تَذْهَبْ مَعَ الَّذِينَ جَعَلُوا قَوْلَهُ: ﴿لَكَ﴾[[735]](#footnote-735) مُتَعَلِّقًا بِمَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ حَامِدِينَ، أَوْ هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿نُسَبِّحُ﴾[[736]](#footnote-736) وَاللَّامُ بِمَعْنَى لِأَجْلِكَ عَلَى مَعْنَى حَذْفِ مَفْعُولِ ﴿نُسَبِّحُ﴾[[737]](#footnote-737)، أَيْ نُسَبِّحُ أَنْفُسَنَا أَيْ نُنَزِّهُهَا عَنِ النَّقَائِصِ لِأَجْلِكَ أَيْ لِطَاعَتِكَ، فَذَلِكَ عُدُولٌ عَنْ فَصِيحِ الْكَلَامِ، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ اللَّامَ لَامَ التَّبْيِينِ الَّتِي سَنَتَعَرَّضُ لَهَا عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[[738]](#footnote-738)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)**فَمَعْنَى: ﴿**[**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[[739]](#footnote-739):**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)**نَحْنُ نُعَظِّمُكَ وَنُنَزِّهُكَ، وَالْأَوَّلُ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالثَّانِي بِاعْتِقَادِ صِفَاتِ الْكَمَالِ الْمُنَاسِبَةِ لِلذَّاتِ الْعَلِيَّةِ، فَلَا يُتَوَهَّمُ التَّكْرَارُ بَيْنَ نُسَبِّحُ وَنُقَدِّسُ.**

**وَأُوثِرَتِ الْجُمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾[[740]](#footnote-740)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)**لِإِفَادَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى الدَّوَامِ وَالثَّبَات،ِ أَيْ هُوَ وَصْفُهُمُ الْمُلَازِمُ لِجِبِلَّتِهِمْ.**

**وَتَقْدِيمُ الْمُسْنِدِ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ دُونَ حَرْفِ النَّفْيِ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِلتَّخْصِيصِ بِحَاصِلِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْجُمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ مِنَ الدَّوَامِ، أَيْ نَحْنُ الدَّائِمُونَ عَلَى التَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ دُونَ هَذَا الْمَخْلُوقِ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ التَّقْدِيمَ لِمُجَرَّدِ التَّقْوَى نَحْوُ: هُوَ يُعْطِي الْجَزِيلَ.**

**﴿**[**قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[[741]](#footnote-741)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=76#docu)

**جَوَابٌ لِكَلَامِهِمْ فَهُوَ جَارٍ عَلَى أُسْلُوبِ الْمُقَاوَلَةِ فِي الْمُحَاوَرَاتِ كَمَا تَقَدَّمَ، أَيْ أَعْلَمُ مَا فِي الْبَشَرِ مِنْ صِفَاتِ الصَّلَاحِ وَمِنْ صِفَاتِ الْفَسَادِ، وَأَعْلَمُ أَنَّ صَلَاحَهُ يَحْصُلُ مِنْهُ الْمَقْصِدُ مِنْ تَعْمِيرِ الْأَرْضِ وَأَنَّ فَسَادَهُ لَا يَأْتِي عَلَى الْمَقْصِدِ بِالْإِبْطَالِ، وَأَنَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مَصَالِحَ عَظِيمَةً وَمَظَاهِرَ لِتَفَاوُتِ الْبَشَرِ فِي الْمَرَاتِبِ وَاطِّلَاعًا عَلَى نُمُوذَجٍ مِنْ غَايَاتِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ وَقُدْرَتِهِ بِمَا يُظْهِرُهُ الْبَشَرُ مِنْ مَبَالِغِ نَتَائِجِ الْعُقُولِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالْفَضَائِلِ وَالشَّرَائِعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.**

**كَيْفَ وَمِنْ أَبْدَعِ ذَلِكَ أَنَّ تَرَكُّبَ الصِّفَتَيْنِ الذَّمِيمَتَيْنِ يَأْتِي بِصِفَاتِ الْفَضَائِلِ كَحُدُوثِ الشَّجَاعَةِ مِنْ بَيْنِ طَرَفَيِ التَّهَوُّرِ وَالْجُبْنِ؟!**

**وَهَذَا إِجْمَالٌ فِي التَّذْكِيرِ بِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ –تَعَالَى- أَوْسَعُ مِمَّا عَلِمُوهُ فَهُمْ يُوقِنُونَ إِجْمَالًا أَنَّ لِذَلِكَ حِكْمَةً وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنْ لَا حَاجَةَ هُنَا لِتَقْدِيرِ ﴿وَمَا تَعْلَمُونَ﴾[[742]](#footnote-742) بَعْدَ: ﴿**[**مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[[743]](#footnote-743)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=76#docu)**لِأَنَّهُ مَعْرُوفٌ لِكُلِّ سَامِعٍ، وَلِأَنَّ الْغَرَضَ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِذِكْرِهِ، وَإِنَّمَا تَعَلَّقَ بِذِكْرِ عِلْمِهِ –تَعَالَى- بِمَا شَذَّ عَنْهُمْ.**

**وَقَدْ كَانَ قَوْلُ اللَّهِ –تَعَالَى- هَذَا تَنْهِيَةً لِلْمُحَاوَرَةِ وَإِجْمَالًا لِلْحُجَّةِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِأَنَّ سِعَةَ عِلْمِ اللَّهِ تُحِيطُ بِمَا لَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمُهُمْ، وَأَنَّهُ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ آدَمَ خَلِيفَةً كَانَتْ إِرَادَتُهُ عَنْ عِلْمٍ بِأَنَّهُ أَهْلٌ لِلْخِلَافَةِ، وَتَأْكِيدُ الْجُمْلَةِ بِأَنَّ لِتَنْزِيلِ الْمَلَائِكَةِ فِي مُرَاجَعَتِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ عَنِ الْحِكْمَةِ مَنْزِلَةَ الْمُتَرَدِّدِينَ.**

**﴿**[**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[[744]](#footnote-744)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=77#docu)

**مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[[745]](#footnote-745)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=77#docu)**عَطَفَ حِكَايَةَ الدَّلِيلِ التَّفْصِيلِيِّ عَلَى حِكَايَةِ الِاسْتِدْلَالِ الْإِجْمَالِيِّ الَّذِي اقْتَضَاهُ قَوْلُهُ: ﴿**[**إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[[746]](#footnote-746)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=77#docu)**فَإِنَّ تَعْلِيمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ وَإِظْهَارَ فَضِيلَتِهِ بِقَبُولِهِ لِهَذَا التَّعْلِيمِ دُونَ الْمَلَائِكَةِ جَعَلَهُ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى قَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿**[**إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[[747]](#footnote-747)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=77#docu)**أَيْ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِنْ جَدَارَةِ هَذَا الْمَخْلُوقِ بِالْخِلَافَةِ فِي الْأَرْضِ.**

**وَعَطْفُ ذِكْرِ آدَمَ بَعْدَ ذِكْرِ مَقَالَةِ اللَّهِ لِلْمَلَائِكَةِ وَذِكْرِ مُحَاوَرَتِهِمْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْخَلِيفَةَ هُوَ آدَمُ، وَأَنَّ آدَمَ اسْمٌ لِذَلِكَ الْخَلِيفَةِ.**

**وَهَذَا الْأُسْلُوبُ مِنْ بَدِيعِ الْإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ وَالْإِيجَازِ، كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ:**

**فَقُلْتُ لَهُمْ لَا أَعَرِفَنَّ عَقَائِـــــــــــــــــــلًا رَعَابِيبَ مِنْ جَنْبَيْ أَرِيكٍ وَعَاقِـــــلِ**

**الْأَبْيَاتِ ثُمَّ قَالَ بَعْدَهَا:**

**وَقَدْ خِفْتُ حَتَّى مَا تَزِيدُ مَخَافَتِي      عَلَى وَعِلٍ فِي ذِي الْمَطَارَةِ عَاقِلِ**

**مَخَافَةَ عَمْرٍو أَنْ تَكُونَ جِيَــــــــــادُهُ      يُقَدْنَ إِلَيْنَا بَيْنَ حَافٍ وَنَاعِــــــــــــــــلِ**

**فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَا ذَكَرَهُ سَالِفًا مِنَ الْعَقَائِلِ الَّتِي بَيْنَ أُرِيكِ وَعَاقِلٍ، وَمِنَ الْأَنْعَامِ الْمُغْتَنَمَةِ هُوَ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْ غَزْوِ عَمْرِو بْنِ الْحَرْثِ الْغَسَّانِيِّ دِيَارَ بَنِي عَوْفٍ مِنْ قَوْمِهِ.**

**"وَآدَمُ" اسْمُ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ أَبِي الْبَشَرِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَقِيلَ مَنْقُولٌ مِنَ الْعِبْرَانِيَّةِ، لِأَنَّ "أَدَامَا" بِالْعِبْرَانِيَّةِ بِمَعْنَى الْأَرْضَ، وَهُوَ قَرِيبٌ، لِأَنَّ التَّوْرَاةَ تَكَلَّمَتْ عَلَى خَلْقِ آدَمَ وَأَطَالَتْ فِي أَحْوَالِهِ؛ فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ اسْمُ أَبِي الْبَشَرِ قَدِ اشْتُهِرَ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنَ الْيَهُودِ وَسَمَاعِ حِكَايَتِهِمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الِاسْمُ عُرِفَ عِنْدَ الْعَرَبِ وَالْعِبْرَانِيِّينَ مَعًا مِنْ أَصْلِ اللُّغَاتِ السَّامِيَةِ فَاتَّفَقَتْ عَلَيْهِ فُرُوعُهَا.**

**وَقَدْ سُمِّيَ فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ مِنَ التَّوْرَاةِ بِهَذَا الِاسْمِ آدَمَ وَوَقَعَ فِي دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ آدَمَ سَمَّى نَفْسَهُ إِيشَ "أَيْ ذَا مُقْتَنَى"، وَتَرْجَمَتُهُ إِنْسَانٌ أَوْ قَرْءٌ.**

**قُلْتُ: وَلَعَلَّهُ تَحْرِيفُ إِيثَ كَمَا سَتَعْلَمُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[[748]](#footnote-748)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=77#docu)**وَلِلْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ أَسْمَاءُ أُخَرُ فِي لُغَاتِ الْأُمَمِ، وَقَدْ سَمَّاهُ الْفُرْسُ الْقُدَمَاءُ كَيُومِرْتَ بِفَتْحِ الْكَافِ فِي أَوَّلِهِ وَبِتَاءٍ مُثَنَّاةٍ فَوْقِيَّةٍ فِي آخِرِهِ، وَيُسَمَّى أَيْضًا كَيَامِرْتِنَ بِأَلَفٍ عِوَضَ الْوَاوِ وَبِكَسْرِ الرَّاءِ وَبَنُونٍ بَعْدَ الْمُثَنَّاةِ الْفَوْقِيَّةِ.**

**قَالُوا: إِنَّهُ مَكَثَ فِي الْجَنَّةِ ثَلَاثَةَ آلَافِ سَنَّةٍ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الْأَرْضِ فَعَاشَ فِي الْأَرْضِ ثَلَاثَةَ آلَافِ سَنَةٍ أُخْرَى، وَاسْمُهُ فِي الْعِبْرَانِيَّةِ آدَمُ كَمَا سُمِّيَ فِي التَّوْرَاةِ.**

**وَانْتَقَلَ هَذَا الِاسْمُ إِلَى اللُّغَاتِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ مِنْ كُتُبِ الدِّيَانَةِ الْمَسِيحِيَّةِ، فَسَمَّوْهُ "آدَامَ" بِإِشْبَاعِ الدَّالِ، فَهُوَ اسْمٌ عَلَى وَزْنِ فَاعِلٍ صِيغَ كَذَلِكَ اعْتِبَاطًا، وَقَدْ جُمِعَ عَلَى "أَوَادِمَ" بِوَزْنِ فَوَاعِلَ كَمَا جُمِعَ خَاتَمُ وَهَذَا الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ*، وَجَعَلَ مُحَاوَلَةَ اشْتِقَاقِهِ، كَمُحَاوَلَةِ اشْتِقَاقِ يَعْقُوبَ مِنَ الْعَقِبِ وَإِبْلِيسَ مِنَ الْإِبْلَاسِ وَنَحْوِ ذَلِكَ أَيْ هِيَ مُحَاوَلَةٌ ضَئِيلَةٌ وَهُوَ الْحَقُّ.**

**وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: أَصْلُهُ أَأْدَمُ بِهَمْزَتَيْنِ عَلَى وَزْنِ أَفْعَلُ مِنَ الْأُدْمَةِ، وَهِيَ لَوْنُ السُّمْرَةِ فَقُلِبَتْ ثَانِيَةُ الْهَمْزَتَيْنِ مَدَّةً، وَيُبْعِدُهُ الْجَمْعَ وَإِنْ أَمْكَنَ تَأْوِيلُهُ بِأَنَّ أَصْلَهُ أَأَادَمُ فَقُلِبَتِ الْهَمْزَةُ الثَّانِيَةُ فِي الْجَمْعِ وَاوًا، لِأَنَّهَا لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ كَمَا أَجَابَ بِهِ الْجَوْهَرِيُّ.**

**وَلَعَلَّ اشْتِقَاقَ اسْمِ لَوْنِ الْأُدْمَةِ مِنِ اسْمِ آدَمَ أَقْرَبُ مِنَ الْعَكْسِ.**

**وَالْأَسْمَاءُ جَمْعُ اسْمٍ وَهُوَ فِي اللُّغَةِ لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى يَفْهَمُهُ ذِهْنُ السَّامِعِ، فَيَخْتَصُّ بِالْأَلْفَاظِ سَوَاءً كَانَ مَدْلُولُهَا ذَاتًا وَهُوَ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ، أَوْ صِفَةً أَوْ فِعْلًا فِيمَا طَرَأَ عَلَى الْبَشَرِ الِاحْتِيَاجُ إِلَيْهِ فِي اسْتِعَانَةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، فَحَصَلَ مِنْ ذَلِكَ أَلْفَاظٌ مُفْرَدَةٌ أَوْ مُرَكَّبَةٌ.**

**وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى الِاسْمِ عُرْفًا إِذْ لَمْ يَقَعْ نَقْلٌ. فَمَا قِيلَ إِنَّ الِاسْمَ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَى الشَّيْءِ سَوَاءٌ كَانَ لَفْظَهُ أَوْ صِفَتَهُ أَوْ فِعْلَهُ تَوَهُّمٌ فِي اللُّغَةِ.**

**وَلَعَلَّهُمْ تَطَوَّحُوا بِهِ إِلَى أَنَّ اشْتِقَاقَهُ مِنَ السِّمَةِ، وَهِيَ الْعَلَامَةُ، وَذَلِكَ عَلَى تَسْلِيمِهِ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَبْقَى مُسَاوِيًا لِأَصْلِ اشْتِقَاقِهِ.**

**وَقَدْ قِيلَ: هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّمُوِّ، لِأَنَّهُ لَمَّا دَلَّ عَلَى الذَّاتِ فَقَدْ أَبْرَزَهَا.**

**وَقِيلَ: مُشْتَقٌّ مِنَ الْوَسْمِ لِأَنَّهُ سِمَةٌ عَلَى الْمَدْلُولِ. وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّمُوِّ وَأَنَّ وَزْنَهُ سِمْوٌ بِكَسْرِ السِّينِ وَسُكُونِ الْمِيمِ لِأَنَّهُمْ جَمَعُوهُ عَلَى أَسْمَاءٍ وَلَوْلَا أَنَّ أَصْلَهُ سِمْوٌ لَمَا كَانَ وَجْهٌ لِزِيَادَةِ الْهَمْزَةِ فِي آخِرِهِ فَإِنَّهَا مُبْدَلَةٌ عَنِ الْوَاوِ فِي الطَّرَفِ إِثْرَ أَلْفٍ زَائِدَةٍ وَلَكَانُوا جَمَعُوهُ عَلَى أَوْسَامٍ.**

**وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْأَسْمَاءَ الَّتِي عُلِّمَهَا آدَمُ هِيَ أَلْفَاظٌ تَدُلُّ عَلَى ذَوَاتِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَحْتَاجُ نَوْعُ الْإِنْسَانِ إِلَى التَّعْبِيرِ عَنْهَا لِحَاجَتِهِ إِلَى نِدَائِهَا، أَوِ اسْتِحْضَارِهَا، أَوْ إِفَادَةِ حُصُولِ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ، وَهِيَ -أَيِ الْإِفَادَةُ- مَا نُسَمِّيهِ الْيَوْمَ بِالْأَخْبَارِ أَوِ التَّوْصِيفِ.**

**فَيَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَسْمَاءِ ابْتِدَاءً: أَسْمَاءُ الذَّوَاتِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، مِثْلَ: الْأَعْلَامِ الشَّخْصِيَّةِ، وَأَسْمَاءِ الْأَجْنَاسِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَجَرِ وَالْكَوَاكِبِ مِمَّا يَقَعُ عَلَيْهِ نَظَرُ الْإِنْسَانِ ابْتِدَاءً، مِثْلَ: اسْمِ جَنَّةٍ، وَمَلَكٍ، وَآدَمَ، وَحَوَّاءَ، وَإِبْلِيسَ، وَشَجَرَةٍ وَثَمَرَةٍ.**

**وَنَجِدُ ذَلِكَ بِحَسَبِ اللُّغَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْأُولَى.**

**وَلِذَلِكَ نُرَجِّحُ أَنْ لَا يَكُونَ فِيمَا عُلِّمَهُ آدَمُ ابْتِدَاءً شَيْءٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْمَعَانِي وَالْأَحْدَاثِ ثُمَّ طَرَأَتْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ حُصُولِ حَدَثٍ أَوْ أَمْرٍ مَعْنَوِيٍّ لِذَاتٍ قَرَنَ بَيْنَ اسْمِ الذَّاتِ وَاسْمِ الْحَدَثِ نَحْوُ مَاءِ بَرْدٍ، أَيْ مَاءٍ بَارِدٍ ثُمَّ طَرَأَ وَضْعُ الْأَفْعَالِ وَالْأَوْصَافِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ الْمَاءُ بَارِدٌ أَوْ بَرَدَ الْمَاءُ.**

**وَهَذَا يُرَجِّحُ أَنَّ أَصْلَ الِاشْتِقَاقِ هُوَ الْمُصَادَرُ لَا الْأَفْعَالُ لِأَنَّ الْمَصَادِرَ صِنْفٌ دَقِيقٌ مِنْ نَوْعِ الْأَسْمَاءِ، وَقَدْ دَلَّنَا عَلَى هَذَا قَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾[[749]](#footnote-749)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=77#docu)**كَمَا سَيَأْتِي.**

**وَالتَّعْرِيفُ فِي الْأَسْمَاءِ تَعْرِيفٌ الْجِنْسِ أُرِيدَ مِنْهُ الِاسْتِغْرَاقُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ عَلَّمَهُ جَمِيعَ أَسْمَاءِ الْأَشْيَاءِ الْمَعْرُوفَةِ يَوْمَئِذٍ فِي ذَلِكَ الْعَالَمِ، فَهُوَ اسْتِغْرَاقٌ عُرْفِيٌّ مِثْلُ: جَمَعَ الْأَمِيرُ الصَّاغَةَ أَيْ صَاغَةَ أَرْضِهِ، وَهُوَ الظَّاهِرُ، لِأَنَّهُ الْمِقْدَارُ الَّذِي تَظْهَرُ بِهِ الْفَضِيلَةُ فَمَا زَادَ عَلَيْهِ لَا يَلِيقُ تَعْلِيمُهُ بِالْحِكْمَةِ، وَقُدْرَةُ اللَّهِ صَالِحَةٌ لِذَلِكَ.**

**وَتَعْرِيفُ الْأَسْمَاءِ يُفِيدُ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ آدَمَ كُلَّ اسْمٍ مَا هُوَ مُسَمَّاهُ وَمَدْلُولُهُ، وَالْإِتْيَانُ بِالْجَمْعِ هُنَا مُتَعَيَّنٌ إِذْ لَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يَقُولَ وَعَلَّمَ آدَمَ الِاسْمَ، وَمَا شَاعَ مِنْ أَنَّ اسْتِغْرَاقَ الْمُفْرَدِ أَشْمَلُ مِنِ اسْتِغْرَاقِ الْجَمْعِ فِي الْمُعَرَّفِ بِاللَّامِ كَلَامٌ غَيْرُ مُحَرِّرٍ.**

**وَأَصْلُهُ مَأْخُوذٌ مِنْ كَلَامِ السَّكَّاكِيِّ وَسَنُحَقِّقُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَلَكِنِ الْبِرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾[[750]](#footnote-750)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=77#docu)**فِي هَذِهِ السُّورَةِ. وَ(كُلَّهَا) تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى الِاسْتِغْرَاقِ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ مِنْهُ الْعَهْدُ، فَلَمْ تَزِدْ كَلِمَةُ "كُلَّ" الْعُمُومَ شُمُولًا وَلَكِنَّهَا دَفَعَتْ عَنْهُ الِاحْتِمَالَ.**

**وَ "كُلَّ" اسْمٌ دَالٌّ عَلَى الشُّمُولِ وَالْإِحَاطَةِ فِيمَا أُضِيفَ هُوَ إِلَيْهِ، وَأَكْثَرُ مَا يَجِيءُ مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ مَا قَبْلَهُ فَيُعْرَبُ تَوْكِيدًا تَابِعًا لِمَا قَبْلَهُ وَيَكُونُ أَيْضًا مُسْتَقِلًّا بِالْإِعْرَابِ إِذَا لَمْ يُقْصَدِ التَّوْكِيدُ بَلْ قُصِدَتِ الْإِحَاطَةُ وَهُوَ مُلَازِمٌ لِلْإِضَافَةِ لَفْظًا أَوْ تَقْدِيرًا، فَإِذَا لَمْ يُذْكَرِ الْمُضَافُ إِلَيْهِ عُوِّضَ عَنْهُ بِالتَّنْوِينِ، وَلِكَوْنِهِ مُلَازِمًا لِلْإِضَافَةِ يُعْتَبَرُ مَعْرِفَةً بِالْإِضَافَةِ، فَلَا تَدْخُلُ عَلَيْهِ لَامُ التَّعْرِيفِ.**

**وَتَعْلِيمُ اللَّهِ –تَعَالَى- آدَمَ الْأَسْمَاءَ إِمَّا بِطَرِيقَةِ التَّلْقِينِ بِعَرْضِ الْمُسَمَّى عَلَيْهِ، فَإِذَا أَرَاهُ لُقِّنَ اسْمَهُ بِصَوْتٍ مَخْلُوقٍ يَسْمَعُهُ فَيَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ اللَّفْظَ دَالٌّ عَلَى تِلْكَ الذَّاتِ بِعِلْمٍ ضَرُورِيٍّ. أَوْ يَكُونُ التَّعْلِيمُ بِإِلْقَاءِ عِلْمٍ ضَرُورِيٍّ فِي نَفْسِ آدَمَ بِحَيْثُ يَخْطُرُ فِي ذِهْنِهِ اسْمُ شَيْءٍ عِنْدَمَا يُعْرَضُ عَلَيْهِ، فَيَضَعُ لَهُ اسْمًا بِأَنْ أَلْهَمَهُ وَضْعَ الْأَسْمَاءِ لِلْأَشْيَاءِ، لِيُمْكِنَهُ أَنْ يُفِيدَهَا غَيْرَهُ.**

**وَذَلِكَ بِأَنْ خَلَقَ قُوَّةَ النُّطْقِ فِيهِ وَجَعَلَهُ قَادِرًا عَلَى وَضْعِ اللُّغَةِ كَمَا قَالَ –تَعَالَى-: ﴿**[**خَلَقَ الْإِنْسَانَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=77#docu)[**عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[[751]](#footnote-751)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=77#docu)**وَجَمِيعُ ذَلِكَ تَعْلِيمٌ؛ إِذِ التَّعْلِيمُ مَصْدَرُ عَلَّمَهُ إِذَا جَعَلَهُ ذَا عِلْمٍ مِثْلُ أَدَّبَهُ، فَلَا يَنْحَصِرُ فِي التَّلْقِينِ، وَإِنْ تَبَادَرَ فِيهِ عُرْفًا.**

**وَأَيًّا مَا كَانَتْ كَيْفِيَّةُ التَّعْلِيمِ فَقَدْ كَانَ سَبَبًا لِتَفْضِيلِ الْإِنْسَانِ عَلَى بَقِيَّةِ أَنْوَاعِ جِنْسِهِ بِقُوَّةِ النُّطْقِ وَإِحْدَاثِ الْمَوْضُوعَاتِ اللُّغَوِيَّةِ لِلتَّعْبِيرِ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.**

**وَكَانَ ذَلِكَ أَيْضًا سَبَبًا لِتَفَاضُلِ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا يَنْشَأُ عَنِ النُّطْقِ مِنِ اسْتِفَادَةِ الْمَجْهُولِ مِنَ الْمَعْلُومِ، وَهُوَ مَبْدَأُ الْعُلُومِ، فَالْإِنْسَانُ لَمَّا خُلِقَ نَاطِقًا مُعَبِّرًا عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ فَقَدْ خُلِقَ مُدْرِكًا أَيْ عَالِمًا، وَقَدْ خُلِقَ مُعَلِّمًا.**

**وَهَذَا أَصْلُ نَشْأَةِ الْعُلُومِ وَالْقَوَانِينِ وَتَفَارِيعِهَا، لِأَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْمَعَارِفِ كُلِّهَا وَجَدْتَهَا وَضْعَ أَسْمَاءٍ لِمُسَمَّيَاتٍ وَتَعْرِيفَ مَعَانِي تِلْكَ الْأَسْمَاءِ وَتَحْدِيدَهَا لِتَسْهِيلِ إِيصَالِ مَا يَحْصُلُ فِي الذِّهْنِ إِلَى ذِهْنِ الْغَيْرِ.**

**وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ قَدْ حُرِمَهُ بَقِيَّةُ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ، فَلِذَلِكَ لَمْ تَتَفَاضَلْ أَفْرَادُهُ إِلَّا تَفَاضُلَا ضَعِيفًا بِحُسْنِ الصُّورَةِ أَوْ قُوَّةِ الْمَنْفَعَةِ أَوْ قِلَّةِ الْعُجْمَةِ بَلْهَ بَقِيَّةَ الْأَجْنَاسِ كَالنَّبَاتِ وَالْمَعْدِنِ.**

**وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّ الْعِبْرَةَ فِي تَعْلِيمِ اللَّهِ –تَعَالَى- آدَمَ الْأَسْمَاءَ حَاصِلَةٌ سَوَاءً كَانَ الَّذِي عَلَّمَهُ إِيَّاهُ أَسْمَاءَ الْمَوْجُودَاتِ يَوْمَئِذٍ أَوْ أَسْمَاءَ كُلِّ مَا سَيُوجَدُ، وَسَوَاءً كَانَ ذَلِكَ بِلُغَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الَّتِي ابْتَدَأَ بِهَا نُطْقُ الْبَشَرِ مُنْذُ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ أَمْ كَانَ بِجَمِيعِ اللُّغَاتِ الَّتِي سَتَنْطِقُ بِهَا ذُرِّيَّاتُهُ مِنَ الْأُمَمِ، وَسَوَاءً كَانَتِ الْأَسْمَاءُ أَسْمَاءَ الذَّوَاتِ فَقَطْ أَوْ أَسْمَاءَ الْمَعَانِي وَالصِّفَاتِ، وَسَوَاءً كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْأَلْفَاظَ الدَّالَّةَ عَلَى الْمَعَانِي أَوْ كُلَّ دَالٍّ عَلَى شَيْءٍ لَفْظًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ مِنْ خَصَائِصِ الْأَشْيَاءِ وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا كَمَا تَقَدَّمَ؛ إِذْ مُحَاوَلَةُ تَحْقِيقِ ذَلِكَ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ.**

**وَلَعَلَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ قَدْ هَانَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ تَفْضِيلُ آدَمَ بِتَعْلِيمِ اللَّهِ مُتَعَلِّقًا بِمَعْرِفَةِ عَدَدٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمَعَانِي الْمَوْجُودَةِ فَرَامُوا تَعْظِيمَ هَذَا التَّعْلِيمِ بِتَوْسِيعِهِ وَغَفَلُوا عَنْ مَوْقِعِ الْعِبْرَةِ وَمِلَاكِ الْفَضِيلَةِ، وَهُوَ إِيجَادُ هَاتِهِ الْقُوَّةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي كَانَ أَوَّلُهَا تَعْلِيمَ تِلْكَ الْأَسْمَاءِ.**

**وَلِذَلِكَ كَانَ إِظْهَارُ عَجْزِ الْمَلَائِكَةِ عَنْ لَحَاقِ هَذَا الشَّأْوِ بِعَدَمِ تَعْلِيمِهِمْ لِشَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ، وَلَوْ كَانَتِ الْمَزِيَّةُ وَالتَّفَاضُلُ فِي تَعْلِيمِ آدَمَ جَمِيعَ مَا سَيَكُونُ مِنَ الْأَسْمَاءِ فِي اللُّغَاتِ لَكَفَى فِي إِظْهَارِ عَجْزِ الْمَلَائِكَةِ عَدَمُ تَعْلِيمِهِمْ لِجَمْهَرَةِ الْأَسْمَاءِ.**

**وَإِنَّمَا عَلَّمَ آدَمَ أَسْمَاءَ الْمَوْجُودَاتِ يَوْمَئِذٍ كُلِّهَا لِيَكُونَ إِنْبَاؤُهُ الْمَلَائِكَةَ بِهَا أَبْهَرَ لَهُمْ فِي فَضِيلَتِهِ.**

**وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللُّغَاتِ تَوْقِيفِيَّةٌ أَيْ لَقَّنَهَا اللَّهُ تَعَالَى الْبَشَرَ عَلَى لِسَانِ آدَمَ وَلَا عَلَى عَدَمِهِ، لِأَنَّ طَرِيقَةَ التَّعْلِيمِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾[[752]](#footnote-752)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=77#docu)**مُجْمَلَةٌ مُحْتَمِلَةٌ لِكَيْفِيَّاتٍ كَمَا قَدَّمْنَاهُ.**

**وَالنَّاسُ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْقُدْرَةَ عَلَيْهَا إِلْهَامٌ مِنَ اللَّهِ وَذَلِكَ تَعْلِيمٌ مِنْهُ سَوَاءٌ لَقَّنَ آدَمَ لُغَةً وَاحِدَةً أَوْ جَمِيعَ لُغَاتِ الْبَشَرِ. وَأَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ أَوْ أَلْهَمَهُ ذَلِكَ أَوْ خَلَقَ لَهُ الْقُوَّةَ النَّاطِقَةَ، وَالْمَسْأَلَةُ مَفْرُوضَةٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ وَفِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَفِيهَا أَقْوَالٌ وَلَا أَثَرَ لِهَذَا الِاخْتِلَافِ لَا فِي الْفِقْهِ وَلَا فِي غَيْرِهِ قَالَ الْمَازِرِيُّ إِلَّا فِي جَوَازِ قَلْبِ اللُّغَةِ.**

**وَالْحَقُّ أَنَّ قَلْبَ الْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ حَرَامٌ وَغَيْرُهُ جَائِزٌ. وَلَقَدْ أَصَابَ الْمَازِرِيُّ وَأَخْطَأَ كُلُّ مَنْ رَامَ أَنْ يَجْعَلَ لِهَذَا الْخِلَافِ ثَمَرَةً غَيْرَ مَا ذُكِرَ، وَفِي اسْتِقْرَاءِ ذَلِكَ وَرَدِّهِ طُولٌ، وَأَمْرُهُ لَا يَخْفَى عَنْ سَالِمِي الْعُقُولِ.**

**﴿**[**ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[[753]](#footnote-753)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=78#docu)

**قِيلَ عَطْفُهُ بِـ ﴿ثُمَّ﴾[[754]](#footnote-754)، لِأَنَّ بَيْنَ ابْتِدَاءِ التَّعْلِيمِ وَبَيْنَ الْعَرْضِ مُهْلَةً وَهِيَ مُدَّةُ تَلْقِينِ الْأَسْمَاءِ لِآدَمَ أَوْ مُدَّةُ إِلْهَامِهِ وَضْعَ الْأَسْمَاءِ لِلْمُسَمَّيَاتِ.**

**وَالْأَظْهَرُ أَنَّ ﴿ثُمَّ﴾[[755]](#footnote-755) هُنَا لِلتَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ كَشَأْنِهَا فِي عَطْفِهَا الْجُمَلَ، لِأَنَّ رُتْبَةَ هَذَا الْعَرْضِ وَظُهُورَ عَدَمِ عِلْمِ الْمَلَائِكَةِ وَظُهُورَ عِلْمِ آدَمَ وَظُهُورَ أَثَرِ عِلْمِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ كُلُّ ذَلِكَ أَرْفَعُ رُتْبَةً فِي إِظْهَارِ مَزِيَّةِ آدَمَ وَاسْتِحْقَاقِهِ الْخِلَافَةَ، مِنْ رُتْبَةِ مُجَرَّدِ تَعَلُّمِهِ الْأَسْمَاءَ لَوْ بَقِيَ غَيْرَ مُتَّصِلٍ بِهِ مَا حَدَثَ مِنَ الْحَادِثَةِ كُلِّهَا.**

**وَلَمَّا كَانَ مَفْهُومُ لَفْظِ اسْمٍ مِنَ الْمَفْهُومَاتِ الْإِضَافِيَّةِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ تَعَقُّلُهَا عَلَى تَعَقُّلِ غَيْرِهَا -إِذِ الِاسْمُ لَا يَكُونُ إِلَّا الْمُسَمَّى- كَانَ ذِكْرُ الْأَسْمَاءِ مُشْعِرًا لَا مَحَالَةَ بِالْمُسَمَّيَاتِ، فَجَازَ لِلْبَلِيغِ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى ذَلِكَ وَيَحْذِفَ لَفْظَ الْمُسَمَّيَاتِ إِيجَازًا.**

**وَضَمِيرُ ﴿عَرَضَهُمْ﴾[[756]](#footnote-756) لِلْمُسَمَّيَاتِ، لِأَنَّهَا الَّتِي تُعْرَضُ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: ﴿**[**أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾[[757]](#footnote-757)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=78#docu)**وَبِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[[758]](#footnote-758)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=78#docu)**فَإِنَّ الِاسْمَ يَقْتَضِي مُسَمًّى وَهَذَا مِنْ إِيجَازِ الْحَذْفِ، وَأَمَّا الْأَسْمَاءُ فَلَا تُعْرَضُ، لِأَنَّ الْعَرْضَ إِظْهَارُ الذَّاتِ بَعْدَ خَفَائِهَا وَمِنْهُ عَرْضُ الشَّيْءِ لِلْبَيْعِ وَيَوْمُ الْعَرْضِ، وَالْأَلْفَاظُ لَا تَظْهَرُ فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمَعْرُوضَ مَدْلُولَاتُ الْأَسْمَاءِ إِمَّا بِأَنْ تُعْرَضَ صُوَرٌ مِنَ الذَّوَاتِ فَقَطْ.**

**وَيُسْأَلُ عَنْ مَعْرِفَةِ أَسْمَائِهَا أَيْ مَعْرِفَةِ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَيْهَا، أَوْ عَنْ بَيَانِ مَوَاهِيِّهَا وَخَصَائِصِهَا، وَإِمَّا بِأَنْ تُعْرَضَ الذَّوَاتُ وَالْمَعَانِي بِخَلْقِ أَشْكَالٍ دَالَّةٍ عَلَى الْمَعَانِي كَعَرْضِ الشَّجَاعَةِ فِي صُورَةِ فِعْلِ صَاحِبِهَا وَالْعِلْمِ فِي صُورَةِ إِفَاضَةِ الْعَالِمِ فِي دَرْسِهِ أَوْ تَحْرِيرِهِ، كَمَا نَرَى فِي الصُّوَرِ الْمَنْحُوتَةِ أَوِ الْمَدْهُونَةِ لِلْمَعَانِي الْمَعْقُولَةِ عِنْدَ الْيُونَانَ وَالرُّومَانِ وَالْفُرْسِ وَالصُّوَرِ الذِّهْنِيَّةِ عِنْدَ الْإِفْرِنْجِ، بِحَيْثُ يَجِدُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ تِلْكَ الْهَيْئَةِ أَنَّ الْمَعْرُوضَ مَعْنَى شَجَاعَةٍ أَوْ مَعْنَى عِلْمٍ وَيَقْرُبُ ذَلِكَ مَا يَحْصُلُ فِي الْمَرَائِي الْحُلْمِيَّةِ.**

**وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْحَالَ الْمَذْكُورَةَ فِي الْآيَةِ حَالَةُ عَالَمٍ أَوْسَعَ مِنْ عَالَمِ الْمَحْسُوسَاتِ وَالْمَادَّةِ.**

**وَإِعَادَةُ ضَمِيرِ الْمُذَكِّرِ الْعَاقِلِ عَلَى الْمُسَمَّيَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**عَرَضَهُمْ﴾[[759]](#footnote-759)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=78#docu)**لِلتَّغْلِيبِ، لِأَنَّ أَشْرَفَ الْمَعْرُوضَاتِ ذَوَاتُ الْعُقَلَاءِ وَصِفَاتُهُمْ عَلَى أَنَّ وُرُودَ مِثْلِهِ بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي أَصْلُهَا لِلْعُقَلَاءِ طَرِيقَةٌ عَرَبِيَّةٌ، نَحْوُ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[[760]](#footnote-760).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=78#docu)

**وَالدَّاعِي إِلَى هَذَا أَنْ يُعْلَمَ ابْتِدَاءً أَنَّ الْمَعْرُوضَ غَيْرُ الْأَسْمَاءِ حَتَّى لَا يَضِلَّ فَهْمُ السَّامِعِ قَبْلَ سَمَاعِ قَرِينَةِ: ﴿**[**أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾[[761]](#footnote-761)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=78#docu)**وَقَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿**[**فَقَالَ أَنْبِئُونِي﴾[[762]](#footnote-762)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=78#docu)**تَفْرِيعٌ عَلَى الْعَرْضِ، وَقُرِنَ بِالْفَاءِ لِذَلِكَ.**

**وَالْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ: أَنْبِئُونِي أَمْرُ تَعْجِيزٍ بِقَرِينَةِ كَوْنِ الْمَأْمُورِ يَعْلَمُ أَنَّ الْآمِرَ عَالِمٌ بِذَلِكَ فَلَيْسَ هَذَا مِنَ التَّكْلِيفِ بِالْمُحَالِ كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ.**

**وَاسْتِعْمَالُ صِيغَةِ الْأَمْرِ فِي التَّعْجِيزِ مَجَازٌ، ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْمَجَازِيَّ يَسْتَلْزِمُ عِلْمَ الْآمِرِ بِعَجْزِ الْمَأْمُورِ وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ عِلْمَ الْآمِرِ بِالْمَأْمُورِ بِهِ.**

**وَالْإِنْبَاءُ الْإِخْبَارُ بِالنَّبَأِ، وَهُوَ الْخَبَرُ ذُو الْفَائِدَةِ الْعَظِيمَةِ وَالْأَهَمِّيَّةِ بِحَيْثُ يَحْرِصُ السَّامِعُونَ عَلَى اكْتِسَابِهِ، وَلِذَلِكَ تَضَمَّنَ الْإِنْبَاءُ مَعْنَى الْإِعْلَامِ، لِأَنَّ الْمُخْبَرَ بِهِ يُعَدُّ مِمَّا يُعْلَمُ وَيُعْتَقَدُ بِوَجْهٍ أَخَصَّ مِنِ اعْتِقَادِ مُطْلَقِ الْخَبَرِ، فَهُوَ أَخَصُّ مِنَ الْخَبَرِ.**

**وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[[763]](#footnote-763) إِمَّا أَرَادَ بِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي أَنَّكُمْ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا الْمَخْلُوقِ، إِنْ كَانَ قَوْلُهُمْ: ﴿**[**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾[[764]](#footnote-764)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=78#docu)**إِلَخْ تَعْرِيضًا بِأَنَّهُمْ أَحِقَّاءُ بِذَلِكَ. أَوْ أَرَادَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي عَدَمِ جَدَارَةِ آدَمَ بِالْخِلَافَةِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ: ﴿**[**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾[[765]](#footnote-765)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=78#docu)**كَانَ قَوْلُهُمْ: ﴿**[**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=78#docu)**﴾[[766]](#footnote-766) لِمُجَرَّدِ التَّفْوِيضِ أَوِ الْإِعْلَانِ لِلسَّامِعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِالْبَرَاءَةِ مِنْ شَائِبَةِ الِاعْتِرَاضِ عَلَى مَا اخْتَرْنَاهُ.**

**وَوَجْهُ الْمُلَازِمَةِ بَيْنَ الْإِنْبَاءِ بِالْأَسْمَاءِ وَبَيْنَ صِدْقِهِمْ فِيمَا ادَّعَوْهُ الَّتِي اقْتَضَاهَا رَبْطُ الْجَزَاءِ بِالشَّرْطِ أَنَّ الْعِلْمَ بِالْأَسْمَاءِ عِبَارَةٌ عَنِ الْقُوَّةِ النَّاطِقَةِ الصَّالِحَةِ لِاسْتِفَادَةِ الْمَعَارِفِ وَإِفَادَتِهَا، أَوْ عِبَارَةٌ عَنْ مَعْرِفَةِ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَخَصَائِصِهَا، أَوْ عِبَارَةٌ عَنْ مَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ الذَّوَاتِ وَالْمَعَانِي. وَكُلُّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتَ الْعَالَمِيَّةِ بِالْفِعْلِ أَوْ بِالْقُوَّةِ.**

**وَصَاحِبُ هَذَا الْوَصْفِ هُوَ الْجَدِيرُ بِالِاسْتِخْلَافِ فِي الْعَالَمِ، لِأَنَّ وَظِيفَةَ هَذَا الِاسْتِخْلَافِ تَدْبِيرُ وَإِرْشَادُ وَهَدْيُ وَوَضْعُ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا دُونَ احْتِيَاجٍ إِلَى التَّوْقِيفِ فِي غَالِبِ التَّصَرُّفَاتِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْقُوَّةِ النَّاطِقَةِ أَوْ فُرُوعِهَا.**

**وَالْقُوَى الْمِلْكِيَّةِ عَلَى شَرَفِهَا إِنَّمَا تَصْلُحُ لِأَعْمَالٍ مُعَيَّنَةٍ قَدْ سُخِّرَتْ لَهَا لَا تَعْدُوهَا وَلَا تَتَصَرَّفُ فِيهَا بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّرْكِيبِ. وَمَا يُذْكَرُ مِنْ تَنَوُّعِ تَصَرُّفِهَا وَصَوَابِ أَعْمَالِهَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَوْجِيهِ اللَّهِ –تَعَالَى- إِيَّاهَا وَتَلْقِينِهِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِالتَّسْخِيرِ. وَبِذَلِكَ ظَهَرَ وَجْهُ ارْتِبَاطِ الْأَمْرِ بِالْإِنْبَاءِ بِهَذَا الشَّرْطِ، وَقَدْ تَحَيَّرَ فِيهِ كَثِيرٌ.**

**وَإِذَا انْتَفَى الْإِنْبَاءُ انْتَفَى كَوْنُهُمْ صَادِقِينَ فِي إِنْكَارِهِمْ خِلَافَةَ آدَمَ، فَإِنْ كَانَ مَحَلُّ الصِّدْقِ هُوَ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَجْدَرُ فَقَدْ ثَبَتَ عَدَمُهَا، وَإِنْ كَانَ مَحَلُّ التَّصْدِيقِ هُوَ دَعْوَاهُمْ أَنَّ الْبَشَرَ غَيْرُ صَالِحٍ لِلِاسْتِخْلَافِ.**

**فَانْتِفَاءُ الْإِنْبَاءِ لَا يَدُلُّ عَلَى انْتِفَاءِ دَعْوَاهُمْ، وَلَكِنَّهُ تَمْهِيدٌ لَهُ، لِأَنَّ بَعْدَهُ إِنْبَاءَ آدَمَ بِالْأَسْمَاءِ، لِأَنَّ الْمَقَامَ مُؤْذِنٌ بِأَنَّهُمْ لَمَّا أُمِرُوا أَمْرَ تَعْجِيزٍ وَجُعِلَ الْمَأْمُورُ بِهِ دَلَالَةً عَلَى الصِّدْقِ كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ إِنْبَاءٌ آخَرُ مُتَرَقَّبٌ مِنَ الَّذِي طَعَنُوا فِي جَدَارَتِهِ، وَيَدُلُّ لِذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ -تَعَالَى- لَهُمْ: ﴿**[**إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[[767]](#footnote-767).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=78#docu)

**﴿**[**قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[[768]](#footnote-768)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=79#docu)

**جَرَّدَ ﴿قَالُوا﴾[[769]](#footnote-769) مِنَ الْفَاءِ، لِأَنَّهُ مُحَاوَرَةٌ كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾[[770]](#footnote-770)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=79#docu)**وَافْتِتَاحُ كَلَامِهِمْ بِالتَّسْبِيحِ وُقُوفٌ فِي مَقَامِ الْأَدَبِ وَالتَّعْظِيمِ لِذِي الْعَظَمَةِ الْمُطْلَقَةِ، وَسُبْحَانَ اسْمُ التَّسْبِيحِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿**[**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾[[771]](#footnote-771).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=79#docu)

**وَهُوَ اسْمُ مَصْدَرِ "سَبَّحَ" الْمُضَاعَفِ، وَلَيْسَ مَصْدَرًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَجِئْ عَلَى أَبْنِيَةِ مَصَادِرِ الرُّبَاعِيِّ.**

**وَقِيلَ: هُوَ مَصْدَرُ سَبَحَ مُخَفَّفًا بِمَعْنَى نَزَّهَ، فَيَكُونُ كَالْغُفْرَانِ وَالشُّكْرَانِ، وَالْكُفْرَانِ مِنْ غَفَرَ وَشَكَرَ وَكَفَرَ.**

**وَقَدْ كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ مَنْصُوبًا عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ بِإِضْمَارِ فِعْلِهِ، كَمَعَاذَ اللَّهِ. وَقَدْ يَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ نَادِرًا، قَالَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ، وَكَأَنَّهُمْ لَمَّا خَصَّصُوهُ فِي الِاسْتِعْمَالِ بِجَعْلِهِ كَالْعَلَمِ عَلَى التَّنْزِيهِ عَدَلُوا عَنْ قِيَاسِ اشْتِقَاقِهِ فَصَارَ سُبْحَانَ كَالْعَلَمِ الْجِنْسِيِّ مِثْلَ "بَرَّةَ وَفَجَارِ" بِكَسْرِ الرَّاءِ فِي قَوْلِ النَّابِغَةِ:**

**فَحَمَلْتُ بَرَّةَ وَاحْتَمَلْتَ فَجَارِ**

**وَمَنَعُوهُ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَزِيَادَةِ الْأَلِفِ وَالنُّونِ قَالَ**[**سِيبَوَيْهِ.**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=16076)

**وَأَمَّا تَرْكُ تَنْوِينِ سُبْحَانَ، فَلِأَنَّهُ صَارَ عِنْدَهُمْ مَعْرِفَةً، وَقَوْلُ الْمَلَائِكَةِ: ﴿**[**لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾[[772]](#footnote-772)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=79#docu)**خَبَرٌ مُرَادٌ مِنْهُ الِاعْتِرَافُ بِالْعَجْزِ لَا الْإِخْبَارُ عَنْ حَالِهِمْ، لِأَنَّهُمْ يُوقِنُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَضَمَّنَهُ كَلَامُهُمْ. وَلَا أَنَّهُمْ قَصَدُوا لَازِمَ الْفَائِدَةِ، وَهِيَ أَنَّ الْمُخْبِرَ عَالِمٌ بِالْخَبَرِ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْخَبَرَ مُسْتَعْمَلٌ فِي الِاعْتِرَافِ.**

**ثُمَّ إِنَّ كَلَامَهُمْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عُلُومَهُمْ مَحْدُودَةٌ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلزِّيَادَةِ، فَهِيَ مَقْصُورَةٌ عَلَى مَا أَلْهَمَهُمُ اللَّهُ –تَعَالَى- وَمَا يَأْمُرُهُمْ فَلِلْمَلَائِكَةِ عِلْمُ قَبُولِ الْمَعَانِي لَا عِلْمُ اسْتِنْبَاطِهَا.**

**وَفِي تَصْدِيرِ كَلَامِهِمْ بِسُبْحَانَكَ إِيمَاءٌ إِلَى الِاعْتِذَارِ عَنْ مُرَاجَعَتِهِمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿**[**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾[[773]](#footnote-773)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=79#docu)**فَهُوَ افْتِتَاحٌ مِنْ قَبِيلِ بَرَاعَةِ الِاسْتِهْلَالِ عَنِ الِاعْتِذَارِ. وَالِاعْتِذَارُ وَإِنْ كَانَ يَحْصُلُ بِقَوْلِهِمْ: ﴿**[**لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾[[774]](#footnote-774)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=79#docu)**لَكِنَّ حُصُولَ ذَلِكَ مِنْهُ بِطَرِيقِ الْكِنَايَةِ دُونَ التَّصْرِيحِ، وَيَحْصُلُ آخِرُ الِابْتِدَاءِ.**

**فَكَانَ افْتِتَاحُ كَلَامِهِمْ بِالتَّنْزِيهِ تَعْجِيلًا بِمَا يَدُلُّ عَلَى مُلَازَمَةِ جَانِبِ الْأَدَبِ الْعَظِيمِ: ﴿**[**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[[775]](#footnote-775)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=79#docu)**سَاقُوهُ مَسَاقَ التَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِمْ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا، لِأَنَّ الْمُحِيطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ الْمُحْكِمَ لِكُلِّ خَلْقٍ إِذَا لَمْ يَجْعَلْ لِبَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ سَبِيلًا إِلَى عِلْمِ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قِبَلٌ بِعِلْمِهِ إِذِ الْحُصُولُ بِقَدْرِ الْقَبُولِ وَالِاسْتِعْدَادِ؛ أَيْ فَلَا مَطْمَعَ لَنَا فِي تَجَاوُزِ الْعِلْمِ إِلَى مَا لَمْ تُهَيِّئْ لَنَا عِلْمَهُ بِحَسْبَ فِطْرَتِنَا.**

**وَالَّذِي دَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مَسُوقٌ لِلتَّعْلِيلِ وَلَيْسَ مُجَرَّدَ ثَنَاءٍ، هُوَ تَصْدِيرُهُ بِإِنَّ فِي غَيْرِ رَدِّ إِنْكَارٍ وَلَا تَرَدُّدٍ.**

**قَالَ الشَّيْخُ فِي *دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ*: وَمِنْ شَأْنِ "إِنَّ" إِذَا جَاءَتْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، أَيْ أَنْ تَقَعَ إِثْرَ كَلَامٍ وَتَكُونُ لِمُجَرَّدِ الِاهْتِمَامِ أَنْ تُغْنِيَ غَنَاءَ الْفَاءِ الْعَاطِفَةِ مَثَلًا وَأَنْ تُفِيدَ مِنْ رَبْطِ الْجُمْلَةِ بِمَا قَبْلَهَا أَمْرًا عَجِيبًا فَأَنْتَ تَرَى الْكَلَامَ بِهَا مَقْطُوعًا مَوْصُولًا.**

**وَأَنْشَدَ قَوْلَ بِشَارٍ:**

**بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الْهَجِيـــــــــــــــــــرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيـــــرِ**

**وَقَوْلَ بَعْضِ الْعَرَبِ:**

**فَغَنِّهَا وَهْيَ لَكَ الْفِــــــــــــــــــــــــــــــدَاءُ إِنْ غِنَاءَ الْإِبِلِ الْحُــــــــــــــــــــــدَاءُ**

**فَإِنَّهُمَا اسْتَغْنَيَا بِذِكْرِ "إِنَّ" عَنِ الْفَاءِ.**

**وَإِنَّ خَلَفًا الْأَحْمَرَ لَمَّا سَأَلَ بَشَّارًا لِمَاذَا لَمْ يَقُلْ: بَكِّرَا فَالنَّجَاحُ فِي التَّبْكِيرِ أَجَابَهُ بَشَارٌ بِأَنَّهُ أَتَى بِهَا عَرَبِيَّةً بَدَوِيَّةً. وَلَوْ قَالَ: فَالنَّجَاحُ، لَصَارَتْ مِنْ كَلَامِ الْمُوَلَّدِينَ، أَيْ أَجَابَهُ جَوَابًا أَحَالَهُ فِيهِ عَلَى الذَّوْقِ، وَقَدْ بَيَّنَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ سَبَبَهُ.**

**وَقَالَ الشَّيْخُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: أَلَا تَرَى أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ قَوْلِهِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ أَنْ يُبَيِّنَ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ لِصَاحِبَيْهِ بَكِّرَا، وَأَنْ يَحْتَجَّ لِنَفْسِهِ فِي الْأَمْرِ بِالتَّبْكِيرِ وَيُبَيِّنَ وَجْهَ الْفَائِدَةِ مِنْهُ؟! اهـ.**

**وَ الْعَلِيمُ الْكَثِيرُ الْعِلْمِ، وَهُوَ مِنْ أَمْثِلَةِ الْمُبَالَغَةِ عَلَى الصَّحِيحِ، وَيَجُوزُ كَوْنُهُ صِفَةً مُشَبَّهَةً عَلَى تَقْدِيرِ تَحْوِيلِ "عَلِمَ" الْمَكْسُورِ اللَّامِ إِلَى "عَلُمَ" بِضَمِّ اللَّامِ، لِيَصِيرَ مِنْ أَفْعَالِ السَّجَايَا نَحْوَ مَا قَرَّرْنَاهُ فِي الرَّحِيمِ.**

**وَنَحْنُ فِي غُنْيَةٍ عَنْ هَذَا التَّكَلُّفِ إِذْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْقَى اخْتِلَافٌ فِي أَنَّ وَزْنَ فَعِيلٍ يَجِيءُ لِمَعْنَى الْمُبَالَغَةِ. وَإِنَّمَا أَنْشَأَ هَذِهِ التَّمَحُّلَاتِ مَنْ زَعَمُوا أَنَّ فَعِيلًا لَا يَجِيءُ لِلْمُبَالَغَةِ.**

**الْحَكِيمُ فَعِيلٌ مِنْ أَحْكَمَ إِذَا أَتْقَنَ الصُّنْعَ بِأَنْ حَاطَهُ مِنَ الْخَلَلِ.**

**وَأَصْلُ مَادَّةِ، حَكَمَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ لِلْمَنْعِ مِنَ الْفَسَادِ وَالْخَلَلِ، وَمِنْهُ حَكَمَةُ الدَّابَّةِ بِالتَّحْرِيكِ لِلْحَدِيدَةِ الَّتِي تُوضَعُ فِي فَمِ الْفَرَسِ لِتَمْنَعَهُ مِنِ اخْتِلَالِ السَّيْرِ، وَأَحْكَمَ فُلَانٌ فُلَانًا: مَنَعَهُ.**

**قَالَ جَرِيرٌ:**

**أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُـــــــمْ     إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَـــا**

**وَالْحِكْمَةُ بِكَسْرِ الْحَاءِ ضَبْطُ الْعِلْمِ وَكَمَالُهُ، فَالْحَكِيمُ إِمَّا بِمَعْنَى الْمُتْقِنِ لِلْأُمُورِ كُلِّهَا أَوْ بِمَعْنَى ذِي الْحِكْمَةِ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَقَدْ جَرَى بِوَزْنِ فَعِيلٍ عَلَى غَيْرِ فِعْلٍ ثُلَاثِيٍّ وَذَلِكَ مَسْمُوع.ٌ**

**قَالَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ:**

**أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيــــــــــــــعِ     يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُـــــــــــــــــــــوعُ**

**وَمِنْ شَوَاهِدِ النَّحْوِ مَا أَنْشَدَهُ أَبُو عَلِيٍّ وَلَمْ يَعْزُهُ:**

**فَمَنْ يَكُ لَمْ يُنْجِبْ أَبُوهُ وَأُمُّـــــــــهُ     فَإِنَّ لَنَا الْأُمَّ النَّجِيبَـــــــــــــةَ وَالْأَبَ**

**أَرَادَ الْأُمَّ الْمُنْجِبَةَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ لَمْ يُنْجِبْ أَبُوهُ، وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿**[**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[[776]](#footnote-776)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=79#docu)**وَوَصْفُ الْحَكِيمِ.**

**وَالْعَرَبُ تُجْرِي أَوْزَانَ بَعْضِ الْمُشْتَقَّاتِ عَلَى بَعْضٍ فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّكَلُّفِ بِتَأَوُّلِ ﴿**[**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=79#docu)**﴾[[777]](#footnote-777) بِبَدِيعِ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، أَيْ عَلَى أَنَّ "أَلْ" عِوَضٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، فَتَكُونُ الْمَوْصُوفُ بِحَكِيمٍ هُوَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَهِيَ مُحْكَمَةُ الْخَلْقِ فَإِنَّ مَسَاقَ الْآيَةِ تَمْجِيدُ الْخَالِقِ لَا عَجَائِبَ مَخْلُوقَاتِهِ، حَتَّى يَكُونَ بِمَعْنَى مَعْقُولٍ. وَلَا إِلَى تَأْوِيلِ الْحَكِيمِ بِمَعْنَى ذِي الْحِكْمَةِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُجْدِي فِي دَفْعِ بَحْثِ مَجِيئِهِ مِنْ غَيْرِ ثُلَاثِيٍّ.**

**وَتَعْقِيبُ الْعَلِيمِ بِالْحَكِيمِ مِنْ إِتْبَاعِ الْوَصْفِ بِأَخَصَّ مِنْهُ فَإِنَّ مَفْهُومَ الْحِكْمَةِ زَائِدٌ عَلَى مَفْهُومِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْحِكْمَةَ كَمَالٌ فِي الْعِلْمِ، فَهُوَ كَقَوْلِهِمْ خَطِيبٌ مِصْقَعٌ وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ.**

**وَفِي *مَعَارِجِ النُّورِ* لِلشَّيْخِ لُطْفِ اللَّهِ الْأَرْضَ رُومِيِّ وَفِي الْحَكِيمِ ذُو الْحِكْمَةِ، وَهِيَ الْعِلْمُ بِالشَّيْءِ وَإِتْقَانُ عَمِلَهِ، وَهُوَ الْإِيجَادُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ وَالتَّدْبِيرُ بِأَكْمَلِ مَا تَسْتَعِدُّ لَهُ ذَاتُ الْمُدَبَّرِ - بِفَتْحِ الْبَاءِ - وَالِاطِّلَاعِ عَلَى حَقَائِقِ الْأُمُورِ اهـ.**

**وَقَالَ**[**أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=14847)**فِي *الْمَقْصِدِ الْأَسْنَى*: الْحَكِيمُ ذُو الْحِكْمَةِ، وَالْحِكْمَةُ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَعْرِفَةِ بِأَفْضَلِ الْأَشْيَاءِ، فَأَفْضَلُ الْعُلُومِ الْعِلْمُ بِاللَّهِ وَأَجَلُّ الْأَشْيَاءِ هُوَ اللَّهُ، وَقَدْ سَبَقَ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ كُنْهَ مَعْرِفَتِهِ غَيْرُهُ.**

**وَجَلَالَةُ الْعِلْمِ بِقَدْرِ جَلَالَةِ الْمَعْلُومِ، فَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَقُّ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَجَلَّ الْأَشْيَاءِ بِأَجَلِّ الْعُلُومَ، إِذْ أَجَلُّ الْعُلُومِ هُوَ الْعِلْمُ الْأَزَلِيُّ الْقَدِيمُ الَّذِي لَا يُتَصَوَّرُ زَوَالُهُ، الْمُطَابِقُ لِلْمَعْلُومِ مُطَابَقَةً لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا خَفَاءٌ وَلَا شُبْهَةٌ وَلَا يُتَصَوَّرُ ذَلِكَ إِلَّا فِي عِلْمِ اللَّهِ اهـ.**

**وَسَيَجِيءُ الْكَلَامُ عَلَى الْحِكْمَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى-: ﴿**[**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=79#docu)**﴾[[778]](#footnote-778).**

**وَ (أَنْتَ) فِي ﴿**[**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[[779]](#footnote-779)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=79#docu)**ضَمِيرُ فَصْلٍ، وَتَوْسِيطُهُ مِنْ صِيَغِ الْقَصْرِ، فَالْمَعْنَى قَصْرُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ عَلَى اللَّهِ قَصْرَ قَلْبٍ لِرَدِّهِمُ اعْتِقَادَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى جَانِبٍ مِنْ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ حِينَ رَاجَعُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿**[**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=79#docu)**﴾[[780]](#footnote-780) أَوْ تَنْزِيلِهِمْ مُنَزَّلَةَ مَنْ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ عَلَى الِاحْتِمَالَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ، أَوْ هُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ ادِّعَائِيٌّ مُرَادٌ مِنْهُ قَصْرُ كَمَالِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ عَلَيْهِ –تَعَالَى-.**

**﴿**[**قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾[[781]](#footnote-781)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=80#docu)

**لَمَّا دَخَلَ هَذَا الْقَوْلُ فِي جُمْلَةِ الْمُحَاوَرَةِ جُرِّدَتِ الْجُمْلَةُ مِنَ الْفَاءِ أَيْضًا، كَمَا تَقَدَّمَ فِي نَظَائِرِهِ، لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ إِقْبَالًا بِالْخِطَابِ عَلَى غَيْرِ الْمُخَاطَبِينَ بِالْأَقْوَالِ الَّتِي قَبْلَه،ُ فَهُوَ بِمَثَابَةِ خِطَابٍ لَهُمْ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ خِطَابِ آدَمَ بِذَلِكَ أَنْ يُظْهِرَ عَقِبَهُ فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ فِي الْعِلْمِ مِنْ هَاتِهِ النَّاحِيَةِ، فَكَانَ الْخِطَابُ بِمَنْزِلَةِ أَنْ يَكُونَ مَسُوقًا إِلَيْهِمْ لِقَوْلِهِ عَقِبَ ذَلِكَ: ﴿**[**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[[782]](#footnote-782).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=80#docu)

**وَابْتِدَاءُ خِطَابِ آدَمَ بِنِدَائِهِ -مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ بَعِيدٍ عَنْ سَمَاعِ الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ- لِلتَّنْوِيهِ بِشَأْنِ آدَمَ وَإِظْهَارِ اسْمِهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، حَتَّى يَنَالَ حُسْنَ السُّمْعَةِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ التَّكْرِيمِ عِنْدَ الْآمِرِ؛ لِأَنَّ شَأْنَ الْآمِرِ وَالْمُخَاطِبِ -بِالْكَسْرِ- إِذَا تَلَطَّفَ مَعَ الْمُخَاطَبِ -بِالْفَتْحِ- أَنْ يَذْكُرَ اسْمَهُ وَلَا يَقْتَصِرَ عَلَى ضَمِيرِ الْخِطَابِ، حَتَّى لَا يُسَاوِيَ بِخِطَابِهِ كُلَّ خِطَابٍ.**

**وَمِنْهُ: مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ بَعْدَ ذِكْرِ سُجُودِ النَّبِيءِ، وَحَمْدِهِ اللَّهَ بِمَحَامِدَ يُلْهِمُهُ إِيَّاهَا، فَيَقُولُ:**[**يَا مُحَمَّدُ: "ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=80#docu)**".**

**وَهَذِهِ نُكْتَةُ ذِكْرِ الِاسْمِ، حَتَّى فِي أَثْنَاءِ الْمُخَاطَبَةِ، كَمَا قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:**

**أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ**

**وَرُبَّمَا جَعَلُوا النِّدَاءَ طَرِيقًا إِلَى إِحْضَارِ اسْمِهِ الظَّاهِرِ، لِأَنَّهُ لَا طَرِيقَ لِإِحْضَارِهِ عِنْدَ الْمُخَاطَبَةِ إِلَّا بِوَاسِطَةِ النِّدَاءِ، فَالنِّدَاءُ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَاهُ الْمَجَازِيِّ.**

**﴿**[**فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾[[783]](#footnote-783)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=81#docu)

**الْإِنْبَاءُ إِخْبَارُهُمْ بِالْأَسْمَاءِ، وَفِيهِ إِيمَاءٌ بِأَنَّ الْمُخْبَرَ بِهِ شَيْءٌ مُهِمٌّ.**

**وَالضَّمِيرُ الْمَجْرُورُ بِالْإِضَافَةِ ضَمِيرُ الْمُسَمَّيَاتِ مِثْلُ ضَمِيرِ ﴿عَرَضَهُمْ﴾[[784]](#footnote-784)، وَفِي إِجْرَائِهِ عَلَى صِيغَةِ ضَمَائِرِ الْعُقَلَاءِ مَا قَرَّرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**ثُمَّ عَرَضَهُمْ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=81#docu)**﴾[[785]](#footnote-785).**

**وَقَوْلُهُ: ﴿**[**فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾[[786]](#footnote-786)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=81#docu)**الضَّمِيرُ فِي أَنْبَأَ لِآدَمَ، وَفِي قَالَ: ضَمِيرُ اسْمِ الْجَلَالَةِ.**

**وَإِنَّمَا لَمْ يُؤْتَ بِفَاعِلِهِ اسْمًا ظَاهِرًا مَعَ أَنَّهُ جَرَى عَلَى غَيْرِ مَنْ هَوَ لَهُ، أَيْ جَاءَ عَقِبَ ضَمَائِرِ آدَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**أَنْبِئْهُمْ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=81#docu)**وَ ﴿**[**أَنْبَأَهُمْ﴾،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=81#docu)**لِأَنَّ السِّيَاقَ قَرِينَةٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يَصْدُرُ مِنْ مِثْلِ آدَمَ.**

**﴿**[**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[[787]](#footnote-787)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=82#docu)

**جَوَابُ لَمَّا، وَالْقَائِلُ هُوَ اللَّهُ –تَعَالَى-، وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=82#docu)**وَعَادَتْ إِلَيْهِ ضَمَائِرُ (قَالَ: إِنِّيَ أَعْلَمُ) وَ(عَلَّمَ) وَ(عَرَضَهُمْ)، وَمَا قَبْلَهُ مِنَ الضَّمَائِرِ، وَهُوَ تَذْكِيرٌ لَهُمْ بِقَوْلِهِ لَهُمْ فِي أَوَّلِ الْمُحَاوَرَةِ: ﴿**[**إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[[788]](#footnote-788).**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=82#docu)

**وَذَلِكَ الْقَوْلُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ: ﴿**[**أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[[789]](#footnote-789)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=82#docu)**صَرَاحَةً، إِلَّا أَنَّهُ يَتَضَمَّنُهُ، لِأَنَّ عُمُومَ مَا ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾[[790]](#footnote-790) يَشْمَلُ جَمِيعَ ذَلِكَ؛ فَيَكُونُ قَوْلُهُ هُنَا: ﴿**[**إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[[791]](#footnote-791)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=82#docu)**بَيَانًا لِمَا أُجْمِلَ فِي الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، لِأَنَّهُ يُسَاوِيهِ مَا صَدَقًا، لِأَنَّ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[[792]](#footnote-792) هُوَ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَقَدْ زَادَ الْبَيَانُ هُنَا عَلَى الْمُبَيَّنِ بِقَوْلِهِ:**

**﴿**[**وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[[793]](#footnote-793)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=83#docu)

**وَإِنَّمَا جِيءَ بِالْإِجْمَالِ قَبْلَ ظُهُورِ الْبُرْهَانِ وَجِيءَ بِالتَّفْصِيلِ بَعْدَ ظُهُورِهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْحِجَاجِ، وَهُوَ إِجْمَالُ الدَّعْوَى وَتَفْصِيلُ النَّتِيجَةِ، لِأَنَّ الدَّعْوَى قَبْلَ الْبُرْهَانِ قَدْ يَتَطَرُّقَهَا شَكُّ السَّامِعِ بِأَنْ يَحْمِلَهَا عَلَى الْمُبَالَغَةِ وَنَحْوِهَا وَبَعْدَ الْبُرْهَانِ يَصِحُّ لِلْمُدَّعِي أَنْ يُوقِفَ الْمَحْجُوجَ عَلَى غَلَطِهِ وَنَحْوِهِ، وَأَنْ يَتَبَجَّحَ عَلَيْهِ بِسُلْطَانِ بُرْهَانِهِ، فَإِنَّ لِلْحَقِّ صَوْلَةً.**

**وَنَظِيرُهُ: قَوْلُ صَاحِبِ مُوسَى: ﴿**[**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ﴾[[794]](#footnote-794)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=83#docu)**إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**[**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[[795]](#footnote-795)؛**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=83#docu)**ثُمَّ قَالَ: ﴿**[**ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[[796]](#footnote-796)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=83#docu)**فَجَاءَ بِاسْمِ إِشَارَةِ الْبَعِيدِ تَعْظِيمًا لِلتَّأْوِيلِ بَعْدَ ظُهُورِهِ.**

**وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ مَسْلُوكَةٌ لِلْكُتَّابِ وَالْخُطَبَاءِ، وَهِيَ تَرْجِعُ إِلَى قَاعِدَةِ أَخْذِ النَّتَائِجِ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ فِي صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ، كَمَا بَيَّنْتُهُ فِي *كِتَابِ أُصُولِ الْإِنْشَاءِ وَالْخَطَابَةِ*، وَأَكْثَرُ الْخُطَبَاءِ يُفْضَى إِلَى الْغَرَضِ مِنْ خُطْبَتِهِ بَعْدَ الْمُقَدِّمَاتِ وَالتَّمْهِيدَاتِ، وَقَدْ جَاءَتِ الْآيَةُ عَلَى طَرِيقَةِ الْخُطَبَاءِ وَالْبُلَغَاءِ فِيمَا ذَكَرْنَا تَعْلِيمًا لِلْخَلْقِ وَجَرْيًا عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ الْمُتَعَارَفِ مِنْ غَيْرِ مُرَاعَاةٍ لِجَانِبِ الْأُلُوهِيَّةِ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا يَمْتَرُونَ فِي أَنَّ قَوْلَهُ –تَعَالَى- الْحَقُّ وَوَعْدَهُ الصِّدْقُ فَلَيْسُوا بِحَاجَةٍ إِلَى نَصْبِ الْبَرَاهِينِ.**

**وَ﴿كُنْتُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[[797]](#footnote-797)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=83#docu)**الْأَظْهَرُ أَنَّهَا زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ تَحَقُّقِ الْكِتْمَانِ، فَإِنَّ الَّذِي يَعْلَمُ مَا اشْتَدَّ كِتْمَانُهُ يَعْلَمُ مَا لَمْ يُحْرَصْ عَلَى كِتْمَانِهِ وَيَعْلَمُ ظَوَاهِرَ الْأَحْوَالِ بِالْأَوْلَى. وَصِيغَةُ الْمُضَارِعِ فِي ﴿تُبْدُونَ﴾[[798]](#footnote-798) وَ ﴿تَكْتُمُونَ﴾[[799]](#footnote-799) لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَجَدُّدِ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَيَقْتَضِي تَجَدُّدَ عِلْمِ اللَّهِ بِذَلِكَ كُلَّمَا تَجَدَّدَ مِنْهُمْ.**

**وَلِبَعْضِهِمْ هُنَا تَكَلُّفَاتٌ فِي جَعْلِ (كُنْتُمْ) لِلدَّلَالَةِ عَلَى الزَّمَانِ الْمَاضِي وَجَعْلِ (تَبْدُونَ) لِلِاسْتِقْبَالِ، وَتَقْدِيرُ اكْتِفَاءٍ فِي الْجَانِبَيْنِ، أَعْنِي وَمَا كُنْتُمْ تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ، وَاكْتِفَاءٍ فِي غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْنِي وَشَهَادَتُهُمَا، وَكُلُّ ذَلِكَ لَا دَاعِيَ إِلَيْهِ.**

**وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ –تَعَالَى-: عِلْمَ آدَمَ بِالْأَسْمَاءِ وَعَجْزَ الْمَلَائِكَةِ عَنْ ذَلِكَ عَلَامَةً عَلَى أَهْلِيَّةِ النَّوْعِ الْبَشَرِيَ لِخِلَافَتِهِ فِي الْأَرْضِ دُونَ الْمَلَائِكَةِ، لِأَنَّ الْخِلَافَةَ فِي الْأَرْضِ هِيَ خِلَافَةُ اللَّهِ –تَعَالَى- فِي الْقِيَامِ بِمَا أَرَادَهُ مِنَ الْعُمْرَانِ بِجَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَشُعَبِهِ، بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى- نَاطَ بِالنَّوْعِ الْبَشَرِيِّ إِتْمَامَ مُرَادِهِ مِنَ الْعَالَمِ، فَكَانَ تَصَرُّفُ هَذَا النَّوْعِ فِي الْأَرْضِ قَائِمًا مَقَامَ مُبَاشَرَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ –تَعَالَى- بِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْبَشَرُ.**

**وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْخِلَافَةَ لَا تَتَقَوَّمُ إِلَّا بِالْعِلْمِ، أَعْنِي اكْتِسَابَ الْمَجْهُولِ مِنَ الْمَعْلُومِ وَتَحْقِيقَ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَمَوَاقِعِهَا وَمُقَارَنَاتِهَا وَهُوَ الْعِلْمُ الِاكْتِسَابِيُّ الَّذِي يُدْرِكُ بِهِ الْإِنْسَانُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَيَسْتَطِيعُ بِهِ فِعْلَ الْخَيْرِ وَفِعْلَ الشَّرِّ كُلٌّ فِي مَوْضِعِهِ.**

**وَلَا يَصْلُحُ لِهَذَا الْعِلْمِ إِلَّا الْقُوَّةُ النَّاطِقَةُ، وَهِيَ قُوَّةُ التَّفْكِيرِ الَّتِي أَجْلَى مَظَاهِرِهَا مَعْرِفَةُ أَسْمَاءِ الْأَشْيَاءِ وَأَسْمَاءِ خَصَائِصِهَا، وَالَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تُصْدِرَ الْأَضْدَادَ مِنَ الْأَفْعَالِ، لِأَنَّ تِلْكَ الْقُوَّةَ هِيَ الَّتِي لَا تَنْحَصِرُ مُتَعَلَّقَاتُهَا وَلَا تَقِفُ مَعْلُومَاتُهَا، كَمَا شُوهِدَ مِنْ أَحْوَالِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ مُنْذُ النَّشْأَةِ إِلَى الْآنَ وَإِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ –تَعَالَى-.**

**وَالْمَلَائِكَةُ لَمَّا لَمْ يُخْلَقُوا مُتَهَيِّئِينَ لِذَلِكَ حَتَّى أَعْجَزَهُمْ وَضْعُ الْأَسْمَاءِ لِلْمُسَمَّيَاتِ وَكَانُوا مَجْبُولِينَ عَلَى سَجِيَّةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ سَجِيَّةُ الْخَيْرِ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ وَلَا تَتَخَلَّفُ لَمْ يَكُونُوا مُؤَهَّلِينَ لِاسْتِفَادَةِ الْمَجْهُولَاتِ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ حَتَّى لَا تَقِفَ مَعَارِفُهُمْ.**

**وَلَمْ يَكُونُوا مَصَادِرَ لِلشُّرُورِ الَّتِي يَتَعَيَّنُ صُدُورُهَا لِإِصْلَاحِ الْعَالَمِ، فَخَيْرِيَّتُهُمْ، وَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً لِاسْتِقَامَةِ عَالَمِهِمُ الطَّاهِرِ، لَمْ تَكُنْ صَالِحَةً لِنِظَامِ عَالَمٍ مَخْلُوطٍ، وَحِكْمَةُ خَلْطِهِ ظُهُورُ مُنْتَهَى الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ كَمَا قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:**

**وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى**

**وَالْآيَةُ تَقْتَضِي مَزِيَّةً عُظْمَى لِهَذَا النَّوْعِ فِي هَذَا الْبَابِ وَفِي فَضْلِ الْعِلْمِ وَلَكِنَّهَا لَا تَدُلُّ عَلَى أَفْضَلِيَّةِ النَّوْعِ الْبَشَرِيِّ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، إِذِ الْمَزِيَّةُ لَا تَقْتَضِي الْأَفْضَلِيَّةَ كَمَا بَيَّنَهُ الشِّهَابُ الْقَرَافِيُّ فِي الْفَرْقِ الْحَادِي وَالتِسْعِينَ.**

**فَهَذِهِ فَضِيلَةٌ مِنْ نَاحِيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّمَا يَعْتَمِدُ التَّفْضِيلُ الْمُطْلَقُ مَجْمُوعَ الْفَضَائِلِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ مُوسَى وَالْخَضِرِ.**

**وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**[**أَلَمْ أَقُلْ لَكُمُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=83#docu)**﴾[[800]](#footnote-800) إِلَخْ تَقْرِيرِيٌّ، لِأَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ، وَالْمَلَائِكَةُ يَعْلَمُونَ وُقُوعَهُ وَلَا يُنْكِرُونَهُ.**

**وَإِنَّمَا أَوْقَعَ الِاسْتِفْهَامَ عَلَى نَفْيِ الْقَوْلِ، لِأَنَّ غَالِبَ الِاسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِيِّ يُقْحِمُ مَا يُفِيدُ النَّفْيَ لِقَصْدِ التَّوْسِيعِ عَلَى الْمُقَرَّرِ، حَتَّى يُخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يُسْأَلُ عَنْ نَفْيِ وُقُوعِ الشَّيْءِ، فَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَزْعُمَ نَفْيَهُ فَقَدْ وَسَّعَ الْمُقَرِّرُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِنْكَارَهُ، فَلِذَلِكَ يُقَرِّرُهُ عَلَى نَفْيِهِ، فَإِذَا أَقَرَّ كَانَ إِقْرَارُهُ لَازِمًا لَهُ لَا مَنَاصَ لَهُ مِنْهُ.**

**فَهَذَا قَانُونُ الِاسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِيِّ الْغَالِبُ عَلَيْهِ وَهُوَ الَّذِي تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ وَبَنَى عَلَيْهِ صَاحِبُ *الْكَشَّافِ* مَعَانِيَ آيَاتِهِ الَّتِي مِنْهَا قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿**[**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[[801]](#footnote-801)**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=83#docu)**وَتَوَقَّفَ فِيهِ ابْنُ هِشَامٍ فِي مُغْنِي اللَّبِيبِ وَرَدَّهُ عَلَيْهِ شَارِحُهُ.**

**وَقَدْ يَقَعُ التَّقْرِيرُ بِالْإِثْبَاتِ عَلَى الْأَصْلِ نَحْوُ: ﴿**[**أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾[[802]](#footnote-802)،**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=83#docu)**وَهُوَ تَقْرِيرٌ مُرَادٌ بِهِ إِبْطَالُ دَعْوَى النَّصَارَى وَقَوْلِهِ: ﴿**[**قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=83#docu)**﴾[[803]](#footnote-803).**

**محتويات الكتاب**

**محتويات الكتاب**

**كتاب تفسير التّحرير والتّنوير**

**الجزء الثّاني**

**5 - 52**

|  |  |
| --- | --- |
| **سُورَةُ الْبَقَرَةِ** | **9 - 266** |
| **﴿**[**الم﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=29#docu)  **﴿**[**ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=30#docu)  **﴿**[**لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=31#docu)  **﴿**[**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=32#docu)  **﴿**[**وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=33#docu)  **﴿**[**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=34#docu)  **﴿**[**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=35#docu)  **﴿**[**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=36#docu)  **﴿**[**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=37#docu)  **﴿**[**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمُ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=38#docu)  **﴿**[**لَا يُؤْمِنُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=39#docu)  **﴿**[**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=40#docu)  **﴿**[**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=42#docu)  **﴿**[**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=43#docu) **إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾**  **﴿**[**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=44#docu)  **﴿**[**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=45#docu)  **﴿**[**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=46#docu)  **﴿**[**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=47#docu)  **﴿**[**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=48#docu)  **﴿**[**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=49#docu)  **﴿**[**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=50#docu)  **﴿**[**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=52#docu)  **﴿**[**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=53#docu)  **﴿**[**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=54#docu)  **وَقَوْلُهُ ﴿**[**فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=55#docu)  **﴿**[**وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=56#docu)  **﴿**[**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=57#docu)  **﴿**[**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=58#docu)  **﴿**[**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=59#docu)  **﴿**[**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=60#docu)  **﴿**[**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=61#docu)  **﴿**[**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=62#docu)  **﴿**[**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=63#docu)**وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**  **﴿**[**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=64#docu)  **﴿**[**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=65#docu)  **﴿**[**كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=66#docu)**وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**  **﴿**[**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=67#docu)  **﴿**[**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=68#docu)  **﴿**[**يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=69#docu)  **﴿**[**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=70#docu)  **﴿**[**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=71#docu)  **﴿**[**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهْوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=72#docu)  **﴿**[**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=73#docu)  **﴿**[**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=74#docu)  **﴿**[**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=75#docu)  **﴿**[**قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=76#docu)  **﴿**[**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=77#docu)  **﴿**[**ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=78#docu)  **﴿**[**قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=79#docu)  **﴿**[**قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=80#docu)  **﴿**[**فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=81#docu)  **﴿**[**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=82#docu)  **﴿**[**وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾**](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=61&ID=1&idfrom=1&idto=317&bookid=61&startno=83#docu) |  |

**محتويات الكتاب 349 - 358**

**النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع**

**العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 - المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة**

**الهاتف: 71886914 216+**

**الفاكس: 71886872 216+**

**العنوان الالكتروني:** [**JomaaAssaad@yahoo.fr**](mailto:JomaaAssaad@yahoo.fr)

**معرّف النّاشر: 02-9938**

**عدد الطّبعة: الأولى**

**ت د م ك: 6-070-02-9938-978**

**© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع**

1. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-1)
2. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-2)
3. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-3)
4. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-4)
5. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-5)
6. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-6)
7. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-7)
8. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-8)
9. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-9)
10. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-10)
11. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-11)
12. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-12)
13. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-13)
14. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-14)
15. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-15)
16. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-16)
17. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-17)
18. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-18)
19. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-19)
20. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-20)
21. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-21)
22. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-22)
23. سورة الْبَقَرَةِ، الآية. [↑](#footnote-ref-23)
24. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-24)
25. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-25)
26. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-26)
27. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-27)
28. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-28)
29. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-29)
30. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-30)
31. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-31)
32. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-32)
33. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-33)
34. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-34)
35. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-35)
36. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-36)
37. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-37)
38. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-38)
39. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-39)
40. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-40)
41. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-41)
42. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-42)
43. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-43)
44. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-44)
45. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-45)
46. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-46)
47. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-47)
48. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-48)
49. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-49)
50. سورة الْبَقَرَةِ، الآية. [↑](#footnote-ref-50)
51. سورة الْبَقَرَةِ، الآية. [↑](#footnote-ref-51)
52. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-52)
53. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-53)
54. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-54)
55. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-55)
56. سورة الْبَقَرَةِ، الآية. [↑](#footnote-ref-56)
57. سورة الْبَقَرَةِ، الآية. [↑](#footnote-ref-57)
58. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-58)
59. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-59)
60. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-60)
61. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-61)
62. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-62)
63. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-63)
64. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-64)
65. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-65)
66. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-66)
67. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-67)
68. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-68)
69. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-69)
70. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-70)
71. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-71)
72. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-72)
73. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-73)
74. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-74)
75. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-75)
76. سورة البَقَرَة ، الآية. [↑](#footnote-ref-76)
77. سورة البَقَرَة ، الآية. [↑](#footnote-ref-77)
78. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-78)
79. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-79)
80. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-80)
81. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-81)
82. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-82)
83. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-83)
84. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-84)
85. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-85)
86. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-86)
87. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-87)
88. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-88)
89. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-89)
90. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-90)
91. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-91)
92. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-92)
93. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-93)
94. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-94)
95. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-95)
96. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-96)
97. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-97)
98. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-98)
99. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-99)
100. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-100)
101. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-101)
102. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-102)
103. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-103)
104. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-104)
105. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-105)
106. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-106)
107. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-107)
108. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-108)
109. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-109)
110. سورة البَقَرَة ، الآية. [↑](#footnote-ref-110)
111. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-111)
112. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-112)
113. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-113)
114. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-114)
115. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-115)
116. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-116)
117. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-117)
118. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-118)
119. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-119)
120. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-120)
121. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-121)
122. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-122)
123. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-123)
124. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-124)
125. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-125)
126. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-126)
127. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-127)
128. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-128)
129. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-129)
130. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-130)
131. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-131)
132. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-132)
133. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-133)
134. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-134)
135. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-135)
136. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-136)
137. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-137)
138. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-138)
139. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-139)
140. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-140)
141. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-141)
142. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-142)
143. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-143)
144. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-144)
145. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-145)
146. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-146)
147. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-147)
148. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-148)
149. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-149)
150. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-150)
151. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-151)
152. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-152)
153. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-153)
154. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-154)
155. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-155)
156. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-156)
157. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-157)
158. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-158)
159. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-159)
160. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-160)
161. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-161)
162. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-162)
163. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-163)
164. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-164)
165. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-165)
166. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-166)
167. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-167)
168. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-168)
169. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-169)
170. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-170)
171. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-171)
172. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-172)
173. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-173)
174. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-174)
175. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-175)
176. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-176)
177. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-177)
178. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-178)
179. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-179)
180. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-180)
181. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-181)
182. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-182)
183. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-183)
184. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-184)
185. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-185)
186. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-186)
187. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-187)
188. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-188)
189. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-189)
190. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-190)
191. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-191)
192. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-192)
193. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-193)
194. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-194)
195. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-195)
196. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-196)
197. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-197)
198. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-198)
199. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-199)
200. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-200)
201. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-201)
202. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-202)
203. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-203)
204. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-204)
205. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-205)
206. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-206)
207. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-207)
208. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-208)
209. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-209)
210. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-210)
211. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-211)
212. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-212)
213. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-213)
214. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-214)
215. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-215)
216. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-216)
217. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-217)
218. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-218)
219. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-219)
220. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-220)
221. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-221)
222. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-222)
223. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-223)
224. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-224)
225. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-225)
226. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-226)
227. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-227)
228. سورة ، الآية. [↑](#footnote-ref-228)
229. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-229)
230. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-230)
231. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-231)
232. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-232)
233. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-233)
234. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-234)
235. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-235)
236. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-236)
237. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-237)
238. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-238)
239. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-239)
240. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-240)
241. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-241)
242. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-242)
243. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-243)
244. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-244)
245. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-245)
246. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-246)
247. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-247)
248. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-248)
249. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-249)
250. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-250)
251. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-251)
252. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-252)
253. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-253)
254. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-254)
255. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-255)
256. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-256)
257. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-257)
258. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-258)
259. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-259)
260. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-260)
261. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-261)
262. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-262)
263. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-263)
264. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-264)
265. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-265)
266. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-266)
267. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-267)
268. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-268)
269. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-269)
270. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-270)
271. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-271)
272. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-272)
273. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-273)
274. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-274)
275. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-275)
276. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-276)
277. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-277)
278. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-278)
279. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-279)
280. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-280)
281. سورة البَقَرَة ، الآية. [↑](#footnote-ref-281)
282. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-282)
283. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-283)
284. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-284)
285. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-285)
286. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-286)
287. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-287)
288. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-288)
289. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-289)
290. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-290)
291. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-291)
292. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-292)
293. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-293)
294. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-294)
295. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-295)
296. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-296)
297. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-297)
298. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-298)
299. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-299)
300. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-300)
301. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-301)
302. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-302)
303. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-303)
304. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-304)
305. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-305)
306. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-306)
307. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-307)
308. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-308)
309. سورة البَقَرَة، الآية. [↑](#footnote-ref-309)
310. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-310)
311. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-311)
312. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-312)
313. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-313)
314. سورة البَقَرَة ، الآية . [↑](#footnote-ref-314)
315. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-315)
316. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-316)
317. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-317)
318. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-318)
319. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-319)
320. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-320)
321. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-321)
322. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-322)
323. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-323)
324. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-324)
325. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-325)
326. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-326)
327. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-327)
328. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-328)
329. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-329)
330. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-330)
331. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-331)
332. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-332)
333. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-333)
334. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-334)
335. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-335)
336. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-336)
337. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-337)
338. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-338)
339. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-339)
340. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-340)
341. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-341)
342. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-342)
343. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-343)
344. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-344)
345. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-345)
346. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-346)
347. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-347)
348. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-348)
349. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-349)
350. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-350)
351. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-351)
352. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-352)
353. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-353)
354. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-354)
355. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-355)
356. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-356)
357. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-357)
358. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-358)
359. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-359)
360. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-360)
361. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-361)
362. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-362)
363. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-363)
364. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-364)
365. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-365)
366. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-366)
367. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-367)
368. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-368)
369. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-369)
370. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-370)
371. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-371)
372. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-372)
373. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-373)
374. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-374)
375. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-375)
376. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-376)
377. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-377)
378. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-378)
379. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-379)
380. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-380)
381. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-381)
382. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-382)
383. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-383)
384. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-384)
385. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-385)
386. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-386)
387. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-387)
388. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-388)
389. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-389)
390. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-390)
391. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-391)
392. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-392)
393. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-393)
394. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-394)
395. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-395)
396. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-396)
397. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-397)
398. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-398)
399. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-399)
400. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-400)
401. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-401)
402. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-402)
403. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-403)
404. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-404)
405. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-405)
406. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-406)
407. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-407)
408. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-408)
409. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-409)
410. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-410)
411. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-411)
412. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-412)
413. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-413)
414. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-414)
415. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-415)
416. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-416)
417. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-417)
418. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-418)
419. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-419)
420. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-420)
421. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-421)
422. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-422)
423. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-423)
424. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-424)
425. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-425)
426. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-426)
427. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-427)
428. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-428)
429. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-429)
430. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-430)
431. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-431)
432. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-432)
433. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-433)
434. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-434)
435. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-435)
436. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-436)
437. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-437)
438. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-438)
439. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-439)
440. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-440)
441. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-441)
442. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-442)
443. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-443)
444. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-444)
445. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-445)
446. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-446)
447. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-447)
448. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-448)
449. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-449)
450. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-450)
451. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-451)
452. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-452)
453. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-453)
454. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-454)
455. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-455)
456. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-456)
457. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-457)
458. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-458)
459. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-459)
460. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-460)
461. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-461)
462. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-462)
463. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-463)
464. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-464)
465. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-465)
466. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-466)
467. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-467)
468. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-468)
469. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-469)
470. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-470)
471. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-471)
472. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-472)
473. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-473)
474. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-474)
475. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-475)
476. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-476)
477. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-477)
478. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-478)
479. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-479)
480. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-480)
481. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-481)
482. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-482)
483. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-483)
484. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-484)
485. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-485)
486. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-486)
487. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-487)
488. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-488)
489. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-489)
490. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-490)
491. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-491)
492. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-492)
493. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-493)
494. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-494)
495. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-495)
496. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-496)
497. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-497)
498. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-498)
499. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-499)
500. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-500)
501. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-501)
502. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-502)
503. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-503)
504. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-504)
505. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-505)
506. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-506)
507. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-507)
508. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-508)
509. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-509)
510. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-510)
511. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-511)
512. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-512)
513. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-513)
514. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-514)
515. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-515)
516. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-516)
517. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-517)
518. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-518)
519. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-519)
520. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-520)
521. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-521)
522. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-522)
523. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-523)
524. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-524)
525. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-525)
526. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-526)
527. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-527)
528. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-528)
529. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-529)
530. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-530)
531. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-531)
532. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-532)
533. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-533)
534. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-534)
535. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-535)
536. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-536)
537. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-537)
538. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-538)
539. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-539)
540. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-540)
541. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-541)
542. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-542)
543. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-543)
544. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-544)
545. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-545)
546. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-546)
547. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-547)
548. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-548)
549. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-549)
550. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-550)
551. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-551)
552. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-552)
553. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-553)
554. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-554)
555. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-555)
556. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-556)
557. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-557)
558. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-558)
559. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-559)
560. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-560)
561. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-561)
562. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-562)
563. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-563)
564. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-564)
565. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-565)
566. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-566)
567. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-567)
568. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-568)
569. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-569)
570. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-570)
571. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-571)
572. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-572)
573. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-573)
574. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-574)
575. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-575)
576. سورة البَقَرَة، الآية . [↑](#footnote-ref-576)
577. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-577)
578. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-578)
579. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-579)
580. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-580)
581. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-581)
582. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-582)
583. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-583)
584. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-584)
585. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-585)
586. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-586)
587. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-587)
588. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-588)
589. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-589)
590. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-590)
591. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-591)
592. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-592)
593. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-593)
594. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-594)
595. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-595)
596. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-596)
597. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-597)
598. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-598)
599. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-599)
600. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-600)
601. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-601)
602. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-602)
603. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-603)
604. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-604)
605. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-605)
606. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-606)
607. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-607)
608. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-608)
609. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-609)
610. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-610)
611. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-611)
612. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-612)
613. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-613)
614. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-614)
615. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-615)
616. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-616)
617. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-617)
618. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-618)
619. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-619)
620. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-620)
621. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-621)
622. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-622)
623. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-623)
624. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-624)
625. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-625)
626. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-626)
627. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-627)
628. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-628)
629. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-629)
630. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-630)
631. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-631)
632. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-632)
633. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-633)
634. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-634)
635. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-635)
636. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-636)
637. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-637)
638. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-638)
639. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-639)
640. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-640)
641. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-641)
642. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-642)
643. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-643)
644. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-644)
645. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-645)
646. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-646)
647. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-647)
648. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-648)
649. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-649)
650. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-650)
651. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-651)
652. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-652)
653. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-653)
654. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-654)
655. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-655)
656. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-656)
657. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-657)
658. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-658)
659. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-659)
660. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-660)
661. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-661)
662. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-662)
663. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-663)
664. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-664)
665. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-665)
666. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-666)
667. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-667)
668. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-668)
669. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-669)
670. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-670)
671. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-671)
672. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-672)
673. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-673)
674. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-674)
675. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-675)
676. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-676)
677. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-677)
678. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-678)
679. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-679)
680. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-680)
681. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-681)
682. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-682)
683. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-683)
684. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-684)
685. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-685)
686. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-686)
687. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-687)
688. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-688)
689. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-689)
690. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-690)
691. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-691)
692. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-692)
693. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-693)
694. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-694)
695. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-695)
696. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-696)
697. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-697)
698. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-698)
699. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-699)
700. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-700)
701. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-701)
702. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-702)
703. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-703)
704. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-704)
705. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-705)
706. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-706)
707. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-707)
708. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-708)
709. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-709)
710. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-710)
711. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-711)
712. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-712)
713. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-713)
714. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-714)
715. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-715)
716. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-716)
717. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-717)
718. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-718)
719. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-719)
720. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-720)
721. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-721)
722. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-722)
723. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-723)
724. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-724)
725. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-725)
726. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-726)
727. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-727)
728. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-728)
729. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-729)
730. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-730)
731. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-731)
732. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-732)
733. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-733)
734. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-734)
735. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-735)
736. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-736)
737. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-737)
738. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-738)
739. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-739)
740. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-740)
741. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-741)
742. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-742)
743. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-743)
744. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-744)
745. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-745)
746. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-746)
747. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-747)
748. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-748)
749. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-749)
750. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-750)
751. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-751)
752. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-752)
753. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-753)
754. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-754)
755. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-755)
756. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-756)
757. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-757)
758. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-758)
759. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-759)
760. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-760)
761. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-761)
762. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-762)
763. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-763)
764. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-764)
765. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-765)
766. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-766)
767. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-767)
768. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-768)
769. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-769)
770. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-770)
771. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-771)
772. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-772)
773. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-773)
774. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-774)
775. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-775)
776. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-776)
777. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-777)
778. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-778)
779. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-779)
780. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-780)
781. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-781)
782. سورة ، الآية . [↑](#footnote-ref-782)
783. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-783)
784. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-784)
785. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-785)
786. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-786)
787. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-787)
788. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-788)
789. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-789)
790. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-790)
791. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-791)
792. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-792)
793. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-793)
794. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-794)
795. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-795)
796. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-796)
797. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-797)
798. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-798)
799. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-799)
800. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-800)
801. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-801)
802. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-802)
803. سُورَةُ البَقَرَةِ، الآية . [↑](#footnote-ref-803)